Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK

GENERAL
LIBRARY

كتاب

عِلْمِ الأَدَب

مقالات

لِمَشَاهِيرِ العَرَبِ

على الجزء الاول

من

عِلْمِ الأَدَب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي

حق الطبع محفوظ للمطبعة

طُبع في مطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين
ببيروت سنة ١٨٨٧

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

PJ
6161
.C5
v.3

89-741
C4
v.3

AMERICAN
UNIVERSITY
OF BEIRUT

مقالات

لبعض مشاهير كتّاب العرب

في الانشاء

توطئة

فصل في حقيقة علم الادب واقسامهِ واركانهِ

البحث الاوّل

في حدّ علم الادب

(عن الزمخشريّ والجرجانيّ والحاج خلفا بتصرف)

(راجع الجزء الاوّل من علم الادب صفحة ١ من التمهيد)

عِلمُ ٱلْاَدَبِ عِلْمٌ يُحْتَرَزُ بِهِ عَنْ جَمِيعِ اَنْوَاعِ ٱلْخَطَإِ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ لَفْظًا وَكِتَابَةً. وَذٰلِكَ اَنَّ فَائِدَةَ ٱلتَّخَاطُبِ وَٱلْمُحَاوَرَاتِ فِي اِفَادَةِ ٱلْعُلُومِ وَٱسْتِفَادَتِهَا لَمَّا لَمْ تَتَبَيَّنْ لِلطَّالِبِينَ اِلَّا بِٱلْاَلْفَاظِ وَٱلْكِتَابَةِ وَاَحْوَالِهِمَا كَانَ ضَبْطُ اَحْوَالِهِمَا مِمَّا اُعْتُنِيَ بِهِ ٱلْعُلَمَاءُ. فَاسْتَخْرَجُوا مِنْ اَحْوَالِهِمَا عُلُومًا سَمَّوْهَا بِٱلْعُلُومِ ٱلْاَدَبِيَّةِ لِتَوَقُّفِ اَدَبِ ٱلدَّرْسِ عَلَيْهَا بِٱلذَّاتِ وَاَدَبِ ٱلنَّفْسِ بِٱلْوَاسِطَةِ يُتَعَرَّفُ مِنْهَا ٱلتَّفَاهُمُ عَمَّا فِي ٱلضَّمَائِرِ

252063

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARY

البحث الثاني

في تقسيم الادب وانواع العلوم الادبيَّة

(عن الوطواط والجرجاني)

(راجع صفحة ٢ و٣ من تمهيد علم الادب)

اَلْاَدَبُ نَوْعَانِ نَفْسِيٌّ وَكَسْبِيٌّ . فَالنَّفْسِيُّ بِتَوْفِيقِ اللهِ يَهَبُهُ لِمَنْ يُرِيدُ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ الْاَفْعَالِ الدَّالَّةِ عَلَى كَرَمِ الطِّبَاعِ . وَالْكَسْبِيُّ مَا اسْتَفَادَتْهُ الْاَنْفُسُ مِنْ مَحَاسِنِ الْاَقْوَالِ الْآخِذَةِ بِاَعِنَّةِ الْقُلُوبِ وَالْاَسْمَاعِ وَهُوَ الَّذِي تَرْجَمْتُ عَلَيْهِ فِي هٰذَا الْمَوْضِعِ لِيَقَعَ ذِكْرُهُ فِي النُّفُوسِ اَحْسَنَ مَوْقِعٍ اِتَرْمُقُهُ لِاَجْلِهِ الْعُيُونُ بِالْاِجْلَالِ وَتَتَحَمَّلَ النُّفُوسُ بِهِ لِمَيْلِهَا اِلَيْهِ بِتَتَابُعِ الْاِدْلَالِ

وَاَمَّا تَقْسِيمُ الْاَدَبِ الْكَسْبِيِّ فَاِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي اَقْسَامِهِ فَذَكَرَ ابْنُ الْاَنْبَارِيِّ اَنَّهَا ثَمَانِيَةٌ وَقَسَّمَهُ الْعَلَّامَةُ الْجُرْجَانِيُّ اِلَى اثْنَيْ عَشَرَ قِسْمًا قَالَ : لِعِلْمِ الْاَدَبِ اُصُولٌ وَفُرُوعٌ . اَمَّا الْاُصُولُ فَالْبَحْثُ فِيهَا : (١) اِمَّا (عَنِ الْمُفْرَدَاتِ) مِنْ حَيْثُ جَوَاهِرِهَا وَمَوَادِّهَا وَهَيْئَاتِهَا فَعِلْمُ اللُّغَةِ . اَوْ مِنْ حَيْثُ صُوَرِهَا وَهَيْئَاتِهَا فَقَطْ فَعِلْمُ الصَّرْفِ . اَوْ مِنْ حَيْثُ انْتِسَابِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ بِالْاَصَالَةِ وَالْفَرْعِيَّةِ فَعِلْمُ الْاِشْتِقَاقِ . (٢) وَاِمَّا (عَنِ الْمُرَكَّبَاتِ عَلَى الْاِطْلَاقِ) . فَاِمَّا بِاعْتِبَارِ هَيْئَاتِهَا التَّرْكِيبِيَّةِ وَتَاَدِّيَتِهَا لِمَعَانِيهَا الْاَصْلِيَّةِ فَعِلْمُ النَّحْوِ . وَاِمَّا بِاعْتِبَارِ اِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ مُغَايِرَةٍ لِاَصْلِ الْمَعْنَى فَعِلْمُ الْمَعَانِي . وَاِمَّا بِاعْتِبَارِ كَيْفِيَّةِ تِلْكَ الْاِفَادَةِ فِي مَرَاتِبِ الْوُضُوحِ فَعِلْمُ

ٱلْبَيَانِ. وَعِلْمُ ٱلْبَدِيعِ ذَيْلٌ لِعِلْمَيِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ دَاخِلٌ تَحْتَهُمَا. (٣) وَإِمَّا (عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ ٱلْمَوْزُونَةِ). فَإِمَّا مِنْ حَيْثُ وَزْنِهَا فَعِلْمُ ٱلْعَرُوضِ أَوْ مِنْ حَيْثُ أَوَاخِرِهَا فَعِلْمُ ٱلْقَوَافِي

وَأَمَّا ٱلْفُرُوعُ فَٱلْبَحْثُ فِيهَا إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِنُقُوشِ ٱلْكِتَابَةِ فَعِلْمُ ٱلْخَطِّ أَوْ يَخْتَصُّ بِٱلْمَنْظُومِ فَٱلْعِلْمُ ٱلْمُسَمَّى بِقَرْضِ ٱلشِّعْرِ. أَوْ بِٱلنَّثْرِ فَعِلْمُ ٱلْإِنْشَاءِ. أَوْ لَا يَخْتَصُّ بِشَيْءٍ فَعِلْمُ ٱلْمُحَاضَرَاتِ وَمِنْهُ ٱلتَّوَارِيخُ

البحث الثالث

في موضوع علم الادب واركانهِ

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٣ من تمهيد علم الادب)

هٰذَا ٱلْعِلْمُ لَا مَوْضُوعَ لَهُ يُنْظَرُ فِي إِثْبَاتِ عَوَارِضِهِ أَوْ نَفْيِهَا وَإِنَّمَا ٱلْمَقْصُودُ مِنْهُ عِنْدَ أَهْلِ ٱللِّسَانِ ثَمَرَتُهُ وَهِيَ ٱلْإِجَادَةُ فِي فَنَّيِ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ عَلَى أَسَالِيبِ ٱلْعَرَبِ وَمَنَاحِيهِمْ. فَيَجْمَعُونَ لِذٰلِكَ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ مَا عَسَاهُ تَحْصُلُ بِهِ ٱلْكَلِمَةُ مِنْ شِعْرٍ عَالِي ٱلطَّبَقَةِ وَسَجْعٍ مُتَسَاوٍ فِي ٱلْإِجَادَةِ وَمَسَائِلَ مِنَ ٱللُّغَةِ وَٱلنَّحْوِ مَبْثُوثَةٍ أَثْنَاءَ ذٰلِكَ مُتَفَرِّقَةٍ يَسْتَقْرِي مِنْهَا ٱلنَّاظِرُ فِي ٱلْغَالِبِ مُعْظَمَ قَوَانِينِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مَعَ ذِكْرِ بَعْضٍ مِنْ أَيَّامِ ٱلْعَرَبِ لِيُفْهَمَ بِهِ مَا يَقَعُ فِي أَشْعَارِهِمْ مِنْهَا وَكَذٰلِكَ ذِكْرُ ٱلْمُهِمِّ مِنَ ٱلْأَنْسَابِ ٱلشَّهِيرَةِ وَٱلْأَخْبَارِ ٱلْعَامَّةِ. وَٱلْمَقْصُودُ بِذٰلِكَ كُلِّهِ أَنْ لَا يَخْفَى عَلَى ٱلنَّاظِرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَأَسَالِيبِهِمْ

ومناحي بلاغتهم اذا تصفّحه . لأنّه لا تحصل الملكة من حفظه الّا بعد فهمه فيحتاج الى تقديم جميع ما يتوقّف عليه فهمه . ثمّ انّهم اذا ارادوا حدّ هذا الفنّ قالوا : الأدب هو حفظ اشعار العرب واخبارها والأخذ من كلّ علم بطرف يريدون من علوم اللسان او العلوم الشرعيّة من حيث متونها فقط اذ لا مدخل بغير ذلك من العلوم في كلام العرب الّا ما ذهب اليه المتأخّرون عند كلفهم بصناعة البديع من التوريّة في اشعارهم وترسّلهم بالاصطلاحات العلميّة. فاحتاج صاحب هذا الفنّ الى اصطلاحات العلوم ليكون قائمًا على فهمها : وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم انّ اصول هذا الفنّ وأركانه اربعة دواوين وهي : ادب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرّد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي عليّ القالي البغداديّ وما سوى هذه الاربعة فتبع لها وفرع عنها وكتب المحدثين في ذلك كثيرة . وكان الغناء في الصدر الأوّل من اجزاء هذا الفنّ لما هو تابع للشعر اذ الغناء انّما هو تلحينه . وكان الكتّاب والفضلاء من الخواصّ في الدولة العبّاسيّة يأخذون انفسهم به حرصًا على تحصيل اساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله قادحًا في العدالة والمروءة وقد ألّف القاضي ابو الفرج الاصبهانيّ كتابه في الاغاني جمع فيه اخبار العرب واشعارهم وانسابهم وايّامهم ودولهم. وجعل مبناه على الغناء في المائة صوتًا الّتي اختارها المغنّون للرشيد فاستوعب فيه ذلك اتمّ استيعاب وادناه . ولعمري

اِنَّهُ دِيوَانُ ٱلْعَرَبِ وَجَامِعُ اَشْتَاتِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلتَّأْرِيخِ وَٱلْغِنَاءِ وَسَائِرِ ٱلْاَحْوَالِ . وَلَا يُعْدَلُ بِهِ كِتَابٌ فِي ذٰلِكَ فِيمَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ ٱلَّتِي يَسْمُو اِلَيْهَا ٱلْاَدَبُ وَيَقِفُ عِنْدَهَا

البحث الرابع

في شرف الادب ومنافعهِ

(عن الثعالبي وابن عبد ربّهِ والوطواط)

(راجع صفحة ٢ من تمهيد علم الادب)

قَالَ اَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلرَّجُلُ بِلَا اَدَبٍ شَخْصٌ بِغَيْرِ آلَةٍ وَجَسَدٌ بِلَا رُوحٍ . وَقِيلَ : ٱلْاَدَبُ اَكْرَمُ ٱلْجَوَاهِرِ طَبِيعَةً وَاَنْفَسُهَا قِيمَةً فَاطْلُبُوهُ فَاِنَّهُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلنَّبَاهَةِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَدَلِيلٌ عَلَى ٱلْمُرُوءَةِ وَمَنْبِهَةٌ لِلرَّأْيِ وَلِلصَّوَابِ وَصَاحِبٌ فِي ٱلْغُرْبَةِ وَاَنِيسٌ فِي ٱلْوَحْدَةِ وَجَمَالٌ فِي ٱلْمَحَافِلِ وَصِلَةٌ فِي ٱلْمَجَالِسِ . وَاِذَا اَكْرَمَكَ ٱلنَّاسُ لِمَالٍ اَوْ سُلْطَانٍ فَلَا يُعْجِبْكَ ذٰلِكَ فَاِنَّ ٱلْكَرَامَةَ تَزُولُ بِزَوَالِهِمَا وَلْيُعْجِبْكَ اِذَا اَكْرَمُوكَ لِدِينٍ اَوْ اَدَبٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

اِذَا ٱلْفَتَى فَاتَهُ مَالٌ يُجَمِّلُهُ فَفِي ٱلتَّاَدُّبِ مِمَّا فَاتَهُ خَلَفُ
هُوَ ٱللِّبَاسُ ٱلَّذِي لَا شَيْءَ يَعْدِلُهُ وَٱلْمَفْخَرُ ٱلدِّينُ فِيهِ ٱلْفَضْلُ وَٱلشَّرَفُ

قَالَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ لِبَنِيهِ : تَاَدَّبُوا فَاِنْ كُنْتُمْ مُلُوكًا بَرَزْتُمْ وَاِنْ كُنْتُمْ اَوْسَاطًا فُقْتُمْ وَاِنْ اَعْوَزَكُمُ ٱلْمَعَاشُ عِشْتُمْ . وَقِيلَ : اِنَّ ٱلْاَدَبَ يُفِيدُ ٱلرَّغَائِبَ ٱلْجَلِيلَةَ وَيُعِزُّ بِلَا عَشِيرَةٍ وَيُكْثِرُ ٱلْاَنْصَارَ لِغَيْرِ

رَزِيَّةٍ . قَالَ بَزْرَجْمِهْرُ : مَنْ كَثُرَ اَدَبُهُ كَثُرَ شَرَفُهُ وَاِنْ كَانَ وَضِيعًا . وَبَعُدَ صِيتُهُ وَاِنْ كَانَ خَامِلاً . وَسَادَ وَاِنْ كَانَ غَرِيبًا وَكَثُرَتْ حَوَائِجُ ٱلنَّاسِ اِلَيْهِ وَاِنْ كَانَ فَقِيرًا . وَقَالُوا : مَنْ دَأَبَ فِي طَرِيقِ ٱلْاَدَبِ اَدْرَكَ حَاجَتَهُ وَمَلَكَ نَاصِيَتَهُ وَنَبُلَ قَدْرُهُ وَنَبُهَ ذِكْرُهُ . يَنُوبُ ٱلْاَدَبُ عَنِ ٱلنَّسَبِ وَلَا يَنْفَعُ نَسَبٌ بِلَا اَدَبٍ وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ :

كَمْ مِنْ خَسِيسٍ وَضِيعِ ٱلْقَدْرِ لَيْسَ لَهُ ... فِي ٱلْعِزِّ بَيْتٌ وَلَا يُنْمَى اِلَى نَسَبِ
قَدْ صَارَ بِٱلْاَدَبِ ٱلْمَحْمُودِ ذَا شَرَفٍ ... غَالٍ وَذَا حَسَبٍ مَحْضٍ وَذَا نَشَبِ
يُعْلِي ٱلتَّأَدُّبُ اَقْوَامًا وَيَرْفَعُهُمْ ... حَتَّى يُسَاوُوا ذَوِي ٱلْعَلْيَاءِ فِي ٱلرُّتَبِ

وَمَا اَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِ ٱلْاَعَاجِمِ يَفْتَخِرُ وَيَعْتَذِرُ :

مَالِيَ عَقْلِي وَهِمَّتِي حَسَبِي ... مَا اَنَا مَوْلًى وَلَا اَنَا عَرَبِي
وَاِذَا ٱنْتَمَى مُنْتَمٍ اِلَى اَحَدٍ ... فَاِنَّنِي مُنْتَمٍ اِلَى اَدَبِي

فَٱلْبَسُوا اِذًا ٱلْاَدَبَ حُلَّةً وَتَزَيَّنُوهُ حِلْيَةً فَاِنَّهُ اَنْفَقُ مَعَاشٍ وَاَجْمَلُ رِيَاشٍ اِنِ ٱحْتَجْتُمْ اِلَيْهِ كَانَ لَكُمْ مَالًا وَاِنِ ٱسْتَغْنَيْتُمْ عَنْهُ كَانَ لَكُمْ حَمَالًا

فصلٌ في قوى العقل الغريزيَّة

البحث الاوَّل

في العقل وشرفهِ واصل تسميتهِ وتقسيمهِ

(عن الماوردي باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٣ من توطئة علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ لِكُلِّ فَضِيلَةٍ اُسًّا وَلِكُلِّ اَدَبٍ يَنْبُوعًا . وَاُسُّ اَلْفَضَائِلِ وَيَنْبُوعُ اَلْآدَابِ هُوَ اَلْعَقْلُ اَلَّذِي جَعَلَهُ اَللهُ تَعَالَى لِلدِّينِ اَصْلًا وَلِلدُّنْيَا عِمَادًا فَاَوْجَبَ اَلدِّينَ بِكَمَالِهِ وَجَعَلَ اَلدُّنْيَا مُدَبَّرَةً بِاَحْكَامِهِ وَاَلَّفَ بِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ مَعَ اَخْتِلَافِ هِمَمِهِمْ وَمَآرِبِهِمْ . قَالَ بَعْضُ اَلْبُلَغَاءِ : اَلْعَقْلُ خَيْرُ اَلْمَوَاهِبِ وَاَلْجَهْلُ شَرُّ اَلْمَصَائِبِ . قَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ حَسَّانَ :

يَزِينُ اَلْفَتَى فِي اَلنَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ وَاِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهْ
يَشِينُ اَلْفَتَى فِي اَلنَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ وَاِنْ كَرُمَتْ اَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهْ
يَعِيشُ اَلْفَتَى بِاَلْعَقْلِ فِي اَلنَّاسِ اِنَّهُ عَلَى اَلْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ
وَاَفْضَلُ قَسْمِ اَللهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ فَلَيْسَ مِنَ اَلْاَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ
اِذَا اَكْمَلَ اَلرَّحْمَانُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ فَقَدْ كَمُلَتْ اَخْلَاقُهُ وَمَآرِبُهْ

وَقَالَ مُطَرِّفٌ : مَا اُوتِيَ اَلْعَبْدُ بَعْدَ اَلْاِيمَانِ بِاَللهِ تَعَالَى اَفْضَلَ مِنَ اَلْعَقْلِ . وَيُقَالُ : مَا تَمَّ دِينُ اَمْرِئٍ حَتَّى يَتِمَّ عَقْلُهُ . قَالَ بُزُرْجُمِهْرُ : اَلْعَقْلُ كَالْمِسْكِ اِنْ خَبَأْتَهُ عَبَقَ وَاِنْ بِعْتَهُ نَفَقَ . وَقَالُوا : اَلْعَقْلُ كَنُورٍ وَضَعَهُ اَللهُ طَبْعًا وَغَرَزَهُ فِي اَلْقَلْبِ كَالنُّورِ فِي اَلْعَيْنِ وَهُوَ اَلْبَصَرُ .

وَكَمَا يُدْرَكُ بِٱلْبَصَرِ شَوَاهِدُ ٱلْأُمُورِ كَذٰلِكَ يُدْرَكُ بِنُورِ ٱلْعَقْلِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمَحْجُوبِ وَٱلْمَسْتُورِ. وَعَمَى ٱلْقَلْبِ كَعَمَى ٱلْبَصَرِ. قَالَ بَزَرْجُمِهْرُ: ٱلْإِنْسَانُ صُورَةٌ فِيهَا عَقْلٌ فَإِنْ أَخْطَأَهُ ٱلْعَقْلُ وَلَزِمَتْهُ ٱلصُّورَةُ فَلَيْسَ بِإِنْسَانٍ. قَالَ ٱلْمُتَنَبِّي:

لَوْلَا ٱلْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْغَمٍ أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ

وَسُمِّيَ ٱلْعَقْلُ عَقْلاً تَشْبِيهًا بِعَقْلِ ٱلنَّاقَةِ (١) لِأَنَّ ٱلْعَقْلَ يَمْنَعُ ٱلْإِنْسَانَ مِنَ ٱلْإِقْدَامِ عَلَى شَهَوَاتِهِ إِذَا قَبُحَتْ كَمَا يَمْنَعُ ٱلْعَقْلُ ٱلنَّاقَةَ مِنَ ٱلشُّرُودِ إِذَا نَفَرَتْ. وَلِذٰلِكَ قَالَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ: إِذَا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عَمَّا لَا يَنْبَغِي فَأَنْتَ عَاقِلٌ

البحث الثاني

في تقسيم العقل الى غريزيّ ومكتسَب

(عن الوطواط والماوردي)

إِعْلَمْ أَنَّ بِٱلْعَقْلِ تُعْرَفُ حَقَائِقُ ٱلْأُمُورِ وَيُفْصَلُ بَيْنَ ٱلْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ وَقَدْ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ غَرِيزِيٌّ وَمُكْتَسَبٌ. قَالَ ٱلْعُتْبِيُّ: ٱلْعَقْلُ عَقْلَانِ عَقْلٌ تَفَرَّدَ ٱللّٰهُ بِصَنْعِهِ وَهُوَ ٱلْأَصْلُ. وَعَقْلٌ يَسْتَفِيدُهُ ٱلْمَرْءُ بِهِ وَهُوَ ٱلْفَرْعُ فَإِذَا ٱجْتَمَعَا قَوَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ تَقْوِيَةَ ٱلنَّارِ فِي ٱلظُّلْمَةِ. وَلِذٰلِكَ قَالَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:

رَأَيْتُ ٱلْعَقْلَ عَقْلَيْنِ فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعُ

---

١ يُقال عَقَل الناقة عقلًا اي ربطها في وسط ذراعها بحبل ويُسمَّى الحبل عقالًا

فَلَا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعُ
كَمَا لَا تَنْفَعُ ٱلشَّمْسُ وَضَوْءُ ٱلْعَيْنِ مَمْنُوعُ *

البحث الثالث

في العقل الغريزيّ وتعريفهِ

(عن الماوردي باختصار)

إِنَّ ٱلْعَقْلَ ٱلْغَرِيزِيَّ هُوَ ٱلْعَقْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ وَلَهُ حَدٌّ يَتَعَلَّقُ بِهِ ٱلتَّكْلِيفُ لَا يُجَاوِزُهُ إِلَى زِيَادَةٍ وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ إِلَى نُقْصَانٍ . وَبِهِ

* قد قسّم القزويني القوى العقلية الى اربعة اقسام مرجعها الى هذين القسمين قال: القوى العقلية اربعة اقسام. (الاول) القوة التي بها يفارق الانسان البهائم وهي التي بها استعدّ لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الفكريّة فيقال انها القوة الغريزيّة بها يستعدّ الانسان لادراك العلوم النظريّة. فكما ان الحياة هي الجسم للحركات الاختياريّة والادراكات الحسيّة فكذلك هذه القوّة الغريزيّة تهيئة الانسان للعلوم النظريّة والصناعات الفكريّة والحكماء يقولون لها العقل الهيولاني وهي مجرّد الاستعداد الذي هو موجود في الطفل وغير موجود في ولد البهيمة. (الثاني) القوّة التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميّز جواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين اكثر من الواحد والشخص الواحد لا يكون في مكانين فيقال له التصوّرات والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة والحكماء يسمونهُ العقل بالملكة. (والثالث) قوّة تحصل بها العلوم المستفادة من التجارب بمجاري الاحوال فمن اتّصف بها يقال انهُ عاقل في العادة ومن لم يتّصف بها يقال انهُ غبيٌّ غمر. فيقال لها معانٍ مجتمعة في الذهن من مقدّمات تستنبط بها المصالح في الاعراض. (والرابع) قوّة بها تُعرف حقائق الامور وعواقبها فتقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة وتحتمل المكروه العاجل لسلامة الآجل. فاذا حصلت هذه القوّة يسمّى صاحبها عاقلًا من حيث ان اقدامهُ واحجامهُ بحسب ما يقتضيهِ النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة. والأوّلان بالطبع والأخيران بالاكتساب

يمتاز الانسان عن سائر الحيوان فاذا تمّ في الانسان سمّي عاقلًا وخرج به الى حدّ الكمال كما قال صالح بن عبد القدّوس :

اذا تمّ عقل المرء تمّت اموره وتمّت امانيه وتمّ بناؤه

واختلف الناس في حدّ العقل وفي صفته على مذاهب شتّى فقال قوم : هو جوهر لطيف يفصل به بين الحقائق المعلومات .. وهذا القول في العقل بانّه جوهر لطيف فاسد من وجهين : (احدهما) انّ الجواهر متماثلة فلا يصحّ ان يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها ولو اوجب سائرها ما يوجب بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله(١) . (والثاني) انّ الجوهر يصحّ قيامه بذاته فلو كان العقل جوهرًا لجاز ان يكون عقل بغير عاقل كما جاز ان يكون جسم بغير عقل . فامتنع بهذين ان يكون العقل جوهرًا . وقال آخرون : العقل هو المدرك للاشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى . وهذا القول وان كان اقرب مما قبله فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو : انّ الادراك من صفات الحيّ (٢) والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل ان يكون متلذذًا او آلمًا او مشتهيًا (٣) . وقال آخرون من

(١) يريد انهُ لو كان العقل جوهراً مختلفاً عن جوهر النفس ملازماً لها لاتّفقا في جميع اجزائها لان النفس والعقل بسيطان متماثلان في ذلك واذا تمّ الاتفاق كان جوهر النفس وجوهر العقل واحدًا فيستغني الانسان عن عقلهِ بوجود نفسهِ وهذا باطلٌ

(٢) يريد هنا بالادراك على ما حدّهُ الحكماء تمثيل حقيقة الشيء وحدهُ من غير حكم عليهِ او اثبات ويُسمّى ايضاً التصوُّر وهذا يعمُّ كل حيّ لا يختص بالانسان فقط

(٣) اي ان العقل لا يمكنهُ ادراك هذه الجزئيات كما يستحيل عليهِ ان يكون ملتذذاً او آلماً او مشتهياً . لان اللذّة والألم والشهوة من الانفعالات الطارئة على المركّب

ٱلْمُتَكَلِّمِينَ : ٱلْعَقْلُ هُوَ جُمْلَةُ عُلُومٍ ضَرُورِيَّةٍ . وَهٰذَا ٱلْحَدُّ غَيْرُ مَحْصُورٍ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ ٱلْإِجْمَالِ وَيَتَأَوَّلُهُ مِنَ ٱلْاِحْتِمَالِ . وَٱلْحَدُّ إِنَّمَا هُوَ بَيَانُ ٱلْمَحْدُودِ بِمَا يَنْفِي عَنْهُ ٱلْإِجْمَالَ وَٱلْاِحْتِمَالَ . وَقَالَ آخَرُونَ وَهُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلصَّحِيحُ : إِنَّ ٱلْعَقْلَ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ . وَذٰلِكَ نَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا مَا وَقَعَ عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ وَٱلثَّانِي مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ . فَأَمَّا مَا كَانَ وَاقِعًا عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ فَمِثْلُ ٱلْمَرْئِيَّاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلنَّظَرِ وَٱلْأَصْوَاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلسَّمْعِ وَٱلطُّعُومِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلذَّوْقِ وَٱلرَّوَائِحِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلشَّمِّ وَٱلْأَجْسَامِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱللَّمْسِ . فَإِذَا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ مِمَّنْ لَوْ أَدْرَكَ بِحَوَاسِّهِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ ثَبَتَ لَهُ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ . لِأَنَّ خُرُوجَهُ فِي حَالِ تَغْمِيضِ عَيْنَيْهِ عَنْ أَنْ يُدْرِكَ بِهِمَا وَيَعْلَمَ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَامِلَ ٱلْعَقْلِ مِنْ حَيْثُ عَلِمَ مِنْ حَالِهِ أَنْ لَوْ أَدْرَكَ لَعَلِمَ . وَأَمَّا مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ فَكَٱلْعِلْمِ بِأَنَّ ٱلشَّيْءَ لَا يَخْلُو مِنْ وُجُودٍ أَوْ عَدَمٍ . وَأَنَّ ٱلْمَوْجُودَ لَا يَخْلُو مِنْ حُدُوثٍ أَوْ قِدَمٍ . وَأَنَّ مِنَ ٱلْمُحَالِ ٱجْتِمَاعَ ٱلضِّدَّيْنِ . وَأَنَّ ٱلْوَاحِدَ أَقَلُّ مِنَ ٱلْاِثْنَيْنِ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَفِيَ عَنِ ٱلْعَاقِلِ مَعَ سَلَامَةِ حَالِهِ وَكَمَالِ عَقْلِهِ . فَإِذَا صَارَ عَالِمًا بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ فَهُوَ كَامِلُ ٱلْعَقْلِ

الانساني . ولإدراك العقل يقتضي ان تجرَّد مادَّتهُ عن المحسوسات وهذا ما يصنعهُ العقل بالفعل فتنتقل المفردات بذلك الى حالة الكليَّات

البحث الرابع

في العقل المكتسب

(عن الماوردي)

اِنَّ ٱلْعَقْلَ ٱلْمُكْتَسَبَ هُوَ نَتِيجَةُ ٱلْعَقْلِ ٱلْغَرِيزِيِّ وَهُوَ نِهَايَةُ ٱلْمَعْرِفَةِ وَصِحَّةِ ٱلسِّيَاسَةِ وَاِصَابَةِ ٱلْفِكْرَةِ وَلَيْسَ لِهٰذَا حَدٌّ لِاَنَّهُ يَنْمِي اِنِ ٱسْتُعْمِلَ وَيَنْقُصُ اِنْ اُهْمِلَ . وَنَمَاؤُهُ يَكُونُ بِاَحَدِ وَجْهَيْنِ : (ٱلْوَجْهُ ٱلْاَوَّلُ) بِكَثْرَةِ ٱلْاِسْتِعْمَالِ اِذَا لَمْ يُعَارِضْهُ مَانِعٌ مِنْ هَوًى وَلَاصَادٌّ مِنْ شَهْوَةٍ كَٱلَّذِي يَحْصُلُ لِذَوِي ٱلْاَسْنَانِ مِنَ ٱلْخُنْكَةِ وَصِحَّةِ ٱلرَّوِيَّةِ لِكَثْرَةِ ٱلتَّجَارِبِ وَمُمَارَسَةِ ٱلْاُمُورِ . وَلِذٰلِكَ حَمِدَتِ ٱلْعَرَبُ آرَاءَ ٱلشُّيُوخِ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلْمَشَايِخُ اَشْجَارُ ٱلْوَقَارِ . وَمَنَاجِعُ ٱلْاَخْبَارِ . لَا يَطِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ . وَلَا يَسْقُطُ لَهُمْ وَهْمٌ . اِنْ رَاَوْكَ فِي قَبِيحٍ صَدُّوكَ . وَاِنْ اَبْصَرُوكَ عَلَى جَمِيلٍ اَمَدُّوكَ . وَقِيلَ : عَلَيْكُمْ بِآرَاءِ ٱلشُّيُوخِ فَاِنَّهُمْ اِنْ فَقَدُوا ذَكَاءَ ٱلطَّبْعِ فَقَدْ مَرَّتْ عَلَى عُيُونِهِمْ وُجُوهُ ٱلْعِبَرِ . وَتَصَدَّتْ لِاَسْمَاعِهِمْ آثَارُ ٱلْغِيَرِ . وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ : مَنْ طَالَ عُمْرُهُ نَقَصَتْ قُوَّةُ بَدَنِهِ وَزَادَتْ قُوَّةُ عَقْلِهِ : وَقَالَ فِيهِ : لَا تَدَعُ ٱلْاَيَّامُ جَاهِلًا اِلَّا اَدَّبَتْهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : كَفَى بِٱلتَّجَارِبِ تَاَدُّبًا وَبِتَقَلُّبِ ٱلْاَيَّامِ عِظَةً . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱلتَّجْرِبَةُ مِرْآةُ ٱلْعَقْلِ . وَٱلْغِرَّةُ ثَمَرَةُ ٱلْجَهْلِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْاُدَبَاءِ : كَفَى مُخْبِرًا عَمَّا بَقِيَ مَا مَضَى وَكَفَى عِبَرًا لِاُولِي ٱلْاَلْبَابِ مَا جَرَّبُوا . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

اَلَمْ تَرَ اَنَّ اَلْعَقْلَ زَيْنٌ لِاَهْلِهِ وَلٰكِنْ تَمَامُ اَلْعَقْلِ طُولُ اَلتَّجَارِبِ

وَقَالَ آخَرُ :

اِذَا طَالَ عُمْرُ اَلْمَرْءِ فِي غَيْرِ آفَةٍ اَفَادَتْ لَهُ اَلْاَيَّامُ فِي كَرِّهَا عَقْلَا

(وَاَمَّا اَلْوَجْهُ اَلثَّانِي) فَقَدْ يَكُونُ بِفَرْطِ اَلذَّكَاءِ وَحُسْنِ اَلْفِطْنَةِ وَذٰلِكَ جُودَةُ اَلْحَدْسِ فِي زَمَانٍ غَيْرِ مُهْمَلٍ لِلْحَدْسِ . فَاِذَا اَمْتَزَجَ بِاَلْعَقْلِ اَلْغَرِيزِيِّ صَارَتْ نَتِيجَتُهُمَا نُمُوَّ اَلْعَقْلِ اَلْمُكْتَسَبِ . كَالَّذِي يَكُونُ فِي اَلْاَحْدَاثِ مِنْ وُفُورِ اَلْعَقْلِ وَجُودَةِ اَلرَّأْيِ حَتَّى قَالَ هَرِمُ بْنُ قُطْبَةَ حِينَ تَنَافَرَ اِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ اَلطُّفَيْلِيِّ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَلَاثَةَ : عَلَيْكُمْ بِاَلْحَدِيثِ اَلسِّنِّ . اَلْحَدِيدِ اَلذِّهْنِ . وَلَعَلَّ هَرِمًا اَرَادَ اَنْ يَدْفَعَهُمَا عَنْ نَفْسِهِ فَاَعْتَذَرَ بِمَا قَالَ . لٰكِنْ لَمْ يُنْكِرَا قَوْلَهُ اِذْعَانًا لِلْحَقِّ فَصَارَا اِلَى اَبِي جَهْلٍ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ وَحِدَّةِ ذِهْنِهِ . فَاَبَى اَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمَا فَرَجَعَا اِلَى هَرِمٍ فَحَكَمَ بَيْنَهُمَا . وَفِيهِ قَالَ لَبِيدٌ :

يَاهَرِمُ اَبْنَ اَلْاَكْرَمِينَ مَنْصِبا اِنَّكَ قَدْ اُوتِيتَ حُكْمًا مُعْجِبَا

وَقَدْ قَالَتِ اَلْعَرَبُ : عَلَيْكُمْ بِمُشَاوَرَةِ اَلشَّبَابِ فَاِنَّهُمْ يُنْتِجُونَ رَأْيًا لَمْ يَنَلْهُ طُولُ اَلْقِدَمِ . وَلَا اَسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ رُطُوبَةُ اَلْهَرَمِ . وَقَدْ قَالَ اَلشَّاعِرُ :

رَاَيْتُ اَلْعَقْلَ لَمْ يَكُنِ اَنْتِهَابًا وَلَمْ يُقْسَمْ عَلَى عَدَدِ اَلسِّنِينَا

وَلَوْ اَنَّ اَلسِّنِينَ تَقَاسَمَتْهُ حَوَى اَلْاَبَاءُ اَنْصِبَةَ اَلْبَنِينَا

وَحَكَى اَلْاَصْمَعِيُّ قَالَ : قُلْتُ لِغُلَامٍ حَدَثٍ مِنْ اَوْلَادِ اَلْعَرَبِ كَانَ يُحَادِثُنِي فَاَمْتَعَنِي بِفَصَاحَةٍ وَمَلَاحَةٍ : اَيَسُرُّكَ اَنْ يَكُونَ لَكَ

مِئَةُ اَلْفِ دِرْهَمٍ وَاَنتَ اَحْمَقُ . قَالَ : لَا . قَالَ : فَقُلْتُ : وَلِمَ . قَالَ : اَخَافُ اَنْ يَجْنِيَ عَلَيَّ حُمْقِي جِنَايَةً تَذْهَبُ بِمَالِي وَيَبْقَى عَلَيَّ حُمْقِي . فَانْظُرْ اِلَى هٰذَا الصَّبِيِّ كَيْفَ اسْتَخْرَجَ بِفَرْطِ ذَكَائِهِ وَاسْتَنْبَطَ بِجُودَةِ قَرِيحَتِهِ مَا لَعَلَّهُ يَدِقُّ عَلَى مَنْ هُوَ اَكْبَرُ مِنْهُ سِنًّا وَاَكْثَرُ تَجْرِبَةً . وَاَحْسَنُ مِنْ هٰذَا الذَّكَاءِ وَالْفِطْنَةِ مَا حَكَى ابْنُ قُتَيْبَةَ : اِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مَرَّ بِصِبْيَانٍ يَلْعَبُونَ وَفِيهِمْ عَبْدُاللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فَهَرَبُوا مِنْهُ اِلَّا عَبْدَاللهِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : مَا لَكَ لَا تَهْرُبُ مَعَ اَصْحَابِكَ . فَقَالَ : يَا اَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ اَكُنْ عَلَى رِيبَةٍ فَاَخَافَكَ وَلَمْ يَكُنِ الطَّرِيقُ ضَيِّقًا فَاُوسِعَ لَكَ . فَانْظُرْ مَا تَضَمَّنَهُ هٰذَا الْجَوَابُ مِنَ الْفِطْنَةِ وَقُوَّةِ الْمِنَّةِ وَحُسْنِ الْبَدِيهَةِ كَيْفَ نَفَى عَنْهُ اللَّوْمَ وَاَثْبَتَ لَهُ الْحُجَّةَ فَلَيْسَ لِلذَّكَاءِ غَايَةٌ . وَلَا لِجُودَةِ الْقَرِيحَةِ نِهَايَةٌ

البحث الخامس

في التصوُّر والتمثُّل

(من كتاب زجر النفس لهرمس)

يَا نَفْسُ اِنَّ مُبْدِعَ الْاَشْيَاءِ وَمُنْشِئَهَا جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ اَسْمَاؤُهُ اَبْدَعَكِ وَجَعَلَكِ ذَاتَ التَّصَوُّرِ وَالتَّمَثُّلِ . فَاَمَّا التَّصَوُّرُ فَتَصَوُّرُكِ الشَّيْءَ عَلَى حَقِيقَةِ مَا اَبْدَعَهُ مُبْدِعُهُ . وَاَمَّا التَّمَثُّلُ فَتَمَثُّلُكِ مَا خَفِيَ عَنْكِ مِنْ عَالَمِ الْعَقْلِ بِمَا شَاهَدْتِهِ فِي عَالَمِ الْحِسِّ مِثْلًا بِمِثْلٍ وَمَعْنًى بِمَعْنًى كَمَا اَنْ تَدُلَّ ذَاتُ الصُّورَةِ الْمَطْبُوعَةِ فِي الشَّمَعِ عَلَى مَعْنَاهَا وَحَقِيقَتِهَا فِي الطَّابِعِ وَكَمَا تَدُلُّ الصُّورَةُ الْمُمَثَّلَةُ فِي الطَّابِعِ عَلَى مَعْنَى حَقِيقَتِهَا فِي نَفْسِ مُمَثِّلِهَا وَمُصَوِّرِهَا وَكَمَا يُؤَثِّرُ الْمَاءُ فِي الرَّمْلِ مَعَانِيَ حَرَكَاتِهِ وَتَمَوُّجِهِ

البحث السادس

الخيال والخيالي

(عن الحاج خلفا بتصرُّف)

(راجع صفحة ٥ من توطئة علم الادب)

اَلْخَيَالُ فِي اَللُّغَةِ بِمَعْنَى اَلشَّخْصِ وَعِنْدَ اَلْحُكَمَاءِ يُطْلَقُ عَلَى اِحْدَى اَلْحَوَاسِّ اَلْبَاطِنَةِ. وَهُوَ قُوَّةٌ تَحْفَظُ اَلصُّوَرَ اَلْمُرْتَسِمَةَ فِي اَلْحِسِّ اَلْمُشْتَرَكِ اِذَا غَابَتْ تِلْكَ اَلصُّوَرُ عَنِ اَلْحَوَاسِّ اَلْبَاطِنَةِ. وَمَحَلُّهُ مُؤَخَّرُ اَلتَّجْوِيفِ اَلْاَوَّلِ مِنَ اَلتَّجَاوِيفِ اَلثَّلَاثَةِ لِلدِّمَاغِ عِنْدَ اَلْجُمْهُورِ(١). وَاسْتَدَلُّوا عَلَى وُجُودِ اَلْخَيَالِ بِاَنَّا اِذَا شَاهَدْنَا صُورَةً ثُمَّ ذَهِلْنَا عَنْهَا زَمَانًا ثُمَّ نُشَاهِدُ مَرَّةً اُخْرَى نَحْكُمُ عَلَيْهَا بِاَنَّهَا هِيَ اَلَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذٰلِكَ. فَلَوْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ اَلصُّورَةُ مَحْفُوظَةً فِينَا زَمَانَ اَلذُّهُولِ لَامْتَنَعَ اَلْحُكْمُ بِاَنَّهَا هِيَ اَلَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذٰلِكَ. (وَاَلْخَيَالِيُّ) يُطْلَقُ عَلَى اَلصُّورَةِ اَلْمُرْتَسِمَةِ فِي اَلْخَيَالِ اَلْمُتَأَدِّيَةِ اِلَيْهِ مِنْ طُرُقِ اَلْحَوَاسِّ. وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى اَلْمَعْدُومِ اَلَّذِي اَخْتَرَعَتْهُ اَلْمُتَخَيِّلَةُ وَرَكَّبَتْهُ مِنَ اَلْاُمُورِ اَلْمَحْسُوسَةِ اَيِ اَلْمُدْرَكَةِ بِاَلْحَوَاسِّ اَلظَّاهِرَةِ. وَبِقَوْلِنَا مِنَ اَلْاُمُورِ اَلْمَحْسُوسَةِ خَرَجَ اَلْوَهْمِيُّ بِمَعْنَى مَا اَخْتَرَعَتْهُ اَلْقُوَّةُ اَلْمُتَخَيِّلَةُ اَخْتِرَاعًا صِرْفًا عَلَى نَحْوِ اَلْمَحْسُوسَاتِ وَبِهٰذَا اَلْمَعْنَى يُسْتَعْمَلُ فِي بَابِ اَلتَّشْبِيهِ كَمَا فِي قَوْلِ اَلشَّاعِرِ:

وَكَاَنَّ مُحْمَرَّ اَلشَّقِيقِ م اِذَا تَصَوَّبَ اَوْ تَصَعَّدْ
اَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

(١) ليس هذا الرأي بمقرَّر

فَإِنَّ ٱلْأَعْلَامَ ٱلْيَاقُوتِيَّةَ ٱلْمَنْشُورَةَ عَلَى ٱلرِّمَاحِ ٱلزَّبَرْجَدِيَّةِ مِمَّا لَا يُدْرِكُهُ ٱلْحِسُّ لِأَنَّ ٱلْحِسَّ إِنَّمَا يُدْرِكُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي ٱلْمَادَّةِ حَاضِرَةً عِنْدَ ٱلْمُدْرِكِ عَلَى هَيْئَاتٍ مَحْسُوسَةٍ مَخْصُوصَةٍ بِهِ. لٰكِنَّ مَادَّتَهُ ٱلَّتِي يَتَرَكَّبُ هُوَ مِنْهَا كَٱلْأَعْلَامِ وَٱلْيَاقُوتِ وَٱلرِّمَاحِ وَٱلزَّبَرْجَدِ كُلٌّ مِنْهَا مَحْسُوسٌ بِٱلْبَصَرِ

البحث السابع

في الحافظة

(عن الماوردي باختصار)

(راجع صفحة ٥و٦ من توطئة علم الادب)

رُبَّمَا ٱسْتَثْقَلَ ٱلْمُتَعَلِّمُ ٱلدَّرْسَ وَٱلْحِفْظَ وَٱتَّكَلَ بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱلرُّجُوعِ إِلَى ٱلْكُتُبِ وَٱلْمُطَالَعَةِ فِيهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا كَمَنْ أَطْلَقَ مَا صَادَهُ ثِقَةً بِٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ ٱلِٱمْتِنَاعِ مِنْهُ فَلَا تُعْقِبُهُ ٱلثِّقَةُ إِلَّا خَجَلًا وَٱلتَّفْرِيطُ إِلَّا نَدَمًا . وَهٰذِهِ حَالٌ قَدْ يَدْعُو إِلَيْهَا أَحَدُ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : ٱلضَّجَرُ مِنْ مُعَانَاةِ ٱلْحِفْظِ وَمُرَاعَاتِهِ وَطُولُ ٱلْأَمَلِ فِي ٱلتَّوَفُّرِ عَلَيْهِ عِنْدَ نَشَاطِهِ وَفَسَادُ ٱلرَّأْيِ فِي عَزِيمَتِهِ وَلَيْسَ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلضَّجُورَ خَائِبٌ وَأَنَّ ٱلطَّوِيلَ ٱلْأَمَلِ مَغْرُورٌ وَأَنَّ ٱلْفَاسِدَ ٱلرَّأْيِ مُصَابٌ . وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ فِي أَمْثَالِهَا : حَرْفٌ فِي قَلْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ فِي كُتُبِكَ . وَقَالُوا : لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَعْبُرُ مَعَكَ ٱلْوَادِيَ وَلَا يَعْمُرُ بِكَ ٱلنَّادِيَ . وَأُنْشِدَتْ عَنِ ٱلرَّبِيعِ لِلشَّافِعِيِّ :

عِلْمِي مَعِي حَيْثُ مَا يَمَّمْتُ يَنْفَعُنِي
قَلْبِي وِعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدُوقِي
اِنْ كُنْتُ فِي ٱلْبَيْتِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِيهِ مَعِي
اَوْ كُنْتُ فِي ٱلسُّوقِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِي ٱلسُّوقِ

وَرُبَّمَا اُعْتُنِيَ ٱلْمُتَعَلِّمُ بِٱلْحِفْظِ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرٍ وَلَا فَهْمٍ حَتَّى يَصِيرَ حَافِظًا لِأَلْفَاظِ ٱلْمَعَانِي قَيِّمًا بِتِلَاوَتِهَا وَهُوَ لَا يَتَصَوَّرُهَا وَلَا يَفْهَمُ مَا تَضَمَّنَهَا يَرْوِي بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ وَيُخْبِرُ عَنْ غَيْرِ خِبْرَةٍ فَهُوَ كَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي لَا يَدْفَعُ شُبْهَةً وَلَا يُؤَيِّدُ حُجَّةً وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: هِمَّةُ ٱلسُّفَهَاءِ ٱلرِّوَايَةُ. وَهِمَّةُ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلرِّعَايَةُ. وَرَوَى ٱبْنُ مَسْعُودٍ: كُونُوا لِلْعِلْمِ رُعَاةً. وَلَا تَكُونُوا لَهُ رُوَاةً. فَقَدْ يَرْعَوِي مَنْ لَا يَرْوِي. وَيَرْوِي مَنْ لَا يَرْعَوِي. وَحَدَّثَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ بِحَدِيثٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا اَبَا سَعِيدٍ عَمَّنْ. قَالَ: مَا تَصْنَعُ بِعَمَّنْ. اَمَّا اَنْتَ فَقَدْ نَالَتْكَ عِظَتُهُ وَقَامَتْ عَلَيْكَ حُجَّتُهُ

وَرُبَّمَا اُعْتُمِدَ عَلَى حِفْظِهِ وَتَصَوُّرِهِ وَاُغْفِلَ تَقْيِيدُ ٱلْعِلْمِ فِي كُتُبِهِ ثِقَةً بِمَا ٱسْتَقَرَّ فِي ذِهْنِهِ وَهٰذَا خَطَأٌ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلشَّكْلَ مُعْتَرِضٌ وَٱلنِّسْيَانَ طَارِقٌ. وَقَالَ ٱلْخَلِيلُ بْنُ اَحْمَدَ: اِجْعَلْ مَا فِي ٱلْكُتُبِ رَأْسَ ٱلْمَالِ وَمَا فِي ٱلْقَلْبِ ٱلنَّفَقَةَ. وَقَالَ مَهْبُورٌ: لَوْلَا مَا عَقَدَتْهُ ٱلْكُتُبُ مِنْ تَجَارِبِ ٱلْاَوَّلِينَ لَانْحَلَّ مَعَ ٱلنِّسْيَانِ عُقُودُ ٱلْآخِرِينَ

البحث الثامن

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٦ من توطئة علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ لَفْظَةَ ٱلذَّوْقِ يَتَدَاوَلُهَا ٱلْمُعْتَنُونَ بِفُنُونِ ٱلْبَيَانِ . وَمَعْنَاهَا حُصُولُ مَلَكَةِ ٱلْبَلَاغَةِ لِلِّسَانِ ٱلَّتِي هِيَ مُطَابَقَةُ ٱلْكَلَامِ لِلْمَعْنَى مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ بِخَوَاصَّ تَقَعُ لِلتَّرَاكِيبِ فِي اِفَادَةِ ذٰلِكَ . فَٱلْمُتَكَلِّمُ بِلِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْبَلِيغُ فِيهِ يَتَحَرَّى ٱلْهَيْئَةَ ٱلْمُفِيدَةَ لِذٰلِكَ عَلَى اَسَالِيبِ ٱلْعَرَبِ وَاَنْحَاءِ مُخَاطَبَاتِهِمْ وَيَنْظِمُ ٱلْكَلَامَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْوَجْهِ جُهْدَهُ . فَاِذَا ٱتَّصَلَتْ مَقَامَاتُهُ بِمُخَالَطَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَصَلَتْ لَهُ ٱلْمَلَكَةُ فِي نَظْمِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْوَجْهِ وَسَهُلَ عَلَيْهِ اَمْرُ ٱلتَّرْكِيبِ حَتَّى لَا يَكَادُ يَنْحُو فِيهِ غَيْرَ مَنْحَى ٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي لِلْعَرَبِ . وَاِنْ سَمِعَ تَرْكِيبًا غَيْرَ جَارٍ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمَنْحَى مَجَّهُ وَنَبَا عَنْهُ سَمْعُهُ بِاَدْنَى فِكْرٍ بَلْ وَبِغَيْرِ فِكْرٍ اِلَّا بِمَا ٱسْتَفَادَهُ مِنْ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ . فَاِنَّ ٱلْمَلَكَاتِ اِذَا ٱسْتَقَرَّتْ وَرَسَخَتْ فِي مَحَالِّهَا ظَهَرَتْ كَاَنَّهَا طَبِيعَةٌ وَجِبِلَّةٌ لِذٰلِكَ ٱلْمَحَلِّ . وَلِذٰلِكَ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمُغَفَّلِينَ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ شَأْنَ ٱلْمَلَكَاتِ اَنَّ ٱلصَّوَابَ لِلْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ اِعْرَابًا وَبَلَاغَةً اَمْرٌ طَبِيعِيٌّ وَيَقُولُ : كَانَتِ ٱلْعَرَبُ تَنْطِقُ بِٱلطَّبْعِ . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ . وَاِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ لِسَانِيَّةٌ فِي نَظْمِ ٱلْكَلَامِ تَمَكَّنَتْ وَرَسَخَتْ فَظَهَرَتْ فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ اَنَّهَا جِبِلَّةٌ وَطَبْعٌ وَهٰذِهِ

ٱلْمَلَكَةُ كَمَا تَقَدَّمَ اِنَّمَا تَحْصُلُ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَتَكَرُّرِهِ عَلَى ٱلسَّمْعِ وَٱلتَّفَطُّنِ لِخَوَاصِّ تَرَاكِيبِهِ . وَلَيْسَتْ تَحْصُلُ بِمَعْرِفَةِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْعِلْمِيَّةِ فِي ذٰلِكَ ٱلَّتِي ٱسْتَنْبَطَهَا اَهْلُ صِنَاعَةِ ٱللِّسَانِ . فَاِنَّ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينَ اِنَّمَا تُفِيدُ عِلْمًا بِذٰلِكَ ٱللِّسَانِ وَلَا تُفِيدُ حُصُولَ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْفِعْلِ فِي مَحَلِّهَا . وَاِذَا تَقَرَّرَ ذٰلِكَ فَمَلَكَةُ ٱلْبَلَاغَةِ فِي ٱللِّسَانِ تَهْدِي ٱلْبَلِيغَ اِلَى وُجُوهِ ٱلنَّظْمِ وَحُسْنِ ٱلتَّرْكِيبِ ٱلْمُوَافِقِ لِتَرَاكِيبِ ٱلْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ وَنَظْمِ كَلَامِهِمْ . وَلَوْ رَامَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ حَيْدًا عَنْ هٰذِهِ ٱلسَّبِيلِ ٱلْمُعَيَّنَةِ وَٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْمَخْصُوصَةِ لَمَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَلَا وَاقَعَهُ عَلَيْهِ لِسَانُهُ لِاَنَّهُ لَا يَعْتَادُهُ وَلَا تَهْدِيهِ اِلَيْهِ مَلَكَتُهُ ٱلرَّاسِخَةُ عِنْدَهُ . وَاِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ حَائِدًا عَنْ اُسْلُوبِ ٱلْعَرَبِ وَبَلَاغَتِهِمْ فِي نَظْمِ كَلَامِهِمْ اَعْرَضَ عَنْهُ وَمَجَّهُ وَعَلِمَ اَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ مَارَسَ كَلَامَهُمْ . وَرُبَّمَا يَعْجِزُ عَنِ ٱلِاحْتِجَاجِ لِذٰلِكَ كَمَا تَصْنَعُ اَهْلُ ٱلْقَوَانِينِ ٱلنَّحْوِيَّةِ وَٱلْبَيَانِيَّةِ . فَاِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْلَالٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُفَادَةِ بِٱلِاسْتِقْرَاءِ وَهٰذَا اَمْرٌ وِجْدَانِيٌّ حَاصِلٌ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ . وَمِثَالُهُ لَوْ فَرَضْنَا صَبِيًّا مِنْ صِبْيَانِهِمْ نَشَأَ وَرَبِيَ فِي جِيلِهِمْ فَاِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ وَيُحْكِمُ شَأْنَ ٱلْاِعْرَابِ وَٱلْبَلَاغَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى غَايَتِهَا وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ٱلْقَانُونِيِّ فِي شَيْءٍ وَاِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فِي لِسَانِهِ وَنُطْقِهِ . وَكَذٰلِكَ تَحْصُلُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ لِمَنْ بَعْدَ ذٰلِكَ ٱلْجِيلِ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ وَاَشْعَارِهِمْ وَخُطَبِهِمْ وَٱلْمُدَاوَمَةِ عَلَى ذٰلِكَ بِحَيْثُ يُحَصِّلُ ٱلْمَلَكَةَ وَيَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِمَّنْ نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِيَ بَيْنَ

احيائهم. والقوانين بمعزل عن هذا. واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه اهل صناعة البيان. والذوق انما هو موضوع لادراك الطعوم لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لادراك الطعوم استعير لها اسمه وايضا فهو وجداني للسان كما ان الطعوم محسوسة له فقيل له ذوق. واذا تبين لك ذلك علمت منه ان الاعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين عليه المضطرين الى النطق به لمخالطة اهله كالفرس والروم والترك بالمشرق وكالبربر بالمغرب فانه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة التي قررنا امرها. لان قصاراهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة اخرى الى اللسان وهي لغاتهم ان يعتنوا بما يتداوله اهل المصر (١) بينهم في المحاورة من مفرد ومركب لما يضطرون اليه من ذلك وهذه الملكة قد ذهبت لاهل الامصار وبعدوا عنها كما تقدم. وانما لهم في ذلك ملكة اخرى وليست هي ملكة اللسان المطلوبة. ومن عرف تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في شيء انما حصل احكامها كما عرفت وانما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرر لكلام العرب. فان عرض لك ما تسمعه من ان سيبويه والفارسي والزمخشري وامثالهم من فرسان الكلام كانوا اعجاما مع حصول هذه الملكة لهم فاعلم ان اولئك القوم

(١) وفي نسخة : اهل المصر

ٱلَّذِينَ تَسْمَعُ عَنْهُمْ اِنَّمَا كَانُوا عَجَمًا فِي نَسَبِهِمْ فَقَطْ وَاَمَّا ٱلْمَرْبَى وَٱلنَّشْأَةُ فَكَانَتْ بَيْنَ اَهْلِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَمَنْ تَعَلَّمَهَا مِنْهُمْ فَاسْتَوْلَوْا بِذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى غَايَةٍ لَا وَرَاءَهَا . وَكَانَّهُمْ فِي اَوَّلِ نَشْأَتِهِمْ مِنَ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ نَشَأُوا فِي اَحْيَائِهِمْ (١) حَتَّى اَدْرَكُوا كُنْهَ ٱللُّغَةِ وَصَارُوا مِنْ اَهْلِهَا . فَهُمْ وَاِنْ كَانُوا عَجَمًا فِي ٱلنَّسَبِ فَلَيْسُوا بِاَعْجَامٍ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلْكَلَامِ لِاَنَّهُمْ اَدْرَكُوا ٱلْمِلَّةَ فِي عُنْفُوَانِهَا وَٱللُّغَةَ فِي شَبَابِهَا وَلَمْ تَذْهَبْ آثَارُ ٱلْمَلَكَةِ وَلَا مِنْ اَهْلِ ٱلْاَمْصَارِ . ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى ٱلْمُمَارَسَةِ وَٱلْمُدَارَسَةِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى اسْتَوْلَوْا عَلَى غَايَتِهِ . وَٱلْوَاحِدُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلْعَجَمِ اِذَا خَالَطَ اَهْلَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْاَمْصَارِ فَاَوَّلُ مَا يَجِدُ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةَ ٱلْمَقْصُودَةَ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ مُمْتَحِيَةَ ٱلْآثَارِ وَيَجِدُ مَلَكَتَهُمُ ٱلْخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً اُخْرَى مُخَالِفَةً لِمَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ اِذَا فَرَضْنَا اَنَّهُ اَقْبَلَ عَلَى ٱلْمُمَارَسَةِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَاَشْعَارِهِمْ بِٱلْمُدَارَسَةِ وَٱلْحِفْظِ يَسْتَفِيدُ تَحْصِيلَهَا فَقَلَّ اَنْ يَحْصُلَ لَهُ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ اَنَّ ٱلْمَلَكَةَ اِذَا سَبَقَتْهَا مَلَكَةٌ اُخْرَى فِي ٱلْمَحَلِّ فَلَا تَحْصُلُ اِلَّا نَاقِصَةً مَخْدُوشَةً . وَاِنْ فَرَضْنَا عَجَمِيًّا فِي ٱلنَّسَبِ سَلِمَ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَجَمِيِّ بِٱلْكُلِّيَّةِ وَذَهَبَ اِلَى تَعَلُّمِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْحِفْظِ وَٱلْمُدَارَسَةِ فَرُبَّمَا يَحْصُلُ لَهُ ذٰلِكَ لٰكِنَّهُ مِنَ ٱلنُّدُورِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ بِمَا تَقَرَّرَ . وَرُبَّمَا يَدَّعِي كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْبَيَانِيَّةِ حُصُولَ هٰذَا ٱلذَّوْقِ لَهُ بِهَا وَهُوَ غَلَطٌ اَوْ مُغَالَطَةٌ وَاِنَّمَا حَصَلَتْ لَهُ ٱلْمَلَكَةُ اِنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْبَيَانِيَّةِ

(١) وفي نسخة : في اجيالهم

وَلَيْسَتْ مِنْ مَلَكَةِ ٱلْعِبَارَةِ فِي شَيْءٍ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

البحث التاسع

في المطالعة

(المثل السائر لابي الفتح بن الاثير الموصلي)

(راجع صفحة ٨ من توطئة علم الادب)

إِنَّ فِي ٱلِٱطِّلَاعِ عَلَى كَلَامِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ فَوَائِدَ جَمَّةً لِأَنَّهُ يُعْلَمُ مِنْهُ أَغْرَاضُ ٱلنَّاسِ وَنَتَائِجُ أَفْكَارِهِمْ وَيُعْرَفُ بِهِ مَقَاصِدُ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ وَإِلَى أَيْنَ تَرَامَتْ بِهِ صَنْعَتُهُ فِي ذٰلِكَ . فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ مِمَّا تَشْحَذُ ٱلْقَرِيحَةَ وَتُزَكِّي ٱلْفِطْنَةَ . وَإِذَا كَانَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِهَا تَصِيرُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي ذُكِرَتْ وَتَعِبَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهَا كَٱلشَّيْءِ ٱلْمُلْقَى بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْخُذُ مِنْهُ مَا أَرَادَ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مُطَّلِعًا عَلَى ٱلْمَعَانِي ٱلْمَسْبُوقِ إِلَيْهَا قَدْ يَنْقَدِحُ لَهُ مِنْ بَيْنِهَا مَعْنًى غَرِيبٌ لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ . وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ أَنَّ خَوَاطِرَ ٱلنَّاسِ وَإِنْ كَانَتْ مُتَفَاوِتَةً فِي ٱلْجُودَةِ وَٱلرَّدَاءَةِ فَإِنَّ بَعْضَهَا لَا يَكُونُ عَالِيًا عَلَى بَعْضٍ أَوْ مُنْحَطًّا عَنْهُ إِلَّا بِشَيْءٍ يَسِيرٍ . وَكَثِيرًا مَا تَتَسَاوَى ٱلْقَرَائِحُ وَٱلْأَفْكَارُ فِي ٱلْإِتْيَانِ بِٱلْمَعَانِي حَتَّى إِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَأْتِي بِمَعْنًى مَوْضُوعٍ بِلَفْظٍ ثُمَّ يَأْتِي ٱلْآخَرُ بَعْدَهُ بِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ بِعَيْنِهِمَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ بِمَا جَاءَ بِهِ ٱلْأَوَّلُ وَهٰذَا ٱلَّذِي يُسَمِّيهِ أَرْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وُقُوعَ ٱلْحَافِرِ عَلَى ٱلْحَافِرِ

البحث العاشر

في الارتياض والممارسة

(المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٩ و١٠ من توطئة علم الادب)

اِعْلَمْ اَيُّهَا ٱلنَّاظِرُ فِي كِتَابِي اَنَّ مَدَارَ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ عَلَى حَاكِمِ ٱلذَّوْقِ ٱلسَّلِيمِ ٱلَّذِي هُوَ اَنْفَعُ مِنْ ذَوْقِ ٱلتَّعْلِيمِ. وَهٰذَا ٱلْكِتَابُ وَاِنْ كَانَ فِيمَا يُلْقِيهِ اِلَيْكَ اُسْتَاذًا اَوْ اِذَا سَأَلْتَ عَمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي فَنِّهِ قِيلَ لَكَ هٰذَا فَاِنَّ ٱلدُّرْبَةَ وَٱلْاِدْمَانَ اَجْدَى عَلَيْكَ نَفْعًا وَاَهْدَى بَصَرًا وَسَمْعًا. وَهُمَا يُرِيَانِكَ ٱلْخَبَرَ عِيَانًا وَيَجْعَلَانِ عُسْرَكَ مِنَ ٱلْقَوْلِ اِمْكَانًا وَكُلَّ جَارِحَةٍ مِنْكَ قَلْبًا وَلِسَانًا . فَخُذْ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ مَا اَعْطَاكَ وَٱسْتَنْبِطْ بِاِدْمَانِكَ مَا اَخْطَاكَ . وَمَا مَثَلِي فِيمَا مَهَّدْتُهُ لَكَ مِنْ هٰذَا ٱلطَّرِيقِ اِلَّا كَمَنْ طَبَعَ سَيْفًا وَوَضَعَهُ فِي يَمِينِكَ لِتُقَاتِلَ بِهِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ اَنْ يَخْلُقَ لَكَ قَلْبًا فَاِنَّ حَمْلَ ٱلنِّصَالِ غَيْرُ مُبَاشَرَةِ ٱلْقِتَالِ

وَاِنَّمَا يَبْلُغُ ٱلْاِنْسَانُ غَايَتَهُ مَاكُلُّ مَاشِيَةٍ بِٱلرَّحْلِ شِمْلَالُ

وَاِنَّ صَاحِبَ ٱلْكِتَابَةِ لَا يَرَى فِي اَمْرِهِ اِلَّا صُعُوبَةً وَوُعُورَةً وَطَرِيقًا مُشْكِلَةَ ٱلْمَذَاهِبِ كَثِيرَةَ ٱلشِّعَابِ . فَاِذَا اَكْرَهَ خَاطِرَهُ عَلَى سُلُوكِهَا وَشَجَّعَهُ عَلَى تَوَرُّدِهَا فَمَا مَضَى بِهِ هُنَيْهَةٌ حَتَّى يَسْتَمِرَّ بِهِ ٱلطَّرِيقُ وَيَتَّضِحَ لَدَيْهِ . وَٱلتَّعَبُ عَلَى مَنَازِلِ ٱلْعَلْيَاءِ اِمَارَةٌ

البحث الحادي عشر

في طرائق مختلفة من الممارسة والتمرين

(المثل السايرباختصار)

(راجع صفحة ١٠ من توطئة علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ هُوَ كَنْزُ ٱلْكِتَابَةِ وَمَنْبَعُهَا وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَتَكَلَّمُ فِيهِ بِشَيْءٍ وَلَمَّا حُبِّبَتْ إِلَيَّ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةُ وَبَلَّغَنِي ٱللهُ مِنْهَا مَا بَلَّغَنِي وَجَدتُ ٱلطَّرِيقَ يَنْقَسِمُ فِيهَا إِلَى ثَلَاثِ شُعَبٍ : (ٱلْأُولَى) أَنْ يَتَصَفَّحَ ٱلْكَاتِبُ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَيَطَّلِعَ عَلَى أَوْضَاعِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي ثُمَّ يَحْذُو حَذْوَهُمْ . وَهٰذِهِ أَدْنَى ٱلطَّبَقَاتِ عِنْدِي . (ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ يَمْزُجَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِمَا يَسْتَجِيدُهُ لِنَفْسِهِ مِنْ زِيَادَةٍ حَسَنَةٍ إِمَّا فِي تَحْسِينِ ٱلْأَلْفَاظِ أَوْ فِي تَحْسِينِ ٱلْمَعَانِي . وَهٰذِهِ ٱلطَّبَقَةُ ٱلْوُسْطَى وَهِيَ أَعْلَى مِنَ ٱلَّتِي قَبْلَهَا . (ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ لَا يَتَصَفَّحَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَلَا يَطَّلِعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا بَلْ يَصْرِفَ هَمَّهُ إِلَى حِفْظِ ٱلْحَدِيثِ وَٱلْأَخْبَارِ وَعِدَّةٍ مِنْ دَوَاوِينِ فُحُولِ ٱلشُّعَرَاءِ مِمَّنْ غَلَبَ عَلَى شِعْرِهِ ٱلْإِجَادَةُ فِي ٱلْمَعَانِي وَٱلْأَلْفَاظِ . ثُمَّ يَأْخُذُ فِي ٱلِاقْتِبَاسِ مِنْ هٰذِهِ فَيَقُومُ وَيَقَعُ وَيُخْطِئُ وَيُصِيبُ وَيَضِلُّ وَيَهْتَدِي حَتَّى يَسْتَقِيمَ عَلَى طَرِيقَةٍ يَفْتَتِحُهَا لِنَفْسِهِ . وَاخْلُقْ بِتِلْكَ ٱلطَّرِيقِ أَنْ تَكُونَ مُبْتَدَعَةً غَرِيبَةً لَا شِرْكَةَ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فِيهَا . وَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ طَرِيقُ ٱلِاجْتِهَادِ وَصَاحِبُهَا يُعَدُّ إِمَامًا فِي فَنِّ ٱلْكِتَابَةِ . إِلَّا أَنَّهَا مُسْتَوْعِرَةٌ جِدًّا وَلَا يَسْتَطِيعُهَا إِلَّا مَنْ رَزَقَهُ ٱللهُ

تَعالَى لِسانًا هَجّامًا وخاطِرًا رَقّامًا وَانّما تَكونُ نَفاسَةُ ٱلْاَشْياءِ بِعِزَّةِ حُصولِها ومَشَقَّةِ وُصولِها :

لَيسَ حُلْوًا وُجودُكَ ٱلشَّيْءَ تَبْغيهِ م طِلابًا حَتّى يَعِزَّ طِلابُهْ

وهٰذِهِ ٱلطَّريقُ يَجْهَلُها كَثيرٌ مِنْ مُتَعاطِي هٰذِهِ ٱلصِّناعَةِ وَٱلَّذي يَعْلَمُها مِنْهُمْ يَرْضى بِٱلْحَواشي وَٱلْاَطْرافِ ويَقْنَعُ مِنْ لَآلِيها بِمَعْرِفَةِ ما فِي ٱلْاَصْدافِ . ولَا اُريدُ بِهٰذِهِ ٱلطَّريقَةِ اَنْ يَكونَ ٱلْكاتِبُ مُرْتَبِطًا فِي كِتابَتِهِ بِما يَسْتَخْرِجُهُ بِحَيْثُ اَنَّهُ لَا يُنْشِئُ كِتابًا اِلَّا مِنْ ذٰلِكَ بَلْ اُريدُ اَنَّهُ اِذا حَفِظَ مِمّا قَدَّمْنا شَيْئًا ثُمَّ نَقَّبَ عَنْ ذٰلِكَ تَنْقيبَ مُطَّلِعٍ عَلى مَعانيهِ مُفَتِّشٍ عَنْ دَفائِنِهِ وَقَلَّبَهُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ عَرَفَ حينَئِذٍ مِنْ اَيْنَ تُؤْكَلُ ٱلْكَتِفُ فيما يُنْشِئُهُ مِنْ ذاتِ نَفْسِهِ وَٱسْتَعانَ بِٱلْمَحْفُوظِ عَلَى ٱلْغَريزَةِ ٱلطَّبيعِيَّةِ . اَلَا تَرى صاحِبَ ٱلْاِجْتِهادِ مِنَ ٱلْفُقَهاءِ يَفْتَقِرُ اِلى مَعْرِفَةِ اَخْبارِ ٱلْاَحْكامِ وَاِلى مَعْرِفَةِ عِلْمِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلْفَرائِضِ وَٱلْحِسابِ مِنَ ٱلْمَعْلومِ وَٱلْمَجْهولِ . وَكَذٰلِكَ يَجْري ٱلْحُكْمُ فِي ٱلْكاتِبِ اِذا اَحَبَّ ٱلتَّرَقّي اِلى دَرَجَةِ ٱلْاِجْتِهادِ فِي ٱلْكِتابَةِ فَاِنَّهُ يَحْتاجُ اِلى اَدَواتٍ كَثيرَةٍ سَنَذْكُرُها

فصلٌ في صفة الكاتب وما يحتاج اليهِ من المعارف

البحث الاوَّل

في صفة الكاتب الظاهرة

(عن ابراهيم الشيباني وآثار الاول للحسن بن عبدالله)

قِيلَ اِنَّهُمْ قَدِ اسْتَحْسَنُوا فِي الْكَاتِبِ اعْتِدَالَ الْقَامَةِ وَصِغَرَ الْهَامَةِ وَخِفَّةَ اللَّهَازِمِ وَصِدْقَ الْحِسِّ وَلُطْفَ الْمَذْهَبِ وَحَلَاوَةَ الشَّمَائِلِ وَحُسْنَ الْاِشَارَةِ وَمَلَاحَةَ الزِّيِّ حَتَّى قَالَ بَعْضُ الْمُهَالِبَةِ لِوُلْدِهِ : تَزَيَّوْا بِزِيِّ الْكُتَّابِ فَاِنَّ فِيهِمْ اَدَبَ الْمُلُوكِ وَتَوَاضُعَ السُّوقَةِ . وَقِيلَ : اِنَّ مِنْ كَمَالِ آلَةِ الْكِتَابَةِ اَنْ يَكُونَ الْكَاتِبُ نَقِيَّ الْمَلْبَسِ نَظِيفَ الْمَجْلِسِ ظَاهِرَ الْمُرُوَّةِ دَقِيقَ الذِّهْنِ حَسَنَ الْفَهْمِ وَافِرَ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ صَادِقَ الْحِسِّ حَسَنَ الْبَيَانِ صَحِيحَ الرَّأْيِ وَالْعِبَارَةِ مَلِيحَ التَّأَتِّي فِي نَظْمِ الْمَعَانِي وَنَثْرِهَا دَقِيقَ حَوَاشِي اللِّسَانِ حُلْوَ الْاِشَارَةِ مَلِيحَ الْاِسْتِعَارَةِ لَطِيفَ الْمَسَالِكِ مُسْتَقِرَّ التَّرْكِيبِ . وَلَا يَكُونَ مَعَ ذٰلِكَ فَدْمَ الْمَنْظَرِ مُتَفَاوِتَ الْاَجْزَاءِ مُضْطَرِبَ الْخَلْقِ . فَاِنَّهُمْ زَعَمُوا اَنَّ هٰذِهِ الصُّورَةَ لَا يَلِيقُ بِصَاحِبِهَا الذَّكَاءُ وَالْفِطْنَةُ . وَاِنِ اتَّفَقَ اَنْ يَكُونَ حَسَنَ الْخَطِّ فَهُوَ كَمَالُهُ وَاِلَّا فَيَكُونُ هُوَ الْمُنْشِئَ وَغَيْرُهُ الْكَاتِبَ . وَنَظَرَ اَحْمَدُ اَبْنُ خَصِيبٍ اِلَى رَجُلٍ مِنَ الْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ الْهَيْئَةِ فَقَالَ : لَاَنْ يَكُونُ هٰذَا فِنْطَاسَ مَرْكَبٍ اَشْبَهُ مِنْ اَنْ يَكُونَ كَاتِبًا . قَالَ بَعْضُهُمْ :

عَلَيْكَ بِكَاتِبٍ لَبِقٍ رَشِيقٍ ذَكِيٍّ فِي شَمَائِلِهِ حَذَارَهْ

تُناجيهِ بِطَرْفِكَ مِنْ بَعيدٍ فَيَفْهَمُ رَجْعَ لَحْظِكَ بِالْاِشارَهْ

فَاِذَا اجْتَمَعَتْ لِلْكاتِبِ هٰذِهِ الْخِلَالُ وَانْتَظَمَتْ فِيهِ هٰذِهِ الْخِصالُ فَهُوَ الْكاتِبُ الْبَلِيغُ وَالْاَدِيبُ النِّحْرِيرُ وَاِنْ قَصُرَتْ بِهِ آلَةٌ مِنْ هٰذِهِ الْآلاتِ وَقَعَدَتْ بِهِ اَدَاةٌ مِنْ هٰذِهِ الْاَدَوَاتِ فَهُوَ مَنْقُوصُ الْجَمالِ مُنْكَسِفُ الْحِسِّ مَنْحُوسُ النَّصِيبِ

البحث الثاني

في ادوات علم الكتابة

(عن المثل السائر لابن الاثير الموصلي باختصار)

اِعْلَمْ اَنَّ صِناعَةَ تَأْلِيفِ الْكَلامِ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ تَفْتَقِرُ اِلَى آلاتٍ كَثِيرَةٍ . وَقَدْ قِيلَ : يَنْبَغِي لِلْكاتِبِ اَنْ يَتَعَلَّقَ بِكُلِّ عِلْمٍ حَتَّى قِيلَ : كُلُّ ذِي عِلْمٍ يَسُوغُ لَهُ اَنْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ اِلَيْهِ فَيَقُولَ : فُلانٌ النَّحْوِيُّ وَفُلانٌ الْفَقِيهُ وَلا يَسُوغُ لَهُ اَنْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ اِلَى الْكِتابَةِ فَيَقُولَ : فُلانٌ الْكاتِبُ وَذٰلِكَ لِمَا يَفْتَقِرُ اِلَيْهِ مِنَ الْخَوْضِ فِي كُلِّ فَنٍّ . وَمِلاكُ هٰذا كُلِّهِ الطَّبْعُ فَاِنَّهُ اِذَا لَمْ يَكُنْ ثَمَّ طَبْعٌ فَاِنَّهُ لا تُغْنِي تِلْكَ الْآلاتُ شَيْئًا . وَمِثالُ ذٰلِكَ كَمَثَلِ النَّارِ الْكامِنَةِ فِي الزِّنادِ وَالْحَدِيدَةِ الَّتِي يُقْدَحُ بِها . اَلا تَرَى اَنَّهُ اِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الزِّنادِ نارٌ لا تُفِيدُ تِلْكَ الْحَدِيدَةُ شَيْئًا . وَكَثِيرًا مَا رَاَيْنا مِنْ غَرائِبِ الطِّباعِ فِي تَعَلُّمِ الْعُلُومِ حَتَّى اِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَكُونُ لَهُ نَفاذٌ فِي تَعَلُّمِ عِلْمٍ مُشْكِلِ الْمَسْلَكِ صَعْبِ الْمَأْخَذِ فَاِذَا كُلِّفَ تَعَلُّمَ مَا هُوَ دُونَهُ مِنْ سَهْلِ الْعُلُومِ نَكَسَ

عَلَى عَقِبَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ نَفَاذٌ . وَاَغْرَبُ مِنْ ذٰلِكَ اَنَّ صَاحِبَ الطَّبْعِ فِي الْمَنْظُومِ يُجِيدُ فِي الْمَدِيحِ دُونَ الْهِجَاءِ اَوْ فِي الْهِجَاءِ دُونَ الْمَدِيحِ اَوْ يُجِيدُ فِي الْمَرَاثِي دُونَ التَّهَانِئِ اَوْ فِي التَّهَانِئِ دُونَ الْمَرَاثِي . وَكَذٰلِكَ صَاحِبُ الطَّبْعِ فِي الْمَنْثُورِ . هٰذَا ابْنُ الْحَرِيرِيِّ صَاحِبُ الْمَقَامَاتِ قَدْ كَانَ عَلَى مَا ظَهَرَ عَنْهُ مِنْ تَنْمِيقِ الْمَقَامَاتِ وَاحِدًا فِي فَنِّهِ فَلَمَّا حَضَرَ بِبَغْدَادَ وَوُقِفَ عَلَى مَقَامَاتِهِ قِيلَ هٰذَا يَسْتَصْلِحُ لِكِتَابَةِ الْاِنْشَاءِ فِي دِيوَانِ الْخِلَافَةِ وَيَحْسُنُ اَثَرُهُ فِيهِ . فَأُحْضِرَ وَكُلِّفَ كِتَابَةَ كِتَابٍ فَاُفْحِمَ وَلَمْ يَجْرِ لِسَانُهُ فِي طَوِيلَةٍ وَلَا قَصِيرَةٍ . . . . وَبَلَغَنِي عَنِ الشَّيْخِ اَبِي مُحَمَّدٍ اَحْمَدَ بْنِ الْخَشَّابِ النَّحْوِيِّ اَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : اِبْنُ الْحَرِيرِيِّ رَجُلُ مَقَامَاتٍ اَيْ اِنَّهُ لَمْ يُحْسِنْ مِنَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ سِوَاهَا وَاِنْ اَتَى بِغَيْرِهَا لَا يَقُولُ شَيْئًا . فَانْظُرْ اَيُّهَا الْمُتَأَمِّلُ اِلَى هٰذَا التَّفَاوُتِ فِي الصِّنَاعَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ وَمِنْ اَجْلِ ذٰلِكَ قِيلَ : شَيْئَانِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا الْبَيَانُ وَالْجَمَالُ

البحث الثالث

فيما يجب على الكاتب معرفتهُ

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

وَمِمَّا يَجِبُ عَلَى الْكَاتِبِ اَنْ يَتَرَشَّحَ بِهِ لِلْكِتَابَةِ قِرَاءَةُ مَا يَتَّفِقُ مِنْ (كُتُبِ النَّحْوِ) الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الْمَقْصُودُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِحَيْثُ يَجْمَعُ بَيْنَ طَرَفَيِ الْكِتَابِ الَّذِي يَقْرَأُهُ وَيَسْتَكْمِلُ اسْتِشْرَاحَهُ وَيُكِبُّ عَلَى

ٱلْاِعْرَابِ وَيُلَازِمُهُ وَيَجْعَلُهُ دَأْبَهُ لِيَرْتَسِمَ فِي فِكْرِهِ وَيَدُورَ عَلَى لِسَانِهِ وَيَنْطَلِقَ بِهِ عِقَالُ قَلَمِهِ وَكَلِمِهِ وَيَزُولَ بِهِ ٱلْوَهْمُ عَنْ سَجِيَّتِهِ وَيَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ عِبَارَتِهِ. فَإِنَّهُ لَوْ أَتَى مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ بِأَتَمِّ مَا يَكُونُ وَلَحَنَ ذَهَبَتْ مَحَاسِنُ مَا أَتَى بِهِ وَٱنْهَدَّتْ طَبَقَةُ كَلَامِهِ وَٱلْقِي جَمِيعُ مَا يُحْسِنُهُ وَوُقِفَ بِهِ عِنْدَ مَا جَهِلَهُ . وَيَتَعَلَّقُ بِذٰلِكَ قِرَاءَةُ مَا يَتَهَيَّأُ مِنْ مُخْتَصَرَاتِ (كُتُبِ ٱللُّغَةِ) كَٱلْفَصِيحِ لِثَعْلَبٍ وَكِفَايَةِ ٱلْمُتَحَفِّظِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ كُتُبِ ٱلْاَلْفَاظِ لِيَتَّسِعَ عَلَيْهِ نِطَاقُ ٱلنُّطْقِ وَيَنْفَسِحَ لَهُ مَجَالُ ٱلْعِبَارَةِ وَيَنْفَتِحَ لَهُ بَابُ ٱلْاَوْصَافِ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَى وَصْفِهِ مِنْ خَيْلٍ اَوْ سِلَاحٍ اَوْ حَرْبٍ اَوْ سَيْرٍ اَوْ قِتَالٍ اَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَى وَصْفِهِ وَيُضْطَرُّ إِلَى نَعْتِهِ . وَيَتَّصِلُ بِذٰلِكَ حِفْظُ (خُطَبِ ٱلْبُلَغَاءِ) مِنَ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ وَمُخَاطَبَاتِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ وَمُرَاجَعَاتِهِمْ وَمَا ٱدَّعَاهُ كُلٌّ مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ اَوْ لِقَوْمِهِ وَمَا نَقَضَهُ عَلَيْهِ خَصْمُهُ لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْوَقَائِعِ بِنَظَائِرِهَا وَتَلَقِّي ٱلْحَوَادِثِ بِمَا شَاكَلَهَا وَٱلْاِقْتِدَاءِ بِطَرِيقَةِ مَنْ فَلَجَ عَلَى خَصْمِهِ وَٱقْتِفَاءِ آثَارِ مَنِ ٱضْطُرَّ إِلَى عُذْرٍ اَوْ إِبْطَالِ دَعْوَى اَوْ إِثْبَاتِهَا فَلَحَنَ بِحُجَّتِهِ وَتَخَلَّصَ بِلُطْفِ مَأْخَذِهِ وَدِقَّةِ مَسْلَكِهِ وَحُسْنِ عِبَارَتِهِ . . .

فَٱنْظُرْ فِي هٰذَا وَٱمْثَالِهِ وَٱحْفَظْ مِنْهُ وَٱلْاِكْثَارُ مِنْ مُطَالَعَتِهِ مِمَّا يَشْحَذُ ٱلْقَرَائِحَ وَيَفُكُّ ٱلْاَذْهَانَ وَيَرْتَسِمُ فِي ٱلْخَوَاطِرِ وَيَكْمُنُ فِي ٱلْاَفْكَارِ حَتَّى يَفِيضَ مَا غَاضَ مِنْهُ عَلَى لِسَانِ ٱلْقَلَمِ وَيَدُومِنْهُ لِكُلِّ وَاقِعَةٍ مِنْوَالٌ يُنْسَجُ عَلَيْهِ وَمِثَالٌ يُنْظَرُ فِي نَظَائِرِ ٱلْاُمُورِ إِلَيْهِ

ثُمَّ ٱلنَّظَرُ فِي (اَيَّامِ ٱلْعَرَبِ) وَوَقَائِعِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ وَتَسْمِيَةِ ٱلْاَيَّامِ

ٱلَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَمَعْرِفَةِ يَوْمِ كُلِّ قَبِيلَةٍ عَلَى ٱلْأُخْرَى وَمَا جَرَى بَيْنَهُمْ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْمُنَاقَضَاتِ . لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِمَا يُسْتَشْهَدُ بِهِ مِنْ وَاقِعَةٍ قَدِيمَةٍ اَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي مُكَاتَبَةٍ مِنْ ذِكْرِ اَيَّامٍ مَشْهُورَةٍ اَوْ ذِكْرِ فَارِسٍ مُعَيَّنٍ . . . وَاَمْثَالُ ذٰلِكَ فِي نَظَائِرِهِ كَثِيرَةٌ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ فَاِذَا لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِكُلِّ يَوْمٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَيَّامِ عَالِمًا بِمَا جَرَى فِيهَا لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُجِيبُ عَمَّا يَرِدُ اِلَيْهِ مِنْ مِثْلِهَا وَلَا مَا يَقُولُ اِذَا سُئِلَ عَنْهَا وَحَسْبُهُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي صِنَاعَتِهِ وَقُصُورًا عَمَّا يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَحُسْنِ ٱلْجَوَابِ فِيهِ عِنْدَ ٱلسُّؤَالِ عَنْهُ

ثُمَّ (ٱلنَّظَرُ فِي ٱلتَّوَارِيخِ) وَمَعْرِفَةُ اَخْبَارِ ٱلدُّوَلِ مِنَ ٱلِاطِّلَاعِ عَلَى سِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَسِيَاسَاتِهِمْ وَذِكْرِ وَقَائِعِهِمْ وَمَكَائِدِهِمْ فِي حُرُوبِهِمْ وَمَا اتَّفَقَ لَهُمْ مِنَ ٱلتَّجَارِبِ ٱلَّتِي بَلَغُوا بِهَا اَقْصَى ٱلْمَآرِبِ وَغَدَتْ لِمَنْ بَعْدَهُمْ كَٱلْمِرْآةِ ٱلَّتِي تُصَوِّرُ لَهُمْ وُجُودَ ٱلتَّدْبِيرِ وَتُرِيهِمْ مَا ٱسْتَتَرَ عَنْهُمْ مِنْ صَغِيرِ اَحْوَالِهِمْ وَٱلْكَبِيرِ . فَاِنَّهُ قَدْ يُضْطَرُّ اِلَى ٱلسُّؤَالِ عَنْ اَحْوَالِ مَنْ سَلَفَ مِنْ اَوَّلِ ٱلْعَصْرِ وَاِلَى ٱلْاٰنَ وَيُسْتَخْبَرُ كَيْفَ كَانَ ٱلْاَمْرُ بَيْنَ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَكَيْفَ ٱنْتَصَرَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ . اَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي كِتَابٍ ذِكْرُ وَاقِعَةٍ بِعَيْنِهَا اَوْ يُحْتَجُّ عَلَيْهِ بِصُورَةٍ قَدِيمَةٍ فَلَا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهَا مِنْ مَجَازِهَا وَلَا صِدْقَهَا مِنْ مَيْنِهَا

ثُمَّ (حِفْظُ اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ) وَمُطَالَعَةُ شُرُوحِهَا وَٱسْتِكْشَافُ غَوَامِضِهَا وَٱلتَّوَفُّرُ عَلَى مَا اخْتَارَهُ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْهَا كَٱلْحَمَاسَةِ وَٱلْمُفَضَّلِيَّاتِ وَٱلْاَصْمَعِيَّاتِ وَدِيوَانِ ٱلْهُذَلِيِّينَ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ لِمَا فِي

ذٰلِكَ مِنْ غَزَارَةِ ٱلْمَوَادِّ وَصِحَّةِ ٱلِٱسْتِشْهَادِ وَكَثْرَةِ ٱلنَّقْلِ وَصَقْلِ مِرْآةِ ٱلْعَقْلِ وَٱنْتِزَاعِ ٱلْأَمْثَالِ وَٱلْأَخْذِ فِي ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي عَلَى أَصَحِّ مِثَالٍ وَٱلِٱطِّلَاعِ عَلَى أُصُولِ ٱللُّغَةِ وَشَوَاهِدِهَا وَٱلِٱضْطِلَاعِ مِنْ نَوَادِرِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَشَوَارِدِهَا . وَقَدْ كَانَ ٱلصَّدْرُ ٱلْأَوَّلُ يَعْتَنُونَ بِذٰلِكَ غَايَةَ ٱلِٱعْتِنَاءِ . فَذُكِرَ أَنَّ عُمَرَ كَانَ يُقَدِّمُ زُهَيْرَ بْنَ أَبِي سُلْمَى فِي ٱلشِّعْرِ فَقِيلَ لَهُ : بِمَ ٱسْتَحَقَّ ذٰلِكَ عِنْدَكَ . فَقَالَ : كَانَ لَا يُعَاظِلُ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ وَلَا يَتَّبِعُ حَوْشِيَّ ٱلْكَلَامِ وَلَا يَصِفُ ٱلرَّجُلَ إِلَّا بِمَا يَكُونُ فِي ٱلرِّجَالِ . فَإِذَا أَكْثَرَ ٱلْمُتَرَشِّحُ لِلْكِتَابَةِ مِنْ حِفْظِ خِيَارِ ٱلشِّعْرِ وَتَدَبَّرَ مَعَانِيَهُ يَسْهُلُ عَلَيْهِ حَلُّهُ وَظَهَرَتْ لَهُ مَوَاضِعُ ٱلِٱسْتِشْهَادِ بِهِ وَسَاقَهُ ٱلْكَلَامُ إِلَى إِبْرَازِ مَا فِي ذَخِيرَةِ حِفْظِهِ وَوَضْعِهِ فِي مَكَانِهِ وَنَقْلِهِ فِي ٱلِٱسْتِشْهَادِ أَوِ ٱلتَّضْمِينِ إِلَى مَا كَأَنَّهُ وُضِعَ لَهُ . . . .

وَكَذٰلِكَ حِفْظُ جَانِبٍ جَيِّدٍ مِنْ شِعْرِ ٱلْمُحْدَثِينَ كَأَبِي تَمَّامٍ وَمُسْلِمِ ٱبْنِ ٱلْوَلِيدِ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ وَٱلْمُتَنَبِّي لِلُطْفِ مَأْخَذِهِمْ وَدَوَرَانِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي كَلَامِهِمْ وَدِقَّةِ تَوْلِيدِ ٱلْمَعَانِي فِي أَشْعَارِهِمْ وَقُرْبِ أُسْلُوبِهِمْ مِنْ أُسْلُوبِ ٱلْخَطَابَةِ وَٱلْكِتَابَةِ وَخُصُوصًا ٱلْمُتَنَبِّي ٱلَّذِي كَأَنَّهُ يَنْطِقُ عَنْ أَلْسِنَةِ ٱلنَّاسِ فِي مُحَاوَرَاتِهِمْ . وَكَثُرَ ٱلِٱسْتِشْهَادُ لِشِعْرِهِ حَتَّى قَلَّ مَنْ يَجْهَلُهُ وَحَتَّى أَكْتُفِي بِٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْقَصْدِ وَبُلُوغِ ٱلْفَرَضِ فِي ٱلْجَوَابِ كَمَا كَتَبَ بَعْضُ مُلُوكِ ٱلْعَرَبِ إِلَى مَنْ كَرَّرَ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِ بِقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَلَا كُتُبَ إِلَّا ٱلْمُشَرَّفِيَّةُ عِنْدَهُ ... وَلَا رُسُلٌ إِلَّا ٱلْخَمِيسُ ٱلْعَرَمْرَمُ

وكذلك النظر في رسائل المتقدمين دون حفظها لما في النظر فيها من تنقيح القريحة وارشاد الخاطر وتسهيل الطرق والنسج على منوال المجيد والاقتداء بطريقة المحسن واستجلاء ما انتجته القرائح من ابكار الافكار واستجلاء ما روقته الخواطر من حياض الالفاظ واستدراك ما فات القاصر والاحتراز مما اظهره النقد وردّ ما بهرجه السبك . فاما النهي عن حفظ ذلك فلئلا يكل الخاطر عما في حاصله ويستند الفكر الى ما في مودعه ويكتفي بما ليس له ويتلبس بما لم يعط كلابس ثوبي زور ....

وكذلك (النظر في كتب الامثال) الواردة عن العرب نظما ونثرا كامثال الميداني والفضل بن سلمة الضبي وحمزة الاصبهاني وغيرهم وامثال المحدثين الواردة في اشعارهم كابي العتاهية وابي تمام والمتنبي وامثال المولدين والامثال الموضوعة على السن الحيوان للعرب وغيرهم ليستشهد بالمثل في موضعه ويورده في مكانه ويكون من وراء المعرفة باصله واول من ارسله مثلا ومن استشهد به وذكر سببه ....

واما (التمثل بالشعر) فقد روي ان عمر تمثل يوما بقول النابغة :

ولست بمستبق اخا لا تلمه على شعث اي الرجال المهذب

ثم قال : لمن هذا. فقيل له : للنابغة. فقال : ذاك اشعر شعرائكم.

وسال عمر ابن عباس عن شيء فاجابه عنه فاعجبه جوابه فقال :

شِنْشِنَةٌ اَعْرِفُهَا مِنْ اَخْزَمِ . وَاَمْثَالُ ذٰلِكَ مِمَّا تَمَثَّلَ بِهِ ٱلصَّحَابَةُ كَثِيرٌ .

وَكَذٰلِكَ ٱلنَّظَرُ فِي (ٱلْاَحْكَامِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ) فَاِنَّهُ قَدْ يُؤْمَرُ بِاَمْرٍ فَيَعْرِفُ بِهَا كَيْفَ يُخَلِّصُ قَلَمَهُ عَلَى حُكْمِ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلْمُطَهَّرَةِ مِنْ وِلَايَةِ ٱلْقَضَاءِ وَٱلْحِسْبَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . فَهٰذِهِ اُمُورٌ كُلِّيَّةٌ لَا بُدَّ لِلْمُتَرَشِّحِ لِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنَ ٱلتَّصَدِّي لِلْاِطِّلَاعِ عَلَيْهَا وَٱلْاِكْبَابِ عَلَى مُطَالَعَتِهَا وَٱلْاِسْتِكْثَارِ مِنْهَا . يُنْفِقُ مِنْ تِلْكَ ٱلْمَوَادِّ وَيَسْلُكُ فِي ٱلْوُصُولِ اِلَى تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ بِذٰلِكَ ٱلْجَوَادِ وَاِلَّا فَلْيَعْلَمْ اَنَّهُ فِي وَادٍ وَٱلْكِتَابَةُ فِي وَادٍ

وَاَمَّا ٱلْاُمُورُ ٱلْخَاصَّةُ ٱلَّتِي تَزِيدُ مَعْرِفَتُهَا قَدْرَهُ وَيُزَيِّنُ ٱلْعِلْمُ بِهَا نَظْمَهُ وَنَثْرَهُ فَاِنَّهَا مِنَ ٱلْمُكَمِّلَاتِ لِهٰذَا ٱلْفَنِّ وَاِنْ لَمْ يُضْطَرَّ اِلَيْهَا ذُو ٱلذِّهْنِ ٱلثَّاقِبِ وَٱلطَّبْعِ ٱلسَّلِيمِ وَٱلْقَرِيحَةِ ٱلْمُطَاوِعَةِ وَٱلْفِكْرَةِ ٱلْمُنَقَّحَةِ وَٱلْبَدِيهَةِ ٱلْمُجِيبَةِ وَٱلرَّوِيَّةِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ . لٰكِنَّ ٱلْعَالِمَ بِهَا مُتَمَكِّنٌ مِنْ اَزِمَّةِ ٱلْمَعَانِي يَقُولُ عَنْ عِلْمٍ وَيَتَصَرَّفُ عَنْ مَعْرِفَةٍ وَيَنْتَقِدُ بِحُجَّةٍ وَيَتَخَيَّرُ بِدَلِيلٍ وَيَسْتَحْسِنُ بِبُرْهَانٍ وَيَصُوغُ ٱلْكَلَامَ بِتَرْتِيبٍ

فَمِنْ ذٰلِكَ (عِلْمُ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ وَٱلْبَدِيعُ) وَمَا يَلْحَقُ بِهَا وَاَنَا اُشِيرُ ٱلْاٰنَ اِلَى نُكَتٍ مِنْهَا تَدُلُّ عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِ هٰذَا ٱلْعِلْمِ وَعِظَمِ ٱلْفَائِدَةِ بِهِ وَاَنَّ ٱلْاَدِيبَ وَٱلْكَاتِبَ ٱلْعَارِيَيْنِ مِنْهُ قَاصِرَانِ عَنْ اَدْنَى رُتَبِ ٱلْكَمَالِ يُجِيدَانِ وَلَا يَدْرِيَانِ كَيْفَ يُجِيبَانِ . فَلَوْ سُئِلَ عَنْ عِلَّةِ مَعْنًى اَسْتَحْسَنَهُ اَوْ لَفْظٍ اَسْتَحْلَاهُ اَوْ تَرْكِيبٍ اَسْتَجَادَهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ٱلْاِتْيَانِ بِدَلِيلٍ عَلَى ذٰلِكَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ :

يَا اَبَا جَعْفَرٍ اَتَحْكُمُ فِي ٱلشِّعْـ ـرِ وَمَا فِيكَ آلَةُ ٱلْحُكَّامِ

اِنَّ نَقْدَ ٱلدِّينَارِ اِلَّا عَلَى ٱلصَّرْ فِيِّ صَعْبٌ فَكَيْفَ نَقْدُ ٱلْكَلَامِ
قَدْ رَاَيْنَاكَ لَسْتَ تَفْرِقُ فِي ٱلْاَ م شْعَارِ بَيْنَ ٱلْاَرْوَاحِ وَٱلْاَجْسَامِ

وَحَكَى ٱلْاِمَامُ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ ٱلْجُرْجَانِيُّ قَالَ : رَكِبَ ٱلْكِنْدِيُّ ٱلْمُتَفَلْسِفُ اِلَى اَبِي ٱلْعَبَّاسِ وَقَالَ لَهُ : اِنِّي اَجِدُ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَشْوًا . فَقَالَ لَهُ اَبُو ٱلْعَبَّاسِ : فِي اَيِّ مَوْضِعٍ وَجَدتَّ ذٰلِكَ . قَالَ : وَجَدتُّ ٱلْعَرَبَ تَقُولُ : عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : اِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : اِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ . فَٱلْاَلْفَاظُ مُتَكَرِّرَةٌ وَٱلْمَعْنَى وَاحِدٌ . فَقَالَ اَبُو ٱلْعَبَّاسِ : بَلِ ٱلْمَعَانِي مُخْتَلِفَةٌ لِاخْتِلَافِ ٱلْاَلْفَاظِ . فَقَوْلُهُمْ : عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ اِخْبَارٌ عَنْ قِيَامِهِ . وَقَوْلُهُمْ : اِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ . وَقَوْلُهُمْ : اِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ اِنْكَارِ مُنْكِرٍ قِيَامَهُ . فَمَا اَحَارَ ٱلْمُتَفَلْسِفُ جَوَابًا . فَاِذَا ذَهَبَ مِثْلُ هٰذَا عَلَى ٱلْكِنْدِيِّ فَمَا ٱلظَّنُّ بِغَيْرِهِ . وَاِنْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يَحْكُمُ فِي ٱمْتِزَاجِهِ بِٱلْقُلُوبِ غَيْرُ ٱلذَّوْقِ ٱلسَّلِيمِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

شَيْءٌ بِهِ فُتِنَ ٱلْوَرَى غَيْرُ ٱلَّذِي يُدْعَى ٱلْجَمَالَ وَلَسْتُ اَدْرِي مَا هُوَ

لٰكِنَّ ٱلْغَالِبَ فِي ٱلْكَلَامِ يُعْلَمُ سَبَبُ تَحْسِينِهِ وَتَعَلُّلُ مَوَادِّ تَمْكِينِهِ وَيُجَابُ عَنِ ٱلْعِلَّةِ فِي ٱنْحِطَاطِهِ وَٱرْتِفَاعِهِ وَيُذْكَرُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱرْتِقَائِهِ مِنْ حَضِيضِ ٱلْقَوْلِ اِلَى اَيْفَاعِهِ

الجزء الأول

في علم الانشاء

بحث في تعريف الانشاء

(عن ابي الخير وعن آداب المنشئ لابن صدر الدين)

(راجع الجزء الاول من علم الادب صفحة ١)

اِنَّ ٱلْإِنْشَاءَ عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ ٱلْمَنْثُورِ مِنْ حَيْثُ اِنَّهُ بَلِيغٌ وَفَصِيحٌ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلْآدَابِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَهُمْ فِي ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ وَٱللَّائِقَةِ بِٱلْمَقَامِ . وَمَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ ظَاهِرَةٌ مِمَّا ذُكِرَ وَمَبَادِيهِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَتَبُّعِ ٱلْخُطَبِ وَٱلرَّسَائِلِ بَلْ لَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعُلُومِ سِيَّمَا ٱلْحِكْمَةِ ٱلْعَمَلِيَّةِ وَٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَسِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَوَصَايَا ٱلْعُقَلَاءِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَنَاهِيَةِ . هٰذَا مَا ذَكَرَهُ اَبُو ٱلْخَيْرِ . وَيَنْدَرِجُ فِيهِ مَا اَوْرَدَهُ فِي عِلْمِ مَبَادِئِ ٱلْاِنْشَاءِ وَاَدَوَاتِهِ فَلَا وَجْهَ لِجَعْلِهِ عِلْمًا آخَرَ . وَاَمَّا ٱبْنُ صَدْرِ ٱلدِّينِ فَاِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ سِوَى مَعْرِفَةِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلْمَعَايِبِ وَنُبْذَةً مِنْ آدَابِ ٱلْمُنْشِئِ . وَزُبْدَةُ كَلَامِهِ اَنَّ لِلنَّثْرِ مِنْ حَيْثُ اِنَّهُ نَثْرٌ مَحَاسِنُ وَمَعَايِبُ يَجِبُ عَلَى ٱلْمُنْشِئِ اَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا فَيَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلْمَعَايِبِ . وَلَا بُدَّ اَنْ يَكُونَ اَعْلَى كَعْبًا فِي ٱلْعَرَبِيَّةِ مُحْتَرِزًا عَنِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ وَمَا يُخِلُّ لَهُ بِفَهْمِ ٱلْمُرَادِ وَيُوجِبُ

صُعُوبَتَهُ وَاَنْ يَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلتَّكْرَارِ وَاَنْ يَجْعَلَ ٱلْاَلْفَاظَ تَابِعَةً لِلْمَعَانِي دُونَ ٱلْعَكْسِ . اِذِ ٱلْمَعَانِي اِذَا تَرَكَّبَتْ عَلَى سَجِيَّتِهَا طَلَبَتْ لِاَنْفُسِهَا اَلْفَاظًا تَلِيقُ بِهَا فَيَحْسُنُ ٱللَّفْظُ وَٱلْمَعْنَى جَمِيعًا . وَاَمَّا جَعْلُ ٱلْاَلْفَاظِ مُتَكَلِّفَةً وَٱلْمَعَانِي تَابِعَةً لَهَا فَهُوَ كَلِبَاسٍ مَلِيحٍ عَلَى مَنْظَرٍ قَبِيحٍ فَيَجِبُ اَنْ يَجْتَنِبَ عَمَّا يَفْعَلُهُ بَعْضُ مَنْ لُهِمْ شَغَفٌ بِاِيرَادِ شَيْءٍ مِنَ ٱلْمُحَسِّنَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فَيَصْرِفُونَ ٱلْعِنَايَةَ اِلَى ٱلْمُحَسِّنَاتِ وَيَجْعَلُونَ ٱلْكَلَامَ كَاَنَّهُ غَيْرُ سَوْقٍ لِاِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى فَلَا يُبَالُونَ بِخَفَاءِ ٱلدَّلَالَاتِ وَرَكَاكَةِ ٱلْمَعْنَى . وَمِنْ اَعْظَمِ مَا يَلِيقُ لِمَنْ يَتَعَاطَى ٱلْاِنْشَاءَ اَنْ يَكْتُبَ مَا يُرَادُ لَا مَا يُرِيدُ . كَمَا قِيلَ فِي ٱلصَّاحِبِ وَٱلصَّابِئِ : اِنَّ ٱلصَّابِئَ يَكْتُبُ مَا يُرَادُ وَٱلصَّاحِبُ يَكْتُبُ مَا يُرِيدُ . وَلَا بُدَّ اَنْ يُلَاحَظَ فِي كِتَابِ ٱلنَّثْرِ حَالُ ٱلْمُرْسِلِ وَٱلْمُرْسَلِ اِلَيْهِ وَيُعْنَوْنَ ٱلْكِتَابُ بِمَا يُنَاسِبُ ٱلْمَقَامَ

الفصل الاول

في الفصاحة

البحث الاوّل

في تحديد الفصاحة

(عن الفصاحة والبلاغة للامام السيوطي باختصار)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الاول من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ لُغَةً تُنْبِئُ عَنِ ٱلْاِبَانَةِ وَٱلظُّهُورِ يُقَالُ : فَصُحَ ٱلْاَعْجَمِيُّ وَاَفْصَحَ اِذَا ٱنْطَلَقَ لِسَانُهُ وَخَلُصَتْ لُغَتُهُ مِنَ ٱللُّكْنَةِ وَجَادَتْ فَلَمْ يَلْحَنْ . وَاَفْصَحَ بِهِ اَيْ صَرَّحَ . وَعِنْدَ اَهْلِ ٱلْمَعَانِي تُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ مِنْهَا : وَصْفٌ فِي ٱلْكَلَامِ بِهِ يَقَعُ ٱلتَّفَاضُلُ وَيَثْبُتُ ٱلْاِعْجَازُ . قَالَ ٱلْاِمَامُ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلرَّازِيُّ : اَعْلَمْ اَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ خُلُوصُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ . وَاَصْلُهَا مِنْ قَوْلِهِمْ : اَفْصَحَ ٱللَّبَنُ اِذَا ذَهَبَتْ عَنْهُ ٱلرَّغْوَةُ . وَهِيَ بِٱلْاِصْطِلَاحِ : عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلظَّاهِرَةِ ٱلْمُتَبَادِرَةِ اِلَى ٱلْفَهْمِ وَٱلْمَأْنُوسَةِ ٱلْاِسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا

البحث الثاني

في الفرق بين الفصاحة والبلاغة وموضوعهما

(عن كتاب الصناعتين الكتابة والانشاء لابي هلال العسكري باختصار)

اَلْبَلَاغَةُ مِنْ قَوْلِهِمْ : بَلَغْتُ ٱلْغَايَةَ اِذَا ٱنْتَهَيْتُ اِلَيْهَا وَبَلَّغْتُهَا

غَيْرِي. وَمَبْلَغُ ٱلشَّيْءِ مُنْتَهَاهُ . وَٱلْمُبَالَغَةُ فِي ٱلشَّيْءِ ٱلْٱنْتِهَاءُ اِلَى غَايَتِهِ. فَسُمِّيَتِ ٱلْبَلَاغَةُ بَلَاغَةً لِأَنَّهَا تُنْهِي ٱلْمَعْنَى اِلَى قَلْبِ ٱلسَّامِعِ فَيَفْهَمُهُ وَسُمِّيَتِ ٱلْبُلْغَةُ بُلْغَةً لِأَنَّكَ تَتَبَلَّغُ بِهَا فَتَنْتَهِي بِكَ اِلَى مَا فَوْقَهَا وَهِيَ ٱلْبَلَاغُ اَيْضًا. وَيُقَالُ: ٱلدُّنْيَا بَلَاغٌ لِأَنَّهَا تُؤَدِّيكَ اِلَى ٱلْآخِرَةِ. وَٱلْبَلَاغُ اَيْضًا ٱلتَّبْلِيغُ . وَمِنْهُ : هٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ اَيْ تَبْلِيغٌ. وَيُقَالُ: بَلَغَ ٱلرَّجُلُ بَلَاغَةً اِذَا صَارَ بَلِيغًا كَمَا يُقَالُ نَبَلَ نَبَالَةً اِذَا صَارَ نَبِيلًا. وَكَلَامٌ بَلِيغٌ وَبَلْغٌ (بالفتح) كَمَا يُقَالُ وَجِيزٌ وَوَجْزٌ. وَرَجُلٌ بِلْغٌ (بالكسر) يَبْلُغُ مَا يُرِيدُ وَفِي مَثَلٍ لَهُمْ: اَحْمَقُ بِلْغٌ. وَيُقَالُ : اَبْلَغْتُ فِي ٱلْكَلَامِ اِذَا اَتَيْتَ بِٱلْبَلَاغَةِ فِيهِ كَمَا تَقُولُ : اَبْرَحْتُ اِذَا اَتَيْتَ بِٱلْبُرَحَاءِ وَهُوَ ٱلْأَمْرُ ٱلْجَسِيمُ . وَٱلْبَلَاغَةُ مِنْ صِفَةِ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَلِهٰذَا لَا يَجُوزُ اَنْ يُسَمَّى ٱللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ بَلِيغٌ اِذْ لَا يَجُوزُ اَنْ يُوصَفَ بِصِفَةٍ كَانَ مَوْضُوعُهَا لِلْكَلَامِ وَتَسْمِيَتُنَا ٱلْمُتَكَلِّمَ بِأَنَّهُ بَلِيغٌ تَوَسُّعٌ وَحَقِيقَتُهُ اَنَّ كَلَامَهُ بَلِيغٌ كَمَا تَقُولُ : فُلَانٌ رَجُلٌ مُحْكَمٌ وَتَعْنِي اَنَّ اَفْعَالَهُ مُحْكَمَةٌ . وَكَذٰلِكَ كَثْرَةُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ جَعَلَتْ تَسْمِيَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِ بِأَنَّهُ بَلِيغٌ كَٱلْحَقِيقَةِ

اَمَّا ٱلْفَصَاحَةُ فَقَدْ قَالَ قَوْمٌ اِنَّهَا مِنْ قَوْلِهِمْ : اَفْصَحَ فُلَانٌ عَمَّا فِي نَفْسِهِ اِذَا اَظْهَرَهُ . وَٱلشَّاهِدُ عَلَى اَنَّهَا هِيَ ٱلْاِظْهَارُ قَوْلُ ٱلْعَرَبِ اَفْصَحَ ٱلصُّبْحُ اِذَا اَضَاءَ وَفَصَحَ اَيْضًا . وَاَفْصَحَ ٱلْأَعْجَمِيُّ اِذَا اَبَانَ بَعْدَ اَنْ لَمْ يَكُنْ يُبِينُ وَفَصُحَ ٱللِّحْيَانُ اِذَا عَبَّرَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ وَاَظْهَرَهُ عَلَى جِهَةِ ٱلصَّوَابِ دُونَ ٱلْخَطَإِ . وَاِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ عَلَى هٰذَا فَٱلْفَصَاحَةُ

وَٱلْبَلَاغَةُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ اِذَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا اِنَّمَا هُوَ ٱلْاِبَانَةُ عَنِ ٱلْمَعْنَى وَٱلْاِظْهَارُ لَهُ . وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : ٱلْفَصَاحَةُ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ . فَلِهٰذَا لَا يَجُوزُ اَنْ يُسَمَّى ٱللّٰهُ تَعَالَى فَصِيحًا اِذَا كَانَتِ ٱلْفَصَاحَةُ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى ٱلْآلَةِ وَلَا يَجُوزُ عَلَى ٱللّٰهِ تَعَالَى ٱلْآلَةُ . وَيُوصَفُ كَلَامُهُ بِٱلْفَصَاحَةِ لِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ تَمَامِ ٱلْبَيَانِ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ اَنَّ ٱلْاَلْثَغَ وَٱلتَّمْتَامَ لَا يُسَمَّيَانِ فَصِيحَيْنِ لِنُقْصَانِ آلَتِهِمَا عَنْ اِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ . وَقِيلَ : زِيَادٌ ٱلْاَعْجَمُ . لِنُقْصَانِ آلَةِ نُطْقِهِ عَنْ اِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ وَكَانَ يُعَبِّرُ عَنِ ٱلْحِمَارِ بِٱلْهِمَارِ فَهُوَ اَعْجَمُ وَشِعْرُهُ فَصِيحٌ لِتَمَامِ بَيَانِهِ . فَعَلَى هٰذَا تَكُونُ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ مُخْتَلِفَتَيْنِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ فَهِيَ مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱللَّفْظِ لِاَنَّ ٱلْآلَةَ تَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ دُونَ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْبَلَاغَةُ اِنَّمَا هِيَ اِنْهَاءُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْقَلْبِ فَكَاَنَّهَا مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱلْمَعْنَى . وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى اَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَتَضَمَّنُ ٱللَّفْظَ وَٱلْبَلَاغَةُ تَتَنَاوَلُ ٱلْمَعْنَى اَنَّ ٱلْبَبْغَاءَ يُسَمَّى فَصِيحًا وَلَا يُسَمَّى بَلِيغًا اِذْ هُوَ مُقِيمُ ٱلْحُرُوفِ وَلَيْسَ لَهُ قَصْدٌ اِلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُؤَدِّيهِ . وَقَدْ يَجُوزُ مَعَ هٰذَا اَنْ يُسَمَّى ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ فَصِيحًا بَلِيغًا اِذَا كَانَ وَاضِحَ ٱلْمَعْنَى سَهْلَ ٱللَّفْظِ وَجَيِّدَ ٱلسَّبْكِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ فَجٍّ وَلَا مُتَكَلَّفٍ وَخِمٍ وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ اَحَدِ ٱلْاِسْمَيْنِ شَيْءٌ لِمَا فِيهِ مِنْ اِيضَاحِ ٱلْمَعْنَى وَتَقْوِيمِ ٱلْحُرُوفِ . وَشَهِدْتُ قَوْمًا يَذْهَبُونَ اِلَى اَنَّ ٱلْكَلَامَ لَا يُسَمَّى فَصِيحًا حَتَّى يَجْمَعَ مَعَ هٰذِهِ ٱلنُّعُوتِ فَخَامَةً وَشِدَّةَ جَزَالَةٍ فَيَكُونَ مِثْلَ كَلَامِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ : اِنَّ ٱلنَّاسَ عَبِيدُ ٱلْاَمْوَالِ وَٱلدِّينَ لَعْقٌ عَلَى اَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ بِهِ مَعَايِشُهُمْ فَاِذَا

مُحِصُوا بِالْاِبْتِلَاءِ قَلَّ الدَّيَّانُونَ . وَمَثَلُ الْمَنْظُومِ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

تَرَى غَابَةَ الْخَطِّيِّ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ كَمَا اشْرَقَتْ فَوْقَ الصِّوَارِ قُرُونُهَا

(قَالُوا) وَاِذَا كَانَ الْكَلَامُ يَجْمَعُ نُعُوتَ الْجُودَةِ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ فَخَامَةٌ وَفَضْلُ جَزَالَةٍ سُمِّيَ بَلِيغًا ثُمَّ فَصِيحًا كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ حَالِهِ عِنْدَ الْوَفَاةِ فَقَالَ : مَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بِلَا زَادٍ وَيُقْدِمُ عَلَى مَلِكٍ عَادِلٍ بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَيَسْكُنُ قَبْرًا مُوحِشًا بِلَا اَنِيسٍ . وَقَوْلِ آخَرَ لِاَخٍ لَهُ : مَدَدْتُ اِلَى الْمَوَدَّةِ يَدًا فَشَكَرْنَاكَ وَشَفَعْتَ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْجَفَاءِ فَعَذَرْنَاكَ وَالرُّجُوعُ اِلَى مَحْمُودِ الْوُدِّ اَوْلَى بِكَ مِنَ الْمُقَامِ عَلَى مَكْرُوهِ الصَّدِّ . وَاسْتَدَلُّوا عَلَى صِحَّةِ هٰذَا الْمَذْهَبِ بِقَوْلِ الْعَاصِي بْنِ عَدِيٍّ : الشَّجَاعَةُ قَلْبٌ رَكِينٌ وَالْفَصَاحَةُ لِسَانٌ رَزِينٌ . وَاللِّسَانُ هَا هُنَا الْكَلَامُ . وَالرَّزِينُ الَّذِي فِيهِ فَخَامَةٌ وَجَزَالَةٌ وَلَيْسَ الْغَرَضُ فِي هٰذَا الْكِتَابِ سُلُوكَ مَذْهَبِ الْمُتَكَلِّمِينَ . وَاِنَّمَا قَصَدْتُ فِيهِ مَقْصَدَ صُنَّاعِ الْكَلَامِ مِنَ الشُّعَرَاءِ وَالْكُتَّابِ فَلِهٰذَا لَمْ اُطِلِ الْكَلَامَ فِي هٰذَا الْفَصْلِ

البحث الثالث

في حقيقة الفصاحة

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ هٰذَا بَابٌ مُتَعَذِّرٌ عَلَى الْوَالِجِ وَمَسْلَكٌ مُتَوَعِّرٌ عَلَى

ٱلنَّاهِجِ وَلَمْ يَزَلِ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْ قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ وَحَدِيثِهِ يُكْثِرُونَ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَٱلْبَحْثَ عَنْهُ وَلَمْ اَجِدْ مِنْ ذٰلِكَ مَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ اِلَّا ٱلْقَلِيلَ . وَغَايَةُ مَا يُقَالُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ اَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبَيَانُ فِي اَصْلِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ يُقَالُ : اَفْصَحَ ٱلصُّبْحُ اِذَا ظَهَرَ ثُمَّ اِنَّهُمْ يَقِفُونَ عِنْدَ ذٰلِكَ وَلَا يَكْشِفُونَ عَنِ ٱلسِّرِّ فِيهِ . وَبِهٰذَا ٱلْقَوْلِ لَا تَتَبَيَّنُ حَقِيقَةُ ٱلْفَصَاحَةِ لِاَنَّهُ يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ بِوُجُوهٍ مِنَ ٱلْاِعْتِرَاضَاتِ . (اَحَدُهَا) : اَنَّهُ اِذَا لَمْ يَكُنِ ٱللَّفْظُ ظَاهِرًا بَيِّنًا لَمْ يَكُنْ فَصِيحًا ثُمَّ اِذَا ظَهَرَ وَتَبَيَّنَ صَارَ فَصِيحًا . (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي) : اَنَّهُ اِذَا كَانَ ٱللَّفْظُ ٱلْفَصِيحُ هُوَ ٱلظَّاهِرَ ٱلْبَيِّنَ فَقَدْ صَارَ ذٰلِكَ بِٱلنِّسَبِ وَٱلْاِضَافَاتِ اِلَى ٱلْاَشْخَاصِ فَاِنَّ ٱللَّفْظَ قَدْ يَكُونُ ظَاهِرًا لِزَيْدٍ وَلَا يَكُونُ ظَاهِرًا لِعَمْرٍو فَهُوَ اِذَنْ فَصِيحٌ عِنْدَ هٰذَا وَغَيْرُ فَصِيحٍ عِنْدَ هٰذَا . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْفَصِيحُ هُوَ فَصِيحٌ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ لَا خِلَافَ فِيهِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْاَحْوَالِ لِاَنَّهُ اِذَا تَحَقَّقَ حَدُّ ٱلْفَصَاحَةِ وَعُرِفَ مَاهِيَ لَمْ يَبْقَ فِي ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ خِلَافٌ . (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّالِثُ) : اَنَّهُ اِذَا جِيءَ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَنْبُو عَنْهُ ٱلسَّمْعُ وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ فَصِيحًا وَلَيْسَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ وَصْفُ حُسْنٍ لِلَّفْظِ لَا وَصْفُ قُبْحٍ . فَهٰذِهِ ٱلْاِعْتِرَاضَاتُ ٱلثَّلَاثَةُ وَارِدَةٌ عَلَى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ اِنَّ ٱللَّفْظَ ٱلْفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ .

وَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَى اَقْوَالِ ٱلنَّاسِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ مَلَكَتْنِي ٱلْحَيْرَةُ فِيهَا وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدِي مِنْهَا مَا اُعَوِّلُ عَلَيْهِ وَلِكَثْرَةِ مُلَابَسَتِي هٰذَا ٱلْفَنَّ وَمُعَارَكَتِي اِيَّاهُ اَنْكَشَفَ لِي ٱلسِّرُّ فِيهِ وَسَاُوضِحُهُ فِي كِتَابِي هٰذَا

وَاُحَقِّقُ ٱلْقَوْلَ فِيهِ فَاَقُولُ : اِنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ وَاَعْنِي بِٱلظَّاهِرِ ٱلْمُبَيِّنِ اَنْ تَكُونَ اَلْفَاظُهُ مَفْهُومَةً لَا يُحْتَاجُ فِي فَهْمِهَا اِلَى ٱسْتِخْرَاجٍ مِنْ كِتَابِ لُغَةٍ . وَاِنَّمَا كَانَتْ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ لِاَنَّهَا تَكُونُ مَأْلُوفَةَ ٱلِاسْتِعْمَالِ بَيْنَ اَرْبَابِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ دَائِرَةً فِي كَلَامِهِمْ . وَاِنَّمَا كَانَتْ مَأْلُوفَةَ ٱلِاسْتِعْمَالِ دَائِرَةً فِي ٱلْكَلَامِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا . وَذٰلِكَ اَنَّ اَرْبَابَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ غَرْبَلُوا ٱللُّغَةَ بِاَعْتِبَارِ اَلْفَاظِهَا وَسَبَرُوا وَقَسَّمُوا فَاخْتَارُوا ٱلْحَسَنَ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ فَٱسْتَعْمَلُوهُ وَنَفَوُا ٱلْقَبِيحَ مِنْهَا فَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ فَحُسْنُ ٱلِاسْتِعْمَالِ سَبَبُ ٱسْتِعْمَالِهَا دُونَ غَيْرِهَا وَٱسْتِعْمَالُهَا سَبَبُ ظُهُورِهَا وَبَيَانِهَا . فَٱلْفَصِيحُ اِذَنْ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ هُوَ ٱلْحَسَنُ . فَاِنْ قِيلَ : مِنْ اَيِّ وَجْهٍ عَلِمَ اَرْبَابُ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ ٱلْحَسَنَ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ حَتَّى ٱسْتَعْمَلُوهُ وَعَلِمُوا ٱلْقَبِيحَ مِنْهَا حَتَّى نَفَوْهُ وَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ . قُلْتُ فِي ٱلْجَوَابِ : اِنَّ هٰذَا مِنَ ٱلْاُمُورِ ٱلْمَحْسُوسَةِ ٱلَّتِي شَاهِدُهَا مِنْ نَفْسِهَا لِاَنَّ ٱلْاَلْفَاظَ دَاخِلَةٌ فِي حَيِّزِ ٱلْاَصْوَاتِ فَٱلَّذِي يَسْتَلِذُّهُ ٱلسَّمْعُ مِنْهَا وَيَمِيلُ اِلَيْهِ هُوَ ٱلْحَسَنُ وَٱلَّذِي يَكْرَهُهُ وَيَنْفِرُ عَنْهُ ٱلْقَبِيحُ . اَلَا تَرَى اَنَّ ٱلسَّمْعَ يَسْتَلِذُّ صَوْتَ ٱلْبُلْبُلِ مِنَ ٱلطَّيْرِ وَصَوْتَ ٱلشُّحْرُورِ وَيَمِيلُ اِلَيْهِمَا وَيَكْرَهُ صَوْتَ ٱلْغُرَابِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَكَذٰلِكَ يَكْرَهُ نَهِيقَ ٱلْحِمَارِ وَلَا يَجِدُ ذٰلِكَ فِي صَهِيلِ ٱلْفَرَسِ . وَٱلْاَلْفَاظُ جَارِيَةٌ هٰذَا ٱلْمَجْرَى فَاِنَّهُ لَا خِلَافَ فِي اَنَّ لَفْظَةَ ٱلْمُزْنَةِ وَٱلدِّيمَةِ حَسَنَةٌ يَسْتَلِذُّهَا ٱلسَّمْعُ . وَاَنَّ لَفْظَةَ ٱلْبُعَاقِ قَبِيحَةٌ يَكْرَهُهَا ٱلسَّمْعُ . وَهٰذِهِ ٱللَّفْظَاتُ ٱلثَّلَاثُ مِنْ صِفَةِ ٱلْمَطَرِ وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ . وَمَعَ هٰذَا فَاِنَّكَ تَرَى لَفْظَتَيِ ٱلْمُزْنَةِ

وَٱلدِّيمَةِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مَأْلُوفَتِي ٱلِاسْتِعْمَالِ وَتَرَى لَفْظَ ٱلْبُعَاقِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ مَتْرُوكًا لَا يُسْتَعْمَلُ . وَإِنِ ٱسْتُعْمِلَ فَإِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ جَاهِلٌ بِحَقِيقَةِ ٱلْفَصَاحَةِ أَوْ ذَوْقُهُ غَيْرُ ذَوْقٍ سَلِيمٍ وَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا مَحْضًا مِنَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأَقْدَمِينَ فَإِنَّ حَقِيقَةَ ٱلشَّيْءِ إِذَا عُلِمَتْ وَجَبَ ٱلْوُقُوفُ عِنْدَهَا وَلَمْ يُعَرَّجْ عَلَى مَا خَرَجَ عَنْهَا . وَإِذَنْ ثَبَتَتْ أَنَّ ٱلْفَصِيحَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ وَإِنَّمَا كَانَ ظَاهِرًا بَيِّنًا لِأَنَّهُ مَأْلُوفُ ٱلِاسْتِعْمَالِ وَإِنَّمَا كَانَ مَأْلُوفَ ٱلِاسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهِ وَحُسْنُهُ مُدْرَكٌ بِٱلسَّمْعِ . وَٱلَّذِي يُدْرَكُ بِٱلسَّمْعِ إِنَّمَا هُوَ ٱللَّفْظُ لِأَنَّهُ صَوْتٌ يَأْتَلِفُ عَنْ مَخَارِجِ ٱلْحُرُوفِ فَمَا ٱسْتَلَذَّهُ ٱلسَّمْعُ مِنْهُ فَهُوَ ٱلْحَسَنُ وَمَا كَرِهَهُ فَهُوَ ٱلْقَبِيحُ وَٱلْحَسَنُ هُوَ ٱلْمَوْصُوفُ بِٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْقَبِيحُ غَيْرُ مَوْصُوفٍ بِفَصَاحَةٍ لِأَنَّهُ ضِدُّهَا لِمَكَانِ قُبْحِهِ . وَقَدْ مَثَّلْتُ ٱلْمِثَالَ ٱلْمُتَقَدِّمَ بِلَفْظَةِ ٱلْمُزْنَةِ وَٱلدِّيمَةِ وَلَفْظَةِ ٱلْبُعَاقِ وَلَوْ كَانَتِ ٱلْفَصَاحَةُ لِأَمْرٍ يَرْجِعُ إِلَى ٱلْمَعْنَى لَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظُ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ سَوَاءً لَيْسَ مِنْهَا حَسَنٌ وَمِنْهَا قَبِيحٌ . وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ عَلِمْنَا أَنَّهَا تَخُصُّ ٱللَّفْظَ دُونَ ٱلْمَعْنَى . وَلَيْسَ لِقَائِلٍ هٰهُنَا أَنْ يَقُولَ لَا لَفْظَ إِلَّا بِمَعْنًى فَكَيْفَ فَصَلْتَ أَنْتَ بَيْنَ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى . قُلْتُ : لَمْ أَفْصِلْ بَيْنَهُمَا وَإِنَّمَا خَصَّصْتُ ٱللَّفْظَ بِصِفَةٍ هِيَ لَهُ وَٱلْمَعْنَى يَجِيءُ فِيهِ ضِمْنًا وَتَبَعًا

البحث الرابع

في احكام الفصاحة وشروطها

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣و٤ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّهُ يَحْتَاجُ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي تَأْلِيفِهِ اِلى ثَلَاثَةِ اَشْيَاءَ : (اَلْاَوَّلُ) مِنْهَا اِخْتِيَارُ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُفْرَدَةِ . وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱللَّآلِئِ ٱلْمُبَدَّدَةِ فَاِنَّهَا تُتَخَيَّرُ وَتُنْتَقَى قَبْلَ ٱلنَّظْمِ . (اَلثَّانِي) نَظْمُ كُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ اُخْتِهَا فِي ٱلْمُشَاكَلَةِ لَهَا لِئَلَّا يَجِيءَ ٱلْكَلَامُ قَلِقًا نَافِرًا عَنْ مَوَاضِعِهِ وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱلْعِقْدِ ٱلْمَنْظُومِ فِي اِقْتِرَانِ كُلِّ لُؤْلُؤَةٍ مِنْهُ بِأُخْتِهَا ٱلْمُشَاكِلَةِ لَهَا . (اَلثَّالِثُ) ٱلْغَرَضُ ٱلْمَقْصُودُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ عَلَى اخْتِلَافِ اَنْوَاعِهِ وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يُوضَعُ فِيهِ ٱلْعِقْدُ ٱلْمَنْظُومُ فَتَارَةً يُجْعَلُ اِكْلِيلًا عَلَى ٱلرَّأْسِ وَتَارَةً يُجْعَلُ قِلَادَةً فِي ٱلْعُنُقِ وَتَارَةً يُجْعَلُ شَنْفًا فِي ٱلْأُذُنِ وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ هَيْئَةٌ مِنَ ٱلْحُسْنِ تَخُصُّهُ . فَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ اَشْيَاءَ لَا بُدَّ لِلْخَطِيبِ وَٱلشَّاعِرِ مِنَ ٱلْعِنَايَةِ بِهَا وَهِيَ ٱلْاَصْلُ ٱلْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ . فَٱلْاَوَّلُ وَٱلثَّانِي مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمَذْكُورَةِ هُمَا ٱلْمُرَادُ بِٱلْفَصَاحَةِ . وَٱلثَّلَاثَةُ بِجُمْلَتِهَا هِيَ ٱلْمُرَادُ بِٱلْبَلَاغَةِ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَضِلُّ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهِ ٱلْعُلَمَاءُ بِصِنَاعَةِ صَوْغِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ فَكَيْفَ ٱلْجُهَّالُ ٱلَّذِينَ لَمْ تَنْفَحْهُمْ رَائِحَتُهُ . وَمَنْ

ٱلَّذِي يُؤتِيهِ ٱللهُ فِطْرَةً نَاصِعَةً يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى مَا يَسْتَعْمِلُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ فَيَضَعَهَا فِي مَوَاضِعِهَا

وَقَدْ ذَكَرَ مَنْ تَقَدَّمَنِي مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ لِلْأَلْفَاظِ ٱلْمُفْرَدَةِ خَصَائِصَ وَهَيْئَاتٍ تَتَّصِفُ بِهَا وَٱخْتَلَفُوا فِي ذٰلِكَ وَٱسْتَحْسَنَ أَحَدُهُمْ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ وَكَذٰلِكَ ٱسْتَقْبَحَ ٱلْآخَرُ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ . وَلَوْ حَقَّقُوا ٱلنَّظَرَ وَوَقَفُوا عَلَى ٱلسِّرِّ فِي ٱتِّصَافِ بَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ بِٱلْحُسْنِ وَبَعْضِهَا بِٱلْقُبْحِ لَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا

وَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْجُهَّالِ إِذَا قِيلَ لِأَحَدِهِمْ إِنَّ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ حَسَنَةٌ وَهٰذِهِ قَبِيحَةٌ أَنْكَرَ ذٰلِكَ وَقَالَ : كُلُّ ٱلْأَلْفَاظِ حَسَنٌ وَٱلْوَاضِعُ لَمْ يَضَعْ إِلَّا حَسَنًا . وَمَنْ يَبْلُغْ جَهْلُهُ إِلَى أَنْ لَا يُفَرِّقَ بَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْغُصْنِ وَلَفْظَةِ ٱلْعُسْلُوجِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْمُدَامَةِ وَلَفْظَةِ ٱلْإِسْفِنْطِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلسَّيْفِ وَلَفْظَةِ ٱلْخَنْشَلِيلِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْأَسَدِ وَلَفْظَةِ ٱلْفَدَوْكَسِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُخَاطَبَ بِخِطَابٍ وَيُجَاوَبَ بِجَوَابٍ

وَقَدْ بَقِيَتْ هُنَاكَ أَوْصَافٌ أُخَرُ يَنْبَغِي أَنْ يُنَبَّهَ عَلَيْهَا . فَمِنْهَا أَنْ لَا تَكُونَ ٱلْكَلِمَةُ وَحْشِيَّةً . وَقَدْ خَفِيَ ٱلْوَحْشِيُّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلْمُنْتَمِينَ إِلَى صِنَاعَةِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَظَنُّوهُ ٱلْمُسْتَقْبَحَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْوَحْشِيُّ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا غَرِيبٌ حَسَنٌ وَٱلْآخَرُ غَرِيبٌ قَبِيحٌ . وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى ٱسْمِ ٱلْوَحْشِ ٱلَّذِي يَسْكُنُ ٱلْقِفَارَ وَلَيْسَ بِآنِسٍ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَلْفَاظُ ٱلَّتِي لَمْ تَكُنْ مَأْنُوسَةَ ٱلِٱسْتِعْمَالِ . وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ ٱلْوَحْشِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبَحًا بَلْ أَنْ يَكُونَ نَافِرًا لَا يَأْلَفُ

ٱلْإِنْسَ فَتَارَةً يَكُونُ حَسَنًا وَتَارَةً يَكُونُ قَبِيحًا . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّ أَحَدَ قِسْمَيِ ٱلْوَحْشِيِّ وَهُوَ ٱلْغَرِيبُ ٱلْحَسَنُ يَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ ٱلنِّسَبِ وَٱلْإِضَافَاتِ . وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلْآخَرُ مِنَ ٱلْوَحْشِيِّ ٱلَّذِي هُوَ قَبِيحٌ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ فِي ٱسْتِقْبَاحِهِ سَوَاءٌ وَلَا يَخْتَلِفُ بِهِ عَرَبِيٌّ بَادٍ وَلَا قَرَوِيٌّ مُتَحَضِّرٌ. وَأَحْسَنُ ٱلْأَلْفَاظِ مَا كَانَ مَأْلُوفًا مُتَدَاوَلًا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَأْلُوفًا مُتَدَاوَلًا إِلَّا لِمَكَانِ حُسْنِهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْكَلَامُ عَلَى ذٰلِكَ فِي بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَإِنَّ أَرْبَابَ ٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ نَظَرُوا إِلَى ٱلْأَلْفَاظِ وَنَقَّبُوا عَنْهَا ثُمَّ عَدَلُوا إِلَى ٱلْأَحْسَنِ مِنْهَا فَٱسْتَعْمَلُوهُ وَتَرَكُوا مَا سِوَاهُ وَهُوَ أَيْضًا يَتَفَاوَتُ فِي دَرَجَاتِ حُسْنِهِ فَٱلْأَلْفَاظُ إِذَنْ تَنْقَسِمُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ : قِسْمَانِ حَسَنَانِ وَقِسْمٌ قَبِيحٌ . فَٱلْقِسْمَانِ ٱلْحَسَنَانِ أَحَدُهُمَا مَا تَدَاوَلَ ٱسْتِعْمَالَهُ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ مِنَ ٱلزَّمَنِ ٱلْقَدِيمِ إِلَى زَمَانِنَا هٰذَا وَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ وَحْشِيٌّ. وَٱلْآخَرُ مَا تَدَاوَلَ ٱسْتِعْمَالَهُ ٱلْأَوَّلُ دُونَ ٱلْآخِرِ وَيَخْتَلِفُ فِي ٱسْتِعْمَالِهِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلزَّمَنِ وَأَهْلِهِ وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي لَا يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ وَحْشِيًّا وَهُوَ عِنْدَنَا وَحْشِيٌّ

وَلَا يَسْبِقْ وَهْمُكَ أَيُّهَا ٱلْمُتَأَمِّلُ إِلَى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ ٱلَّذِي غَلَبَ عَلَيْهِ غَلَطُ ٱلطَّبْعِ وَفَجَاجَةُ ٱلذِّهْنِ بِأَنَّ ٱلْعَرَبَ كَانَتْ تَسْتَعْمِلُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ كَذَا وَكَذَا فَهٰذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ حَسَنٌ . بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ ٱلَّذِي نَسْتَحْسِنُهُ نَحْنُ فِي زَمَانِنَا هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي كَانَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ مُسْتَحْسَنًا وَٱلَّذِي نَسْتَقْبِحُهُ هُوَ ٱلَّذِي كَانَ عِنْدَهُمْ مُسْتَقْبَحًا. وَٱلِٱسْتِعْمَالُ لَيْسَ بِدَلِيلٍ عَلَى ٱلْحُسْنِ فَإِنَّا نَحْنُ نَسْتَعْمِلُ ٱلْآنَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا

لَيْسَ بِحَسَنٍ وَإِنَّمَا نَسْتَعْمِلُهُ لِضَرُورَةٍ فَلَيْسَ اسْتِعْمَالُ الْحَسَنِ بِمُمْكِنٍ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ . وَهٰذَا طَرِيقٌ يَضِلُّ بِغَيْرِ الْعَارِفِ بِمَسَالِكِهِ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ صِنَاعَةَ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ وَمَا يَجِدُهُ صَاحِبُهَا مِنَ الْكُلْفَةِ فِي صَوْغِ الْأَلْفَاظِ وَاخْتِيَارِهَا فَإِنَّهُ مَعْذُورٌ فِي أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ :

لَا يَعْرِفُ الْحُزْنَ إِلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ وَلَا الصَّبَابَةَ إِلَّا مَنْ يُعَانِيهَا

وَمَعَ هٰذَا فَإِنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ : بِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَسْتَعْمِلُ مِنَ الْأَلْفَاظِ كَذَا وَكَذَا وَهٰذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ حَسَنٌ. قَوْلٌ فَاسِدٌ لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ جَاهِلٍ. فَإِنَّ اسْتِحْسَانَ الْأَلْفَاظِ وَاسْتِقْبَاحَهَا لَا يُؤْخَذُ بِالتَّقْلِيدِ مِنَ الْعَرَبِ لِأَنَّهُ شَيْءٌ لَيْسَ لِلتَّقْلِيدِ فِيهِ مَجَالٌ وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ لَهُ خَصَائِصُ وَهَيْئَاتٌ وَعَلَامَاتٌ إِذَا وُجِدَتْ عُلِمَ حُسْنُهُ مِنْ قُبْحِهِ. وَأَمَّا الَّذِي نُقَلِّدُ الْعَرَبَ فِيهِ مِنَ الْأَلْفَاظِ فَإِنَّمَا هُوَ الِاسْتِشْهَادُ بِأَشْعَارِهَا عَلَى مَا يُنْقَلُ مِنْ لُغَتِهَا وَالْأَخْذُ بِأَقْوَالِهَا فِي الْأَوْضَاعِ النَّحْوِيَّةِ فِي رَفْعِ الْفَاعِلِ وَنَصْبِ الْمَفْعُولِ وَجَرِّ الْمُضَافِ إِلَيْهِ وَجَزْمِ الشَّرْطِ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ وَمَا عَدَاهُ فَلَا . وَحُسْنُ الْأَلْفَاظِ وَقُبْحُهَا لَيْسَ إِضَافِيًّا إِلَى زَيْدٍ دُونَ عَمْرٍو أَوْ إِلَى عَمْرٍو دُونَ زَيْدٍ لِأَنَّهُ وَصْفٌ ذَوَوِيٌّ لَا يَتَغَيَّرُ إِلَّا بِالْإِضَافَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّ لَفْظَةَ الْمُزْنَةِ مَثَلًا حَسَنَةٌ عِنْدَ النَّاسِ كَافَّةً مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ وَهَلُمَّ جَرًّا لَا يَخْتَلِفُ أَحَدٌ فِي حُسْنِهَا . وَكَذٰلِكَ لَفْظَةُ الْبُعَاقِ فَإِنَّهَا قَبِيحَةٌ عِنْدَ النَّاسِ كَافَّةً مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ فَإِذَا اسْتَعْمَلَتْهَا الْعَرَبُ لَا يَكُونُ اسْتِعْمَالُهُمْ إِيَّاهَا مُخْرِجًا لَهَا عَنِ الْقُبْحِ وَلَا يُلْتَفَتُ إِذَنْ إِلَى اسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهَا بَلْ يُعَابُ مُسْتَعْمِلُهَا وَيُغَلَّظُ لَهُ النَّكِيرُ حَيْثُ اسْتَعْمَلَهَا

فَلَا تَظُنَّ اَنَّ ٱلْوَحْشِيَّ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ مَا يَكْرَهُهُ سَمْعُكَ وَيَثْقُلُ عَلَيْكَ ٱلنُّطْقُ بِهِ وَاِنَّمَا هُوَ ٱلْغَرِيبُ ٱلَّذِي يَقِلُّ ٱسْتِعْمَالُهُ فَتَارَةً يَخِفُّ عَلَى سَمْعِكَ وَلَا تَجِدُ بِهِ كَرَاهَةً وَتَارَةً يَثْقُلُ عَلَى سَمْعِكَ وَتَجِدُ مِنْهُ ٱلْكَرَاهَةَ . وَذٰلِكَ فِي ٱللَّفْظِ عَيْبَانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّهُ غَرِيبُ ٱلْاِسْتِعْمَالِ (وَٱلْاٰخَرُ) اَنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَى ٱلسَّمْعِ كَرِيهٌ عَلَى ٱلذَّوْقِ . وَاِذَا كَانَ ٱللَّفْظُ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ فَلَا مَزِيدَ عَلَى فَظَاظَتِهِ وَغَلَاظَتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْوَحْشِيَّ ٱلْغَلِيظَ وَيُسَمَّى اَيْضًا ٱلْمُتَوَعِّرَ وَلَيْسَ وَرَاءَهُ فِي ٱلْقُبْحِ دَرَجَةٌ اُخْرَى وَلَا يَسْتَعْمِلُهُ اِلَّا اَجْهَلُ ٱلنَّاسِ مِمَّنْ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ شَيْءٌ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذَا ٱلْفَنِّ اَصْلًا . فَاِنْ قِيلَ : فَمَا هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ . قُلْتُ : قَدْ ثَبَتَ لَكَ اَنَّهُ مَا كَرِهَهُ سَمْعُكَ وَثَقُلَ عَلَى لِسَانِكَ ٱلنُّطْقُ بِهِ . وَسَاَضْرِبُ لَكَ فِي ذٰلِكَ مِثَالًا فَمِنْهُ مَا وَرَدَ لِتَاَبَّطَ شَرًّا فِي كِتَابِ ٱلْحَمَاسَةِ :

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا جَحِيشًا وَيَعْرَوْرِي ظُهُورَ ٱلْمَسَالِكِ

فَاِنَّ لَفْظَةَ (جَحِيشٍ) مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُنْكَرَةِ ٱلْقَبِيحَةِ . وَيَا لِلّٰهِ ٱلْعَجَبُ اَلَيْسَ اَنَّهَا بِمَعْنَى (فَرِيدٍ) وَفَرِيدٌ لَفْظَةٌ حَسَنَةٌ رَائِقَةٌ وَلَوْ وُضِعَتْ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ مَوْضِعَ جَحِيشٍ لَمَا ٱخْتَلَّ شَيْئًا مِنْ وَزْنِهِ . فَتَاَبَّطَ شَرًّا مَلُومٌ مِنْ وَجْهَيْنِ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ : اَحَدُهُمَا اَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْقَبِيحَ . وَٱلْاٰخَرُ اَنَّهُ كَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنِ ٱسْتِعْمَالِهِ فَلَمْ يَعْدِلْ عَنْهُ . وَمِمَّا هُوَ اَقْبَحُ مِنْهَا مَا وَرَدَ لِاَبِي تَمَّامٍ قَوْلُهُ :

قَدْ قُلْتُ لَمَّا ٱطْلَخَمَّ ٱلْاَمْرُ وَٱنْبَعَثَتْ عَشْوَاءُ تَالِيَةٌ غُبْسًا دَهَارِيسَا

فَلَفْظَةُ (اَطْلَخَمَّ) مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُنْكَرَةِ ٱلَّتِي جَمَعَتِ ٱلْوَصْفَيْنِ ٱلْقَبِيحَيْنِ فِي اَنَّهَا غَرِيبَةٌ وَاَنَّهَا غَلِيظَةٌ فِي ٱلسَّمْعِ كَرِيهَةٌ عَلَى ٱلذَّوْقِ وَكَذٰلِكَ لَفْظَةُ (دَهَارِيس) اَيْضًا . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُهُ مِنْ اَبْيَاتٍ يَصِفُ فَرَسًا مِنْ جُمْلَتِهَا :

نِعْمَ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا حَبَاكَ بِهِ اَرْوَعُ لَاجَيْدَرٌ وَلَاجِبْسُ

فَلَفْظَةُ (جَيْدَرٍ) غَلِيظَةٌ . وَاَغْلَظُ مِنْهَا قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

جَفَخَتْ وَهُمْ لَايَجْفَخُونَ بِهَا بِهِمْ شِيَمٌ عَلَى ٱلْحَسَبِ ٱلْاَغَرِّ دَلَائِلُ

فَاِنَّ لَفْظَةَ (جَفَخَ) مُرَّةُ ٱلطَّعْمِ وَاِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلسَّمْعِ ٱقْشَعَرَّ مِنْهَا وَاَبُو ٱلطَّيِّبِ فِي ٱسْتِعْمَالِهَا كَٱسْتِعْمَالِ تَاَبَّطَ شَرًّا لَفْظَةَ جَحِيشٍ . فَاِنَّ تَاَبَّطَ شَرًّا كَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنِ ٱسْتِعْمَالِ تِلْكَ ٱللَّفْظَةِ كَمَا اَشَرْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ . وَكَذٰلِكَ اَبُو ٱلطَّيِّبِ فِي ٱسْتِعْمَالِ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةِ ٱلَّتِي هِيَ جَفَخَتْ فَاِنَّ مَعْنَاهَا فَخَرَتْ وَٱلْجَفْخُ ٱلْفَخْرُ يُقَالُ : جَفَخَ فُلَانٌ اِذَا فَخَرَ . وَلَوِ ٱسْتَعْمَلَ عِوَضًا عَنْ جَفَخَتْ فَخَرَتْ لَٱسْتَقَامَ ٱلْبَيْتُ وَحَظِيَ فِي ٱسْتِعْمَالِهِ بِٱلْاَحْسَنِ . وَمَا اَعْلَمُ كَيْفَ يَذْهَبُ هٰذَا وَاَمْثَالُهُ عَلَى مِثْلِ هَؤُلَاءِ ٱلْفُحُولِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ . وَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْتُهُ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ هُوَ ٱلْوَحْشِيُّ ٱلْغَلِيظُ ٱلَّذِي لَيْسَ لَهُ مَا يُدَانِيهِ فِي قُبْحِهِ وَكَرَاهَتِهِ . وَهٰذِهِ ٱلْاَمْثِلَةُ دَلِيلٌ عَلَى مَا اَوْرَدْنَاهُ . وَٱلْعَرَبُ اِذَنْ لَا تُلَامُ عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلْغَرِيبِ ٱلْحَسَنِ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ وَاِنَّمَا تُلَامُ عَلَى ٱلْغَرِيبِ ٱلْقَبِيحِ . وَاَمَّا ٱلْحَضَرِيُّ فَاِنَّهُ عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلْقِسْمَيْنِ مَعًا وَهُوَ فِي اَحَدِهِمَا اَشَدُّ مَلَامَةً مِنْهُ فِي ٱلْاٰخَرِ

البحث الخامس

في الالفاظ المترادفة والاسماء المشتركة

(عن المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٦ من علم الادب)

وَيَفْتَقِرُ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ اِلَى مَعْرِفَةِ عِدَّةِ اَسْمَاءٍ لِمَا يَقَعُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ لِيَجِدَ اِذَا ضَاقَ بِهِ مَوْضِعٌ فِي كَلَامِهِ بِاِيرَادِ بَعْضِ ٱلْاَلْفَاظِ فِيهِ ٱلْعُدُولَ عَنْهُ اِلَى غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ . وَهٰذِهِ ٱلْاَسْمَاءُ تُسَمَّى ٱلْمُتَرَادِفَةَ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلْمُسَمَّى وَٱخْتِلَافُ اَسْمَائِهِ كَقَوْلِنَا : ٱلْخَمْرُ وَٱلرَّاحُ وَٱلْمُدَامُ . فَاِنَّ ٱلْمُسَمَّى بِهٰذِهِ ٱلْاَسْمَاءِ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَاَسْمَاؤُهُ كَثِيرَةٌ . وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ اِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّجْنِيسِ فِي كَلَامِهِ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلِاسْمِ وَٱخْتِلَافُ ٱلْمُسَمَّيَاتِ . كَٱلْعَيْنِ فَاِنَّهَا تُطْلَقُ عَلَى ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَعَلَى يَنْبُوعِ ٱلْمَاءِ وَعَلَى ٱلْمَطَرِ وَغَيْرِهِ . اِلَّا اَنَّ ٱلْمُشْتَرَكَةَ تَفْتَقِرُ فِي ٱلِاسْتِعْمَالِ اِلَى قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهَا كَيْ لَا تَكُونَ مُبْهَمَةً . لِاَنَّا اِذَا قُلْنَا : عَيْنٌ . ثُمَّ سَكَتْنَا وَقَعَ ذٰلِكَ عَلَى مُحْتَمَلَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَٱلْعَيْنِ ٱلنَّابِعَةِ وَٱلْمَطَرِ وَغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ مَوْضُوعٌ بِاِزَاءِ هٰذَا ٱلِاسْمِ . وَاِذَا قُرِنَ اِلَيْهِ قَرِينَةٌ تَخُصُّهُ زَالَ ذٰلِكَ ٱلْاِبْهَامُ بِاَنْ تَقُولَ : عَيْنٌ حَسْنَاءُ اَوْ عَيْنٌ نَضَّاخَةٌ اَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ لِلْعُلَمَاءِ فِيهِ مُجَاذَبَاتٌ جَدَلِيَّةٌ . فَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ ٱلْمُشْتَرَكُ حَقِيقَةً فِي ٱلْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا وَيَقُولُ :

انَّ ذٰلِكَ يُخِلُّ بِفَائِدَةِ وَضْعِ ٱللُّغَةِ لِاَنَّ ٱللُّغَةَ اِنَّمَا هِيَ وَضْعُ ٱلْاَلْفَاظِ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي اَيْ وَضْعُ ٱلْاَسْمَاءِ عَلَى ٱلْمُسَمَّيَاتِ لِتَكُونَ مُنْبِئَةً عَنْهَا عِنْدَ اِطْلَاقِ ٱللَّفْظِ وَٱلْاِشْتِرَاكِ لَا بَيَانَ فِيهِ وَاِنَّمَا هُوَ ضِدُّ ٱلْبَيَانِ. لٰكِنَّ طَرِيقَ ٱلْبَيَانِ اَنْ يُجْعَلَ اَحَدُ ٱلْمَعْنَيَيْنِ فِي ٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ حَقِيقَةً وَٱلْآخَرُ مَجَازِيًا. فَاِذَا قُلْنَا: هٰذِهِ كَلِمَةٌ. وَاَطْلَقْنَا ٱلْقَوْلَ فُهِمَ مِنْهُ ٱللَّفْظَةُ ٱلْوَاحِدَةُ. وَاِذَا قَيَّدْنَا ٱللَّفْظَ فَقُلْنَا: هٰذِهِ كَلِمَةٌ شَاعِرَةٌ. فُهِمَ مِنْهُ ٱلْقَصِيدَةُ ٱلْمُقَصَّدَةُ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهِيَ مَجْمُوعُ كَلِمَاتٍ كَثِيرَةٍ. وَلَوْ اَطْلَقْنَا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ وَاَرَدْنَا ٱلْقَصِيدَةَ مِنَ ٱلشِّعْرِ لَمَا فُهِمَ مُرَادُنَا ٱلْبَتَّةَ. هٰذَا خُلَاصَةُ مَا ذَهَبَ اِلَيْهِ مَنْ يُنْكِرُ وُقُوعَ ٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ فِي ٱلْمَعْنَيَيْنِ حَقِيقَةً. وَفِي ذٰلِكَ مَا فِيهِ. وَسَأُبَيِّنُ مَا يَدْخُلُهُ مِنَ ٱلْخَلَلِ فَاَقُولُ فِي ٱلْجَوَابِ عَنْ ذٰلِكَ مَا ٱسْتَخْرَجْتُهُ بِفِكْرِي وَلَمْ يَكُنْ لِاَحَدٍ فِيهِ قَوْلٌ مِنْ قَبْلِي وَهُوَ: اَمَّا قَوْلُكَ: اِنَّ فَائِدَةَ وَضْعِ ٱللُّغَةِ اِنَّمَا هُوَ ٱلْبَيَانُ عِنْدَ اِطْلَاقِ ٱللَّفْظِ وَٱللَّفْظُ ٱلْمُشْتَرَكُ يُخِلُّ بِهٰذِهِ ٱلْفَائِدَةِ. فَهٰذَا غَيْرُ مُسَلَّمٍ بَلْ فَائِدَةُ وَضْعِ ٱللُّغَةِ هُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلتَّحْسِينُ

(اَمَّا ٱلْبَيَانُ) فَقَدْ وَفَى ٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمُتَبَايِنَةُ ٱلَّتِي كُلُّ اِسْمٍ وَاحِدٍ دَلَّ عَلَى مُسَمًّى وَاحِدٍ. فَاِذَا اُطْلِقَ ٱللَّفْظُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَسْمَاءِ كَانَ بَيِّنًا مَفْهُومًا لَا يَحْتَاجُ اِلَى قَرِينَةٍ وَلَوْ لَمْ يَضَعِ ٱلْوَاضِعُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ شَيْئًا غَيْرَهَا لَكَانَ كَافِيًا فِي ٱلْبَيَانِ

(وَاَمَّا ٱلتَّحْسِينُ) فَاِنَّ ٱلْوَاضِعَ لِهٰذِهِ ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ اَحْسَنُ ٱللُّغَاتِ نَظَرًا اِلَى مَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ اَرْبَابُ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ فِيمَا يَصُوغُونَهُ

مِنْ نَظْمٍ وَنَثْرٍ وَرَاَى اَنَّ مِنْ مُهِمَّاتِ ذٰلِكَ ٱلتَّجْنِيسَ وَلَا يَقُومُ بِهِ اِلَّا ٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَرَكَةُ ٱلَّتِي هِيَ كُلُّ ٱسْمٍ وَاحِدٍ دَلَّ عَلَى مُسَمَّيَيْنِ فَصَاعِدًا فَوَضَعَهَا مِنْ اَجْلِ ذٰلِكَ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَتَجَاذَبُهُ جَانِبَانِ يَتَرَجَّحُ اَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ . وَبَيَانُهُ اَنَّ ٱلتَّحْسِينَ يَقْضِي بِوَضْعِ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ وَوَضْعُهَا يَذْهَبُ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ عِنْدَ اِطْلَاقِ ٱللَّفْظِ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنْ وَضَعَهَا ٱلْوَاضِعُ ذَهَبَ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ وَاِنْ لَمْ يَضَعْ ذَهَبَ بِفَائِدَةِ ٱلتَّحْسِينِ. لٰكِنَّهُ اِنْ وَضَعَ ٱسْتَدْرَكَ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ بِٱلْقَرِينَةِ وَاِنْ لَمْ يَضَعْ لَمْ يَسْتَدْرِكْ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائِدَةِ ٱلتَّحْسِينِ فَتَرَجَّحَ حِينَئِذٍ جَانِبُ ٱلْوَضْعِ فَوُضِعَ

البحث السادس

في فصاحة المفرد وفصاحة المركَّب

(من شرح بديعيَّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٤٥ من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ فِي ٱلْمُفْرَدِ هِيَ اَنْ تَكُونَ مِمَّا ٱسْتَعْمَلَتِ ٱلْعَرَبُ ٱلْفُصَحَاءُ كَثِيرًا وَدَارَ عَلَى اَلْسِنَتِهِمْ فَسَلِمَ مِنْ سِتَّةِ اَشْيَاءَ . (اَلْاَوَّلُ) : اَنْ لَا يَتْرُكَ مِنْ حُرُوفٍ مُتَنَافِرَةٍ كَلَفْظَةِ (ٱلْعَخْعَخِ) وَهُوَ نَبْتٌ . سُئِلَ اَعْرَابِيٌّ عَنْ نَاقَتِهِ فَقَالَ : تَرَكْتُهَا تَرْعَى ٱلْعَخْعَخَ . وَاِنَّمَا تَنَافَرَتْ حُرُوفُ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ لِكَوْنِهَا مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْحَلْقُ . (اَلثَّانِي) : اَنْ لَا تَتَوَالَى فِيهِ اَكْثَرُ مِنْ حَرَكَتَيْنِ يَحْدُثُ بِسَبَبِهِمَا ثِقْلٌ . (اَلثَّالِثُ) :

اَنْ لَا يَكُونَ مُتَنَاهِيًا فِي كَثْرَةِ ٱلْحُرُوفِ بِلَا زِيَادَةِ مَعْنًى نَحْوُ : خَنْدَرِيسٍ . وَلَا فِي قِلَّتِهَا نَحْوُ : حِدْ عَنْ ذَا ٱلْمَرْءِ . وَخَيْرُ ٱلْأُمُورِ اَوْسَطُهَا وَهُوَ ٱلثُّلَاثِيُّ اِذْ لَا فَضْلَةَ فِيهِ عَمَّا يُحْتَاجُ اِلَيْهِ مِنْ حَرْفِ ٱلْاِبْتِدَاءِ وَحَرْفِ ٱلْوَقْفِ وَحَرْفٍ فَاصِلٍ بَيْنَ ٱلْوَقْفِ وَٱلْاِبْتِدَاءِ . اَمَّا لَوْ كَانَتْ زِيَادَةُ ٱلْحُرُوفِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى زَائِدٍ لَكَانَتِ ٱللَّفْظَةُ فَصِيحَةً نَحْوُ : اُخْشَوْشَنَ . مَعْنَاهُ اَزْيَدُ مِنْ خَشُنَ . (اَلرَّابِعُ) : اَنْ لَا يَكُونَ وَحْشِيًّا غَيْرَ مَأْلُوفٍ نَحْوُ : ٱلْاِسْفِنْطِ لِلْخَمْرِ وَٱلْخَنْشَلِيلِ لِلسَّيْفِ وَٱلْفَدَوْكَسِ لِلْاَسَدِ . فَهٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظُ غَرِيبَةٌ يَمُجُّهَا ٱلطَّبْعُ وَلَا يُطَّلَعُ عَلَى مَعْنَاهَا اِلَّا بَعْدَ بَحْثٍ فِي كُتُبِ ٱللُّغَةِ . (اَلْخَامِسُ) : اَنْ لَا يَكُونَ مَبْذُولًا وَذٰلِكَ نَحْوُ اَنْ يَخْرُجَ ٱللَّفْظُ عَنْ اَصْلِ وَضْعِهِ وَيُسْتَعْمَلُ فِي شَيْءٍ مُسْتَقْبَحٍ . (اَلسَّادِسُ) : اَنْ لَا يَكُونَ مُشْتَرَكًا بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ اَحَدُهُمَا مَكْرُوهٌ كَمَا لَوْ قُلْتَ : لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَرْتُهُ . فَاِنَّهُ يَحْتَمِلُ ٱلْاِكْرَامَ وَٱلْاِهَانَةَ . فَلَوْ كَانَ فِي ٱلْكَلَامِ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْحَسَنِ لَكَانَ ٱللَّفْظُ فَصِيحًا كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَرْتُهُ وَنَصَرْتُهُ . فَلَفْظُ (نَصَرْتُهُ) يُعَيِّنُ فِيهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْحَسَنَ . وَعَلَيْهِ يَكُونُ ٱللَّفْظُ حَسَنًا فِي نَفْسِهِ فَيُعَدُّ قَبِيحًا بِسَبَبِ مَحَلِّهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَمَوْقِعِهِ مِنْهُ

وَاَمَّا ٱلْفَصَاحَةُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ فَهُوَ اَنْ يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ اَشْيَاءَ . (اَلْاَوَّلُ) : سَلَامَةُ مُفْرَدَاتِهِ مِنَ ٱلسِّتَّةِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ ٱلذِّكْرِ فِي ٱلْمُفْرَدِ لِاَنَّ لِلْمُرَكَّبِ حُكْمَ مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ . (اَلثَّانِي) : اَنْ يَسْلَمَ مِنْ ضُعْفِ ٱلتَّأْلِيفِ وَهُوَ خُرُوجُهُ عَنْ قَوَاعِدِ ٱلْعَرَبِيَّةِ كَقَوْلِهِ :

جَزَا رَبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ جَزَاءَ ٱلْكِلَابِ ٱلْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ

فَإِنَّهُ خَالَفَ ٱلْقِيَاسَ فِي إِعَادَةِ ٱلضَّمِيرِ فِي (رَبِّهِ) إِلَى عَدِيٍّ وَهُوَ مُتَأَخِّرٌ لَفْظًا وَمَعْنًى . وَٱلْقَاعِدَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ أَنْ يَعُودَ ٱلضَّمِيرُ عَلَى مَا قَبْلَهُ أَوْ عَلَى مَا بَعْدَهُ لَفْظًا لَا مَعْنًى . (ٱلثَّالِثُ) : أَنْ يَسْلَمَ مِنْ تَنَافُرِ ٱلْكَلِمَةِ وَذٰلِكَ أَنْ تَكُونَ ٱلْكَلِمَةُ حَالَ ٱلْإِفْرَادِ غَيْرَ مُتَنَافِرَةٍ فَإِذَا رُكِّبَتْ حَصَلَ ٱلتَّنَافُرُ نَحْوُ قَوْلِهِ :

وَقَبْرُ حَرْبٍ (١) بِمَكَانٍ قَفْرُ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

قِيلَ : إِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ لَا يُمْكِنُ إِنْشَادُهُ فِي ٱلْغَالِبِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتَوَالِيَةٍ إِلَّا وَيَغْلَطُ ٱلْمُنْشِدُ فِيهِ لِأَنَّ نَفْسَ ٱجْتِمَاعِ ٱلْكَلَامِ وَٱلْقُرْبَ فِي ٱلْمَخَارِجِ يُحْدِثَانِ ثِقْلًا . وَإِذَا كَانَ ٱلتَّنَافُرُ فِي حُرُوفِ ٱلْكَلِمَةِ فَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى عَدَمِ فَصَاحَةِ ٱلْمُفْرَدِ وَلَا يَسْلَمُ ٱلْمُرَكَّبُ مِنَ ٱلتَّنَافُرِ مَتَى تَسْلَمُ مُفْرَدَاتُهُ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَٱلْوَرَى مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

فَٱلتَّنَافُرُ فِيهِ مِنْ وَجْهِ تَكْرَارِ (أَمْدَحْهُ) لَا مِنْ وَجْهِ أَنَّ حُرُوفَ (أَمْدَحْهُ) مُتَنَافِرَةٌ لِٱجْتِمَاعِ حَرْفَيِ ٱلْحَلْقِ . (ٱلرَّابِعُ) : أَنْ يَسْلَمَ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ وَهُوَ إِيرَادُ كَلَامٍ خَفِيِّ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَاهُ وَهُوَ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ وَمِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى . فَمِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ كَتَأْخِيرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَتَقْدِيمِهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا وَحُصُولِ ٱلْفَصْلِ إِذْ ذَاكَ بَيْنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُتَلَازِمَةِ كَقَوْلِ ٱلْفَرَزْدَقِ يَمْدَحُ إِبْرَاهِيمَ خَالَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ :

---

(١) حرب اسم رجل

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ (١)

ٱلتَّقْدِيرُ: وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ حَيٌّ يُقَارِبُهُ فِي ٱلشَّرَفِ إِلَّا مُمَلَّكٌ أَبُو أُمِّ ذٰلِكَ ٱلْمُلَّكِ أَبُو هٰذَا ٱلْمَمْدُوحِ. فَتَأَمَّلْ مَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ ٱلْمُؤْذِنِ بِٱلتَّعْقِيدِ ٱللَّفْظِيِّ. وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى فَهُوَ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ ٱلدَّلَالَةَ فِي ٱللَّفْظِ عَلَى لَازِمِ مَعْنَاهُ فِي ٱعْتِقَادِهِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ مِنْ كَلَامِ ٱلْفُصَحَاءِ كَقَوْلِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ:

سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا (٢)

فَجَعَلَ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ كِنَايَةً عَمَّا يَلْزَمُ فِرَاقَ ٱلْأَحِبَّةِ مِنَ ٱلْكَآبَةِ وَٱلْحُزْنِ وَأَصَابَ. لٰكِنَّهُ أَخْطَأَ فِي جَعْلِ جُمُودِ ٱلْعَيْنِ كِنَايَةً عَمَّا يُوجِبُهُ دَوَامُ ٱلتَّلَاقِي مِنَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ لِٱعْتِقَادِهِ أَنَّ ٱلسُّرُورَ بِمَعْنَى ٱلْجُمُودِ. لِأَنَّ جُمُودَ ٱلْعَيْنِ عِنْدَ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا يَلْزَمُ بُخْلَهَا بِٱلدُّمُوعِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ لَا ٱلسُّرُورَ. وَٱعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ ٱلدِّينِ ٱلطِّيبِيَّ جَعَلَ بَيْتَ ٱلْعَبَّاسِ (سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ) مِنَ ٱلْمُطَابَقَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَلَيْسَ فِيهِ عِنْدَهُ تَعْقِيدٌ مَعْنَوِيٌّ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ فِي ٱلْبَيْتِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْحُزْنِ. وَٱلْجُمُودَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلسُّرُورِ فَحَصَلَتْ بَيْنَهُمَا مُطَابَقَةٌ بِهٰذَا ٱللَّفْظِ. وَجَعَلَ ٱلتَّعْقِيدَ ٱللَّفْظِيَّ فِيمَا يَحْدُثُ مِنَ ٱلثِّقَلِ مِنْ تَوَالِي ٱلْمُضَافَاتِ وَٱلضَّمَائِرِ وَٱلصِّفَاتِ وَٱلْأَفْعَالِ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ وَتَكْرَارِ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَا جَرَى مَجْرَى

(١) اي ليس في الناس مثل الممدوح حيٌّ يقاربهُ الّا ابن اختهِ وهو هشام المملَّك اي المعطى الملك

(٢) المعنى: اني اطيب نفساً بالبعد والفراق واوطنها على مقاساة الحزن واتجرع غصصاً تفيض لاجلها الدموع من عيني الى ان يأتي بعد العسر يُسرٌ

ذٰلِكَ . (الخَامِسُ) اَنْ يَسْلَمَ مِنَ ٱلتَّكْرَارِ ٱلْمُوجِبِ فِي ٱلثِّقْلِ كَتَكْرَارِ ٱللَّفْظَةِ ذَاتِهَا وَتَوَالِي ٱلْاِضَافَاتِ وَٱلصِّفَاتِ وَلَا يُخِلُّ بِٱلْفَصَاحَةِ قَطْعًا تَكْرَارُ ٱللَّفْظَةِ لِلتَّوْكِيدِ وَاِنَّمَا يُعَابُ قُبْحُ ٱلتَّكْرَارِ بِلَا فَائِدَةٍ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

كُنْتُ كُنْتُ كَتَمْتُ ٱلسِّرَّ كُنْتُ كَمَا

كُنَّا وَكُنْتَ وَلٰكِنْ ذَاكَ لَمْ يَكُنِ

فَجَاءَتِ ٱلْحُرُوفُ قَلِقَةً مَكْدُودَةً غَيْرَ مُتَمَكِّنَةٍ فِي مَوَاضِعِهَا . (وَتَتَابُعُ ٱلْاِضَافَاتِ) مِثْلُ قَوْلِ اَبِي فَائِدٍ :

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ ٱلْجَنْدَلِ ٱسْجَعِي فَاَنْتِ بِمَرْاًى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ (١)

فَفِيهِ اِضَافَةُ حَمَامَةٍ اِلَى جَرْعَا وَجَرْعَا اِلَى حَوْمَةٍ وَحَوْمَةٍ اِلَى ٱلْجَنْدَلِ . وَلَيْسَ هٰذَا بِفَصِيحٍ مَأْنُوسٍ

(وَتَوَالِي ٱلصِّفَاتِ) ذَكَرَهُ ٱلطَّيِّبِيُّ ذٰلِكَ مِمَّا يُحْدِثُ فِي ٱلْكَلَامِ ثِقْلًا وَٱسْتَشْهَدَ عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

دَانٍ بَعِيدٌ مُحِبٌّ مُبْغِضٌ بَهِجٌ اَعَزُّ حُلْوٌ مُرٌّ لَيِّنٌ شَرِسُ

---

(١) الجرعا تخفيف الجرعاء ومؤنث الاجرع وهي ارض ذات رمل لا تنبت شيئاً . والحومة معظم الشيء . والجندل ارض ذات حجارة يقول : اسجعي ياحمامة ارضٍ قفرةٍ سبخة فان سعاد تراك وتسمعك

الفصل الثاني

في البلاغة

البحث الاوّل

في الابانة عن حدّ البلاغة

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٩ من علم الادب)

اَلْبَلَاغَةُ كُلُّ مَا تُبَلِّغُ بِهِ اَلْمَعْنَى قَلْبَ اَلسَّامِعِ فَتُمَكِّنُهُ فِي نَفْسِهِ كَتَمَكُّنِهِ فِي نَفْسِكَ مَعَ صُورَةٍ مَقْبُولَةٍ وَمَعْرِضٍ حَسَنٍ . وَاِنَّمَا جَعَلْنَا حُسْنَ اَلْمَعْرِضِ وَقَبُولَ اَلصُّورَةِ شَرْطًا فِي اَلْبَلَاغَةِ لِاَنَّ اَلْكَلَامَ اِذَا كَانَتْ عِبَارَتُهُ رَثَّةً وَمَعْرِضُهُ خَلَقًا لَمْ يُسَمَّ بَلِيغًا وَاِنْ كَانَ مَفْهُومَ اَلْمَعْنَى مَكْشُوفَ اَلْمَغْزَى . اَلَا تَرَى اِلَى مَعْنَى اَلْكَاتِبِ اَلَّذِي كَتَبَ اِلَى بَعْضِ مُعَامِلِيهِ : (قَدْ تَاَخَّرَ اَلْاَمْرُ فِيمَا وَعَدْتَّ حَمْلَهُ ضَحْوَةَ اَلنَّهَارِ وَاَلْقَوْمُ غَيْرُ مُقِيمِينَ لَيْسَ لَهُمْ صَبْرٌ . فَاِنْ رَاَيْتَ فِي اِزَاحَةِ اَلْعِلَّةِ مَعَ اَلْجَهْبَذِ فَعَلْتَ اِنْ شَاءَ اَللّٰهُ) . فَمَعْنَاهُ مَفْهُومٌ وَمَغْزَاهُ مَعْلُومٌ وَلَيْسَ كَلَامُهُ بِبَلِيغٍ فَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى اَنَّ مِنْ شَرْطِ اَلْبَلَاغَةِ اَنْ يَكُونَ اَلْمَعْنَى مَفْهُومًا وَاَللَّفْظُ مَقْبُولًا عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ . وَمَنْ قَالَ اِنَّ اَلْبَلَاغَةَ اِنَّمَا هِيَ اِفْهَامُ اَلْمَعْنَى فَقَطْ فَقَدْ جَعَلَ اَلْفَصَاحَةَ وَاَللُّكْنَةَ وَاَلْخَطَاَ وَاَلصَّوَابَ وَاَلْاِغْلَاقَ

وَٱلْإِبَانَةَ سَوَاءٌ . وَايْضًا فَلَوْ كَانَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاضِحُ ٱلسَّهْلُ وَٱلْقَرِيبُ ٱلسَّلِسُ ٱلْحُلْوُ بَلِيغًا وَمَا خَالَفَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَبْهَمِ ٱلْمُسْتَغْلَقِ وَٱلْمُتَكَلَّفِ ٱلْمُتَعَقِّدِ اَيْضًا بَلِيغًا لَكَانَ كُلُّ ذٰلِكَ مَحْمُودًا وَمَمْدُوحًا مَقْبُولًا لِاَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ ٱسْمٌ يُمْدَحُ بِهِ ٱلْكَلَامُ . فَلَمَّا رَاَيْنَا اَحَدَهُمَا مُسْتَحْسَنًا وَٱلْآخَرَ مُسْتَهْجَنًا عَلِمْنَا اَنَّ ٱلَّذِي يُسْتَحْسَنُ هُوَ ٱلْبَلِيغُ وَٱلَّذِي يُسْتَهْجَنُ لَيْسَ بِبَلِيغٍ . وَقَالَ ٱلْعُتَابِيُّ : كُلُّ مَنْ اَفْهَمَكَ حَاجَتَهُ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَاِنَّمَا عَنَى اَنَّ مَنْ اَفْهَمَكَ حَاجَتَهُ بِٱلْاَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْعِبَارَةِ ٱلنَّيِّرَةِ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَلَوْ حَمَلْنَا هٰذَا ٱلْكَلَامَ عَلَى ظَاهِرِهِ لَلَزِمَ اَنْ يَكُونَ ٱلْاَلْكَنُ بَلِيغًا لِاَنَّهُ يُفْهِمُنَا حَاجَتَهُ بَلْ يَلْزَمُ اَنْ يَكُونَ كُلُّ ٱلنَّاسِ بُلَغَاءَ حَتَّى ٱلْاَطْفَالُ لِاَنَّ كُلَّ اَحَدٍ لَا يَعْدَمُ اَنْ يَدُلَّ عَلَى غَرَضِهِ بِعُجْمَتِهِ وَلُكْنَتِهِ وَاِيمَائِهِ وَاِشَارَتِهِ بَلْ لَزِمَ اَنْ يَكُونَ ٱلسِّنَّوْرُ بَلِيغًا لِاَنَّا نَسْتَدِلُّ بِضُغَائِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ اِرَادَتِهِ وَهٰذَا ظَاهِرُ ٱلْاِحَالَةِ . وَنَحْنُ نَفْهَمُ رَطَانَةَ ٱلسُّوقِيِّ وَجَمْجَمَةَ ٱلْاَعْجَمِيِّ لِلْعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ لَنَا فِي سَمَاعِهَا لَا لِاَنَّ تِلْكَ بَلَاغَةٌ . اَلَا تَرَى اَنَّ ٱلْاَعْرَابِيَّ اِنْ سَمِعَ ذٰلِكَ لَمْ يَفْهَمْهُ اِذْ لَا عَادَةَ لَهُ بِسَمَاعِهِ . وَاَرَادَ رَجُلٌ اَنْ يَسْاَلَ بَعْضَ ٱلْاَعْرَابِ عَنْ اَهْلِهِ فَقَالَ : كَيْفَ اَهْلُكَ (بِٱلْكَسْرِ) . فَقَالَ لَهُ ٱلْاَعْرَابِيُّ : صَلْبًا . اِذْ لَمْ يَشُكَّ اَنَّهُ اِنَّمَا يَسْاَلُهُ عَنِ ٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي يَهْلِكُ بِهِ . وَسَمِعَ اَعْرَابِيٌّ قَصِيدَةَ اَبِي تَمَّامٍ فِي خَالِدِ بْنِ يَزِيدٍ :

طَلَلُ ٱلْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا

فَقَالَ : اِنَّ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ اَشْيَاءَ اَفْهَمُهَا وَاَشْيَاءَ لَا اَفْهَمُهَا

فَاِمَّا اَنْ يَكُونَ قَائِلُهَا اَشْعَرَ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَاِمَّا اَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ٱلنَّاسِ اَشْعَرَ مِنْهُ . وَنَحْنُ نَفْهَمُ مَعَانِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ بِاَسْرِهَا لِعَادَتِنَا لِسَمَاعِ مِثْلِهَا لَا لِاَنَّا اَعْرَفُ بِٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْاَعْرَابِ . وَمِمَّا يُؤَيِّدُ مَا قُلْنَا مِنْ اَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ اِنَّمَا هِيَ اِيضَاحُ ٱلْمَعْنَى وَتَحْسِينُ ٱللَّفْظِ قَوْلُ بَعْضِ ٱلْحُكَمَاءِ : ٱلْبَلَاغَةُ تَصْحِيحُ ٱلْاَقْسَامِ وَٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ ٱلْحَنَفِيَّةِ : ٱلْبَلَاغَةُ قَوْلٌ يَضْطَرُّ ٱلْعُقُولَ اِلَى فَهْمِهِ بِاَسْهَلِ ٱلْعِبَارَةِ . فَقَوْلُهُ : (يَضْطَرُّ ٱلْعُقُولَ اِلَى فَهْمِهِ) عِبَارَةٌ عَنْ اِيضَاحِ ٱلْمَعْنَى . وَقَوْلُهُ : (بِاَسْهَلِ ٱلْعِبَارَةِ) تَنْبِيهٌ عَلَى تَسْلِيسِ ٱللَّفْظِ وَتَرْكِ تَنْقِيحِهِ

البحث الثاني

اقوال في تحديد البلاغة

(ملخَّص عن زهر الاداب للحصري وكتاب الصناعتين للعسكري)

قَالَ اَعْرَابِيٌّ : ٱلْبَلَاغَةُ ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْبَعِيدِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنَ ٱلْكُلْفَةِ وَٱلدَّلَالَةُ بِقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ . قَالَ عَبْدُ ٱلْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى : ٱلْبَلَاغَةُ تَقْرِيرُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْاَفْهَامِ مِنْ اَقْرَبِ وُجُوهِ ٱلْكَلَامِ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْبَلَاغَةُ ٱلْبُلُوغُ اِلَى ٱلْمَعْنَى وَلَمْ يَطُلْ سَفَرُ ٱلْكَلَامِ . قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْعُقُولِ وَرَوْضُ ٱلْقُلُوبِ . وَقَالَ اَيْضًا : ٱلْعَقْلُ رَائِدُ ٱلرُّوحِ وَٱلْعِلْمُ رَائِدُ ٱلْعَقْلِ وَٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْعِلْمِ . قَالَ اِبْرَهِيمُ ٱلْاِمَامُ : يَكْفِي مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ اَنْ لَا يُؤْتَى ٱلسَّامِعُ مِنْ سُوءِ فَهْمِ ٱلنَّاطِقِ وَلَا يُؤْتَى ٱلنَّاطِقُ مِنْ سُوءِ فَهْمِ ٱلسَّامِعِ . قَالَ ٱلْعُتَابِيُّ : ٱلْبَلَاغَةُ مَدُّ

ٱلْكَلَامِ بِمَعَانِيهِ اِذَا قَصُرَ وَحُسْنُ ٱلتَّأْلِيفِ اِذَا طَالَ . قَالَ اَعْرَابِيٌّ : ٱلْبَلَاغَةُ اِيجَازٌ فِي غَيْرِ عَجْزٍ وَاِطْنَابٌ فِي غَيْرِ خَطَلٍ . وَقَدْ قِيلَ لِلْيُونَانِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَصْحِيحُ ٱلْاَقْسَامِ وَٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ . وَقِيلَ لِلرُّومِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : حُسْنُ ٱلْاِقْتِضَابِ عِنْدَ ٱلْبَدَاهَةِ وَٱلْغَزَارَةُ يَوْمَ ٱلْاِطَالَةِ . وَقِيلَ لِلْهِنْدِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : وُضُوحُ ٱلدَّلَالَةِ وَٱنْتِهَازُ ٱلْفُرْصَةِ وَحُسْنُ ٱلْاِشَارَةِ . وَقِيلَ لِلْفَارِسِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : مَعْرِفَةُ ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلْوَصْلِ . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى ٱلرُّمَّانِيُّ : ٱلْبَلَاغَةُ اِيصَالُ ٱلْمَعْنَى اِلَى ٱلْقَلْبِ فِي حُسْنِ صُورَةٍ مِنَ ٱللَّفْظِ . وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنِ ٱلْبَلَاغَةِ قَالَ : اَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا حَسُنَ اِيجَازُهُ . وَقَلَّ مَجَازُهُ . وَكَثُرَ اِعْجَازُهُ . وَتَنَاسَبَتْ صُدُورُهُ وَاَعْجَازُهُ . وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ خَالِدٍ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ وَٱلدَّلَالَةُ بِٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْكَثِيرِ . وَقِيلَ لِآخَرَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَطْوِيلُ ٱلْقَصِيرِ وَتَقْصِيرُ ٱلطَّوِيلِ . وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : حَذْفُ ٱلْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ ٱلْبَعِيدِ وَحُسْنُ ٱلْاِسْتِعَارَةِ . وَقِيلَ لِجَالِينُوسَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : اِيضَاحُ ٱلْمُعْضِلِ وَفَكُّ ٱلْمُشْكِلِ . وَقِيلَ لِلْخَلِيلِ بْنِ اَحْمَدَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : مَا قَرُبَ طَرَفَاهُ وَبَعُدَ مُنْتَهَاهُ . وَقِيلَ لِخَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : اِصَابَةُ ٱلْمَعْنَى وَٱلْقَصْدُ اِلَى ٱلْحُجَّةِ . وَقِيلَ لِآخَرَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَصْوِيرُ ٱلْحَقِّ فِي صُورَةِ ٱلْبَاطِلِ وَتَصْوِيرُ ٱلْبَاطِلِ فِي صُورَةِ ٱلْحَقِّ (١) . وَقِيلَ لِاِبْرَهِيمَ ٱلْاِمَامِ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : ٱلْجَزَالَةُ وَٱلْاِصَابَةُ

(١) لا يجوز ذلك الّا على طريقة المغايرة في الامور القابلة المدح والذمّ

قَالَ اِسْحَاقُ بْنُ حَسَّانٍ : لَمْ يُفَسِّرْ اَحَدٌ اَلْبَلَاغَةَ تَفْسِيرَ اَبْنِ اَلْمُقَفَّعِ اِذْ قَالَ : اَلْبَلَاغَةُ لِمَعَانٍ تَجْرِي فِي وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ : فَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي اَلْاِشَارَةِ . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي اَلْحَدِيثِ . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي اَلْاِسْتِمَاعِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي اَلْاِحْتِجَاجِ . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ شِعْرًا . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ اِبْتِدَاءً . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ جَوَابًا . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ سَجْعًا . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ خُطَبًا . وَمِنْهَا رُبَّمَا كَانَتْ رَسَائِلَ . فَغَايَةُ (١) هٰذِهِ اَلْاَبْوَابِ اَلْوَحْيُ فِيهَا وَاَلْاِشَارَةُ اِلَى اَلْمَعْنَى اَبْلَغُ وَاَلْاِيجَازُ هُوَ اَلْبَلَاغَةُ . فَالسُّكُوتُ يُسَمَّى بَلَاغَةً مَجَازًا وَهُوَ فِي حَالَةٍ لَا يَنْجَعُ فِيهَا اَلْقَوْلُ وَلَا يَنْفَعُ فِيهَا اِقَامَةُ اَلْحُجَجِ اِمَّا عِنْدَ جَاهِلٍ لَا يَفْهَمُ اَلْخِطَابَ اَوْ عِنْدَ وَضِيعٍ لَا يَرْهَبُ اَلْجَوَابَ . اَوْ ظَالِمٍ سَلِيطٍ يَحْكُمُ بِاَلْهَوَى وَلَا يَرْتَدِعُ بِكَلِمَةِ اَلتَّقْوَى وَاِذَا كَانَ اَلْكَلَامُ يُعْرَى مِنَ اَلْخَيْرِ اَوْ يَجْلِبُ اَلشَّرَّ فَاَلسُّكُوتُ اَوْلَى كَمَا قَالَ اَبُو اَلْعَتَاهِيَةِ :

مَا كُلُّ نُطْقٍ لَهُ جَوَابٌ جَوَابُ مَا يُكْرَهُ اَلسُّكُوتُ

وَرُبَّمَا كَانَ صَمْتُكَ فِي حَالٍ اَرْفَقَ مِنْ كَلَامِكَ وَلَهُ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ قَوْلُهُمْ : كُلُّ صَامِتٍ نَاطِقٌ مِنْ جِهَةِ اَلدَّلَالَةِ . وَذٰلِكَ اَنَّ دَلَائِلَ اَلصَّنْعَةِ فِي جَمِيعِ اَلْاَشْيَاءِ وَاضِحَةٌ . وَاَلْمَوْعِظَةُ فِيهَا قَائِمَةٌ . وَقَدْ قَالَ اَلرَّقَاشِيُّ : سَلِ اَلْاَرْضَ مَنْ شَقَّ اَنْهَارَكِ وَغَرَسَ اَشْجَارَكِ وَجَنَى ثِمَارَكِ . فَاِنْ لَمْ تُجِبْكَ حِوَارًا اَجَابَتْكَ اِعْتِبَارًا . وَقَوْلُ اَبْنِ اَلْمُقَفَّعِ : (رُبَّمَا كَانَتِ اَلْبَلَاغَةُ بِاَلْاِسْتِمَاعِ) فَلِاَنَّ اَلْمُخَاطَبَ اِذَا لَمْ يُحْسِنِ اَلْاِسْتِمَاعَ لَمْ

(١) وفي نسخة : عامَّة

يَقِفْ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُؤَدِّي اِلَى ٱلْخِطَابِ . فَٱلِاسْتِمَاعُ ٱلْحَسَنُ عَوْنٌ لِلْبَلِيغِ عَلَى اِفْهَامِ ٱلْمَعْنَى

وَقَدْ جَاءَ لِلْبَلَاغَةِ تَعْرِيفَاتٌ اُخَرُ مِنْهَا قَوْلُ بَعْضِ حُكَمَاءِ ٱلْهِنْدِ : جِمَاعُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْبَصَرُ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاقِعِ ٱلْفُرْصَةِ وَمِنَ ٱلْبَصَرِ بِٱلْحُجَّةِ اَنْ تَدَعَ ٱلْاِفْصَاحَ بِهَا اِلَى ٱلْكِنَايَةِ عَنْهَا اِذَا كَانَ طَرِيقُ ٱلْاِفْصَاحِ وَعْرًا وَكَانَتِ ٱلْكِنَايَةُ اَحْضَرَ نَفْعًا . قَالَ آخَرُ : اَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا يُؤْنِسُ مَسْمَعَهُ . وَيُؤَيِّسُ مَصْنَعَهُ . وَٱلْبَلِيغُ مَنْ يَجْتَنِي مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ اَنْوَارَهَا . وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ثِمَارَهَا . لَيْسَتِ ٱلْبَلَاغَةُ اَنْ يُطَالَ عِنَانُ ٱلْقَلَمِ اَوْ سِنَانُهُ . اَوْ يُبْسَطَ رِهَانُ ٱلْقَوْلِ وَمَيْدَانُهُ . بَلْ هِيَ اَنْ يَبْلُغَ اَحَدُ ٱلْمُرَادِ بِاَلْفَاظٍ اَعْيَانٍ وَمَعَانٍ اَفْرَادٍ مِنْ حَيْثُ لَا تَزِيدُ عَلَى ٱلْحَاجَةِ وَلَا اِخْلَالٌ يُفْضِي اِلَى ٱلْفَاقَةِ . وَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْبَلَاغَةَ قَالَ : هِيَ مَيْدَانٌ لَا يُقْطَعُ اِلَّا بِسَوَابِقِ ٱلْاَذْهَانِ . وَلَا يُسْلَكُ اِلَّا بِبَصَائِرِ ٱلْبَيَانِ . يَعْبَثُ صَاحِبُهَا بِٱلْكَلَامِ . وَيَقُودُهُ بِاَلْيَنِ زِمَامٍ . حَتَّى كَاَنَّ ٱلْاَلْفَاظَ تَتَحَاشَدُ فِي ٱلتَّسَابُقِ اِلَى خَوَاطِرِهِ وَٱلْمَعَانِي تَتَغَايَرُ فِي ٱلْاِنْثِيَالِ عَلَى اَنَامِلِهِ كَقَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ ٱلطَّائِيِّ :

تَغَايَرَ ٱلشِّعْرُ فِيهِ اِذْ سَهِرْتُ لَهُ ... حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَقْتَتِلُ

وَقِيلَ فِي بَلِيغٍ : فُلَانٌ مَشْرَفِيُّ ٱلْمَشْرِقِ . وَصَيْرَفِيُّ ٱلْمَنْطِقِ . ٱلْبَيَانُ اَصْغَرُ صِفَاتِهِ . وَٱلْبَلَاغَةُ عَفْوُ خَطَرَاتِهِ . كَاَنَّهُ اُوحِيَ بِٱلتَّوْفِيقِ اِلَى صَدْرِهِ . وَحَسُنَ ٱلصَّوَابُ بَيْنَ طَبْعِهِ وَفِكْرِهِ . يَحُزُّ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ . وَيَسْبِقُ فِيهَا اِلَى دَرَكِ ٱلْمَرَامِ . كَاَنَّمَا جَمَعَ ٱلْكَلَامَ حَوْلَهُ حَتَّى ٱنْتَقَى مِنْهُ وَٱنْتَخَبَ . وَتَنَاوَلَ مِنْهُ مَا طَلَبَ . وَتَرَكَ بَعْدَ ذٰلِكَ اَذْنَابًا لَا رُؤُسًا .

وَاَجْسَادًا لَا نُفُوسًا . وَقِيلَ فِي آخَرَ : يَرْضَى بِعَفْوِ ٱلطَّبْعِ . وَيَقْنَعُ بِمَا خَفَّ عَلَى ٱلسَّمْعِ . وَيُوجِزُ فَلَا يُخِلُّ . وَيُطْنِبُ فَلَا يُمِلُّ . فَلِلَّهِ فُلَانٌ اَخَذَ بِاَزِمَّةِ ٱلْقَوْلِ يَقُودُهَا كَيْفَ اَرَادَ وَيَجْذُبُهَا اَنَّى شَاءَ فَلَا تَعْصِيهِ بَيْنَ ٱلصَّعْبِ وَٱلذَّلُولِ . وَلَا تُسْلِمُهُ عِنْدَ ٱلْحُزُونِ وَٱلسُّهُولِ . كَلَامُهُ يَشْتَدُّ مَرَّةً حَتَّى تَقُولَ : ٱلصَّخْرُ ٱلْاَمْلَسُ . وَيَلِينُ تَارَةً حَتَّى تَقُولَ : ٱلْمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ . يَقُولُ : فَيَصُولُ . وَيُجِيبُ . فَيُصِيبُ . وَيَكْتُبُ فَيُطَبِّقُ ٱلْمَفْصِلَ . وَيَنْسُقُ ٱلدُّرَّ ٱلْمُفَصَّلَ . وَيَرِدُ مَشَارِعَ ٱلْكَلَامِ وَهِيَ صَافِيَةٌ لَمْ تُطْرَقْ . وَجَامَةٌ لَمْ تُرْتَقْ . خَاطِرُهُ ٱلْبَرْقُ اَوْ اَسْرَعُ لَمْعًا . وَٱلسَّيْفُ اَوْاَحَدُّ قَطْعًا . وَٱلْمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ جَرْيًا . وَٱلْفَلَكُ اَوْ اَقْوَمُ هَدْيًا . يَسْهُلُ ٱلْكَلَامُ عَلَى لَفْظِهِ وَتَتَزَاحَمُ ٱلْمَعَانِي عَلَى طَبْعِهِ فَيَتَنَاوَلُ ٱلْمَرْمَى ٱلْبَعِيدَ بِقَرِيبِ سَعْيِهِ . وَيَسْتَنْبِطُ ٱلْمَشْرَعَ ٱلْعَمِيقَ بِيَسِيرِ جَرْيِهِ . لِسَانُهُ يَفْلِقُ ٱلصُّخُورَ . وَيُفِيضُ ٱلْبُحُورَ . خَطِيبٌ لَا تَنَالُهُ حُبْسَةٌ وَلَا تَرْتَهِنُهُ لُكْنَةٌ وَلَا تَتَحَيَّفُ بَيَانَهُ عُجْمَةٌ وَلَا تَعْتَرِضُ لِسَانَهُ عُقْدَةٌ يُحْسِنُ ٱلسَّفَارَةَ . وَيَسْتَوْفِي ٱلْعِبَارَةَ . وَيُؤَدِّي ٱلْاَلْفَاظَ . وَيَسْتَغْرِقُ ٱلْاَغْرَاضَ . قَالَ حَتَّى قَالَ ٱلْكَلَامُ : لَوْ اَعْفَيْتَ . وَكَتَبَ حَتَّى قَالَتِ ٱلْاَقْلَامُ : قَدْ اَحْفَيْتَ

البحث الثالث

في أوصاف البلاغات على السنة اقوام من اهل البلاغات

(عن زهر الاداب للقيرواني)

قَالَ بَعْضُ مِنْ وُلْدِ عَقَائِلِ هٰذَا ٱلْمَنْثُورِ . وَالِفِ فَوَاصِلِ هٰذِهِ

ٱلشُّذُورِ: تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنْ اَهْلِ ٱلصِّنَاعَاتِ فَوَصَفُوا بَلَاغَاتِهِمْ مِنْ طَرِيقِ صِنَاعَاتِهِمْ . (فَقَالَ ٱلْجَوْهَرِيُّ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ نِظَامًا مَا ثَقَبَتْهُ يَدُ ٱلْفِكْرَةِ وَنَظَمَتْهُ ٱلْفِطْنَةُ وَوُصِلَ جَوْهَرُ مَعَانِيهِ فِي سُمُوطِ ٱلْفَاظِهِ فَٱحْتَمَلَتْهُ نُحُورُ ٱلرُّوَاةِ . (وَقَالَ ٱلْعَطَّارُ) : اَطْيَبُ ٱلْكَلَامِ مَا عُجِنَ عَنْبَرُ ٱلْفَاظِهِ بِمِسْكِ مَعَانِيهِ فَفَاحَ نَسِيمُ نَشْقِهِ . وَسَطَعَتْ رَائِحَةُ عَبَقِهِ . فَتَعَلَّقَتْ بِهِ ٱلرُّوَاةُ . وَتَعَطَّرَتْ بِهِ ٱلسُّرَاةُ . (وَقَالَ ٱلصَّائِغُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا اَحْمَيْتَهُ بِكِيرِ ٱلْفِكَرِ . وَسَبَكْتَهُ بِمَشَاعِلِ ٱلنَّظَرِ . وَخَلَّصْتَهُ مِنْ خَبَثِ ٱلْاِطْنَابِ فَبَرَزَ بُرُوزَ ٱلْاِبْرِيزِ . فِي مَعْنًى وَجِيزٍ . (وَقَالَ ٱلصَّيْرَفِيُّ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا نَقَدَتْهُ يَدُ ٱلْبَصِيرَةِ وَجَلَتْهُ عَيْنُ ٱلرَّوِيَّةِ وَوَزَنْتَهُ بِمِعْيَارِ ٱلْفَصَاحَةِ فَلَا نَظَرَ يُزَيِّفُهُ وَلَا سَمَاعَ يُبَهْرِجُهُ . (وَقَالَ ٱلْحَدَّادُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا نَصَبْتَ عَلَيْهِ مِنْفَخَةَ ٱلْقَرِيحَةِ وَاَشْعَلْتَ عَلَيْهِ نَارَ ٱلْبَصِيرَةِ ثُمَّ اَخْرَجْتَهُ مِنْ فَحْمِ ٱلْاِفْحَامِ . وَرَقَّقْتَهُ بِفِطِّيسِ ٱلْاِفْهَامِ . (وَقَالَ ٱلنَّجَّارُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا اَحْكَمْتَ نَجْرَ مَعْنَاهُ بِقَدُومِ ٱلتَّقْدِيرِ . وَنَشَرْتَهُ بِمِنْشَارِ ٱلتَّدْبِيرِ . فَصَارَ بَابًا لِبَيْتِ ٱلْبَيَانِ . وَعَارِضَةً لِسَقْفِ ٱللِّسَانِ . (وَقَالَ ٱلنَّجَّادُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَطُفَتْ رِفَافُ ٱلْفَاظِهِ وَحَسُنَتْ طَرَائِحُ مَعَانِيهِ فَتَنَزَّهَتْ فِي زَرَابِيِّ مَحَاسِنِهِ عُيُونُ ٱلنَّاظِرِينَ . وَاَصَاخَتْ لِنَمَارِقِ بَهْجَتِهِ آذَانُ ٱلسَّامِعِينَ . (وَقَالَ ٱلْمَاتِحُ) : اَبْيَنُ ٱلْكَلَامِ مَا عَلَّقْتَ وَذَمَ ٱلْفَاظِهِ بِبَكَرَةِ مَعَانِيهِ ثُمَّ اَرْسَلْتَهُ فِي قَلِيبِ ٱلْفِطَنِ رِيًّا فَٱمْتَتَحْتَ بِهِ سِقَاءً يَكْشِفُ ٱلشُّبُهَاتِ . وَٱسْتَنْبَطْتَ بِهِ مَعْنًى يُرْوِي مِنْ ظَمَإِ ٱلْمُشْكِلَاتِ . (وَقَالَ ٱلْخَيَّاطُ) : ٱلْبَلَاغَةُ رِدَاءٌ فَحُرِّبَانُهُ ٱلْبَيَانُ

وَجِيبُهُ ٱلْمَعْرِفَةُ وَكُمَّاهُ ٱلْوَجَازَةُ وَدَخَارِيصُهُ ٱلْإِفْهَامُ وَدُرُوزُهُ ٱلْحَلَاوَةُ وَلَابِسُهُ جَسَدُ ٱللَّفْظِ وَرُوحُ ٱلْمَعْنَى . (وَقَالَ ٱلصَّبَّاغُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ تَنْضَ بَهْجَةُ إِيجَازِهِ . وَلَمْ تُكْشَفْ صَبْغَةُ إِعْجَازِهِ . قَدْ صَقَلَتْهُ يَدُ ٱلرَّوِيَّةِ مِنْ كُمُودِ ٱلْإِشْكَالِ فَرَاعَ كَوَاعِبَ ٱلْآدَابِ . وَالِفَ عَذَارَى ٱلْأَلْبَابِ . (وَقَالَ ٱلْحَائِكُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا ٱتَّصَلَتْ لُحْمَةُ أَلْفَاظِهِ بِسَدَى مَعَانِيهِ فَخَرَجَ مُفَوَّفًا مُنَيَّرًا وَمُوَشًّى مُحَبَّرًا . (وَقَالَ ٱلْبَزَّازُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا صَدَقَ رَقْمُ أَلْفَاظِهِ وَحَسُنَ نَشْرُ مَعَانِيهِ فَلَمْ يُسْتَعْجَمْ عَنْكَ نَشْرٌ وَلَمْ يُسْتَبْهَمْ عَلَيْكَ طَيٌّ . (وَقَالَ ٱلرَّائِضُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ حَدِّ ٱلتَّخْلِيعِ إِلَى مَنْزِلَةِ ٱلتَّقْرِيبِ إِلَّا بَعْدَ ٱلرِّيَاضَةِ وَكَانَ كَٱلْمُهْرِ ٱلَّذِي اَطْمَعَ اَوَّلُ رِيَاضَتِهِ فِي تَمَامِ ثِقَافَتِهِ . (وَقَالَ ٱلْجَمَّالُ) : ٱلْبَلِيغُ مَنْ اَخَذَ بِخِطَامِ كَلَامِهِ فَاَنَاخَهُ فِي مَبْرَكِ ٱلْمَعْنَى ثُمَّ جَعَلَ ٱلْاِخْتِصَارَ لَهُ عِقَالًا . وَٱلْإِيجَازَ لَهُ مَجَالًا . فَلَمْ يَنِدَّ عَنِ ٱلْاَذَانِ . وَلَمْ يَشُذَّ عَنِ ٱلْاَذْهَانِ . (وَقَالَ ٱلْخَمَّارُ) : اَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا طَبَخَتْهُ مَرَاجِلُ ٱلْعِلْمِ وَصَفَّاهُ رَاوُوقُ ٱلْفَهْمِ وَضَمَّنَتْهُ دِنَانُ ٱلْحِكْمَةِ فَتَمَشَّتْ فِي ٱلْمَفَاصِلِ عُذُوبَتُهُ وَفِي ٱلْاَفْكَارِ دِقَّتُهُ وَفِي ٱلْعُقُولِ حِدَّتُهُ . (وَقَالَ ٱلْقُفَّاعِيُّ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا رَوَّحَتْ اَلْفَاظُهُ غَبَاوَةَ ٱلشَّكِّ وَدَفَعَتْ دِقَّتُهُ فَظَاظَةَ ٱلْجَهْلِ فَطَابَ جُشَاءُ قِطَعِهِ وَعَذُبَ مَصُّ جُرَعِهِ . (وَقَالَ ٱلطَّبِيبُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا اِذَا بَاشَرَ دَوَاءُ بَيَانِهِ سُقْمَ ٱلشُّبْهَةِ ٱسْتُطْلِقَتْ طَبِيعَةُ ٱلْغَبَاوَةِ فَشُفِيَ مِنْ سُوءِ ٱلتَّفَهُّمِ وَاَوْرَثَ صِحَّةَ ٱلتَّوَهُّمِ . (قَالَ ٱلْكَحَّالُ) : كَمَا اَنَّ ٱلرَّمَدَ قَذًى ٱلْاَبْصَارِ فَٱلشُّبْهَةُ قَذًى ٱلْبَصَائِرِ

فَاكْحَلْ عَيْنَ ٱللُّكْنَةِ بِمِيلِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱجْلُ رَمَصَ ٱلْغَفْلَةِ بِمِرْوَدِ ٱلْيَقْظَةِ.
(ثُمَّ قَالَ): اَجْمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى اَنَّ اَبْلَغَ ٱلْكَلَامِ مَا اِذَا اَشْرَقَتْ شَمْسُهُ اَنْكَشَفَ لَبْسُهُ وَاِذَا صَدَقَتْ اَنْوَاؤُهُ اَخْضَرَّتْ اَحْمَاؤُهُ

الفصل الثالث

في المعاني

البحث الاوّل

في حقيقة المعاني

(عن كشّاف اصطلاحات الفنون بتصرُّف)

(راجع صفحة ١٠ من علم الادب)

اَلْمَعْنَى لُغَةً ٱلْمَقْصُودُ وَفِي ٱلْاِصْطِلَاحِ هُوَ ٱلصُّورَةُ ٱلذِّهْنِيَّةِ مِنْ حَيْثُ اِنَّهُ وُضِعَ بِاِزَائِهَا ٱللَّفْظُ اَيْ مِنْ حَيْثُ اِنَّهَا تُقْصَدُ مِنْهُ. وَذٰلِكَ اِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْوَضْعِ فَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُفْرَدٍ يُسَمَّى مَعْنًى مُفْرَدًا. وَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ سُمِّيَ مَعْنًى مُرَكَّبًا. فَٱلْاِفْرَادُ وَٱلتَّرْكِيبُ صِفَتَانِ لِلْاَلْفَاظِ حَقِيقَةً وَيُوصَفُ بِهِمَا ٱلْمَعَانِي تَبَعًا. وَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي عِلْمٌ يُحْتَرَزُ بِهِ عَنِ ٱلْخَطَاِ فِي تَأْدِيَةِ ٱلْمُرَادِ وَتُعْرَفُ اَحْوَالُ ٱللَّفْظِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلَّتِي بِهَا يُطَابِقُ ٱللَّفْظُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَهُوَ مِنْ اُصُولِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَرَبِيَّةِ يَبْحَثُ عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ عَلَى ٱلْاِطْلَاقِ بِاَعْتِبَارِ اِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ زَائِدَةٍ عَلَى اَصْلِ ٱلْمَعْنَى. قَالَ بَعْضُ اَهْلِ ٱلْمَعَانِي : ٱلْكَلَامُ ٱلَّذِي يُوصَفُ

بِٱلْبَلَاغَةِ هُوَ ٱلَّذِي يَدُلُّ بِلَفْظِهِ عَلَى مَعْنَاهُ ٱللُّغَوِيِّ اَوِ ٱلْعُرْفِيِّ اَوِ ٱلشَّرْعِيِّ . ثُمَّ تَجِدُ لِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى دَلَالَةً ثَانِيَةً عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ ٱلَّذِي يُرِيدُ ٱلْمُتَكَلِّمُ اِثْبَاتَهُ اَوْ نَفْيَهُ فَهُنَاكَ اَلْفَاظٌ وَمَعَانٍ اُولٌ وَمَعَانٍ ثَوَانٍ . فَٱلْمَعَانِي ٱلْاُولُ هِيَ مَدْلُولَاتُ ٱلتَّرَاكِيبِ وَٱلْاَلْفَاظِ ٱلَّتِي تُسَمَّى فِي عِلْمِ ٱلنَّحْوِ اَصْلَ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْمَعَانِي ٱلثَّوَانِي ٱلْاَغْرَاضُ ٱلَّتِي يُسَاقُ لَهَا ٱلْكَلَامُ . وَلِذَا قِيلَ : مُقْتَضَى ٱلْحَالِ هُوَ ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي . كَرَدِّ ٱلْاِنْكَارِ وَدَفْعِ ٱلشَّكِّ مَثَلًا اِذَا قُلْنَا : اِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلُ هُوَ ٱلْقِيَامُ ٱلْمُؤَكَّدُ وَٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي رَدُّ ٱلْاِنْكَارِ وَدَفْعُ ٱلشَّكِّ . وَاِذَا قُلْنَا : هُوَ اَسَدٌ فِي صُورَةِ ٱلْاِنْسَانِ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلُ هُوَ مَدْلُولُ هٰذَا ٱلْكَلَامِ وَٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي هُوَ اَنَّهُ شُجَاعٌ . فَٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي هُوَ ٱلَّذِي يُرَادُ اِيرَادُهُ فِي ٱلطُّرُقِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ وَٱلْمَفْهُومُ مِنْ تِلْكَ ٱلطُّرُقِ هُوَ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلُ . وَتَسْمِيَتُهُ بِٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي لِكَوْنِ ٱللَّفْظِ دَالًّا عَلَيْهِ بِوَاسِطَةِ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلِ . فَدَلَالَةُ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلِ عَلَى ٱلثَّانِي عَقْلِيَّةٌ قَطْعًا وَاَمَّا دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلِ فَقَدْ تَكُونُ وَضْعِيَّةً وَقَدْ تَكُونُ عَقْلِيَّةً . وَقَدْ تُسَمَّى ٱلْمَعَانِي ٱلْاُولُ بِٱلْخُصُوصِيَّاتِ وَٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلزَّائِدَةِ عَلَى اَصْلِ ٱلْمَعْنَى وَبِٱلصُّوَرِ وَٱلْخَوَاصِّ وَٱلْمَزَايَا مَجَازًا . ثُمَّ اِنَّهُمْ سَمَّوْا تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي ٱلْاُولِ وَكَذَا ٱلْمَعَانِيَ ٱلْاُولَ اَلْفَاظًا . وَفَضِيلَةَ ٱلْكَلَامِ بِاعْتِبَارِ هٰذَا ٱلتَّرْتِيبِ لِكَوْنِ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلِ مَحَلَّ ٱلْفَضِيلَةِ لِاَنَّ تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي ٱلْاَصْلِيَّةِ فِي ٱلنَّفْسِ ثُمَّ تَرْتِيبَ ٱلْاَلْفَاظِ فِي ٱلنُّطْقِ عَلَى حَذْوِهَا عَلَى وَجْهٍ يَنْتَقِلُ مِنْهَا ٱلذِّهْنُ بِتَوَسُّلِهَا اِلَى ٱلْخَوَاصِّ فِي ٱلْاِفَادَةِ بِلَا اِخْلَالٍ وَلَا تَعْقِيدٍ هُوَ

ٱلبلاغةُ. فيكونُ ترتيبُ ٱلمعاني ٱلأولِ على ٱلوجهِ ٱلمخصوصِ منشأَ ٱلفضيلةِ ومناطَ ٱلبراعةِ بلا شكٍّ . قالَ ٱلشيخُ : ولمّا كانتِ ٱلمعاني تتبيَّنُ بٱلألفاظِ ولمْ يكنْ لترتيبِ ٱلمعاني سبيلٌ إلّا بترتيبِ ٱلألفاظِ في ٱلنُّطقِ تجوَّزوا فعبَّروا عنْ ترتيبِ ٱلمعاني بترتيبِ ٱلألفاظِ ثمَّ بٱلألفاظِ بحذفِ ٱلترتيبِ . وإذا وضعوا ٱللفظَ بما يدلُّ على تفخيمِهِ كانْ يُقالَ ٱلبلاغةُ راجعةٌ إلى ٱللفظِ. أوْ هوَ محلُّ ٱلفضيلةِ ٱلتي بها يستحقُّ ٱلإتّصافَ بٱلفصاحةِ ونحوِها لمْ يريدوا ٱللفظَ ٱلمنطوقَ ولكنْ أرادوا معنى ٱللفظِ ٱلذي دلَّ على ٱلمعنى ٱلثاني

البحث الثاني

في صحّة المعاني

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ١٠ و ١١ من علم الادب)

أمّا صحّةُ ٱلمعاني فتكونُ منْ ثلاثةِ أوجهٍ: (أحدُها) إيضاحُ تفسيرِها حتّى لا تكونَ مُشكلةً ولا مُجملةً. (والثاني) ٱستيفاءُ تقسيمِها حتّى لا يدخلَ فيها ما ليسَ منها ولا يخرجَ عنها ما هوَ فيها . (والثالثُ) صحّةُ مُقابلاتِها. وٱلمقابلةُ تكونُ منْ وجهينِ: (أحدُهما) مُقابلةُ ٱلمعنى بما يُوافقُهُ وحقيقةُ هذهِ ٱلمقاربةِ لأنَّ ٱلمعاني تصيرُ مُتشاكلةً . والثاني مُقابلتُهُ بما يُضادُّهُ وهوَ حقيقةُ ٱلمقابلةِ. وليسَ للمُقابلةِ إلّا أحدُ هذينِ ٱلوجهينِ: ٱلموافقةِ في ٱلإئتلافِ وٱلمضادّةِ معَ ٱلإختلافِ. فأمّا فصاحةُ

ٱلْاَلْفَاظِ فَتَكُونُ بِثَلَاثَةِ اَوْجُهٍ : (اَحَدُهَا) مُجَانَبَةُ ٱلْغَرِيبِ ٱلْوَحْشِيِّ حَتَّى لَا يَمُجَّهُ سَمْعٌ وَلَا يَنْفِرَ مِنْهُ طَبْعٌ . (وَٱلثَّانِي) تَنَكُّبُ ٱللَّفْظِ ٱلْمُبْتَذَلِ وَٱلْعُدُولُ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَرْذَلِ حَتَّى لَا يَسْتَسْقِطَهُ خَاصِّيٌّ وَلَا يَنْبُوَ عَنْهُ فَهْمُ عَامِّيٍّ كَمَا قَالَ ٱلْجَاحِظُ فِي كِتَابِ ٱلْبَيَانِ : اَمَّا اَنَا فَلَمْ اَرَ قَوْمًا اَمْثَلَ طَرِيقَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ مِنَ ٱلْكُتَّابِ وَذٰلِكَ اَنَّهُمْ قَدِ ٱلْتَمَسُوا مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ مَا لَمْ يَكُنْ مُتَوَعِّرًا وَحْشِيًّا وَلَا سَاقِطًا عَامِّيًّا . (وَٱلثَّالِثُ) اَنْ يَكُونَ بَيْنَ ٱلْاَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا مُنَاسَبَةٌ وَمُطَابَقَةٌ . اَمَّا ٱلْمُطَابَقَةُ فَهِيَ اَنْ تَكُونَ ٱلْاَلْفَاظُ كَٱلْقَوَالِبِ لِمَعَانِيهَا فَلَا تَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا تَنْقُصُ عَنْهَا . وَقَالَ بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ فِي وَصِيَّتِهِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ : اِذَا لَمْ تَجِدِ ٱللَّفْظَةَ وَاقِعَةً مَوْقِعَهَا وَلَا صَائِرَةً اِلَى مُسْتَقَرِّهَا وَلَا حَالَّةً فِي مَرْكَزِهَا بَلْ وَجَدْتَهَا قَلِقَةً فِي مَكَانِهَا نَافِرَةً عَنْ مَوْضِعِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى ٱلْقَرَارِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا فَاِنَّكَ اِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرْضَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَوْزُونِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ ٱخْتِيَارَ ٱلْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِتَرْكِ ذٰلِكَ اَحَدٌ وَاِذَا اَنْتَ تَكَلَّفْتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا فَهِيمًا عَابَكَ مَنْ اَنْتَ اَقَلُّ عَيْبًا مِنْهُ وَازْرَى عَلَيْكَ مَنْ اَنْتَ فَوْقَهُ . وَاَمَّا ٱلْمُنَاسَبَةُ فَهِيَ اَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَى يَلِيقُ بِبَعْضِ ٱلْاَلْفَاظِ اِمَّا لِعُرْفٍ مُسْتَعْمَلٍ اَوْ لِاِتِّفَاقٍ مُسْتَحْسَنٍ حَتَّى اِذَا ذَكَرْتَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِيَ بِغَيْرِ تِلْكَ ٱلْاَلْفَاظِ كَانَتْ نَافِرَةً عَنْهَا وَاِنْ كَانَتْ اَفْصَحَ وَاَوْضَحَ لِاِعْتِيَادِ مَا سِوَاهَا . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : لَا يَكُونُ ٱلْبَلِيغُ بَلِيغًا حَتَّى يَكُونَ مَعْنَى كَلَامِهِ اَسْبَقَ اِلَى فَهْمِكَ مِنْ لَفْظِهِ اِلَى سَمْعِكَ . وَاَمَّا مُعَاطَاةُ ٱلْاِعْرَابِ وَتَجَنُّبُ ٱللَّحْنِ فَاِنَّمَا هُوَ مِنْ

صِفَاتِ ٱلصَّوَابِ . وَٱلْبَلَاغَةُ أَعْلَى مِنْهُ رُتْبَةً وَأَشْرَفُ مَنْزِلَةً وَلَيْسَ لِمَنْ لَحَنَ فِي كَلَامِهِ مَدْخَلٌ فِي ٱلْأُدَبَاءِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ فِي عِدَادِ ٱلْبُلَغَاءِ

البحث الثالث

في انواع المعاني

(ملخَّص عن زهر الاداب للقيرواني)

(راجع صفحة ١٢ من علم الادب)

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ ٱلْجَاحِظُ : قَالَ بَعْضُ جَهَابِذَةِ ٱلْأَلْفَاظِ وَنُقَّادِ ٱلْمَعَانِي : ٱلْمَعَانِي ٱلْقَائِمَةُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٱلْمُتَصَوَّرَةُ فِي أَذْهَانِهِمْ ٱلْمُخْتَلِجَةُ فِي نُفُوسِهِمْ ٱلْمُتَّصِلَةُ بِخَوَاطِرِهِمْ وَٱلْحَادِثَةُ عَنْ فِكْرِهِمْ مَسْتُورَةٌ خَفِيَّةٌ وَبَعِيدَةٌ وَحْشِيَّةٌ وَمَحْجُوبَةٌ مَكْنُونَةٌ وَمَوْجُودَةٌ فِي مَعْنَى مَعْدُومَةٌ لَا يَعْرِفُ ٱلْإِنْسَانُ ضَمِيرَ صَاحِبِهِ وَلَا حَاجَةَ أَخِيهِ وَخَلِيطِهِ وَلَا مَعْنَى شَرِيكِهِ وَٱلْمُعَاوِنِ لَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَعَلَى مَا لَا يَبْلُغُهُ مِنْ حَاجَاتِ نَفْسِهِ إِلَّا بِغَيْرِهِ . وَإِنَّمَا يُحْيِي تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ذِكْرُهُمْ لَهَا وَإِخْبَارُهُمْ عَنْهَا وَٱسْتِعْمَالُهُمْ إِيَّاهَا . وَهٰذِهِ ٱلْخِصَالُ هِيَ ٱلَّتِي تُقَرِّبُهَا مِنَ ٱلْفَهْمِ وَتَجْلُوهَا لِلْعَقْلِ وَتَجْعَلُ ٱلْخَفِيَّ مِنْهَا ظَاهِرًا وَٱلْغَائِبَ شَاهِدًا وَٱلْبَعِيدَ قَرِيبًا . وَهِيَ ٱلَّتِي تُلَخِّصُ ٱلْمُلْتَبِسَ وَتَحُلُّ ٱلْمُنْعَقِدَ وَتَجْعَلُ ٱلْمُهْمَلَ مُقَيَّدًا وَٱلْمُقَيَّدَ مُطْلَقًا وَٱلْمَجْهُولَ مَعْرُوفًا وَٱلْوَحْشِيَّ مَأْلُوفًا . وَعَلَى قَدْرِ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ وَصَوَابِ ٱلْإِشَارَةِ وَحُسْنِ ٱلِٱخْتِصَارِ وَرِقَّةِ ٱلْمَدْخَلِ يَكُونُ ظُهُورُ ٱلْمَعْنَى . وَكُلَّمَا

كانت الدلالة اوضح وافصح وكانت الاشارة ابين وانور كانت انفع وانجع في البيان. ثم اعلم حفظك الله ان حكم المعاني خلاف حكم الالفاظ لان المعاني مبسوطة الى غاية وممتدة الى غير نهاية واسماء المعاني محصورة معدودة ومحصلة محدودة. وجميع اصناف الدلالة على المعاني من لفظ او غير لفظ خمسة اشياء لا تنقص ولا تزيد: اولها اللفظ. ثم الاشارة. ثم العقد. ثم الخط. ثم الحال التي تسمى نصبة. والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الاصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات. ولكل واحدة من هذه الدلائل الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها وحلية مخالفة لحلية اختها. وهي التي تكشف لك عن اعيان المعاني في الجملة وعن حقائقها في التفسير وعن اجناسها واقدارها وعن خاصها وعامها وعن طبقاتها في السار والضار وعما يكون منها لهوا مبهرجا وساقطا مطرحا. وفي نحو قول ابي عثمان (ان المعاني غير مقصورة ولا محصورة) يقول ابو تمام الطائي لابي دلف بن عيسى العجلي:

ولو كان يفنى الشعر افنته ما قرت حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه فيض العقول اذا انجلت سحائب منه اعقبت بسحائب

وقال ابو العباس بن المعتز: لحظة القلب اسرع من لحظة العين وابعد مجالا وهي الغائصة في اعماق اودية الفكر والمتأملة لوجوه العواقب والجامعة بين ما غاب وحضر والميزان الشاهد على ما نفع وضر. والقلب كالمملي للكلام على اللسان اذا نطق واليد

اِذَا كَتَبَتْ . وَٱلْعَاقِلُ يَكْسُو ٱلْمَعَانِيَ وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِٱلْفَاظٍ كِوَاسٍ فِي اَحْسَنِ زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِاِظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِهَا وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ ٱبْنِ بُرْدٍ : مَا فُقْتَ اَهْلَ عُمْرِكَ وَسَبَقْتَ اَهْلَ عَصْرِكَ فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ اَلْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِاَنِّي لَمْ اَقْبَلْ كُلَّ مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْتُ اِلَى مَغَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْتُ اِلَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَاَحْكَمْتُ سَيْرَهَا وَٱنْتَقَيْتُ حُرَّهَا وَكَشَفْتُ عَنْ حَقَائِقِهَا وَٱحْتَرَزْتُ مِنْ مُتَكَلِّفِهَا وَمَا مَلَكَ قِيَادِي قَطُّ ٱلْاِعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ

البحث الرابع

في الحكم على المعاني

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

فَائِدَةُ هٰذَا ٱلْفَصْلِ ٱلْاِحَاطَةُ بِاَسَالِيبِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَتَبْيَانِهَا . وَصَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مُفْتَقِرٌ اِلَى هٰذَا ٱلْفَصْلِ وَٱلَّذِي يَلِيهِ بِخِلَافِ غَيْرِهِمَا مِنْ هٰذِهِ ٱلْفُصُولِ ٱلْمَذْكُورَةِ لَا سِيَّمَا مُفَسِّرِي ٱلْاَشْعَارِ فَاِنَّهُمْ بِهِ اَعْنَى . وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْاَصْلَ فِي ٱلْمَعْنَى اَنْ يُحْمَلَ عَلَى ظَاهِرِ لَفْظِهِ وَمَنْ يَذْهَبُ اِلَى ٱلتَّأْوِيلِ يَفْتَقِرُ اِلَى دَلِيلٍ كَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ : وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . فَاَلظَّاهِرُ مِنْ لَفْظِ (ٱلثِّيَابِ) هُوَ مَا يُلْبَسُ وَمَنْ تَاَوَّلَ ذَهَبَ اِلَى اَنَّ ٱلْمُرَادَ هُوَ ٱلْقَلْبُ لَا ٱلْمَلْبُوسُ . وَهٰذَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ

دَلِيلٍ لِأَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ عَنْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ : إِذَا أَرَدتَّ أَنْ تُصَلِّيَ فَٱدْخُلْ بَيْتَكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ . فَٱلظَّاهِرُ مِنْ هٰذَا هُوَ ٱلْبَيْتُ وَٱلْبَابُ . وَمَنْ تَأَوَّلَ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّكَ تَجْمَعُ عَلَيْكَ هَمَّ قَلْبِكَ وَتَمْنَعُ أَنْ يَخْطُرَ بِهِ سِوَى أَمْرِ ٱلصَّلَاةِ . فَعَبَّرَ عَنِ ٱلْقَلْبِ بِٱلْبَيْتِ وَعَنْ مَنْعِ ٱلْخَوَاطِرِ ٱلَّتِي تَخْطُرُ لَهُ بِإِغْلَاقِ ٱلْبَابِ . وَهٰذَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ لِأَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْمَحْمُولُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَا يَقَعُ فِي تَفْسِيرِهِ خِلَافٌ وَٱلْمَعْنَى ٱلْمَعْدُولُ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَى ٱلتَّأْوِيلِ يَقَعُ فِيهِ ٱلْخِلَافُ إِذْ بَابُ ٱلتَّأْوِيلِ غَيْرُ مَحْصُورٍ . وَٱلْعُلَمَاءُ مُتَفَاوِتُونَ فِي هٰذَا فَإِنَّهُ قَدْ يَأْخُذُ بَعْضُهُمْ وَجْهًا ضَعِيفًا مِنَ ٱلتَّأْوِيلِ فَيَكْسُوهُ بِعِبَارَتِهِ قُوَّةً تُمَيِّزُهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ ٱلْوُجُوهِ ٱلْقَوِيَّةِ فَإِنَّ ٱلسَّيْفَ بِضَارِبِهِ

إِنَّ ٱلسُّيُوفَ مَعَ ٱلَّذِينَ قُلُوبُهُمْ كَقُلُوبِهِنَّ إِذَا ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ
تَلْقَى ٱلْحُسَامَ عَلَى جَرَاءَةِ حَدِّهِ مِثْلَ ٱلْجَبَانِ بِكَفِّ كُلِّ جَبَانِ

وَهٰذَا ٱلْفَصْلُ ٱلَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ ذِكْرِهِ هَاهُنَا يَرْجِعُ أَكْثَرُهُ إِلَى ٱلتَّأْوِيلِ لِأَنَّهُ أَدَقُّ وَلَا يَخْلُو تَأْوِيلُ ٱلْمَعْنَى مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا أَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا يُحْتَمَلُ غَيْرُهُ . وَإِمَّا أَنْ يُحْتَمَلَ ٱلشَّيْءُ وَغَيْرُهُ . وَتِلْكَ ٱلْغَيْرِيَّةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ ضِدًّا أَوْ لَا تَكُونَ ضِدًّا وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ . (فَٱلْأَوَّلُ) يَقَعُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ ٱلْأَشْعَارِ وَلَا يَجْرِي فِي ٱلدِّقَّةِ وَٱللَّطَافَةِ مَجْرَى ٱلْقِسْمَيْنِ ٱلْآخَرَيْنِ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) فَإِنَّهُ قَلِيلُ ٱلْوُقُوعِ جِدًّا وَهُوَ مِنَ ٱلتَّأْوِيلَاتِ ٱلْمَعْنَوِيَّةِ . لِأَنَّ

دَلَالَةَ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى وَضِدِّهِ اَغْرَبُ مِنْ دَلَالَتِهِ عَلَى ٱلْمَعْنَى وَغَيْرِهِ. فِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : اِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَٱصْنَعْ مَا شِئْتَ . وَهٰذَا يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ ضِدَّيْنِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلْمُرَادَ بِهِ اِذَا لَمْ تَفْعَلْ فِعْلاً تَسْتَحِي مِنْهُ فَٱفْعَلْ مَا شِئْتَ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُرَادَ بِهِ اِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ حَيَاءٌ يَنْزَعُكَ عَنْ فِعْلِ مَا يُسْتَحَى مِنْهُ فَٱفْعَلْ مَا شِئْتَ . وَهٰذَانِ مَعْنَيَانِ ضِدَّانِ اَحَدُهُمَا مَدْحٌ وَٱلْآخَرُ ذَمٌّ . وَيَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّهْجِ مِنَ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ فِي قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا كَافُورًا :

وَاَظْلَمُ اَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ ضِدَّانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلْمُنْعَمَ عَلَيْهِ يَحْسِدُ ٱلْمُنْعِمَ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُنْعِمَ يَحْسِدُ ٱلْمُنْعَمَ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ اَيْضًا مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُهُ :

فَاِنْ نِلْتُ مَا اَمَّلْتُ مِنْكَ فَرُبَّمَا شَرِبْتُ بِمَاءٍ يُعْجِزُ ٱلطَّيْرَ وِرْدُهُ

فَاِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ يَحْتَمِلُ مَدْحًا وَذَمًّا وَاِذَا اُخِذَ بِمُفْرَدِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ اِلَى مَا قَبْلَهُ فَاِنَّهُ يَكُونُ بِٱلذَّمِّ اَوْلَى مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ لِاَنَّهُ يَتَضَمَّنُ وَصْفَ نَوَالِهِ بِٱلْبُعْدِ وَٱلشُّذُوذِ. وَصَدْرُ ٱلْبَيْتِ مُفْتَتَحٌ (بِاِنْ) ٱلشَّرْطِيَّةِ وَقَدْ اُجِيبَ بِلَفْظَةِ (رُبَّ) ٱلَّتِي مَعْنَاهَا ٱلتَّقْلِيلُ اَيْ : لَسْتُ مِنْ نَوَالِكَ عَلَى يَقِينٍ فَاِنْ نِلْتُهُ فَرُبَّمَا وَصَلْتُ اِلَى مَوْرِدٍ لَا يَصِلُ اِلَيْهِ ٱلطَّيْرُ لِبُعْدِهِ . وَاِذَا نُظِرَ اِلَى مَا قَبْلَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ دَلَّ عَلَى ٱلْمَدْحِ خَاصَّةً لِاِرْتِبَاطِهِ بِٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي قَبْلَهُ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقْصِدُ ٱلْمُتَنَبِّي هٰذَا ٱلْقِسْمَ فِي شِعْرِهِ كَقَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ اَوَّلُهَا :

عَدُوُّكَ مَذمومٌ بِكُلِّ لِسَانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ اَعدَائِكَ اُلقَمَرَانِ
وَلِلّٰهِ سِرٌّ فِي عُلَاكَ وَاِنَّمَا كَلَامُ اُلعِدَى ضَرْبٌ مِنَ اُلهَذَيَانِ

ثُمَّ قَالَ :

فَمَا لَكَ تَعْنِي بِاُلاَسِنَّةِ وَاُلقَنَا وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بِغَيْرِ سِنَانِ

فَاِنَّ هٰذَا بِاُلذَّمِّ اَشْبَهُ مِنْهُ بِاُلمَدْحِ لِاَنَّهُ يَقُولُ : لَمْ تَبْلُغْ مَا بَلَغْتَهُ بِسَعْيِكَ وَاهْتِمَامِكَ بَلْ بِجَدٍّ وَسَعَادَةٍ . وَهٰذَا لَا فَضْلَ فِيهِ لِاَنَّ اُلسَّعَادَةَ تَنَالُ اُلخَامِلَ وَاُلجَاهِدَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا . وَاَكْثَرُ مَا كَانَ اُلمُتَنَبِّي يَسْتَعْمِلُ هٰذَا اُلقِسْمَ فِي قَصَائِدِهِ اُلكَافُورِيَّاتِ ... وَهٰذَا اُلقِسْمُ مِنَ اُلكَلَامِ يُسَمَّى اُلمُوَجَّهَ اَيْ لَهُ وَجْهَانِ وَهُوَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى بَرَاعَةِ اُلشَّاعِرِ وَحُسْنِ تَاَتِّيهِ . (وَاَمَّا اُلقِسْمُ اُلثَّالِثُ) فَاِنَّهُ يَكُونُ اَكْثَرَ وُقُوعًا مِنَ اُلقِسْمِ اُلثَّانِي وَهُوَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ . لِاَنَّ اُلقِسْمَ اُلاَوَّلَ كَثِيرُ اُلوُقُوعِ . وَاُلقِسْمَ اُلثَّانِي قَلِيلُ اُلوُقُوعِ . وَهٰذَا اُلقِسْمُ اُلثَّالِثُ وَسَطٌ بَيْنَهُمَا مِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : وَلَا تَقْتُلُوا اَنْفُسَكُمْ . فَاِنَّ هٰذَا لَهُ وَجْهَانِ مِنَ اُلتَّاْوِيلِ اَحَدُهُمَا اُلقَتْلُ اُلحَقِيقِيُّ اُلَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ وَاُلاٰخَرُ هُوَ اُلقَتْلُ اُلمَجَازِيُّ وَهُوَ اُلاِكْبَابُ عَلَى اُلمَعَاصِي فَاِنَّ اُلاِنْسَانَ اِذَا اَكَبَّ عَلَى اُلمَعَاصِي قَتَلَ نَفْسَهُ فِي اُلاٰخِرَةِ .... وَمِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا اُلنَّهْجِ مَا يُحْكَى عَنْ اَفْلَاطُونَ اَنَّهُ قَالَ : تَرْكُ اُلدَّوَاءِ دَوَاءٌ . فَذَهَبَ بَعْضُ اُلاَطِبَّاءِ اِلَى اَنَّهُ اَرَادَ : اِنْ لَطُفَ اُلمِزَاجُ وَانْتَهَى اِلَى غَايَةٍ لَا يَحْتَمِلُ اُلدَّوَاءَ فَتَرْكُهُ حِينَئِذٍ وَاُلاِضْرَابُ عَنْهُ دَوَاءٌ . وَذَهَبَ اٰخَرُونَ اِلَى اَنَّهُ اَرَادَ بِاُلتَّرْكِ اُلوَضْعَ اَيْ : وَضْعُ اُلدَّوَاءِ عَلَى اُلدَّاءِ دَوَاءٌ . يُشِيرُ بِذٰلِكَ

اِلَى حِذْقِ ٱلطَّبِيبِ فِي اَوْقَاتِ عِلَاجِهِ . وَمِثْلُهُ فِي ٱلشِّعْرِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

اِذَا جَعْفَرٌ مَرَّتْ عَلَى هَضْبَةِ ٱلْحِمَى فَقَدْ اَخَذَ ٱلْاَحْيَاءُ مِنْهَا قُبُورَهَا

وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) ذَمُّ ٱلْاَحْيَاءِ وَٱلْآخَرُ ذَمُّ ٱلْاَمْوَاتِ . اَمَّا (ذَمُّ ٱلْاَحْيَاءِ) فَهُوَ اَنَّهُمْ خَذَلُوا ٱلْاَمْوَاتَ يُرِيدُ اَنَّهُمْ تَلَاقَوْا قِتَالَهُمْ وَقَوْمًا آخَرِينَ فَفَرَّ ٱلْاَحْيَاءُ عَنْهُمْ وَاَسْلَمُوهُمْ اَوْ اِنَّهُمُ ٱسْتَنْجَدُوهُمْ فَلَمْ يُنْجِدُوهُمْ . وَاَمَّا (ذَمُّ ٱلْاَمْوَاتِ) فَهُوَ اَنَّ لَهُمْ مَخَازِيَ وَفَضَائِحَ تُوجِبُ عَارًا وَشَنَارًا فَهُمْ يَعُدُّونَ بِهَا ٱلْاَحْيَاءَ وَيُلْصِقُونَهَا بِهِمْ . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

بِٱلشِّعْرِ طُولٌ اِذَا ٱصْطَكَّتْ قَصَائِدُهُ

فِي مَعْشَرٍ وَبِهِ عَنْ مَعْشَرٍ قِصَرُ

فَهٰذَا ٱلْبَيْتُ يَحْتَمِلُ تَأْوِيلَيْنِ . (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلشِّعْرَ يَتَّسِعُ مَجَالُهُ بِمَدْحِكَ وَيَضِيقُ بِمَدْحِ غَيْرِكَ . يُرِيدُ بِذٰلِكَ اَنَّ مَآثِرَهُ كَثِيرَةٌ وَمَآثِرَ غَيْرِهِ قَلِيلَةٌ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلشِّعْرَ يَكُونُ ذَا فَخْرٍ وَنَبَاهَةٍ بِمَدْحِكَ وَذَا خُمُولٍ بِمَدْحِ غَيْرِكَ . فَلَفْظَةُ ٱلطُّولِ : يُفْهَمُ مِنْهَا ضِدُّ ٱلْقِصَرِ وَيُفْهَمُ مِنْهَا ٱلْفَخْرُ مِنْ قَوْلِنَا : طَالَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ اَيْ فَخَرَ عَلَيْهِ . وَمِمَّا يَنْتَظِمُ بِهٰذَا ٱلسِّلْكِ قَوْلُ اَبِي كَبِيرٍ ٱلْهُذَلِيِّ :

عَجِبْتُ لِسَعْيِ ٱلدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَلَمَّا ٱنْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ ٱلدَّهْرُ

وَهٰذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ مِنَ ٱلتَّأْوِيلِ . (اَحَدُهُمَا) اَنَّهُ اَرَادَ بِسَعْيِ ٱلدَّهْرِ سُرْعَةَ تَقَضِّي ٱلْاَوْقَاتِ مُدَّةَ ٱلْوِصَالِ . فَلَمَّا ٱنْقَضَى ٱلْوَصْلُ عَادَ ٱلدَّهْرُ اِلَى حَالَتِهِ فِي ٱلسُّكُونِ وَٱلْبُطْءِ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّهُ اَرَادَ بِسَعْيِ

ٱلدَّهْرِ بِٱلنَّمَّامِ وَٱلْوِشَايَاتِ فَلَمَّا ٱنْقَضَى مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْوَصْلِ سَكَنُوا اَوْ تَرَكُوا ٱلسِّعَايَةَ . وَهٰذَا مِنْ بَابِ وَضْعِ ٱلْمُضَافِ اِلَيْهِ مَكَانَ ٱلْمُضَافِ كَقَوْلِهِ : وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ اَيْ اَهْلَ ٱلْقَرْيَةِ . وَمِنَ ٱلدَّقِيقِ ٱلْمَعْنَى فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي عَضُدِ ٱلدَّوْلَةِ مِنْ جُمْلَةِ قَصِيدَتِهِ ٱلَّتِي اَوَّلُهَا (اَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهًا) فَقَالَ :

لَوْ فَطِنَتْ خَيْلُهُ لِنَائِلِهِ لَمْ يُرْضِهَا اَنْ تَرَاهُ يَرْضَاهَا

وَهٰذَا يُسْتَنْبَطُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ . (اَحَدُهُمَا) اَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ مِقْدَارَ عَطَايَاهُ ٱلنَّفِيسَةِ لَمَا رَضِيَتْ لَهُ بِاَنْ تَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهُ لِاَنَّ عَطَايَاهُ اَنْفَسُ مِنْهَا . (ٱلْآخَرُ) اَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ اَنَّهُ يَهَبُهَا مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهُ لَمَا رَضِيَتْ ذٰلِكَ اِذْ تَكْرَهُ خُرُوجَهَا عَنْ مُلْكِهِ. وَهٰذَانِ ٱلْوَجْهَانِ اَنَا ذَكَرْتُهُمَا وَاِنَّمَا ٱلْمَذْكُورُ مِنْهُمَا اَحَدُهُمَا . وَهٰذَا ٱلَّذِي اَشَرْتُ اِلَيْهِ مِنْ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَتَأْوِيلَاتِهَا كَافٍ لِمَنْ عِنْدَهُ ذَوْقٌ وَلَهُ قُوَّةٌ عَلَى حَمْلِهَا عَلَى اَشْبَاهِهَا وَنَظَائِرِهَا

البحث الخامس

في التَّرجيح بين المعاني

(عن المثل السائر باختصار)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ هُوَ مِيزَانُ ٱلْخَوَاطِرِ ٱلَّذِي يُوزَنُ بِهِ نَقْدُ دِرْهَمِهَا وَدِينَارِهَا بَلِ ٱلْمِحَكُّ ٱلَّذِي يُعْلَمُ مِنْهُ مِقْدَارُ عِيَارِهَا وَلَا يَزِنُ بِهِ اِلَّا ذُو فِكْرَةٍ مُتَّقِدَةٍ وَلَمْحَةٍ مُنْتَقِدَةٍ . فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَمَلَ مِيزَانًا سُمِّيَ صَرَّافًا .

وَلَا كُلُّ مَنْ وَزَنَ بِهِ سُمِّيَ عَرَّافًا . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ هٰذَا ٱلتَّرْجِيحِ وَٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ اَنَّ هُنَاكَ يُرَجَّحُ بَيْنَ دَلِيلَيِ ٱلْخَصْمَيْنِ فِي حُكْمٍ شَرْعِيٍّ وَهٰهُنَا يُرَجَّحُ بَيْنَ جَانِبَيْ فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فِي اَلْفَاظٍ وَمَعَانٍ خِطَابِيَّةٍ . وَبَيَانُ ذٰلِكَ اَنَّ صَاحِبَ ٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ يُرَجِّحُ بَيْنَ خَبَرِ ٱلتَّوَاتُرِ مَثَلًا وَبَيْنَ خَبَرِ ٱلْآحَادِ اَوْ بَيْنَ ٱلْمُسْنَدِ وَٱلْمُرْسَلِ اَوْ مَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهٰذَا لَا يُعَرِّضُ اِلَيْهِ صَاحِبُ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ لِاَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ وَلٰكِنَّ ٱلَّذِي هُوَ مِنْ شَأْنِهِ اَنْ يُرَجِّحَ بَيْنَ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ اَوْ بَيْنَ حَقِيقَتَيْنِ اَوْ بَيْنَ مَجَازَيْنِ وَيَكُونَ نَاظِرًا فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ اِلَى ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْخَطَابِيَّةِ . وَاَرُبَّمَا ٱتَّفَقَ هُوَ وَصَاحِبُ ٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ كَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ عَامٍّ وَخَاصٍّ اَوْ مَا شَابَهَ ذٰلِكَ . وَكُنَّا قَدْ قَدَّمْنَا ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَٱنْقِسَامِهَا . وَلْنُبَيِّنْ فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ مَوَاضِعَ ٱلتَّرْجِيحِ بَيْنَ وُجُوهِ تَأْوِيلَاتِهَا فَنَقُولُ : (اَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلْاَوَّلُ) مِنَ ٱلْمَعَانِي فَلَا تَعَلُّقَ لِلتَّرْجِيحِ بِهِ اِذْ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ لَا يَحْتَمِلُ اِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا فَلَيْسَ مِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ فِي شَيْءٍ . وَٱلتَّرْجِيحُ اِنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ يَدُلُّ عَلَيْهِمَا لَفْظٌ وَاحِدٌ وَلَا يَخْلُو ٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَهُمَا مِنْ ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ اِمَّا اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ حَقِيقَةً فِي اَحَدِهِمَا مَجَازًا فِي ٱلْآخَرِ . اَوْ حَقِيقَةً فِيهِمَا جَمِيعًا اَوْ مَجَازًا فِيهِمَا جَمِيعًا وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ . وَٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَتَيْنِ اَوْ بَيْنَ ٱلْمَجَازَيْنِ يَحْتَاجُ اِلَى نَظَرٍ . (وَاَمَّا ٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ) فَاِنَّهُ يُعْلَمُ بِبَدِيهَةِ ٱلنَّظَرِ لِمَكَانِ ٱلْاِخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا . وَٱلشَّيْئَانِ ٱلْمُخْتَلِفَانِ يَظْهَرُ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِخِلَافِ مَا يَظْهَرُ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ ٱلْمُشَبَّهَيْنِ . . . .

(وَاَمَّا مِثَالُ ٱلْمَعْنَيَيْنِ) اِذَا كَانَا حَقِيقَتَيْنِ فَقَوْلُهُ : ٱلْتَمِسُوا ٱلرِّزْقَ فِي خَبَايَا ٱلْاَرْضِ وَٱلْخَبَايَا جَمْعُ خَبِيَّةٍ وَهُوَ كُلُّ مَا يُخْبَأُ كَائِنًا مَا كَانَ . وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ حَقِيقَتَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) ٱلْكُنُوزُ ٱلْمَخْبُوءَةُ فِي بُطُونِ ٱلْاَرْضِ . (وَٱلْآخَرُ) ٱلْحَرْثُ وَٱلْغِرَاسُ . وَجَانِبُ ٱلْحَرْثِ وَٱلْغِرَاسِ اَرْجَحُ لِاَنَّ مَوَاضِعَ ٱلْكُنُوزِ لَا تُعْلَمُ حَتَّى تُلْتَمَسَ وَهُوَ لَا يَأْمُرُ بِذٰلِكَ لِاَنَّهُ شَيْءٌ مَجْهُولٌ غَيْرُ مَعْلُومٍ فَبَقِيَ ٱلْمُرَادُ بِخَبَايَا ٱلْاَرْضِ مَا يُحْرَثُ وَيُغْرَسُ .

(وَاَمَّا مِثَالُ ٱلْمَجَازَيْنِ) فَقَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

قَدْ بَلَوْنَا اَبَا سَعِيدٍ حَدِيثًا ... وَبَلَوْنَا اَبَا سَعِيدٍ قَدِيمَا

وَوَرَدْنَاهُ سَاحِلًا وَقَلِيبًا ... وَرَعَيْنَاهُ بَارِضًا وَجَمِيمَا

فَعَلِمْنَا اَنْ لَيْسَ اِلَّا بِشَقِّ ٱلنَّفْسِ صَارَ ٱلْكَرِيمُ يُدْعَى كَرِيمَا

فَٱلسَّاحِلُ وَٱلْقَلِيبُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُمَا تَأْوِيلَانِ مَجَازِيَّانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّهُ اَرَادَ بِهِمَا ٱلْكَثِيرَ وَٱلْقَلِيلَ بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلسَّاحِلِ وَٱلْقَلِيبِ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّهُ اَرَادَ بِهِمَا ٱلسَّبَبَ وَغَيْرَ ٱلسَّبَبِ . فَاِنَّ ٱلسَّاحِلَ لَا يُحْتَاجُ فِي وِرْدِهِ اِلَى سَبَبٍ وَٱلْقَلِيبُ يُحْتَاجُ فِي وِرْدِهِ اِلَى سَبَبٍ . وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْمَعْنَيَيْنِ مَجَازٌ . فَاِنَّ حَقِيقَةَ ٱلسَّاحِلِ وَٱلْقَلِيبِ غَيْرُهُمَا وَٱلْوَجْهُ هُوَ ٱلثَّانِي لِاَنَّهُ هُوَ اَدَلُّ عَلَى بَلَاغَةِ ٱلْقَائِلِ وَمَدْحِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ . اَمَّا بَلَاغَةُ ٱلْقَائِلِ فَٱلسَّلَامَةُ مِنْ هُجْنَةِ ٱلتَّكْرِيرِ بِٱلْمُخَالَفَةِ بَيْنَ صَدْرِ ٱلْبَيْتِ وَعَجُزِهِ . فَاِنَّ عَجُزَهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ لِاَنَّ ٱلْبَارِضَ هُوَ اَوَّلُ ٱلنَّبْتِ حِينَ يَبْدُو فَاِذَا كَثُرَ وَتَكَاثَفَ سُمِّيَ جَمِيمًا . فَكَاَنَّهُ قَالَ : اَخَذْنَا مِنْهُ تَبَرُّعًا وَمَسْئَلَةً وَقَلِيلًا وَكَثِيرًا . وَاَمَّا مَدْحُ ٱلْمَقُولِ

فِيهِ فَلِتَعَدُّدِ حَالَاتِهِ ٱلْأَرْبَعِ فِي تَبَرُّعِهِ وَسُوءِ الِهِ وَاِكْثَارِهِ وَاِقْلَالِهِ وَمَا فِي مُعَانَاةِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ مِنَ ٱلْمَشَاقِّ . فَهٰذَا اِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالتَّرْجِيحِ ٱلْبَلَاغِيِّ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْحَقِيقَةِ وَبَيْنَ ٱلْمَجَازِ وَٱلْمَجَازِ وَبَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ

البحث السادس

في الفصل والوصل

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ١٨ من علم الادب)

ٱلْفَصْلُ وَٱلْوَصْلُ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِمَوَاضِعِ ٱلْعَطْفِ وَٱلْاِسْتِئْنَافِ وَٱلْهُدَى اِلَى كَيْفِيَّةِ اِيقَاعِ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ فِي مَوَاضِعِهَا. وَهُوَ مِنْ اَعْظَمِ اَرْكَانِ ٱلْبَلَاغَةِ حَتَّى اِنَّ بَعْضَهُمْ حَدَّ ٱلْبَلَاغَةَ بِاَنَّهَا مَعْرِفَةُ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ. وَقَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ: اِنَّهُ لَا يَكْمُلُ لِاِحْرَازِ ٱلْفَضِيلَةِ فِيهِ اَحَدٌ اِلَّا كَمَلَ لِسَائِرِ مَعَانِي ٱلْبَلَاغَةِ . اِعْلَمْ اَنَّ فَائِدَةَ ٱلْعَطْفِ ٱلتَّشْرِيكُ بَيْنَ ٱلْمَعْطُوفِ وَٱلْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ . ثُمَّ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْعَاطِفَةِ مَا لَا يُفِيدُ اِلَّا هٰذَا ٱلْقَدْرَ وَهُوَ ٱلْوَاوُ. وَمِنْهَا مَا يُفِيدُ فَائِدَةً زَائِدَةً كَٱلْفَاءِ وَثُمَّ وَاَوْ. وَغَرَضُنَا هَا هُنَا تَتَعَلَّقُ بِمَا لَا يُفِيدُ اِلَّا ٱلْاِشْتِرَاكَ فَنَقُولُ : ٱلْعَطْفُ اِمَّا اَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ كَقَوْلِكَ : مَرَرْتُ بِرَجُلٍ خُلُقُهُ حَسَنٌ وَخُلُقُهُ قَبِيحٌ . فَقَدْ اَشْرَكْتَ بَيْنَهُمَا فِي ٱلْاِعْرَابِ وَٱلْمَعْنَى لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي كَوْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُقَيِّدًا لِلْمَوْصُوفِ . وَلَا يُتَصَوَّرُ اَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَعْنًى يَقَعُ ذٰلِكَ ٱلْاِشْتِرَاكُ فِيهِ وَحَتَّى يَكُونَا كَٱلنَّظِيرَيْنِ وَٱلشَّرِيكَيْنِ بِحَيْثُ اِذَا عَرَفَ

ٱلسَّامِعُ حَالَةَ ٱلْاَوَّلِ عَسَاهُ يَعْرِفُ حَالَةَ ٱلثَّانِي . يَدُلُّكَ عَلَى ذٰلِكَ اَنَّكَ اِذَا عَطَفْتَ عَلَى ٱلْاَوَّلِ شَيْئًا لَيْسَ مِنْهُ سَبَبٌ وَلَا هُوَ مِمَّا يُذْكَرُ بِذِكْرِهِ لَمْ يَسْتَقِمْ . فَلَوْ قُلْتَ : (خَرَجْتُ ٱلْيَوْمَ مِنْ دَارِي وَاَحْسَنَ ٱلَّذِي يَقُولُ بَيْتَ كَذَا) قُلْتَ مَا يُضْحَكُ مِنْهُ . وَاِنْ لَمْ يَكُنْ فِي قُوَّةِ ٱلْمُفْرَدِ فَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ مَعْنَى اِحْدَى ٱلْجُمْلَتَيْنِ لِذَاتِهِ مُتَعَلِّقًا بِمَعْنَى ٱلْاُخْرَى كَمَا اِذَا كَانَتْ كَٱلتَّوْكِيدِ لَهَا اَوْ كَٱلصِّفَةِ فَلَا يَجُوزُ اِدْخَالُ ٱلْعَاطِفِ عَلَيْهِ لِاَنَّ ٱلتَّوْكِيدَ وَٱلصِّفَةَ مُتَعَلِّقَانِ بِٱلْمُؤَكَّدِ وَٱلْمَوْصُوفِ لِذَاتِيَّهِمَا . وَٱلتَّعَلُّقُ ٱلذَّاتِيُّ يُغْنِي عَنْ لَفْظٍ يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعَلُّقِ . فَمِثَالُ ٱلتَّوْكِيدِ قَوْلُهُ : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللّٰهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ ٱللّٰهَ . وَلَمْ يَقُلْ : (وَيُخَادِعُونَ) لِاَنَّ ٱلْمُخَادَعَةَ لَيْسَتْ شَيْئًا غَيْرَ قَوْلِهِمْ : آمَنَّا مَعَ اَنَّهُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ . وَمِمَّا جَاءَ فِيهِ ٱلْاِثْبَاتُ (بِاِنْ وَاِلَّا) عَلَى هٰذَا ٱلْحَدِّ قَوْلُهُ : اِنْ هُوَ اِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . فَٱلْاِثْبَاتُ فِي قَوْلِهِ تَأْكِيدٌ لِنَفْيِ مَا يُنْفَى . (ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ بَيْنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ تَعَلُّقٌ ذَاتِيٌّ فَاِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ فَيَجِبُ تَرْكُ ٱلْعَاطِفِ اَيْضًا لِاَنَّ ٱلْعَطْفَ لِلتَّشْرِيكِ وَلَا تَشْرِيكَ . وَمِنْ هَا هُنَا عَابُوا عَلَى اَبِي تَمَّامٍ قَوْلَهُ :

لَا وَٱلَّذِي عَالِمٌ اَنَّ ٱلنَّوَى مُرٌّ وَاَنَّ اَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ

اِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ مَرَارَةِ ٱلنَّوَى وَبَيْنَ كَرَمِ اَبِي ٱلْحُسَيْنِ . وَلِذٰلِكَ لَمْ يُحْسِنْ جَوَازَ ٱلْعَاطِفِ . وَاِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ فَاِمَّا اَنْ يَكُونَ بِٱلَّذِي اُخْبِرَ بِهِمَا اَوْ بِٱلَّذِي اُخْبِرَ عَنْهُمَا اَوْ بِهِمَا كِلَيْهِمَا . وَهٰذَا ٱلْاَخِيرُ

هُوَ ٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلْعَطْفِ وَمَعْنَى ٱلْمُنَاسَبَةِ اَنْ يَكُونَا مُتَشَابِهَيْنِ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَاتِبٌ وَعَمْرٌو . اَوْ مُتَضَادَّيْنِ تَضَادًّا عَلَى ٱلْخُصُوصِ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ طَوِيلٌ وَعَمْرٌو قَصِيرٌ . وَكَقَوْلِكَ : ٱلْعِلْمُ حَسَنٌ وَٱلْجَهْلُ قَبِيحٌ . فَلَوْ قُلْتَ : زَيْدٌ طَوِيلٌ وَعَمْرٌو شَاعِرٌ ٱخْتَلَّ اِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ طُولِ ٱلْقَامَةِ وَٱلشِّعْرِ . وَاِنْ كَانَ ٱلْمُحَدَّثُ عَنْهُ فِي ٱلْجُمْلَتَيْنِ شَيْئًا وَاحِدًا كَقَوْلِكَ : فُلَانٌ يَقُولُ وَيَفْعَلُ وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُسِيءُ وَيُحْسِنُ . يَجِبُ اِدْخَالُ ٱلْعَاطِفِ فَاِنَّ ٱلْغَرَضَ جَعْلُهُ فَاعِلًا لِلْاَمْرَيْنِ . فَلَوْ قُلْتَ : يَقُولُ يَفْعَلُ بِلَا عَاطِفٍ لَتُوُهِّمَ اَنَّ ٱلثَّانِيَ رُجُوعٌ عَنِ ٱلْاَوَّلِ . وَاِذَا اَفَادَ ٱلْعَاطِفُ ٱلْاِجْتِمَاعَ اَزْدَادَ ٱلْاِشْتِرَاكُ كَقَوْلِكَ : ٱلْعَجَبُ مِنْ اَنَّكَ اَحْسَنْتَ وَاَسَأْتَ . وَٱلْعَجَبُ مِنْ اَنَّكَ تَنْهَى عَنْ شَيْءٍ تَأْتِي مِثْلَهُ . وَكَقَوْلِهِ :

لَا تَطْمَعُوا اَنْ تُهِينُونَا وَنُكْرِمَكُمْ وَاَنْ نَكُفَّ ٱلْاَذَى عَنْكُمْ وَتُؤْذُونَا

فَاِنَّ ٱلْمَعْنَى جَعْلُ ٱلْفِعْلَيْنِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ اَيْ لَا نَطْمَعُوا اَنْ تَرَوْا اِكْرَامَنَا اِيَّاكُمْ يُوجَدُ مَعَ اِهَانَتِكُمْ اِيَّانَا . وَٱعْلَمْ اَنَّهُ قَدْ يَجِبُ اِسْقَاطُ ٱلْعَاطِفِ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ لِاخْتِلَالِ ٱلْمَعْنَى عِنْدَ اِثْبَاتِهِ كَقَوْلِهِ : وَاِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْاَرْضِ قَالُوا : اِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ اَلَا اِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ . فَقَوْلُهُ : (اَلَا اِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ) كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ وَهُوَ اِخْبَارٌ مِنْهُ . فَلَوْ اَتَى بِٱلْوَاوِ لَكَانَ اِخْبَارًا عَنِ ٱلْيَهُودِ بِاَنَّهُمْ وَصَفُوا اَنْفُسَهُمْ بِاَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ فَيَخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى . قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : وَاِذَا ٱسْتَقْرَيْتَ وَجَدْتَ هٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ تَنْزِيلِهِمِ ٱلْكَلَامَ اِذَا جَاءَ بِعَقِبِ مَا يَقْتَضِي سُؤَالًا مَنْزِلَتَهُ اِذَا صُرِّحَ بِذٰلِكَ ٱلسُّؤَالِ

كَثِيرًا . فَمِنْ لَطِيفِ ذٰلِكَ قَوْلُهُ :

زَعَمَ ٱلْعَوَاذِلُ اَنَّنِي فِي غُمْرَةٍ صَدَقُوا وَلٰكِنْ غُمْرَتِي لَا تَنْجَلِي

لَمَّا حَكَى عَنِ ٱلْعَوَاذِلِ قَوْلَهُمْ اِنَّهُ فِي غُمْرَةٍ وَكَانَ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَرِّكُ ٱلسَّامِعَ عَلَى اَنْ يَسْاَلَهُ : فَمَا جَوَابُكَ عَنْ ذٰلِكَ . اَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَهُ اِذَا كَانَ قَدْ قِيلَ فَقَالَ : اَقُولُ صَدَقُوا . اَنَا كَمَا قَالُوا وَلٰكِنْ لَا مَطْمَعَ لَهُمْ فِي فَلَاحِي . وَلَوْ قَالَ : وَصَدَقُوا لٰكِنْ لَمْ يَضَعْ نَفْسَهُ فِي اَنَّهُ مَسْئُولٌ . وَاَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ . وَاِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَلَا حَاجَةَ اِلَى ٱلْعَاطِفِ بِخِلَافِ قَوْلِهِ : يُخَادِعُونَ ٱللّٰهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ . وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللّٰهُ : فَاِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ خَبَرٌ

(وَمِمَّا يَجِبُ) ذِكْرُهُ هَا هُنَا ٱلْجُمْلَةُ اِذَا وَقَعَتْ حَالًا فَاِنَّهَا تَجِيءُ مَعَ ٱلْوَاوِ تَارَةً وَبِدُونِهَا اُخْرَى . فَنَقُولُ ٱلْجُمْلَةُ اِذَا وَقَعَتْ حَالًا فَلَا بُدَّ اَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً تَحْتَمِلُ ٱلصِّدْقَ وَٱلْكَذِبَ وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْاَوَّلُ) وَلَهُ اَحْوَالٌ : (ٱلْاُولَى) اَنْ يُجْمَعَ لَهَا بَيْنَ ٱلْوَاوِ وَضَمِيرِ صَاحِبِ ٱلْحَالِ كَقَوْلِكَ : جَاءَ زَيْدٌ وَمَعَهُ غُلَامُهُ وَلَقِيتُ زَيْدًا وَفَرَسُهُ سَابِقُهُ . وَهٰذِهِ ٱلْوَاوُ تُسَمَّى وَاوَ ٱلْحَالِ . (ٱلثَّانِيَةُ) اَنْ تَجِيءَ بِٱلضَّمِيرِ مِنْ غَيْرِ وَاوٍ كَقَوْلِكَ : كَلَّمْتُهُ فُوهُ اِلَى فِيَّ . وَهُوَ فِي مَعْنَى مُشَافَهًا وَٱلرَّابِطُ ٱلضَّمِيرُ . (ٱلثَّالِثَةُ) اَنْ تَجِيءَ بِٱلْوَاوِ مِنْ غَيْرِ ضَمِيرٍ وَهُوَ كَثِيرٌ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُكَ وَٱلْجَيْشُ قَادِمٌ . وَزُرْتُنَا وَٱلشِّتَاءُ خَارِجٌ . قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ :

وَقَدْ اَغْتَدِي وَٱلطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَيَجُوزُ اَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ حَالَيْنِ : مُفْرَدٍ وَجُمْلَةٍ . اِذَا اَجَزْنَا وُقُوعَ حَالَيْنِ

كَقَوْلِكَ : لَقِيتُكَ رَاكِبًا وَٱلْحَسَنُ قَادِمٌ . فَٱلْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ ٱلتَّاءِ اَوْ مِنَ ٱلْكَافِ وَٱلْعَامِلُ فِيهَا (لَقِيتُ) اَوْ مِنْ ضَمِيرِ (رَاكِبٍ) وَرَاكِبٌ هُوَ ٱلْعَامِلُ فِيهَا . (اَلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) ٱلْجُمْلَةُ ٱلْفِعْلِيَّةُ . وَلَا بُدَّ اَنْ تَكُونَ مَاضِيًا اَوْ مُضَارِعًا . اَمَّا ٱلْمَاضِي فَلَا بُدَّ مَعَهُ مِنَ ٱلْاِتْيَانِ بِٱلْوَاوِ وَقَدْ اَوْ بِاَحَدِهِمَا كَقَوْلِكَ : تَكَلَّمْتُ وَقَدْ عَجَّلْتُ . وَجَاءَ زَيْدٌ قَدْ ضَرَبَ عَمْرًا . وَجِئْتُ وَاَسْرَعْتُ فِي ٱلْمَجِيءِ . وَلَمْ يُجِزِ ٱلْبَصْرِيُّونَ خُلُوَّهُ عَنْهُمَا وَقَالُوا فِي قَوْلِ اَبِي صَخْرٍ ٱلْهُذَلِيِّ :

وَاِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرَاكَ هِزَّةٌ كَمَا ٱنْتَفَضَ ٱلْعُصْفُورُ بَلَّلَهُ ٱلْقَطْرُ

اِنَّ (قَدْ) مُقَدَّرَةٌ فِيهَا فَاِنَّ ٱلشَّيْءَ اِذَا عُرِفَ مَوْضِعُهُ جَازَ حَذْفُهُ .

وَاَمَّا ٱلْمُضَارِعُ فَاِنْ كَانَ مُوجَبًا فَلَا يُؤْتَى مَعَهُ بِٱلْوَاوِ تَقُولُ : جَاءَنِي زَيْدٌ يَضْحَكُ وَجَاءَ عَمْرٌو يُسْرِعُ وَجَلَسَ يُحَدِّثُنَا (بِٱلرَّفْعِ) اَيْ مُحَدِّثًا لَنَا بِتَجَرُّدِهِ عَمَّا يُغَيِّرُ مَعْنَاهُ اَشْبَهَ ٱسْمَ ٱلْفَاعِلِ اِذَا وَقَعَ حَالًا . وَاِنْ كَانَ مَنْفِيًّا جَازَ حَذْفُ ٱلْوَاوِ مُرَاعَاةً لِاَصْلِ ٱلْفِعْلِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْاِيجَابُ وَجَازَ اِثْبَاتُهَا لِاَنَّ ٱلْفِعْلَ لَيْسَ هُوَ ٱلْحَالَ . فَاِنَّ مَعْنَى قَوْلِكَ : (جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ) جَلَسَ زَيْدٌ غَيْرَ مُتَكَلِّمٍ . فَجَرَى مَجْرَى ٱلْجُمْلَةِ ٱلْاِسْمِيَّةِ . فَٱلْحَذْفُ كَقَوْلِكَ : جَاءَ زَيْدٌ مَا يَفُوهُ بِبِنْتِ شَفَةٍ . وَكَقَوْلِهِ : اَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . فَقَوْلُهُ : (لَا يَمَسُّنَا) فِي وَضْعِ نَصْبٍ عَلَى ٱلْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ ٱلْمَرْفُوعِ فِي اَحَلَّنَا . وَٱلْاِثْبَاتُ كَقَوْلِكَ : جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ . وَقَالَ : اَفَلَا يَرَوْنَ اَلَّا يَرْجِعُ اِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . وَشَبَّهُوا بِهِ ٱلْفِعْلَ

ٱلْمَاضِي فَقَالُوا : جَاءَ زَيْدٌ مَا ضَرَبَ عَمْرًا . وَجَاءَ زَيْدٌ وَمَا ضَرَبَ عَمْرًا

البحث السابع

في تأكيد الكلام وقصره وتعزيزهِ بانَّ وانَّما

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ١٩ من علم الادب)

اَمَّا (اِنَّ) فَلَهَا فَوَائِدُ : (ٱلْاُولَى) اَنَّهَا تَرْبِطُ ٱلْجُمْلَةَ ٱلثَّانِيَةَ بِٱلْاُولَى وَبِسَبَبِهَا يَحْصُلُ ٱلتَّأْلِيفُ بَيْنَهُمَا حَتَّى كَاَنَّ ٱلْكَلَامَيْنِ اُفْرِغَا اِفْرَاغًا وَاحِدًا وَلَوْ اَسْقَطْتَهَا كَانَ ٱلثَّانِي نَائِبًا عَنِ ٱلْاَوَّلِ كَقَوْلِهِ : يَا اَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ اِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . (ٱلثَّانِيَةُ) اَنَّكَ تَرَى لِضَمِيرِ ٱلشَّأْنِ وَٱلْقِصَّةِ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلشَّرْطِيَّةِ مَعَ (اِنَّ) مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱللُّطْفِ مَا لَا تَرَاهُ اِذَا هِيَ لَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهَا كَقَوْلِهِ : اِنَّهُ مَنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرْ فَاِنَّ ٱللهَ لَا يُضِيعُ اَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . (ٱلثَّالِثَةُ) اَنَّهَا تُهَيِّئُ ٱلنَّكِرَةَ وَتُصْلِحُهَا لِاَنْ يُحَدَّثَ عَنْهَا وَاِنْ كَانَتِ ٱلنَّكِرَةُ مَوْصُوفَةً جَازَ حَذْفُهَا وَلٰكِنَّ دُخُولَهَا اَصْلَحُ كَقَوْلِ حَسَّانٍ :

اِنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِٱلْاِحْسَانِ

(ٱلرَّابِعَةُ) اَنَّهَا تُغْنِي عَنِ ٱلْخَبَرِ كَمَا اِذَا قِيلَ لَكَ : ٱلنَّاسُ اَلَبُّوا عَلَيْكُمْ فَهَلَّ لَكُمْ اَحَدٌ . فَقُلْتَ : اِنَّ زَيْدًا اَوْ اِنَّ عَمْرًا . اَيْ لَنَا . قَالَ ٱلْاَعْشَى :

اِنَّ مَحَلًّا وَاِنَّ مُرْتَحَلًا وَاِنَّ فِي ٱلسَّفْرِ اِذْ مَضَوْا مَهَلَا

(الخامسة) قال المبرد اذا قلت : ان عبد الله قائم . فهو جواب عن سوءال سائل . فاذا قلت : ان عبد الله لقائم . فهو جواب عن انكار منكر لقيامه سواء كان المنكر هو السائل او الحاضرين (واما انما) فتارة تجيء للحصر بمعنى ان هذا الحكم لا يوجد في غير المذكور وهو بمنزلة (ليس الا) كقوله : انما يستجيب الذين يسمعون . وقوله : انما تنذر من اتبع الذكر . وقوله : انما انت منذر من يخشاها . وتارة تجيء لبيان ان هذا الامر ظاهر عند كل احد سواء كان كذلك او في زعم المتكلم . ومنه قول الشاعر :

انما مصعب شهاب من الله م تجلت من وجهه الظلماء

مدعيا ان ذلك مما لا ينكره احد من الناس . (فائدة) اذا دخل (ما والا) على الجملة المشتملة على المنصوب كان المقصود بالذكر ما اتصل (بالا) متاخرا عنه . فاذا قلت : ما ضرب عمرا الا زيد . فالمقصود المرفوع . واذا قلت : ما ضرب زيد الا عمرا . فالمقصود المنصوب . واذا قلت : ما ضرب زيد الا عمرا . فالاختصاص بالضارب . واذا قلت : ما ضرب الا زيدا عمرو . فالاختصاص بالمضروب . واذا قلت : لم اكس الا زيدا جبة . فالمعنى تخصيص كسوة الجبة بين الناس بزيد . وكذلك الحكم حيث يكون يدل احد المفعولين جارا ومجرورا كقول السيد الحميري :

لو خير المنبر فرسانه ما اختار الا منكم فارسا

وكذلك حكم المبتدإ والخبر والفعل والفاعل كقولك : ما

زَيْدٌ اِلَّا قَائِمٌ وَمَا قَائِمٌ اِلَّا زَيْدٌ. وَاَمَّا (اِنَّمَا) فَالْاِخْتِصَاصُ فِيهَا يَقَعُ مَعَ الْمُتَاَخِّرِ. فَاِذَا قُلْتَ: اِنَّمَا ضَرَبَ زَيْدًا عَمْرٌو. فَالْاِخْتِصَاصُ فِي الضَّارِبِ. وَقَوْلُهُ: (اِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فَالْغَرَضُ بَيَانُ الْمَرْفُوعِ وَهُوَ اَنَّ الْخَاشِينَ هُمُ الْعُلَمَاءُ. وَلَوْ قُدِّمَ الْمَرْفُوعُ لَصَارَ الْمَقْصُودُ بَيَانَ الْمَخْشِيِّ مِنْهُ فَالْاَوَّلُ اَتَمُّ. وَمِنْهُ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ:

اَنَا الرَّائِدُ الْحَامِي الذِّمَارَ وَاِنَّمَا يُدَافِعُ عَنْ اَحْسَابِكُمْ اَنَا اَوْ مِثْلِي

فَاِنَّ غَرَضَهُ اَنْ يَحْصُرَ الْمُدَافِعَ بِاَنَّهُ هُوَ لَا الْمُدَافَعُ عَنْهُ. وَلَوْ قَالَ: اِنَّمَا اَنَا اُدَافِعُ عَنْ اَحْسَابِكُمْ. تَوَجَّهَ التَّخْصِيصُ اِلَى الْمُدَافَعِ عَنْهُ. اِذَا اَدْخَلْتَ عَلَيْهِمَا (اِنَّمَا) فَاِنْ قَدَّمْتَ الْخَبَرَ فَالْاِخْتِصَاصُ لِلْمُبْتَدَإِ. وَاِنْ لَمْ تُقَدِّمْهُ فَلِلْخَبَرِ. فَاِذَا قُلْتَ: اِنَّمَا هٰذَا لَكَ فَالْاِخْتِصَاصُ فِي (لَكَ) بِدَلِيلِ اَنَّكَ تَقُولُ بَعْدَهُ: لَا لِغَيْرِكَ. وَاِنْ قُلْتَ: اِنَّمَا لَكَ هٰذَا. فَالْاِخْتِصَاصُ فِي هٰذَا بِدَلِيلِ اَنَّكَ تَقُولُ بَعْدَهُ لَا ذَاكَ. ثُمَّ قَدْ يَجْتَمِعُ مَعَهُ حَرْفُ النَّفْيِ اِمَّا مُتَاَخِّرًا كَقَوْلِكَ: اِنَّمَا يَجِيءُ زَيْدٌ لَا عَمْرٌو. وَقَالَ اَبِيدٌ:

وَاِذَا جُوزِيتَ قَرْضًا فَاجْزِهِ اِنَّمَا يَجْزِي الْفَتَى لَيْسَ الْجَمَلْ

وَاِمَّا مُقَدَّمًا عَلَيْهِ كَقَوْلِكَ: مَا جَاءَنِي زَيْدٌ وَاِنَّمَا جَاءَنِي عَمْرٌو. فَهَا هُنَا لَوْ لَمْ تَقُلْ: (اِنَّمَا). وَقُلْتَ: مَا جَاءَنِي زَيْدٌ وَجَاءَنِي عَمْرٌو. لَكَانَ الْكَلَامُ مَعَ مَنْ ظَنَّ اَنَّهُمَا جَاءَا جَمِيعًا. وَاِذَا اَدْخَلْتَهَا كَانَ الْكَلَامُ مَعَ مَنْ غَلِطَ فِي الْجَائِيِّ اَنَّهُ زَيْدٌ لَا عَمْرٌو. وَاعْلَمْ اَنَّ اَقْوَى مَا يَكُونُ اِنَّمَا اِذَا كَانَ لَا يُرَادُ بِالْكَلَامِ الَّذِي بَعْدَهَا نَفْسُ مَعْنَاهَا

وَلٰكِنَّ ٱلتَّعْرِيضَ بِأَمْرٍ هُوَ مُقْتَضَاهُ . وَهٰذَا ٱلْغَرَضُ لَا يَحْصُلُ بِدُونِ (إِنَّمَا) لِأَنَّ مِنْ إِثْبَاتِهَا تَضْمِينَ ٱلْكَلَامِ مَعْنَى ٱلنَّفْيِ بَعْدَ ٱلْإِثْبَاتِ . فَإِذَا ٱسْقَطْتَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا إِثْبَاتُ ٱلْحُكْمِ لِلْمَذْكُورِينَ فَلَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنْ يُذْكَرَ فِي مَعْرِضِ مَدْحِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلتَّيَقُّظِ وَٱلْكَرَمِ وَأَمْثَالِهِمَا كَمَا يُقَالُ : كَذٰلِكَ يَفْعَلُ ٱلْعَاقِلُ وَهٰكَذَا يَفْعَلُ ٱلْكَرِيمُ

البحث الثامن

في التقديم والتأخير

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع علم الادب صفحة ١٩)

إِذَا قُدِّمَ ٱلشَّيْءُ عَلَى غَيْرِهِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ كَمَا إِذَا قُدِّمَ ٱلْخَبَرُ عَلَى ٱلْمُبْتَدَإِ . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ وَلٰكِنِ ٱنْتَقَلَ ٱلشَّيْءُ مِنْ حُكْمٍ إِلَى آخَرَ . كَمَا إِذَا جِئْتَ إِلَى ٱسْمَيْنِ جَازَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُبْتَدَأً فَجَعَلْتَ أَحَدَهُمَا مُبْتَدَأً كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ ٱلْمُنْطَلِقُ وَٱلْمُنْطَلِقُ زَيْدٌ . قَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ : كَأَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ ٱلَّذِي بَيَانُهُ أَهَمُّ لَهُمْ وَهُمْ بِبَيَانِهِ أَعْنَى وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا يُهِمَّانِهِمْ وَيَعْنِيَانِهِمْ . مِثَالُهُ إِنَّ ٱلنَّاسَ إِذَا تَعَلَّقَ غَرَضُهُمْ بِقَتْلِ خَارِجِيٍّ مُفْسِدٍ وَلَا يَعْلَمُونَ مَنْ صَدَرَ ٱلْقَتْلُ مِنْهُ وَأَرَادَ مُرِيدُ ٱلْإِخْبَارِ بِذٰلِكَ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ ذِكْرَ ٱلْخَارِجِيِّ فَيَقُولُ : قَتَلَ ٱلْخَارِجِيَّ زَيْدٌ . وَلَا يَقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ ٱلْخَارِجِيَّ . لِأَنَّهُ يَعْلَمُ

اَنَّ قَتْلَ ٱلْخَارِجِيِّ هُوَ ٱلَّذِي يَعْنِيهِمْ . وَاِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ قَتْلٌ مِنْ رَجُلٍ يَبْعُدُ فِي اَعْتِقَادِ ٱلنَّاسِ وُقُوعُ ٱلْقَتْلِ مِنْ مِثْلِهِ قَدَّمَ ٱلْمُخْبِرُ ذِكْرَ ٱلْفَاعِلِ فَيَقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ رَجُلًا . لِاَعْتِقَادِ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْمَذْكُورِ خِلَافَ ذٰلِكَ (اه) . وَلْنَذْكُرْ مِنْهُ ثَلَاثَةَ مَوَاضِعَ يُعْرَفُ بِهَا مَا لَمْ يُذْكَرْ : (اَلْاَوَّلُ ٱلْاِسْتِفْهَامُ) فَاِذَا اَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلْفِعْلِ وَقُلْتَ : اَضَرَبْتَ زَيْدًا . كَانَ ٱلشَّكُّ فِي وُجُودِ ٱلْفِعْلِ مُحَقَّقًا وَٱلشَّكُّ فِي تَعْيِينِ ٱلْفَاعِلِ وَهٰكَذَا حُكْمُ ٱلنَّكِرَةِ . فَاِذَا قُلْتَ : اَجَاءَكَ رَجُلٌ فَاِنَّ ٱلْمَقْصُودَ هَلْ وُجِدَ ٱلْمَجِيءُ مِنْ رَجُلٍ . فَاِذَا قُلْتَ : اَرَجُلٌ جَاءَكَ كَانَ ذٰلِكَ سُؤَالًا عَنْ جِنْسِ مَنْ جَاءَ بَعْدَ ٱلْحُكْمِ بِوُجُودِ ٱلْمَجِيءِ مِنْ اِنْسَانٍ . وَقِسْ عَلَيْهِ ٱلْخَبَرَ فِي قَوْلِكَ : ضَرَبْتُ زَيْدًا وَزَيْدًا ضَرَبْتُ . وَجَاءَنِي رَجُلٌ تَمِيمِيٌّ . وَرَجُلٌ تَمِيمِيٌّ جَاءَنِي . ثُمَّ ٱلْاِسْتِفْهَامُ قَدْ يَجِيءُ لِلْاِنْكَارِ : وَهُوَ اِمَّا لِلتَّقْرِيرِ وَٱلتَّوْبِيخِ وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ : اَاَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِاٰلِهَتِنَا . وَاِمَّا لِاِنْكَارِ اَنَّهُ ٱلْفَاعِلُ مَعَ تَحَقُّقِ ٱلْفِعْلِ كَقَوْلِكَ لِمَنِ ٱنْتَحَلَ شِعْرًا : اَاَنْتَ قُلْتَ هٰذَا . وَاِنْ كَانَ ٱلْفِعْلُ مُضَارِعًا فَاِنْ اَدْخَلْتَ حَرْفَ ٱلْاِسْتِفْهَامِ عَلَيْهِ كَانَ اِمَّا لِاِنْكَارِ وُجُودِهِ كَقَوْلِهِ : اَنُلْزِمُكُمُوهَا وَاَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ . اَوْ لِاِنْكَارِ اَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى ٱلْفِعْلِ كَقَوْلِ اِمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

اَيَقْتُلُنِي وَٱلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَاَنْيَابِ اَغْوَالِ

اَوْ لِاِزَالَةِ طَمَعِ مَنْ طَمِعَ فِي اَمْرٍ لَا يَكُونُ فَيُجَهِّلُهُ فِي طَمَعِهِ كَقَوْلِكَ : اَيَرْضَى عَنْكَ فُلَانٌ وَاَنْتَ عَلَى مَا يَكْرَهُ . اَوْ لِتَعْنِيفِ مَنْ يُضَيِّعُ ٱلْحَقَّ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

أَأَتْرُكُ إِنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ زِيَارَتَهُ إِنِّي إِذًا لَلَئِيمُ

أَوْ لِتَقْدِيمِ ٱلْفِعْلِ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَرْكَبُ ٱلْخَطَرَ : أَتَرْكَبُ فِي هٰذَا ٱلْوَقْتِ . وَإِنْ أَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلِٱسْمِ فَهُوَ لِإِنْكَارِ صُدُورِ ٱلْفِعْلِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْفَاعِلِ إِمَّا لِٱسْتِحْقَارٍ كَقَوْلِكَ : أَأَنْتَ تَمْنَعُنِي . أَوْ لِلتَّعْظِيمِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَسْأَلُ ٱلنَّاسَ . أَوْ لِلْمُبَالَغَةِ إِمَّا فِي كَرَمِهِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَمْنَعُ سَائِلَهُ . وَإِمَّا فِي خَسَاسَتِهِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَسْمَحُ بِمِثْلِ هٰذَا . وَقَدْ يَكُونُ لِبَيَانِ ٱسْتِحَالَةِ فِعْلٍ ظُنَّ مُمْكِنًا كَقَوْلِهِ : أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ . وَكَذٰلِكَ إِذَا أَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : أَغَيْرَ ٱللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا وَ أَغَيْرَ ٱللهِ تَدْعُونَ . وَأَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ . بَنَوْا كُفْرَهُمْ عَلَى أَنَّ ٱلْبَشَرَ لَيْسَ بِمَثَابَةٍ أَنْ يُتَّبَعَ وَيُطَاعَ

(فِي ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ فِي ٱلنَّفْيِ) إِذَا أَدْخَلْتَ ٱلنَّفْيَ عَلَى ٱلْفِعْلِ فَقُلْتَ : مَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . فَقَدْ نَفَيْتَ عَنْ زَيْدٍ ضَرْبًا وَاقِعًا بِزَيْدٍ وَهٰذَا لَا يَقْتَضِي كَوْنَ زَيْدٍ مَضْرُوبًا . وَإِذَا أَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلِٱسْمِ فَقُلْتَ : مَا أَنَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . أَقْتَضَى مِنْ بَابِ دَلِيلِ ٱلْخِطَابِ كَوْنُ زَيْدٍ مَضْرُوبًا وَعَلَيْهِ قَوْلُ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَمَا أَنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا ٱلشِّعْرَ كُلَّهُ وَلٰكِنْ لِشِعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِهِ شِعْرُ

وَكَذٰلِكَ (حُكْمُ ٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ وَحُكْمُ ٱلْمَفْعُولِ) . فَإِذَا قُلْتَ : مَا أَمَرْتُكَ بِهٰذَا . لَمْ يَقْتَضِ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَمَرْتَهُ بِشَيْءٍ غَيْرِ هٰذَا . وَإِذَا قُلْتَ : مَا بِهٰذَا أَمَرْتُكَ . أَقْتَضَاهُ . وَإِذَا قَدَّمْتَ صِفَةَ ٱلْعُمُومِ عَلَى ٱلسَّلْبِ وَقُلْتَ : كُلُّ ذٰلِكَ لَمْ أَفْعَلْهُ بِرَفْعِ (كُلّ) كَانَ نَفْيًا عَامًّا

وَيُنَاقِضُهُ ٱلْإِثْبَاتُ ٱلْخَاصُّ . فَلَوْ فَعَلْتَ بَعْضَهُ كُنْتَ كَاذِبًا . وَإِنْ قَدَّمْتَ ٱلسَّلْبَ وَقُلْتَ : لَمْ اَفْعَلْ كُلَّ ذٰلِكَ . كَانَ نَفْيًا لِلْعُمُومِ وَلَا يُنَافِي ٱلْإِثْبَاتَ ٱلْخَاصَّ فَلَوْ فَعَلْتَ بَعْضَهُ لَمْ تَكُنْ كَاذِبًا . (ٱلثَّالِثُ فِي ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ فِي ٱلْخَبَرِ ٱلْمُثْبَتِ) مَا تَقَدَّمَ فِي ٱلِٱسْتِفْهَامِ وَٱلنَّفْيِ قَائِمٌ هَاهُنَا فَإِذَا قَدَّمْتَ ٱلِٱسْمَ وَقُلْتَ : زَيْدٌ فَعَلَ وَاَنَا فَعَلْتُ . فَٱلْقَصْدُ اَنَّ ٱلْفَاعِلَ إِمَّا لِتَخْصِيصِ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلِ بِهِ كَقَوْلِكَ : اَنَا شَفَعْتُ فِي شَأْنِهِ مُدَّعِيًا ٱلِٱنْفِرَادَ بِذٰلِكَ . اَوْ لِتَأْكِيدِ إِثْبَاتِ ٱلْفِعْلِ لَهُ لَا لِلْحَصْرِ كَقَوْلِكَ : هُوَ يُعْطِي ٱلْجَزِيلَ . لِيَتَمَكَّنَ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ اَنَّ ذٰلِكَ دَأْبُهُ دُونَ نَفْيِهِ عَنْ غَيْرِهِ كَقَوْلِ دَرْنَا بِنْتِ عَشْعَشَةَ :

هُمَا يَلْبَسَانِ ٱلْمَجْدَ اَحْسَنَ لِبْسَةٍ شَجِيحَانِ مَا ٱسْطَاعَا عَلَيْهِ كِلَاهُمَا

وَٱلسَّبَبُ فِي هٰذَا ٱلتَّأْكِيدِ إِذَا قُلْتَ مَثَلًا : (زَيْدٌ) . فَقَدْ اَشْعَرْتَ بِاَنَّكَ تُرِيدُ ٱلْحَدِيثَ عَنْهُ فَيَحْصُلُ لِلسَّامِعِ تَشَوُّقٌ إِلَى مَعْرِفَتِهِ . فَإِذَا ذَكَرْتَهُ قَبِلَتْهُ ٱلنَّفْسُ قَبُولَ ٱلصَّدِيقِ صَدِيقَهُ فَيَكُونُ ذٰلِكَ اَبْلَغَ فِي ٱلتَّحْقِيقِ وَنَفْيِ ٱلشَّكِّ وَٱلشُّبْهَةِ . وَلِهٰذَا تَقُولُ لِمَنْ تَعِدُهُ : اَنَا اُعْطِيكَ . اَنَا اَكْفِيكَ . اَنَا اَقُومُ بِهٰذَا ٱلْاَمْرِ . وَذٰلِكَ إِذَا كَانَ مِنْ شَأْنِ مَنْ سَبَقَ لَهُ وَعْدٌ اَنْ يَعْتَرِضَهُ ٱلشَّكُّ فِي وَفَائِهِ . وَلِذٰلِكَ يُقَالُ فِي ٱلْمَدْحِ : اَنْتَ تُعْطِي ٱلْجَزِيلَ . اَنْتَ تَجُودُ حِينَ لَا يَجُودُ اَحَدٌ . وَمِنْ هَاهُنَا تُعْرَفُ ٱلْفَخَامَةُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلَّتِي فِيهَا ضَمِيرُ ٱلشَّأْنِ وَٱلْقِصَّةِ كَقَوْلِهِ : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْاَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ . وَكَقَوْلِهِ : إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ . (وَإِنَّهَا) فِيهَا مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكَ : فَإِنَّ

ٱلْأَبْصَارَ لَا تَعْمَى وَإِنَّ ٱلْكَافِرِينَ لَا يُفْلِحُونَ . وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْخَبَرِ ٱلْمَنْفِيِّ . فَإِذَا قُلْتَ . أَنْتَ لَا تُحْسِنُ هٰذَا . كَانَ أَبْلَغَ مِنْ أَنْ تَقُولَ : لَا تُحْسِنُ هٰذَا . فَٱلْأَوَّلُ لِمَنْ هُوَ أَشَدُّ إِعْجَابًا بِنَفْسِهِ وَأَكْثَرُ دَعْوَى بِأَنَّهُ يُحْسِنُ . وَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ تَقْدِيمُ ٱلِٱسْمِ كَٱللَّازِمِ وَهُوَ : (كَمِثْلِ) فِي نَحْوِ قَوْلِهِ :

يَا عَاذِلِي دَعْنِي مِنْ عَذْلِكَ ... مِثْلِي لَا يَقْبَلُ مِنْ مِثْلِكَ

وَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

مِثْلُكَ يَثْنِي ٱلْحُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ ... وَيَسْتَرِدُّ ٱلدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ

وَكَقَوْلِ ٱلنَّاسِ : مِثْلُكَ يَرْعَى ٱلْحَقَّ وَٱلْحُرْمَةَ . وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا لَا يَقْصِدُ فِيهِ ٱلْإِنْسَانُ سِوَى ٱلَّذِي أُضِيفَ إِلَيْهِ وَجِيءَ بِهِ لِلْمُبَالَغَةِ . وَٱلْمَعْنَى إِنَّ مَنْ كَانَ مِثْلَهُ فِي ٱلْحَالِ وَٱلصِّفَةِ كَانَ مِنْ مُقْتَضَى ٱلْقِيَاسِ أَنْ يَفْعَلَ مَا ذُكِرَ فَكَيْفَ بِهِ . وَقَدْ عَبَّرَ ٱلْمُتَنَبِّي عَنْ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَقَالَ :

وَلَمْ أَقُلْ مِثْلُكَ أَعْنِي بِهِ ... سِوَاكَ يَا فَرْدًا بِلَا مُشْبِهِ

وَكَذٰلِكَ حُكْمُ (غَيْرٍ) إِذَا سُلِكَ فِيهِ هٰذَا ٱلْمَسْلَكُ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هٰذَا ٱلنَّاسِ يَنْخَدِعُ ... إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

أَيْ لَسْتُ مِمَّنْ يَنْخَدِعُ وَيَغْتَرُّ . وَلَوْ لَمْ يُقَدِّمْ (مِثْلًا وَغَيْرًا) فِي هٰذِهِ ٱلصُّوَرِ لَمْ يُرِدْ هٰذَا ٱلْمَعْنَى

(أَمَّا مَوَاضِعُ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ) فَقَدْ يَحْسُنُ ٱلتَّقْدِيمُ فِي مَوَاضِعَ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ تَكُونَ ٱلْحَاجَةُ إِلَى ذِكْرِهِ أَشَدَّ كَقَوْلِكَ : قَطَعَ ٱللِّصَّ ٱلْأَمِيرُ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ أَلْيَقَ بِمَا قَبْلَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ أَوْ

بِمَا بَعْدَهُ كَقَوْلِهِ: وَتُغَشِّي وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ. فَإِنَّهُ أَشْكَلُ بِمَا بَعْدَهُ. وَهُوَ قَوْلُهُ: إِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ. وَبِمَا قَبْلَهُ وَهُوَ: مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ. (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ أَعْرَفَ أَوْ أَشَدَّ تَعَلُّقًا بِمَا بَعْدَهُ كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ قَامَ. وَقَامَ زَيْدٌ. وَزَيْدٌ ٱلطَّوِيلُ. (ٱلرَّابِعُ) أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلَّتِي لَهَا صَدْرُ ٱلْكَلَامِ كَحُرُوفِ ٱلِٱسْتِفْهَامِ وَٱلنَّفْيِ فَإِنَّ ٱلِٱسْتِفْهَامَ طَلَبُ فَهْمِ ٱلشَّيْءِ وَهُوَ حَالَةٌ إِضَافِيَّةٌ فَلَا تَسْتَقِلُّ بِٱلْمَفْهُومِيَّةِ فَيَشْتَدُّ ٱتِّصَالُهُ بِمَا بَعْدَهُ. (ٱلْخَامِسُ) تَقْدِيمُ ٱلْكُلِّيِّ عَلَى جُزْئِيَّاتِهِ. فَإِنَّ ٱلشَّيْءَ كُلَّمَا كَانَ أَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ أَعْرَفَ فَإِنَّ ٱلْوُجُودَ لَمَّا كَانَ أَعَمَّ ٱلْأُمُورِ كَانَ أَعْرَفَهَا عِنْدَ ٱلْعَقْلِ. (ٱلسَّادِسُ) تَقْدِيمُ ٱلدَّلِيلِ عَلَى ٱلْمَدْلُولِ

وَأَمَّا ٱلتَّأْخِيرُ فَيَحْسُنُ فِي مَوَاضِعَ: (ٱلْأَوَّلُ) تَمَامُ ٱلِٱسْمِ كَٱلصِّلَةِ وَٱلْمُضَافِ إِلَيْهِ. (ٱلثَّانِي) تَوَابِعُ ٱلْأَسْمَاءِ. (ٱلثَّالِثُ) ٱلْفَاعِلُ. (ٱلرَّابِعُ) ٱلْمُضْمَرُ وَهُوَ إِنْ كَانَ مُتَأَخِّرًا لَفْظًا وَتَقْدِيرًا كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ زَيْدٌ غُلَامَهُ. أَوْ مُؤَخَّرًا فِي ٱللَّفْظِ مُقَدَّمًا فِي ٱلْمَعْنَى كَقَوْلِهِ: وَإِذَا ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ. أَوْ بِٱلْعَكْسِ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ غُلَامَهُ زَيْدٌ. جَازَ. وَإِنْ تَقَدَّمَ لَفْظًا وَمَعْنًى لَمْ يَجُزْ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ غُلَامُهُ زَيْدًا. (ٱلْخَامِسُ) مَا يُفْضِي إِلَى ٱللَّبْسِ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ مُوسَى عِيسَى. وَأَكْرَمَ هٰذَا هٰذَا. فَيَجِبُ فِيهِ تَقْدِيمُ ٱلْفَاعِلِ. (ٱلسَّادِسُ) ٱلْعَامِلُ ٱلَّذِي يَضْعُفُ عَمَلُهُ كَٱلصِّفَةِ ٱلْمُشَبَّهَةِ وَٱلتَّمْيِيزِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ حَرْفٌ أَوْ مَعْنًى كَقَوْلِكَ: هُوَ حَسَنٌ وَجْهًا. وَكَرِيمٌ أَبًا. وَتَصَبَّبَ عَرَقًا. وَخَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ دِرْهَمًا وَإِنَّ

زَيْدًا قَائِمٌ . وَفِي ٱلدَّارِ سَعْدٌ جَالِسٌ . وَلَا يَجُوزُ ٱلْفَصْلُ بَيْنَ ٱلْعَامِلِ وَٱلْمَعْمُولِ بِمَا لَيْسَ مِنْهُ فَلَا تَقُولُ : كَانَتْ زَيْدًا ٱلْحُمَّى تَأْخُذُ . إِذَا رَفَعْتَ ٱلْحُمَّى بِكَانَتْ لِلْفَصْلِ بَيْنَ ٱلْعَامِلِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ . فَإِنْ أَضْمَرْتَ ٱلْحُمَّى فِي كَانَتْ صَحَّتِ ٱلْمَسْئَلَةُ

البحث التاسع

في الحذف والاضمار

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ٢٠ من علم الادب)

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَفْعَالَ ٱلْمُتَعَدِّيَةَ ٱلَّتِي يُتْرَكُ ذِكْرُ مَفْعُولَاتِهَا عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ مَفْعُولٌ مُعَيَّنٌ فَقَدْ يُتْرَكُ مَفْعُولُهُ لَفْظًا وَتَقْدِيرًا وَيُجْعَلُ حَالُهُ كَحَالِ غَيْرِ ٱلْمُتَعَدِّي كَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعْقِدُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ . وَٱلْمَقْصُودُ إِثْبَاتُ ٱلْمَعْنَى فِي نَفْسِهِ لِلشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِحَدِيثِ ٱلْمَفْعُولِ فَكَأَنَّكَ قُلْتَ : بِحَيْثُ يَكُونُ مِنْهُ حَلٌّ وَعَقْدٌ وَأَمْرٌ وَنَهْيٌ وَضَرٌّ وَنَفْعٌ . وَبِٱلْجُمْلَةِ مَتَى كَانَ ٱلْغَرَضُ بَيَانَ حَالِ ٱلْفَاعِلِ فَقَطْ فَلَا تُعَدِّ ٱلْفِعْلَ فَإِنْ تَعْدِيَتَهُ تَنْقُصُ ٱلْغَرَضَ . أَلَا تُرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ : فُلَانٌ يُعْطِي ٱلدَّنَانِيرَ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بَيَانَ جِنْسِ مَا تَنَاوَلَهُ ٱلْإِعْطَاءُ لَا بَيَانُ حَالِ كَوْنِهِ مُعْطِيًا . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ لَهُ مَفْعُولٌ مَعْلُومٌ إِلَّا أَنَّهُ يُحْذَفُ مِنَ ٱللَّفْظِ لِأَغْرَاضٍ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْمُرَادُ بَيَانَ حَالِ ٱلْفَاعِلِ وَأَنَّ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلَ دَأْبُهُ لَا بَيَانُ

ٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِ طُفَيْلٍ :

جَزَى ٱللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ ٱزْلَقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِئِينَ فَزَلَّتِ

أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلَاقِي ٱلَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

هُمُ خَلَّطُونَا بِٱلنُّفُوسِ وَأَلْجَأُوا ... إِلَى حُجُرَاتٍ أَدْفَأَتْ وَأَظَلَّتِ

وَٱلْأَصْلُ أَنْ يَقُولَ : لَمَلَّتْنَا وَأَلْجَأُونَا وَأَدْفَأَتْنَا وَأَظَلَّتْنَا فَحَذَفَ ٱلْمَفْعُولَ ٱلْمُعَيَّنَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَأَنَّهُ قَدْ أُبْهِمَ وَلَمْ يُقْصَدْ قَصْدَ شَيْءٍ يَقَعُ عَلَيْهِ كَمَا تَقُولُ : قَدْ مَلَّ فُلَانٌ . تُرِيدُ قَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ ٱلْمَلَالُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَخُصَّ شَيْئًا بَلْ لَا تُرِيدُ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ ٱلْمَلَالَ مِنْ صِفَتِهِ . فَكَذٰلِكَ ٱلشَّاعِرُ جَعَلَ هٰذِهِ ٱلْأَوْصَافَ مِنْ ذَاتِهِمْ وَلَوْ أَضَافَ إِلَى مَفْعُولٍ مُعَيَّنٍ لَبَطَلَ هٰذَا ٱلْغَرَضُ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ٱلْمَقْصُودُ ذِكْرَهُ إِلَّا أَنَّكَ لَا تَذْكُرُهُ إِيهَامًا لِأَنَّكَ لَا تَقْصِدُ ذِكْرَهُ كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

شَجْوُ حُسَّادِهِ وَغَيْظُ عِدَاهُ ... أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعِ

ٱلْمَعْنَى أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ مَحَاسِنَهُ وَأَنْ يَسْمَعَ وَاعٍ أَخْبَارَهُ . وَلٰكِنَّهُ تَغَافَلَ عَنْ ذٰلِكَ إِيذَانًا بِأَنَّ فَضَائِلَهُ يَكْفِي فِيهَا أَنْ يَقَعَ عَلَيْهَا بَصَرٌ وَيَعِيَهَا سَمْعٌ حَتَّى يُعْلَمَ أَنَّهُ ٱلْمُنْفَرِدُ بِٱلْفَضَائِلِ فَلَيْسَ لِحُسَّادِهِ وَعِدَاهُ أَشْجَى مِنْ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهَا هُنَا مُبْصِرًا وَسَامِعًا . (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يُحْذَفَ لِكَوْنِهِ بَيِّنًا كَقَوْلِهِمْ : أَصْغَيْتُ إِلَيْكَ . أَيْ أُذُنِي . وَأَغْضَيْتُ عَلَيْكَ . أَيْ جَفْنِي

(فَصْلٌ فِي حَذْفِ ٱلْمُبْتَدَإِ وَٱلْخَبَرِ) قَدْ يَحْسُنُ حَذْفُ ٱلْمُبْتَدَإِ حَيْثُ يَكُونُ ٱلْغَرَضُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ فِي ٱسْتِحْقَاقِ ٱلْوَصْفِ بِمَا جُعِلَ وَصْفًا لَهُ

اِلَى حَيْثُ يُعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ اَنَّ ذٰلِكَ لَيْسَ اِلَّا لَهُ سَوَاءٌ كَانَ فِي نَفْسِهِ كَذٰلِكَ اَوْ بِحَسَبِ دَعْوَى الشَّاعِرِ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ فَذِكْرُهُ يُبْطِلُ هٰذَا الْغَرَضَ . وَلِهٰذَا قَالَ عَبْدُ الْقَاهِرِ : مَا مِنِ اسْمٍ يُحْذَفُ فِي الْحَالَةِ يَنْبَغِي اَنْ يُحْذَفَ فِيهَا اِلَّا وَحَذْفُهُ اَحْسَنُ مِنْ ذِكْرِهِ فَمِنْ حَذْفِ الْمُبْتَدَإِ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

لَا يُبْعِدِ اللّٰهُ التَّلَبُّبَ م وَالْغَارَاتِ اِذْ قَالَ الْخَمِيسُ نَعَمْ

اَيْ هٰذِهِ نَعَمْ . قَالَ عَبْدُ الْقَاهِرِ : وَمِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي يَطَّرِدُ فِيهَا حَذْفُ الْمُبْتَدَإِ بِالْقَطْعِ وَالْاِسْتِئْنَافِ اَنَّهُمْ يَبْدَأُونَ بِذِكْرِ الرَّجُلِ وَيُقَدِّمُونَ بَعْضَ اَمْرِهِ ثُمَّ يَدَعُونَ الْكَلَامَ الْاَوَّلَ فَيَسْتَأْنِفُونَ كَلَامًا آخَرَ اِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ اَتَوْا فِي اَكْثَرِ الْاَمْرِ بِخَبَرٍ مِنْ غَيْرِ مُبْتَدَإٍ مِثَالُ ذٰلِكَ :

وَعَلِمْتُ اَنِّي يَوْمَ ذَا كَ مُنَازِلٌ كَعْبًا وَنَهْدَا

قَوْمٌ اِذَا لَبِسُوا الْحَدِيدَ م تَنَمَّرُوا حَلَفًا وَقِدَّا

وَقَوْلُ الْحُطَيْئَةِ :

هُمُ حَلُّوا مِنَ الشَّرَفِ الْمُعَلَّى وَمِنْ حَسَبِ الْعَشِيرَةِ حَيْثُ شَاءُوا

اُسَاةُ مَكَارِمٍ وَاُسَاةُ كَلْمٍ دِمَاؤُهُمُ مِنَ الْكَلَبِ الشِّفَاءُ

وَاَمْثِلَتُهُ كَثِيرَةٌ . وَمِنْ حَذْفِ الْخَبَرِ قَوْلُهُ : لَوْلَا اَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ اَيْ لَوْلَا اَنْتُمْ مُضِلُّونَا . وَقَوْلُ عُمَرَ : لَوْلَا عَلِيٌّ لَهَلَكَ عُمَرُ . اَيْ لَوْلَا عَلِيٌّ حَاضِرٌ اَوْ مُفْتٍ . وَمِمَّا يَحْتَمِلُ الْاَمْرَيْنِ قَوْلُهُ : طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ . وَقَوْلُهُ : فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

اَلْاِضْمَارُ عَلَى شَرِيطَةِ التَّفْسِيرِ كَقَوْلِكَ : اَكْرَمَنِي وَاَكْرَمْتُ عَبْدَ اللّٰهِ اَيْ

اكرمني عبد الله واكرمت عبد الله. ومما يشبه ذلك مفعول المشيئة اذا جاءت بعد (لو). فان كان مفعولها عظيما او غريبا فالاولى ذكره كقوله:

ولو شئت ان ابكي دما لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر اوسع

فان بكاء الانسان دما عجيب. وان لم يكن كذلك فالاولى حذفه كقوله: ولو شاء الله لجمعهم على الهدى. والتقدير: ولو شاء الله ان يجمعهم على الهدى لجمعهم. واعلم انه قد تترك الكناية الى التصريح لما فيه من زيادة الفخامة كقول البحتري:

قد طلبنا فلم نجد لك في السؤ دد والمجد والمكارم مثلا

المعنى قد طلبنا لك مثلا. ثم حذف لان هذا المدح انما يتم بنفي المثل فلو قال: قد طلبنا لك مثلا في السؤدد والمجد فلم نجد لكان قد اوقع نفي الوجود على ضمير (المثل) فلم يكن فيه من المبالغة ما اذا اوقعه على صريح المثل. فان الكناية لا تبلغ مبلغ الصريح. وعلى ذلك قول الشاعر:

لا ارى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

البحث العاشر

في جوامع الكلم

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

ان الكلم جمع كلمة. والجوامع جمع جامعة. والجامعة اسم فاعلة من جمعت فهي جامعة. كما يقال في المذكر جمع فهو جامع

وَٱلْمُرَادُ بِجَوَامِعِ ٱلْكَلِمِ ٱلْكَلِمُ ٱلْجَوَامِعُ لِلْمَعَانِي. وَهُوَ عِنْدِي يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: (ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ) مِنْهُمَا هُوَ مَا ٱسْتَخْرَجْتُهُ وَنَبَّهْتُ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيهِ قَوْلٌ سَابِقٌ وَهُوَ أَنَّ لَنَا أَلْفَاظًا تَتَضَمَّنُ مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا لَا تَتَضَمَّنُهُ أَخَوَاتُهَا مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي مَكَانِهَا. فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْمَجَازِ. وَمِنْهُ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْحَقِيقَةِ. وَقَدْ وَرَدَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فِي أَقْوَالِ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُفْلِقِينَ. وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ ٱلْأَشْعَارَ قَدِيمَهَا وَحَدِيثَهَا وَحَفِظْتُ مَا حَفِظْتُ مِنْهَا وَكُنْتُ إِذَا مَرَرْتُ بِنَظَرِي فِي دِيوَانٍ مِنَ ٱلدَّوَاوِينِ وَيَلُوحُ لِي فِيهِ مِثْلُ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ أَجِدُ لَهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ وَطَرَبًا كَطَرَبِ ٱلْأَلْحَانِ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاظِمِينَ وَٱلنَّاثِرِينَ يَمُرُّ عَلَى ذٰلِكَ وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهُ سِوَى أَنَّهُ يَسْتَحْسِنُهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِيمَا نَظَرْتُ أَنَا فِيهِ وَيَظُنُّهُ كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ.

فِمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

كَمْ صَارِمٍ عَضْبٍ أَنَافَ عَلَى قِفًا ... مِنْهُمْ لِأَعْبَاءِ ٱلْوَغَى حَمَّالِ

سَبَقَ ٱلْمَشِيبَ إِلَيْهِ حَتَّى ٱبْتَزَّهُ ... وَطَنُ ٱلنُّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقَذَالِ

فَقَوْلُهُ: (وَطَنُ ٱلنُّهَى) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَامِعَةِ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَا يُجَاءُ بِمِثْلِهَا فِي مَعْنَاهَا مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّهَا. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ:

قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ وَيَدٌ ... تُمْضِي ٱلْأُمُورَ وَنَفْسٌ لَهْوُهَا ٱلتَّعَبُ

فَقَوْلُهُ: (قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَوَامِعِ. وَمُرَادُهُ بِذٰلِكَ أَنَّ قَلْبَهُ لَا تَمْلَأُهُ ٱلْأَفْكَارُ وَلَا تُحِيطُ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ عَالٍ

عليها يصف بذلك عدم احتفاله بالفوادح وقلة مبالاته بالخطوب التي تحدث افكارا تستغرق القلوب وهذه عبارة عجيبة لا يؤتى بمثلها مما يسد مسدها . (واما) ما يأتي على حكم الحقيقة فكقول ابن الرومي :

سقى الله اوطارا لنا ومآربا ... تقطع من اقرانها ما تقطعا
ليال تنسيني الليالي حسابها ... بلهنية اقضي بها الحول اجمعا
سوى عزة لا اعرف اليوم باسمه ... واعمل فيه اللهو مرأى ومسمعا

فقوله : (لا اعرف اليوم باسمه) من الكلمات الجامعة اي اني قد شغلت باللذات عن معرفة الليالي والايام ولو وصف اشتغاله باللذات مهما وصف لم يأت بمثل قوله : (لا اعرف اليوم باسمه). (واما القسم الثاني) من جوامع الكلم فالمراد به الايجاز الذي يدل به بالالفاظ القليلة على المعاني الكثيرة اي تكون الالفاظ جامعة المعاني المقصودة على ايجازها واختصارها . وسيأتي في باب الايجاز منه ما فيه كفاية ومقنع . (فان قيل) : فما الفرق بين هذين القسمين اللذين ذكرتهما فانهما بالنظر سواء . (قلت في الجواب) : ان الايجاز هو ان يؤتى بالفاظ دالة على معنى من غير ان تزيد على ذلك المعنى ولا يشترط في تلك الالفاظ انها لا نظير لها فانها تكون قد اتصفت بوصف آخر خارج عن وصف الايجاز . وحينئذ يكون ايجازا او زيادة . واما هذا القسم الآخر فانه الفاظ افراد في حسنها لا نظير لها . فتارة تكون موجزة وتارة لا تكون

مُوجَزَةً . وَلَيْسَ ٱلْغَرَضُ مِنْهَا ٱلْإِيجَازَ وَإِنَّمَا ٱلْغَرَضُ مَكَانُهَا مِنَ ٱلْحُسْنِ ٱلَّذِي لَا نَظِيرَ لَهَا فِيهِ . أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ : (وَطَنَ ٱلنُّهَى) فَإِنَّ ذٰلِكَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَا شَكَّ أَنَّ ٱلرَّأْسَ أَوْجَزُ لِأَنَّ ٱلرَّأْسَ لَفْظَةٌ وَاحِدَةٌ . وَوَطَنَ ٱلنُّهَى لَفْظَتَانِ . إِلَّا إِنَّ (وَطَنَ ٱلنُّهَى) أَحْسَنُ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱلرَّأْسِ . فَبَانَ بِهٰذَا أَنَّ أَحَدَ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ غَيْرُ ٱلْآخَرِ

البحث الحادي عشر

في الانسجام

(عن شرح بديعية العميان لابن جابر وبديعية الحموي)

(راجع صفحة ٢١ من علم الادب)

ٱلْإِنْسِجَامُ لُغَةً جَرَيَانُ ٱلْمَاءِ وَعِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَلَاغَةِ هُوَ أَنْ يَأْتِيَ ٱلنَّاظِمُ أَوِ ٱلنَّاثِرُ بِكَلَامٍ خَالٍ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ ٱللَّفْظِيِّ وَٱلْمَعْنَوِيِّ بَسِيطًا مَفْهُومًا دَقِيقَ ٱلْأَلْفَاظِ جَلِيلَ ٱلْمَعْنَى لَا تَكَلُّفَ فِيهِ وَلَا تَعَسُّفَ يَتَحَدَّرُ كَتَحَدُّرِ ٱلْمَاءِ ٱلْمُنْسَجِمِ فَيَكَادُ لِسُهُولَةِ تَرْكِيبِهِ وَعُذُوبَةِ أَلْفَاظِهِ أَنْ يَسِيلَ رِقَّةً . وَلَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِلَّا فِي مَنْ هُوَ مَطْبُوعٌ عَلَى سَلَامَةِ ٱلذَّوْقِ وَتَوَقُّدِ ٱلْفِكْرَةِ وَبَرَاعَةِ ٱلْإِنْشَاءِ وَحُسْنِ ٱلْأَسَالِيبِ . فَإِنْ كَانَ مَصْنُوعًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ فِيهِ غَالِبًا مَا يُظْهِرُ صِنَاعَتَهُ مَعَ مُقَابَلَتِهِ بِغَيْرِهِ مِنْ نَفْسِ صَانِعِهِ . وَإِنَّ فُحُولَ هٰذَا ٱلْمَيْدَانِ مَا أَثْقَلُوا كَاهِلَ سُهُولَتِهِ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ . وَعَلَى هٰذَا أَجْمَعَ عُلَمَاءُ ٱلْبَدِيعِ فِي حَدِّ هٰذَا ٱلنَّوْعِ فَإِنَّهُمْ قَرَّرُوا : أَنْ يَكُونَ بَعِيدًا فِي ٱلتَّصَنُّعِ خَالِيًا مِنَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِيَّةِ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ

فِي ضِمْنِ ٱلسُّهُولَةِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ. وَإِنْ كَانَ ٱلِٱنْسِجَامُ فِي ٱلنَّثْرِ تَكُونُ غَالِبُ فَقَرَاتِهِ مَوْزُونَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِقُوَّةِ ٱنْسِجَامِهِ. وَإِنْ كَانَ فِي ٱلنَّظْمِ فَتَكَادُ ٱلْأَبْيَاتُ أَنْ تَسِيلَ رِقَّةً وَعُذُوبَةً. وَرُبَّمَا دَخَلَتْ فِي ٱلْمُطْرِبِ وَٱلْمُرْقِصِ

البحث الثاني عشر

في القول في النظم

(عن صناعة الترسل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٤ من علم الادب)

اَلنَّظْمُ عِبَارَةٌ عَنْ تَوَاخِي مَعَانِي ٱلنَّحْوِ فِيمَا بَيْنَ ٱلْكَلَامِ. وَذٰلِكَ أَنْ تَضَعَ كَلَامَكَ ٱلْوَضْعَ ٱلَّذِي يَقْتَضِيهِ عِلْمُ ٱلنَّحْوِ بِأَنْ تَنْظُرَ فِي كُلِّ بَابٍ إِلَى قَوَانِينِهِ وَٱلْفُرُوقِ ٱلَّتِي بَيْنَ مَعَانِي ٱخْتِلَافِ صِيَغِهِ وَتَضَعَ ٱلْحُرُوفَ مَوَاضِعَهَا وَتُرَاعِيَ شَرَائِطَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ وَمَوَاضِعَ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ وَمَوَاضِعَ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ عَلَى ٱخْتِلَافِ مَعَانِيهَا وَتَعْتَبِرَ ٱلْإِصَابَةَ فِي طَرِيقِ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلتَّمْثِيلِ. وَقَدْ ٱطْبَقَ ٱلْعُلَمَاءُ عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِ ٱلنَّظْمِ وَأَنْ لَا فَضْلَ مَعَ عَدَمِهِ وَلَوْ بَلَغَ ٱلْكَلَامُ فِي غَرَابَةِ مَعْنَاهُ إِلَى مَا بَلَغَ. وَإِنَّ سَبَبَ فَسَادِهِ تَرْكُ ٱلْعَمَلِ بِقَرَائِنِ ٱلنَّحْوِ وَٱسْتِعْمَالُ شَيْءٍ فِي غَيْرِ وَضْعِهِ. ثُمَّ ٱلْجُمَلُ ٱلْكَبِيرَةُ إِذَا نُظِمَتْ نَظْمًا وَاحِدًا فَهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ: (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَتَعَلَّقَ ٱلْبَعْضُ بِٱلْبَعْضِ فَلَا يَحْتَاجُ وَاضِعُهُ إِلَى فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ بَلْ هُوَ كَمَنْ عَمَدَ إِلَى ٱللَّآلِئِ

يَنْظِمُهَا فِي سِلْكٍ . وَمِثَالُهُ قَوْلُ ٱلْجَاحِظِ : جَنَّبَكَ ٱللهُ ٱلشُّبْهَةَ وَعَصَمَكَ مِنَ ٱلْحَيْرَةِ وَجَعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلْمَعْرُوفِ نَسَبًا وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلصِّدْقِ سَبَبًا . وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ لِلنُّعْمَانِ : يُفَاخِرُكَ ٱبْنُ ٱبِي جَفْنَةٍ وَإِنَّ لَقَفَاكَ خَيْرٌ مِنْ وَجْهِهِ وَلَشِمَالُكَ خَيْرٌ مِنْ يَمِينِهِ وَلَأَخْمَصُكَ خَيْرٌ مِنْ رَأْسِهِ وَلَخَطَأُكَ خَيْرٌ مِنْ صَوَابِهِ وَلَخَدَمُكَ خَيْرٌ مِنْ قَوْمِهِ . وَهٰذَا ٱلنَّظْمُ لَا يَسْتَحِقُّ ٱلْفَضْلَ إِلَّا بِسَلَامَةِ مَعْنَاهُ وَسَلَامَةِ أَلْفَاظِهِ إِذْ لَيْسَ فِيهِ مَعْنًى دَقِيقٌ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِثَاقِبِ ٱلْفِكْرِ . وَرُبَّمَا ظُنَّ بِٱلْكَلَامِ أَنَّهُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ وَلَا يَكُونُ مِنْهُ . (ٱلثَّانِي) أَنْ تَكُونَ ٱلْجُمَلُ ٱلْمَذْكُورَةُ يَتَعَلَّقُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَهُنَاكَ تَظْهَرُ قُوَّةُ ٱلطَّبْعِ وَجُودَةُ ٱلْقَرِيحَةِ وَٱسْتِقَامَةُ ٱلذِّهْنِ . ثُمَّ لَيْسَ لِهٰذَا ٱلْبَابِ قَانُونٌ يُحْفَظُ فَإِنَّمَا يَجِيءُ عَلَى وُجُوهٍ شَتَّى : (فَمِنْهَا ٱلْإِيجَازُ) وَهُوَ ٱلتَّعْبِيرُ عَنِ ٱلْغَرَضِ بِأَقَلِّ مَا يُمْكِنُ مِنَ ٱلْحُرُوفِ وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) إِيجَازُ قَصْرٍ وَهُوَ تَقْلِيلُ ٱللَّفْظِ وَتَكْثِيرُ ٱلْمَعْنَى . (وَٱلثَّانِي) إِيجَازُ حَذْفٍ وَهُوَ ٱلِٱسْتِغْنَاءُ بِٱلْمَذْكُورِ عَمَّا لَمْ يُذْكَرْ . (وَمِنْهَا ٱلتَّأْكِيدُ) وَهُوَ تَقْوِيَةُ ٱلْمَعْنَى وَتَقْرِيرُهُ إِمَّا بِإِظْهَارِ ٱلْبُرْهَانِ كَقَوْلِ قَابُوسَ :

يَا ذَا ٱلَّذِي بِصُرُوفِ ٱلدَّهْرِ عَيَّرَنَا ... هَلْ عَانَدَ ٱلدَّهْرُ إِلَّا مَنْ لَهُ خَطَرُ

أَمَا تَرَى ٱلْبَحْرَ يَعْلُو فَوْقَهُ جِيَفٌ ... وَتَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَعْرِهِ ٱلدُّرَرُ

وَفِي ٱلسَّمَاءِ نُجُومٌ غَيْرُ ذِي عَدَدٍ ... وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلَّا ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ

(أَوْ بِٱلْعَزِيمَةِ) كَقَوْلِهِ : فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ . (أَوْ بِٱلتَّكْرَارِ) كَقَوْلِهِمْ : ٱللهَ ٱللهَ وَٱلْأَسَدَ ٱلْأَسَدَ

الفصل الرابع

في البيان

البحث الاوّل

في تحديد البيان على وجه الاجمال

(من كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغرر الخصائص للوطواط بتصرُّف)

(راجع صفحة ٢٧ و ٢٨ من علم الادب)

اَلْبَيَانُ اِسْمٌ لِكُلِّ شَيْءٍ كَشَفَ لَكَ عَلَى بَيَانِ اَلْمَعْنَى وَهَتَكَ لَكَ اَلْحُجُبَ دُونَ اَلضَّمِيرِ حَتَّى يُفْضِيَ اَلسَّامِعُ اِلَى حَقِيقَتِهِ وَيَهْجُمَ عَلَى مَحْصُولِهِ كَائِنًا مَا كَانَ ذٰلِكَ اَلْبَيَانُ وَمِنْ اَيِّ جِنْسٍ كَانَ ذٰلِكَ اَلدَّلِيلُ . لِاَنَّ مَدَارَ اَلْاَمْرِ وَاَلْغَايَةَ اَلَّتِي يَجْرِي اِلَيْهَا اَلْقَائِلُ وَاَلسَّامِعُ اِنَّمَا هُوَ اَلْفَهْمُ وَاَلْاِفْهَامُ فَبِاَيِّ شَيْءٍ بَلَغْتَ اَلْاِفْهَامَ وَاَوْضَحْتَ عَنِ اَلْمَعْنَى فَذٰلِكَ هُوَ اَلْبَيَانُ فِي ذٰلِكَ اَلْمَوْضِعِ . وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى اَلْبَرْمَكِيِّ : مَا اَلْبَيَانُ . قَالَ : اَنْ يَكُونَ اَلِاسْمُ يُحِيطُ بِمَعْنَاكَ وَيَكْشِفُ عَنْ مَغْزَاكَ وَيُخْرِجُهُ مِنَ اَلشَّرِكَةِ وَلَا يُسْتَعَانُ عَلَيْهِ بِاَلْفِكْرَةِ وَيَكُونُ سَلِيمًا مِنَ اَلتَّكَلُّفِ بَعِيدًا مِنَ اَلصَّنْعَةِ بَرِيئًا مِنَ اَلتَّعْقِيدِ غَنِيًّا عَنِ اَلتَّأْوِيلِ . وَقَالُوا : اَلْبَيَانُ بَصَرٌ وَاَلْعِيُّ عَمًى كَمَا اَنَّ اَلْعِلْمَ بَصَرٌ وَاَلْجَهْلَ عَمًى وَاَلْبَيَانُ مِنْ نَتَائِجِ اَلْعِلْمِ وَاَلْعِيُّ مِنْ نَتَائِجِ اَلْجَهْلِ . وَقَالُوا : حَيَاةُ اَلْمُرُوءَةِ اَلصِّدْقُ وَحَيَاةُ اَلرُّوحِ اَلْعَفَافُ وَحَيَاةُ اَلْحِلْمِ اَلْعِلْمُ وَحَيَاةُ اَلْعِلْمِ

ٱلْبَيَانُ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلتَّوْأَمِ : ٱلرُّوحُ عِمَادُ ٱلْبَدَنِ وَٱلْعِلْمُ عِمَادُ ٱلرُّوحِ وَٱلْبَيَانُ عِمَادُ ٱلْعِلْمِ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى حَدِّ ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَنَقَّصُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . (وَفِي كُتُبِ ٱلْحُكَمَاءِ) : ٱلْبَيَانُ هُوَ أَنْ يُحْسِنَ ٱلْعِبَارَةَ عَنِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي تَهْجِسُ فِي ٱلضَّمِيرِ فَيُحْتَاجُ إِلَى نَقْلِ صُوَرِهَا ٱلْمُتَخَيَّلَةِ أَوِ ٱلْمَعْقُولَةِ إِلَى ضَمِيرِ مَنْ يُخَاطِبُهُ . وَقَالَ آخَرُ : خَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقُّنُهُ وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللِّسَانِ تَعَاهُدُهُ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْقُلُوبِ وَصَيْقَلُ ٱلْعُقُولِ . وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱللِّسَانِ وَرَوْضُ ٱلْقُلُوبِ

البحث الثاني

في تعريف علم البيان

(عن الكشّاف للتهانوي وكشف الظنون للحاجّ خلفا)

(راجع صفحة ٢٧ من علم الادب)

ٱلْبَيَانُ لُغَةً ٱلْكَشْفُ وَٱلتَّوْضِيحُ وَٱلظُّهُورُ وَهُوَ فِي ٱلِٱصْطِلَاحِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْمَنْطِقِ ٱلْفَصِيحِ ٱلْمُعَبِّرِ عَمَّا فِي ٱلضَّمِيرِ . وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى ٱلِٱثْبَاتِ بِٱلدَّلِيلِ . وَقِيلَ : ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْبَيَانِ وَٱلتِّبْيَانِ بِأَنَّ ٱلْبَيَانَ هُوَ إِظْهَارُ ٱلْمُرَادِ . وَٱلتِّبْيَانَ يَحْتَوِي عَلَى كَدِّ ٱلْخَاطِرِ وَإِعْمَالِ ٱلْقَلْبِ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ مَا قِيلَ : ٱلتِّبْيَانُ بَيَانٌ مَعَ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ .

وَٱلْبَيَانُ عِندَ ٱلْبُلَغَاءِ : هُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ إِيرَادُ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِتَرَاكِيبَ مُخْتَلِفَةٍ فِي وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ بِأَنْ يَكُونَ دَلَالَةُ بَعْضِهَا أَجْلَى مِنْ بَعْضٍ . وَمَوْضُوعُهُ ٱللَّفْظُ ٱلْبَلِيغُ مِنْ حَيْثُ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَغَرَضُهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلْإِفَادَةِ بِٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَفَهْمِ مَدْلُولَاتِهَا . وَغَايَتُهُ ٱلِٱحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَإِ فِي تَعْيِينِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا عَقْلِيَّةٌ كَأَقْسَامِ ٱلدَّلَالَةِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلْعَلَاقَاتِ . وَبَعْضُهَا وِجْدَانِيَّةٌ ذَوْقِيَّةٌ كَوُجُوهِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَأَقْسَامِ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ وَكَيْفِيَّةِ حُسْنِهَا . وَإِنَّمَا ٱخْتَارُوا فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وُضُوحَ ٱلدَّلَالَةِ لِأَنَّ بَحْثَهُمْ لَمَّا ٱقْتَصَرَ عَلَى ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ أَعْنِي ٱلتَّضَمُّنِيَّةَ وَٱلِٱلْتِزَامِيَّةَ وَكَانَتْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَةُ خَفِيَّةً سِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱللُّزُومُ بِحَسَبِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلطَّبَائِعِ فَوَجَبَ ٱلتَّعْبِيرُ عَنْهَا بِلَفْظٍ أَوْضَحَ . مَثَلًا : إِذَا كَانَ ٱلْمَرْئِيُّ دَقِيقًا فِي ٱلْغَايَةِ تَحْتَاجُ ٱلْحَاسَّةُ فِي إِبْصَارِهَا إِلَى شُعَاعٍ قَوِيٍّ بِخِلَافِ ٱلْمَرْئِيِّ إِذَا كَانَ جَلِيلًا . وَكَذَا ٱلْحَالُ فِي ٱلرُّؤْيَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ أَعْنِي ٱلْفَهْمَ وَٱلْإِدْرَاكَ . وَٱلْحَاصِلُ أَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ دِقَّةُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِيهَا مِنَ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ وَٱلْكِنَايَاتِ مَعَ وُضُوحِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلدَّالَّةِ عَلَيْهَا

البحث الثالث

في الحقيقة والمجاز

(من المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ مُهِمٌّ كَبِيرٌ مِنْ مُهِمَّاتِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ لَا بَلْ هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ بِأَجْمَعِهِ . فَإِنَّ فِي تَصْرِيفِ ٱلْعِبَارَاتِ عَلَى ٱلْأُسْلُوبِ ٱلْمَجَازِيِّ فَوَائِدَ كَثِيرَةً . وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ عَلَى جُمْلَتِهَا دُونَ تَفْصِيلِهَا . فَأَمَّا ٱلْحَقِيقَةُ فَهِيَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى مَوْضُوعِهِ ٱلْأَصْلِيِّ . وَأَمَّا ٱلْمَجَازُ فَهُوَ مَا أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ مِنْ أَصْلِ ٱللُّغَةِ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ جَازَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِذَا تَخَطَّاهُ إِلَيْهِ . فَٱلْمَجَازُ إِذًا ٱسْمٌ لِلْمَكَانِ ٱلَّذِي يُجَازُ فِيهِ كَٱلْمَعَاجِ وَٱلْمَزَارِ وَأَشْبَاهِهِمَا . وَحَقِيقَتُهُ هِيَ ٱلِٱنْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ . فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ ٱلْأَلْفَاظِ مِنْ مَحَلٍّ إِلَى مَحَلٍّ كَقَوْلِنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . فَإِنَّ زَيْدًا إِنْسَانٌ وَٱلْأَسَدَ هُوَ هٰذَا ٱلْحَيَوَانُ ٱلْمَعْرُوفُ . وَقَدْ جُزْنَا مِنَ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى ٱلْأَسَدِيَّةِ . أَيْ عَبَرْنَا مِنْ هٰذِهِ إِلَى هٰذِهِ لِوُصْلَةٍ بَيْنَهُمَا وَتِلْكَ ٱلْوُصْلَةُ هِيَ صِفَةُ ٱلشَّجَاعَةِ . وَقَدْ يَكُونُ ٱلْعُبُورُ لِغَيْرِ وُصْلَةٍ . وَذٰلِكَ هُوَ ٱلِٱتِّسَاعُ كَقَوْلِهِمْ فِي كِتَابِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : قَالَ ٱلْأَسَدُ . قَالَ ٱلثَّعْلَبُ . فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ لَا وُصْلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هٰذَيْنِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ . وَإِنَّمَا أُجْرِيَ عَلَيْهِمَا ٱتِّسَاعًا مَحْضًا لَا غَيْرُ . . . . وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ كُلَّهُ حَقِيقَةٌ لَا مَجَازَ فِيهِ . وَذَهَبَ آخَرُونَ : إِلَى أَنَّهُ كُلَّهُ مَجَازٌ لَا حَقِيقَةَ فِيهِ . وَكِلَا هٰذَيْنِ

ٱلْمَذْهَبَيْنِ فَاسِدٌ عِنْدِي . وَسَأُجِيبُ ٱلْخَصْمَ عَمَّا ٱدَّعَاهُ فِيهِمَا فَأَقُولُ : مَحَلُّ ٱلنِّزَاعِ هُوَ اِنَّ ٱللُّغَةَ كُلَّهَا حَقِيقَةٌ اَوْ اِنَّهَا كُلَّهَا مَجَازٌ . وَلَا فَرْقَ عِنْدِي بَيْنَ قَوْلِكَ اِنَّهَا كُلَّهَا حَقِيقَةٌ اَوْ اِنَّهَا مَجَازٌ . فَاِنَّ كِلَا ٱلطَّرَفَيْنِ عِنْدِي سَوَاءٌ . لِاَنَّ مُنْكِرَهُمَا غَيْرُ مُسَلِّمٍ لَهُمَا . وَاَنَا بِصَدَدِ اَنْ اُبَيِّنَ اَنَّ فِي ٱللُّغَةِ حَقِيقَةً وَمَجَازًا . وَٱلْحَقِيقَةُ ٱللُّغَوِيَّةُ هِيَ حَقِيقَةُ ٱلْاَلْفَاظِ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي وَلَيْسَتْ بِٱلْحَقِيقَةِ ٱلَّتِي هِيَ ذَاتُ ٱلشَّيْءِ اَيْ نَفْسُهُ وَعَيْنُهُ . فَٱلْحَقِيقَةُ ٱللَّفْظِيَّةُ اِذَا هِيَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي اَصْلِ ٱللُّغَةِ . وَٱلْمَجَازُ هُوَ نَقْلُ ٱلْمَعْنَى عَنِ ٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ اِلَى لَفْظٍ آخَرَ غَيْرِهِ . وَتَقْرِيرُ ذٰلِكَ بِاَنْ اَقُولَ : ٱلْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَفْتَقِرُ اِلَى اَسْمَاءٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَيْهَا لِيُعْرَفَ كُلٌّ مِنْهَا بِٱسْمِهِ مِنْ اَجْلِ ٱلتَّفَاهُمِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ . وَهٰذَا يَقَعُ ضَرُورَةً لَا بُدَّ مِنْهَا . فَٱلِاسْمُ ٱلْمَوْضُوعُ بِاِزَاءِ ٱلْمُسَمَّى هُوَ حَقِيقَةٌ لَهُ فَاِذَا نُقِلَ اِلَى غَيْرِهِ صَارَ مَجَازًا . وَمِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّا اِذَا قُلْنَا : شَمْسٌ . اَرَدْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْكَوْكَبَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْكَثِيرَ ٱلضَّوْءِ . وَهٰذَا ٱلِاسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِاَنَّهُ وُضِعَ بِاِزَائِهِ . وَكَذٰلِكَ اِذَا قُلْنَا : بَحْرٌ . اَرَدْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْمَاءَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْمُجْتَمِعَ ٱلَّذِي طَعْمُهُ مِلْحٌ . وَهٰذَا ٱلِاسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِاَنَّهُ وُضِعَ بِاِزَائِهِ . فَاِذَا نَقَلْنَا ٱلشَّمْسَ اِلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمَلِيحِ ٱسْتِعَارَةً كَانَ لَهُ ذٰلِكَ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . وَكَذٰلِكَ اِذَا نَقَلْنَا ٱلْبَحْرَ اِلَى ٱلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ ٱسْتِعَارَةً كَانَ ذٰلِكَ لَهُ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . (فَاِنْ قِيلَ) : اِنَّ ٱلْوَجْهَ ٱلْمَلِيحَ يُقَالُ لَهُ شَمْسٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . وَكَذٰلِكَ يُقَالُ لِلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ بَحْرٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . (فَٱلْجَوَابُ) عَنْ ذٰلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ : (اَحَدُهُمَا)

نَظَرِيٌّ وَالْآخَرُ وَضْعِيٌّ. (اَمَّا النَّظَرِيُّ) فَهُوَ اَنَّ الْاَلْفَاظَ اِنَّمَا جُعِلَتْ اَدِلَّةً عَلَى اِفْهَامِ الْمَعَانِي وَلَوْ كَانَ مَا ذَهَبْتَ اِلَيْهِ صَحِيحًا لَكَانَ الْبَحْرُ يُطْلَقُ عَلَى هٰذَا الْمَاءِ الْعَظِيمِ الْمِلْحِ وَعَلَى الرَّجُلِ الْجَوَادِ بِالْاِشْتِرَاكِ. وَكَذٰلِكَ الشَّمْسُ اَيْضًا فَاِنَّهَا كَانَتْ تُطْلَقُ عَلَى هٰذَا الْكَوْكَبِ الْعَظِيمِ الْكَثِيرِ الضَّوْءِ وَعَلَى هٰذَا الْوَجْهِ الْمَلِيحِ بِالْاِشْتِرَاكِ. وَحِينَئِذٍ فَاِذَا وَرَدَ اَحَدُ هٰذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ مُطْلَقًا بِغَيْرِ قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهُ فَلَا يُفْهَمُ الْمُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مِنْ اَحَدِ الْمَعْنَيَيْنِ الْمُشْتَرَكَيْنِ الْمُنْدَرِجَيْنِ تَحْتَهُ وَنَحْنُ نَرَى الْاَمْرَ بِخِلَافِ ذٰلِكَ فَاِنَّا اِذَا قُلْنَا: شَمْسٌ اَوْ بَحْرٌ. وَاَطْلَقْنَا الْقَوْلَ لَا يُفْهَمُ مِنْ ذٰلِكَ وَجْهٌ مَلِيحٌ وَلَا رَجُلٌ جَوَادٌ. وَاِنَّمَا يُفْهَمُ مِنْهُ ذٰلِكَ الْكَوْكَبُ الْمَعْلُومُ وَذٰلِكَ الْمَاءُ الْمَعْلُومُ لَا غَيْرُ فَبَطَلَ اِذًا مَا ذَهَبْتَ اِلَيْهِ بِمَا بَيَّنَّاهُ وَاَوْضَحْنَاهُ. (فَاِنْ قُلْتَ): اِنَّ الْعُرْفَ يُخَالِفُ مَا ذَهَبْتَ اِلَيْهِ فَاِنَّ مِنَ الْاَلْفَاظِ مَا اِذَا اُطْلِقَ لَمْ يَذْهَبِ الْفَهْمُ مِنْهُ اِلَّا اِلَى الْمَجَازِ دُونَ الْحَقِيقَةِ. (قُلْتُ فِي الْجَوَابِ): هٰذَا شَيْءٌ ذَهَبَ اِلَيْهِ بَعْضُهُمْ وَلَيْسَ الْاَمْرُ كَمَا ذَهَبُوا اِلَيْهِ. لِاَنَّهُ اِنْ كَانَ اِطْلَاقُ اللَّفْظِ فِيهِ بَيْنَ عَامَّةِ النَّاسِ فَهٰؤُلَاءِ لَا يَفْهَمُونَ اِلَّا الْمَعْنَى الْمَجَازِيَّ. لِاَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا اَصْلَ وَضْعِ الْكَلِمَةِ. وَاَمَّا خَاصَّةُ النَّاسِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ اَصْلَ الْوَضْعِ فَاِنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ عِنْدَ اِطْلَاقِ اللَّفْظِ اِلَّا الْحَقِيقَةَ لَا غَيْرُ . . . (وَاَمَّا الْوَجْهُ الْوَضْعِيُّ) فَهُوَ اَنَّ الْمَرْجِعَ فِي هٰذَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ اِلَى اَصْلِ اللُّغَةِ الَّتِي هِيَ وَضْعُ الْاَسْمَاءِ عَلَى الْمُسَمَّيَاتِ وَلَمْ يُوجَدْ فِيهَا اَنَّ الْوَجْهَ الْمَلِيحَ يُسَمَّى شَمْسًا وَلَا اَنَّ الرَّجُلَ الْجَوَادَ يُسَمَّى بَحْرًا. وَاِنَّمَا اَهْلُ

ٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ تَوَسَّعُوا فِي ٱلْاَسَالِيبِ ٱلْمَعْنَوِيَّةِ فَنَقَلُوا ٱلْحَقِيقَةَ اِلَى ٱلْمَجَازِ وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ مِنْ وَاضِعِ ٱللُّغَةِ فِي اَصْلِ ٱلْوَضْعِ وَلِهٰذَا ٱخْتَصَّ كُلٌّ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ ٱخْتَرَعَهُ فِي ٱلتَّوَسُّعَاتِ ٱلْمَجَازِيَّةِ . هٰذَا ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ قَدِ ٱخْتَرَعَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ . فَمِنْ ذٰلِكَ اَنَّهُ اَوَّلُ مَنْ عَبَّرَ عَنِ ٱلْفَرَسِ بِقَوْلِهِ : (قَيْدُ ٱلْاَوَابِدِ) . وَلَمْ يُسْمَعْ ذٰلِكَ لِاَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ . . .

وَوَاضِعُ ٱللُّغَةِ مَا ذَكَرَ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ فَعَلِمْنَا حِينَئِذٍ اَنَّ مِنَ ٱللُّغَةِ حَقِيقَةً بِوَضْعِهِ وَمَجَازًا بِتَوَسُّعَاتِ اَهْلِ ٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ . وَفِي زَمَانِنَا هٰذَا قَدْ يَخْتَرِعُونَ اَشْيَاءَ مِنَ ٱلْمَجَازِ عَلَى حُكْمِ ٱلْاِسْتِعَارَةِ لَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلُ . وَلَوْ كَانَ هٰذَا مَوْقُوفًا مِنْ جِهَةِ وَاضِعِ ٱللُّغَةِ لَمَا ٱخْتَرَعَهُ اَحَدٌ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا زِيدَ فِيهِ وَلَا نَقَصَ مِنْهُ . وَاَمَّا ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ فَهُوَ اَنَّ ٱلْحَقِيقَةَ جَارِيَةٌ عَلَى ٱلْعُمُومِ فِي نَظَائِرِ . اَلَا تَرَى اِذَا قُلْنَا : فُلَانٌ عَالِمٌ . صَدَقَ عَلَى كُلِّ ذِي عِلْمٍ . بِخِلَافِ (وَٱسْاَلِ ٱلْقَرْيَةَ) . لِاَنَّهُ لَا يَصِحُّ اِلَّا فِي بَعْضِ ٱلْجَمَادَاتِ دُونَ بَعْضٍ اِذِ ٱلْمُرَادُ اَهْلُ ٱلْقَرْيَةِ لِاَنَّهُمْ مِمَّنْ يَصِحُّ ٱلسُّؤَالُ لَهُمْ . وَلَا يَجُوزُ اَنْ يُقَالَ : وَٱسْاَلِ ٱلْحَجَرَ وَٱلتُّرَابَ . وَقَدْ يَحْسُنُ اَنْ يُقَالَ : وَٱسْاَلِ ٱلرَّبْعَ وَٱلطَّلَلَ . (وَٱعْلَمْ) اَنَّ كُلَّ مَجَازٍ فَلَهُ حَقِيقَةٌ لِاَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ اَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ ٱسْمُ ٱلْمَجَازِ اِلَّا عَنْ حَقِيقَةٍ مَوْضُوعَةٍ لَهُ اِذِ ٱلْمَجَازُ هُوَ ٱسْمٌ لِلْمَوْضُوعِ ٱلَّذِي يُنْتَقَلُ فِيهِ مِنْ مَكَانٍ اِلَى مَكَانٍ فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ ٱلْاَلْفَاظِ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ اِلَى غَيْرِهَا . وَاِذَا كَانَ كُلُّ مَجَازٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَقِيقَةٍ نُقِلَ عَنْهَا اِلَى حَالَةِ ٱلْمَجَازِيَّةِ فَكَذٰلِكَ لَيْسَ مِنْ ضَرُورَةِ كُلِّ حَقِيقَةٍ اَنْ يَكُونَ لَهَا مَجَازٌ . فَاِنَّ

مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ مَا لَا مَجَازَ لَهُ كَاَسْمَاءِ ٱلْاَعْلَامِ لِاَنَّهَا وُضِعَتْ لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلذَّوَاتِ لَا لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصِّفَاتِ

وَكَذٰلِكَ فَاعْلَمْ اَنَّ ٱلْمَجَازَ اَوْلَى بِٱلْاِسْتِعْمَالِ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ فِي بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ لِاَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلْحَقِيقَةُ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْاَصْلُ اَوْلَى مِنْهُ حَيْثُ هُوَ فَرْعٌ عَلَيْهَا . وَلَيْسَ ٱلْاَمْرُ كَذٰلِكَ لِاَنَّهُ ثَبَتَ وَتَحَقَّقَ اَنَّ فَائِدَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلْخِطَابِيِّ هُوَ اِثْبَاتُ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ بِٱلتَّخْيِيلِ وَٱلتَّصْوِيرِ حَتَّى يَكَادَ يَنْظُرُ اِلَيْهِ عِيَانًا . اَلَا تُرَى اَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِنَا : زَيْدٌ اَسَدٌ . هِيَ قَوْلُنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لٰكِنْ فُرِقَ بَيْنَ ٱلْقَوْلَيْنِ فِي ٱلتَّصْوِيرِ وَٱلتَّخْيِيلِ وَاِثْبَاتِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ . لِاَنَّ قَوْلَنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لَا يَتَخَيَّلُ مِنْهُ ٱلسَّامِعُ سِوَى اَنَّهُ رَجُلٌ جَرِيءٌ مِقْدَامٌ . فَاِذَا قُلْنَا : زَيْدٌ اَسَدٌ . يُخَيَّلُ عِنْدَ ذٰلِكَ صُورَةُ ٱلْاَسَدِ وَهَيْئَتُهُ وَمَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلْقُوَّةِ وَدَقِّ ٱلْفَرَائِسِ . وَقَوْلُ اِمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ : (قَيْدُ ٱلْاَوَابِدِ) هُوَ اَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ لَوْ قَالَ : مَانِعُ ٱلْاَوَابِدِ عَنِ ٱلذِّهَابِ وَٱلْاِفْلَاتِ . وَٱلْقَيْدُ مِنْ اَعْلَى مَرَاتِبِ ٱلْمَنْعِ عَنِ ٱلتَّصَرُّفِ لِاَنَّكَ تُشَاهِدُ مَا فِي ٱلْقَيْدِ مِنَ ٱلْمَنْعِ فَلَا تَشُكُّ فِيهِ . وَكَقَوْلِهِمْ : هٰذَا مِيزَانُ ٱلْقِيَاسِ اَيْ تَعْدِيلُهُ . وَٱلْمَجَازُ اَبْلَغُ لِاَنَّ ٱلْمِيزَانَ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلتَّعْدِيلَ حَتَّى تُعَايِنَهُ وَلِلْعِيَانِ فَضْلٌ عَلَى مَا سِوَاهُ . وَكَذٰلِكَ : ٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ اَيْ حَقِيقَةُ تَقْوِيمِهِ . وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ . وَاَعْجَبُ مَا فِي ٱلْعِبَارَةِ ٱلْمَجَازِيَّةِ اَنَّهَا تَنْقُلُ ٱلسَّامِعَ عَنْ خُلُقِهِ ٱلطَّبِيعِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْاَحْوَالِ حَتَّى اِنَّهَا يَسْمَحُ بِهَا ٱلْبَخِيلُ

وَيُشَجَّعُ بِهَا ٱلْجَبَانُ وَيُحْكَمُ بِهَا ٱلطَّائِشُ ٱلْمُتَسَرِّعُ وَيَجِدُ ٱلْمُخَاطَبُ بِهَا عِنْدَ سَمَاعِهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ حَتَّى إِذَا قُطِعَ عِنْدَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ أَفَاقَ وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ بَذْلِ مَالٍ . أَوْ تَرْكِ عُقُوبَةٍ . أَوْ إِقْدَامٍ عَلَى أَمْرٍ مَهُولٍ وَهٰذَا هُوَ فَحْوَى ٱلسِّحْرِ ٱلْحَلَالِ ٱلْمُسْتَغْنِي مِنْ إِلْقَاءِ ٱلْعَصَا وَٱلْحِبَالِ . (وَٱعْلَمْ) أَنَّهُ إِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ كَلَامٌ . يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ مَعْنَاهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ بِٱخْتِلَافِ لَفْظِهِ فَٱنْظُرْ فَإِنْ كَانَ لَا مَزِيَّةَ لِمَعْنَاهُ فِي حَمْلِهِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ لِأَنَّهَا هِيَ ٱلْأَصْلُ وَٱلْمَجَازُ هُوَ ٱلْفَرْعُ وَلَا يُعْدَلُ عَنِ ٱلْأَصْلِ إِلَى ٱلْفَرْعِ إِلَّا لِفَائِدَةٍ

البحث الرابع

في الاستعارة

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هِيَ ٱدِّعَاءُ مَعْنَى ٱلْحَقِيقَةِ فِي ٱلشَّيْءِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ مِنَ ٱلْبَيْنِ لَفْظًا وَتَقْدِيرًا . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : هُوَ جَعْلُ ٱلشَّيْءِ لِلشَّيْءِ لِأَجْلِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ أَسَدًا تَعْنِي ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ . وَٱلثَّانِي كَقَوْلِ لَبِيدٍ :

إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ ٱلشَّمَالِ زِمَامُهَا

اثبت اليد للشمال مبالغة في تشبيهها بالقادر في التصرف فيه.
وحد الرماني الاستعارة فقال: هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في اصل اللغة على سبيل النقل للابانة. وقال ابن المعتز: هي استعارة الكلمة من شيء قد عرف بها الى شيء لم يعرف بها. وذكر الخفاجي كلام الرماني وقال: وتفسير هذه الجملة ان قوله مثلا: (واشتعل الرأس شيبا). استعارة لان الاشتعال للنار ولم توضع في اصل اللغة للشيب فلما نقل اليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه. لان الشيب لما كان نافذا في الرأس شيئا فشيئا حتى يحيله الى غير لونه الاول كان بمنزلة النار التي تسري في الخشب حتى تحيله الى غير حالته المتقدمة. فهذا من نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان ولا بد ان يكون اوضح من الحقيقة لاجل التشبيه العارض فيها. لان الحقيقة لو قامت مقامها لكانت اولى بها لانها الاصل وليس يخفى على المتأمل ان قوله: (واشتعل الرأس شيبا). ابلغ من: كثر شيب الرأس. وهو حقيقة هذا المعنى. وقوله: (يوم يكشف عن ساق). احسن وابلغ في ما قصد له من قوله لو قال: يوم يكشف عن شدة الامر. وان كان المعنيان واحدا. الا ترى انك تقول لمن يحتاج الى الجد في امره: شمر عن ساقك. فيكون هذا القول منك ازكى في نفسه من قولك: جد في امرك. وقال دريد بن الصمة:

كبيت الازار خارج نصف ساقه صبور على الضراء طلاع انجد

وَقَالَ ٱلْهُذَلِيُّ :

وَكُنْتُ اِذَا جَارٌ دَعَا بِغُمُومِهِ أُشَمِّرُ حَتَّى يَنْصِفَ ٱلسَّاقَ مِئْزَرِي

وَلَا بُدَّ لِلِاسْتِعَارَةِ مِنْ حَقِيقَةٍ هِيَ اَصْلُهَا وَهِيَ : مُسْتَعَارٌ مِنْهُ . وَمُسْتَعَارٌ بِهِ . وَمُسْتَعَارٌ لَهُ . فَٱلنَّارُ فِي قَوْلِهِ : (ٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا) . مُسْتَعَارٌ مِنْهَا . وَٱلِاشْتِعَالُ مُسْتَعَارٌ . وَٱلشَّيْبُ مُسْتَعَارٌ لَهُ . وَاَمَّا قَوْلُنَا : (مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ) . فَاعْلَمْ اَنَّنَا اِذَا طَرَحْنَاهُ كَقَوْلِنَا : رَاَيْتُ اَسَدًا . وَاَرَدْنَا ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ فَهُوَ ٱسْتِعَارَةٌ بِٱلِاتِّفَاقِ وَاِنْ ذَكَرْنَا مَعَهُ ٱلْمُشَبَّهَ وَقُلْنَا : زَيْدٌ اَسَدٌ . فَٱلْمُخْتَارُ اَنَّهُ لَيْسَ بِٱسْتِعَارَةٍ اِذْ فِي ٱللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى اَنَّهُ لَيْسَ بِاَسَدٍ فَلَمْ تَحْصُلِ ٱلْمُبَالَغَةُ . وَاِذَا قُلْتَ : زَيْدٌ ٱلْاَسَدُ . فَهُوَ اَبْعَدُ عَنِ ٱلِاسْتِعَارَةِ فَاِنَّ ٱلْاَوَّلَ خَرَجَ بِٱلتَّنْكِيرِ مِنْ اَنْ يَحْسُنَ فِيهِ كَافُ ٱلتَّشْبِيهِ . فَاِنَّ قَوْلَكَ : زَيْدٌ كَاَسَدٍ . كَلَامٌ نَازِلٌ بِخِلَافِ ٱلثَّانِي . قَالَ ضِيَاءُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْاَثِيرِ : وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُضْمَرُ ٱلْاَدَاةِ قَدْ خَلَطُوهُ بِٱلِاسْتِعَارَةِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا وَذٰلِكَ خَطَأٌ مَحْضٌ . وَسَاُوَضِّحُ وَجْهَ ٱلْخَطَاِ فِيهِ وَاُحَقِّقُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا فَاَقُولُ : اِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُظْهَرَ ٱلْاَدَاةِ فَلَا حَاجَةَ لِبَيَانِ ذِكْرِهِ لِاَنَّهُ لَا خِلَافَ فِيهِ وَلٰكِنْ نَذْكُرُ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْاَدَاةِ فَنَقُولُ : اِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ وَٱلْمَنْقُولُ اِلَيْهِ عَلَى اَنَّهُ تَشْبِيهُ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ قِيلَ فِيهِ : زَيْدٌ اَسَدٌ . اَيْ كَٱلْاَسَدِ . فَاَدَاةُ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ مُضْمَرَةٌ مُقَدَّرَةٌ . وَاِذَا اُظْهِرَتْ حَسُنَ ظُهُورُهَا وَلَمْ تَقْدَحْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي اُظْهِرَتْ فِيهِ وَلَمْ تُزِلْ عَنْهُ فَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ وَهٰذَا بِخِلَافِ مَا اِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ اِلَيْهِ دُونَ ٱلْمَنْقُولِ فَاِنَّهُ لَا يَحْسُنُ

فِيهِ ظُهُورُ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ وَاِذَا اُظْهِرَتْ اَزَالَتْ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ مُتَّصِفًا بِهِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْفَصَاحَةِ ... فَٱلْفَرْقُ اِذًا بَيْنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ وَبَيْنَ ٱلِاسْتِعَارَةِ اَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْاَدَاةِ يَحْسُنُ اِظْهَارُ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ وَٱلِاسْتِعَارَةُ لَا يَحْسُنُ ذٰلِكَ فِيهَا . وَٱلِاسْتِعَارَةُ اَخَصُّ مِنَ ٱلْمَجَازِ اِذْ قَصْدُ ٱلْمُبَالَغَةِ شَرْطٌ فِي ٱلِاسْتِعَارَةِ دُونَ ٱلْمَجَازِ . وَاَيْضًا فَكُلُّ اِسْتِعَارَةٍ مِنَ ٱلْبَدِيعِ وَلَيْسَ كُلُّ مَجَازٍ مِنْهُ وَٱلْحَقُّ اَنَّ ٱلْمَعْنَى يُعَارُ اَوَّلًا ثُمَّ بِوَاسِطَتِهِ يُعَارُ ٱللَّفْظُ . وَلَا تَحْسُنُ ٱلِاسْتِعَارَةُ اِلَّا حَيْثُ كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ مُقَرَّرًا بَيْنَهُمَا ظَاهِرٌ اَوَّلًا فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلَوْ قُلْتَ : رَاَيْتُ نَخْلَةً اَوْ خَامَةً . وَاَنْتَ تُرِيدُ مُؤْمِنًا اِشَارَةً اِلَى قَوْلِهِ : مَثَلُ ٱلْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ ٱلنَّخْلَةِ اَوْ مَثَلِ ٱلْخَامَةِ . لَكُنْتَ كَٱلْمُلْغِزِ ٱلتَّارِكِ لِمَا يُفْهِمُ وَكُلَّمَا زَادَ ٱلتَّشْبِيهُ خَفَاءً زَادَتِ ٱلِاسْتِعَارَةُ حُسْنًا بِحَيْثُ يَكُونُ ٱللَّطَفُ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشْبِيهِ . وَرُبَّمَا جُمِعَ بَيْنَ عِدَّةِ اِسْتِعَارَاتٍ اِلْحَاقًا لِلشَّكْلِ بِٱلشَّكْلِ لِاِتْمَامِ ٱلتَّشْبِيهِ فَتَزِيدُ ٱلِاسْتِعَارَةُ بِهِ حُسْنًا كَقَوْلِ اِمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي صِفَةِ ٱللَّيْلِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَاَرْدَفَ اَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَاَعْلَمْ اَنَّهُ لَا بُدَّ اَيْضًا مِنْ مَعْنًى يَشْتَرِكُ بَيْنَ ٱلْمُسْتَعَارِ وَٱلْمُسْتَعَارِ مِنْهُ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْمُشْتَرَكُ بَيْنَ قَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ مَثَلًا وَمَانِعِ ٱلْاَوَابِدِ هُوَ ٱلْحَبْسُ وَعَدَمُ ٱلْاِفْلَاتِ . وَبَيْنَ مِيزَانِ ٱلْقِيَاسِ وَتَعْدِيلِ حُصُولِ ٱلِاسْتِقَامَةِ هُوَ اِرْتِفَاعُ ٱلْحَيْفِ وَٱلْمَيْلِ اِلَى اَحَدِ ٱلْجَانِبَيْنِ . وَهٰكَذَا جَمِيعُ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَٱلْمَجَازَاتِ

البحث الخامس

فيما تدخلهُ الاستعارة وما لا تدخلهُ

(عن صناعة الترسل ايضاً)

اَلْاَعْلَامُ لَا يَدْخُلُهَا اَلْاِسْتِعَارَةُ لِمَا تَقَدَّمَ فِي اَلْمَجَازِ . وَاَمَّا اَلْفِعْلُ فَالْاِسْتِعَارَةُ تَقَعُ اَوَّلًا فِي اَلْمَصْدَرِ ثُمَّ تَقَعُ بِوَاسِطَةِ ذٰلِكَ فِي اَلْفِعْلِ . فَاِذَا قُلْتَ : نَطَقَتِ اَلْحَالُ بِكَذَا . فَهٰذَا اِنَّمَا يَصِحُّ لِاَنَّكَ وَجَدْتَ اَلْحَالَ مُشَابِهَةً لِلنُّطْقِ فِي اَلدَّلَالَةِ عَلَى اَلشَّيْءِ فَلَا جَرَمَ اَسْتَعَرْتَ اَلنُّطْقَ لِتِلْكَ اَلْحَالَةِ ثُمَّ نَقَلْتَهُ اِلَى اَلْفِعْلِ . وَاَلْاَسْمَاءُ اَلْمُشْتَقَّةُ فِي ذٰلِكَ كَالْفِعْلِ . فَظَهَرَ اَنَّ اَلْاِسْتِعَارَةَ اِنَّمَا تَقَعُ وُقُوعًا اَوَّلِيًّا فِي اَسْمَاءِ اَلْاَجْنَاسِ . ثُمَّ اَلْفِعْلُ اِذَا كَانَ مُسْتَعَارًا فَاَسْتِعَارَتُهُ اِمَّا مِنْ جِهَةِ فَاعِلِهِ كَقَوْلِهِ : نَطَقَتِ اَلْحَالُ بِكَذَا اَوْ لَعِبَتْ بِهِ اَلْهُمُومُ . وَكَقَوْلِ جَرِيرٍ :

يَخْشَى اَلرَّوَامِسَ رَبْعُهَا فَتُجِدُّهُ ... بَعْدَ اَلْبِلَى وَتُمِيتُهُ اَلْاَمْطَارُ

اَوْ مِنْ جِهَةِ مَفْعُولِهِ كَقَوْلِ اَبْنِ اَلْمُعْتَزِّ :

جُمِعَ اَلْحَقُّ لَنَا فِي اِمَامٍ ... قَتَلَ اَلْجَوْرَ وَاَحْيَا اَلسَّمَاحَا

اَوْ مِنْ جِهَةِ اَلْفَاعِلِ وَاَلْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : يَكَادُ اَلْبَرْقُ يَخْطَفُ اَبْصَارَهُمْ . وَيَتَّصِلُ بِهٰذَا تَرْشِيحُ اَلْاِسْتِعَارَةِ وَتَجْرِيدُهَا . اَمَّا تَرْشِيحُهَا فَهُوَ اَنْ تَنْظُرَ فِيهَا اِلَى اَلْمُسْتَعَارِ وَتُرَاعِيَ جَانِبَهُ وَتُولِيَهُ مَا تَسْتَدْعِيهِ وَتَضُمَّ اِلَيْهِ مَا تَقْتَضِيهِ كَقَوْلِ اَلنَّابِغَةِ :

وَصَدْرٍ اَزَاحَ اَللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ ... تَضَاعَفَ فِيهِ اَلْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

اَلْمُسْتَعَارُ فِيهِ وَهُوَ اَلْاِزَاحَةُ مَنْظُورٌ اِلَيْهِ فِي لَفْظِ اَلْعَازِبِ . وَاَمَّا تَجْرِيدُهَا فَهُوَ اَنْ يَكُونَ اَلْمُسْتَعَارُ لَهُ مَنْظُورًا اِلَيْهِ كَقَوْلِهِ : فَاَذَاقَهَا اَللّٰهُ لِبَاسَ اَلْجُوعِ وَاَلْخَوْفِ . فَاِنَّ اَلْاِذَاقَةَ وَقَعَتْ عِبَارَةً عَمَّا يُدْرَكُ مِنْ اَثَرِ اَلضَّرَرِ وَاَلْاَلَمِ تَشْبِيهًا لَهُ بِمَا يُدْرَكُ مِنْ طَعْمِ اَلْمُرِّ . اَلشَّبَعُ وَاَللِّبَاسُ عِبَارَةٌ عَمَّا يَغْشَى مِنْهُمَا وَيُلَابِسُ فَكَاَنَّهُ قَالَ : فَاَذَاقَهَا مَا غَشِيَهَا مِنْ اَلَمِ اَلْجُوعِ وَاَلْخَوْفِ . وَكَقَوْلِ زُهَيْرٍ :

لَدَى اَسَدٍ شَاكِي اَلسِّلَاحِ مُقَذَّفٍ لَهُ لَبَدٌ اَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

فَلَوْ نَظَرَ اِلَى اَلْمُسْتَعَارِ لَقَالَ : لَدَى اَسَدٍ دَامِي اَوْ دَامِي اَلْبَرَاثِنِ مَثَلًا . وَنَظَرَ زُهَيْرٌ فِي آخِرِ اَلْبَيْتِ اِلَى اَلْمُسْتَعَارِ . وَمِنْهُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ :

غَمْرُ اَلرِّدَاءِ اِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ اَلْمَالِ

اِسْتَعَارَ اَلرِّدَاءَ لِلْمَعْرُوفِ لِاَنَّهُ يَصُونُ عِرْضَ صَاحِبِهِ صَوْنَ اَلرِّدَاءِ لِمَا يُلْقَى عَلَيْهِ . وَوَصَفَهُ بِاَلْغَمْرِ اَلَّذِي هُوَ وَصْفُ اَلْمَعْرُوفِ وَاَلنَّوَالِ لَا وَصْفُ اَلرِّدَاءِ

وَيَقْرُبُ مِنْ ذٰلِكَ اَلْاِسْتِعَارَةُ بِاَلْكِنَايَةِ وَهُوَ اَنْ لَا يُصَرَّحَ بِذِكْرِ اَلْمُسْتَعَارِ بَلْ يَذْكُرُ بَعْضَ لَوَازِمِهِ تَنْبِيهًا بِهِ كَقَوْلِهِ : شُجَاعٌ يَفْتَرِسُ اَقْرَانَهُ وَعَالِمٌ يَغْتَرِفُ مِنْهُ اَلنَّاسُ . وَكَقَوْلِ اَبِي ذُؤَيْبٍ :

وَاِذَا اَلْمَنِيَّةُ اَنْشَبَتْ اَظْفَارَهَا اَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

تَنْبِيهًا عَلَى اَنَّ اَلشُّجَاعَ اَسَدٌ وَاَلْعَالِمَ بَحْرٌ وَاَلْمَنِيَّةَ سَبُعٌ . وَهٰذَا وَاِنْ كَانَ يُشْبِهُ اَلْاِسْتِعَارَةَ اَلْمُجَرَّدَةَ اِلَّا اَنَّهُ اَغْرَبُ وَاَعْجَبُ . وَيَقْرُبُ مِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَمَنْ يَعْصِ اَطْرَافَ ٱلرِّمَاحِ فَاِنَّهُ يُطِيعُ ٱلْعَوَالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

اَرَادَ اَنْ يَقُولَ : مَنْ لَمْ يَرْضَ بِاَحْكَامِ ٱلصُّلْحِ رَضِيَ بِاَحْكَامِ ٱلْحَرْبِ اَيْ اَشْرَعُوا ٱلْاَسِنَّةَ وَاَخَّرُوا ٱلرِّمَاحَ . وَقَدْ يُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْمُمَاثَلَةَ اَيْضًا . وَقَدْ يُنْزِلُونَ ٱلِاسْتِعَارَةَ مَنْزِلَةَ ٱلْحَقِيقَةِ وَذٰلِكَ اَنَّهُمْ يَسْتَعِيرُونَ ٱلْوَصْفَ ٱلْمَحْسُوسَ لِلشَّيْءِ ٱلْمَعْقُولِ . وَيَجْعَلُونَ كَاَنَّ تِلْكَ ٱلصِّفَةَ ثَابِتَةٌ لِذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَاَنَّ ٱلِاسْتِعَارَةَ لَمْ تُوجَدْ اَصْلًا . مِثَالُهُ اَسْتِعَارَتُهُمُ ٱلْعُلُوَّ لِزِيَادَةِ ٱلرَّجُلِ عَلَى غَيْرِهِ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلْقَدْرِ وَٱلسُّلْطَانِ ثُمَّ وَضْعُهُمُ ٱلْكَلَامَ وَضْعَ مَنْ يَذْكُرُ عُلُوًّا مَكَانِيًّا . كَقَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

وَيَصْعَدُ حَتَّى يَظُنَّ ٱلْحَسُودُ بِاَنَّ لَهُ حَاجَةً فِي ٱلسَّمَاءِ

وَكَقَوْلِهِ اَيْضًا :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَاَنَّمَا تُحَاوِلُ ثَارًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

البحث السادس

في اقسام الاستعارة

(عن صناعة الترسل ايضًا)

(راجع صفحة ٣٢ من علم الادب)

هِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يُعْتَمَدَ نَفْسُ ٱلتَّشْبِيهِ وَهُوَ اَنْ يَشْتَرِكَ شَيْئَانِ فِي وَصْفٍ وَاَحَدُهُمَا اَنْقَصُ مِنَ ٱلْاٰخَرِ . فَيُعْطَى ٱلنَّاقِصُ

ٱسمَ ٱلزَّائدِ مُبالَغةً فِي تَحْقيقِ ذٰلكَ ٱلْوَصْفِ لَهُ كَقَوْلِكَ : رَأَيْتُ أَسَدًا . وَأَنتَ تَعْنِي رَجُلًا شُجَاعًا . (وَٱلثَّانِي) تُعْتَمَدُ لَوَازِمُهُ عِنْدَمَا يَكُونُ جِهَةُ ٱلِٱشْتِرَاكِ وَصْفًا وَإِنَّمَا ثَبَتَ كَمَالُهُ فِي ٱلْمُسْتَعَارِ فِي وَاسِطَةِ شَيْءٍ آخَرَ فَتُثْبِتُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ لِلْمُسْتَعَارِ لَهُ مُبالَغةً فِي إِثْبَاتِ ٱلْمُشْتَرَكِ . كَقَوْلِ تَأَبَّطَ شَرًّا :

إِذَا هَزَّهُ فِي عَظْمِ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ نَوَاجِذُ أَفْوَاهِ ٱلْمَنَايَا ٱلضَّوَاحِكُ

لَمَّا شَبَّهَ ٱلْمَنَايَا عِنْدَ هَزَّةِ ٱلسَّيْفِ بِٱلسُّرُورِ وَكَمَالِ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورُ إِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلضَّحِكِ ٱلَّذِي يَتَهَلَّلُ بِهِ ٱلنَّوَاجِذُ أَثْبَتَهُ تَحْقِيقًا لِلْوَصْفِ ٱلْمَقْصُودِ وَإِلَّا فَلَيْسَ لِلْمَنَايَا مَا يُنْقَلُ إِلَيْهِ ٱسْمُ ٱلنَّوَاجِذِ . وَهٰكَذَا ٱلْكَلَامُ فِي قَوْلِ ٱلْحَمَاسِيِّ :

سَقَاهُ ٱلرَّدَى سَيْفٌ إِذَا سُلَّ أَوْ مَضَتْ إِلَيْهِ مَنَايَا ٱلْمَوْتِ مِنْ كُلِّ مَرْقَبِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُهُمْ : فُلَانٌ مُرْخَى ٱلْعِنَانِ وَمُلْقَى ٱلزِّمَامِ . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْقِسْمَيْنِ أَنَّكَ إِنْ رَجَعْتَ فِي ٱلْأَوَّلِ إِلَى ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمَقْصُدُ مِنْ كُلِّ ٱسْتِعَارَةٍ مُقَيَّدَةٍ وَجَدْتَهُ يَأْتِيكَ عَفْوًا كَقَوْلِكَ : رَأَيْتُ رَجُلًا كَٱلْأَسَدِ أَوْ مِثْلَهُ أَوْ شِبْهَهُ . وَإِنْ رُمْتَهُ فِي ٱلثَّانِي لَا يُؤَاتِيكَ تِلْكَ ٱلْمُؤَاتَاةَ إِذْ لَا وَجْهَ أَنْ تَقُولَ : شَيْءٌ مِثْلُ ٱلْيَدِ لِلشِّمَالِ . وَإِنَّمَا تَهَيَّأَ لَكَ ٱلتَّشْبِيهُ بَعْدَ أَنْ تَخْرُقَ إِلَيْهِ سِتْرًا أَوْ تَعْمِلَ تَأَمُّلًا وَفِكْرًا . وَفِي إِغْفَالِ هٰذَا ٱلْأَصْلِ وُقُوعٌ فِي ٱلتَّشْبِيهِ . وَذٰلِكَ أَنَّ مَنْ وَضَعَ فِي نَفْسِهِ أَنَّ كُلَّ ٱسْمٍ يُسْتَعَارُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ شَيْءٌ يُمْكِنُ ٱلْإِشَارَةُ إِلَيْهِ تَتَنَاوَلُهُ فِي حَالَةِ ٱلْمَجَازِ كَمَا تَتَنَاوَلُ مُسَمَّاهُ فِي حَالَةِ

ٱلْحَقِيقَةِ . ثُمَّ نَظَرَ اِلَى قَوْلِهِ : وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي . وَقَوْلِهِ : تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا . ٱرْتَبَكَ فِي ٱلشَّكِّ وَحَامَ حَوْلَ ٱلظَّاهِرِ وَوَقَعَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ . فَفِي مَعْرِفَةِ هٰذَا ٱخْلَاصٌ مِنْ ذٰلِكَ ٱلتَّشْبِيهِ وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱسْتِعَارَةً تَخْيِيلِيَّةً وَهُوَ كَاِثْبَاتِ ٱلْجَنَاحِ لِلذُّلِّ فِي قَوْلِهِ : وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . اِذَا عُرِفَ هٰذَا فَٱلنَّوْعُ ٱلْاَوَّلُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَقْسَامٍ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَحْسُوسِ . وَذٰلِكَ اِمَّا اَنْ يَشْتَرِكَا فِي ٱلذَّاتِ وَيَخْتَلِفَا فِي ٱلصِّفَاتِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱلطَّيَرَانِ لِغَيْرِ ذِي جَنَاحٍ فِي ٱلسُّرْعَةِ . فَاِنَّ ٱلطَّيَرَانَ وَٱلْعَدْوَ يَشْتَرِكَانِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَهِيَ ٱلْحَرَكَةُ ٱلْمَكَانِيَّةُ اِلَّا اَنَّ ٱلطَّيَرَانَ اَسْرَعُ . اَوْ بِاَنْ يَخْتَلِفَا فِي ٱلذَّاتِ وَيَشْتَرِكَا فِي صِفَةٍ اِمَّا مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِمْ : رَاَيْتُ شَمْسًا . وَيُرِيدُونَ اِنْسَانًا يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ . وَكَقَوْلِهِ : وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . فَٱلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ ٱلنَّارُ . وَٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ ٱلشَّيْبُ . وَٱلْجَامِعُ ٱلِانْبِسَاطُ وَلٰكِنَّهُ فِي ٱلنَّارِ اَقْوَى . وَاِمَّا غَيْرِ مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِ : اِذَا اَرْسَلْنَا عَلَيْهِمِ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ . ٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ ٱلرِّيحُ وَٱلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ ٱلْمَرْءُ وَٱلْجَامِعُ ٱلْمَنْعُ مِنْ ظُهُورِ ٱلنَّتِيجَةِ . (ٱلثَّانِي) اَنْ يُسْتَعَارَ شَيْءٌ مَعْقُولٌ لِشَيْءٍ مَعْقُولٍ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي وَصْفٍ عَدَمِيٍّ اَوْ ثُبُوتِيٍّ وَاَحَدُهُمَا اَكْمَلُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ فَيُنْزَلُ ٱلنَّاقِصُ مَنْزِلَةَ ٱلْكَامِلِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱسْمِ ٱلْعَدَمِ لِلْوُجُودِ اِذَا ٱشْتَرَكَا فِي عَدَمِ ٱلْفَائِدَةِ اَوِ ٱسْتِعَارَةِ ٱسْمِ ٱلْوُجُودِ لِلْعَدَمِ اِذَا بَقِيَتْ آثَارُهُ ٱلْمَطْلُوبَةُ مِنْهُ كَتَشْبِيهِ ٱلْجَهْلِ بِٱلْمَوْتِ لِاشْتِرَاكِ ٱلْمَوْصُوفِ بِهِمَا فِي عَدَمِ ٱلْاِدْرَاكِ وَٱلْعَقْلِ . وَكَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ لَقِيَ ٱلْمَوْتَ اِذَا لَقِيَ

ٱلشَّدَائِدَ لِٱشْتِرَاكِهِمَا فِي ٱلْمَكْرُوهِيَّةِ . وَقَوْلِهِ : وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ . وَٱلسُّكُوتُ وَٱلزَّوَالُ ٱمْرَانِ مَعْقُولَانِ . (ٱلثَّالِثُ) اَنْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَعْقُولِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱلنُّورِ ٱلَّذِي هُوَ مَحْسُوسٌ وَٱسْتِعَارَةِ ٱلْقِسْطَاسِ لِلْعَدْلِ . وَكَقَوْلِهِ : بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ . فَٱلْقَذْفُ وَٱلدَّمْغُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ : فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ . وَقَوْلِهِ : اَلَمْ تَرَ اَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . ٱلْوَادِي وَٱلْهَيَمَانُ مُسْتَعَارَانِ . (ٱلرَّابِعُ) اَنْ يُسْتَعَارَ ٱسْمُ ٱلْمَعْقُولِ لِلْمَحْسُوسِ عَلَى ٱلتَّأْوِيلِ ٱلْمَذْكُورِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ كَقَوْلِهِ : اِذَا ٱلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ . فَٱلشَّهِيقُ وَٱلْغَيْظُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ : حَتَّى تَضَعَ ٱلْحَرْبُ اَوْزَارَهَا

البحث السابع

في جيد الاستعارة ورديئها ومتوسطها

(عن كتاب الصناعتين وصناعة الترسل)

قَالَ مُحَمَّدٌ اَبُو عَبْدِٱللهِ بْنِ سِنَانٍ ٱلْخَفَاجِيُّ : وَقَدِ ٱخْتَارَ اَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱبْنُ بِشْرٍ ٱلْآمِدِيُّ مِنْ جُمْلَةِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ قَوْلَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَاَرْدَفَ اَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَقَالَ : اِنَّ هٰذِهِ ٱلِٱسْتِعَارَةَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ . لِاَنَّهُ اِنَّمَا قَصَدَ وَصْفَ اَحْوَالِ ٱللَّيْلِ فَذَكَرَ ٱمْتِدَادَ وَسْطِهِ وَتَثَاقُلَ صَدْرِهِ لِلذَّهَابِ وَٱلِٱنْبِعَاثِ وَتَرَادُفَ اَعْجَازِهِ وَاَوَاخِرَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَقَالَ ٱلْخَفَاجِيُّ :

وهٰذا ٱلَّذي ذكرهُ ابو ٱلقاسم لا ارضى بهِ غاية ٱلرِّضى ولو كنتُ اسكنُ الى تقليدِ احدٍ من عُلماءِ هٰذهِ ٱلصّناعةِ لقلّدتُهُ لحُسنِ نظرهِ وصحّةِ فكرهِ وهو عندي من ٱلوسطِ ليس من جيّدِ ٱلاستعارةِ ولا من رديئها . وانّما قلتُ ذٰلكَ لانَّ ابا ٱلقاسمِ قد افصحَ بانَّ امرءَ ٱلقيسِ لمّا جعلَ لليلِ وسطاً وعجزاً استعارَ لهُ اسمَ ٱلصُّلبِ وجعلهُ تمطّياً من اجلِ امتدادهِ وجعلَ ٱلكلكلَ من اجلِ نهوضهِ وكلُّ هٰذا انّما يحسنُ بعضهُ لاجلِ بعضٍ . فذكرُ ٱلصُّلبِ انّما حسنَ لاجلِ ٱلعجزِ . وٱلتّمطّي لاجلِ ٱلصُّلبِ . وٱلكلكلُ لمجموعِ ذٰلكَ . وهٰذهِ ٱلاستعارةُ ٱلمبنيّةُ على غيرِها فلذٰلكَ لم ارَ انْ تُجعلَ من ابلغِ ٱلاستعاراتِ وكانتِ استعارةُ طُفيلٍ ٱلغنويّ في قولهِ :

وجعلتُ رحلي فوقَ ناجيةٍ يقتاتُ شحمَ سنامِها ٱلرَّحلُ

اوفقَ واوضحَ . لانّها غنيّةٌ بنفسِها غيرُ مفتقرةٍ الى مقدّمةٍ حليتِها . (وقالَ) وقد كنتُ مثّلتُ في بعضِ مواضعِ ٱلاستعارةِ ٱلمحمودةِ وٱلمذمومةِ ببيتينِ احدُهما قولُ ابنِ نباتةَ :

حتّى اذا بهروا ٱلاباطحَ وٱلثّرى نظروا اليكَ باعينِ ٱلنُّوّارِ

فنظرُ اعينِ ٱلنُّوّارِ من اشبهِ ٱلاستعاراتِ واليقِها . لانَّ ٱلنُّوّارَ يُشبهُ ٱلعيونَ اذا كانَ مقابلاً لمنْ يمرُّ بهِ كانّهُ مناظرٌ اليهِ . وٱلبيتُ ٱلثّاني بيتُ ابي تمّامٍ :

قرّتْ بفزّانَ عينُ ٱلدّينِ واستترتْ بالاشترينِ عيونُ ٱلشِّركِ فاصطلحا

وقرّةُ عينِ ٱلدّينِ واستتارُ عيونِ ٱلشِّركِ من اقبحِ ٱلاستعاراتِ

لِعَدَمِ ٱلشَّبَهِ ٱلَّذِي لِأَجْلِهِ جَعَلَ لِلشِّرْكِ عُيُونًا . وَمَنْ نَاَّمَلَ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ لَا يَفْهَمْ مَعْنَى ٱلِٱسْتِعَارَةِ لِأَنَّ ٱلنُّوَّارَ وَٱلشِّرْكَ لَا عُيُونَ لَهُمَا عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ . وَقَدْ قَبُحَتْ ٱسْتِعَارَةُ ٱلْعُيُونِ لِأَحَدِهِمَا وَحَسُنَتْ لِلْآخَرِ . وَٱلْعِلَّةُ فِيهِ أَنَّ ٱلنُّوَّارَ يُشْبِهُ ٱلْعُيُونَ . وَٱلدِّينُ وَٱلشِّرْكُ لَيْسَ فِيهِمَا مَا يُشْبِهُهَا وَلَا يُقَارِبُهَا .

وَمِنْ أَحْسَنِ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ كَقَوْلِ ٱلشَّرِيفِ ٱلرَّضِيِّ :

رَسَا ٱلنَّسِيمُ بِوَادِيكُمْ وَلَا بَرِحَتْ حَوَامِلُ ٱلْمُزْنِ فِي أَجْدَاثِكُمْ تَضَعُ
وَلَا يَزَالُ جَنِينُ ٱلنَّبْتِ يُرْضِعُهُ عَلَى قُبُورِكُمُ ٱلْعَرَّاصَةُ ٱلْهَمِعُ

لِأَنَّ ٱلْمُزْنَ تَحْمِلُ ٱلْمَاءَ وَإِذَا حَمَلَتْ تَضَعُهُ فَٱسْتِعَارَةُ ٱلْحَمْلِ لَهَا وَٱلْوَضْعِ ٱلْمَعْرُوفَيْنِ مِنْ أَقْرَبِ شَيْءٍ وَأَشْبَهِهِ . وَكَذٰلِكَ جَنِينُ ٱلنَّبْتِ لِأَنَّ ٱلْجَنِينَ ٱلْمَسْتُورَ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْجُنَّةِ . وَإِذَا كَانَ ٱلنَّبْتُ مَسْتُورًا وَٱلْغَيْثُ يَسْقِيهِ كَانَ ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ ٱلرَّضَاعِ

وَأَمْثَالُ ٱلْمَحَاسِنِ فِي ذٰلِكَ وَٱلْمَسَاوِئِ كَثِيرَةٌ وَقَدْ أَخَذَ ٱلْقَوْلُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ حَقَّهُ . مَعَ أَنَّ أَقْوَالَ ٱلْعُلَمَاءِ بِهٰذَا ٱلْفَنِّ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ ذٰلِكَ

البحث الثامن

في ما جاءَ من الاستعارات في كلام العرب

(عن كتاب الصناعتين للعسكري وسر العربيَّة للثعالبي)

وَأَمَّا مَا جَاءَ فِي قَوْلِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلِاسْتِعَارَاتِ فَكَثِيرٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : هٰذَا رَأْسُ ٱلْأَمْرِ وَوَجْهُهُ وَرَأْسُ ٱلْمَالِ . وَهٰذَا ٱلْأَمْرُ فِي جَنْبِ غَيْرِهِ يَسِيرٌ . وَيَقُولُونَ : هٰذَا جَنَاحُ ٱلْحَرْبِ وَقَلْبُهَا وَجَنَاحُ ٱلطَّرِيقِ . وَهٰؤُلَاءِ رُؤُوسُ ٱلْقَوْمِ وَحَمَاجِمُهُمْ وَعُيُونُهُمْ . وَفُلَانٌ ظَهْرُ فُلَانٍ وَلِسَانُ قَوْمِهِ وَنَابُهُمْ وَعَضْدُهُمْ . وَهٰذَا كَلَامٌ لَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ . وَفِي ٱلْعَرَبِ : ٱلْجَمَاجِمُ . وَٱلْقَبَائِلُ . وَٱلْأَفْخَاذُ . وَٱلْبُطُونُ . وَخَرَجَ عَلَيْنَا عُنُقٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَهُ عِنْدِي يَدٌ بَيْضَاءُ . وَهٰذِهِ عَيْنُ ٱلْمَاءِ . وَحَاجِبُ ٱلشَّمْسِ . وَلِسَانُ ٱلنَّارِ . وَهٰذَا أَنْفُ ٱلْجَبَلِ . وَبَطْنُ ٱلْوَادِي . وَكَبِدُ ٱلسَّمَاءِ . وَسَاقُ ٱلشَّجَرَةِ . وَيَقُولُونَ فِي ٱلتَّفَرُّقِ : ٱنْشَقَّتْ عَصَاهُمْ . وَشَالَتْ نَعَامَتُهُمْ . وَمَرُّوا بَيْنَ سَمْعِ ٱلْأَرْضِ وَبَصَرِهَا . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ٱشْتِدَادِ ٱلْأَمْرِ : كَشَفَتِ ٱلْحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا . أَبْدَى ٱلشَّرُّ نَاجِذَيْهِ . حَمِيَ ٱلْوَطِيسُ . دَارَتْ رَحَى ٱلْحَرْبِ . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ذِكْرِ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ : أَقْتَرَّ ٱلصُّبْحُ عَنْ نَوَاجِذِهِ . ضَرَبَ بِعَمُودِهِ . سُلَّ سَيْفُ ٱلصُّبْحِ مِنْ غِمْدِ ٱلظَّلَامِ . نَعَرَ ٱلصُّبْحُ فِي قَفَا ٱللَّيْلِ . بَاحَ ٱلصَّبَاحُ بِسِرِّهِ . وَهَى نِطَاقُ ٱلْجَوْزَاءِ . ٱنْحَطَّ قِنْدِيلُ ٱلثُّرَيَّا . ذَرَّ قَرْنُ ٱلشَّمْسِ . ٱرْتَفَعَ ٱلنَّهَارُ . تَرَجَّلَتِ ٱلشَّمْسُ بِجَمَرَاتِ ٱلظَّهِيرَةِ . بَقَلَ وَجْهُ ٱلنَّهَارِ . خَفَقَتْ رَايَاتُ ٱلظَّلَامِ .

نَوَّرَتْ حَدَائِقُ ٱلْجَوِّ . شَابَ رَأْسُ ٱللَّيْلِ . لَبِسَتِ ٱلشَّمْسُ جِلْبَابَهَا . قَامَ خَطِيبُ ٱلرَّعْدِ . خَفَقَ قَلْبُ ٱلْبَرْقِ . ٱنْحَلَّ عِقْدُ ٱلسَّمَاءِ . وَهِيَ عِقْدُ ٱلْأَنْدَاءِ . ٱنْقَطَعَ شِرْيَانُ ٱلْغَمَامِ . تَنَفَّسَ ٱلرَّبِيعُ . تَعَطَّرَ ٱلنَّسِيمُ . تَبَرَّجَتِ ٱلْأَرْضُ . قَوِيَ سُلْطَانُ ٱلْحَرِّ . آنَ أَنْ يَجِيشَ مِرْجَلُهُ . وَيَثُورَ قَسْطَلُهُ . ٱنْحَصَرَ قِنَاعُ ٱلصَّيْفِ . جَاشَتْ جُيُوشُ ٱلْخَرِيفِ . حَلَّتِ ٱلشَّمْسُ ٱلْمِيزَانَ . وَعَدَلَ ٱلزَّمَانُ . دَبَّتْ عَقَارِبُ ٱلْبَرْدِ . أَقْدَمَ ٱلشِّتَاءُ كَلْكَلَهُ . شَابَتْ مَفَارِقُ ٱلْجِبَالِ . يَوْمٌ عَبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ . كَشَّرَ عَنْ نَابِ ٱلزَّمْهَرِيرِ . وَكَقَوْلِهِمْ فِي مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ : ٱلْأَدَبُ غِذَاءُ ٱلرُّوحِ . ٱلشَّبَابُ بَاكُورَةُ ٱلْحَيَاةِ . ٱلنَّارُ فَاكِهَةُ ٱلشِّتَاءِ . ٱلْعِيَالُ سُوسُ ٱلْمَالِ . ٱلنَّبِيذُ كِيمِيَاءُ ٱلْفَرَحِ . ٱلْوَحْدَةُ قَبْرُ ٱلْحَيِّ . ٱلصَّبْرُ مِفْتَاحُ ٱلْفَرَجِ . ٱلدَّيْنُ دَاءُ ٱلْكِرَامِ . ٱلنَّمَّامُ جِسْرُ ٱلشَّرِّ . ٱلْإِرْجَافُ زَنْدُ ٱلْفِتْنَةِ . ٱلشُّكْرُ نَسِيمُ ٱلنَّعِيمِ . ٱلرَّبِيعُ شَبَابُ ٱلزَّمَانِ . ٱلْوَلَدُ رَيْحَانَةُ ٱلرُّوحِ . ٱلشَّمْسُ قَطِيفَةُ ٱلْمَسَاكِينِ . ٱلطِّيبُ لِسَانُ ٱلْمُرُوءَةِ . وَيُسَمُّونَ ٱلنَّبَاتَ نَوًّا . قَالَ : وَجَفَّ أَنْوَاءُ ٱلسَّحَابِ . أَيْ جَفَّ ٱلْبَقْلُ . وَيَقُولُونَ لِلْمَطَرِ سَمَاءٌ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِذَا سَقَطَ ٱلسَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهَا وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا

وَيَقُولُونَ : ضَحِكَتِ ٱلْأَرْضُ إِذَا أَنْبَتَتْ لِأَنَّهَا تُبْدِي عَنْ حُسْنِ ٱلنَّبَاتِ كَمَا يَفْتَرُّ ٱلضَّاحِكُ عَنِ ٱلثَّغْرِ . وَيُقَالُ : ضَحِكَتِ ٱلظُّلْمَةُ . وَٱلنَّوْرُ يُضَاحِكُ ٱلشَّمْسَ . قَالَ ٱلْأَعْشَى :

يُضَاحِكُ ٱلشَّمْسَ مِنْهُ كَوْكَبٌ مُشْرِقٌ

مُؤَزَّرٌ لِعَمِيمِ ٱلنَّبْتِ مُكْتَهِلُ

وَيقُولُونَ : ضَحِكَ ٱلسَّحَابُ بِٱلْبَرْقِ وَحَنَّ بِٱلرَّعْدِ وَبَكَى بِٱلْقَطْرِ. وَيقُولُونَ : لَقِيتُ مِنْ فُلَانٍ عَرَقَ ٱلْقُرْبَةِ اَيْ شِدَّةً وَمَشَقَّةً . (وَاَصْلُ هٰذَا اَنَّ حَامِلَ ٱلْقُرْبَةِ يَتْعَبُ مِنْ ثِقْلِهَا حَتَّى يَعْرَقَ) . وَيقُولُونَ اَيْضًا : لَقِيتُ مِنْهُ عَرَقَ ٱلْجَبِينِ . وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ : بِاَرْضِ فُلَانٍ شَجَرٌ قَدْ صَاحَ . وَذٰلِكَ اِذَا طَالَ فَتَبَيَّنَ لِلنَّاظِرِ بِطُولِهِ وَدَلَّ عَلَى نَفْسِهِ لِاَنَّ ٱلصَّائِحَ يَدُلُّ عَلَى نَفْسِهِ بِصَوْتِهِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ :

كَٱلْكَرْمِ اِذْ نَادَى مِنَ ٱلْكَافُورِ

وَمِمَّا جَاءَ اَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ فِي ٱلْقُرْآنِ وَكَلَامِ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ مَا نَصُّهُ : ٱلْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِٱلْمَنْطِقِ . وَقَوْلُهُ : اُذْكُرُوا هَادِمَ ٱللَّذَّاتِ . وَقَوْلُهُ : اِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . وَقَوْلُهُ : اَذَاقَهَا ٱللهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ . وَقَوْلُهُ : اُشْتُعِلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . وَقَوْلُهُ : وَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ ٱلْعَذَابِ . وَقَوْلُهُ : لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ . وَقَالَ عَلِيٌّ : ٱلسَّفَرُ مِيزَانُ ٱلْقَوْمِ . وَقَالَ : وَاَمَا وَقَدِ ٱتَّسَعَ نِطَاقُ ٱلْاِسْلَامِ . وَلَهُ قَوْلُهُ لِاَبْنِ عَبَّاسٍ : اَرْغِبْ رَاغِبَهُمْ وَاَحْلِلْ عُقْدَةَ ٱلْخَوْفِ عَنْهُمْ . وَقَوْلُهُ : ٱلْعِلْمُ قُفْلٌ مِفْتَاحُهُ ٱلْمَسْئَلَةُ . وَقَوْلُهُ : ٱلْحِلْمُ وَٱلْاَنَاةُ تَوْاَمَانِ يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ . وَقَالَ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ يَصِفُ ٱلدُّنْيَا : اِنَّ اَمْرَءًا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا فِي فَرْحَةٍ اِلَّا اَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا تَرْحَةً وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْنًا اِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ قُرَّائِهَا ظَهْرًا . وَلَمْ تُظِلَّهُ فِيهَا غَابَةُ رَخَاءٍ اِلَّا هَبَّتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ . وَلَمْ يُمْسِ مِنْهَا فِي جَنَاحِ اَمْنٍ اِلَّا اَصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ . وَقَالَ اَبُو بَكْرٍ : اِنَّ ٱلْمَلِكَ اِذَا مَلَكَ زَهَّدَهُ ٱللهُ

فِي مَا لَهُ وَرَغَّبَهُ فِيمَا فِي يَدِ غَيْرِهِ وَاَشْرَبَ قَلْبَهُ ٱلْاِشْفَاقَ . فَهُوَ يَحْسِدُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَيَسْخَطُ عَلَى ٱلْكَثِيرِ جَزْلُ ٱلظَّاهِرِ حَزِينُ ٱلْبَاطِنِ . فَاِذَا وَجَبَتْ نَفْسُهُ وَنَفِرَ عُمْرُهُ وَضَحَّى ظِلُّهُ حَاسَبَهُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَاَشَدَّ حِسَابَهُ وَاَقَلَّ عَفْوَهُ . وَكَتَبَ خَالِدُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ اِلَى مَرَازِبَةِ فَارِسَ : ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي قَصَّرَ خِدْمَتَكُمْ وَفَرَّقَ كَلِمَتَكُمْ . وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ : دُلُّونِي عَلَى رَجُلٍ سَمِينِ ٱلْاَمَانَةِ اَعْجَفِ ٱلْخِيَانَةِ . وَقَالَ عَبْدُٱللهِ بْنُ وَهْبٍ : ٱلرَّأْيُ لِاَصْحَابِهِ لَاخَيْرَ فِي ٱلرَّأْيِ ٱلْفَطِيرِ وَٱلْكَلَامِ ٱلْقَضِيبِ . فَلَمَّا بَايَعُوهُ قَالَ : دَعُوا ٱلرَّأْيَ يَغِبُّ فَاِنَّ غُبُوبَهُ يَكْشِفُ لَكُمْ عَنْ مَحَلِّهِ . وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ : اِنَّكَ لَحَسَنُ ٱلْكِدْيَةِ . قَالَ : عِنْوَانُ نِعْمَةِ ٱللهِ عِنْدِي . وَقَالَ اَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلْحِلْمُ دِعَامَةُ ٱلْعَقْلِ . وَقَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ لِرَجُلٍ : رَحِمَ ٱللهُ اَبَاكَ فَاِنَّهُ كَانَ يَقْرِي ٱلْعَيْنَ جَمَالًا وَٱلْاُذُنَ بَيَانًا . وَقِيلَ لِرُؤْبَةَ : كَيْفَ تَرَكْتَ مَا وَرَاكَ . قَالَ : ٱلتُّرَابُ يَابِسٌ وَٱلْمَالُ عَابِسٌ . وَقَالَ ٱلْمَنْصُورُ لِبَعْضِهِمْ : بَلَغَنِي اَنَّكَ بَخِيلٌ : قَالَ مَا اَجْمُدُ فِي حَقٍّ وَلَا اَذُوبُ فِي بَاطِلٍ . وَقَالَ اِبْرَاهِيمُ ٱلْمَوْصِلِيُّ : قُلْتُ لِلْعَبَّاسِ ٱبْنِ ٱلْحُسَيْنِ : اِنِّي لَاُحِبُّكَ . قَالَ : رَائِدُ ذٰلِكَ عِنْدِي . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلْاِسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : ٱلشُّكْرُ كُفُوُّ ٱلنِّعْمَةِ . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ : خَرَجْتُ فِي لَيْلَةٍ حِنْدِسٍ قَدْ اَلْقَتْ عَلَى ٱلْاَرْضِ اَدْرَاعَهَا فَمَحَتْ صُورَةَ ٱلْاَبْدَانِ فَمَا كُنَّا نَتَعَارَفُ اِلَّا بِٱلْآذَانِ . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ لِآخَرَ : يَسَارُ ٱلنَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ يَسَارِ ٱلْمَالِ وَرُبَّ شَبْعَانَ مِنَ ٱلنِّعَمِ غَرْثَانَ مِنَ ٱلْكَرَمِ . وَقَالَ آخَرُ فِي حَرْبٍ : جَعَلُوا ٱلْحَرْبَ

اَرْشِيَةَ ٱلْمَوْتِ وَٱسْتَقَوْا بِهَا اَرْوَاحَ ٱلْعَدُوِّ . وَقَالَ آخَرُ : فُلَانٌ اَمْلَسُ لَيْسَ فِيهِ مُسْتَقَرٌّ بِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ . وَقَالَ اَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ شَتَمَهُ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَأْمُونِ : رَاَيْتُهُ يَسْتَمْلِي مَا يَلْقَانِي بِهِ مِنْ عَيْنَيْكَ . وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ : اَيُّ طَعَامٍ اَطْيَبُ . قَالَ : اَلْجُوعُ اَبْصَرُ . وَمَدَحَ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا قَالَ : كَانَ يَفْتَحُ مِنَ ٱلرَّأْيِ اَبْوَابًا مُنْسَدَّةً وَيَغْسِلُ مِنَ ٱلْعَارِ وُجُوهًا مُسْوَدَّةً . اِذَا عَرَضَتْ لَهُ زِينَةُ ٱلدُّنْيَا هَجَّنَتْهَا صُورَةُ ٱلْحَمْدِ عِنْدَهُ وَاِنَّ لِلْمَصَانِعِ لَغَارَةً عَلَى اَمْوَالِهِ كَغَارَةِ سُيُوفِهِ عَلَى اَعْدَائِهِ . وَمَدَحَ اَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : اُولَائِكَ غُرَرٌ تُضِيءُ فِي ظُلَمِ ٱلْاُمُورِ ٱلْمُشْكِلَةِ قَدْ صَغَتْ آذَانُ ٱلْمَجْدِ اِلَيْهِمْ . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ يَمْدَحُ رَجُلًا : اِنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعْلَمُ اَنَّ ٱللهَ مَادَّتُهُ . وَمَدَحَ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : لِسَانُهُ اَحْلَى مِنَ ٱلشَّهْدِ وَقَلْبُهُ سِجْنُ ٱلْحِقْدِ . اِنْ اَسَأْتَ اِلَيْهِ اَحْسَنَ وَكَاَنَّهُ ٱلْمُسِيءُ . وَاِذَا اَجْرَمْتَ غَفَرَ وَكَاَنَّهُ ٱلْمُجْرِمُ . اِشْتَرَى بِٱلْمَعْرُوفِ عِرْضَهُ مِنَ ٱلْاَذَى فَهُوَ وَاِنْ كَانَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا بِاَسْرِهَا فَوَهَبَهَا رَاَى بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ حُقُوقًا لَا يَسْتَعْذِبُ ٱلْخَنَى وَلَا يَسْتَحْسِنُ غَيْرَ ٱلْوَفَاءِ . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ : لَا تُدَنِّسْ شِعْرَكَ بِعِرْضِ فُلَانٍ فَاِنَّهُ سَمِينُ ٱلْمَالِ مَهْزُولُ ٱلْمَعْرُوفِ مِنَ ٱلْمَرْزُوقِينَ فُجَاءَةً قَصِيرُ عُمْرِ ٱلْغِنَى طَوِيلُ حَيَاةِ ٱلْفَقْرِ . وَسَاَلَ اَعْرَابِيٌّ فَقِيلَ لَهُ : عَلَيْكَ بِٱلصَّيَارِفِ . فَقَالَ : هُنَاكَ وَرَارَةُ ٱللُّؤْمِ . وَذَكَرَ اَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : اُولَائِكَ قَوْمٌ قَدْ سَلَخْتُ اَقْفَاءَهُمْ بِٱلْهِجَاءِ وَدَبَغْتُ جُلُودَهُمْ بِٱللَّوْمِ . فَلِبَاسُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلْمَلَامَةُ وَزَادُهُمْ فِي ٱلْاٰخِرَةِ ٱلنَّدَامَةُ . وَذَمَّ اَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : هُمْ اَقَلُّ ذُنُوبًا اِلَى اَعْدَائِهِمْ

وَاكْثَرُ تَجَرُّمًا عَلَى اَصْدِقَائِهِمْ . يَصُومُونَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيُفْطِرُونَ عَلَى ٱلْفَحْشَاءِ . وَذَمَّ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : ذَاكَ رَجُلٌ تَغْدُو اِلَيْهِ مَوَاكِبُ ٱلضَّلَالَةِ وَتَرْجِعُ مِنْ عِنْدِهِ بُذُورُ ٱلْآثَامِ مُعْدِمٌ مِمَّا يُحِبُّ مُثْرٍ مِمَّا يُكْرَهُ . وَقَالَ آخَرُ : مَا رَاَيْتُ دَمْعَةً تَرْقَرَقُ فِي عَيْنٍ وَتَجْرِي عَلَى خَدٍّ اَحَرَّ مِنْ عَبْرَةٍ اَمْطَرَتْهَا عَيْنَاهُ وَاَعْشَبَ لَهَا قَلْبِي . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ وَذَكَرَ زُهَّادًا : فَازَ قَوْمٌ اَدَّبَتْهُمُ ٱلْحِكْمَةُ وَاَحْكَمَتْهُمُ ٱلتَّجَارِبُ وَلَمْ تَغُرَّهُمُ ٱلسَّلَامَةُ ٱلْمُنْطَوِيَةُ عَلَى ٱلْهَلَكَةِ . وَرَحَلَ عَنْهُمُ ٱلتَّسْوِيفُ ٱلَّذِي قَطَعَ بِهِ ٱلنَّاسُ مَسَافَةَ آجَالِهِمْ وَاَحْسَنُوا ٱلْمَقَالَ وَشَفَعُوهُ بِٱلْفِعَالِ تَرَكُوا ٱلنَّعِيمَ لِيَتَنَعَّمُوا . لَهُمْ عَبَرَاتٌ مُتَدَافِعَةٌ لَا يَرَاهُمْ اِلَّا فِي وَجْهٍ عِنْدَ ٱللهِ وَجِيهٍ . وَوَصَفَ اَعْرَابِيٌّ وَالِيًا فَقَالَ : كَانَ اِذَا وُلِّيَ لَمْ يُطَابِقْ بَيْنَ جُفُونِهِ وَاِرْسَالِ ٱلْعُيُونِ عَلَى عُيُونِهِ . فَهُوَ شَاهِدٌ مَعَهُمْ غَائِبٌ عَنْهُمْ فَٱلْمُحْسِنُ آمِنٌ وَٱلْمُسِيءُ خَائِفٌ . وَذَكَرَ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : كَانَ ٱلْفَهْمُ مِنْهُ ذَا اُذُنَيْنِ وَٱلْجَوَابُ مِنْهُ ذَا لِسَانَيْنِ . لَمْ اَرَ اَحَدًا كَانَ اَرْتَقَ لِخَلَلِ ٱلسَّرَّاءِ مِنْهُ كَانَ بَعِيدَ مَسَافَةِ ٱلرَّأْيِ يَرْمِي بِطَرْفِهِ حَيْثُ اَشَارَ ٱلْكَرَمُ . وَمَا زَالَ يَتَحَسَّى مَرَارَةَ ٱلْاِخْوَانِ وَيُسِيغُهُمُ ٱلْعَذْبَ . وَوَصَفَ اَعْرَابِيٌّ قَوْمَهُ فَقَالَ : اِذَا ٱصْطَفُّوا تَحْتَ ٱلْقَتَامِ سَفَرَتْ بَيْنَهُمُ ٱلسِّهَامُ بِوُقُوفِ ٱلْحِمَامِ . وَاِذَا تَصَافَحُوا بِٱلسُّيُوفِ فَغَرَتِ ٱلْمَنَايَا بِاَفْوَاهِهَا . فَكَمْ مِنْ يَوْمٍ عَارِمٍ قَدْ اَحْسَنُوا اَدَبَهُ وَحَرْبٍ عَبُوسٍ قَدْ ضَاحَكَتْهَا اَسِنَّتُهُمْ وَخَطْبٍ قَدْ ذَيَّلُوا مَنَاكِبَهُ . اِنَّمَا كَانُوا كَٱلْبَحْرِ ٱلَّذِي لَا يَنْكَمِشُ غِمَارُهُ وَلَا يُنَهْنَهُ تَيَّارُهُ . وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ : لِمَ لَا تَشْرَبُ ٱلنَّبِيذَ . فَقَالَ : لَا اَشْرَبُ مَا يَشْرَبُ عَقْلِي .

وَقَالَ آخَرُ : اَلْخَطُّ مَرْكَبُ اَلْبَيَانِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : اَلْقَلَمُ لِسَانُ اَلْبَيَانِ . وَسَمِعْتُ بَعْضَ اَلْأَطِبَّاءِ يَقُولُ : اَلْمَاءُ مَطِيَّةُ اَلطَّعَامِ . وَقَالَ اَلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِكَاتِبِهِ : لَا تُكَدِّرْ مَاءَ مَعْرُوفِي بِاَلْمَنِّ فَإِنَّ اِعْتِدَادَكَ بِاَلْمَعْرُوفِ يَعْقِلُ لِسَانَ اَلشُّكْرِ . وَأَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي مَنْثُورِ اَلْكَلَامِ وَفِيمَا أَوْرَدْنَاهُ كِفَايَةٌ . وَأَمَّا اَلْاِسْتِعَارَةُ فِي أَشْعَارِ اَلْمُتَقَدِّمِينَ فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى

البحث التاسع

في مراعاة النظير

(من شرح بديعية العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٣١ من علم الادب)

يُسَمَّى أَيْضًا هٰذَا اَلنَّوْعُ اَلتَّنَاسُبَ وَاَلْاِئْتِلَافَ وَاَلتَّوْفِيقَ وَاَلْمُؤَاخَاةَ . وَهُوَ فِي اِصْطِلَاحِ اَلْبَدِيعِيِّينَ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ أَمْرٍ وَمَا يُنَاسِبُهُ لَا عَلَى جِهَةِ اَلتَّضَادِّ . وَهُوَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ . (اَلْأَوَّلُ) يُذْكَرُ فِيهِ اَلشَّيْءُ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فَقَطْ كَقَوْلِ اِبْنِ اَلْخَشَّابِ لِلْخَلِيفَةِ اَلْمُسْتَضِيءِ :

وَرَدَ اَلْوَرَى سَلْسَالَ جُودِكَ فَاِرْتَوَوْا ... وَوَقَفْتُ دُونَ اَلْوِرْدِ وِقْفَةَ حَائِمِ
ظَمْآنَ أَطْلُبُ ضَفَّةً مِنْ رَحْمَةٍ ... وَاَلْوِرْدُ لَا يَزْدَادُ غَيْرَ تَزَاحُمِ

فَاُنْظُرْ حُسْنَ هٰذَيْنِ اَلْبَيْتَيْنِ كَيْفَ جَرَيَا كَاَلْمَاءِ فِي طَلَاوَتِهِ . وَوَقَعَا مِنَ اَلْقُلُوبِ كَاَلشَّهْدِ فِي حَلَاوَتِهِ . مَعَ أَنَّ نَاظِمَهُمَا مَا خَرَجَ عَنْ وَصْفِ اَلْمَاءِ كَلَامُهُ . وَلَا تَعَدَّى ذٰلِكَ اَلْمَعْنَى نِظَامُهُ . فَأَوْدَعَهُمَا فِي عَشْرِ مَوَاضِعَ مُرَاعَاةَ اَلنَّظِيرِ . فِيهَا مِنَ اَلْحُسْنِ مَا لَيْسَ لَهُ مِنْ نَظِيرٍ . لٰكِنَّهُ مَا سَلِمَ

مَليحٌ مِنْ عَيبٍ. وَلَاخَلَا مِنْ مَرْفُوعٍ رَيبٌ. فَمَعَ هٰذِهِ ٱلْمَحَاسِنِ ٱلظَّرِيفَةِ مَا سَلِمَ ٱلْبَيْتَانِ مِنْ عَيبِ ٱلْقَافِيَةِ. فَقَدْ غَيَّرَ ٱلنَّاظِمُ كَسْرَةَ ٱلدَّخِيلِ عَلَى ٱلضَّمَّةِ. وَجَاءَ فِي ذٰلِكَ بِمَا عَابَهُ كُلُّ اَدِيبٍ وَذَمَّهُ. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلسَّلَامِيِّ:

وَٱلنَّقْعُ ثَوْبٌ بِٱلنُّثُورِ مُطَرَّزٌ وَٱلْاَرْضُ فَرْشٌ بِٱلْجِيَادِ مُخَمَّلُ
وَسُطُورُ خَيْلِكَ اِنَّمَا اَلِفَاتُهَا سُمْرٌ تُنَقَّطُ بِٱلدِّمَاءِ وَتُشْكَلُ

نَاسَبَ بَيْنَ ٱلثَّوْبِ وَٱلتَّطْرِيزِ وَٱلْخَمْلِ وَبَيْنَ ٱلسُّطُورِ وَٱلْاَلِفَاتِ وَٱلنِّقَطِ وَٱلشَّكْلِ

(تَنْبِيهٌ) وَلَوْ ذُكِرَ ٱلشَّيْءُ مَعَ مَا لَا يُنَاسِبُهُ كَانَ ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ عَيْبًا. كَقَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ:

وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِينًا مَبْرُورَةً لَا تُكَذَّبْ
بِرَبِّ زَمْزَمَ وَٱلْحَوْ ضِ وَٱلصَّفَا وَٱلْمُحَصَّبْ

عَابُوا عَلَيْهِ ذِكْرَ ٱلْحَوْضِ مَعَ زَمْزَمَ وَٱلصَّفَا وَٱلْمُحَصَّبِ. وَاِنَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ ذِكْرُهُ مَعَهَا. وَاِنَّمَا يُنَاسِبُ ذِكْرُ ٱلْحَوْضِ مَعَ ٱلْمِيزَانِ وَٱلصِّرَاطِ وَشِبْهِهِمَا مِمَّا هُوَ مَنُوطٌ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ

(تَنْبِيهٌ ثَانٍ) لَوْ جَاءَ ٱلْكَاتِبُ بِمُتَنَاسِبَيْنِ فَاَفْرَدَ اَحَدَهُمَا وَثَنَّى ٱلْاٰخَرَ اَوْ جَمَعَهُ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ كَانَ عَيْبًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

اَلَا يَا اَبْنَ ٱلَّذِينَ فَنُوا وَمَاتُوا اَمَا وَٱللّٰهِ مَا مَاتُوا لِتَبْقَى
وَمَا لَكَ فَاعْلَمَنْ فِيهَا بَقَاءٌ اِذَا ٱسْتَكْمَلْتَ آجَالًا وَرِزْقَا

فَجَمَعَ (ٱلْاَجَلَ) وَاَفْرَدَ (ٱلرِّزْقَ) مَعَ اَنَّهُمَا مُتَنَاسِبَانِ. (ٱلثَّانِي) اَنْ يُذْكَرَ شَيْءٌ اَوْ اَشْيَاءُ كُلُّ وَاحِدٍ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فِي جُمَلٍ مُسْتَوِيَةٍ

ٱلْمِقْدَارِ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّفْوِيفَ لِشَبَهِهِ بِٱلثَّوْبِ ٱلْمُفَوَّفِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ خُطُوطٌ مُسْتَوِيَةٌ وَتَشْبِيهُ ٱلْجُمَلِ بِٱسْتِوَاءِ تِلْكَ ٱلْخُطُوطِ . وَتَكُونُ هٰذِهِ ٱلْجُمَلُ طِوَالًا كُلُّهَا اَوْ مُتَوَسِّطَةً . وَكُلُّهَا اِمَّا اَنْ يَكُونَ آخِرُهَا فِي بَعْضِ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْمُدْمَجَةُ . وَاِمَّا اَنْ يُوَافِقَ آخِرُهَا آخِرَ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْغَيْرُ ٱلْمُدْمَجَةِ وَهُوَ ٱلْاَحْسَنُ . فَمِنْ قَوْلِ ٱبْنِ عُنَيْنٍ :

دَعَتْ فِي اَعَالِي ٱلسُّغْدِ يَوْمًا حَمَامَةٌ ... عَلَى فَنَنٍ مِنْ كُلِّ رَيَّانَ كَٱلْيَمِّ
فَهَاجَتْ مَشُوقًا وَٱسْتَفَزَّتْ مُتَيَّمًا ... وَاَبْكَتْ غَرِيبًا وَٱسْتَخَفَّتْ اَخَا عِلْمِ

(ٱلسُّغْدُ مَوْضِعٌ بِسَمَرْقَنْدَ قَدِ ٱتُّخِذَ لِلتَّزَاهَةِ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْحُسْنِ) . وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي مَدْحٍ :

وَٱلدَّهْرُ يُقْبِلُ اِنْ تُقْبِلْ وَيُعْرِضُ اِنْ ... تُعْرِضْ وَغَيْرُ ٱلَّذِي قَدْ رُمْتَ لَمْ يَرُمِ
اِنْ قُلْتَ يَسْمَعْ وَاِنْ تَأْمُرْ يُطِعْ وَمَتَى ... فَعَلْتَ تُسْعَدْ وَاِنْ لَاحَظْتَ تُحْتَرَمِ

وَقَدْ بَلَغَ بِهَا ٱلْمُتَنَبِّي اِلَى اَرْبَعَ عَشْرَةَ جُمْلَةً لٰكِنْ بِغَيْرِ حَرْفِ عَطْفٍ فَثَقُلَتْ وَخَرَجَتْ عَنْ سِلْكِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهِيَ قَوْلُهُ :

اَقِلْ اَنِلْ اَقْطِعِ اَحْمِلْ عَلِّ سَلِّ اَعِدْ ... زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ اُدْنُ سُرَّ صِلِ

(ٱلثَّالِثُ) مِنْ مُرَاعَاةِ ٱلنَّظِيرِ اَنْ تَذْكُرَ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ وَيُخْتَمَ ٱلْكَلَامُ بِشَيْئَيْنِ : اَحَدُهُمَا يُلَائِمُ وَاحِدًا مِمَّا تَقَدَّمَ . وَٱلْآخَرُ يُلَائِمُ ٱلْآخَرَ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ تَنَاسُبَ ٱلْاَطْرَافِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ : لَا تُدْرِكُهُ ٱلْاَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْاَبْصَارَ . وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ . فَٱللَّطِيفُ يُنَاسِبُ مَا لَا يُدْرَكُ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَفَاءِ . وَٱلْخَبِيرُ يُنَاسِبُ مَنْ هُوَ مُدْرِكٌ لِلطَّائِفِ

ٱلْاَشْيَاءِ . (اَلرَّابِعُ) اَنْ تَذْكُرَ ٱلشَّيْءَ ثُمَّ تَذْكُرَ مَعَهُ لَفْظًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ اَمْرَيْنِ : اَحَدُهُمَا يُلَائِمُ ٱلْاَوَّلَ وَٱلْآخَرُ لَا يُلَائِمُهُ فَيَتَوَهَّمُ ٱلسَّامِعُ اَنَّهُ مُرَادِفُ ٱلْمُلَائِمِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ اِيهَامَ ٱلنَّظِيرِ . كَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ : ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . فَيُتَوَهَّمُ مُرَاعَاةَ ٱلنَّظِيرِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْمُرَادَ بِٱلنَّجْمِ ٱلنَّبَاتُ لَا ٱلْكَوْكَبُ لِعَطْفِ ٱلشَّجَرِ عَلَيْهِ

البحث العاشر

في المجاز المرسل

(عن السكاكي والدسوقي والثعالبي باختصار)

(راجع صفحة ٣٣ من علم الادب)

اِنَّ عَلَاقَةَ ٱلْمَجَازِ ٱلْمُصَحِّحَةَ لَهُ اِمَّا اَنْ تَكُونَ مُشَابَهَةَ ٱلْمَنْقُولِ اِلَيْهِ بِٱلْمَنْقُولِ عَنْهُ فِي شَيْءٍ فَيُسَمَّى ٱلْمَجَازُ ٱسْتِعَارَةً كَمَا مَرَّ . وَاِمَّا اَنْ تَكُونَ عَلَاقَةُ ٱلْمَجَازِ غَيْرَ ٱلْمُشَابَهَةِ فَيُسَمَّى مُرْسَلًا كَلَفْظِ ٱلْيَدِ اِذَا ٱسْتُعْمِلَ فِي ٱلنِّعْمَةِ وَٱلْقُدْرَةِ كَمَا يُقَالُ : جَلَّتْ اَيَادِيهِ عِنْدِي . اَيْ كَثُرَتْ نِعْمَتُهُ لَدَيَّ . وَٱتَّسَعَتِ ٱلْيَدُ فِي ٱلْبَلَدِ . وَٱلْيَدُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلْعُضْوُ ٱلْمَخْصُوصُ وَٱلْعَلَاقَةُ كَوْنُ ذٰلِكَ ٱلْعُضْوِ مَصْدَرًا لِلنِّعْمَةِ فَاِنَّهَا تَصِلُ اِلَى ٱلْمُنْعَمِ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْيَدِ فَتَكُونُ ٱلْجَارِحَةُ ٱلْمَخْصُوصَةُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْعِلَّةِ ٱلْفَاعِلِيَّةِ لَهَا . وَاَيْضًا بِٱلْيَدِ تَظْهَرُ ٱلنِّعْمَةُ فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْعِلَّةِ ٱلصُّورِيَّةِ لَهَا . وَاِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ لِلْقُدْرَةِ فَلِاَنَّ اَكْثَرَ مَا يَظْهَرُ سُلْطَانُ ٱلْقُدْرَةِ فِي ٱلْيَدِ وَبِهَا تَكُونُ ٱلْاَفْعَالُ ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْقُدْرَةِ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلضَّرْبِ

وَٱلْقَطْعِ وَٱلْأَخْذِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . وَأَنْوَاعُ ٱلْعَلَاقَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا عَائِدَةٌ إِلَى (ٱلتَّضَمُّنِ) وَهِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ . (فَمِنْ ٱلنُّقْصَانِ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ جُزْئِهِ وَإِطْلَاقُ ٱلْخَاصِّ لِلْعَامِّ . وَهٰذَا مِنْ سُنَنِ ٱلْعَرَبِ فَإِنَّهُمْ يَقْتَصِرُونَ عَلَى بَعْضِ ٱلشَّيْءِ وَهُمْ يُرِيدُونَ كُلَّهُ فَيَقُولُونَ : قَعَدَ عَلَى ظَهْرِ رَاحِلَتِهِ . وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

ٱلْوَاطِئِينَ عَلَى صُدُورِ نِعَالِهِمْ

وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ :

أَوْ يَرْبِطُ بَعْضَ ٱلنُّفُوسِ حِمَامُهَا

وَفِي ٱلْقُرْآنِ : قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ . وَٱلْمُرَادُ يَغُضُّوا أَبْصَارَهُمْ كُلَّهَا . (وَكَذٰلِكَ) يَصِفُونَ ٱلْبَعْضَ بِصِفَةِ ٱلْكُلِّ كَقَوْلِهِ : نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ . فَٱلْخَطَأُ صِفَةُ ٱلْكُلِّ وَصَفَ بِهِ ٱلنَّاصِيَةَ . وَمِثْلُ ذٰلِكَ إِطْلَاقُهُمْ لَفْظَ (بَعْضٍ) مُرَادًا بِهِ ٱلْكُلُّ كَقَوْلِهِ : لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَيْ كُلَّهُ . وَمِنْ سُنَنِ ٱلْعَرَبِ أَنْ تُقِيمَ ٱلْوَاحِدَ مَقَامَ ٱلْجَمْعِ فَيَقُولُونَ : قَرَرْنَا بِهِ عَيْنًا . أَيْ أَعْيُنًا . وَكَقَوْلِهِ : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ . وَٱلتَّفْرِيقُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَيْنَ ٱثْنَيْنِ . وَٱلتَّقْدِيرُ : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ سُنَّةُ ٱلْعَرَبِ أَنْ يَقُولُوا لِلرَّجُلِ ٱلْعَظِيمِ وَٱلْمَلِكِ ٱلْكَبِيرِ : ٱنْظُرُوا فِي أَمْرِي . وَلِأَنَّ ٱلسَّادَةَ وَٱلْمُلُوكَ يَقُولُونَ : نَحْنُ فَعَلْنَا وَإِنَّا أَمَرْنَا . فَعَلَى قَضِيَّةِ هٰذَا ٱلِٱبْتِدَاءِ يُخَاطَبُونَ فِي ٱلْجَوَابِ .

(وَمِنَ ٱلزِّيَادَةِ) وَهُوَ عَكْسُ مَا قَبْلَهُ إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْعَامِّ لِلْخَاصِّ وَمِنْهُ بَابُ ٱلتَّخْصِيصِ بِأَسْرِهِ وَإِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْكُلِّ عَلَى ٱلْجُزْءِ نَحْوُ : يَجْعَلُونَ

اَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّرَاعِقِ . يُرِيدُ ٱلْأَنْمِلَةَ وَهِيَ جُزْءٌ مِنَ ٱلْأَصَابِعِ . وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْمُبَالَغَةُ كَأَنَّهُ جَعَلَ جَمِيعَ ٱلْأَصَابِعِ فِي ٱلْأُذُنِ لِئَلَّا يَسْمَعَ شَيْئًا مِنَ ٱلصَّاعِقَةِ . (وَمِنْ سُنَنِهِمْ) اَيْضًا ٱلْإِتْيَانُ بِٱلْجَمْعِ وَيُرِيدُونَ بِهِ ٱلْوَاحِدَ كَقَوْلِهِ : مَا كَانَ لَهُمْ اَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللهِ . وَإِنَّمَا اَرَادَ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ . وَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ : اَفْعَلَا ذٰلِكَ . وَٱلْمُخَاطَبُ وَاحِدٌ . وَكَقَوْلِهِ : اَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . وَهُوَ خِطَابٌ لِخَازِنِ ٱلنَّارِ وَحْدَهُ . وَكَمَا قَالَ ٱلْأَعْشَى :

وَصَلِّ عَلَى خَيْرِ ٱلْعَشِيَّاتِ وَٱلضُّحَى وَلَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ وَٱللهَ فَٱعْبُدَا

وَيُقَالُ اِنَّهُ اَرَادَ : وَٱللهَ فَٱعْبُدَنْ . فَقَلَبَ ٱلنُّونَ ٱلْخَفِيفَةَ اَلِفًا . وَكَذٰلِكَ فِي قَوْلِهِ : اَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ . (وَمِنْ اَنْوَاعِ) ٱلْعَلَاقَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِي ٱلْمَجَازِ ٱلْمُرْسَلِ مَا يَقُودُ اِلَى (ٱلْاِسْتِلْزَامِ) وَهُوَ مَا ٱقْتَضَى مَعْنَاهُ مَعْنًى آخَرَ لِأَجْلِ عَلَاقَتِهِ . (فَمِنْ ذٰلِكَ) اِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْمَلْزُومِ عَلَى ٱللَّازِمِ وَٱللَّازِمِ عَلَى ٱلْمَلْزُومِ نَحْوُ : هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ . اَيْ هَلْ يَفْعَلُ . اَطْلَقَ ٱلْاِسْتِطَاعَةَ عَلَى ٱلْفِعْلِ لِاَنَّهَا لَازِمَةٌ لَهُ . وَكَقَوْلِهِ : يُرْسِلُ ٱلسَّمَاءَ مِدْرَارًا . اَيِ ٱلْمَطَرَ . لِاَنَّهُ مِنْهَا يَنْزِلُ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ سَبَبِهِ . كَقَوْلِهِ : مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ . اَيِ ٱلْقَبُولَ وَٱلْعَمَلَ بِهِ لِاَنَّهُ يَتَسَبَّبُ عَنِ ٱلسَّمْعِ . وَكَقَوْلِهِ : رَعَيْنَا ٱلْغَيْثَ . اَيِ ٱلنَّبَاتَ ٱلَّذِي سَبَبُهُ ٱلْغَيْثُ . (وَعَكْسُهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مُسَبَّبِهِ نَحْوُ : اَمْطَرَتِ ٱلسَّمَاءُ نَبَاتًا . اَيْ غَيْثًا يَكُونُ ٱلنَّبَاتُ مُسَبَّبًا عَنْهُ . وَكَقَوْلِهِ : يُنْزِلُ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقًا . اَيْ مَطَرًا وَهُوَ مِنْ تَوَابِعِهِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا كَانَ

عَلَيْهِ نَحْوُ : آتُوا ٱلْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ . أَيِ ٱلَّذِينَ كَانُوا يَتَامَى لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْتَوْنَ أَمْوَالَهُمْ حَتَّى يَبْلُغُوا وَلَا يُتْمَ بَعْدَ ٱلْبُلُوغِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ نَحْوُ : إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا أَيْ عِنَبًا . يُعْصَرُ فَيَؤُولُ إِلَى ٱلْخَمْرِ . وَكَقَوْلِهِ : وَلَا يَلِدُوا إِلَّا كَفَّارًا . أَيْ صَائِرًا إِلَى ٱلْكُفْرِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَحَلِّهِ نَحْوُ : فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ أَيْ أَهْلَ نَادِيهِ . أَيْ مَجْلِسِهِ . وَكَقَوْلِهِ : ٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا . أَيْ أَهْلَهَا . (وَمِنْهُ عَكْسُهُ) أَيْ إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْحَالِّ عَلَى ٱلْمَحَلِّ . نَحْوُ : حَلُّوا فِي رَحْمَةِ ٱللهِ أَيْ فِي ٱلْجَنَّةِ لِأَنَّهَا مَحَلُّ ٱلرَّحْمَةِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ آلَتِهِ نَحْوُ : وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ . أَيِ ٱجْعَلْ لِي ثَنَاءً حَسَنًا وَٱللِّسَانُ آلَةُ ٱلصِّدْقِ وَٱلثَّنَاءِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ ضِدِّهِ نَحْوُ : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . أَيْ أَنْذِرْهُمْ وَهَدِّدْهُمْ . وَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ لِلرَّجُلِ تَسْتَجْهِلُهُ : يَا عَاقِلُ . وَلِلْمَرْأَةِ تَسْتَقْبِحُهَا : يَا قَمَرُ . (وَكَذٰلِكَ) يَقْلِبُونَ ٱلْمَعْنَى نَحْوُ : عَرَضْتُ ٱلنَّاقَةَ عَلَى ٱلْحَوْضِ . يُرِيدُونَ ٱلْحَوْضَ عَلَى ٱلنَّاقَةِ . (وَمِنْهُ) وَصْفُ ٱلشَّيْءِ بِمَا يَقَعُ فِيهِ أَوْ يَكُونُ مِنْهُ نَحْوُ : يَوْمٌ عَاصِفٌ . أَيْ عَاصِفُ ٱلرِّيحِ . وَلَيْلٌ نَائِمٌ وَسَاهِرٌ وَصَائِمٌ أَيْ يُنَامُ فِيهِ وَيُسْهَرُ وَيُصَامُ . (وَمِنْهُ) إِضَافَةُ ٱلْفِعْلِ إِلَى مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ تَشْبِيهًا . كَقَوْلِهِ : جِدَارٌ يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ . وَلَا إِرَادَةَ لِلْجِدَارِ . وَلٰكِنَّهُ تَوَسَّعَ ٱلْعَرَبُ فِي ٱلْمَجَازِ فَعَبَّرُوا عَنِ ٱلْجَمَادِ بِفِعْلِ ٱلْإِنْسَانِ كَمَا قَالَ ٱلرَّاجِزُ :

ٱمْتَلَأَ ٱلْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي

اَيْ كَفَانِي وَلَيْسَ لِلْحَوْضِ قَوْلٌ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ الرَّاعِي الشَّاعِرِ النَّصْرَانِيِّ :

فِي مَهْمَهٍ فُلِقَتْ بِهِ هَامَاتُهَا فَلَقَ الْفُؤُوسِ اِذَا اَرَدْنَ تَصُولَا

وَالْعَرَبُ تُسَمِّي التَّهَيُّؤَ لِلْفِعْلِ وَالْاِحْتِيَاجَ اِلَيْهِ اِرَادَةً. وَكَذٰلِكَ يَأْتُونَ بِلَفْظِ الْمَاضِي وَهُوَ مُسْتَقْبَلٌ وَبِلَفْظِ الْمُسْتَقْبَلِ وَهُوَ مَاضٍ كَقَوْلِهِ : لِمَ تَقْتُلُونَ اَنْبِيَاءَ اللّٰهِ اَيْ لِمَ قَتَلْتُمْ . وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

فَاَدْرَكْتُ مَنْ قَدْ كَانَ قَبْلِي وَلَمْ اَدَعْ لِمَنْ كَانَ بَعْدِي فِي الْقَصَائِدِ مُصْنِفَا

اَيْ لِمَنْ يَكُونُ بَعْدِي . وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : وَكَانَ اللّٰهُ غَفُورًا . اَيْ كَانَ وَيَكُونُ وَهُوَ كَائِنٌ الْاٰنَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ . وَكَذٰلِكَ يَأْتُونَ بِالْمَفْعُولِ بِلَفْظِ الْفَاعِلِ فَيَقُولُونَ : سِرٌّ كَاتِمٌ اَيْ مَكْتُومٌ . وَمَكَانٌ عَامِرٌ اَيْ مَعْمُورٌ . وَمَاءٌ دَافِقٌ اَيْ مَدْفُوقٌ . وَعِيشَةٌ رَاضِيَةٌ اَيْ مَرْضِيَّةٌ . وَحَرَمٌ آمِنٌ اَيْ مَأْمُونٌ . وَقَالَ جَرِيرٌ :

اِنَّ الْبَلِيَّةَ مَنْ تَمَلُّ كَلَامَهُ فَاَنْقَعْ فُؤَادَكَ مِنْ حَدِيثِ الْوَامِقِ

اَيْ مِنْ حَدِيثِ الْمَوْمُوقِ . وَيَعْكِسُونَ هٰذَا الْعَمَلَ وَيَسْتَعْمِلُونَ الْفَاعِلَ بِلَفْظِ الْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا اَيْ آتِيًا . وَكَقَوْلِهِ : حِجَابٌ مَسْتُورٌ اَيْ سَاتِرٌ . وَيُقِيمُونَ الْاِسْمَ وَالْمَصْدَرَ مَقَامَ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ . فَتَقُولُ الْعَرَبُ : رَجُلٌ عَدْلٌ اَيْ عَادِلٌ . وَرِضًى اَيْ مَرْضِيٌّ . وَبَنُو فُلَانٍ لَنَا سِلْمٌ اَيْ مُسَالِمُونَ . وَحَرْبٌ اَيْ مُحَارِبُونَ . (وَكَذٰلِكَ) يَحْمِلُونَ اللَّفْظَ عَلَى الْمَعْنَى فِي تَذْكِيرِ الْمُؤَنَّثِ وَتَأْنِيثِ الْمُذَكَّرِ فَيَتْرُكُونَ حُكْمَ ظَاهِرِ اللَّفْظِ وَيَحْمِلُونَهُ عَلَى مَعْنَاهُ كَمَا يَقُولُونَ : ثَلَاثَةُ اَنْفُسٍ . وَالنَّفْسُ مُؤَنَّثَةٌ وَاِنَّمَا حَمَلُوهُ عَلَى مَعْنَى الْاِنْسَانِ اَوْ مَعْنَى الشَّخْصِ

قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا عِنْدَنَا إِلَّا ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ مِثْلَ ٱلنُّجُومِ تَلأْلأَتْ فِي ٱلْخِنْدِسِ

وَكَمَا ذَكَّرَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَفَّ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ فِي قَوْلِهِ :

أَرَى رَجُلًا مِنْهُمْ أَسِيفًا كَأَنَّمَا يَضُمُّ إِلَى كَشْحَيْهِ كَفًّا مُخَضَّبَا

فَحَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلْعُضْوِ وَهُوَ مُذَكَّرٌ . وَكَمَا قَالَ ٱلْآخَرُ :

يَا أَيُّهَا ٱلرَّاكِبُ ٱلْمُزْجِي مَطِيَّتَهُ سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ مَا هٰذِهِ ٱلصَّوْتُ

أَيْ مَا هٰذِهِ ٱلْجَلَبَةُ . وَفِي ٱلْقُرْآنِ : وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا .

وَلَمْ يَقُلْ : مَيْتَةً لِأَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ٱلْمَكَانِ . وَقَالَ : ٱلسَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ .

فَذَكَّرَ ٱلسَّمَاءَ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ لِأَنَّهُ حَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلسَّقْفِ . وَكُلُّ مَا عَلَاكَ وَأَظَلَّكَ فَهُوَ سَمَاءٌ

البحث الحادي عشر

في القول عن الكناية

(عن كتاب صناعة الترسل والمثل السائر)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَللَّفْظَةُ إِذَا أُطْلِقَتْ وَكَانَ ٱلْغَرَضُ ٱلْأَصْلِيُّ غَيْرَ مَعْنَاهَا فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهَا مَقْصُودًا أَيْضًا لِيَكُونَ دَالًّا عَلَى ذٰلِكَ ٱلْغَرَضِ ٱلْأَصْلِيِّ . وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَذٰلِكَ . فَٱلْأَوَّلُ هُوَ ٱلْكِنَايَةُ وَيُقَالُ لَهُ : ٱلْإِرْدَافُ . وَٱلثَّانِي ٱلْمَجَازُ . فَٱلْكِنَايَةُ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي فَلَا يَذْكُرُهُ بِٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي ٱللُّغَةِ وَلٰكِنْ يَجِيءُ إِلَى مَعْنًى هُوَ تَالِيهِ وَرِدْفُهُ فِي ٱلْوُجُودِ

فَيُومِئُ بِهِ اِلَيهِ وَيَجْعَلُهُ دَلِيلًا عَلَيهِ

وَاعْلَمْ اَنَّ اَلْكِنَايَةَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ اَلسِّتْرِ . يُقَالُ : كَنَيْتُ اَلشَّيْءَ اِذَا سَتَرْتَهُ . وَاُجْرِيَ هٰذَا اَلْحُكْمُ فِي اَلْاَلْفَاظِ اَلَّتِي يُسْتَرُ فِيهَا اَلْمَجَازُ بِاَلْحَقِيقَةِ فَتَكُونُ دَالَّةً عَلَى اَلسَّاتِرِ وَعَلَى اَلْمَسْتُورِ مَعًا . وَذٰلِكَ اَنَّ اَلْمَسْتُورَ فِيهَا هُوَ اَلْمَجَازُ لِاَنَّ اَلْحَقِيقَةَ تُفْهَمُ اَوَّلًا وَيَتَسَارَعُ اَلْفَهْمُ اِلَيْهَا قَبْلَ اَلْمَجَازِ . لِاَنَّ دَلَالَةَ اَللَّفْظِ عَلَيْهَا دَلَالَةٌ وَضْعِيَّةٌ . وَاَمَّا اَلْمَجَازُ فَاِنَّهُ يُفْهَمُ مِنْهُ بَعْدَ فَهْمِ اَلْحَقِيقَةِ وَاِنَّمَا يُفْهَمُ بِاَلنَّظَرِ وَاَلْفِكْرَةِ وَبِهٰذَا يَحْتَاجُ اِلَى دَلِيلٍ لِاَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ اَللَّفْظِ . فَاَلْحَقِيقَةُ اَظْهَرُ وَاَلْمَجَازُ اَخْفَى وَهُوَ مَسْتُورٌ بِاَلْحَقِيقَةِ . وَقَدْ تَاَوَّلْتُ اَلْكِنَايَةَ بِغَيْرِ هٰذَا وَهِيَ اَنَّهَا مَاْخُوذَةٌ مِنَ اَلْكُنْيَةِ اَلَّتِي يُقَالُ فِيهَا : اَبُو فُلَانٍ . فَاِنَّا اِذَا نَادَيْنَا رَجُلًا اِسْمُهُ عَبْدُاللّٰهِ وَلَهُ وَلَدٌ اِسْمُهُ مُحَمَّدٌ فَقُلْنَا : يَا اَبَا مُحَمَّدٍ . كَانَ ذٰلِكَ مِثْلَ قَوْلِنَا : يَا عَبْدَاللّٰهِ . فَاِنْ شِئْنَا نَادَيْنَاهُ بِهٰذَا وَاِنْ شِئْنَا نَادَيْنَاهُ بِهٰذَا وَكِلَاهُمَا وَاقِعٌ عَلَيهِ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي اَلْحُكْمُ فِي اَلْكِنَايَةِ فَاِنَّا اِذَا شِئْنَا حَمَلْنَاهَا عَلَى جَانِبِ اَلْمَجَازِ . وَاِنْ شِئْنَا حَمَلْنَاهَا عَلَى اَلْحَقِيقَةِ . اِلَّا اَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ اَلْوَصْفِ اَلْجَامِعِ بَيْنَهُمَا لِئَلَّا يَلْحَقَ بِاَلْكِنَايَةِ مَا لَيْسَ مِنْهَا وَمِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : هُوَ طَوِيلُ اَلنِّجَادِ وَكَثِيرُ رَمَادِ اَلْقِدْرِ . يَعْنُونَ بِهِ اَنَّهُ طَوِيلُ اَلْقَامَةِ كَثِيرُ اَلْقِرَى فَلَمْ يَذْكُرِ اَلْمُرَادَ بِلَفْظِهِ اَلْخَاصِّ بِهِ وَلٰكِنْ تَوَصَّلُوا اِلَيهِ بِذِكْرِ مَعْنًى آخَرَ هُوَ رِدْفُهُ فِي اَلْوُجُودِ . اَلَا تَرَى اَنَّ اَلْقَامَةَ اِذَا طَالَتْ طَالَ اَلنِّجَادُ . وَاِذَا كَثُرَ اَلْقِرَى كَثُرَ رَمَادُ اَلْقِدْرِ . وَكَقَوْلِ اَلْحَضْرَمِيِّ :

قَدْ كَانَ يُعْجِبُ بَعْضَهُنَّ بَرَاعَتِي حَتَّى رَأَيْنَ تَنَحْنُحِي وَسُعَالِي

كَنَى عَنْ كِبَرِ السِّنِّ بِتَوَابِعِهِ وَهِيَ التَّنَحْنُحُ وَالسُّعَالُ. وَالْكِنَايَةُ تَكُونُ فِي الْمُثْبَتِ كَمَا ذَكَرْنَا وَقَدْ تَكُونُ فِي الْإِثْبَاتِ. وَهِيَ مَا إِذَا حَاوَلُوا إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ الْمَعَانِي لِشَيْءٍ فَيَتْرُكُونَ التَّصْرِيحَ بِإِثْبَاتِهِ لَهُ وَيُثْبِتُونَهُ لِمَا لَهُ بِهِ تَعَلُّقٌ كَقَوْلِهِمْ: الْمَجْدُ بَيْنَ ثَوْبَيْهِ وَالْكَرَمُ بَيْنَ بُرْدَيْهِ. وَقَوْلِهِ:

إِنَّ الْمُرُوءَةَ وَالسَّمَاحَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ يَزِيدَ بْنِ الْحَكَمِ يَمْدَحُ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ وَهُوَ فِي حَبْسِ الْحَجَّاجِ:

أَضْحَى فِي قَيْدِكَ السَّمَاحَةُ م وَالْمَجْدُ وَفَضْلُ الصَّلَاحِ وَالْحَسَبُ

وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ: مَكَانُ الْقَيْدِ هٰهُنَا هُوَ مَكَانُ الْقُبَّةِ فِي الْبَيْتِ الْمُتَقَدِّمِ. وَقَدْ يَجْتَمِعُ بِالْبَيْتِ الْوَاحِدِ كِنَايَاتَانِ: الْغَرَضُ مِنْهُمَا وَاحِدٌ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا أَصْلٌ بِنَفْسِهَا كَقَوْلِهِ:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي جَبَانُ الْكَلْبِ مَهْزُولُ الْفَصِيلِ

وَاعْلَمْ أَنَّ الْكِنَايَةَ جُزْءٌ مِنَ الْاِسْتِعَارَةِ وَلَا تَأْتِي إِلَّا عَلَى حُكْمِ الْاِسْتِعَارَةِ خَاصَّةً لِأَنَّ الْاِسْتِعَارَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ الْمُسْتَعَارِ لَهُ. وَكَذٰلِكَ الْكِنَايَةُ فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ الْمَكْنِيِّ عَنْهُ وَنِسْبَتُهَا إِلَى الْاِسْتِعَارَةِ نِسْبَةُ خَاصٍّ إِلَى عَامٍّ. فَيُقَالُ: كُلُّ كِنَايَةٍ اسْتِعَارَةٌ. وَلَيْسَ كُلُّ اسْتِعَارَةٍ كِنَايَةً. وَيُفْرَقُ بَيْنَهُمَا مِنْ وَجْهٍ آخَرَ وَهُوَ: أَنَّ الْاِسْتِعَارَةَ لَفْظُهَا صَرِيحٌ. وَالصَّرِيحُ

هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ وَٱلْكِنَايَةُ ضِدُّ ٱلصَّرِيحِ لِأَنَّهَا عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ . وَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ فُرُوقٍ اَحَدُهَا : ٱلْخُصُوصُ وَٱلْعُمُومُ . وَٱلْآخَرُ ٱلصَّرِيحُ . وَٱلْآخَرُ ٱلْحَمْلُ عَلَى جَانِبِ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ فِي بَابِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ اَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ ٱلْمَجَازِ . وَعَلَى ذٰلِكَ فَتَكُونُ نِسْبَةُ ٱلْكِنَايَةِ اِلَى ٱلْمَجَازِ نِسْبَةَ جُزْءِ ٱلْجُزْءِ وَخَاصِّ ٱلْخَاصِّ وَقَدْ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ مَا يَجُوزُ اَنْ يَكُونَ كِنَايَةً وَيَجُوزُ اَنْ يَكُونَ ٱسْتِعَارَةً . وَذٰلِكَ يَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ ٱلنَّظَرِ اِلَيْهِ فِي مُفْرَدِهِ وَٱلنَّظَرِ اِلَى مَا بَعْدَهُ كَقَوْلِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ فِي اَبْيَاتِهِ ٱلْمَشْهُورَةِ ٱلَّتِي يُحَرِّضُ بِهَا بَنِي اُمَيَّةَ عِنْدَ خُرُوجِ اَبِي مُسْلِمٍ :

اَرَى خَلَلَ ٱلرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ... وَيُوشِكُ اَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ

البحث الثاني عشر

في التعريض

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٣٧ من علم الادب)

قَدْ تَكَلَّمَ عُلَمَاءُ ٱلْبَيَانِ فِي ٱلتَّعْرِيضِ فَوَجَدْتُهُمْ قَدْ خَلَطُوا ٱلتَّعْرِيضَ بِٱلْكِنَايَةِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا وَلَا حَدُّوا كُلًّا مِنْهُمَا بِحَدٍّ يَفْصِلُهُ عَنْ صَاحِبِهِ . بَلْ اَوْرَدُوا لَهُمَا اَمْثِلَةً مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَاَدْخَلُوا اَحَدَهُمَا فِي ٱلْآخَرِ . فَذَكَرُوا لِلْكِنَايَةِ اَمْثِلَةً مِنَ ٱلتَّعْرِيضِ وَلِلتَّعْرِيضِ اَمْثِلَةً مِنَ ٱلْكِنَايَةِ . فَمِمَّنْ فَعَلَ ذٰلِكَ ٱلْغَانِمِيُّ وَٱبْنُ سِنَانٍ وَٱلْخَفَاجِيُّ وَٱلْعَسْكَرِيُّ . وَسَاَذْكُرُ مَا عِنْدِي فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا وَاُمَيِّزُ اَحَدَهُمَا

عَنِ ٱلْآخَرِ لِيُعْرَفَ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى ٱنْفِرَادِهِ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْكِنَايَةَ اِذَا وَرَدَتْ تَجَاذَبَهَا جَانِبَا حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ . وَجَازَ حَمْلُهَا عَلَى ٱلْجَانِبَيْنِ مَعًا فَيَصِحُّ بِكُلٍّ مِنْهُمَا ٱلْمَعْنَى وَلَا يَخْتَلُّ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ اَنَّ ٱلْكِنَايَةَ فِي اَصْلِ ٱلْوَضْعِ اَنْ تَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ وَتُرِيدَ غَيْرَهُ . يُقَالُ : كَنَيْتُ بِكَذَا عَنْ كَذَا . فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ وَعَلَى مَا اَرَدْتَهُ مِنْ غَيْرِهِ . وَاَمَّا ٱلتَّعْرِيضُ فَهُوَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى ٱلشَّيْءِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَفْهُومِ لَا بِٱلْوَضْعِ ٱلْحَقِيقِيِّ وَلَا ٱلْمَجَازِيِّ . فَاِنَّكَ اِذَا قُلْتَ لِمَنْ تَتَوَقَّعُ صِلَتَهُ وَمَعْرُوفَهُ بِغَيْرِ طَلَبٍ : اِنِّي لَمُحْتَاجٌ وَلَيْسَ فِي يَدِي شَيْءٌ وَاَنَا عُرْيَانٌ وَٱلْبَرْدُ قَدْ آذَانِي . فَاِنَّ هٰذَا وَاَشْبَاهَهُ تَعْرِيضٌ بِٱلطَّلَبِ وَلَيْسَ هٰذَا ٱللَّفْظُ مَوْضُوعًا فِي مُقَابَلَةِ ٱلطَّلَبِ لَا حَقِيقَةً بَلْ مَجَازًا . اِنَّمَا دُلَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَفْهُومِ بِخِلَافِ دَلَالَةِ ٱلْكِنَايَةِ فَاِنَّهَا لَفْظِيَّةٌ وَضْعِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَجَازِ . وَاِنَّمَا سُمِّيَ ٱلتَّعْرِيضُ تَعْرِيضًا لِاَنَّ ٱلْمَعْنَى فِيهِ يُفْهَمُ مِنْ عَرْضِهِ اَيْ مِنْ جَانِبِهِ . وَمِنْ لَطِيفِ ٱلتَّعْرِيضَاتِ ٱلْاَدَبِيَّةِ مَا يُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ : اَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ يَوْمَ جُمُعَةٍ فَدَخَلَ عُثْمَانُ ٱبْنُ عَفَّانَ . فَقَالَ عُمَرُ : اَيَّةُ سَاعَةٍ هٰذِهِ . يُرِيدُ ٱلتَّعْرِيضَ بِٱلْاِنْكَارِ عَلَيْهِ لِتَاَخُّرِهِ عَنِ ٱلْمَجِيءِ اِلَى ٱلصَّلَاةِ . وَهُوَ مِنَ ٱلتَّعْرِيضِ ٱلْمُعْرِبِ عَنِ ٱلْاَدَبِ . وَمِنْ اَمْثِلَتِهِ ٱلشِّعْرِيَّةِ قَوْلُ ٱلْحَجَّاجِ يُعَرِّضُ بِمَنْ نَقَدَّمَهُ مِنَ ٱلْاُمَرَاءِ :

لَسْتُ بِرَاعِي اِبِلٍ وَلَا غَنَمْ وَلَا بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ

البحث الثالث عشر

في ما ورد من الكنايات عن العرب

(عن كتاب الكناية للثعالبي وكتاب الصناعتين للعسكري)

اِعْلَمْ اَنَّ اَلْعَرَبَ يَلْتَجِئُونَ اِلَى اَلْكِنَايَةِ اِذَا مَا اَرَادُوا اَلتَّعْرِيضَ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ ذِكْرُهُ فَيَكْنُونَ عَنِ اَلْاَعْوَرِ بِاَلْمُمَتَّعِ . وَعَنِ اَلَّذِي فِي عَيْنَيْهِ نُكْتَةُ بَيَاضٍ بِاَلْمُكَوْكَبِ . وَعَمَّنْ فِي وَجْهِهِ اَثَرُ ضَرْبَةٍ بِاَلْمُشَطَّبِ . وَلِبَعْضِهِمْ فِي اَبْرَصَ :

اَخُو لَخْمٍ اَعَارَكَ مِنْهُ ثَوْبًا هَنِيئًا بِاَلْقَمِيصِ اَلْمُسْتَجَدِّ

اَرَادَ بِاَخِي لَخْمٍ جَذِيمَةَ اَلْاَبْرَصَ . وَلِلصَّاحِبِ فِي اَلْجَرَبِ :

اَبَا اَلْعَلَاءِ هِلَالُ اَلْهَزْلِ وَاَلْجِدِّ كَيْفَ اَلنُّجُومُ اَلَّتِي يَطْلُعْنَ فِي اَلْجِلْدِ

وَيُكَنَّى عَنِ اَلْحَوَلِ بِاَلتَّاَخُّرِ . قَالَ اَلدُّوَلِيُّ :

بِيضُ اَلْمَطَابِخِ لَا تَشْكُو اِمَاؤُهُمُ طَبْخَ اَلْقُدُورِ وَلَا غَسْلَ اَلْمَنَادِيلِ

قَالَ آخَرُ :

ثِيَابُ طَبَّاخٍ اِذَا اُتَّسَخَتْ اَنْقَى بَيَاضًا مِنَ اَلْقَرَاطِيسِ

وَقَالَ اَبُو بَكْرٍ اَلْخُوَارَزْمِيُّ :

فَتًى مُخْتَصِرُ اَلْمَأْكُو لِ وَاَلْمَشْرُوبِ وَاَلْعِطْرِ

نَقِيُّ اَلْكَأْسِ وَاَلْقَصْعَةِ مِ وَاَلْمِنْدِيلِ وَاَلْقِدْرِ

وَيَكْنُونَ عَنِ اَلْجَاهِلِ بِاَنَّهُ مِنَ اَلْمُسْتَرِيحِينَ . وَيُرْوَى اَنَّ خِلَافًا وَقَعَ بَيْنَ بَعْضِ اَلْخُلَفَاءِ وَبَيْنَ نَدِيمٍ لَهُ فِي مَسْاَلَةٍ . فَاتَّفَقَا عَلَى رَأْيِ بَعْضِ اَهْلِ اَلْعِلْمِ فَاُحْضِرَ . فَوَجَدَ اَلْخَلِيفَةَ مُخْطِئًا فَقَالَ : اَلْقَائِلُونَ

بِقَوْلِ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ اَكْثَرُ (يُرِيدُ ٱلْجُهَّالَ) . وَاِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ اَحْمَقَ قِيلَ : نَعْتُهُ لَا يَنْصَرِفُ . وَكَانَ قَابُوسُ بْنُ وَشْمَكِيرَ اِذَا وَصَفَ رَجُلًا بِٱلْبَلَهِ قَالَ : هُوَ مِنْ اَهْلِ ٱلْجَنَّةِ . وَيَقُولُونَ : فُلَانٌ خَفِيفٌ عَلَى ٱلْقَلْبِ يُرِيدُونَ مَقْلُوبًا وَهُوَ ٱلثَّقِيلُ . وَكَانَ ٱلنَّاصِرُ ٱلْعَلَوِيُّ ٱلْاَطْرُوشُ اِذَا خَاطَبَهُ اَحَدٌ فَلَمْ يَسْمَعْ قَالَ لَهُ : اِرْفَعْ صَوْتَكَ فَاِنَّ بِاُذُنِي بَعْضَ مَا بِرُوحِكَ . وَنَظَرَ ٱلْبَدِيعُ ٱلْهَمَذَانِيُّ اِلَى رَجُلٍ طَوِيلٍ بَارِدٍ فَقَالَ : قَدْ اَقْبَلَ لَيْلُ ٱلشِّتَاءِ . وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ وَقَدِ ٱقْشَعَرَّ . فَقَالَ : مَا تَجِدُ فَدَيْتُكَ . قَالَ : اَجِدُكَ (يَعْنِي ٱلْبَرْدَ) . وَاِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ كَذُوبًا قِيلَ : ٱلْفَاخِتَةُ عِنْدَهُ اَبُو ذَرٍّ (يُضْرَبُ ٱلْمَثَلُ بِٱلْفَاخِتَةِ فِي ٱلْكَذِبِ وَبِاَبِي ذَرٍّ فِي ٱلصِّدْقِ) . وَيَقُولُونَ اَيْضًا : فُلَانٌ يَلْطِمُ عَيْنَ مِيزَانٍ . (وَمِيزَانٌ رَجُلٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْكَذِبِ) . وَاِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ لَوْلَا قِيلَ : هُوَ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ مُوسَى . وَاِذَا كَانَ مُلْحِدًا قِيلَ : قَدْ عَبَرَ (يُرِيدُونَ جِسْرَ ٱلْاِيمَانِ) . قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : هَلْ عَبَرْتَ . قَالَ : فِي ذٰلِكَ ٱلْجَانِبِ وُلِدْتُ . وَاِنْ كَانَ يُسِيءُ ٱلْاَدَبَ فِي ٱلْمُؤَاكَلَةِ قِيلَ : تُسَافِرُ يَدُهُ عَلَى ٱلْخِوَانِ وَيَرْعَى اَرْضَ ٱلْجِيرَانِ . فَاِنْ كَانَ خَفِيفَ ٱلْيَدِ فِي ٱلطَّرِّ وَٱلسَّرِقَةِ . قَالُوا : هُوَ اَحَدُّ يَدِ ٱلْقَمِيصِ (وَيَدُ ٱلْقَمِيصِ ٱلْكُمُّ وَٱلسَّارِقُ يُقَصِّرُهُ لِيَكُونَ اَقْدَرَ عَلَى مَا يُرِيدُ مِنْ سَرِقَةٍ) . فَاِذَا كَانَ قَمِلَ ٱلثَّوْبِ قِيلَ : فُلَانٌ يَعْرِضُ ٱلصَّيْدَ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ :

وُحُوشُهُ تَرْتَعُ فِي جَنْبِهِ ... وَظُفْرُهُ يَرْكَبُ لِلصَّيْدِ

وَاِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ يَتَشَاعَرُ وَلَيْسَ يُجِيدُ قَالُوا: هُوَ نَبِيٌّ فِي ٱلشِّعْرِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ:

يَا نَبِيَّ ٱللهِ فِي ٱلشِّعْرِ م وَيَا مَنْ فِيهِ يُكْرَمْ
اَنْتَ مِنْ اَشْعَرِ خَلْقِ ٱللهِ م مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ

وَيُقَالُ: فُلَانٌ رَابِعُ ٱلشُّعَرَاءِ. اِذَا كَانَ مُتَخَلِّفًا مُنْحَطَّ ٱلطَّبَقَةِ لِقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

اَلشُّعَرَاءُ فَاعْلَمَنَّ اَرْبَعَهْ فَشَاعِرٌ يَجْرِي وَلَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ اَنْ تَسْمَعَهْ
وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ اَنْ تَصْفَعَهْ

وَسُئِلَ حَائِكٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ فَقَالَ: كُسْوَةُ ٱلْاَحْيَاءِ وَجِهَازُ ٱلْمَوْتَى.

وَيَكْنُونَ عَنِ ٱلْقَرَوِيِّ بِاَخْضَرِ ٱلْاَسْنَانِ مِنْ كَثْرَةِ اَكْلِ ٱلْبَقْلِ.

وَسُئِلَ حَجَّامٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ. فَقَالَ: اَكْتُبُ بِٱلْحَدِيدِ وَاَخْتِمُ بِٱلزُّجَاجِ.

وَفِيهِ قِيلَ:

يَا ٱبْنَ ٱلَّذِي عَاشَ غَيْرَ مُضْطَهَدٍ بِرَحْمَةِ ٱللهِ اَيُّمَا رَجُلِ
اَبُوكَ اَوْهَى ٱلنِّجَادُ عَاتِقَهُ كَمْ مِنْ كَمِيٍّ ادْمَى وَكَمْ بَطَلِ
لَهُ رِقَابُ ٱلْمُلُوكِ خَاضِعَةٌ مِنْ بَيْنِ حَافٍ وَبَيْنِ مُنْتَعِلِ
يَأْخُذُ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ دَمِهِ لَمْ يُمْسِ مِنْ ثَائِرٍ عَلَى وَجَلِ (١)

وَيُقَالُ عَمَّنْ يُكْثِرُ ٱلْاَسْفَارَ: فُلَانٌ لَا يَضَعُ ٱلْعَصَا عَنْ عَاتِقِهِ.

وَجَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ: اَيُحِبُّ اَحَدُكُمْ اَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ اَخِيهِ. فَاِنَّهُ

(١) راجع الجزء الثالث من مجاني الادب صفحة ١٥١

كَنَى عَنِ ٱلْغِيبَةِ بِأَكْلِ ٱلْإِنْسَانِ لَحْمَ ٱلْإِنْسَانِ . وَهٰذَا شَدِيدُ ٱلْمُنَاسَبَةِ لِأَنَّ ٱلْغِيبَةَ إِنَّمَا هِيَ ذِكْرُ مَثَالِبِ ٱلنَّاسِ وَتَمْزِيقُ أَعْرَاضِهِمْ وَتَمْزِيقُ ٱلْعِرْضِ مُمَاثِلٌ لِأَكْلِ ٱلْإِنْسَانِ لَحْمَ مَنْ يَغْتَابُهُ . وَمِنْ أَمْثَالِ ٱلْعَرَبِ قَوْلُهُمْ : لَبِسَ لِفُلَانٍ جِلْدَ ٱلنَّمِرِ وَجِلْدَ ٱلْأَرْقَمِ . كِنَايَةً عَنِ ٱلْعَدَاوَةِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : قَلَبَ لَهُ ظَهْرَ ٱلْمِجَنِّ كِنَايَةً عَنْ تَغْيِيرِ ٱلْمَوَدَّةِ . وَمِنْ ظَرِيفِ ٱلْكِنَايَاتِ مَا جَاءَ عَنِ ٱلْجَمَّازِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : أَيُّ ٱلْبُقُولِ أَحَبُّ إِلَيْكَ . فَقَالَ : بَقْلَةُ ٱلذِّئْبِ (يَعْنِي ٱللَّحْمَ) . وَرَأَى رَجُلٌ مَنْ أَضَافُوهُ يُطِيلُونَ ٱلْغِنَاءَ وَلَا يَأْتُونَ بِٱلْأَكْلِ فَقَالَ :

خَلِيلَيَّ دَاوَيْتُمَا ظَاهِرًا ... فَمَنْ ذَا يُدَاوِي جَوًى بَاطِنَا

فَعَلِمُوا أَنَّهُ جَائِعٌ . وَأُخْبِرَ عَنِ ٱلْجَاحِظِ أَنَّهُ أَكَلَ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ فَالُوذَجَةً فَأَمَرَ ٱبْنُ ٱلزَّيَّاتِ أَنْ يُجْعَلَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْجَاحِظِ مَا رَقَّ مِنَ ٱلْجَامِ . فَأَسْرَعَ فِي ٱلْأَكْلِ حَتَّى نَظَّفَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ : يَا أَبَا عُثْمَانَ قَدْ تَقَشَّعَتْ سَمَاؤُكَ . فَقَالَ : أَصْلَحَكَ ٱللهُ لِأَنَّ غَيْمَهَا كَانَ رَقِيقًا . وَكَذٰلِكَ يُقِيمُونَ وَصْفَ ٱلشَّيْءِ مَقَامَ ٱسْمِهِ كَمَا قَالَ : حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . يَعْنِي ٱلسَّفِينَةَ فَوَضَعَ صِفَتَهَا مَوْضِعَ تَسْمِيَتِهَا . وَقَالَ : إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ . يَعْنِي ٱلْخَيْلَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ :

سَأَلَتْ قُتَيْبَةُ عَنْ أَبِيهَا صَحْبَهُ ... فِي ٱلرَّوْحِ هَلْ رَكِبَ ٱلْأَغَرَّ ٱلْأَشْقَرَا

يَعْنِي هَلْ قُتِلَ . وَٱلْأَغَرُّ ٱلْأَشْقَرُ وَصْفُ ٱلدَّمِ فَأَقَامَهُ مَقَامَ ٱسْمِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُحْدَثِينَ :

شِمْتُ بَرْقَ ٱلْوَزِيرِ فَٱنْهَلَّ حَتَّى ... لَمْ اَجِدْ مَهْرَبًا اِلَى ٱلْاَقْدَامِ
فَكَاَنِّي وَقَدْ تَقَاصَرَ بَاعِي ... خَابِطٌ فِي عُبَابِ اَخْضَرَ طَامِي

يَعْنِي ٱلْبَحْرَ. وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ لِٱبْنِ ٱلْقَبَعْثَرِيِّ: لَاَحْمِلَنَّكَ عَلَى ٱلْاَدْهَمِ. يَعْنِي ٱلْقَتْلَ. فَتَجَاهَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ: مِثْلُ ٱلْاَمِيرِ يَحْمِلُ عَلَى ٱلْاَدْهَمِ وَٱلْاَشْهَبِ. يُرِيدُ ٱلْخَيْلَ. وَمِنْ ذٰلِكَ: اَنَّ ٱلْمَنْصُورَ كَانَ فِي بُسْتَانٍ لَهُ وَهُوَ فِي اَيَّامِ مُحَارَبَتِهِ اِبْرَاهِيمَ بْنَ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ ٱلْحَسَنِ وَنَظَرَ اِلَى شَجَرَةِ خِلَافٍ فَقَالَ لِلرَّبِيعِ: مَا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ. فَقَالَ: طَاعَةٌ يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. فَتَفَاَّلَ ٱلْمَنْصُورُ بِهِ وَعَجِبَ مِنْ ذَكَائِهِ. وَمِثْلُ ذٰلِكَ: اَنَّ رَجُلًا مَرَّ فِي صَحْنِ دَارِ ٱلرَّشِيدِ وَمَعَهُ حُزْمَةُ خَيْزُرَانٍ. فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ لِلْفَضْلِ بْنِ ٱلرَّبِيعِ: مَا ذَاكَ. فَقَالَ: عُرُوقُ ٱلرِّمَاحِ يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. وَكَرِهَ اَنْ يَقُولَ ٱلْخَيْزُرَانَ لِمُوَافَقَتِهِ ٱسْمَ وَالِدَةِ ٱلرَّشِيدِ. وَمِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ اَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ نَقِيُّ ٱلثَّوْبِ. يُرِيدُونَ بِهِ اَنَّهُ لَاعَيْبَ فِيهِ وَلَيْسَ بِمَوْضُوعٍ نَقَاءُ ٱلثَّوْبِ ٱلْبَرَاءُ مِنَ ٱلْعَيْبِ وَاِنَّمَا ٱسْتُعْمِلَ فِيهِ تَمْثِيلًا. وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ:

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ ... وَاَوْجُهُهُمْ عِنْدَ ٱلْمَشَاهِدِ غَرَّاتُ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ طَاهِرُ ٱلثَّوْبِ. يُرِيدُونَ اَنَّهُ لَيْسَ بِخَائِنٍ وَلَا غَادِرٍ. وَفُلَانٌ دَنِسُ ٱلثَّوْبِ اِذَا كَانَ غَادِرًا فَاجِرًا. وَقَوْلُهُمْ: طَيِّبُ ٱلْحُجْزَةِ اَيْ عَفِيفٌ. قَالَ ٱلنَّابِغَةُ يَمْدَحُ بَنِي غَسَّانَ ٱلنَّصَارَى:

رِقَاقُ ٱلنِّعَالِ طَيِّبٌ حُجْزَاتُهُمْ ... يَحْيَوْنَ بِٱلرَّيْحَانِ يَوْمَ ٱلسَّبَاسِبِ

وَقَالَ ٱلْاَصْمَعِيُّ: اِذَا قَالَتِ ٱلْعَرَبُ: ٱلثَّوْبَ وَٱلْاِزَارَ. فَاِنَّهُمْ

يُريدُونَ ٱلْبَدَنَ . ويَقولُونَ : فُلانٌ اَوْسَعُ بَنِي اُمَيَّةَ ثَوْبًا . اَيْ اَكْثَرُهُمْ مَعْرُوفًا . وفُلانٌ غَمْرُ ٱلرِّداءِ اِذا كانَ كَثيرَ ٱلْمَعْرُوفِ . قالَ كُثَيِّرٌ :

غَمْرُ ٱلرِّداءِ اِذا تَبَسَّمَ ضاحِكًا غُلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقابُ ٱلْمالِ

وكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : فُلانٌ رَحْبُ ٱلذِّراعِ . ومِنَ ٱلْكِنايَاتِ ٱللَّطيفَةِ مَا ذَكَرَهَا ٱلْأُدَباءُ فِي ٱلشَّيْبِ وَٱلْكِبَرِ . فَيَقُولُونَ : عَرَضَتْ لِفُلانٍ فَتْرَةٌ . عَرَضَ لَهُ مَا يَمْحُو ذُنُوبَهُ وَيُكَفِّرُ سَيِّئَاتِهِ . اَقَرَّ لَيْلُهُ نَوَّرَ غُصْنُ شَبابِهِ . فَضَّ ٱلزَّمانُ اَبْنُوسَهُ . وَجاءَهُ ٱلنَّذِيرُ . وَقَرَعَ نَاجِذَ ٱلْحِلْمِ . وَٱرْتَاضَ بِلِجامِ ٱلدَّهْرِ . اَدْرَكَ زَمانَ ٱلْحُنْكَةِ . رَفَضَ غِرَّةَ ٱلصِّبَى وَلَبَّى دَاعِيَ ٱلْحِجَى . وَمِنْ كِنَايَاتِهِمْ عَنِ ٱلْمَوْتِ : اَسْتَأْثَرَ ٱللّٰهُ بِهِ . اَسْعَدَهُ ٱللّٰهُ بِجِوارِهِ . نَقَلَهُ اِلَى دارِ رِضْوانِهِ . وَمَحَلِّ غُفْرانِهِ . اِنْتَقَلَ اِلَى جِوارِ رَبِّهِ وَٱنْقَلَبَ اِلَى مَحَلِّ عَفْوِهِ . اِخْتَارَ لَهُ ٱلنُّقْلَةَ مِنْ دارِ ٱلْبَوارِ اِلَى دارِ ٱلْاَبْرارِ

البحث الرابع عشر

في المبالغة

(عن بديعية الحموي وكتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الادب)

ٱلْمُبالَغَةُ نَوْعٌ مَعْدُودٌ مِنْ مَحاسِنِ فَنِّ ٱلْكِتابَةِ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ وَٱسْتَدَلُّوا عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِ مَنْ قالَ : اَحْسَنُ ٱلشِّعْرِ اَكْذَبُهُ . وَبِقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيانِيِّ : اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ مَنِ ٱسْتُجِيدَ كَذِبُهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَعُدَّ

ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمَشَى فِي ذٰلِكَ عَلَى مَذْهَبِ حَسَّانِ ٱبْنِ ثَابِتٍ فَإِنَّهُ قَالَ :

وَإِنَّمَا ٱلشِّعْرُ عَقْلُ ٱلْمَرْءِ يَعْرِضُهُ عَلَى ٱلْأَنَامِ فَإِنْ كَيْسًا وَإِنْ حُمُقَا
وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

وَعِنْدَ أَهْلِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ أَنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ لَمْ تُسْفِرْ عَنْ غَيْرِ ٱلتَّهْوِيلِ عَلَى ٱلسَّامِعِ وَلَمْ يَفِرَّ ٱلنَّاظِمُ إِلَى ٱلتَّخْيِيمِ عَلَيْهَا إِلَّا بِعَجْزِهِ وَقُصُورِ هِمَّتِهِ عَنِ ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُبْتَكَرَةِ . لِأَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ كَٱلِٱسْتِرَاحَةِ مِنَ ٱلشَّاعِرِ إِذَا أَعْيَاهُ إِيرَادُ ٱلْمَعَانِي ٱلْغَرِيبَةِ فَيَشْغَلُ ٱلْأَسْمَاعَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ وَتَهْوِيلٌ . وَقَالُوا : رُبَّمَا إِنَّهَا أَحَالَتِ ٱلْمَعَانِيَ فَأَخْرَجَتْهَا عَنْ حَدِّ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُمْكِنِ إِلَى حَدِّ ٱلِٱمْتِنَاعِ . وَٱلْمُبَالَغَةُ تُعَابُ فِي بَابِهَا إِذَا خَرَجَتْ عَنْ حَدِّ ٱلْإِمْكَانِ إِلَى ٱلِٱسْتِحَالَةِ وَأَتَى ٱلْكَلَامُ عَلَى حَدِّهَا فِي مَوْضِعِهِ .

وَٱلَّذِي أَقُولُهُ : إِنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ مَحَاسِنِ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ وَلَمْ يَسْتَطْرِدْ فِي حَلَبَاتِ سَبْقِهَا إِلَّا فُحُولُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَلَوْ سَلَّمْنَا إِلَى مَنْ يَهْضِمُ جَانِبَهَا وَلَمْ يَعُدَّهَا مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ بَطَلَتْ بَلَاغَةُ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَٱنْحَطَّتْ رُتْبَةُ ٱلتَّشْبِيهِ . وَتَسْمِيَةُ ٱلْمُبَالَغَةِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى قُدَامَةَ . وَمِنْهُمْ مَنْ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ ٱلتَّبْلِيغَ . وَسَمَّاهُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْإِفْرَاطَ فِي ٱلصِّفَةِ . وَهٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةُ طَابَقَتِ ٱلْمُسَمَّى . وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ رَغِبُوا فِي تَسْمِيَةِ قُدَامَةَ لِخِفَّتِهَا . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ أَعْنِي ٱلْمُبَالَغَةَ شَرَكَهُ قَوْمٌ مَعَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لِعَدَمِ مَعْرِفَةِ ٱلْفَرْقِ وَهُوَ مِثْلُ ٱلصُّبْحِ ظَاهِرٌ . (وَٱلْمُبَالَغَةُ) فِي ٱلِٱصْطِلَاحِ هِيَ إِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ

عادةً . (وَٱلْاِغْرَاقُ) وَصْفُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً . (وَٱلْغُلُوُّ) وَصْفُهُ بِمَا يَسْتَحِيلُ وُقُوعُهُ. وَيَأْتِي ٱلْكَلَامُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلثَّلَاثَةِ فِي مَوْضِعِهِ . وَقَدْ تَقَرَّرَ اَوَّلًا اَنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ نَوْعُهَا مَبْنِيٌّ عَلَى وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ . وَحَدَّ قُدَامَةُ ٱلْمُبَالَغَةَ فَقَالَ : هِيَ اَنْ يَذْكُرَ ٱلْمُتَكَلِّمُ حَالًا مِنَ ٱلْاَحْوَالِ لَوْ وُقِفَ عِنْدَهَا لَاَجْزَاَتْ فَلَا يَقِفُ حَتَّى يَزِيدَ فِي مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ مَا يَكُونُ اَبْلَغَ مِنْ مَعْنًى قَصَدَهُ كَقَوْلِ عُمَيْرِ بْنِ كَرِيمٍ ٱلثَّعْلَبِيِّ :

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا ... وَنُتْبِعُهُ ٱلْكَرَامَةَ حَيْثُ مَالَا

وَقَالَ : اِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ مِنْ اَحْسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ . فَاِنَّ ٱلشَّاعِرَ بَلَغَ فِيهِ اِلَى اَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ وَتَوَصَّلَ اِلَى اَكْثَرِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَتَعَطَّاهُ . وَخَصَّ بَعْضُهُمْ عِبَارَةَ ٱلْحَدِّ ٱلَّذِي حَدَّهُ قُدَامَةُ وَقَالَ : ٱلْمَعْنَى اِذَا زَادَ عَلَى ٱلتَّمَامِ سُمِّيَ مُبَالَغَةً . وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : ٱلْمُبَالَغَةُ بُلُوغُ ٱلشَّاعِرِ اَقْصَى مَا يُمْكِنُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ . قُلْتُ عَلَى هٰذَا ٱلتَّقْرِيرِ : فَجُلُّ ٱلْقَصْدِ فِي ٱلْمُبَالَغَةِ ٱلْاِمْكَانُ وَٱلْخُرُوجُ مِنَ ٱلْمُسْتَحِيلِ . وَٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ فِيهَا اَنَّهَا ضَرْبٌ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ اِذَا بَعُدَتْ عَنِ ٱلْاِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ . وَاِنْ كَانَ ٱلْاِغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ ضَرْبَيْنِ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ وَنَوْعَيْنِ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ . فَقَدْ شَرَطَ عُلَمَاؤُهُ اَنَّ ٱلنَّوْعَ لَا يَتَجَاوَزُ حَدَّهُ بِحَيْثُ يَزُولُ ٱلْاِلْتِبَاسُ وَيُعْجِبُنِي مِنْ اَمْثِلَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ :

اَضَاءَتْ لَهُمْ اَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ ... دُجَى ٱللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجِزْعَ ثَاقِبُهْ

فَٱلْمَعْنَى تَمَّ لِلنَّاظِمِ لَمَّا ٱنْتَهَى فِي بَيْتِهِ اِلَى قَوْلِهِ : دُجَى ٱللَّيْلِ وَلٰكِنْ زَادَ بِمَا هُوَ اَبْلَغُ وَاَبْدَعُ وَاَغْرَبُ فِي قَوْلِهِ : حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجُزْءَ ثَاقِبُهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ جَوَادٍ :

وَاَصْرَعُ اَيَّ ٱلْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ وَاَتْرُكُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ اَرْكَبُ

قَالَ ذَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ اَبِي ٱلْاِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ : اَبْلَغُ شِعْرٍ سَمِعْتُهُ فِي بَابِ ٱلْمُبَالَغَةِ قَوْلُ شَاعِرِ ٱلْحَمَاسَةِ اِذْ بَالَغَ فِي مَدْحِ مَمْدُوحِهِ بِقَوْلِهِ :

رَهَنْتُ يَدِي بِٱلْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ ٱسْتَطَعْتُهُ وَلٰكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

فَٱنْظُرْ مَا اَحْلَى ٱحْتِرَاسَهُ عَنْ ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ . وَٱنْظُرْ كَيْفَ اَظْهَرَ عُذْرَهُ فِي عَجْزِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ بِاَنْ قَالَ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي : وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ ٱسْتَطَعْتُهُ . ثُمَّ اَخْرَجَ بَقِيَّةَ ٱلْبَيْتِ لِلْمُبَالَغَةِ مُخْرَجَ ٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ حَيْثُ قَالَ : وَلٰكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ . وَمِنْ هُنَا قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ اِلَيَّ عَارِفَةً حَتَّى اَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَمِنْ حَسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ قَوْلُ ٱلْحَكَمِ ٱلْحَضْرَمِيِّ :

وَاَقْبَحُ مِنْ قِرْدٍ وَاَنْجَلُ بِٱلْقِرَى
مِنَ ٱلْكَلْبِ اَمْسَى وَهْوَ غَرْثَانُ اَعْجَفُ

فَٱلْكَلْبُ بَخِيلٌ عَلَى مَا ظَفِرَ بِهِ وَهُوَ اَشَدُّ بُخْلًا اِذَا كَانَ جَائِعًا اَعْجَفَ اَمَّا (ٱلْاِغْرَاقُ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَلٰكِنَّهُ دُونَ ٱلْغُلُوِّ . وَهُوَ

فِي ٱلِاصْطِلَاحِ اِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً وَقَلَّ مَنْ فَرَقَ بَيْنَهُمَا . وَغَالِبُ ٱلنَّاسِ عِنْدَهُمُ ٱلْمُبَالَغَةُ وَٱلْاِغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ نَوْعٌ وَاحِدٌ مَعَ اَنَّهَا تَخْتَلِفُ كَمَا سَبَقَ . وَكُلٌّ مِنَ ٱلْاِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لَا يُعَدُّ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ اِلَّا اِذَا ٱقْتَرَنَ بِمَا يُقَرِّبُهُ اِلَى ٱلْقَبُولِ (كَقَدْ) لِلِاحْتِمَالِ . (وَلَوْلَا) لِلِامْتِنَاعِ . (وَكَادَ) لِلْمُقَارَبَةِ . وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ مِنَ اَنْوَاعِ ٱلتَّقْرِيبِ . وَمَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنَ ٱلْاِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلصَّحِيحِ اِلَّا مَقْرُونًا بِمَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَابِ ٱلْاِسْتِحَالَةِ وَيُدْخِلُهُ فِي بَابِ ٱلْاِمْكَانِ مِثْلُ : (كَادَ وَلَوْ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا كَقَوْلِهِ :

يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يُذْهِبُ ٱلْاَبْصَارَ . اِذْ لَا يَسْتَحِيلُ فِي ٱلْعَقْلِ اَنَّ ٱلْبَرْقَ يَخْطَفُ ٱلْاَبْصَارَ وَلٰكِنَّهُ يَمْتَنِعُ عَادَةً . وَمَا زَادَ عَلَى وَجْهِ ٱلْاِغْرَاقِ هُنَا جَمَالًا اِلَّا بِتَقْرِيبِهِ (بِكَادَ) . وَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ بِهَا هُوَ ٱلَّذِي صَرَفَهُ اِلَى ٱلْحَقِيقَةِ فَقُلِبَتْ مِنَ ٱلِامْتِنَاعِ اِلَى ٱلْاِمْكَانِ . وَمِنْ شَوَاهِدِ تَقْرِيبِ نَوْعِ ٱلْاِغْرَاقِ (بِلَوْ) قَوْلُ زُهَيْرٍ :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِاَوَّلِهِمْ اَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

فَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ اَيْضًا بِٱمْتِنَاعِ قُعُودِ ٱلْقَوْمِ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُسْتَفَادِ (بِلَوْ) هُوَ ٱلَّذِي اَظْهَرَ بَهْجَةَ شَمْسِهَا فِي بَابِ ٱلْاِغْرَاقِ وَرُبَّمَا جَاءَ دُونَ ذٰلِكَ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي رَجُلٍ طَوِيلِ ٱلْاَنْفِ :

لَكَ اَنْفٌ يَا اِبْنَ حَرْبٍ اَنِفَتْ مِنْهُ ٱلْاُنُوفُ
اَنْتَ فِي ٱلْبَيْتِ وَعِرْنِينُكَ فِي ٱلسُّوقِ يَطُوفُ

وكقول الطرماح يهجو تميماً :

تميمٌ بطرق اللؤم اهدى من القطا ... ولو سلكت سبل المكارم ضلت

ولو ان برغوثاً على ظهر نملة ... يكر على صفي تميم لولت

ولو ان ام العنكبوت بنت لها ... مظلتها يوم الندى لاستظلت

ولو جمعت يوماً تميم حموعها ... على ذروة منحالة لاستقلت

اما (الغلو) فهو فوق المبالغة والاغراق فانه الافراط في وصف الشيء بالمستحيل وقوعه عقلاً وعادة وهو ينقسم الى قسمين : مقبول وغير مقبول . فالمقبول لا بد ان يقربه الناظم الى القبول باداة التقريب اللهم الا ان يكون الغلو في مديح نبي فلا غلو . ويجب على صاحب الغلو ان يسبكه في قوالب التخيلات المحسنة التي يدعو العقل الى قبولها في اول وهلة كقوله : يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . فان اضاءة الزيت من غير مس نار مستحيلة عقلاً ولكن لفظة (يكاد) قربته فصار مقبولاً . ومنه قول ابي العلاء المعري :

تكاد قسيه من غير رام ... تمكن في قلوبهم النبالا

تكاد سيوفه من غير سل ... تجد الى رقابهم انسلالا

ويعجبني هنا قول ابن حمديس الصقلي في وصف فرس :

ويكاد يخرج سرعة من ظله ... لو كان يرغب في فراق رفيق

ومنه قول الفرزدق في علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب :

يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم

وَمِنَ ٱلْغُلُوِّ ٱلْمَقْبُولِ بِغَيْرِ اَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي مَمْدُوحِهِ :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهِ عِثْيَرًا لَوْ تَبْتَغِي عَنَقًا عَلَيْهِ لَاَمْكَنَا *

وَٱنْعِقَادُ ٱلْغُبَارِ فِي ٱلْهَوَاءِ حَتَّى يُمْكِنَ ٱلْمَشْيُ عَلَيْهِ مُسْتَحِيلٌ عَقْلًا وَعَادَةً اِلَّا اِنَّهُ تَخَيُّلٌ مَقْبُولٌ

وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ فِي ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْمُتَوَكِّلِ :

وَلَوَ اَنَّ مُشْتَاقًا تَكَلَّفَ غَيْرَ مَا فِي وُسْعِهِ لَسَعَى اِلَيْكَ ٱلْمِنْبَرُ

وَاَمَّا ٱلَّذِي هُوَ غَيْرُ مَقْبُولٍ فَكَقَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ فِي ٱلْخَمْرَةِ :

فَلَمَّا شَرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَبِيبُهَا اِلَى مَوْضِعِ ٱلْاَسْرَارِ قُلْتُ لَهَا قِفِي

مَخَافَةَ اَنْ يَسْطُو عَلَيَّ شُعَاعُهَا فَيَطْلَعَ نَدْمَانِي عَلَى سِرِّيَ ٱلْخَفِي

قَالُوا : اِنَّ سَطْوَةَ شُعَاعِ ٱلْخَمْرِ بِحَيْثُ يَصِيرُ جِسْمُهُ شَفَّافًا يُظْهِرُ لِنَدِيمِهِ مَا فِي بَاطِنِهِ لَا يُمْكِنُ عَقْلًا وَلَا عَادَةً . قُلْتُ : وَمَرَاتِبُ ٱلْغُلُوِّ تَتَفَاوَتُ اِلَى اَنْ تَؤُولَ بِقَائِلِهَا اِلَى ٱلْكُفْرِ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

تَتَقَاصَرُ ٱلْاَفْهَامُ عَنْ اِدْرَاكِهِ مِثْلَ ٱلَّذِي ٱلْاَفْلَاكُ فِيهِ وَٱلدُّنَى

وَكَقَوْلِهِ :

كَاَنِّي دَحَوْتُ ٱلْاَرْضَ مِنْ خِبْرَتِي بِهَا كَاَنِّي بَنَى ٱلْاِسْكَنْدَرُ ٱلسَّدَّ مِنْ عَزْمِي

فَهٰذَا ٱلْغُلُوُّ يُؤَدِّي اِلَى سَخَافَةِ ٱلْعَقْلِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ قُبْحِ ٱلتَّرْكِيبِ وَلَوْلَا ٱلْاِطَالَةُ لَاَوْرَدْتُ كَثِيرًا مِنْ نَظْمِ ٱلَّذِينَ يَتَسَاهَلُونَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ كَاَبِي

* معنى هذا البيت ان سنابك الخيل وهي اطراف الحوافر عقدت على هذا الممدوح عثيرًا وهو الغبار حتى لو اراد ان يمشي عليهِ عنقًا لامكن . والعنق هو المشي السريع

نُوَاسٍ وَٱبْنِ هَانِئٍ ٱلْاَنْدَلُسِيِّ وَٱلْمُتَنَبِّي وَاَبِي ٱلْعَلَاءِ ٱلْمَعَرِّيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُتَاَخِّرِينَ كَٱبْنِ ٱلنَّبِيهِ وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُ . وَفِي مَا قَدَّمْنَا كِفَايَةٌ

البحث الخامس عشر

في التكرير

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٤٢ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنْ مَقَاتِلِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وَهُوَ دَقِيقُ ٱلْمَأْخَذِ وَحَدُّهُ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدًا . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : اَحَدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى وَٱلْآخَرُ يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ . فَاَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فَكَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَدْعِيهِ : اَسْرِعْ اَسْرِعْ . وَاَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فَكَقَوْلِكَ : اَطِعْنِي وَلَا تَعْصِنِي . فَاِنَّ ٱلْاَمْرَ بِالطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ . وَكُلٌّ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ يَنْقَسِمُ اِلَى مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . وَمَقْصُودِي مِنَ ٱلْمُفِيدِ اَنْ يَأْتِيَ لِمَعْنًى . وَغَيْرِ ٱلْمُفِيدِ اَنْ يَأْتِيَ لِغَيْرِ مَعْنًى . وَاعْلَمْ اَنَّ ٱلْمُفِيدَ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ تَاْكِيدًا وَتَشْدِيدًا مِنْ اَمْرِهِ . وَاِنَّمَا يُفْعَلُ ذٰلِكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْعِنَايَةِ بِالشَّيْءِ ٱلَّذِي كَرَّرْتَ فِيهِ كَلَامَكَ اِمَّا مُبَالَغَةً فِي مَدْحِهِ اَوْ فِي ذَمِّهِ اَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ . وَلَا يَأْتِي اِلَّا فِي اَحَدِ طَرَفَيِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ بِالذِّكْرِ . وَٱلْوَسَطُ عَارٌ مِنْهُ لِاَنَّ اَحَدَ ٱلطَّرَفَيْنِ هُوَ ٱلْمَقْصُودُ بِٱلْمُبَالَغَةِ اِمَا بِمَدْحٍ اَوْ ذَمٍّ اَوْ غَيْرِهِمَا وَٱلْوَسَطُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ ٱلْمُبَالَغَةِ . وَغَيْرُ ٱلْمُفِيدِ لَا يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ اِلَّا عِيًّا وَخَطَلًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ اِلَيْهِ

(فَأَمَّا ٱلْأَوَّلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) فَإِنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى ضَرْبَيْنِ : مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . (فَٱلْأَوَّلُ ٱلْمُفِيدُ) وَهُوَ فَرْعَانِ : (ٱلْأَوَّلُ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمَقْصُودُ بِهِ غَرَضَانِ مُخْتَلِفَانِ . مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى قَوْلُهُ : بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . فَكَرَّرَ (ٱلرَّحْمَانَ ٱلرَّحِيمَ) مَرَّتَيْنِ . وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَوَّلَ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلدُّنْيَا كَٱلْخَلْقِ وَٱلْعِنَايَةِ . وَٱلثَّانِي يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلْآخِرَةِ إِشَارَةً لِرَحْمَتِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلضَّرْبِ ٱلْأَوَّلِ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمُرَادُ بِهِ غَرَضٌ وَاحِدٌ كَقَوْلِهِ : فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . وَٱلتَّكْرِيرُ دَلَالَةُ ٱلتَّعَجُّبِ مِنْ تَقْرِيرِهِ وَإِصَابَتِهِ ٱلْغَرَضَ . وَهٰذَا كَمَا يُقَالُ : قَتَلَهُ ٱللهُ مَا أَشْجَعَهُ أَوْ مَا أَشْجَعَهُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

أَلَا يَا ٱسْلَمِي ثُمَّ ٱسْلَمِي ثُمَّتِ ٱسْلَمِي

وَهٰذَا مُبَالَغَةٌ فِي ٱلدُّعَاءِ لَهَا بِٱلسَّلَامَةِ . وَكُلُّ هٰذَا يُجَاءُ بِهِ لِتَقْرِيرِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَإِثْبَاتِهِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قِسْمًا يَكُونُ ٱلْمَعْنَى مُضَافًا إِلَى نَفْسِهِ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱللَّفْظِ . وَذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَٱسْتُعْمِلَ فِي فَصِيحِ ٱلْكَلَامِ فَمِنْهُ قَوْلُهُ : وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ . وَٱلرِّجْزُ هُوَ ٱلْعَذَابُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

نُهُوضٌ بِثِقْلِ ٱلْعِبْءِ مُضْطَلِعٌ بِهِ وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ ٱلْخُطُوبُ وَجَلَّتِ

وَالثِّقْلُ هُوَ ٱلْعِبْءُ وَٱلْعِبْءُ هُوَ ٱلثِّقْلُ . وَرُبَّمَا ٱشْكَلَ هٰذَا ٱلْمَوْضُوعُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتَعَاطَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ وَظَنُّوهُ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْفَائِدَةُ فِيهِ هِيَ ٱلتَّأْكِيدُ لِلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ وَٱلْمُبَالَغَةُ فِيهِ. اَمَّا ٱلْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : (عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ) اَيْ عَذَابٌ مُضَاعَفٌ مِنْ عَذَابٍ . وَاَمَّا بَيْتُ اَبِي تَمَّامٍ فَاِنَّهُ تَضَمَّنَ ٱلْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ ٱلْمَمْدُوحِ بِحَمْلِهِ ٱلْاَثْقَالَ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ لَمْ يُنَبِّهْ عَلَيْهِ اَحَدٌ سِوَايَ . وَلَرُبَّمَا اُدْخِلَ فِي ٱلتَّكْرِيرِ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مَا لَيْسَ مِنْهُ . فَمِنْهُ قَوْلُهُ : ثُمَّ اِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَاَصْلَحُوا اِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . فَلَمَّا تَكَرَّرَ اِنَّ رَبَّكَ مَرَّتَيْنِ عُلِمَ اَنَّ ذٰلِكَ اَدَلُّ عَلَى ٱلْمَغْفِرَةِ . . . وَهٰذِهِ ٱلْاَقْوَالُ يُظَنُّ اَنَّهَا مِنْ بَابِ ٱلتَّكْرِيرِ وَلَيْسَتْ كَذٰلِكَ . وَقَدْ اَنْعَمْتُ نَظَرِي فِيهَا فَرَاَيْتُهَا خَارِجَةً عَنْ حُكْمِ ٱلتَّكْرِيرِ وَذَاكَ اِنَّهُ اِذَا طَالَ ٱلْفَصْلُ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَكَانَ اَوَّلُهُ يَفْتَقِرُ اِلَى تَمَامٍ وَلَا يُفْهَمُ اِلَّا بِهِ فَٱلْاَوْلَى فِي بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ اَنْ يُعَادَ ٱللَّفْظُ ٱلْاَوَّلُ مَرَّةً ثَانِيَةً لِيَكُونَ مُقَارِنًا لِتَمَامِ ٱلْفَصْلِ كَيْ لَا يَجِيءَ ٱلْكَلَامُ مَنْثُورًا لَا سِيَّمَا فِي (اِنَّ وَاَخَوَاتِهَا) . فَاِذَا وَرَدَتْ (اِنَّ) وَكَانَ بَيْنَ اَسْمِهَا وَخَبَرِهَا فُسْحَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَاِعَادَةُ (اِنَّ) اَحْسَنُ فِي حُكْمِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْفَصَاحَةِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ :

اَسِجْنًا وَقَيْدًا وَٱشْتِيَاقًا وَغُرْبَةً ... وَنَأْيَ حَبِيبٍ اِنَّ ذَا لَعَظِيمُ

وَاِنَّ ٱمْرَءًا دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ ... عَلَى مِثْلِ مَا قَاسَيْتُهُ لَكَرِيمُ

فَإِنَّهُ لَمَّا طَالَ ٱلْكَلَامُ بَيْنَ ٱسْمِ (إِنَّ) وَخَبَرِهَا أُعِيدَتْ (إِنَّ) مَرَّةً ثَانِيَةً لِأَنَّ تَقْدِيرَ ٱلْكَلَامِ : وَإِنَّ أَمْرًا دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ عَلَى مِثْلِ هٰذَا لَكَرِيمُ . لٰكِنْ بَيْنَ ٱلِٱسْمِ وَٱلْخَبَرِ مَدًى طَوِيلٌ فَإِذَا لَمْ تُعَدْ (إِنَّ) مَرَّةً ثَانِيَةً لَمْ يَأْتِ عَلَى ٱلْكَلَامِ بَهْجَةٌ . وَهٰذَا لَا يَتَنَبَّهُ لِٱسْتِعْمَالِهِ إِلَّا ٱلْفُصَحَاءُ إِمَّا طَبْعًا وَإِمَّا عِلْمًا . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ إِذَا كَانَ خَبَرُ (إِنَّ) عَامِلًا فِي مَعْمُولٍ يَطُولُ ذِكْرُهُ فَإِنَّ إِعَادَةَ ٱلْخَبَرِ ثَانِيَةً هُوَ ٱلْأَحْسَنُ . وَعَلَى هٰذَا جَاءَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ : يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . فَلَمَّا قَالَ : إِنِّي رَأَيْتُ ثُمَّ طَالَ ٱلْفَصْلُ كَانَ ٱلْأَحْسَنُ أَنْ يُعِيدَ لَفْظَ (ٱلرُّؤْيَةِ) فَيَقُولَ : رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . وَمِنْ بَابِ (ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) ٱلدَّالِّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ قَوْلُهُ : وَقَالَ ٱلَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ . فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَرَّرَ نِدَاءَ قَوْمِهِ هَا هُنَا لِزِيَادَةِ ٱلتَّنْبِيهِ لَهُمْ وَٱلْإِيقَاظِ عَنْ سِنَةِ ٱلْغَفْلَةِ وَلِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ وَعَشِيرَتُهُ فَيَتَحَزَّنُ لَهُمْ وَيَتَلَطَّفُ بِهِمْ فَيَسْتَدْعِي بِذٰلِكَ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى نَصِيحَتِهِ . وَهٰذَا فِي ٱلتَّكْرِيرِ ٱلَّذِي هُوَ أَبْلَغُ مِنَ ٱلْإِيجَازِ وَأَشَدُّ مَوْقِعًا مِنَ ٱلِٱخْتِصَارِ . وَمِمَّا وَرَدَ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ شِعْرًا قَوْلُ بَعْضِ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ :

إِلَى مَعْدِنِ ٱلْعِزِّ ٱلْمُؤَثَّلِ وَٱلنَّدَى هُنَاكَ هُنَاكَ ٱلْفَضْلُ وَٱلْخُلُقُ ٱلْجَزْلُ

فَقَوْلُهُ : هُنَاكَ هُنَاكَ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ ٱلَّذِي هُوَ أَبْلَغُ مِنَ ٱلْإِيجَازِ

لِأَنَّهُ فِي مَعْرِضِ مَدْحٍ فَهُوَ يُقَرِّرُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ مَا عِنْدَ الْمَمْدُوحِ مِنْ هٰذِهِ الْأَوْصَافِ الْمَذْكُورَةِ مُشِيرًا إِلَيْهَا كَأَنَّهُ قَالَ : أَدُلُّكُمْ عَلَى مَعْدِنِ كَذَا وَكَذَا وَمَقَرِّهِ وَمَفَادِهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ الْمُسَاوِرِ ابْنِ هِنْدٍ :

جَزَى اللّٰهُ عَنِّي غَالِبًا مِنْ عَشِيرَةٍ ... إِذَا حَدَثَانُ الدَّهْرِ نَابَتْ نَوَائِبُهْ
فَكَمْ دَفَعُوا مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ تَلَاحَمَتْ ... عَلَيَّ وَمَوْجٍ قَدْ عَلَتْنِي غَوَارِبُهْ

فَصَدْرُ الْبَيْتِ الثَّانِي وَعَجْزُهُ يَدُلَّانِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لِأَنَّ تَلَاحُمَ الْكُرَبِ عَلَيْهِ كَتَعَالِي الْمَوْجِ مِنْ فَوْقِهِ . وَإِنَّمَا نَوَّعَ ذٰلِكَ لِأَنَّهُ مَقَامُ مَدْحٍ وَإِطْرَاءٍ أَلَا تُرَى أَنَّهُ يَصِفُ إِحْسَانَ هٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ عِنْدَ حِدْثَانِ دَهْرِهِ فِي التَّكْرِيرِ . وَفِي قُبَالَتِهِ لَوْ كَانَ الْقَائِلُ هَاجِيًا فَإِنَّ الْهِجَاءَ فِي هٰذَا كَالْمَدْحِ . (الضَّرْبُ الثَّانِي مِنَ التَّكْرِيرِ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى) وَهُوَ غَيْرُ الْمُفِيدِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مَرْوَانَ الْأَصْغَرِ :

سَقَى اللّٰهُ نَجْدًا وَالسَّلَامُ عَلَى نَجْدٍ ... وَيَا حَبَّذَا نَجْدٌ عَلَى الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ
نَظَرْتُ إِلَى نَجْدٍ وَبَغْدَادُ دُونَهَا ... لَعَلِّي أَرَى نَجْدًا وَهَيْهَاتُ مِنْ نَجْدِ

وَهٰذَا مِنَ الْعِيِّ الضَّعِيفِ فَإِنَّهُ كَرَّرَ ذِكْرَ نَجْدٍ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ ثَلَاثًا . وَفِي الْبَيْتِ الثَّانِي ثَلَاثًا . وَمُرَادُهُ فِي الْأَوَّلِ الثَّنَاءُ عَلَى نَجْدٍ . وَفِي الثَّانِي أَنَّهُ تَلَفَّتَ إِلَيْهِ نَاظِرًا مِنْ بَغْدَادَ وَذٰلِكَ مَرْمًى بَعِيدٌ . الْمَعْنَى لَا يَحْتَاجُ إِلَى مِثْلِ هٰذَا التَّكْرِيرِ . أَمَّا الْبَيْتُ الْأَوَّلُ فَيُحْمَلُ عَلَى الْجَائِزِ مِنَ التَّكْرِيرِ لِأَنَّهُ مَقَامُ تَشَوُّقٍ وَتَحَرُّقٍ وَمَوْجِدَةٍ بِفِرَاقِ نَجْدٍ . وَلَمَّا كَانَ كَذٰلِكَ أُجِيزَ فِيهِ التَّكْرِيرُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ

يُسوّغ هٰذا ٱلمَعْنى ٱلوارِدَ في ٱلبَيْتَيْنِ مَعًا مِنْ غَيْرِ ان يَأْتِيَ بِهٰذا ٱلتَّكْرِيرِ ٱلمُتَتابِعِ سِتَّ مَرّاتٍ . وعَلى هٰذا ٱلأُسْلُوبِ وَرَدَ قَوْلُ ابي نُوَاسٍ :

اَقَمْنا بِها يَوْمًا ويَوْمًا وَثالِثًا ... ويَوْمًا لَهُ يَوْمُ ٱلتَّرَحُّلِ خامِسُ

ومُرادُهُ مِنْ ذٰلِكَ انَّهُمْ اَقامُوا بِها اَرْبَعَةَ اَيّامٍ . ويا عَجَبًا لَهُ بِمِثْلِ هٰذا ٱلبَيْتِ ٱلسَّخِيفِ ٱلدّالِّ عَلَى ٱلعَيِّ ٱلفاحِشِ في ضِمْنِ اَبْياتٍ عَجِيبَةِ ٱلحُسْنِ تَتَقَدَّمُ هٰذا ٱلبَيْتَ . ومِنْ هٰذا ٱلبابِ اَيْضًا قَوْلُ ابي ٱلطَّيِّبِ ٱلمُتَنَبِّي :

ولَمْ اَرَ مِثْلَ جِيرانِي ومِثْلِي ... لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمِ مَقامُ

فَهٰذا هُوَ ٱلتَّكْرِيرُ ٱلفاحِشُ ٱلَّذِي يُؤَثِّرُ في ٱلكَلامِ نَقْصًا . اَلا تَرَى انَّهُ يَقُولُ : لَمْ اَرَ مِثْلَ جِيرانِي في سُوءِ ٱلجِوارِ ولا مِثْلِي في مُصابَرَتِهِمْ ومُقامِي عِنْدَهُمْ . اِلّا انَّهُ قَدْ كَرَّرَ هٰذا ٱلمَعْنى في ٱلبَيْتِ مَرَّتَيْنِ . وعَلى نَحْوٍ مِنْ ذٰلِكَ جاءَ قَوْلُهُ :

وقَلْقَلْتُ بِٱلْهَمِّ ٱلَّذِي قَلْقَلَ ٱلحَشَى ... قَلاقِلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلاقِلُ

(وَاَمّا ٱلقِسْمُ ٱلثّانِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ وهُوَ ٱلَّذِي يُوجَدُ في ٱلمَعْنى دُونَ ٱللَّفْظِ) فَذٰلِكَ ضَرْبانِ : مُفِيدٌ وغَيْرُ مُفِيدٍ . (اَلضَّرْبُ ٱلاَوَّلُ) ٱلمُفِيدُ وهُوَ فَرْعانِ : (اَلاَوَّلُ) اِذا كانَ ٱلتَّكْرِيرُ في ٱلمَعْنى يَدُلُّ عَلى مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ وهُوَ مَوْضِعٌ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ مُشْكِلٌ لِاَنَّهُ يَسْبِقُ اِلى ٱلوَهْمِ انَّهُ تَكْرِيرٌ يَدُلُّ عَلى مَعْنًى واحِدٍ وهُوَ لَيْسَ كَذٰلِكَ . . . بَلْ يُقْصَدُ بِهِ ٱلتَّأْكِيدُ وٱلتَّقْرِيرُ وٱلتَّنَصُّلُ عَمّا يُرْمى بِهِ ٱلمُتَكَلِّمُ . ومِمّا

يَنْتَظِمُ بِهٰذَا ٱلسِّلْكِ اَنْ يَكُونَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ اَحَدُهُمَا خَاصٌّ وَٱلْآخَرُ عَامٌّ كَقَوْلِهِ : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ اُمَّةٌ يَدْعُونَ اِلَى ٱللهِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ . فَاِنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ دَاخِلٌ تَحْتَ ٱلدُّعَاءِ اِلَى ٱلْخَيْرِ . لِاَنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ خَاصٌّ وَٱلْخَيْرَ عَامٌّ فَكُلُّ اَمْرٍ بِٱلْمَعْرُوفِ خَيْرٌ وَلَيْسَ كُلُّ خَيْرٍ اَمْرًا بِٱلْمَعْرُوفِ . وَذَاكَ اَنَّ ٱلْخَيْرَ اَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ مِنْ جُمْلَتِهَا ٱلْاَمْرُ بِٱلْمَعْرُوفِ . فَفَائِدَةُ ٱلتَّكْرِيرِ هٰهُنَا اَنَّهُ ذَكَرَ ٱلْخَاصَّ بَعْدَ ٱلْعَامِّ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِهِ . وَكَقَوْلِهِ : حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَى . وَكَقَوْلِهِ : فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ . وَكَقَوْلِهِ : اِنَّا عَرَضْنَا ٱلْاَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْاَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَاَبَيْنَ اَنْ يَحْمِلْنَهَا . فَاِنَّ ٱلْجِبَالَ دَاخِلَةٌ فِي جُمْلَةِ ٱلْاَرْضِ . لٰكِنَّ لَفْظَ ٱلْاَرْضِ عَامٌّ وَٱلْجِبَالِ خَاصٌّ . وَفَائِدَتُهُ هٰهُنَا تَعْظِيمُ شَأْنِ ٱلْاَمَانَةِ ٱلْمُشَارِ اِلَيْهَا وَتَفْخِيمُ اَمْرِهَا . . . وَهُوَ مَوْضِعٌ يَرِدُ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْبَلِيغِ وَيُظَنُّ اَنْ لَا فَائِدَةَ فِيهِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي) اِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ . وَقَدْ سَبَقَ مِثَالُ ذٰلِكَ فِي اَوَّلِ هٰذَا ٱلْبَابِ كَقَوْلِكَ : اَطِعْنِي وَلَا تَعْصِنِي . فَاِنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ تَثْبِيتُ ٱلطَّاعَةِ فِي نَفْسِ ٱلْمُخَاطَبِ . وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ كَٱلْكَلَامِ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ مِنْ تَكْرِيرِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى اِذَا كَانَ ٱلْغَرَضُ بِهِ شَيْئًا وَاحِدًا . وَلَا نَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ اِلَّا لِتَأْكِيدِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ بِهِ كَقَوْلِهِ : اِنَّ مِنْ اَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَاِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَاِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . فَاِنَّهُ اِنَّمَا كَرَّرَ

ٱلْعَفْوَ وَٱلصَّفْحَ وَٱلْمَغْفِرَةَ وَٱلْجَمِيعُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ لِلزِّيَادَةِ فِي تَحْسِينِ عَفْوِ ٱلْوَالِدِ عَنْ وَلَدِهِ . وَهٰذَا وَٱمْثَالُهُ يُنْظَرُ فِي ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ بِهِ . وَهُوَ مَوْضِعٌ يَكُونُ ٱلتَّكْرِيرُ فِيهِ اَوْجَزُ مِنْ لَمْحَةِ ٱلْايجَازِ وَاَوْلَى بِٱلْاِسْتِعْمَالِ . وَمِمَّا وَرَدَ مِنْهُ شِعْرًا قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي اَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

تَرَلْتُ عَلَى آلِ ٱلْمُهَلَّبِ شَاتِيًا بَعِيدًا عَنِ ٱلْاَوْطَانِ فِي زَمَنِ ٱلْمَحْلِ
فَمَا زَالَ بِي اِكْرَامُهُمْ وَٱفْتِقَادُهُمْ وَاِحْسَانُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمْ اَهْلِي

فَاِنَّ ٱلْاِكْرَامَ وَٱلْاِفْتِقَادَ دَاخِلَانِ تَحْتَ ٱلْاِحْسَانِ وَاِنَّمَا كَرَّرَ ذٰلِكَ لِلتَّنْوِيهِ بِذِكْرِ ٱلصَّنِيعِ وَٱلْايجَابِ لِحَقِّهِ . (اَلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي) فِي تَكْرِيرِ ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ وَهُوَ غَيْرُ ٱلْمُفِيدِ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

قَسَمَ ٱلزَّمَانُ رُبُوعَهَا بَيْنَ ٱلصَّبَا وَقَبُولِهَا وَدَبُورِهَا اَثْلَاثَا

فَاِنَّ رِيحَ ٱلصَّبَا هِيَ رِيحُ ٱلْقَبُولِ يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ قَدْ خَبَطَ فِيهِ عُلَمَاءُ ٱلْبَيَانِ خَبْطًا كَثِيرًا وَٱلْاَكْثَرُ مِنْهُمْ اَجَازَهُ . فَقَالُوا : اِذَا كَانَتِ ٱلْاَلْفَاظُ مُتَغَايِرَةً وَٱلْمَعْنَى ٱلْمُعَبَّرُ عَنْهُ وَاحِدًا فَلَيْسَ ٱسْتِعْمَالُ ذٰلِكَ بِعَيْبٍ . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فِيهِ نَظَرٌ وَٱلَّذِي عِنْدِي فِيهِ اَنَّ ٱلنَّاثِرَ يُعَابُ عَلَى ٱسْتِعْمَالِهِ مُطْلَقًا اِذَا اَتَى لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَاَمَّا ٱلنَّاظِمُ فَاِنَّهُ يُعَابُ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعٍ دُونَ مَوْضِعٍ . اَمَّا ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ صُدُورُ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَمَا وَالَاهَا . وَاَمَّا ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي لَا يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ ٱلْاَعْجَازُ مِنَ ٱلْاَبْيَاتِ لِمَكَانِ ٱلْقَافِيَةِ . وَاِنَّمَا جَازَ ذٰلِكَ وَلَمْ يَكُنْ عَيْبًا لِاَنَّهُ قَافِيَةٌ

وَالشَّاعِرُ مُضْطَرٌّ اِلَيْهَا وَالْمُضْطَرُّ يَحِلُّ لَهُ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ كَقَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ فِي قَصِيدَتِهِ اللَّامِيَّةِ الَّتِي مَطْلَعُهَا :

اَلَا اُنْعِمْ صَبَاحًا اَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي

فَقَالَ :

وَهَلْ يَنْعَمَنْ اِلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ قَلِيلُ الْهُمُومِ لَا يَبِيتُ بِاَوْجَالِ

وَاِذَا كَانَ قَلِيلَ الْهُمُومِ فَاِنَّهُ لَا يَبِيتُ بِاَوْجَالِ . وَهٰذَا تَكْرِيرٌ لِلْمَعْنَى اِلَّا اَنَّهُ لَيْسَ بِمَعِيبٍ لِاَنَّهُ قَافِيَةٌ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ الْحُطَيْئَةِ :

قَالَتْ اِمَامَةُ لَا تَجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا اِنَّ الْعَزَاءَ وَاِنَّ الصَّبْرَ قَدْ غَلَبَا

هَلَّا الْتَمَسْتِ لَنَا اِنْ كُنْتِ صَادِقَةً مَالًا نَعِيشُ بِهِ فِي النَّاسِ اَوْ نَشَبَا

فَالْبَيْتُ الْاَوَّلُ مَعِيبٌ لِاَنَّهُ كَرَّرَ الْعَزَاءَ وَالصَّبْرَ اِذْ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَلَمْ يَرِدَا قَافِيَةً لِاَنَّ الْقَافِيَةَ هِيَ الْبَاءُ . وَاَمَّا الْبَيْتُ الثَّانِي فَلَيْسَ بِمَعِيبٍ لِاَنَّ التَّكْرِيرَ جَاءَ فِي النَّشَبِ وَهُوَ قَافِيَةٌ

البحث السادس عشر

في حقيقة التشبيه وتحديده

(عن خزانة الادب للحموي وعن كتاب الصناعتين)

(راجع صفحة ٤٨ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ اَصْحَابَ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ اَطْلَقُوا اَعِنَّةَ الْكَلَامِ فِي مَيَادِينِ حُدُودِ التَّشْبِيهِ وَتَقَادِيرِهَا وَهُوَ عِنْدَهُمُ الدَّلَالَةُ عَلَى مُشَارَكَةِ اَمْرٍ لِاَمْرٍ فِي مَعْنًى . وَقَالَ الرُّمَّانِيُّ : التَّشْبِيهُ هُوَ الْعَقْدُ عَلَى اَحَدِ الشَّيْئَيْنِ

يَسُدُّ اَحَدُهُما مَسَدَّ الْآخَرِ فِي حَالٍ. وَهٰذَا هُوَ التَّشْبِيهُ الْعَامُّ الَّذِي يَدْخُلُ تَحْتَهُ التَّشْبِيهُ الْبَلِيغُ وَغَيْرُهُ . وَالتَّشْبِيهُ الْبَلِيغُ هُوَ اِخْرَاجُ الْاَغْمَضِ اِلَى الْاَوْضَحِ مَعَ حُسْنِ التَّأْلِيفِ . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : اَلتَّشْبِيهُ هُوَ الدَّلَالَةُ عَلَى اَشْتِرَاكِ شَيْئَيْنِ فِي وَصْفٍ هُوَ مِنْ اَوْصَافِ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ . وَقَالَ اِبْنُ رَشِيقٍ فِي الْعُمْدَةِ : اَلتَّشْبِيهُ صِفَةُ الشَّيْءِ بِمَا قَارَبَهُ وَشَاكَلَهُ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ لِاَنَّهُ لَوْ نَاسَبَهُ مُنَاسَبَةً كُلِّيَّةً كَانَ اِيَّاهُ . اَلَا تَرَى اِلَى قَوْلِهِمْ : خَدٌّ كَالْوَرْدِ اِنَّمَا مُرَادُهُمْ اَحْمَرَارُ اَوْرَاقِهِ وَطَرَاوَتُهَا لَا مَا سِوَى ذٰلِكَ مِنْ صُفْرَةِ وَسَطِهِ وَخُضْرَةِ كَمَائِمِهِ (اه) . وَقِيلَ : اَلتَّشْبِيهُ اِلْحَاقُ اَدْنَى الشَّيْئَيْنِ بِاَعْلَاهُمَا فِي صِفَةٍ اِشْتَرَكَا فِي اَصْلِهَا وَاخْتَلَفَا فِي كَيْفِيَّتِهَا قُوَّةً وَضُعْفًا . قُلْتُ : وَهٰذَا حَدٌّ مُفِيدٌ . وَاَوْرَدَ اِبْنُ اَبِي الْاِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ تَحْرِيرِ التَّحْبِيرِ حَدًّا زَادَ فِي حُسْنِهِ عَلَى الْحَدِّ وَهُوَ : اَنَّ التَّشْبِيهَ تَشْبِيهَانِ (اَلْاَوَّلُ) مِنْهُمَا تَشْبِيهُ شَيْئَيْنِ مُتَّفِقَيْنِ بِاَنْفُسِهِمَا كَتَشْبِيهِ الْجَوْهَرِ بِالْجَوْهَرِ مِثْلُ قَوْلِكَ : مَاءُ النِّيلِ كَمَاءِ الْفُرَاتِ . وَتَشْبِيهِ الْعَرَضِ بِالْعَرَضِ كَقَوْلِكَ : حُمْرَةُ الْخَدِّ كَحُمْرَةِ الْوَرْدِ . وَتَشْبِيهِ الْجِسْمِ بِالْجِسْمِ كَقَوْلِكَ : اَلزَّبَرْجَدُ مِثْلُ الزُّمُرُّدِ . (وَالثَّانِي) تَشْبِيهُ شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ بِالذَّاتِ يَجْمَعُهُمَا مَعْنًى وَاحِدٌ مُشْتَرَكٌ . كَقَوْلِكَ : حَاتِمٌ كَالْغَمَامِ وَعَنْتَرَةُ كَالضِّرْغَامِ . وَتَشْبِيهُ الْاِتِّفَاقِ وَهُوَ الْاَوَّلُ تَشْبِيهٌ حَقِيقِيٌّ . وَتَشْبِيهُ الْاِخْتِلَافِ وَهُوَ الثَّانِي تَشْبِيهٌ مَجَازِيٌّ وَالْمُرَادُ الْمُبَالَغَةُ . وَالتَّشْبِيهُ رُكْنٌ مِنْ اَرْكَانِ الْبَلَاغَةِ لِاِخْرَاجِهِ الْخَفِيَّ اِلَى الْجَلِيِّ وَاِدْنَائِهِ الْبَعِيدَ مِنَ الْقَرِيبِ . وَهُوَ حُكْمٌ اِضَافِيٌّ لَا يُوجَدُ اِلَّا بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ بِخِلَافِ الْاِسْتِعَارَةِ وَلَيْسَ الْحُكْمُ

اَنَّهُ اِذا صَحَّتِ ٱلاِسْتِعارَةُ حَسُنَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَاِنَّ ٱلْمُشابَهَةَ اِذا قُرِنَتْ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ بِٱلاِسْتِعارَةِ قَبُحَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلا تَقُولُ : كَاَنَّكَ اَوْقَعْتَنِي فِي ظُلْمَةٍ اِذا اَوْقَعَكَ فِي شُبْهَةٍ . وَفَهِمْتُ ٱلْمَسْاَلَةَ فَكَاَنَّهُ ٱنْشَرَحَ صَدْرِي اَوْ كَاَنَّ نُورًا حَصَلَ فِي قَلْبِي . لِتَمَكُّنِ هٰذِهِ ٱلْاَشْياءِ حَتَّى كَاَنَّها صارَتْ حَقِيقِيَّةً

البحث السابع عشر

في اركان التشبيه ومحاسنهِ وفوائدهِ

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

وَٱعْلَمْ اَنَّ لِلتَّشْبِيهِ اَدَواتٍ كَنَحْوٍ وَكَاَنَّ وَشِبْهٍ وَمِثْلٍ . فَرُبَّما ظَهَرَتْ وَرُبَّما اُضْمِرَتْ . (وَمِنَ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْاَدَاةُ) مَا قِيلَ فِي وَصْفِ حالِ ٱلْمُنافِقِينَ : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمَّا اَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللّٰهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ . وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

خُلُقٌ مِنْهُمُ تَرَدَّدَ فِيهِمْ ... وَلِيتَهُ عِصابَةٌ عَنْ عِصابَهْ

كَٱلْحُسامِ ٱلْجُرازِ يَبْقَى عَلَى ٱلدَّهْرِ مَ وَيُفْنِي فِي كُلِّ حِينٍ قِرابَهْ

وَمِنَ ٱللَّطِيفِ ٱلْبَدِيعِ فِي هٰذا ٱلْبابِ قَوْلُ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْاَحْنَفِ :

لَاجَزَى ٱللّٰهُ دَمْعَ عَيْنِيَ خَيْرًا ... وَجَزَى ٱللّٰهُ كُلَّ خَيْرٍ لِسانِي

نَمَّ دَمْعِي فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئًا ... وَوَجَدتُ ٱللِّسانَ ذَا كُتْمانِ

كُنْتُ مِثْلَ ٱلْكِتابِ اَخْفاهُ طَيٌّ ... فَٱسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِٱلْعُنْوانِ

(وَمِنَ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ) قَوْلُهُ : وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاسًا . فَشَبَّهَ ٱللَّيْلَ بِٱللِّبَاسِ . وَذَاكَ اَنَّهُ يَسْتُرُ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَنْ اَرَادَ هَرَبًا مِنْ عَدُوٍّ اَوْ ثَبَاتًا لِعَدُوٍّ اَوْ اِخْفَاءً لِمَا لَا يُحِبُّ ٱلِاطِّلَاعَ عَلَيْهِ مِنْ اَمْرِهِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْاَمْثَالِ مِثْلُهُ : ٱللَّيْلُ جُنَّةُ ٱلْهَارِبِ . وَمِمَّا وَرَدَ شِعْرًا قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَاِذَا ٱهْتَزَّ لِلنَّدَى كَانَ بَحْرًا وَاِذَا ٱهْتَزَّ لِلْوَغَى كَانَ نَصْلَا

وَاِذَا ٱلْاَرْضُ اَظْلَمَتْ كَانَ شَمْسًا وَاِذَا ٱلْاَرْضُ اَمْحَلَتْ كَانَ وَبْلَا

وَكُلُّ ذٰلِكَ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ . وَاِنَّ هٰذَا ٱلتَّشْبِيهَ اَبْلَغُ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْاَدَاةِ وَاَوْجَزُ . اَمَّا كَوْنُهُ اَبْلَغَ فَلِجَعْلِ ٱلْمُشَبَّهِ مُشَبَّهًا بِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةِ اَدَاةٍ فَيَكُونُ هُوَ اِيَّاهُ . فَاِنَّكَ اِذَا قُلْتَ : زَيْدٌ اَسَدٌ . كُنْتَ قَدْ جَعَلْتَهُ اَسَدًا مِنْ غَيْرِ اِظْهَارِ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ . وَاَمَّا كَوْنُهُ اَوْجَزَ فَلِحَذْفِ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ مِنْهُ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنَّ ٱلْقِسْمَيْنِ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ وَٱلْمُضْمَرِ كِلَيْهِمَا فِي فَضِيلَةِ ٱلْبَيَانِ سَوَاءٌ فَاِنَّ ٱلْغَرَضَ ٱلْمَقْصُودَ مِنْ قَوْلِنَا : زَيْدٌ اَسَدٌ . اَنْ يَتَبَيَّنَ حَالُ زَيْدٍ فِي ٱتِّصَافِهِ بِشَهَامَةِ ٱلنَّفْسِ وَقُوَّةِ ٱلْبَطْشِ وَجَرَاءَةِ ٱلْاِقْدَامِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُ . اِلَّا اَنَّا لَمْ نَجِدْ شَيْئًا نَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ سِوَى اَنْ جَعَلْنَاهُ شَبِيهًا بِٱلْاَسَدِ حَيْثُ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتُ مُخْتَصَّةً بِهِ . فَصَارَ مَا قَصَدْنَاهُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ اَكْشَفَ وَاَبْيَنَ مِنْ اَنْ لَوْ قُلْنَا : زَيْدٌ شَهْمٌ شُجَاعٌ قَوِيُّ ٱلْبَطْشِ جَرِيءُ ٱلْجَنَانِ وَاَشْبَاهُ ذٰلِكَ . لِمَا قَدْ عُرِفَ وَعُهِدَ مِنِ ٱجْتِمَاعِ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ فِي ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ اَعْنِي ٱلْاَسَدَ . وَاَمَّا زَيْدٌ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ فَلَيْسَ مَعْرُوفًا بِهَا

وَاِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِيهِ. وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ اَيْضًا يَخْتَصُّ بِفَضِيلَةِ ٱلْاِيجَازِ وَاِنْ كَانَ ٱلْمُضْمَرُ اَوْجَزَ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ لِاَنَّ قَوْلَنَا : زَيْدٌ اَسَدٌ اَوْ كَٱلْاَسَدِ. يَسُدُّ مَسَدَّ قَوْلِنَا: زَيْدٌ مِنْ حَالِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ. وَهُوَ مِنَ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلشِّدَّةِ عَلَى كَذَا وَكَذَا مِمَّا يَطُولُ ذِكْرُهُ. فَٱلتَّشْبِيهُ اِذًا يَجْمَعُ صِفَاتٍ ثَلَاثَةً هِيَ : ٱلْمُبَالَغَةُ. وَٱلْبَيَانُ. وَٱلْاِيجَازُ كَمَا اَرَيْتُكَ. اِلَّا اَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ بَيْنِ اَنْوَاعِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ مُسْتَوْعِرُ ٱلْمَذْهَبِ وَهُوَ مَقْتَلٌ مِنْ مَقَاتِلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَسَبَبُ ذٰلِكَ اَنَّ حَمْلَ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمَاثَلَةِ اِمَّا صُورَةً وَاِمَّا مَعْنًى يَعِزُّ صَوَابُهُ وَتَعْسُرُ ٱلْاِجَادَةُ فِيهِ. وَقَلَّمَا اَكْثَرَ مِنْهُ اَحَدٌ اِلَّا عَثَرَ كَمَا فَعَلَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ بِنْ اُدَبَاءِ ٱلْعِرَاقِ وَٱبْنُ وَكِيعٍ مِنْ اُدَبَاءِ مِصْرَ. فَاِنَّهُمَا اَكْثَرَا مِنْ ذٰلِكَ لَاسِيَّمَا فِي وَصْفِ ٱلرِّيَاضِ وَٱلْاَشْجَارِ وَٱلْاَزْهَارِ وَٱلثِّمَارِ. لَاجَرَمَ اَنَّهُمَا اَتَيَا بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ ٱلَّذِي لَا يَثْبُتُ عَلَى مِحَكِّ ٱلصَّوَابِ فَعَلَيْكَ اَنْ تَتَوَقَّى مَا اَشَرْتُ اِلَيْهِ. وَاَمَّا فَائِدَةُ ٱلتَّشْبِيهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهِيَ : اَنَّكَ اِذَا اَمْثَلْتَ ٱلشَّيْءَ بِٱلشَّيْءِ فَاِنَّمَا تَقْصِدُ فِيهِ اِثْبَاتَ ٱلْحَالِ فِي ٱلنَّفْسِ بِصُورَةِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ اَوْ بِمَعْنَاهُ وَذٰلِكَ اَوْكَدُ فِي طَرَفَيِ ٱلتَّرْغِيبِ فِيهِ اَوِ ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهُ. اَلَا تَرَى اَنَّكَ اِذَا اَشْبَهْتَ صُورَةً بِصُورَةٍ هِيَ اَحْسَنُ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتًا فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا حَسَنًا يَدْعُو اِلَى ٱلتَّرْغِيبِ فِيهَا. وَكَذٰلِكَ اِذَا اَشْبَهْتَهَا بِصُورَةِ شَيْءٍ اَقْبَحَ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتًا فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا قَبِيحًا يَدْعُو اِلَى ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهَا وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ. وَلْنَضْرِبْ لَهُ مِثَالًا يُوضِحُهُ فَنَقُولُ : قَدْ وَرَدَ عَنِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي مَدْحِ ٱلْعَسَلِ وَذَمِّهِ بَيْتٌ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ :

تَقُولُ هٰذَا مُجَاجُ ٱلنَّحْلِ تَمْدَحُهُ وَإِنْ تَعِبْ قُلْتَ ذَا قَيْءُ ٱلزَّنَابِيرِ

أَلَا تَرَى كَيْفَ مَدَحَ وَذَمَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ بِتَصْرِيفِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمَجَازِيِّ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْأَدَاةِ ٱلَّذِي خَيَّلَ بِهِ إِلَى ٱلسَّامِعِ خَيَالًا يُحَسِّنُ ٱلشَّيْءَ عِنْدَهُ تَارَةً وَيُقَبِّحُهُ أُخْرَى . وَلَوْلَا ٱلتَّوَصُّلُ بِطَرِيقِ ٱلتَّشْبِيهِ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ لَمَا أَمْكَنَهُ ذٰلِكَ . وَهٰذَا ٱلْمِثَالُ كَافٍ فِيمَا أَرَدْنَاهُ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يَجِيءَ مَصْدَرِيًّا كَقَوْلِنَا : أَقْدَمَ إِقْدَامَ ٱلْأَسَدِ وَفَاضَ فَيْضَ ٱلْبَحْرِ . وَهُوَ أَحْسَنُ مَا ٱسْتُعْمِلَ فِي بَابِ ٱلتَّشْبِيهِ . كَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ فِي وَصْفِ ٱلْخَمْرِ :

وَإِذَا مَا مَزَجُوهَا وَثَبَتْ وَثْبَ ٱلْجَرَادْ

وَإِذَا مَا شَرِبُوهَا أَخَذَتْ أَخْذَ ٱلرُّقَادْ

وَقِيلَ : إِنَّ مِنْ شَرْطِ بَلَاغَةِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يُشَبَّهَ ٱلشَّيْءُ بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ وَأَعْظَمُ . وَٱلْقَوْلُ ٱلسَّدِيدُ فِي ذٰلِكَ هُوَ مَا أَذْكُرُهُ : وَهُوَ أَنَّ إِطْلَاقَ مَنْ أَطْلَقَ قَوْلَهُ فِي أَنَّ مِنْ شُرُوطِ بَلَاغَةِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يُشَبَّهَ ٱلْأَصْغَرُ بِٱلْأَكْبَرِ قَوْلٌ غَيْرُ حَاصِرٍ لِلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ . لِأَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ يَأْتِي تَارَةً فِي مَعْرِضِ ٱلْمَدْحِ وَتَارَةً فِي مَعْرِضِ ٱلذَّمِّ . وَتَارَةً فِي غَيْرِ مَعْرِضِ مَدْحٍ وَلَا ذَمٍّ . وَإِنَّمَا يَأْتِي قَصْدًا لِلْإِبَانَةِ وَٱلْإِيضَاحِ . وَلَا يَكُونُ تَشْبِيهُ أَصْغَرَ بِأَكْبَرَ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مَنْ ذَهَبَ . بَلِ ٱلْقَوْلُ ٱلْجَامِعُ فِي ذٰلِكَ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ لَا يُعْمَدُ إِلَيْهِ إِلَّا لِضَرْبٍ مِنَ ٱلْمُبَالَغَةِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَدْحًا أَوْ ذَمًّا أَوْ بَيَانًا أَوْ إِيضَاحًا وَلَا يَخْرُجُ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِي ٱلثَّلَاثَةِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ

كَذٰلِكَ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ تَقْدِيرِ لَفْظَةِ اَفْعَلَ (يُرِيدُ اَفْعَلَ ٱلتَّفْضِيلِ) . فَاِنْ لَمْ تُقَدَّرْ فِيهِ لَفْظَةُ (اَفْعَلَ) فَلَيْسَ بِتَشْبِيهٍ بَلِيغٍ . اَلَا تَرَى اَنَّا نَقُولُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ : زَيْدٌ اَسَدٌ . فَقَدْ شَبَّهْنَا زَيْدًا بِٱلْاَسَدِ ٱلَّذِي هُوَ اَشْجَعُ مِنْهُ . فَاِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ فِي هٰذَا ٱلْمَقَامِ اَشْجَعَ مِنْ زَيْدٍ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ وَاِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا اِذْ لَا مُبَالَغَةَ فِيهِ . وَكَذٰلِكَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْاَدَاةِ كَقَوْلِهِ : وَلَهُ ٱلْجَوَارِي ٱلْمُنْشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْاَعْلَامِ . وَهٰذَا تَشْبِيهُ كَبِيرٍ بِمَا هُوَ اَكْبَرُ مِنْهُ . لِاَنَّ خَلْقَ ٱلسُّفُنِ ٱلْبَحْرِيَّةِ كَبِيرٌ وَخَلْقَ ٱلْجِبَالِ اَكْبَرُ مِنْهُ . وَمِثْلُهُ : اِذَا شُبِّهَ شَيْءٌ حَسَنٌ بِشَيْءٍ حَسَنٍ فَاِنَّهُ اِذَا لَمْ يُشَبَّهْ بِمَا هُوَ اَحْسَنُ مِنْهُ فَلَيْسَ هُوَ بِوَارِدٍ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهٰكَذَا : اِنْ شُبِّهَ قَبِيحٌ بِقَبِيحٍ فَيَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ اَقْبَحَ وَاِنْ قُصِدَ ٱلْبَيَانُ وَٱلْاِيضَاحُ فَيَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ اَبْيَنَ وَاَوْضَحَ . فَتَقْدِيرُ لَفْظَةِ (اَفْعَلَ) لَا بُدَّ مِنْهُ فِيمَا يُقْصَدُ بِهِ بَلَاغَةُ ٱلتَّشْبِيهِ وَاِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا فَاعْلَمْ ذٰلِكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن العاشر

في اقسام التشبيه

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

(اَلتَّشْبِيهُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَقْسَامٍ) : اَلْاَوَّلُ تَشْبِيهُ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ لِاشْتِرَاكِهِمَا اِمَّا فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلْاُولَى وَهِيَ مُدْرَكَاتُ ٱلسَّمْعِ

وَٱلْبَصَرِ وَٱلذَّوْقِ وَٱلشَّمِّ وَٱللَّمْسِ . كَتَشْبِيهِ ٱلْخَدِّ بِٱلْوَرْدِ . وَٱلْوَجْهِ بِٱلنَّهَارِ . وَٱلْفَوَاكِهِ ٱلْحُلْوَةِ بِٱلسُّكَّرِ وَٱلْعَسَلِ . وَرَائِحَةِ بَعْضِ ٱلرَّيَاحِينِ بِٱلْكَافُورِ وَٱلْمِسْكِ . وَٱللَّيِّنِ ٱلنَّاعِمِ بِٱلْخَزِّ . وَٱلْخَشِنِ بِٱلْمِسْحِ . اَوْ فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلثَّانِيَةِ وَهِيَ : ٱلْاَشْكَالُ ٱلْمُسْتَقِيمَةُ وَٱلْمُسْتَدِيرَةُ وَٱلْمَقَادِيرُ وَٱلْحَرَكَاتُ كَتَشْبِيهِ ٱلْمُسْتَوِي ٱلْمُنْتَصِبِ بِٱلرُّمْحِ . وَٱلْقَدِّ ٱللَّطِيفِ بِٱلْغُصْنِ . وَٱلشَّيْءِ ٱلْمُسْتَدِيرِ بِٱلْكُرَةِ وَٱلْحَلْقَةِ . وَعِظَمِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْجَبَلِ . وَٱلذَّاهِبِ عَلَى ٱلْاِسْتِقَامَةِ بِنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ . اَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلْجُسْمَانِيَّةِ كَٱلصَّلَابَةِ وَٱلرَّخَاوَةِ . اَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ كَٱلْغَرَائِزِ وَٱلْاَخْلَاقِ . اَوْ فِي حَالَةٍ اِضَافِيَّةٍ كَقَوْلِكَ : هٰذِهِ حُجَّةٌ كَٱلشَّمْسِ . وَٱلْجَامِعُ اَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُزِيلٌ لِلْحِجَابِ وَكَقَوْلِكَ : اَلْفَاظُهُ كَٱلْمَاءِ فِي ٱلسَّلَاسَةِ . وَكَٱلنَّسِيمِ فِي ٱلرِّقَّةِ . وَكَٱلْعَسَلِ فِي ٱلْحَلَاوَةِ . وَٱلْجَامِعُ سُرْعَةُ وُصُولِهِ اِلَى ٱلنَّفْسِ وَٱهْتِزَازُهَا بِهِ . وَرُبَّمَا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ بِوَجْهٍ عَقْلِيٍّ كَقَوْلِ فَاطِمَةَ بِنْتِ ٱلْخُوشَبِ ٱلْاَنْمَارِيَّةِ حِينَ وَصَفَتْ بَنِيهَا : هُمْ كَٱلْحَلْقَةِ ٱلْمُفْرَغَةِ لَا يُدْرَى اَيْنُ طَرَفَاهَا . فَاِنَّهُ لَا يَفْهَمُ ٱلْمَقْصُودَ اِلَّا مَنْ لَهُ ذِهْنٌ يَتَرَفَّعُ عَنْ طَبَقَةِ ٱلْعَامَّةِ بِخِلَافِ مَا سَبَقَ . وَمِنَ ٱلْفَرْقِ ٱلظَّاهِرِ بَيْنَهُمَا اَنَّ جَعْلَ ٱلْفَرْعِ اَصْلًا وَٱلْاَصْلِ فَرْعًا يَجِيءُ فِيمَا تَقَدَّمَ مَجِيئًا وَاسِعًا كَقَوْلِهِمْ فِي ٱلنُّجُومِ : كَاَنَّهُمْ مَصَابِيحُ . وَفِي ٱلْمَصَابِيحِ : كَاَنَّهَا نُجُومٌ . وَاِنْ حَاوَلْتَ ذٰلِكَ فِي ٱلثَّانِي لَمْ يَكَدْ يَنْقَادُ ٱنْقِيَادَ ٱلْاَوَّلِ . (ٱلثَّانِي) تَشْبِيهُ ٱلْمَعْقُولِ بِٱلْمَعْقُولِ كَتَشْبِيهِ ٱلْوُجُودِ ٱلْعَارِي عَنِ ٱلْفَوَائِدِ بِٱلْعَدَمِ وَتَشْبِيهِ ٱلْفَوَائِدِ ٱلَّتِي تَبْقَى بَعْدَ عَدَمِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْوُجُودِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رُبَّ حَيٍّ كَمَيِّتٍ لَيْسَ فِيهِ اَمَلٌ يُرْتَجَى لِنَفْعٍ وَضُرِّ
وَعِظَامٍ تَحْتَ التُّرَابِ وَفَوْقَ الْاَ رْضِ مِنْهَا آثَارُ حَمْدٍ وَشُكْرِ

(الثَّالِثُ) تَشْبِيهُ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ كَقَوْلِهِ : وَالَّذِينَ كَفَرُوا اَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ . وَكَقَوْلِهِ : وَالَّذِينَ كَفَرُوا اَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ. (الرَّابِعُ) تَشْبِيهُ الْمَحْسُوسِ بِالْمَعْقُولِ وَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ لِاَنَّ الْعُلُومَ مُسْتَفَادَةٌ مِنَ الْحَوَاسِّ وَمُنْتَهِيَةٌ اِلَيْهَا وَلِذٰلِكَ قِيلَ : مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدَ عِلْمًا. فَاِذَا كَانَ الْمَحْسُوسُ اَصْلًا لِلْمَعْقُولِ فَتَشْبِيهُهُ بِهِ يَكُونُ جَعْلًا لِلْفَرْعِ اَصْلًا وَالْاَصْلِ فَرْعًا . وَلِذٰلِكَ لَوْ حَاوَلَ مُحَاوِلٌ الْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ الشَّمْسِ بِالظُّهُورِ وَالْمِسْكِ بِالثَّنَاءِ فَقَالَ : الشَّمْسُ كَالْحُجَّةِ فِي الظُّهُورِ . وَالْمِسْكُ كَالثَّنَاءِ فِي الطِّيبِ . كَانَ سَخِيفًا مِنَ الْقَوْلِ . فَاَمَّا مَا جَاءَ فِي الْاَشْعَارِ مِنْ تَشْبِيهِ الْمَحْسُوسِ بِالْمَعْقُولِ فَوَجْهُهُ اَنْ يُقَدَّرَ الْمَعْقُولُ مَحْسُوسًا وَيُجْعَلَ كَالْاَصْلِ الْمَحْسُوسِ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ فَيَصِحُّ التَّشْبِيهُ حِينَئِذٍ . وَذٰلِكَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

وَكَاَنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا سُنَنٌ لَاحَ بَيْنَهُنَّ اَبْتِدَاعُ

فَاِنَّهُ لَمَّا شَاعَ وَصْفُ السُّنَّةِ بِالْبَيَاضِ وَالْاِشْرَاقِ عَلَى مَا قِيلَ : اَتَيْتُكُمْ بِالْحَنِيفِيَّةِ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا . وَاشْتُهِرَتِ الْبِدْعَةُ وَكُلُّ مَا لَيْسَ بِحَقٍّ بِالظُّلْمَةِ تَخَيَّلَ الشَّاعِرُ اَنَّ السُّنَنَ كَاَنَّهَا مِنَ الْاَجْنَاسِ الَّتِي لَهَا اِشْرَاقٌ وَنُورٌ وَاَنَّ الْبِدَعَ نَوْعٌ مِنَ الْاَنْوَاعِ الَّتِي لَهَا اخْتِصَاصٌ بِالسَّوَادِ وَالظُّلْمَةِ. فَصَارَ ذٰلِكَ عِنْدَهُ كَتَشْبِيهِ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ فَجَازَ لَهُ التَّشْبِيهُ. وَبِالْجُمْلَةِ فَهٰذَا التَّشْبِيهُ لَا يَتِمُّ اِلَّا بِتَخَيُّلِ مَا لَيْسَ بِمُتَلَوِّنٍ مُتَلَوِّنًا . ثُمَّ

يُتَخَيَّلُ اَصْلًا فَيُشَبَّهُ بِهِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّأْوِيلُ فِي قَوْلِ اَبِي طَالِبٍ ٱلرَّقِّيِّ :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَٱلظَّلَامُ كَاَنَّهُ يَوْمُ ٱلنَّوَى وَفُؤَادُ مَنْ لَمْ يَرْفُقِ

فَاِنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْاَوْقَاتُ ٱلَّتِي تَحْدُثُ فِيهَا ٱلْمَكَارِهُ تُوصَفُ بِٱلسَّوَادِ (يُقَالُ : اَسْوَدَّتِ ٱلدُّنْيَا فِي عَيْنَيْهِ). جَعَلَ يَوْمَ ٱلنَّوَى كَاَنَّهُ اَشْهَرُ وَاَعْرَفُ بِٱلسَّوَادِ مِنَ ٱلظَّلَامِ فَعَرَّفَهُ بِهِ وَشَبَّهَهُ . ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ فُؤَادَ مَنْ لَا يَرْفُقُ تَظَرُّفًا . وَٱلْقَلْبُ ٱلْقَاسِي يُوصَفُ بِشِدَّةِ ٱلسَّوَادِ . فَصَارَ هٰذَا ٱلْقَلْبُ اَصْلًا عِنْدَهُ فِي ٱلسَّوَادِ فَقِسْ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ حِينَ اَهْدَى لِلْقَاضِي اَبِي ٱلْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْجُرْجَانِيِّ عِطْرًا :

يَا اَيُّهَا ٱلْقَاضِي ٱلَّذِي نَفْسِي لَهُ فِي قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ مُشْتَاقَهْ
اَهْدَيْتُ عِطْرًا مِثْلَ طِيبِ ثَنَائِهِ فَكَاَنَّمَا اُهْدِي لَهُ اَخْلَاقَهْ

وَٱلْعَادَةُ تَشْبِيهُ ٱلثَّنَاءِ بِٱلْعِطْرِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْاَمْرِ عَلَى جِهَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ كَمَا بَيَّنَّا . وَقُلْتُ فِي تَشْبِيهِ حِصْنٍ :

كَاَنَّهُ وَكَاَنَّ ٱلْجَوَّ يَكْنِفُهُ وَهْمٌ تَمَثَّلَهُ فِي طَيِّهَا ٱلْفِكَرُ

لِاَنَّهُ لَمَّا اَرْتَفَعَ ٱلْحِصْنُ فِي ٱلْجَوِّ حَتَّى صَارَ كَٱلْوَهْمِ فَيَكُونُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْمَحْسُوسِ بِمَا تُخُيِّلَ اَنَّهُ مَحْسُوسٌ لِاِظْلَامِهِ فِي ٱلْعَيْنِ اَوْ فُرِضَ لَهُ ٱلْخَفَاءُ حَتَّى صَارَ يُشْبِهُ مَعْقُولًا بِمَعْقُولٍ . وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ تَشْبِيهُ ٱلْوُجُودِ بِٱلتَّخَيُّلِ ٱلَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ فِي ٱلْاَعْيَانِ كَتَشْبِيهِ ٱلْخَمْرِ بَيْنَ ٱلرَّمَادِ بِبَحْرٍ مِنَ ٱلْمِسْكِ مَوْجُهُ ٱلذَّهَبُ . وَذٰلِكَ اِنَّمَا يَتِمُّ اِذَا فَرَضَ ٱلْمُتَخَيِّلُ اُمُورًا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَوْجُودٌ فِي ٱلْاَعْيَانِ . فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ٱلتَّشْبِيهُ حَسَنًا لَطِيفًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي ٱلنَّرْجِسِ :

كَأَنَّ عُيُونَ ٱلنَّرْجِسِ ٱلْغَضِّ بَيْنَنَا مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقِيقُ

وَكَقَوْلِ آخَرَ فِي تَشْبِيهِ ٱلشَّقَائِقِ :

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ ٱلشَّقِيقِ م إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدْ

أَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

أَيَقْتُلُنِي وَٱلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فَإِنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا أَنْيَابَ ٱلْأَغْوَالِ بَلِ ٱعْتَقَدُوا أَنَّهَا فِي غَايَةِ ٱلْحِدَّةِ فَحَسُنَ ٱلتَّشْبِيهُ . وَعَلَيْهِ جَاءَ قَوْلُهُ : طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ. لِتَنَاهِي رُؤُوسِ ٱلشَّيَاطِينِ فِي ٱلْكَرَاهَةِ وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي قُبْحِ ٱلشَّيْطَانِ وَكَرَاهِيَتِهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلْوَجْهَ ٱلْقَبِيحَ . وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي خَيْرِ ٱلْمَلَكِ وَأَنَّهُ لَا شَرَّ فِيهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلصُّوَرَ ٱلْحَسَنَةَ كَمَا قَالَ : مَا هٰذَا بَشَرٌ إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مَا بِهِ ٱلْمُشَابَهَةُ قَدْ يَكُونُ مُقَيَّدًا بِٱلِٱنْتِسَابِ إِلَى ٱلشَّيْءِ وَذٰلِكَ إِمَّا إِلَى ٱلْمَعْقُولِ بِهِ وَهُوَ ٱلْجَارُّ وَٱلْمَجْرُورُ كَقَوْلِهِمْ لِمَنْ يَفْعَلُ مَا لَا يُفِيدُ : كَٱلرَّاقِمِ عَلَى ٱلْمَاءِ . وَإِمَّا إِلَى ٱلْحَالِ كَقَوْلِهِمْ : كَٱلْحَادِي وَلَيْسَ لَهُ بَعِيرٌ (ٱلْوَاوُ لِلْحَالِ) . وَإِمَّا إِلَى ٱلْمَفْعُولِ بِهِ وَٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ كَقَوْلِهِمْ : هُوَ كَمَنْ يَجْمَعُ ٱلسَّيْفَيْنِ فِي غِمْدٍ وَكَمُبْتَغِي ٱلصَّيْدَ فِي عِرِّيسَةِ ٱلْأَسَدِ . وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلنَّاسُ إِلَّا كَٱلدِّيَارِ وَأَهْلُهَا بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وَغَدْوًا بَلَاقِعُ

فَإِنَّهُ لَمْ يُشَبِّهِ ٱلنَّاسَ بِٱلدِّيَارِ وَإِنَّمَا شَبَّهَ وُجُودَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهِمْ بِحُلُولِهِمِ ٱلدِّيَارَ وَوَشْكِ رَحِيلِهِمْ مِنْهَا . وَكُلَّمَا كَانَتِ ٱلْمُقَدَّمَاتُ

اَكْثَرَ كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ اَوْغَلَ فِي كَوْنِهِ عَقْلِيًّا كَقَوْلِهِ : اِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ اَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْاَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْاَنْعَامُ حَتَّى اِذَا اَخَذَتِ ٱلْاَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ اَهْلُهَا اَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا اَتَاهَا اَمْرُنَا لَيْلًا اَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَاَنْ لَمْ تَغْنَ بِٱلْاَمْسِ . فَاِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ مُنْتَزَعٌ مِنْ مَجْمُوعِ هٰذِهِ ٱلْجُمَلِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُمْكِنَ فَصْلُ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ . فَاِنَّكَ لَوْ حَذَفْتَ مِنْهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنْ اَيِّ مَوْضِعٍ كَانَ اَخَلَّ ذٰلِكَ بِٱلْمَقْصُودِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ . ثُمَّ مَا بِهِ ٱلْمُشَابَهَةُ اِنْ كَانَ مُرَكَّبًا فَاِنَّهُ عَلَى قِسْمَيْنِ : (اَلْاَوَّلُ) مَا لَا يُمْكِنُ اِفْرَادُ اَحَدِ اَجْزَائِهِ بِٱلذِّكْرِ كَقَوْلِهِ :

كَاَنَّ سُهَيْلًا وَٱلنُّجُومُ وَرَاءَهُ صُفُوفُ صَلَاةٍ قَامَ فِيهَا اِمَامُهَا

فَاَنَّهُ لَا يُمْكِنُ اِفْرَادُ اَجْزَاءِ هٰذَا ٱلتَّشْبِيهِ اِذْ لَوْ قُلْتَ : كَاَنَّ سُهَيْلًا اِمَامٌ وَكَاَنَّ ٱلنُّجُومَ صُفُوفُ صَلَاةٍ . ذَهَبَتْ فَائِدَةُ هٰذَا ٱلتَّشْبِيهِ . (اَلثَّانِي) مَا يُمْكِنُ اِفْرَادُهُ بِٱلذِّكْرِ وَيَكُونُ اِذَا اُزِيلَ مِنْهُ ٱلتَّرْكِيبُ صَحِيحَ ٱلتَّشْبِيهِ فِي طَرَفَيْهِ اِلَّا اَنَّ ٱلْمَعْنَى مُغَيَّرٌ كَقَوْلِ اَبِي طَالِبٍ ٱلرَّقِّيِّ :

وَكَاَنَّ اَجْرَامَ ٱلنُّجُومِ لَوَامِعًا دُرَرٌ نُثِرْنَ عَلَى بِسَاطٍ اَزْرَقِ

فَلَوْ قُلْتَ : كَاَنَّ ٱلنُّجُومَ دُرَرٌ وَكَاَنَّ ٱلسَّمَاءَ بِسَاطٌ اَزْرَقُ وَجَدْتَ ٱلتَّشْبِيهَ مَقْبُولًا . وَلٰكِنَّ ٱلْمَقْصُودَ مِنَ ٱلْهَيْئَةِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهَا قَدْ زَالَ . وَرُبَّمَا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ فِي اُمُورٍ كَثِيرَةٍ وَلَا يَتَقَيَّدُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ . وَاِنَّمَا يَكُونُ بَعْضُهَا مَضْمُومًا اِلَى ٱلْبَعْضِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُنْفَرِدٌ بِنَفْسِهِ

كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَالْأَسَدِ بَأْسًا وَالْبَحْرِ جُودًا وَالسَّيْفِ مَضَاءً وَالْبَدْرِ بَهَاءً . وَكَقَوْلِكَ : هُوَ يَصْفُو وَيَكْدُرُ وَيَحْلُو وَيُرُّ . وَلَهُ خَاصَّتَانِ (إِحْدَاهُمَا) أَنَّهُ لَا يَجِبُ فِيهِ التَّرْتِيبُ . (وَالثَّانِيَةُ) إِذَا أُسْقِطَ الْبَعْضُ لَا يَتَغَيَّرُ حُكْمُ الْبَاقِي . وَمِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَّابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

وَفِيهِ نَظَرٌ

البحث التاسع عشر

في التشابيه المستعملة عند العرب

(من كتاب الصناعتين للعسكري وعن البديعيات)

أَمَّا الطَّرِيقَةُ الْمَسْلُوكَةُ فِي التَّشْبِيهِ وَالنَّهْجُ الْقَاصِدُ فِي التَّمْثِيلِ عَنِ الْقُدَمَاءِ وَالْمُحْدَثِينَ فَتَشْبِيهُ الْجَوَادِ بِالْبَحْرِ وَالْمَطَرِ . وَالشُّجَاعِ بِالْأَسَدِ . وَالْحَسَنِ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ . وَالْفَهِمِ الْمَاضِي بِالسَّيْفِ . وَالْعَالِي الرُّتْبَةِ بِالنَّجْمِ . وَالْحَلِيمِ الرَّزِينِ بِالْجَبَلِ . وَالْحَيِيِّ بِالْبِكْرِ . ثُمَّ يُشَبِّهُونَ اللَّئِيمَ بِالْكَلْبِ . وَالْجَبَانَ بِالصِّفْرِدِ . وَالطَّائِشَ بِالْفَرَاشِ . وَالذَّلِيلَ بِالنَّقَدِ وَالنَّعْلِ . وَالنَّفْعَ بِالْوَتَدِ . وَالْقَاسِيَ بِالْحَدِيدِ وَالصَّخْرِ . وَالْبَلِيدَ بِالْجَمَادِ . وَشُهِرَ قَوْمٌ بِخِصَالٍ مَحْمُودَةٍ فَصَارُوا فِيهَا أَعْلَامًا فَجَرَوْا مَجْرَى مَا قَدَّمْنَاهُ كَالسَّمَوْأَلِ فِي الْوَفَاءِ . وَحَاتِمٍ فِي السَّخَاءِ . وَالْأَحْنَفِ فِي الْحِلْمِ . وَسَحْبَانَ فِي الْبَلَاغَةِ . وَقُسٍّ فِي الْخَطَابَةِ . وَلُقْمَانَ فِي الْحِكْمَةِ . وَشُهِرَ آخَرُونَ بِأَضْدَادِ هٰذِهِ الْخِصَالِ فَشُبِّهَ بِهِمْ فِي حَالِ الذَّمِّ كَبَاقِلٍ فِي الْعِيِّ . وَهَبَنَّقَةَ فِي الْحُمْقِ . وَالْكُسَعِيِّ فِي النَّدَامَةِ . وَمَادِرٍ فِي الْبُخْلِ

وَٱلتَّشْبِيهُ يَزِيدُ ٱلْمَعْنَى وُضُوحًا وَيُكْسِبُهُ تَأْكِيدًا . وَقَدْ يَأْتِي تَارَةً لِبَيَانِ إِمْكَانِ وُجُودِ ٱلشَّيْءِ عِنْدَ ٱدِّعَاءِ مَا لَا يَكُونُ إِمْكَانُهُ بَيِّنًا . كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

فَإِنْ تَفُقِ ٱلْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ ٱلْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ ٱلْغَزَالِ

وَيَكُونُ لِبَيَانِ مِقْدَارِ ٱلشَّيْءِ كَمَا إِذَا حَاوَلْتَ نَفْيَ ٱلْفَائِدَةِ مِنْ فِعْلِ ٱلْإِنْسَانِ قُلْتَ : هُوَ كَٱلْقَابِضِ عَلَى ٱلْمَاءِ . وَقَدْ أَطْبَقَ جَمِيعُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ عَلَى فَوَائِدِ ٱلتَّشْبِيهِ . وَلَمْ يَسْتَغْنِ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْهُ . وَقَدْ جَاءَ عَنِ ٱلْقُدَمَاءِ وَأَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْ كُلِّ جِيلٍ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ وَمَوْقِعِهِ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ بِكُلِّ لِسَانٍ . فَمِنْ ذٰلِكَ مَا قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : ٱلدُّنْيَا كَٱلْمَاءِ كُلَّمَا ٱزْدَدْتَ مِنْهُ شُرْبًا ٱزْدَدْتَ مِنْهُ عَطَشًا . وَقَالَ : صُحْبَةُ ٱلْأَشْرَارِ تُورِثُ ٱلشَّرَّ كَٱلرِّيحِ إِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلْمُنْتِنِ لَمَتْ نَتَنًا . وَإِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلطَّيِّبِ حَمَلَتْ طِيبًا . وَقَالَ : مَنْ أَنْعَمَ لِمَنْ لَا يَشْكُرُ كَانَ كَمَنْ نَثَرَ بَذْرَهُ فِي ٱلسِّبَاخِ . وَقَدْ نَظَمْتُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى :

أَلَا إِنَّمَا ٱلنُّعْمَى تُجَازَى بِمِثْلِهَا إِذَا كَانَ مُسْدَاهَا إِلَى مَاجِدٍ حَرِي
فَمَا إِذَا كَانَتْ إِلَى غَيْرِ مَاجِدٍ فَقَدْ ذَهَبَتْ فِي غَيْرِ حَمْدٍ وَلَا شُكْرِ
إِذَا ٱلْمَرْءُ أَلْقَى فِي ٱلسِّبَاخِ بُذُورَهُ أَضَاعَ فَلَمْ يَرْجِعْ بِزَرْعٍ وَلَا بَذْرِ

وَقَالَ أَيْضًا : لَا يَخْفَى فَضْلُ ذِي ٱلْعِلْمِ وَإِنْ أَخْفَاهُ كَٱلْمِسْكِ يُخْبَأُ وَيُسْتَرُ ثُمَّ لَا يَمْنَعُ ذٰلِكَ رَائِحَتَهُ أَنْ تَفُوحَ . أَخَذَهُ ٱلصَّاحِبُ فَكَتَبَ : أَنْتَ أَدَامَ ٱللّٰهُ عِزَّكَ . وَإِنْ طَوَيْتَ عَنَّا خَبَرَكَ . وَجَعَلْتَ وَطَنَكَ وَطَرَكَ .

فَأَنْبَاؤُكَ تَأْتِينَا كَمَا وَشَى بِالْمِسْكِ رِيَاهُ . وَنَمَّ عَلَى الصَّبَاحِ مُحَيَّاهُ .
وَقَالَ : اَلرَّجُلُ ذُو الْمُرُوءَةِ يُكْرَمُ عَلَى غَيْرِ مَالٍ . كَالْأَسَدِ يُهَابُ وَإِنْ كَانَ رَابِضًا . وَالرَّجُلُ الَّذِي لَا مُرُوءَةَ لَهُ يُهَانُ وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا .
كَالْكَلْبِ يُهَانُ عَلَى النَّاسِ وَإِنْ طُوِّقَ . وَقَالَ : لَا يَجِبُ لِلْمُذْنِبِ
أَنْ يُفْحَصَ عَنْ أَمْرِهِ لِقُبْحِ مَا يَنْكَشِفُ مِنْهُ كَالشَّيْءِ الْمُنْتِنِ كُلَّمَا أُثِيرَ
ازْدَادَ نَتْنًا . وَقَالَ أَيْضًا : مَنْ يَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ لِعَاجِلِ الْجَزَاءِ فَهُوَ
كَمُلْقِي الْحَبِّ لِلطَّيْرِ لَا لِيَنْفَعَهَا بَلْ لِيَصِيدَهَا بِهِ . وَقَالَ أَيْضًا : اَلْمَالُ إِذَا
اجْتَمَعَ وَلَمْ يُصْرَفْ فِي الْحُقُوقِ أَسْرَعَ إِلَيْهِ الْهَلَاكُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ كَالْمَاءِ
إِذَا اجْتَمَعَ فِي مَوْضِعٍ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَى النُّفُوذِ تَفَجَّرَ مِنْ جَوَانِبِهِ
فَضَاعَ . وَقَالَ أَيْضًا : يَبْقَى الصَّالِحُ مِنَ الرِّجَالِ صَالِحًا حَتَّى يُصَاحِبَ
فَاسِدًا فَإِذَا صَاحَبَهُ فَسَدَ مِثْلُ مِيَاهِ الْأَنْهَارِ تَكُونُ عَذْبَةً حَتَّى تُخَالِطَ
مَاءَ الْبَحْرِ فَإِذَا خَالَطَتْهُ مَلُحَتْ . وَمِنَ التَّشَابِيهِ الْحَسَنَةِ قَوْلُ جَعْفَرِ بْنِ
مُحَمَّدٍ : اَلْأَدَبُ عِنْدَ الْأَحْمَقِ كَالْمَاءِ الْعَذْبِ فِي أُصُولِ الْحَنْظَلِ كُلَّمَا
ازْدَادَ رِيًّا ازْدَادَ مَرَارَةً . وَمِنَ التَّشَابِيهِ الشِّعْرِيَّةِ الْبَدِيعَةِ قَوْلُ لَبِيدٍ :

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ ... يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ
وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ ... وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ

ثُمَّ قَالَ :

وَأَصْبَحْتُ مِثْلَ السَّيْفِ أَخْلَقَ جَفْنُهُ ... تَقَادُمُ عَهْدِ الْقَيْنِ وَالنَّصْلُ قَاطِعُ

وَكَقَوْلِ صَالِحِ بْنِ جَنَاحٍ الْعَبْسِيِّ :

أَلَا إِنَّمَا الْإِنْسَانُ غِمْدٌ لِقَلْبِهِ ... وَلَا خَيْرَ فِي غِمْدٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ نَصْلُ

وَقَالَ مُتَمِّمٌ :

وَبَعْضُ ٱلرِّجَالِ نَخْلَةٌ لَاجَنَى لَهَا ... وَلَاظِلَّ إِلَّا أَنْ يُعَدَّ مِنَ ٱلنَّخْلِ

وَقَالَ ٱلْأَخْطَلُ ٱلنَّصْرَانِيُّ :

وَإِذَا ٱفْتَقَرْتَ إِلَى ٱلذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ... ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ ٱلْأَعْمَالِ

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي ٱلنُّعْمَانِ :

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْأَنَامُ كَوَاكِبٌ ... إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَمِنْ بَدِيعِ تَشَابِيهِ ٱلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ :

وَإِنِّي وَإِسْمَاعِيلَ يَوْمَ وَدَاعِهِ ... فَكَٱلْغِمْدُ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ فَارَقَهُ ٱلنَّصْلُ

وَكَقَوْلِ بَدِيعِ ٱلزَّمَانِ ٱلْهَمَذَانِيِّ :

قَدْ كَادَ يَحْكِيكَ صَوْبُ ٱلْغَيْثِ مُنْسَكِبًا
لَوْ كَانَ طَلْقَ ٱلْمُحَيَّا يُمْطِرُ ٱلذَّهَبَا
وَٱلدَّهْرُ لَوْ لَمْ يَخُنْ وَٱلشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ
وَٱللَّيْثُ لَوْ لَمْ يُصَدْ وَٱلْبَحْرُ لَوْ عَذُبَا

وَلِلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ ظَبْيٍ :

أَغْنَاهُ حُسْنُ ٱلْجِيدِ عَنْ لُبْسِ ٱلْحُلِي ... وَعَادَةُ ٱلْعُرْيِ عَنِ ٱلتَّفَضُّلِ
كَأَنَّهُ مُضَمَّخٌ بِصَنْدَلِ

وَكَقَوْلِهِ فِي سُرْعَةِ ٱلْأَوْبَةِ وَتَقْلِيلِ ٱللُّبْثِ :

وَمَا أَنَا غَيْرَ سَهْمٍ فِي هَوَاءٍ ... يَعُودُ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ ٱمْتِسَاكَا

وَلَهُ قَوْلُهُ :

وَأَنْتَ حُسَامُ ٱلْمُلْكِ وَٱللهُ ضَارِبٌ ... وَأَنْتَ لِوَاءُ ٱلدِّينِ وَٱللهُ عَاقِدُ

وَلَهُ اَيضًا وَهُوَ مِنْ جِنْسِ ٱلاِبْدَاعِ :

مَلِكٌ سِنَانُ قَنَاتِهِ وَبَنَانُهُ يَتَبَارَيَانِ دَمًا وَعَرْفًا سَاكِبَا
كَٱلْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ ٱلْتَفَتَّ رَاَيْتَهُ يُهْدِي اِلَى عَيْنَيْكَ نُورًا ثَاقِبَا
كَٱلشَّمْسِ فِي كَبِدِ ٱلسَّمَاءِ وَضَوْءُهَا يَغْشَى ٱلْبِلَادَ مَشَارِقًا وَمَغَارِبَا
كَٱلْبَحْرِ يَقْذِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرًا جُودًا وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَائِبَا

وَكَثِيرًا مَا يَتَلَطَّفُ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَيُشَبِّهُونَ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةٍ . وَرُبَّمَا شَبَّهُوا شَيْئَيْنِ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةً بِثَلَاثَةٍ وَاَرْبَعَةً بِاَرْبَعَةٍ . وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ اَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ :

لَهُ اَيْطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَاِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

وَكَقَوْلِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

كَاَنَّ مُثَارَ ٱلنَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَاَسْيَافِنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهْ

وَلِٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فِي تَشْبِيهِ حُبَابِ ٱلرَّاحِ :

يَجُولُ حُبَابُ ٱلرَّاحِ فِي جَنَبَاتِهَا كَمَا جَالَ دَمْعٌ فَوْقَ خَدٍّ مُوَرَّدِ

وَلِآخَرَ قَدْ شَبَّهَ اَرْبَعَةَ اَشْيَاءَ بِاَرْبَعَةٍ :

لِلّٰهِ طِرْسٌ عَنْ سُطُورٍ جَادَهَا م ٱلْفِكْرُ ٱلسَّلِيمُ بِصَوْبِ مِسْكٍ اَذْفَرِ
فَكَاَنَّمَا هُوَ رَوْضَةٌ اَوْ جَدْوَلٌ اَوْ سِمْطُ دُرٍّ اَوْ قِلَادَةُ عَنْبَرِ

وَمِنْ اَنْوَاعِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلتَّمْثِيلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ تَشْبِيهًا وَاحِدًا مُقَيَّدًا بِقُيُودٍ وَيُظَنُّ اَنَّهَا تَشْبِيهَاتٌ مَجْمُوعَةٌ كَقَوْلِهِ :

كَمَا اَبْرَقَتْ قَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ فَلَمَّا رَجَوْهَا اَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتِ

فَاِنَّ مُجَرَّدَ قَوْلِهِ : اَبْرَقَتْ قَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ لَيْسَ تَشْبِيهًا مُسْتَقِلًّا

بذاته. لأنَّ مقصود الشاعر أن يصف ابتداء مطمع أدّى إلى انتهاء مؤيس. وذلك لا يتمّ إلا بجملة فإنّ تأدية الشيء إلى غيره حكمٌ زائدٌ على ذاته

واعلم أنّ من التشبيه ضربًا يسمّى الطرد والعكس. وهو أن يجعل المشبَّه به مشبّهًا والمشبَّه شبّهًا به. وبعضهم يسمّيه: غلبة الفروع على الأصول. ولا تجد شيئًا من ذلك إلا والغرض به المبالغة. كقول الشاعر:

وبدا الصباح كأنّ غرّته وجه الخليفة حين يمتدح

فجعل الأصل فرعًا والفرع أصلًا. وهذا أبلغ وأحسن وأمدح من تشبيه الوجه بالصباح. لأنّ تشبيه الوجه بالصباح أصلٌ متّفقٌ عليه لا ينكر ولا يستنكر. وإنما الذي يستنكر تشبيه الصباح بالوجه

البحث العشرون

في معايب التشبيه

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرّف)

وإذ ذكرنا أقسام التشبيه وبيّنا المحمود منها الذي ينبغي اقتفاء أثره واتّباع مذهبه فلنتبعه بضدّه مما ينبغي اجتنابه والإضراب عنه. على أنّه قد قدّمنا القول بأنّ حدّ التشبيه هو أن يُثبت للمشبَّه حكمٌ من أحكام المشبَّه به. فإذا لم يكن بهذه الصفة أو كان بين المشبَّه والمشبَّه به بُعدٌ فذلك الذي يُطرح ولا يُستعمل. والذي يُردّ منه مُضمر الأداة لا يكون إلا في التوسّع. كقول أبي نؤاس:

مَا لِرِجْلِ ٱلْمَالِ ٱمْسَتْ تَشْتَكِي مِنْكَ ٱلْكَلَالَا

فَجَعَلَ لِلْمَالِ رِجْلًا وَذٰلِكَ تَشْبِيهٌ بَعِيدٌ. وَمِنْ اَقْبَحِ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

وَتَعَلَّمَ ٱلنَّاسُ ٱلسَّخَاءَ مُجَزَّأً وَذَهَبْتَ اَنْتَ بِرَأْسِهِ وَسَنَامِهِ

وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلْاِهَابَ وَمَا بَقِي مِنْ فَرْثِهِ وَعُرُوقِهِ وَعِظَامِهِ

وَٱلْقُبْحُ ٱلْفَاحِشُ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَكُلُّ هٰذَا ٱلتَّعَسُّفُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْبَعِيدِ دَنْدَنَةٌ حَوْلَ مَعْنًى لَيْسَ بِطَائِلٍ. فَاِنَّ غَرَضَهُ اَنْ يَقُولَ : ذَهَبْتَ بِٱلْاَعْلَى وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلْاَدْنَى. اَوْ : ذَهَبْتَ بِٱلْجَيِّدِ وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلرَّدِيءَ. وَاَمَّا (ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُظْهَرُ ٱلْاَدَاةِ) فَهٰذِهِ اَمْثَالٌ اَوْرَدْتُهَا لِتَسْتَدِلَّ بِهَا عَلَى اَشْبَاهِهِ فَاِنَّ لِذِكْرِ ٱلْمِثَالِ فَائِدَةً لَا تَكُونُ لِذِكْرِ ٱلْحَدِّ وَحْدَهُ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

تَلَا حَاجِبَيْكَ ٱلشَّيْبُ حَتَّى كَاَنَّهُ ظِبَاءٌ جَرَتْ مِنْهَا سَنِيحٌ وَبَارِحُ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْآخَرِ يَصِفُ ٱلسِّهَامَ فَشَبَّهَهَا بِاَعْنَاقِ ٱلظِّبَاءِ. وَذٰلِكَ مِنْ اَبْعَدِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ :

كَسَاهَا رَطِيبُ ٱلرِّيشِ فَاعْتَدَلَتْ لَهُ قِدَاحٌ كَاَعْنَاقِ ٱلظِّبَاءِ ٱلْفَوَارِقِ

وَعَلَى نَحْوٍ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

يَمْشُونَ فِي حَلَقِ ٱلْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ جُرْبُ ٱلْجِمَالِ بِهَا ٱلْكَحِيلُ ٱلْمُشْعَلُ

فَشَبَّهَ ٱلرِّجَالَ فِي دُرُوعِ ٱلزَّرَدِ بِٱلْجِمَالِ ٱلْجُرْبِ. وَهٰذَا مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْبَعِيدِ ٱلسَّخِيفِ فَضْلًا عَنْ اَنْ لَا مُقَارَبَةَ بَيْنَهُمَا فِي ٱللَّوْنِ. وَمِنَ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْبَارِدَةِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وجرى على الورق النجيع القاني فكأنه النارنج في الاغصان

وهذا تشبيه ينكره اهل التجسيم . وقد عدوا من التشابيه التي هي غير بليغة قول الشاعر في وصف الروض :

كان شقائق النعمان فيه ثياب قد روين من الدماء

فهذا وان كان تشبيها مضيئاً فان فيه بشاعة كثرة الدماء التي تعاف الانفس اللطيفة رؤيتها . وفي اقوال العرب تشابيه تمجها الاذواق الصحيحة وتنفر منها الطباع السليمة . فمن ذلك قول النابغة وقد عابه الاصمعي بين يدي الرشيد :

نظرت اليك بحاجة لم تقضها نظر المريض الى وجوه العوّد

قال الاصمعي : قد يكره تشبيه الممدوح بالمريض . ومثله قول ابي محجن الثقفي في قينة :

وترجع العود احيانا وتحفظه كما يطير ذباب الروضة الغرد

فان القينة لم ترض ان تشبه نفسها بالذباب . ولذلك رغب المولدون عن تشابيه العرب لانها مع عقادة التركيب لم تسفر عن كبير امر فخالفوها في كثير من الشعر الى ما هو اليق بالوقت وامس باهله

البحث الحادي والعشرون

في المذهب الكلامي

(من شرح بديعيّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَلْمَذْهَبُ اَلْكَلَامِيُّ عِنْدَ اَهْلِ اَلْبَيَانِ هُوَ اِيرَادُ حُجَّةٍ لِلْمَطْلُوبِ عَلَى طَرِيقَةِ اَهْلِ اَلْكَلَامِ . وَهُوَ اَنْ يَكُونَ بَعْدَ تَسْلِيمِ اَلْمُقَدَّمَاتِ مُقَدَّمَةٌ سُتَلْزِمَةٌ لِلْمَطْلُوبِ . وَقِيلَ : هُوَ اَنْ يَأْتِيَ اَلْبَلِيغُ فِي صِحَّةِ دَعْوَاهُ وَاِبْطَالِ دَعْوَى خَصْمِهِ بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَصِحُّ نِسْبَتُهَا اِلَى عِلْمِ اَلْكَلَامِ . اِذْ عِلْمُ اَلْكَلَامِ عِبَارَةٌ عَنْ اِثْبَاتِ اُصُولِ اَلدِّينِ بِاَلْبَرَاهِينِ اَلْعَقْلِيَّةِ اَلْقَاطِعَةِ . وَمِنْ اَوْضَحِ اَلشَّوَاهِدِ فِي هٰذَا اَلنَّوْعِ قَوْلُ اَلْقُرْآنِ : لَوْ كَانَ فِي اَلْاَرْضِ وَاَلسَّمَاءِ آلِهَةٌ اِلَّا اَللّٰهُ لَفَسَدَتَا . فَهٰذَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ . وَتَمَامُ اَلدَّلِيلِ اَنْ تَقُولَ لٰكِنَّهُمَا لَمْ تَفْسُدَا فَلَيْسَ اِذًا فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرَ اَللّٰهِ . وَمِنْ اَمْثِلَةِ هٰذَا اَلْبَابِ قَوْلُ اَعْرَابِيٍّ لِرَجُلٍ : اِنِّي لَمْ اَرُدَّ وَجْهِي عَنِ اَلطَّلَبِ اِلَيْكَ فَصُنْ نَفْسَكَ عَنْ رَدِّي وَضَعْنِي مِنْ كَرَمِكَ بِحَيْثُ وَضَعْتُ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ . وَمِنْهُ قَوْلُ اَلنَّابِغَةِ يَعْتَذِرُ اِلَى اَلنُّعْمَانِ :

حَلَفْتُ فَلَمْ اَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ اَللّٰهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً ... لَمُبْلِغُكَ اَلْوَاشِي اَغَشُّ وَاَكْذَبُ

وَلٰكِنَّنِي كُنْتُ اَمْرَءًا لِيَ جَانِبٌ ... مِنَ اَلْاَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ

مُلُوكٌ وَاِخْوَانٌ اِذَا مَا مَدَحْتَهُمْ أَحَكَّمُ فِي اَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ اَرَاكَ اَصْطَنَعْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي مَدْحِهِمْ لَكَ اَذْنَبُوا

يَقُولُ لِهٰذَا ٱلْمَلِكِ : اَنْتَ اَحْسَنْتَ اِلَى قَوْمٍ فَمَدَحُوكَ . وَاَنَا اَحْسَنَ اِلَيَّ قَوْمٌ فَمَدَحْتُهُمْ . فَكَمَا اَنَّ مَدْحَ مَنْ اَحْسَنْتَ اِلَيْهِ لَكَ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا فَكَذَا مَدْحِي لِمَنْ اَحْسَنَ اِلَيَّ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا . قَالَ اَبْنُ اَبِي ٱلْاِصْبَعِ : وَمِنْ شَوَاهِدِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

لِكُلِّ اِمْرِئٍ نَفْسَانِ نَفْسٌ كَرِيمَةٌ وَنَفْسٌ يُعَاصِيهَا ٱلْفَتَى وَيُطِيعُهَا
وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسَيْكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى اِذَا قَلَّ مِنْ اَحْرَارِهِنَّ شَفِيعُهَا

يَقُولُ : لِكُلِّ اِنْسَانٍ نَفْسٌ مُطْمَئِنَّةٌ تَأْمُرُ بِٱلْخَيْرِ . وَنَفْسٌ اَمَّارَةٌ تَأْمُرُ بِٱلسُّوءِ . وَٱلْاِنْسَانُ يُعَاصِي ٱلْاَمَّارَةَ مَرَّةً وَيُطِيعُهَا اُخْرَى . وَاَنْتَ اِذَا اَمَرَتْكَ ٱلْاَمَّارَةُ بِتَرْكِ ٱلنَّدَى شَفَعَتِ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ اِلَيْهَا فِي ٱلنَّدَى فِي ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا ٱلشَّفِيعُ فِي ٱلنَّدَى مِنَ ٱلنُّفُوسِ . فَاَنْتَ اَكْرَمُ ٱلنَّاسِ

وَاعْلَمْ اَنَّ قِيَاسَ ٱلْمَذْهَبِ ٱلْكَلَامِيِّ اِمَّا حَمْلِيٌّ . وَاِمَّا شَرْطِيٌّ . فَٱلْاَقْيِسَةُ ٱلْحَمْلِيَّةُ قَدِ ٱسْتَنْبَطُوهَا عَلَى صُوَرٍ : مِنْهَا مَا يُرْوَى اَنَّ اَبَا دُلَفَ قَصَدَهُ شَاعِرٌ تَمِيمِيٌّ . فَقَالَ لَهُ : مِمَّنْ اَنْتَ . فَقَالَ مِنْ تَمِيمٍ . فَقَالَ اَبُو دُلَفَ :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ اَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتْ سُبْلَ ٱلْهِدَايَةِ ضَلَّتِ

فَقَالَ لَهُ ٱلتَّمِيمِيُّ : نَعَمْ بِتِلْكَ ٱلْهِدَايَةِ جِئْتُ اِلَيْكَ . فَاَفْحَمَهُ بِدَلِيلٍ حَمْلِيٍّ اَلْزَمَهُ فِيهِ اَنَّ ٱلْمَجِيءَ اِلَيْهِ ضَلَالٌ . وَلَعَمْرِي اِنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلشَّرْطِيَّ

اَوْضَحُ دَلَالَةً فِي هٰذَا ٱلْبَابِ مِنْ غَيْرِهِ وَاَعْذَبُ فِي ٱلذَّوْقِ وَاَسْهَلُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ. فَاِنَّهُ جُمْلَةٌ وَاقِعَةٌ بَعْدَ (لَوْ) وَجَوَابِهَا. وَهٰذِهِ ٱلْجُمْلَةُ عَلَى اَصْطِلَاحِهِمْ مُقَدَّمَةٌ شَرْطِيَّةٌ مُتَّصِلَةٌ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ ٱلْحُكْمِ كَمَا جَاءَ : لَوْ تَعْلَمُونَ مَا اَعْلَمُ (يُرِيدُ اُمُورَ ٱلْآخِرَةِ) لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا . وَتَمَامُ ٱلدَّلِيلِ اَنْ يُقَالَ : لٰكِنَّكُمْ ضَحِكْتُمْ كَثِيرًا وَبَكَيْتُمْ قَلِيلًا فَلَمْ تَعْلَمُوا مَا اَعْلَمُ

وَلَقَدْ زَادُوا عَلَى هٰذَيْنِ ٱلْقِيَاسَيْنِ ٱلْقِيَاسَ ٱلْفِقْهِيَّ وَذٰلِكَ اَنْ يُقَاسَ فَرْعٌ عَلَى اَصْلٍ بِجَامِعٍ بَيْنَهُمَا فَيَلْزَمُ لِلتَّسَاوِي فِي ٱلْحُكْمِ. كَمَا يُحْكَى اَنَّ ٱلْوَلِيدَ قَالَ لِبَعْضِهِمْ : اَنْشِدْ مِنْ قَوْلِكَ فِي ٱلْخَمْرِ . فَاَنْشَدَهُ :

كُمَيْتٍ اِذَا حُثَّتْ وَفِي ٱلْكَأْسِ وِرْدُهَا
لَهَا فِي عِظَامِ ٱلشَّارِبِينَ دَبِيبُ
تُرِيكَ ٱلْقَذَى مِنْ دُونِهَا وَهْيَ دُونَهُ
لِوَجْهِ اَخِيهَا فِي ٱلْاِنَاءِ قُطُوبُ

فَقَالَ لَهُ ٱلْوَلِيدُ : شَرِبْتَهَا وَرَبِّ ٱلْكَعْبَةِ . فَقَالَ : لَئِنْ كَانَ وَصْفِي لَهَا رَابَكَ لَقَدْ رَابَنِي مَعْرِفَتُكَ بِهَا . (يَقُولُ) : كَمَا اَنَّ مَعْرِفَتِي بِوَصْفِهَا رَابَتْكَ كَذٰلِكَ مَعْرِفَتُكَ بِهَا رَابَتْنِي

الفصل الخامس

في محاسن الانشاء ومعايبه

البحث الاوّل

في تمييز الكلام جيّدهِ من رديئهِ ونادرهِ من باردهِ

(عن كتاب الصناعتين للعسكري باختصار)

(راجع صفحة ٥١ من علم الادب)

اَلْكَلَامُ اَيَّدَكَ اللّٰهُ يَحْسُنُ بِسَلَاسَتِهِ وَسُهُولَتِهِ وَنَصَاعَتِهِ وَتَحْسِينِ لَفْظِهِ وَاِصَابَةِ مَعْنَاهُ وَجُودَةِ مَقَاطِعِهِ وَلِينِ مَعَاطِفِهِ وَاسْتِوَاءِ تَقَاسِيمِهِ وَتَعَادُلِ اَطْرَافِهِ وَتَشَبُّهِ اَعْجَازِهِ بِهَوَادِيهِ وَمُوَافَقَةِ مَآخِيرِهِ لِمَبَادِئِهِ مَعَ قِلَّةِ ضَرُورَاتِهِ بَلْ عَدَمِهَا اَصْلًا حَتَّى لَا يَكُونَ لَهَا فِي اَلْاَلْفَاظِ اَثَرٌ . فَتَجِدُ اَلْمَنْظُومَ مِثْلَ اَلْمَنْثُورِ فِي سُهُولَةِ مَطْلَعِهِ وَجُودَةِ مَقْطَعِهِ وَحُسْنِ رَصْفِهِ وَتَأْلِيفِهِ وَكَمَالِ صَوْغِهِ وَتَرْكِيبِهِ . فَاِذَا كَانَ اَلْكَلَامُ كَذٰلِكَ كَانَ بِاَلْقَبُولِ حَقِيقًا وَبِالتَّحَفُّظِ خَلِيقًا كَقَوْلِ اَلْاَوَّلِ :

هُمُ اَلْاُولَى وَهَبُوا لِلْمَجْدِ اَنْفُسَهُمْ ... فَمَا يُبَالُونَ مَا نَالُوا اِذَا حُمِدُوا

وَقَوْلِ مَعْنِ بْنِ اَوْسٍ :

لَعَمْرُكَ مَا اَهْدَيْتُ كَفِّي لِرِيبَةٍ ... وَلَا حَمَلَتْنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي

وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصَرِي لَهَا ... وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي

وَاَعْلَمُ اَنِّي لَمْ تُصِبْنِي مُصِيبَةٌ ... مِنَ اَلدَّهْرِ اِلَّا قَدْ اَصَابَتْ فَتًى قَبْلِي

وَلَسْتُ بِمَاشٍ مَا حَيِيتُ لِمُنْكَرٍ ... مِنَ ٱلْأَمْرِ لَا يَمْشِي اِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي
وَلَا مُؤْثِرٍ نَفْسِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ ... وَأُوثِرُ ضَيْفِي مَا أَقَامَ عَلَى أَهْلِي

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ اِلَى جَانِبِ ٱلْغِنَى ... اِذَا كَانَتِ ٱلْعَلْيَاءُ فِي جَانِبِ ٱلْفَقْرِ

وَقَالَ ٱلْآخَرُ :

ذَرِينِي أَسِيرُ فِي ٱلْبِلَادِ لَعَلَّنِي ... أُصِيبُ غِنًى فِيهِ لَدَى ٱلْحَقِّ مُجْمَلُ
فَاِنْ نَحْنُ لَمْ نَسْطِعْ دِفَاعًا لِحَادِثٍ ... تَجِيءُ بِهِ ٱلْأَيَّامُ فَٱلصَّبْرُ أَجْمَلُ
أَلَيْسَ كَثِيرًا أَنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ ... وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْحُقُوقِ مُعَوَّلُ

وَمِمَّا هُوَ فَصِيحٌ فِي لَفْظِهِ جَيِّدٌ فِي رَصْفِهِ قَوْلُ ٱلشَّنْفَرَى :

أُطِيلُ مِطَالَ ٱلْجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ ... وَأَضْرِبُ عَنْهُ ٱلْقَلْبَ صَفْحًا فَيَذْهَلُ
وَلَوْلَا ٱجْتِنَابُ ٱلْعَارِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ ... يُعَاشُ بِهِ اِلَّا لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
وَلٰكِنَّ نَفْسًا مُرَّةً لَا تُقِيمُنِي ... عَلَى ٱلضَّيْمِ اِلَّا رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ

وَقَوْلُ آخَرَ :

اِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى ٱلْقَذَى ... ظَمِئْتَ وَأَيُّ ٱلنَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

وَمَا اِنْ قَتَلْنَاهُمْ بِأَكْثَرَ مِنْهُمُ ... وَلٰكِنْ بِأَوْفَى لِلطِّعَانِ وَأَكْرَمَا

وَقَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ ... عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلَيْسَ لِهٰذَا ٱلْبَيْتِ نَظِيرٌ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : نَظِيرُهُ قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حُجْرٍ :

وَلَسْتُ بِجَابِيءٍ ابَدًا طَعَامًا حِذَارَ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعَامُ

وَهٰذَا وَاِنْ كَانَ نَظِيرَهُ فِي ٱلتَّأْلِيفِ فَاِنَّهُ دُونَهُ لِمَا تَكَرَّرَ فِيهِ مِنْ لَفْظِ غَدٍ . فَاِنْ كَانَ ٱلْكَلَامُ قَدْ جَمَعَ ٱلْعُذُوبَةَ وَٱلْجَزَالَةَ وَٱلسُّهُولَةَ وَٱلرَّصَانَةَ مَعَ ٱلسَّلَاسَةِ وَٱلنَّصَاعَةِ . وَٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلرَّوْنَقِ وَٱلطُّلَاوَةِ . وَسَلِمَ مِنْ سَخَفِ ٱلتَّأْلِيفِ . وَبَعُدَ مِنْ سَمَاجَةِ ٱلتَّرْكِيبِ . وَرَدَ عَلَى ٱلْفَهْمِ ٱلثَّاقِبِ فَقَبِلَهُ وَلَمْ يَرُدَّهُ . وَعَلَى ٱلسَّمْعِ ٱلْمُصِيبِ ٱسْتَوْعَبَهُ وَلَمْ يَمُجَّهُ . وَٱلنَّفْسُ تَقْبَلُ ٱللَّطِيفَ وَتَنْبُو عَنِ ٱلْغَلِيظِ وَتَقْلَقُ مِنَ ٱلْجَافِي ٱلْبَشِعِ . وَجَمِيعُ جَوَارِحِ ٱلْبَدَنِ وَحَوَاسِّهِ يَسْكُنُ اِلَى مَا يُوَافِقُهُ وَيَنْفِرُ عَمَّا يُضَادُّهُ وَيُخَالِفُهُ . وَٱلْعَيْنُ تَأْلَفُ ٱلْحَسَنَ وَتَقْذَى بِٱلْقَبِيحِ . وَٱلْأَنْفُ يَرْتَاحُ لِلطَّيِّبِ وَيَضُرُّ لِلْمُنْتِنِ . وَٱلْفَمُ يَلْتَذُّ بِٱلْحُلْوِ وَيَمُجُّ ٱلْمُرَّ . وَٱلسَّمْعُ يَتَشَوَّقُ لِلصَّوَابِ ٱلرَّائِعِ وَيَنْزَوِي عَنِ ٱلْجَهِيرِ ٱلْهَائِلِ . وَٱلْيَدُ تَنْعَمُ بِٱللَّيِّنِ وَتَتَاَذَّى بِٱلْخَشِنِ . وَٱلْفَمُ يَأْنَسُ مِنَ ٱلْكَلَامِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَسْكُنُ اِلَى ٱلْمَأْلُوفِ وَيُصْغِي اِلَى ٱلصَّوَابِ وَيَهْرُبُ مِنَ ٱلْمُحَالِ وَيَنْقَبِضُ عَنِ ٱلْوَخِمِ وَيَتَاَخَّرُ عَنِ ٱلْجَافِي ٱلْغَلِيظِ . وَلَا يَقْبَلُ ٱلْكَلَامَ ٱلْمُضْطَرِبَ اِلَّا ٱلْفَهْمُ ٱلْمُضْطَرِبُ وَٱلرَّوِيَّةُ ٱلْفَاسِدَةُ . وَلَيْسَ ٱلشَّأْنُ فِي اِيرَادِ ٱلْمَعَانِي لِاَنَّ ٱلْمَعَانِيَ يَعْرِفُهَا ٱلْعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ وَٱلْقَرَوِيُّ وَٱلْبَدَوِيُّ وَاِنَّمَا هُوَ فِي جُودَةِ ٱللَّفْظِ وَصَفَائِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ وَنَزَاهَتِهِ وَنَقَائِهِ وَكَثْرَةِ طُلَاوَتِهِ وَمَائِهِ مَعَ صِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَٱلتَّرْكِيبِ وَٱلْخُلُوِّ مِنْ اَوَدِ ٱلنَّظْمِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَلَيْسَ يُطْلَبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى اِلَّا اَنْ يَكُونَ صَوَابًا . وَلَا يُقْنَعُ مِنَ ٱللَّفْظِ بِذٰلِكَ حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ نُعُوتِهِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ . اَلَا تَرَى

اِلَى قَوْلِ حَبِيبٍ :

سُتَسْلِمٌ لِلّٰهِ سَائِسُ اُمَّـةٍ بِذَوًى تُجَهْضِمُهَا لَهُ اَسْتِسْلَامُ

فِيهِ صَوَابُ اللَّفْظِ وَلَيْسَ هُوَ بِحَسَنٍ وَلَا مَقْبُولٍ . وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى اَنَّ مَدَارَ الْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْسِينِ اللَّفْظِ اَنَّ الْخُطَبَ الرَّائِعَةَ وَالْاَشْعَارَ الرَّائِقَةَ مَا عُمِلَتْ لِاِفْهَامِ الْمَعَانِي فَقَطْ لِاَنَّ الرَّدِيءَ مِنَ الْاَلْفَاظِ يَقُومُ مَقَامَ جَيِّدِهَا فِي الْاِفْهَامِ وَاِنَّمَا يَدُلُّ حُسْنُ الْكَلَامِ وَاِحْكَامُ صَنْعَتِهِ وَرَوْنَقُ اَلْفَاظِهِ وَجَوْدَةُ مَطَالِعِهِ وَحُسْنُ مَقَاطِعِهِ وَبَدِيعُ مَبَادِئِهِ وَغَرِيبُ مَبَانِيهِ عَلَى فَضْلِ قَائِلِهِ وَفَهْمِ مُنْشِئِهِ . وَاَكْثَرُ هٰذِهِ الْاَوْصَافِ تَرْجِعُ اِلَى الْاَلْفَاظِ دُونَ الْمَعَانِي . وَتَوَخِّي صَوَابِ الْمَعْنَى اَحْسَنُ مِنْ تَوَخِّي هٰذِهِ الْاُمُورِ فِي الْاَلْفَاظِ . فَلِهٰذَا تَاَنَّقَ الْكَاتِبُ فِي الرِّسَالَةِ وَالْخَطِيبُ فِي الْخُطْبَةِ وَالشَّاعِرُ فِي الْقَصِيدَةِ وَهُمْ يُبَالِغُونَ فِي تَجْوِيدِهَا . وَيَغْلُونَ فِي تَرْتِيبِهَا لِيَدُلُّوا عَلَى بَرَاعَتِهِمْ وَحِذْقِهِمْ بِصِنَاعَتِهِمْ . وَلَوْ كَانَ الْاَمْرُ فِي الْمَعَانِي لَطَرَحُوا اَكْثَرَ ذٰلِكَ فَرَبِحُوا كَدًّا كَثِيرًا وَاَسْقَطُوا عَنْ اَنْفُسِهِمْ تَعَبًا طَوِيلًا . وَلِهٰذَا دَلِيلٌ آخَرُ : اَنَّ الْكَلَامَ اِذَا كَانَ لَفْظُهُ حُلْوًا عَذْبًا وَسَلِسًا سَهْلًا وَمَعْنَاهُ وَسَطًا دَخَلَ فِي جُمْلَةِ الْجَيِّدِ وَجَرَى مَعَ الرَّائِعِ النَّادِرِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْاَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

وَشُدَّتْ عَلَى حُدْبِ الْمَهَارِي رِحَالُنَا وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحُ

اَخَذْنَا بِاَطْرَافِ الْاَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِاَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْاَبَاطِحُ

وَلَيْسَ تَحْتَ هٰذِهِ الْاَلْفَاظِ كَبِيرُ مَعْنًى وَهِيَ رَائِقَةٌ مُعْجِبَةٌ . وَاِنَّمَا

هِيَ : وَلَمَّا قَضَيْنَا ٱلْحَجَّ وَمَسَحْنَا ٱلْأَرْكَانَ وَشُدَّتْ رِحَالُنَا عَلَى مَهَازِيلِ ٱلْإِبِلِ وَلَمْ يَنْتَظِرْ بَعْضُنَا بَعْضًا جَعَلْنَا نَتَحَدَّثُ وَتَسِيرُ بِنَا ٱلْإِبِلُ فِي بُطُونِ ٱلْأَوْدِيَةِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْمَعْنَى صَوَابًا وَٱللَّفْظُ بَارِدًا وَفَاتِرًا وَٱلْفَاتِرُ شَرٌّ مِنَ ٱلْبَارِدِ كَانَ مُسْتَهْجَنًا مَلْفُوظًا وَمَذْمُومًا مَرْدُودًا . وَٱلْبَارِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ كَقَوْلِ عَمْرِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ :

قَدْ عَلِمَتْ سَلْمَى وَجَارَاتُهَا ... مَا قَطَّرَ ٱلْفَارِسُ إِلَّا أَنَا

شَكَكْتُ بِٱلرُّمْحِ مَرَابِيلَهُ ... وَٱلْخَيْلُ تَعْدُو زَيْمًا حَوْلَنَا

وَقَوْلِ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ :

مَاتَ وَٱللهِ سَعِيدُ بْنُ وَهْبِ ... رَحِمَ ٱللهُ سَعِيدَ بْنَ وَهْبِ

يَا أَبَا عُثْمَانَ أَبْكَيْتَ عَيْنِي ... يَا أَبَا عُثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي

وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمَعَانِي إِذَا ٱسْتُكْرِهَتْ قَهْرًا وَفِي ٱلْأَلْفَاظِ إِذَا جَرَتْ قَسْرًا . وَلَا خَيْرَ فِيمَا أُجِيدَ لَفْظُهُ إِذَا سَخُفَ مَعْنَاهُ . وَلَا فِي غَرَابَةِ ٱلْمَعْنَى إِلَّا إِذَا شَرُفَ لَفْظُهُ مَعَ وُضُوحِ ٱلْمَغْزَى وَظُهُورِ ٱلْمَقْصِدِ . وَقَدْ غَلَبَ ٱلْجَهْلُ عَلَى قَوْمٍ فَصَارُوا يَسْتَجِيدُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى مَعْنَاهُ بِكَدٍّ وَيَسْتَفْصِحُونَهُ إِذَا وَجَدُوا أَلْفَاظَهُ كَزَّةً غَلِيظَةً وَجَاسِئَةً غَرِيبَةً . وَيَسْتَحْقِرُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبًا وَسَهْلًا حُلْوًا . وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱلسَّهْلَ أَمْنَعُ جَانِبًا وَأَعَزُّ مَطْلَبًا وَهُوَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا وَأَعْذَبُ مُسْتَمَعًا وَلِهٰذَا قِيلَ : أَجْوَدُ ٱلْكَلَامِ ٱلسَّهْلُ ٱلْمُمْتَنِعُ . وَصَفَ ٱلْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ عُمَرَ ٱبْنَ مَسْعَدَةَ فَقَالَ : هُوَ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ . وَمِنْ بَلَاغَتِهِ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَظُنُّ أَنْ يَكْتُبَ مِثْلَ كُتُبِهِ فَإِذَا رَامَهَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ . حَدَّثَنَا ٱلْحَسَنُ بْنُ

مُخَلَّدٍ قَالَ : أَنْشَدَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ لِخَالِهِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ :

إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ وَإِنْ سُئِلَ لَمْ م يَبْذُلْ وَإِنْ عُوتِبَ لَمْ يُعْتِبِ

صَبٌّ بِعِصْيَانِي وَلَوْ قَالَ لِي لَا تَشْرَبِ ٱلْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

ثُمَّ قَالَ : هٰذَا ٱلشِّعْرُ ٱلْحَسَنُ ٱلْمَعْنَى ٱلسَّهْلُ ٱللَّفْظِ ٱلْعَذْبُ ٱلْمُسْتَمَعِ ٱلْقَلِيلُ ٱلنَّظِيرِ ٱلْعَزِيزُ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُطْمِعُ ٱلْمُمْتَنِعُ ٱلْبَعِيدُ مَعَ قُرْبِهِ ٱلصَّعْبُ فِي سُهُولَتِهِ. (قَالَ) فَجَعَلْنَا نَقُولُ : هٰذَا ٱلْكَلَامُ أَحْسَنُ مِنْ شِعْرِهِ . وَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَطْبُوعِ ٱلسَّهْلِ مَا وَقَّعَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى : قَدْ بَلَّغْتُكَ أَقْصَى طِلْبَتِكَ وَأَنَلْتُكَ غَايَةَ بُغْيَتِكَ وَأَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ تَسْتَقِلُّ كَثِيرِي لَكَ وَتَسْتَقْبِحُ حَسَنِي فِيكَ . فَأَنْتَ كَمَا قَالَ رُؤْبَةُ :

كَٱلْحُوتِ لَا يَكْفِيهِ شَيْءٌ يَلْهَمُهْ يُصْبِحُ ظَمْآنَ وَفِي ٱلْبَحْرِ فَمُهْ

وَمِنَ ٱلْمَنْظُومِ ٱلْمُطْمِعِ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

أَيُّهَا ٱلرَّاغِبُ ٱلَّذِي طَلَبَ ٱلْجُو دَ فَأَبْلَى كُومَ ٱلْمَطَايَا وَأَنْضَى

رِدْ حِيَاضَ ٱلْإِمَامِ تَلْقَ نَوَالًا يَسَعُ ٱلرَّاغِبِينَ طُولًا وَعِرْضَا

هُوَ أَنْدَى مِنَ ٱلْغَمَامِ وَأَوْحَى وَقَعَاتٍ مِنَ ٱلْحُسَامِ وَأَمْضَى

يَتَوَخَّى ٱلْإِحْسَانَ قَوْلًا وَفِعْلًا وَيُطِيعُ ٱلْإِلٰهَ بَسْطًا وَقَبْضَا

فَضَّلَ ٱللّٰهُ جَعْفَرًا بِخِلَالٍ جَعَلَتْ حُبَّهُ عَلَى ٱلنَّاسِ فَرْضَا

وَأَرَى ٱلْمَجْدَ بَيْنَ عَارِقَةٍ مِنْكَ م تُرَجَّى وَعَزْمَةٍ مِنْكَ تَمْضِي

وَقَوْلُهُ :

خَلَقَ ٱللّٰهُ جَعْفَرًا قَيِّمَ ٱلدُّنْيَا م سَدَادًا وَقَيِّمَ ٱلدِّينِ رُشْدَا

أَكْرَمُ ٱلنَّاسِ شِيمَةً وَأَتَمُّ م ٱلنَّاسِ حِلْمًا وَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ رِفْدَا

هُوَ بَحْرُ ٱلسَّمَاحِ وَٱلْجُودِ فَٱزْدَدْ مِنْهُ قُرْبًا تَزْدَدْ مِنَ ٱلْفَقْرِ بُعْدَا
يَا مِثَالَ ٱلدُّنْيَا عَطَاءً وَبَذْلًا وَكَمَالَ ٱلدُّنْيَا سَنَاءً وَمَجْدَا
اِبْقَ عُمْرَ ٱلزَّمَانِ حَتَّى نُؤَدِّي شُكْرَ اِحْسَانِكَ ٱلَّذِي لَا يُؤَدَّى

وَاَمَّا ٱلْجَزْلُ ٱلْمُخْتَارُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهُوَ ٱلَّذِي تَعْرِفُهُ ٱلْعَامَّةُ اِذَا سَمِعَتْهُ وَلَا تَسْتَعْمِلُهُ فِي مُحَاوَرَاتِهَا. فَمِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْجَيِّدِ ٱلْمُخْتَارِ قَوْلُ مُسْلِمٍ :

وَرَدْنَا رِوَاقَ ٱلْفَضْلِ فَضْلِ بْنِ جَعْفَرٍ فَحَطَّ اِلَيْنَا ٱلْجَزْلَ نَائِلُهُ ٱلْجَزْلُ
بِكَفَّيْ اَبِي ٱلْعَبَّاسِ يُسْتَمْطَرُ ٱلْغِنَى وَيُسْتَنْزَلُ ٱلنُّعْمَى وَيُسْتَرْعَفُ ٱلنَّصْلُ
وَيُسْتَعْطَفُ ٱلْاَمْرُ ٱلْاَبِيُّ بِحَزْمِهِ اِذَا ٱلْاَمْرُ لَمْ يَعْطِفْهُ نَقْضٌ وَلَا فَتْلُ

وَمِمَّا هُوَ خَيْرٌ مِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱلْمَرَّارِ ٱلْفَقْعَسِيِّ :

لَا تَسْاَلِي ٱلْقَوْمَ عَنْ مَالٍ وَكَثْرَتِهِ قَدْ يُقْتِرُ ٱلْمَرْءُ يَوْمًا وَهْوَ مَحْمُودُ
اَمْضِي عَلَى سُنَّةٍ مِنْ وَالِدٍ سَلَفَتْ وَفِي اَرُومَتِهِ مَا يُنْبِتُ ٱلْعُودُ

فَهٰذَا وَاِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَامَّةِ فَاِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ ٱلْغَرَضَ وَيَقِفُونَ عَلَى اَكْثَرِ مَعَانِيهِ لِحُسْنِ تَرْتِيبِهِ وَجُودَةِ نَسْجِهِ

وَمِنَ ٱلنَّثْرِ قَوْلُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ : اَعْطَانَا ٱلدَّهْرُ فَاَسْرَفَ . ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْنَا فَعَسَفَ . وَقَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ : وَاَنَا مَنْ لَا يُحَاجُّكَ عَنْ نَفْسِهِ . وَلَا يُغَالِطُكَ عَنْ جُرْمِهِ . وَلَا يَلْتَمِسُ رِضَاكَ اِلَّا مِنْ جِهَتِهِ . وَلَا يَسْتَدْعِي بِرَّكَ اِلَّا مِنْ طَرِيقَتِهِ . وَلَا يَسْتَعْطِفُكَ اِلَّا بِٱلْاِقْرَارِ بِٱلذَّنْبِ . وَلَا يَسْتَمِيلُكَ اِلَّا بِٱلْاِعْتِرَافِ . نَبَتْ بِي عَنْكَ غِرَّةُ ٱلْحَدَاثَةِ . وَرَدَّتْنِي اِلَيْكَ ٱلْخُنْكَةُ . وَبَاعَدَتْنِي مِنْكَ ٱلثِّقَةُ بِٱلْاَيَّامِ فَاَدَّتْنِي اِلَيْكَ ٱلضَّرُورَةُ . فَاِنْ رَاَيْتَ اَنْ تَسْتَقْبِلَ ٱلصَّنِيعَةَ بِقَبُولِ ٱلْعُذْرِ

وتُجدِّدَ النِّعمَةَ بإطراحِ الحِقدِ فإنَّ قديمَ الحُرمةِ وحديثَ التَّوبةِ يمحقانِ ما بينهما من الإساءةِ . فإنَّ أيامَ القُدرةِ وإنْ طالتْ قصيرةٌ والمُتعةَ بها وإنْ كثُرتْ قليلةٌ فعلتَ . وفي هذا الكلامِ وما قبلَهُ قوَّةٌ في سُهولةٍ . ومِمَّا هو أجزلُ من هذا قولُ الشَّعبيِّ للحجَّاجِ وأرادَ قتلَهُ لخُروجِهِ عليهِ مع ابنِ الأشعثِ : أجدبَ بنا الجنابُ وأخزنَ بنا المنزلُ واستحلسنا الحذرَ واكتحلنا السَّهرَ . وأصابتْنا فتنةٌ ولم نكنْ فيها بررةً أنقياءَ ولا فجرةً أقوياءَ . فعفا عنهُ . وأجودُ الكلامِ ما يكونُ جزلًا سهلًا لا ينغلقُ معناهُ ولا يُستبهمُ مغزاهُ . ولا يكونُ مكدودًا مُستكرهًا ومُتوعِّرًا مُتقعِّرًا . ويكونُ بريئًا من الغثاثةِ عاريًا من الرَّثاثةِ . والكلامُ إذا كانَ لفظُهُ غثًّا ومعرِضُهُ رثًّا كانَ مردودًا ولو احتوى على أجلِّ معنًى وأنبلِهِ وأرفعِهِ وأفضلِهِ كقولِهِ :

لمَّا أطعناكُمُ في سُخطِ خالقِنا ... لا شكَّ سُلَّ علينا سيفُ نقمتِهِ

وقولِ الآخرِ :

أرى رجالًا بأدنى الدِّينِ قد قنعوا ... ولا أراهُمُ رضُوا في العيشِ بالدُّونِ

فاستغنِ بالدِّينِ عن دُنيا الملوكِ كما ... استغنى الملوكُ بدُنياهُم عنِ الدِّينِ

ولا يدخلُ هذا في جملةِ المُختارِ ومعناهُ كما ترى نبيلٌ فاضلٌ جليلٌ . وأمَّا الجزلُ الرَّديءُ الفجُّ الذي ينبغي تركُ استعمالِهِ فمثلُ قولِ تأبَّطَ شرًّا وكانَ خرجَ مع صاحبَيْنِ لهُ فقُتلا في الغزوِ ورجعَ هو سالمًا :

إذا ما تركتُ صاحبَيْ لثلاثةٍ ... أو اثنَيْنِ مثلَينا فلا أبتُ آمنا

ولمَّا سمعتُ العُوصَ تدعو تفغَّرتْ ... عصافيرُ رأسي من غُواةِ فُراتِنا

وَحَشْحَشْتُ مَشْغُوفَ ٱلنَّجَاءِ كَأَنَّنِي هِجَفٌّ رَأَى قَصْرًا سِمَاكًا وَدَاجِنَا
مِنَ ٱلْحُصِّ هُزْرُوفٌ كَأَنَّ عَفَاءَهُ إِذَا ٱسْتَدْرَجَ ٱلْفَيْفَا وَمَدَّ ٱلْمَغَابِنَا
أَرَجَّ زَلُوجٌ هِزْرِفِيٌّ زَفَازِفٌ هِزَفٌّ يَبِدُّ ٱلنَّاجِيَاتِ ٱلصَّوَافِنَا

فَهٰذَا مِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْبَغِيضِ ٱلْجَلْفِ ٱلْفَاسِدِ ٱلنَّسْجِ ٱلْقَبِيحِ ٱلرَّصْفِ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُتَجَنَّبَ مِثْلُهُ وَتَمْيِيزُ ٱلْأَلْفَاظِ شَدِيدٌ . وَلَوْلَا كَرَاهَةُ ٱلْإِطَالَةِ وَتَخَوُّفُ ٱلْإِمْلَالِ لَزِدتُّ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَلٰكِنْ يَكْفِي مِنَ ٱلْبَحْرِ جَرْعَةٌ . قَالُوا : وَجِيزُ ٱلْكَلَامِ مَا قَلَّ وَجَلَّ وَدَلَّ وَلَمْ يُمَلَّ

البحث الثاني

في التنبيه على خطإ المعاني وصوابها

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

إِنَّ ٱلْكَلَامَ أَلْفَاظٌ تَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا وَتُعَبِّرُ عَنْهَا فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ ٱلْبَلَاغَةِ إِلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى كَحَاجَتِهِ إِلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ . لِأَنَّ ٱلْمَدَارَ بَعْدَ ٱللَّفْظِ عَلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْمَعَانِي تَحُلُّ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحَلَّ ٱلْأَبْدَانِ وَٱلْأَلْفَاظُ تَجْرِي مَعَهَا مَجْرَى ٱلْكُسْوَةِ . وَمَرْتَبَةُ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَى مَعْرُوفَةٌ وَمَنْ عَرَفَ تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى وُجُوهِهَا بِلُغَةٍ مِنَ ٱللُّغَاتِ ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى لُغَةٍ أُخْرَى تَهَيَّأَ لَهُ فِيهَا مِنْ صَنْعَةِ ٱلْكَلَامِ مِثْلُ مَا تَهَيَّأَ لَهُ مِنَ ٱلْأُولَى . أَلَا تَرَى أَنَّ عَبْدَ ٱلْحَمِيدِ ٱلْكَاتِبَ ٱسْتَخْرَجَ أَمْثِلَةَ ٱلْكِتَابَةِ ٱلَّتِي رَسَمَهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْفَارِسِيِّ فَحَوَّلَهَا إِلَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . فَلَا يَكْمُلُ لِصَنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ إِلَّا مَنْ يَكْمُلُ لِإِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى وَتَصْحِيحِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ .

وَٱلْمَعَانِي عَلَى ضَرْبَيْنِ : ضَرْبٌ يَبْتَدِعُهُ صَاحِبُ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَكُونَ لَهُ اِمَامٌ يَقْتَدِي بِهِ فِيهِ اَوْ رُسُومٌ قَائِمَةٌ فِي اَمْثِلَةٍ مَاثِلَةٍ يَعْمَلُ عَلَيْهَا . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ رُبَّمَا يَقَعُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْخُطُوبِ ٱلْحَادِثَةِ وَيُتَنَبَّهُ لَهُ عِنْدَ ٱلْاُمُورِ ٱلطَّارِئَةِ . وَٱلْآخَرُ مَا يَحْتَذِيهِ عَلَى مِثَالٍ تَقَدَّمَ وَرَسْمٍ فُرِضَ . وَيَنْبَغِي اَنْ تُطْلَبَ ٱلْاِصَابَةُ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَتُتَوَخَّى فِيهِ ٱلصُّورَةُ ٱلْمَقْبُولَةُ وَٱلْعِبَارَةُ ٱلْمُسْتَحْسَنَةُ وَلَا يَتَّكِلَ فِيمَا ٱبْتَكَرَهُ عَلَى فَضِيلَةِ ٱبْتِكَارِهِ اِيَّاهُ . وَلَا يَغُرَّهُ ٱبْتِدَاعُهُ لَهُ فَيُسَاهِلَ نَفْسَهُ فِي تَهْجِينِ صُورَتِهِ فَيَذْهَبَ حُسْنُهُ وَيُطْمَسَ نُورُهُ وَيَكُونَ فِيهِ اَقْرَبَ اِلَى ٱلذَّمِّ مِنْهُ اِلَى ٱلْحَمْدِ . وَٱلْمَعَانِي بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَى وُجُوهٍ : مِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ حَسَنٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : رَاَيْتُ زَيْدًا . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ قَبِيحٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : قَدْ زَيْدًا رَاَيْتُ . وَاِنَّمَا قَبُحَ لِاَنَّكَ اَفْسَدْتَ ٱلنِّظَامَ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّاْخِيرِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمُ ٱلنَّظْمِ وَهُوَ كَذِبٌ مِثْلُ قَوْلِكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَشَرِبْتُ مَاءَ ٱلْبَحْرِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُحَالٌ كَقَوْلِكَ : آتِيكَ اَمْسِ وَاٰتِيكَ غَدًا . وَكُلُّ ذٰلِكَ مُحَالٌ فَاسِدٌ . وَلَيْسَ كُلُّ فَاسِدٍ مُحَالًا . اَلَا تَرَى اَنَّ قَوْلَكَ : قَامَ زَيْدٌ . فَاسِدٌ وَلَيْسَ بِمُحَالٍ . وَٱلْمُحَالُ مَا لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ ٱلْبَتَّةَ كَقَوْلِكَ : ٱلدُّنْيَا فِي بَيْضَةٍ . وَاَمَّا قَوْلُكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَاَشْبَاهُهُ وَاَمْثَالُهُ فَكَذِبٌ . وَلَيْسَ بِمُحَالٍ اِنْ جَازَ اَنْ يَزِيدَ ٱللّٰهُ فِي قُدْرَتِكَ فَتَحْمِلَهُ . وَيَجُوزُ اَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ كَذِبًا مُحَالًا وَهُوَ قَوْلُكَ : رَاَيْتُ قَاعِدًا قَائِمًا وَمَرَرْتُ بِيَقْظَانَ نَائِمٍ . فَتَصِلُ كَذِبًا بِمُحَالٍ فَصَارَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْكَذِبُ هُوَ ٱلْمُحَالَ بِٱلْجَمْعِ بَيْنَهُمَا . وَاِنْ كَانَ لِكُلٍّ

مِنْهُمَا مَعْنًى عَلَى حِيَالِهِ . وَذٰلِكَ لِاَنَّ بَعْضَهَا عُقِدَ بِبَعْضٍ حَتَّى صَارَا كَلَامًا وَاحِدًا . وَمِنْهَا ٱلْغَلَطُ وَهُوَ اَنْ تَقُولَ : ضَرَبَنِي زَيْدٌ . وَاَنْتَ تُرِيدُ : ضَرَبْتُ زَيْدًا . فَغَلِطْتَ . فَاِنْ تَعَمَّدْتَ ذٰلِكَ كَانَ كَذِبًا . وَلِلْخَطَإِ صُوَرٌ مُخْتَلِفَةٌ نَبَّهْتُ عَلَى اَشْيَاءَ مِنْهَا فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ وَبَيَّنْتُ وُجُوهَهَا وَشَرَحْتُ اَبْوَابَهَا لِتَقِفَ عَلَيْهَا فَتَتَجَنَّبَهَا كَمَا عَرَّفْتُكَ بِمَوَاضِعِ ٱلصَّوَابِ لِتَعْتَمِدَهَا . وَلِيَكُونَ فِيمَا اَوْرَدْتُ دَلَالَةٌ عَلَى اَمْثَالِهِ مِمَّا تَرَكْتُ . وَمَنْ لَا يَعْرِفُ ٱلْخَطَأَ كَانَ جَدِيرًا بِٱلْوُقُوعِ فِيهِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ اِمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

اَلَمْ تَسْاَلِ ٱلرَّبْعَ ٱلْقَدِيمَ بِعَسْعَسَا كَاَنِّي اُنَادِي اَوْ اُكَلِّمُ اَخْرَسَا

هٰذَا مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْفَاسِدِ لِاَنَّهُ لَا يُقَالُ : كَلَّمْتُ حَجَرًا فَلَمْ يُجِبْ فَكَاَنَّهُ كَانَ حَجَرًا . وَٱلَّذِي جَاءَ بِهِ اِمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مَقْلُوبٌ . وَٱلْجَيِّدُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ فِي اِمْرَاَةٍ :

فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزَّ كُلُّ مُصِيبَةٍ اِذَا وُطِّنَتْ يَوْمًا لَهَا ٱلنَّفْسُ ذَلَّتِ

كَاَنِّي اُنَادِي صَخْرَةً حِينَ اَعْرَضَتْ مِنَ ٱلصُّمِّ لَوْ تَمْشِي بِهَا ٱلْعُصْمُ زَلَّتِ

فَشَبَّهَ ٱلْمَرْاَةَ عِنْدَ ٱلسُّكُوتِ وَٱلتَّغَافُلِ بِٱلصَّخْرَةِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ اِبْنِ اَحْمَرَ :

لَمْ يَدْرِ مَا نَسْجُ ٱلْيَرَنْدَجِ قَبْلَهَا وَدِرَاسَ اَعْوَصِ دَارِسٍ مُتَجَدِّدِ

ظَنَّ اَنَّ ٱلْيَرَنْدَجَ يُنْسَجُ . وَٱلْيَرَنْدَجُ جِلْدٌ اَسْوَدُ يُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْخِفَافُ فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ وَاَصْلُهُ : رَنْدَهْ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ اَوْسِ بْنِ حَجَرٍ :

وَمِنْ اَنَابِيبِ تُفَّاحٍ وَرُمَّانِ

ظَنَّ اَنَّ ٱلرُّمَّانَ وَٱلتُّفَّاحَ اَنَابِيبُ . وَقِيلَ : اِنَّ ٱلْاَنَابِيبَ ٱلطَّرَائِقُ ٱلَّتِي فِي ٱلرُّمَّانِ . وَاِذَا حُمِلَ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ صَحَّ ٱلْمَعْنَى . وَمِمَّا اُخِذَ عَلَى

اَمرِئِ اَلقَيسِ قَولُهُ فِي اَلفَرَسِ :

فَلِلسَّوطِ اُلهُوبٌ وَلِلسَّاقِ دِرَّةٌ وَلِلزَّجرِ مِنهُ وَقعُ اَخرَجَ مُهذَبِ

فَلَو وَصَفَ اَخَسَّ حِمارٍ وَاَضعَفَهُ مَا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ . وَاَلجَيِّدُ قَولُهُ :

عَلَى سَابِحٍ يُعطِيكَ قَبلَ سُؤَالِهِ اَفَانِينَ جَرْيٍ غَيرِ كَزٍّ وَلَا وَانِي

وَمَا سَمِعنَا اَجوَدَ وَلَا اَبلَغَ مِن قَولِهِ : اَفَانِينَ جَرْيٍ . وَقَولُ عَلقَمَةَ :

فَاَدرَكَهُنَّ ثَانِيًا مِن عِنَانِهِ يَمُرُّ كَمَرِّ اَلرَّائِحِ اَلمُتَحَلِّبِ

فَاَدرَكَ طَرِيدَتَهُ وَهُوَ ثَانٍ مِن عِنَانِهِ لَم يَضرِبهُ بِسَوطٍ وَلَم يُمِرَّهُ بِسَاقٍ وَلَم يَزجُرهُ بِصَوتٍ وَمِمَّا يُعَابُ قَولُ اَلاَخطَلِ :

وَقَد جَعَلَ اَللهُ اَلخِلَافَةَ مِنهُمُ لِاَبلَجَ لَاعَارِي اَلخَوَانِ وَلَاجَدبِ

يَقُولُهُ فِي عَبدِ اَلمَلِكِ . وَمِثلُ هٰذَا لَا يُمدَحُ بِهِ اَلمُلُوكُ . وَاِنَّمَا تُمدَحُ اَلمُلُوكُ بِمِثلِ قَولِ اَلشَّاعِرِ :

لَهُ هِمَمٌ لَا مُنتَهَى لِكِبَارِهَا وَهِمَّتُهُ اَلصُّغرَى اَجَلُّ مِنَ اَلدَّهرِ

لَهُ رَاحَةٌ لَو اَنَّ مِعشَارَ جُودِهَا عَلَى اَلبَرِّ كَانَ اَلبَرُّ اَندَى مِنَ اَلبَحرِ

وَمِنَ اَلخَطَإِ قَولُ جُنَادَةَ :

مِن حُبِّهِ اَتَمَنَّى اَن يُلَاقِيَنِي مِن نَحوِ بَلدَتِهِ نَاعٍ فَيَنعَاهُ

لِكَي يَكُونَ فِرَاقٌ لَا لِقَاءَ لَهُ وَتَضمِرَ اَلنَّفسُ يَأسًا ثُمَّ تَسلَاهُ

فَاِذَا تَمَنَّى اَلمُحِبُّ لِحَبِيبِهِ اَلمَوتَ فَمَا عَسَى اَن يَتَمَنَّى اَلمُبغِضُ لِبَغِيضِهِ . وَشَتَّانَ مَا بَينَ هٰذَا وَبَينَ مَن يَقُولُ :

اَلَا لَيتَنَا عِشنَا جَمِيعًا وَكَانَ بِي مِنَ اَلدَّاءِ مَا لَا يَعرِفُ اَلنَّاسُ مَا بِيَا

فَهٰذَا اَقرَبُ اِلَى اَلصَّوَابِ وَلَو اَنَّ جُنَادَةَ كَانَ يَتَمَنَّى وَصلَهُ وَلِقَاءَهُ

لَكَانَ قَدْ قَضَى وَطَرًا مِنَ ٱلْمُنَى وَلَمْ تَلْزَمْهُ ٱلْهُجْنَةُ. كَمَا قَالَ ٱلْعَبَّاسُ ٱبْنُ ٱلْأَحْنَفِ :

فَإِنْ تَبْخَلُوا عَنِّي بِبَذْلِ نَوَالِكُمْ وَبِٱلْوَصْلِ مِنْكُمْ كَيْ أُصَبَّرَ وَأَحْزَنَا
فَإِنِّي بِلَذَّاتِ ٱلْمُنَى وَنَعِيمِهَا أَعِيشُ إِلَى أَنْ يَجْمَعَ ٱللهُ بَيْنَنَا

وَمِنْ وَضْعِ ٱلشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

يَمْشِي بِهَا كُلُّ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ مَشْيَ ٱلْهَرَابِذِ حَجُّوا بِيعَةَ ٱلزُّورِ

فَٱلْغَلَطُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : أَحَدُهَا أَنَّ ٱلْهَرَابِذَ ٱلْمَجُوسُ لَا ٱلنَّصَارَى. وَٱلثَّانِي أَنَّ ٱلْبِيعَةَ لِلنَّصَارَى لَا لِلْمَجُوسِ. وَٱلثَّالِثُ أَنَّ ٱلنَّصَارَى لَا يَعْبُدُونَ ٱلْأَصْنَامَ وَلَا ٱلْمَجُوسُ. وَمِنَ ٱلْمُحَالِ ٱلَّذِي لَا وَجْهَ لَهُ قَوْلُ ٱلْقَسِّ :

وَإِنِّي إِذَا مَا ٱلْمَوْتُ حَلَّ بِنَفْسِهَا يُزَالُ بِنَفْسِي قَبْلَ ذَاكَ فَأُقْبَرُ

وَهٰذَا شَبِيهٌ بِقَوْلِ قَائِلٍ لَوْ قَالَ : إِذَا دَخَلَ زَيْدٌ ٱلدَّارَ دَخَلَ عَمْرٌو قَبْلَهُ وَهٰذَا عَيْنُ ٱلْمُحَالِ ٱلْمُمْتَنِعِ ٱلَّذِي لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ. وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَعْنَى مُخَالَفَةُ ٱلْعُرْفِ وَذِكْرُ مَا لَيْسَ فِي ٱلْعَادَةِ كَقَوْلِ ٱلْمَرَّارِ :

وَخَالٍ عَلَى خَدَّيْهِ يَبْدُو كَأَنَّهُ سَنَا ٱلْبَدْرِ فِي دَعْجَاءَ بَادٍ دُجُونُهَا

وَٱلْمَعْرُوفُ أَنَّ ٱلْخِيلَانَ سُودٌ أَوْ سُمْرٌ وَٱلْخُدُودَ ٱلْحَسَنَةَ إِنَّمَا هِيَ ٱلْبِيضُ. فَأَتَى هٰذَا ٱلشَّاعِرُ بِقَلْبِ ٱلْمَعْنَى. وَمِنَ ٱلْمَعَانِي مَا يَكُونُ مُقَصِّرًا غَيْرَ بَالِغٍ مَبْلَغَ غَيْرِهِ فِي ٱلْإِحْسَانِ. وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَدِيحِ عُدُولُ ٱلْمَادِحِ عَنِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ إِلَى مَا يَلِيقُ بِأَوْصَافِ ٱلْجِسْمِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْبَهَاءِ وَٱلزِّينَةِ. كَمَا قَالَ

ابنُ قيسِ الرُّقيّاتِ في عبدِ الملكِ بنِ مروانَ :

يا تلقُ التاجُ فوقَ مفرقِهِ على جبينٍ كأنّهُ الذهبُ

فغضبَ عبدُ الملكِ وقالَ : قد قلتَ في مُصعبٍ :

إنّما مُصعبٌ شهابٌ من اللهِ تجلّتْ عن وجهِهِ الظلماءُ

فاعطيتَهُ المدحَ بكشفِ الغُممِ وجلاءِ الظُّلَمِ واعطيتني ما لا فخرَ فيهِ وهوَ اعتدالُ التاجِ فوقَ جبيني الذي هوَ كالذهبِ في النضارةِ. ومثلُ ذلكَ قولُ ايمنَ بنِ خُزَيمٍ في بِشرِ بنِ مروانَ :

يا ابنَ المكارمِ من قريشٍ كلِّها وابنَ الخلائفِ وابنَ كلِّ قلمّسِ

من فرعِ آدمَ كابراً عن كابرٍ حتّى انتهيتَ الى ابيكَ العنبسِ

مروانَ انّ فتاتَهُ خطيّةٌ غُرِستْ ارومتُها اعزَّ المغرسِ

وبنيتَ عندَ مقامِ ربّكَ قبّةً خضراءَ كُلِّلَ تاجُها بالفِرندسِ

فسماؤُها ذهبٌ واسفلُ ارضِها ورقٌ يُلألأُ في صميمِ الحندسِ

فما في هذهِ الابياتِ شيءٌ يتعلّقُ بالمدحِ الذي يختصُّ بالنفسِ وانّما ذكرَ سؤددَ الآباءِ وفيهِ فخرٌ للابناءِ. ولكنْ ليسَ العصاميُّ كالعظاميِّ. وربّما كانَ سؤددُ الوالدِ وفضيلتُهُ نقيصةً للولدِ اذا تأخّرَ عن رتبةِ الوالدِ. ويكونُ ذكرُ الوالدِ الفاضلِ تقريعاً للولدِ الناقصِ. وقيلَ لبعضِهِمْ : لمَ لا تكونُ كابيكَ. فقالَ : ليتَ ابي لمْ يكنْ ذا فضلٍ فانّ فضلَهُ صارَ نقصاً لي. وقد قالَ الاوّلُ :

إنّما المجدُ ما بنى والدُ الصِّدْ قِ واحيا فعالَهُ المولودُ

وقالَ غيرُهُ في خلافِهِ :

لَئِنْ فَخَرْتَ بِآبَاءٍ ذَوِي شَرَفٍ لَقَدْ صَدَقْتَ وَلٰكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

وَقَالَ آخَرُ :

عَلَتْ مَقَابِحُ اَخْلَاقٍ خُصِصْتَ بِهَا عَلَى مَحَاسِنَ اَبْقَاهَا اَبُوكَ لَكَا

لَئِنْ تَقَدَّمَ اَبْنَاءُ ٱلْكِرَامِ بِهِ لَقَدْ تَقَدَّمَ آبَاءُ ٱللِّئَامِ بِكَا

ثُمَّ ذَكَرَ اَيْمَنُ بِنَاءَ قُبَّةٍ حَسَنَةٍ وَلَيْسَ بِنَاءُ ٱلْقِبَابِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى جُودٍ وَكَرَمٍ . بَلْ يَجُوزُ اَنْ يَبْنِيَ ٱللَّئِيمُ ٱلْبَخِيلُ ٱلْاَبْنِيَةَ ٱلنَّفِيسَةَ وَيَتَوَسَّعَ فِي ٱلنَّفَقَةِ عَلَى ٱلدُّورِ ٱلْحَسَنَةِ مَعَ مَنْعِ ٱلْحَقِّ وَرَدِّ ٱلسَّائِلِ وَلَيْسَ ٱلْيَسَارُ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ مَدْحًا حَقِيقِيًّا . اَلَا تَرَى كَيْفَ يَقُولُ اَشْجَعُ ٱلسُّلَمِيُّ :

يُرِيدُ ٱلْمُلُوكُ مَدَى جَعْفَرٍ وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ

وَلَيْسَ بِاَوْسَعِهِمْ فِي ٱلْغِنَى وَلٰكِنَّ مَعْرُوفَهُ اَوْسَعُ

وَٱلْجَيِّدُ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

هُنَالِكَ اِنْ يَسْتَخْوِلُوا ٱلْمَالَ يَخْوَلُوا وَاِنْ يُسْئَلُوا يُعْطُوا وَاِنْ يَيْسُرُوا يُغْلُوا

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ وَاَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ

فَلَمَّا اَسْتَتَمَّ وَصْفَهُمْ بِحُسْنِ ٱلْمَقَالِ وَتَصْدِيقِ ٱلْقَوْلِ بِٱلْفِعْلِ وَصَفَهُمْ بِحُسْنِ ٱلْوُجُوهِ ثُمَّ قَالَ :

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ

فَلَمْ يُخِلَّ مُكْثِرًا مِنْهُمْ وَلَا مُقِلًّا مِنْ بِرٍّ وَفَضْلٍ . ثُمَّ قَالَ :

وَاِنْ جِئْتَهُمْ اَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِاَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ

فَوَصَفَهُمْ بِٱلْحِلْمِ ثُمَّ قَالَ :

وَاِنْ قَامَ مِنْهُمْ قَائِمٌ قَالَ قَائِدٌ رَشَدْتَ فَلَا غُرْمٌ عَلَيْكَ وَلَا خَذْلُ

فوصفهم ايضاً بالتضافر والتعاون فلما اتى بهذه الصفات النفيسة ذكر فضل آبائهم فقال :

وما يك من فضل اتوه فانما ... توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي الا وشيجه ... وتغرس الا في منابتها النخل

وقول مروان بن ابي حفصة :

بنو مطر يوم اللقاء كانهم ... اسود لهم في غيل خفان اشبل
هم المانعون الجار حتى كانما ... لجارهم فوق السماكين منزل
بهاليل في الاسلام سادوا ولم يكن ... كاوليهم في الجاهلية اول
هم القوم ان قالوا اصابوا وان دعوا ... اجابوا وان اعطوا اطابوا واجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم ... وان احسنوا في النائبات واجملوا
ثلاث بامثال الجبال جباهم ... واحلامهم منها لدى الوزن اثقل

وكقول الآخر :

علم الغيث الندى حتى اذا ... ما حكاه علم البأس الاسد
فله الغيث مقر بالندى ... وله الليث مقر بالجلد

ومع ما ذكرناه فانه لا ينبغي ان يخلو المدح من مناقب آباء الممدوح وتقريظ من يعرف به وينسب اليه. وانشد مروان ابن ابي حفصة :

نقرت فلا شلت يد خالديه ... رتقت بها الفتق الذي بين هاشم

فقال له الفضل قل : برمكيه. فقد يشركنا في خالد بشر كثير ولا يشركنا في برمك احد

وَٱلْهِجَاءُ اَيْضًا اِذَا لَمْ يَكُنْ بِسَلْبِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا ٱلنَّفْسُ وَاِثْبَاتِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَهْجَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا اَيْضًا لَمْ يَكُنْ مُخْتَارًا . وَٱلِاخْتِيَارُ اَنْ تَنْسُبَ ٱلْمَهْجُوَّ اِلَى ٱللُّؤْمِ وَٱلْبُخْلِ وَٱلشَّرَهِ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَلَيْسَ بِٱلْمُخْتَارِ فِي ٱلْهِجَاءِ اَنْ يَنْسُبَهُ اِلَى قُبْحِ ٱلْوَجْهِ وَصِغَرِ ٱلْحَجْمِ وَضُؤُولَةِ ٱلْجِسْمِ وَيَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْقَائِلُ :

فَقُلْتُ لَهَا لَيْسَ ٱلشُّحُوبُ عَلَى ٱلْفَتَى ... بِعَارٍ وَلَا خَيْرُ ٱلرِّجَالِ سَمِينُهَا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

تَنَالُ ٱلْخَيْرَ مِمَّنْ تَزْدَرِيهِ ... وَيُخْلِفُ ظَنَّكَ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّرِيرُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

رَاَوْهُ فَازْدَرَوْهُ وَهُوَ حِذْقٌ ... وَيَنْفَعُ اَهْلَهُ ٱلرَّجُلُ ٱلْقَبِيحُ

وَذَكَرَ ٱلسَّمَوْأَلُ اَنَّ قِلَّةَ ٱلْعَدَدِ لَيْسَ بِعَيْبٍ فَقَالَ :

تُعَيِّرُنَا اَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا ... فَقُلْتُ لَهَا اِنَّ ٱلْكِرَامَ قَلِيلُ

وَمِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلْجَيِّدِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

ٱللُّؤْمُ اَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَوَالِدِهِ ... وَٱللُّؤْمُ اَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَمَا وَلَدَا

قَوْمٌ اِذَا مَا جَنَى جَانِيهِمِ اَمِنُوا ... مِنْ لُؤْمِ اَحْسَابِهِمْ اَنْ يُقْتَلُوا قَوَدَا

وَقَوْلُ اَعْشَى بَاهِلَةَ :

بَنُو تَيْمٍ قَرَارَةُ كُلِّ لُؤْمٍ ... كَذَاكَ لِكُلِّ سَائِلَةٍ قَرَارُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوْ كَانَ يَخْفَى عَلَى ٱلرَّحْمَانِ خَافِيَةٌ ... مِنْ خَلْقِهِ خَفِيَتْ عَنْهُ بَنُو اَسَدِ

وَمِنْ خَبِيثِ ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

اِنْ يَغْدِرُوا اَوْ يَجْبُنُوا اَوْ يَبْخَلُوا لَايَخْفِلُوا

يَغْدُوا عَلَيْكَ مُرَجَّلِينَ كَاَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوِ ٱطَّلَعَ ٱلْغُرَابُ عَلَى تَمِيمٍ وَمَا فِيهَا مِنَ ٱلسَّوْءَاتِ شَابَا

وَمِنْ خَطَإِ ٱللَّفْظِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

ذَكَرْتُ اَخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ

فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ لِاَنَّ ٱلصُّدَاعَ لَا يَكُونُ فِي ٱلرِّجْلِ وَلَا فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْاَعْضَاءِ . وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرُ مِنَ ٱلْعَيْبِ : وَهُوَ اَنَّ ٱلذَّاكِرَ لِمَا قَدْ فَاتَ مِنْ مَحْبُوبٍ يُوصَفُ بِاَلَمِ ٱلْقَلْبِ وَاحْتِرَاقِهِ لَا بِٱلصُّدَاعِ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱللَّفْظِ اِرْتِكَابُ ٱلضَّرُورَاتِ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُتَلَمِّسُ :

اِنْ تَسْلُكِي سُبُلَ ٱلْمَنْجَاةِ مُنْجِدَةً مَا عَاشَ عَمْرٌو وَمَا عَمَّرْتَ قَابُوسُ

اَرَادَ (وَمَا عُمِّرَ قَابُوسُ) . وَقَوْلُ ٱلْاَعْشَى حَكَاهُ بَعْضُ ٱلْاُدَبَاءِ وَعَابَهُ

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ سُجُوفُ ٱلْحِجَالِ فَلَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرَا

قَالَ : لَا تُوضَعُ ٱلشَّمْسُ مَعَ ٱلزَّمْهَرِيرِ (قَالَ :) وَكَانَ يَجِبُ اَنْ يَقُولَ : لَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَمْ يُصِبْهَا حَرٌّ وَلَا قَرٌّ وَقَدْ اَخْطَأَ . وَكَقَوْلِ عَلْقَمَةَ :

يَحْمِلْنَ اُتْرُجَّةً نَضْحُ ٱلْبَعِيرِ بِهَا كَاَنَّ تَطْيَابَهَا فِي ٱلْاَنْفِ مَشْمُومُ

وَٱلتَّطْيَابُ هَا هُنَا عَلَى غَايَةِ ٱلسَّمَاجَةِ وَٱلطِّيبُ اَيْضًا مَشْمُومٌ لَامَحَالَةَ

فقَوْلُهُ : (كَأَنَّهُ مَشْمُومٌ) هُجْنَةٌ وَقَوْلُهُ : (فِي الْأَنْفِ أَهْجَنُ). لِأَنَّ الشَّمَّ لَا يَكُونُ بِالْعَيْنِ . وَمِنَ الْمُتَنَاقِضِ قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ أُذَيْنَةَ :

تَرَلُوا ثَلَاثَ مِنًى بِمَنْزِلِ غِبْطَةٍ وَهُمُ عَلَى غَرَضٍ لَعَمْرُكَ مَا هُمُ

مُتَجَاوِرِينَ بِغَيْرِ دَارِ إِقَامَةٍ لَوْ قَدْ أَجَدَّ رَحِيلُهُمْ لَمْ يَنْدَمُوا

(فَقَالَ) لَبِثُوا فِي دَارِ غِبْطَةٍ ثُمَّ قَالَ : لَوْ رَحَلُوا لَمْ يَنْدَمُوا . وَمِمَّا جَاءَ فِي ذٰلِكَ مِنْ أَشْعَارِ الْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارٍ :

وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلْ

وَمِنَ الْمَعَانِي الْبَشِعَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

بِأَحْمَدَ الْمُرْتَجَى فِي كُلِّ نَائِبَةٍ قُمْ سَيِّدِي نَعْصِ جَبَّارَ السَّمَاوَاتِ

فَهٰذَا مَعَ كُفْرِهِ مَمْقُوتٌ . وَمِنَ الْخَطَإِ قَوْلُ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ :

غَنِيتَ عَلَى الْوَصْلِ الْقَدِيمِ غَنِيتَا وَضَيَّعْتَ وُدًّا كَانَ لِي وَنَسِيتَا

وَمِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ أَنْ مَاتَ مَأْلَفِي وَمَا كُنْتَ تَرْعَانِي لَهُ وَبَقِيتَا

تَجَاهَلْتَ عَمَّا كُنْتَ تُحْسِنُ وَصْفَهُ وَمُتَّ عَنِ الْإِحْسَانِ حِينَ حَيِيتَا

وَلَيْسَ مِنَ الْعَجَبِ أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَيَبْقَى بَعْدَهُ إِنْسَانٌ آخَرُ . بَلْ هٰذِهِ عَادَةُ الدُّنْيَا وَالْمَعْهُودُ مِنْ أَمْرِهَا وَلَوْ قَالَ : (مِنْ ظُلَمِ الْأَيَّامِ) كَانَ الْمَعْنَى مُسْتَوِيًا . وَسَمِعْتُ بَعْضَ الْأُدَبَاءِ يَقُولُ : وَمِنَ الْمَعَانِي الْبَارِدَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ الْبَازِي :

فِي هَامَةٍ غَلْبَاءَ تُهْدِي مِنْسَرَا كَعَطْفَةِ الْجِيمِ بِكَفٍّ أَعْسَرَا

ثُمَّ قَالَ :

يَقُولُ مَنْ فِيهَا بِعَقْلٍ فَكَّرَا لَوْ زَادَهَا عَيْنًا إِلَى فَاءٍ وَرَا

فَاتَّصَلَتْ بِالْجِيمِ صَارَ جَعْفَرَا

فَمَنْ يَجْهَلُ اَنَّ الْجِيمَ اِذَا اُضِيفَ اِلَيْهَا الْعَيْنُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ يَصِيرُ (جَعْفَرًا) وَمَا يَدْخُلُ فِي صِفَةِ الْبَازِي مِنْ هٰذَا الْقَوْلِ شَيْءٌ. وَتَبِعَهُ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ:

هُنَّ الْحَمَامُ فَاِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً مِنْ حَائِهِنَّ فَاِنَّهُنَّ حِمَامُ

فَمَنْ ذَا الَّذِي جَهِلَ اَنَّ الْحَمَامَ اِذَا كُسِرَتْ حَاؤُهَا صَارَ حِمَامًا. وَاِنَّمَا اَرَادَ اَبُو نُوَاسٍ اَنَّهُ يُشَبِّهُ الْجِيمَ لَا يُغَادِرُ مِنْ شَبَهِهَا شَيْئًا حَتَّى لَوْ زِدتَّ عَلَيْهَا هٰذِهِ الْاَحْرُفَ صَارَتْ جَعْفَرًا لِشِدَّةِ شَبَهِهَا بِهِ وَهُوَ عِنْدِي صَوَابٌ. اِلَّا اَنَّهُ لَوِ اكْتَفَى بِقَوْلِهِ: (كَعَطْفَةِ الْجِيمِ بِكَفٍّ اَعْسَرَا) وَلَمْ يَزِدِ الزِّيَادَةَ الَّتِي بَعْدَهَا كَانَ اَجْوَدَ وَاَرْشَقَ وَاَدْخَلَ فِي مَذَاهِبِ الْفُصَحَاءِ وَاَشْبَهَ بِالشِّعْرِ الْقَدِيمِ. وَاَمَّا قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ: فَلَهُ مَعْنًى خِلَافُ مَا ذَكَرَهُ وَذٰلِكَ اَنَّهُ اَرَادَ اَنَّكَ اِذَا اَرَدتَّ الزَّجْرَ وَالْعِيَافَةَ اَدَّاكَ الْحَمَامُ اِلَى الْحِمَامِ كَمَا اَنَّ صَوْتَهَا الَّذِي تَظُنُّ اَنَّهُ بُكَاءٌ اِنَّمَا هُوَ طَرَبٌ وَيُؤَدِّيكَ اِلَى الْبُكَاءِ الْحَقِيقِيِّ وَهٰذَا مَعْنًى صَحِيحٌ. اِلَّا اَنَّ الْمَعْنَى اِذَا صَارَ بِهٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ مِنَ الدِّقَّةِ كَانَ كَالْمُعَمَّى وَالتَّعْمِيَةُ حَيْثُ يُرَادُ الْبَيَانُ عِيٌّ. وَمِنْ عُيُوبِ الْمَعْنَى قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ الْاَسَدِ:

كَاَنَّمَا عَيْنُهُ اِذَا نَظَرَتْ بَارِزَةُ الْجَفْنِ عَيْنُ مَخْنُوقِ

فَوَصَفَ عَيْنَ الْاَسَدِ بِالْجُحُوظِ وَهِيَ تُوصَفُ بِالْغُؤُورِ كَقَوْلِ اَبِي زَيْدٍ:

وَعَيْنَانِ كَالْوَقْبَيْنِ فِي قَلْبِ صَخْرَةٍ تَرَى فِيهِمَا كَالْجَمْرَتَيْنِ تَسَعُّرَا

وَمِنَ الْغَلَطِ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ:

رَقِيقُ حَوَاشِي ٱلْحِلْمِ لَوْ اَنَّ حِلْمَهُ بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتَ فِي اَنَّهُ بُرْدُ

وَمَا وَصَفَ اَحَدٌ مِنْ اَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَلَا اَهْلِ ٱلْاِسْلَامِ ٱلْحِلْمَ بِٱلرِّقَّةِ وَاِنَّمَا يُوصَفُ بِٱلرَّجَحَانِ وَٱلرَّزَانَةِ كَمَا قَالَ اَبُو ذُؤَيْبٍ :

وَصَبْرٌ عَلَى حَدَثِ ٱلنَّائِبَاتِ وَحِلْمٌ رَزِينٌ وَعَقْلٌ ذَكِي

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَاِذَا ذَمُّوا ٱلرَّجُلَ قَالُوا : خَفَّ حِلْمُهُ وَطَاشَ .

وَمِنَ ٱلْخَطَإِ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

ظَعَنُوا فَكَانَ بُكَايَ حَوْلًا بَعْدَهُمْ ثُمَّ ٱرْعَوَيْتُ وَذَاكَ حِلْمُ لَبِيدِ

اَجْدِرْ بِجَمْرَةِ لَوْعَةٍ اِطْفَاؤُهَا بِٱلدَّمْعِ اَنْ تَزْدَادَ طُولَ وُقُودِ

هٰذَا خِلَافُ مَا يَعْرِفُهُ ٱلنَّاسُ لِاَنَّهُمْ قَدْ اَجْمَعُوا اَنَّ ٱلْبُكَاءَ يُطْفِئُ ٱلْغَلِيلَ وَيُبَرِّدُ حَرَارَةَ ٱلْحُزْنِ وَيُزِيلُ شِدَّةَ ٱلْوَجْدِ . وَقَدْ شَهِدَ اَبُو تَمَّامٍ بِصِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَخَالَفَ قَوْلَهُ ٱلْاَوَّلَ فَقَالَ :

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ يُنْظَمِ وَٱلدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ ثِقْلِ ٱلْمُغْرَمِ

وَمِنَ ٱلْخَطَإِ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي لَوْنِهِ اِنَّ حَمْدَهُمْ مِنَ ٱلدُّرِّ مَا اَصْفَرَّتْ حَوَاشِيهِ فِي ٱلْعِقْدِ

وَاِنَّمَا يُوصَفُ ٱلدُّرُّ بِشِدَّةِ ٱلْبَيَاضِ وَاِذَا اُرِيدَ ٱلْمُبَالَغَةُ فِي وَصْفِهِ وُصِفَ بِٱلنُّصُوعِ . وَمِنْ اَعْيَبِ عُيُوبِهِ ٱلصُّفْرَةُ . وَقَالُوا : كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ لِبَيَاضِهِ . وَاِذَا اَصْفَرَّ اُحْتِيلَ فِي اِزَالَةِ صُفْرَتِهِ لِيَتَضَوَّأَ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْحَوَاشِي فِي ٱلدُّرِّ اَيْضًا خَطَأٌ . وَلَوْ قَالَ : (نَوَاحِيهِ) لَكَانَ اَجْوَدَ . وَٱلْحَاشِيَةُ لِلْبُرْدِ وَٱلثَّوْبِ . فَاَمَّا حَاشِيَةُ ٱلدُّرِّ فَغَيْرُ مَعْرُوفٍ . وَفِيهَا :

وَحَرَّتْ عَلَى ٱلْاَيْدِي مَجَسَّةُ جِسْمِهِ كَذٰلِكَ مَوْجُ ٱلْبَحْرِ مُلْتَهِبُ ٱلْوَقْدِ

وهٰذا غلطٌ لِاَنَّ ٱلبَحرَ غيرُ مُلتهبِ ٱلموجِ ولا مُتّقدِ ٱلماءِ . ولَوْ كانَ مُتّقِدًا لَما اَمكنَ رُكوبُهُ. وانّما اَرادَ اَنْ يُعظِّمَ اَمرَ ٱلممدوحِ فجاءَ بِما لا يُعرَفُ . وفيها :

ولَستَ تَرى شَوكَ ٱلقَتادَةِ خائفًا سَمومَ رِياحِ ٱلقادِحاتِ مِنَ ٱلزَّندِ

وهٰذا خطأٌ لِاَنَّهُ شبَّهَ ٱلعليلَ بِشَوكِ ٱلقَتادِ لا يَخافُ ٱلنارَ ٱلّتي تُقدَحُ بِٱلزِّنادِ . وقَدْ عَلِمنا اَنَّ ٱلنارَ تفلِقُ ٱلصَّخرَ وتُلينُ ٱلحديدَ فكيفَ يَسلَمُ مِنها ٱلقَتادُ . ولَيسَ لِذِكرِ ٱلسَّمومِ وٱلرِّياحِ اَيضًا في هٰذا ٱلبيتِ فائدةٌ ولا موقِعٌ . ونُوردُ ها هُنا جُملةً تتمُّ بِها معاني هٰذا ٱلبابِ : يَنبَغي اَنْ تَعرِفَ اَنَّ اَجوَدَ ٱلوَصفِ ما يَستَوعِبُ اَكثرَ معاني ٱلموصوفِ حتّى كاَنَّهُ يُصوِّرُ ٱلموصوفَ لكَ فتَراهُ نُصبَ عَينِكَ وذٰلكَ مِثلُ قَولِ يَزيدَ بنِ عَمرٍو ٱلطّائيِّ :

اَلا مَنْ رَاَى قَومي كاَنَّ رِجالَهُمْ نَخيلٌ اَناها عاضِدٌ فاَمالَها

فهٰذا ٱلتَّشبيهُ كاَنَّهُ يُصوِّرُ لكَ ٱلقَتلى مُصرَّعينَ . وقَولِ ٱلعَتابيِّ في ٱلسَّحابِ :

وٱلغَيمُ كٱلثَّوبِ في ٱلآفاقِ مُنتَشِرٌ مِنْ فَوقِهِ طَبَقٌ مِنْ تَحتِهِ طَبَقُ

اِنْ مَعَ ٱلرَّعدُ فيهِ قُلتَ مُنخَرِقٌ اَوْ لَألأَ ٱلبَرقُ فيهِ قُلتَ مُحترِقُ

ولَمّا كانَتْ اَغراضُ ٱلشُّعراءِ كَثيرةً ومَعانيها مُتَشَعِّبةً جَمَّةً لا يَبلُغُها ٱلاِحصاءُ. كانَ مِنَ ٱلوَجهِ اَنْ نَذكُرَ ما هُوَ اَكثرُ ٱستِعمالًا واَطوَلُ مُداوَمةً وهُوَ ٱلمَدحُ . وٱلهِجاءُ . وٱلوَصفُ . وٱلمَراثي . وٱلفَخرُ . وقَدْ ذَكَرتُ قَبلَ هٰذا ٱلمَديحَ وٱلهِجاءَ وما يَنبَغي ٱستِعمالُهُ فيهِما . ثُمَّ

ذَكَرْتُ ٱلْآنَ ٱلْوَصْفَ وَتَرَكْتُ ٱلْمَرَاثِيَ وَٱلْفَخْرَ . لِأَنَّهُمَا دَاخِلَانِ فِي ٱلْمَدِيحِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْفَخْرَ مَدْحُكَ نَفْسَكَ بِٱلطَّهَارَةِ وَٱلْعَفَافِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْحَسَبِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذٰلِكَ . وَٱلْمَرْثِيَةَ مَدْحُ ٱلْمَيْتِ وَٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ ٱلْمَدِيحِ اَنْ تَقُولَ : كَانَ كَذَا وَكَذَا . وَتَقُولُ فِي ٱلْمَدِيحِ : هُوَ كَذَا وَاَنْتَ كَذَا . فَيَنْبَغِي اَنْ يُتَوَخَّى فِي ٱلْمَرْثِيَةِ مَا يُتَوَخَّى فِي ٱلْمَدِيحِ . اِلَّا اَنَّكَ اِذَا اَرَدْتَ اَنْ تَذْكُرَ ٱلْمَيْتَ بِٱلْجُودِ وَٱلشَّجَاعَةِ تَقُولُ : مَاتَ ٱلْجُودُ وَهَلَكَتِ ٱلشَّجَاعَةُ . وَلَا تَقُولُ : كَانَ فُلَانٌ جَوَادًا وَشُجَاعًا فَاِنَّ ذٰلِكَ بَارِدٌ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ . وَكَذٰلِكَ مَا كَانَ ٱلْمَيْتُ يَرْكَبُهُ فِي حَيَاتِهِ . فَيَنْبَغِي اَنَّهُ لَا يُذْكَرَ اَنَّهُ يَبْكِي عَلَيْهِ مِثْلُ ٱلْخَيْلِ وَٱلْاِبِلِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا وَاِنَّمَا يُذْكَرُ اُغْتِبَاطُهُمَا بِمَوْتِهِ . وَقَدْ اَحْسَنَتِ ٱلْخَنْسَاءُ حَيْثُ تَقُولُ :

فَقَدْ فَقَدَتْكَ طَلْقَةٌ وَٱسْتَرَاحَتْ ... فَلَيْتَ ٱلْخَيْلَ فَارِسُهَا يَرَاهَا

بَلْ يُوصَفُ بِٱلْبُكَاءِ عَلَيْهِ مَنْ كَانَ يُحْسِنُ اِلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ . كَمَا قَالَ ٱلْغَنَوِيُّ :

لِيَبْكِكَ شَيْخٌ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُعِينُهُ ... وَطَاوِي ٱلْحَشَى نَائِي ٱلْمَزَارِ غَرِيبُ

فَهٰذِهِ جُمْلَةٌ اِذَا تَدَبَّرَهَا صَانِعُ ٱلْكَلَامِ ٱسْتَغْنَى بِهَا عَنْ غَيْرِهَا . وَبِٱللّٰهِ ٱلتَّوْفِيقُ

البحث الثالث

في كيفية نظم الكلام وما ينبغي استعمالهُ في تأليفهِ

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

اِذَا اَردتَّ اَنْ تَصْنَعَ كَلَامًا فَاَخْطِرْ مَعَانِيَهُ بِبَالِكَ وَتَنَوَّقْ لَهُ كَرَائِمَ اَللَّفْظِ وَاَجْعَلْهَا عَلَى ذِكْرٍ مِنْكَ لِيَقْرُبَ عَلَيْكَ تَنَاوُلُهَا وَلَا يُتْعِبَكَ تَطَلُّبُهَا . وَاَعْمِلْهُ مَا دُمْتَ فِي شَبَابِ نَشَاطِكَ فَاِذَا غَشِيَكَ اَلْفُتُورُ وَتَخَوَّنَكَ اَلْمَلَالُ فَاَمْسِكْ . فَاِنَّ اَلْكَثِيرَ مَعَ اَلْمَلَالِ قَلِيلٌ وَاَلنَّفِيسَ مَعَ اَلضَّجَرِ خَسِيسٌ وَاَلْخَوَاطِرَ كَاَلْيَنَابِيعِ يُسْقَى مِنْهَا شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ فَتَجِدُ حَاجَتَكَ مِنَ اَلرِّيِّ وَتَنَالُ اَرَبَكَ مِنَ اَلْمَنْفَعَةِ. فَاِذَا اَكْثَرْتَ عَلَيْهَا نَضَبَ مَاؤُهَا وَقَلَّ عَنْكَ غَنَاؤُهَا. وَيَنْبَغِي اَنْ تَجْرِيَ مَعَ اَلْكَلَامِ مُعَارَضَةً فَاِذَا مَرَرْتَ بِلَفْظٍ حَسَنٍ اَخَذْتَ بِرَقَبَتِهِ اَوْ بِمَعْنًى بَدِيعٍ تَعَلَّقْتَ بِذَيْلِهِ . وَتَحَذَّرْ اَنْ يَسْبِقَكَ فَاِنَّهُ اِنْ سَبَقَكَ تَعِبْتَ فِي تَتَبُّعِهِ وَنَصِبْتَ فِي طَلَبِهِ وَلَعَلَّكَ لَا تَلْحَقُهُ عَلَى طُولِ اَلطَّلَبِ وَمُوَاصَلَةِ اَلدُّأَبِ وَقَدْ قَالَ اَلشَّاعِرُ :

اِذَا ضَيَّعْتَ اَوَّلَ كُلِّ اَمْرٍ اَبَتْ اَعْجَازُهُ اِلَّا اَلْتِوَاءَ

وَقَالُوا : يَنْبَغِي لِصَانِعِ اَلْكَلَامِ اَنْ لَا يَتَقَدَّمَ اَلْكَلَامَ نَقَدُّمًا وَلَا يَتْبَعَ ذُنَابَاهُ تَتَبُّعًا وَلَا يَحْمِلَهُ عَلَى لِسَانِهِ حَمْلًا فَاِنَّهُ اِنْ تَقَدَّمَ اَلْكَلَامَ لَمْ تَتْبَعْهُ حَقِيقَتُهُ وَهَزِيلُهُ وَاَعْجَفُهُ وَاَلشَّارِدُ مِنْهُ. وَاِنْ تَتَبَّعَهُ فَاتَتْهُ سَوَابِقُهُ وَلَوَاحِقُهُ وَتَبَاعَدَتْ عَنْهُ جِيَادُهُ وَغُرَرُهُ . وَاِنْ حَمَلَهُ عَلَى لِسَانِهِ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ اَوْسَاقُهُ وَاَعْبَاؤُهُ وَدَخَلَتْ مَسَاوِيهِ فِي مَحَاسِنِهِ وَلَكِنَّهُ يَجْرِي مَعَهُ

فَلَا تَنِدُّ عَنْهُ نَادَّةٌ مُعْجِبَةٌ سَهْمَاءُ إِلَّا كَبَحَهَا وَلَا تَتَخَلَّفُ عَنْهُ مُثْقِلَةٌ هَزِيلَةٌ إِلَّا أَرْهَقَهَا فَطَوْرًا تُفَرِّقُهُ لِيَخْتَارَ أَحْسَنَهُ وَطَوْرًا تَجْمَعُهُ لِتُقَرِّبَ عَلَيْكَ خُطْوَةَ ٱلْفِكْرِ وَيَتَنَاوَلَ ٱللَّفْظُ مِنْ تَحْتِ لِسَانِهِ وَلَا يُسَلَّطُ ٱلْمَلَلُ عَلَى قَلْبِهِ. وَٱلْإِكْثَارُ عَلَى تَفَكُّرِهِ فَيَأْخُذُ عَفْوَهُ وَلَا يَسْتَغْزِرُ دَرَّهُ وَلَا يُكْرِهُ آبِيًا وَلَا يَدْفَعُ آتِيًا. وَقَالَ بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةً إِنْشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا لَكَ. فَإِنَّ تِلْكَ ٱلسَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حُسْنًا وَأَحْسَنُ فِي ٱلْأَسْمَاعِ وَأَحْلَى فِي ٱلصُّدُورِ وَأَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ ٱلْخَطَإِ وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغُرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ كَرِيمٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ ٱلْأَطْوَلُ بِٱلْكَدِّ وَٱلْمُطَالَبَةِ وَٱلْمُجَاهَدَةِ وَٱلتَّكَلُّفِ وَٱلْمُعَاوَدَةِ. وَمَهْمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يُخْطِئْكَ أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا أَوْ خَفِيفًا عَلَى ٱللِّسَانِ سَهْلًا وَكَمَا خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدِنِهِ. وَإِيَّاكَ وَٱلتَّوَعُّرَ فَإِنَّ ٱلتَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ إِلَى ٱلتَّعْقِيدِ وَٱلتَّعْقِيدُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ أَلْفَاظَكَ. وَمَنْ أَرَادَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَإِنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفِ ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا أَنْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُدَنِّسُهُمَا وَيُفْسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا فَيَصِيرُ بِهِمَا إِلَى حَدٍّ يَكُونُ فِيهِ أَسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ أَنْ تَلْتَمِسَ ٱلْبَلَاغَةَ وَتَرْتَهِنَ نَفْسَكَ فِي مَلَابِسِهَا. فَكُنْ فِي ثَلَاثِ مَنَازِلَ. فَأَوَّلُ ٱلثَّلَاثِ: أَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ شَرِيفًا عَذْبًا وَفَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا. فَإِنْ كَانَتْ هٰذِهِ لَا تُوَاتِيكَ وَلَا تَسْنَحُ لَكَ عِنْدَ أَوَّلِ خَاطِرٍ وَتَجِدُ ٱللَّفْظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوْقِعَهَا

وَلَمْ تَصِلْ اِلَى مَرْكَزِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِسِلْكِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَوْضِعِهَا نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى اغْتِصَابِ الْاَمَاكِنِ وَالنُّزُولِ فِي غَيْرِ اَوْطَانِهَا . فَاِنَّكَ اِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرِيضَ الشِّعْرِ الْمَنْظُومِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ اخْتِيَارَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِذٰلِكَ اَحَدٌ . وَاِنْ تَكَلَّفْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا عَابَكَ مَنْ اَنْتَ اَقَلُّ عَيْبًا مِنْهُ وَزَرَى عَلَيْكَ مَنْ هُوَ دُونَكَ . فَاِنِ ابْتُلِيتَ بِتَكَلُّفِ الْقَوْلِ وَتَعَاطِي الصِّنَاعَةِ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ الطَّبِيعَةُ فِي اَوَّلِ وَهْلَةٍ وَتَعْصَى عَلَيْكَ بَعْدَ اِجَالَةِ الْفِكْرَةِ فَلَا تَعْجَلْ وَدَعْهُ سَحَابَةَ يَوْمِكَ وَلَا تَضْجَرْ وَامْهِلْهُ سَوَادَ لَيْلَتِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ فَاِنَّكَ لَا تَعْدَمُ الْاِجَابَةَ وَالْمُوَاتَاةَ . وَاِنْ كَانَتْ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ وَاُجْرِيَتْ مِنَ الصِّنَاعَةِ عَلَى عُرْفٍ فَهِيَ الْمَنْزِلَةُ الثَّانِيَةُ . فَاِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذٰلِكَ مَعَ تَرْوِيحِ الْخَاطِرِ وَطُولِ الْاِمْهَالِ فَالْمَنْزِلَةُ الثَّالِثَةُ . اَيْ اَنْ تَتَحَوَّلَ مِنْ هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ اِلَى اَشْهَى الصِّنَاعَاتِ اِلَيْكَ وَاَخَفِّهَا عَلَيْكَ فَاِنَّكَ لَمْ تَشْتَهِهَا اِلَّا وَبَيْنَكُمَا نَسَبٌ . وَالشَّيْءُ لَا يَحِنُّ اِلَّا اِلَى مَا شَاكَلَهُ وَاِنْ كَانَتِ الْمُشَاكَلَةُ قَدْ تَكُونُ فِي طَبَقَاتٍ فَاِنَّ النُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا وَلَا تَسْمَحُ بِخَزْنِهَا مَعَ الرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ مَعَ الرَّغْبَةِ وَالْمَحَبَّةِ . وَيَنْبَغِي اَنْ تَعْرِفَ اَقْدَارَ الْمَعَانِي فَتُوَازِنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اَوْزَانِ الْمُسْتَمِعِينَ وَبَيْنَ اَقْدَارِ الْحَالَاتِ فَتَجْعَلَ لِكُلِّ طَبَقَةٍ كَلَامًا وَلِكُلِّ حَالٍ مَقَامًا حَتَّى تَقْسِمَ اَقْدَارَ الْمَعَانِي عَلَى اَقْدَارِ الْمَقَامَاتِ وَاَقْدَارَ الْمُسْتَمِعِينَ عَلَى اَقْدَارِ الْحَالَاتِ . وَاعْلَمْ اَنَّ الْمَنْفَعَةَ مَعَ مُوَافَقَةِ الْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ

مِنَ ٱلْمَقَالِ . فَإِنْ كُنْتَ مُتَكَلِّمًا اَوِ ٱحْتَجْتَ اِلَى عَمَلِ خُطْبَةٍ لِبَعْضِ مَنْ تَصْلُحُ لَهُ ٱلْخُطَبُ اَوْ قَصِيدَةً لِبَعْضِ مَا يُرَادُ لَهُ ٱلْقَصْدُ فَتَخَطَّ اَلْفَاظَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِثْلَ ٱلْجِسْمِ وَٱلْعَرَضِ وَٱلْكَوْنِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَٱلْجَوْهَرِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُجْنَةٌ . . .

البحث الرابع

في خواص الكلام الحرّ

(عن ابن المعتز والرمّاني)

قِيلَ اِنَّ اَحْسَنَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ تَرْجُمَانًا لِلْقُلُوبِ وَصَيْقَلًا لِلْعُقُولِ وَمَجْلًى لِلشُّبْهَةِ وَمُوجِبًا لِلْحُجَّةِ . وَٱلْحَاكِمَ عِنْدَ ٱخْتِصَاصِ ٱلظُّنُونِ وَٱلْمُفَرِّقَ بَيْنَ ٱلشَّكِّ وَٱلْيَقِينِ . يَنْقَادُ بِهِ ٱلْمُسْتَصْعَبُ وَيَسْتَقِيمُ لَهُ ٱلْاَصِيدُ . وَخَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ اِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقِّيهِ . وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللَّفْظِ تَعَاطِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُبْلِغُ ٱلَّذِي لَا يُمَلُّ وَٱلْجَدِيدُ ٱلَّذِي لَا يَخْلَقُ . وَٱلْحَقُّ ٱلسَّاطِعُ . وَٱلْمَاحِي لِظُلَمِ ٱلضَّلَالِ . وَلِسَانُ ٱلصِّدْقِ ٱلنَّافِي لِلْكَذِبِ . اِنْ اَوْجَزَ كَانَ كَافِيًا وَاِنْ اَكْثَرَ كَانَ مُذَكِّرًا . وَاِنْ اَوْمَا كَانَ مُقْنِعًا . وَاِنْ اَطَالَ كَانَ مُفْهِمًا . وَاِنْ اَمَرَ فَنَاصِحًا . وَاِنْ حَكَمَ فَعَادِلًا . وَاِنْ اَخْبَرَ فَصَادِقًا . وَاِنْ بَيَّنَ فَشَافِيًا . سَهْلٌ عَلَى ٱلْفَهْمِ . صَعْبٌ عَلَى ٱلْمُتَعَاطِي . قَرِيبُ ٱلْمَأْخَذِ بَعِيدُ ٱلْمَرَامِ . سِرَاجٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ٱلْقُلُوبُ حُلْوٌ اِذَا تَذَوَّقَتْهُ ٱلْعُقُولُ . وَقَدْ قِيلَ : اَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا حَطَّ ٱلتَّكَلُّفَ عَنْهُ وَبُنِيَ عَلَى ٱلتَّبْيِينِ وَكَانَتِ ٱلْفَائِدَةُ اَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْقَافِيَةِ بِاَنْ جَمَعَ مَعَ ذٰلِكَ سُهُولَةَ ٱلْمَخْرَجِ

مَعَ قُرْبِ ٱلْمُتَنَاوَلِ . وَعُذُوبَةَ ٱللَّفْظِ مَعَ رَشَاقَةِ ٱلْمَعْنَى . وَأَنْ يَكُونَ حُسْنُ ٱلِٱبْتِدَاءِ كَحُسْنِ ٱلِٱنْتِهَاءِ . وَحُسْنُ ٱلْوَصْلِ كَحُسْنِ ٱلْقَطْعِ فِي ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّمْعِ . وَكَانَتْ كُلُّ كَلِمَةٍ قَدْ وَقَعَتْ فِي حَقِّهَا وَإِلَى جَنْبِ أُخْتِهَا حَتَّى لَا يُقَالَ : لَوْ كَانَ كَذَا فِي مَوْضِعِ كَذَا لَكَانَ أَوْلَى حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ لَفْظٌ مُخْتَلِفٌ وَلَا مَعْنًى مُسْتَكْرَهٌ . ثُمَّ أُلْبِسَ بَهَاءَ ٱلْحِكْمَةِ وَنُورَ ٱلْمَعْرِفَةِ وَشَرَفَ ٱلْمَعْنَى وَجَزَالَةَ ٱللَّفْظِ وَكَانَتْ حَلَاوَتُهُ فِي ٱلصَّدْرِ وَجَلَالَتُهُ فِي ٱلنَّفْسِ تَفْتُقُ ٱلْفَهْمَ وَتَنْثُرُ دَقَائِقَ ٱلْحِكَمِ وَكَانَ ظَاهِرُ ٱلنَّفْعِ شَرِيفَ ٱلْقَصْدِ مُعْتَدِلَ ٱلْوَزْنِ جَمِيلَ ٱلْمَذْهَبِ كَرِيمَ ٱلْمَطْلَبِ . فَصِيحًا فِي مَعْنَاهُ بَيِّنًا فِي فَحْوَاهُ . . . وَجَاءَ أَيْضًا فِي كُتُبِ ٱلْأَدَبِ : إِنَّ لَحْظَةَ ٱلْقَلْبِ أَسْرَعُ خَطْرَةً مِنْ لَحْظَةِ ٱلْعَيْنِ وَأَبْعَدُ مَجَالًا وَهِيَ ٱلْغَائِصَةُ فِي أَعْمَاقِ أَوْدِيَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْمُتَأَمِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ . وَٱلْجَامِعَةُ بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ . وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ . وَٱلْقَلْبُ كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ إِذَا نَطَقَ وَٱلْيَدِ إِذَا كَتَبَتْ . وَٱلْعَاقِلُ يَكْسُو ٱلْمَعَانِيَ وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِأَلْفَاظٍ كَيِّسَةٍ بِأَحْسَنِ زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِإِظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِهَا وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ : بِمَ فُقْتَ أَهْلَ عَصْرِكَ فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِأَنِّي لَمْ أَقْبَلْ كُلَّ مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْتُ إِلَى غَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْتُ إِلَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَأَحْكَمْتُ سَيْرَهَا وَٱنْتَقَيْتُ حُرَّهَا

وَكَشَفْتُ عَنْ حَقَائِقِهَا وَٱحْتَرَزْتُ عَنْ مُتَكَلَّفِهَا . وَمَا مَلَكَ قَطُّ قِيَادِي ٱلْإِعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : إِنَّ ٱلْمَعْنَى إِذَا كَانَ شَرِيفًا وَكَانَ ٱللَّفْظُ بَلِيغًا وَكَانَ صَحِيحَ ٱلطَّبْعِ بَعِيدًا مِنَ ٱلْإِسْتِكْرَاهِ مُنَزَّهًا عَنِ ٱلْإِخْتِلَالِ مَصُونًا عَنِ ٱلتَّكَلُّفِ صَنَعَ فِي ٱلْقَلْبِ صَنِيعَ ٱلْغَيْثِ فِي ٱلتُّرْبَةِ ٱلْكَرِيمَةِ . وَمَتَى فُصِّلَتِ ٱلْكَلِمَةُ عَلَى هٰذِهِ ٱلشَّرِيطَةِ وَنَفَذَتْ مِنْ قَائِلِهَا عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ كَسَاهَا ٱللهُ مِنَ ٱلتَّوْفِيقِ وَمَنَحَهَا مِنَ ٱلتَّأْيِيدِ مَا لَا يَمْتَنِعُ مِنْ تَعْظِيمِهَا بِهِ صُدُورُ ٱلْجَبَابِرَةِ وَلَا يَذْهَلُ عَنْ فَهْمِهَا مَعَهُ عُقُولُ ٱلْجَهَلَةِ

البحث الخامس

في تهذيب الكلام وتنقيحه

(عن خزانة الادب للحموي وزهر الآداب للحصري)

وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْدَادِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكَلَامِ بَعْدَ عَمَلِهِ وَٱلشُّرُوعِ فِي تَهْذِيبِهِ وَتَنْقِيحِهِ نَظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا وَتَغْيِيرِ مَا يَجِبُ تَغْيِيرُهُ وَحَذْفِ مَا يَنْبَغِي حَذْفُهُ وَإِصْلَاحِ مَا يَتَعَيَّنُ إِصْلَاحُهُ وَكَشْفِ مَا يُشْكِلُ عَنْ غَرِيبِهِ وَإِعْرَابِهِ . وَتَحْرِيرِ مَا يَدِقُّ مِنْ مَعَانِيهِ . وَٱطِّرَاحِ مَا يَتَجَافَى عَنْ مَضَاجِعِ ٱلرِّقَّةِ مِنْ غَلِيظِ ٱلْفَاظِهِ لِتُشْرِقَ شُمُوسُ ٱلتَّهْذِيبِ فِي سَمَاءِ بَلَاغَتِهِ وَتَرْشُفَ ٱلْأَسْمَاعُ عَلَى ٱلطَّرَبِ رَقِيقَ سُلَافَتِهِ . فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَ مَوْصُوفًا بِٱلْمُهَذَّبِ مَنْعُوتًا بِٱلْمُنَقَّحِ عَلَتْ رُتْبَتُهُ . وَإِنْ كَانَتْ مَعَانِيهِ غَيْرَ مُبْتَكَرَةٍ . وَكُلُّ كَلَامٍ قِيلَ فِيهِ : لَوْ كَانَ مَوْضِعَ هٰذِهِ

ٱلْكَلِمَةِ غَيْرُهَا . وَلَوْ تَقَدَّمَ هٰذَا ٱلْمُتَاخِّرُ وَتَاخَّرَ هٰذَا ٱلْمُتَقَدِّمُ . اَوْ لَوْ تُمِّمَ هٰذَا ٱلنَّقْصُ بِكَذَا . اَوْ لَوْ تَكَمَّلَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ بِكَذَا . اَوْ لَوْ حُذِفَتْ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةُ . اَوْ لَوِ ٱتَّضَحَ هٰذَا ٱلْمَقْصَدُ وَسَهُلَ هٰذَا ٱلْمَطْلَبُ لَكَانَ ٱلْكَلَامُ اَحْسَنَ وَٱلْمَعْنَى اَبْيَنَ . كَانَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ غَيْرَ مُنْتَظِمٍ فِي سِلْكِ نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ . وَكَانَ زُهَيْرُ بْنُ اَبِي سُلْمَى مَعْرُوفًا بِٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّهْذِيبِ . وَلَهُ قَصَائِدُ تُعْرَفُ بِٱلْحَوْلِيَّاتِ . قِيلَ : اِنَّهُ كَانَ يَنْظِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي اَرْبَعَةِ اَشْهُرٍ وَيُهَذِّبُهَا وَيُنَقِّحُهَا فِي اَرْبَعَةِ اَشْهُرٍ وَيَعْرِضُهَا عَلَى عُلَمَاءِ قَبِيلَتِهِ اَرْبَعَةَ اَشْهُرٍ . وَيُرْوَى : اَنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي شَهْرٍ وَيُنَقِّحُهَا وَيُهَذِّبُهَا فِي اَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا وَلَا جَرَمَ اَنَّهُ قَلَّمَا يَسْقُطُ مِنْهُ شَيْءٌ . وَلِهٰذَا كَانَ ٱلْاِمَامُ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ مَعَ جَلَالَتِهِ فِي ٱلْعِلْمِ وَتَقَدُّمِهِ فِي ٱلنَّقْدِ يُقَدِّمُهُ عَلَى سَائِرِ ٱلْفُحُولِ مِنْ طَبَقَتِهِ . وَمَا اَحْسَنَ مَا اَشَارَ اَبُو ٱلتَّمَّامِ اِلَى ٱلتَّهْذِيبِ بِقَوْلِهِ :

خُذْهَا اَبْنَةَ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُهَذَّبِ فِي ٱلدُّجَى وَٱللَّيْلُ اَسْوَدُ رُقْعَةُ ٱلْجِلْبَابِ

فَاِنَّهُ خَصَّ تَهْذِيبَ ٱلْفِكْرِ بِٱلدُّجَى لِكَوْنِ ٱللَّيْلِ تَهْدَأُ فِيهِ ٱلْاَصْوَاتُ وَتَسْكُنُ ٱلْحَرَكَاتُ فَيَكُونُ ٱلْفِكْرُ فِيهِ مُجْتَمِعًا وَمِرْآةُ ٱلتَّهْذِيبِ فِيهِ صَقِيلَةً لِخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ وَصَفَاءِ ٱلْقَرِيحَةِ . لَا سِيَّمَا وَسَطَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّفْسُ قَدْ اَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ ٱلرَّاحَةِ بَعْدَ نَيْلِ قِسْطِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَخَفَّ عَلَيْهَا ثِقَلُ ٱلْغِذَاءِ وَصَحَّ ذِهْنُهَا وَصَارَ صَدْرُهَا مُنْشَرِحًا وَقَلْبُهَا بِٱلتَّأْلِيفِ مُنْبَسِطًا . وَمَا قَدَّمُوا وَسَطَ ٱللَّيْلِ فِي ٱلتَّأْلِيفِ عَلَى ٱلسَّحَرِ مَعَ مَا فِيهِ مِنِ ٱنْتِبَاهِ اَكْثَرِ ٱلْحَيَوَانِ ٱلنَّاطِقِ وَٱرْتِفَاعِ ٱلْاَصْوَاتِ وَجَرْشِ ٱلْحَرَكَاتِ وَتَقَشُّعِ

ٱلظَّلْمَاءِ بِطَلَائِعِ ٱلْأَنْوَاءِ . وَبِدُونِ ذٰلِكَ يَنْقَسِمُ ٱلْفِكْرُ وَيَشْتَغِلُ ٱلْقَلْبُ وَوَسَطُ ٱللَّيْلِ خَالٍ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ . وَلِهٰذَا خَصَّ أَبُو تَمَّام تَهْذِيبَ ٱلْفِكْرِ بِٱلدُّجَى عَادِلًا عَنِ ٱلطَّرَفَيْنِ لِمَا فِيهِمَا مِنَ ٱلشَّوَاغِلِ ٱلْمَذْكُورَةِ. وَحَكَتِ ٱلثِّقَاتُ عَنْ أَبِي عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيِّ قَالَ: كُنْتُ فِي حَدَاثَتِي أَرُومُ ٱلشِّعْرَ وَكُنْتُ أَرْجِعُ فِيهِ إِلَى طَبْعٍ سَلِيمٍ وَلَمْ أَكُنْ وَقَفْتُ لَهُ عَلَى تَسْهِيلِ مَأْخَذٍ وَوُجُوهِ ٱقْتِضَابٍ حَتَّى قَصَدْتُ أَبَا تَمَّامٍ وَٱنْقَطَعْتُ إِلَيْهِ وَٱتَّكَلْتُ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَيْهِ فَكَانَ أَوَّلُ مَا قَالَ لِي: يَا أَبَا عِبَادَةَ تَخَيَّرِ ٱلْأَوْقَاتَ وَأَنْتَ قَلِيلُ ٱلْهُمُومِ صِفْرٌ مِنَ ٱلْغُمُومِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْعَادَةَ فِي ٱلْأَوْقَاتِ إِذَا قَصَدَ ٱلْإِنْسَانُ تَأْلِيفَ شَيْءٍ أَوْ حِفْظَهُ أَنْ يَخْتَارَ وَقْتَ ٱلسَّحَرِ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّفْسَ تَكُونُ قَدْ أَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ ٱلرَّاحَةِ وَقِسْطَهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَخَفَّ عَنْهَا ثِقَلُ ٱلْغِذَاءِ . وَصَفَا مِنْ أَكْثَرِ ٱلْأَبْخِرَةِ وَٱلْأَدْخِنَةِ جِسْمُ ٱلْهَوَاءِ . وَسَكَنَتِ ٱلْغَمَائِمُ . وَرَقَّتِ ٱلنَّسَائِمُ . وَتَغَنَّتِ ٱلْحَمَائِمُ . وَإِذَا شَرَعْتَ فِي ٱلتَّأْلِيفِ تَغَنَّ بِٱلشِّعْرِ فَإِنَّ ٱلْغِنَاءَ مِضْمَارُهُ ٱلَّذِي يَجْرِي فِيهِ . وَٱجْتَهِدْ فِي إِيضَاحِ مَعَانِيهِ . فَإِنْ أَرَدْتَّ ذِكْرَ ٱلْأَحْبَابِ فَٱجْعَلِ ٱللَّفْظَ رَقِيقًا وَٱلْمَعْنَى رَشِيقًا وَأَكْثِرْ فِيهِ مِنْ بَيَانِ ٱلْكَآبَةِ . وَقَلَقِ ٱلْأَشْوَاقِ . وَلَوْعَةِ ٱلْفِرَاقِ وَٱلتَّغَلْغُلِ بِٱسْتِنْشَاقِ ٱلنَّسَائِمِ . وَغِنَاءِ ٱلْحَمَائِمِ . وَٱلْبُرُوقِ ٱللَّامِعَةِ . وَٱلنُّجُومِ ٱلطَّالِعَةِ . وَٱلتَّبَرُّمِ مِنَ ٱلْعُذَّالِ . وَٱلْوُقُوفِ عَلَى ٱلْأَطْلَالِ . وَإِذَا أَخَذْتَ فِي مَدْحِ سَيِّدٍ فَٱشْهَرْ مَنَاقِبَهُ وَأَظْهِرْ مَنَاسِبَهُ وَٱرْهَبْ مِنْ عَزَائِمِهِ وَٱرْغَبْ فِي مَكَارِمِهِ . وَٱحْذَرِ ٱلْمَجْهُولَ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَإِيَّاكَ أَنْ تَشِينَ شِعْرَكَ بِٱلْعِبَارَةِ وَٱلْأَلْفَاظِ

ٱلْوَحْشِيَّةِ وَنَاسِبْ بَيْنَ ٱلْاَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ وَكُنْ كَانَّكَ خَيَّاطٌ تُقَدِّرُ ٱلثِّيَابَ عَلَى مَقَادِيرِ ٱلْاَجْسَامِ . وَاِذَا عَارَضَكَ ٱلضَّجَرُ فَارِحْ نَفْسَكَ وَلَا تَعْمَلْ اِلَّا وَاَنْتَ فَارِغُ ٱلْقَلْبِ وَلَا تَنْظِمْ اِلَّا بِشَهْوَةٍ فَاِنَّ ٱلشَّهْوَةَ نِعْمَ ٱلْمُعِينُ عَلَى حُسْنِ ٱلنَّظْمِ . وَجُمْلَةُ ٱلْحَالِ اَنْ تَعْتَبِرَ شِعْرَكَ بِمَا سَلَفَ مِنْ اَشْعَارِ ٱلْمَاضِينَ فَمَا ٱسْتَحْسَنَ ٱلْعُلَمَاءُ فَاَقْصِدْهُ وَمَا ٱسْتَقْبَحُوهُ فَاجْتَنِبْهُ

وَاَوْرَدَ ٱلْعَلَّامَةُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ اَبِي ٱلْاِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ وَصِيَّةً لِنَفْسِهِ اَوْرَدَهَا اَيْضًا عَلَى نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ فَاَخْتَرْتُ مِنْهَا مَا هُوَ ٱللَّائِقُ بِٱلْحَالِ وَاَوَّلُهَا : يَنْبَغِي لَكَ اَيُّهَا ٱلرَّاغِبُ فِي ٱلْعَمَلِ ٱلسَّائِلُ عَنْ اَوْضَحِ ٱلسُّبُلِ اَنْ تُحَصِّلَ ٱلْمَعْنَى قَبْلَ ٱلشُّرُوعِ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلْقَوَافِي قَبْلَ ٱلْاَبْيَاتِ (قُلْتُ وَهٰذَا مَذْهَبُنَا) . ثُمَّ قَالَ اَيْضًا : وَلَا تُكْرِهِ ٱلْخَاطِرَ عَلَى وَزْنٍ مَخْصُوصٍ وَرَوِيٍّ مَقْصُودٍ وَتَوَخَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْجَزْلَ دُونَ ٱلرَّذْلِ وَٱلسَّهْلَ دُونَ ٱلصَّعْبِ وَٱلْعَذْبَ دُونَ ٱلْمُسْتَكْرَهِ وَٱلْمُسْتَحْسَنَ دُونَ ٱلْمُسْتَهْجَنِ . وَلَا تَعْمَلْ نَظْمًا وَلَا نَثْرًا عِنْدَ ٱلْمَلَلِ فَاِنَّ ٱلْكَثِيرَ مَعَهُ قَلِيلٌ وَٱلنَّفِيسَ مَعَهُ خَسِيسٌ . وَٱلْخَوَاطِرَ يَنَابِيعُ اِذَا رُفِقَ بِهَا حَمَّتْ وَاِذَا كَثُرَ ٱسْتِعْمَالُهَا تَرَحَتْ . وَاكْتُبْ كُلَّ مَعْنًى يَسْنَحُ وَقَيِّدْ كُلَّ فَائِدَةٍ تَعْرِضُ فَاِنَّ نَتَائِجَ ٱلْاَفْكَارِ كَلَمْعَةِ ٱلْبَرْقِ وَلَمْحَةِ ٱلطَّرْفِ اِنْ لَمْ تُقَيِّدْهَا شَرَدَتْ وَنَدَّتْ وَاِنْ لَمْ تَسْتَعْطِفْ بِٱلتَّكْرَارِ عَلَيْهَا صَدَّتْ وَٱلتَّرَنُّمُ بِٱلشِّعْرِ مِمَّا يُعِينُ عَلَيْهِ . فَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

تَغَنَّ بِٱلشِّعْرِ اِمَّا كُنْتَ قَائِلَهُ ... اِنَّ ٱلْغِنَاءَ لِقَوْلِ ٱلشِّعْرِ مِضْمَارُ

البحث السادس

في شروط الكلام

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

اِعْلَمْ اَنَّ لِلْكَلَامِ شُرُوطًا لَا يَسْلَمُ ٱلْمُتَكَلِّمُ مِنَ ٱلزَّلَلِ اِلَّا بِهَا وَلَا يَعْرَى مِنَ ٱلنَّقْصِ اِلَّا بَعْدَ اَنْ يَسْتَوْفِيَهَا وَهِيَ اَرْبَعَةٌ : (فَٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ لِدَاعٍ يَدْعُو اِلَيْهِ اِمَّا فِي اَجْتِلَابِ نَفْعٍ اَوْ فِي دَفْعِ ضَرَرٍ . (وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَأْتِيَ بِهِ فِي مَوْضِعِهِ وَيَتَوَخَّى بِهِ اِصَابَةَ فُرْصَتِهِ . (وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) اَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ . (وَٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَتَخَيَّرَ ٱللَّفْظَ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ . فَهٰذِهِ اَرْبَعَةُ شُرُوطٍ مَتَى اَخَلَّ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِشَرْطٍ مِنْهَا فَقَدْ اَوْهَنَ فَضِيلَةَ بَاقِيهَا . وَسَنَذْكُرُ تَعْلِيلَ كُلِّ شَرْطٍ مِنْهَا بِمَا يُنْبِئُ عَنْ لُزُومِهِ . فَاَمَّا ٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ وَهُوَ ٱلدَّاعِي اِلَى ٱلْكَلَامِ فَلِاَنَّ مَا لَا دَاعِيَ لَهُ هَذَيَانٌ وَمَا لَا سَبَبَ لَهُ هُجْرٌ وَمَنْ سَامَحَ نَفْسَهُ فِي ٱلْكَلَامِ اِذَا عَنَّ وَلَمْ يُرَاعِ صِحَّةَ دَوَاعِيهِ وَاِصَابَةَ مَعَانِيهِ كَانَ قَوْلُهُ مَرْذُولًا وَرَأْيُهُ مَعْلُولًا . كَٱلَّذِي حَكَى ٱبْنُ عَائِشَةَ : اِنَّ شَابًّا كَانَ يُجَالِسُ ٱلْاَحْنَفَ وَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَاَعْجَبَ ذٰلِكَ ٱلْاَحْنَفَ فَخَلَتِ ٱلْحَلْقَةُ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ ٱلْاَحْنَفُ : تَكَلَّمْ يَا ٱبْنَ اَخِي . فَقَالَ : يَا عَمُّ لَوْ اَنَّ رَجُلًا سَقَطَ مِنْ شَرَفِ هٰذَا ٱلْمَسْجِدِ هَلْ كَانَ يَضُرُّهُ شَيْءٌ . فَقَالَ : يَا ٱبْنَ اَخِي لَيْتَنَا تَرَكْنَاكَ مَسْتُورًا . ثُمَّ تَمَثَّلَ ٱلْاَحْنَفُ بِقَوْلِ ٱلْاَعْوَرِ ٱلشَّنِّيِّ :

كَاَيِّنْ تَرَى مِنْ صَاحِبٍ لَكَ مُعْجِبٍ زِيَادَتُهُ اَوْ نَقْصُهُ فِي ٱلتَّكَلُّمِ
لِسَانُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ اِلَّا صُورَةُ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ

وَكَٱلَّذِي حُكِيَ عَنْ اَبِي ٱلْفَقِيهِ : اِنَّ رَجُلًا كَانَ يَجْلِسُ اِلَيْهِ فَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَقَالَ لَهُ اَبُو يُوسُفَ : اَلَا تَسْاَلُ . قَالَ : بَلَى مَتَى يُفْطِرُ ٱلصَّائِمُ . قَالَ : اِذَا غَرَبَتِ ٱلشَّمْسُ . قَالَ : فَاِنْ لَمْ تَغْرُبْ اِلَى نِصْفِ ٱللَّيْلِ . (قَالَ) فَتَبَسَّمَ اَبُو يُوسُفَ وَتَمَثَّلَ بِبَيْتَيِ ٱلْخَطَفِيِّ جَدِّ جَرِيرٍ :

عَجِبْتُ لِاِزْرَاءِ ٱلْعَيِيِّ بِنَفْسِهِ وَصَمْتِ ٱلَّذِي قَدْ كَانَ بِٱلْعِلْمِ اَعْلَمَا
وَفِي ٱلصَّمْتِ سِتْرٌ لِلْغَبِيِّ وَاِنَّمَا صَحِيفَةُ لُبِّ ٱلْمَرْءِ اَنْ يَتَكَلَّمَا

فَٱنْظُرْ اِلَى هَؤُلَاءِ كَيْفَ اَبَانُوا بِٱلْكَلَامِ عَنْ جَهْلِهِمْ وَاَعْرَبُوا بِٱلسُّؤَالِ عَنْ نَقْصِهِمْ اِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَاعٍ اِلَيْهِ وَلَا رَوِيَّةٌ فِيمَا تَكَلَّمُوا بِهِ وَلَوْ صَدَرَ عَنْ رَوِيَّةٍ دَعَا اِلَيْهَا دَاعٍ لَسَلِمُوا مِنْ شَيْنِهِ وَبَرِئُوا مِنْ عَيْبِهِ . وَلِذٰلِكَ قِيلَ : لِسَانُ ٱلْعَاقِلِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ فَاِذَا اَرَادَ ٱلْكَلَامَ رَجَعَ اِلَى قَلْبِهِ فَاِنْ كَانَ لَهُ تَكَلَّمَ وَاِنْ كَانَ عَلَيْهِ اَمْسَكَ . وَقَلْبُ ٱلْجَاهِلِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا عَرَضَ لَهُ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ : مَنْ لَمْ يَعُدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ كَثُرَتْ خَطَايَاهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : عَقْلُ ٱلْمَرْءِ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : اَحْبِسْ لِسَانَكَ قَبْلَ اَنْ يُطِيلَ حَبْسَكَ اَوْ يُتْلِفَ نَفْسَكَ فَلَا شَيْءَ اَوْلَى بِطُولِ حَبْسٍ مِنْ لِسَانٍ يُقْصِرُ عَنِ ٱلصَّوَابِ وَيُسْرِعُ اِلَى ٱلْجَوَابِ . وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ :

وَمِمَّا كَانَتِ ٱلْحُكَمَاءُ قَالَتْ لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مِنْ تَبَعِ ٱلْفُؤَادِ

وَكَانَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ يَحْسِمُ ٱلرُّخْصَةَ فِي ٱلْكَلَامِ وَيَقُولُ: إِذَا جَالَسْتَ ٱلْجُهَّالَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ وَإِذَا جَالَسْتَ ٱلْعُلَمَاءَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ. فَإِنَّ فِي إِنْصَاتِكَ لِلْجُهَّالِ زِيَادَةً فِي ٱلْحِلْمِ وَفِي إِنْصَاتِكَ لِلْعُلَمَاءِ زِيَادَةً فِي ٱلْعِلْمِ. وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) فَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ بِٱلْكَلَامِ فِي وَضْعِهِ لِأَنَّ ٱلْكَلَامَ فِي غَيْرِ حِينِهِ لَا يَقَعُ مَوْقِعَ ٱلِٱنْتِفَاعِ بِهِ وَمَا لَا يَنْفَعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِأَنَّهُ هَذَيَانٌ وَهُجْرٌ. فَإِنْ قُدِّمَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّأْخِيرَ كَانَ عَجَلَةً وَخُرْقًا. وَإِنْ أُخِّرَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّقْدِيمَ كَانَ تَوَانِيًا وَعَجْزًا لِأَنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ قَوْلًا وَفِي كُلِّ زَمَانٍ عَمَلًا. وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

يَضَعُ ٱلْحَدِيثَ عَلَى مَوَاضِعِهِ وَكَلَامُهُ مِنْ بَعْدِهَا تَزَرُ

وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ أَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ. فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِنْ لَمْ يَنْحَصِرْ بِٱلْحَاجَةِ وَلَمْ يُقَدَّرْ بِٱلْكِفَايَةِ لَمْ يَكُنْ لِحَدِّهِ غَايَةٌ وَلَا لِقَدْرِهِ نِهَايَةٌ وَمَا لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُورًا كَانَ حَصَرًا وَإِنْ قَصُرَ وَهَذَرًا وَإِنْ كَثُرَ. وَرُوِيَ: أَنَّ أَعْرَابِيًا تَكَلَّمَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ وَطَوَّلَ فَقَالَ لَهُ: كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ. قَالَ: شَفَتَايَ وَلِسَانِي. قَالَ: فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَكْرَهُ ٱلِٱنْبِعَاقَ فِي ٱلْكَلَامِ فَنَضَّرَ ٱللَّهُ وَجْهَ ٱمْرِئٍ أَوْجَزَ فِي كَلَامِهِ فَٱقْتَصَرَ عَلَى حَاجَتِهِ. وَحُكِيَ أَنَّ بَعْضَ ٱلْحُكَمَاءِ رَأَى رَجُلًا يُكْثِرُ ٱلْكَلَامَ وَيُقِلُّ ٱلسُّكُوتَ فَقَالَ: إِنَّ ٱللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ لَكَ أُذُنَيْنِ وَلِسَانًا وَاحِدًا لِيَكُونَ مَا تَسْمَعُهُ ضِعْفَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ

كَثُرَتْ آثامُهُ . وَقَالَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ : أُنْذِرُكُمْ فُضُولَ ٱلْمَنْطِقِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : كَلَامُ ٱلْمَرْءِ بَيَانُ فَضْلِهِ وَتَرْجُمَانُ عَقْلِهِ فَاقْصِرْهُ عَلَى ٱلْجَمِيلِ وَٱقْتَصِرْ مِنْهُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَإِيَّاكَ مَا يُسْخِطُ سُلْطَانَكَ وَيُوحِشُ إِخْوَانَكَ . فَمَنْ أَسْخَطَ سُلْطَانَهُ تَعَرَّضَ لِلْمَنِيَّةِ . وَمَنْ أَوْحَشَ إِخْوَانَهُ تَبَرَّأَ مِنَ ٱلْحُرِّيَّةِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

وَزِنِ ٱلْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا ... يُبْدِي عُيُوبَ ذَوِي ٱلْعُيُوبِ ٱلْمَنْطِقُ

وَلِمُخَالَفَةِ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ حَالَتَانِ : تَقْصِيرٌ يَكُونُ حَصَرًا وَتَكْثِيرٌ يَكُونُ هَذَرًا . وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَشَيْنُ ٱلْهَذَرِ أَشْنَعُ وَرُبَّمَا كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ أَخْوَفَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : مَقْتَلُ ٱلرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱلْحَصَرُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْهَذَرِ لِأَنَّ ٱلْحَصَرَ يُضَعِّفُ ٱلْحُجَّةَ وَٱلْهَذَرَ يُتْلِفُ ٱلْمَحَجَّةَ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

رَأَيْتُ ٱللِّسَانَ عَلَى أَهْلِهِ ... إِذَا سَاسَهُ ٱلْجَهْلُ لَيْثًا مُغِيرَا

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : يَا رُبَّ أَلْسِنَةٍ كَٱلسُّيُوفِ تَقْطَعُ أَعْنَاقَ أَصْحَابِهَا وَمَا يَنْقُصُ مِنْ هَيْئَاتِ ٱلرِّجَالِ يَزِيدُ فِي بَهَائِهَا وَأَلْبَابِهَا . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَعَوَّدُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَقَدْ ذَمَّ ٱلْكَلَامَ فِي مَجْلِسِهِ : كَلَّا إِنَّ مَنْ تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَسْكُتَ فَيُحْسِنَ وَلَيْسَ مَنْ سَكَتَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ فَيُحْسِنَ . وَوَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَاتِبَ فَقَالَ : مَنْ إِذَا أَخَذَ شِبْرًا كَفَاهُ وَإِذَا وَجَدَ طُومَارًا

املاهُ . وانشدَ بعضُهم في خُطباءِ اياد :

يَرْمُونَ بالخُطَبِ الطِّوالِ وتارةً ... وحيَ الملاحظِ خيفةَ الرُّقباءِ

وقالَ الهيثمُ بنُ صالحٍ لابنِه : يا بُنيَّ اذا اقللتَ من الكلامِ اكثرتَ من الصَّوابِ . فقالَ : يا ابتِ فانْ انا اكثرتُ واكثرتُ (يعني كلاماً وصوابًا) . فقالَ : يا بُنيَّ ما رأيتُ موعوظًا احقَّ بانْ يكونَ واعظًا منكَ . وانشدتُ لابي الفتحِ البُستيِّ :

تكلَّمْ وسدِّدْ ما استطعتَ فانَّما ... كلامُكَ حيٌّ والسُّكوتُ جمادُ

فانْ لمْ تجدْ قولًا سديدًا تقولُه ... فصمتُكَ عنْ غيرِ السَّدادِ سدادُ

وقيلَ لإياسِ بنِ معاويةَ : ما فيكَ عيبٌ الَّا كثرةُ الكلامِ . فقالَ : اتسمعونَ صوابًا اوْ خطأً . قالوا : لا بلْ صوابًا . قالَ : فالزِّيادةُ من الخيرِ خيرٌ . وقالَ ابو عثمانَ الجاحظُ : للكلامِ غايةٌ ولنشاطِ السَّامعينَ نهايةٌ وما فضلَ عنْ مقدارِ الاحتمالِ ودعا الى الاستثقالِ والملالِ فذاكَ الفاضلُ هوَ الهذرُ . وصدقَ ابو عثمانَ لانَّ الاكثارَ منهُ وانْ كانَ صوابًا يملُّ السَّامعَ ويكلُّ الخاطرَ وهوَ صادرٌ عنْ اعجابٍ بهِ لولاهُ قصرَ عنهُ . ومنْ اعجبَ بكلامِهِ استرسلَ فيهِ والمُسترسلُ في الكلامِ كثيرُ الزَّللِ دائمُ العثارِ . وقالَ بعضُ الحكماءِ : منْ اعجبَ بقولِهِ اصيبَ بعقلِهِ وليسَ لكثرةِ الهذرِ رجاءٌ يُقابلُ خوفَهُ ولا نفعٌ يوازي ضرَّهُ لانَّهُ يخافُ منْ نفسِهِ الزَّللَ ومنْ سامعيهِ الملَلَ وليسَ في مقابلةِ هذينِ حاجةٌ داعيةٌ ولا نفعٌ مرجوٌّ . قالَ جعفرُ بنُ يحيى : اذا كانَ الايجازُ كافيًا كانَ الاكثارُ عيًّا وانْ

كَانَ ٱلْإِكْثَارُ وَاجِبًا كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ عَجْزًا. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ : إِذَا تَمَّ ٱلْعَقْلُ نَقَصَ ٱلْكَلَامُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : مَنْ أَطَالَ صَمْتَهُ ٱجْتَلَبَ مِنَ ٱلْهَيْبَةِ مَا يَنْفَعُهُ وَمِنَ ٱلْوَحْشَةِ مَا لَا يَضُرُّهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : عِيٌّ تَسْلَمُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْ مَنْطِقٍ تَنْدَمُ عَلَيْهِ فَٱقْتَصِرْ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى مَا يُقِيمُ حُجَّتَكَ وَيُبْلِغُ حَاجَتَكَ وَإِيَّاكَ وَفُضُولَهُ فَإِنَّهُ يُزِلُّ ٱلْقَدَمَ وَيُورِثُ ٱلنَّدَمَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْفُصَحَاءِ : فَمُ ٱلْعَاقِلِ مُلْجَمٌ إِذَا هَمَّ بِٱلْكَلَامِ ٱحْجَمَ وَفَمُ ٱلْجَاهِلِ مُطْلَقٌ كُلَّمَا شَاءَ ٱنْطَلَقَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

إِنَّ ٱلْكَلَامَ يُعِدُّ ٱلْقَوْمُ جَلْوَتَهُ حَتَّى يَلِجَّ بِهِ عِيٌّ وَإِكْثَارُ

وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) وَهُوَ ٱخْتِيَارُ ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ فَلِأَنَّ ٱللِّسَانَ عُنْوَانُ ٱلْإِنْسَانِ يُتَرْجِمُ عَنْ مَجْهُولِهِ وَيُبَرْهِنُ عَنْ مَحْصُولِهِ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ بِتَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ حَرِيًّا وَتَقْوِيمِ لِسَانِهِ مَلِيًّا . وَقَالَ خَالِدُ ٱبْنُ صَفْوَانَ : مَا ٱلْإِنْسَانُ لَوْلَا ٱللِّسَانُ هَلِ ٱلَّا بَهِيمَةٌ مُهْمَلَةٌ أَوْ صُورَةٌ مُمَثَّلَةٌ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : ٱللِّسَانُ وَزِيرُ ٱلْإِنْسَانِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : يُسْتَدَلُّ عَلَى عَقْلِ ٱلرَّجُلِ بِقَوْلِهِ وَعَلَى أَصْلِهِ بِفِعْلِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

وَإِنَّ لِسَانَ ٱلْمَرْءِ مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ حَصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ

وَلَيْسَ يَصِحُّ ٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ إِلَّا لِمَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِٱلْبَلَاغَةِ وَكَلَّفَهَا لُزُومَ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى يَصِيرَ مُتَدَرِّبًا بِهَا مُعْتَادًا لَهَا فَلَا يَأْتِيَ بِكَلَامٍ مُسْتَكْرَهِ ٱللَّفْظِ وَلَا مُخْتَلِّ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ عَلَى مَعَانٍ

مُفْرَدَةٍ وَلَا لِأَلْفَاظِهَا غَايَةٌ . وَإِنَّمَا ٱلْبَلَاغَةُ أَنْ تَكُونَ بِٱلْمَعَانِي ٱلصَّحِيحَةِ مُسْتَوْدَعَةً فِي أَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ فَتَكُونُ فَصَاحَةُ ٱلْأَلْفَاظِ مَعَ صِحَّةِ ٱلْمَعَانِي هِيَ ٱلْبَلَاغَةَ

البحث السابع

في عيوب الكلام

(عن الجاحظ والعسكري)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

قَالَ بَعْضُ ٱلْأَوَائِلِ : لَا تَكْمُلُ آلَةُ ٱلْبَلِيغِ إِلَّا إِذَا خَلَا كَلَامُهُ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ وَسُوءِ ٱلصَّنْعَةِ وَكَانَ غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأَمُّلِ مُتَبَاعِدًا عَنِ ٱلْحَشْوِ . فَقَوْلُهُ : (يَكُونُ سَلِيمًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ) فَٱلتَّكَلُّفُ طَلَبُ ٱلشَّيْءِ بِصُعُوبَةٍ لِلْجَهْلِ بِطَرَائِقِ طَلَبِهِ بِٱلسُّهُولَةِ . فَٱلْكَلَامُ إِذَا جُمِعَ بِتَعَبٍ وَجُهْدٍ وَتُنُوِّلَتْ أَلْفَاظُهُ مِنْ بُعْدٍ فَهُوَ مُتَكَلَّفٌ . وَقَالُوا : لَيْسَ ٱلْفِقْهُ بِٱلتَّفَقُّهِ وَلَا ٱلْفَصَاحَةُ بِٱلتَّفَصُّحِ لِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ مُتَزَيِّدٌ فِي كَلَامِهِ إِلَّا لِنَقْصٍ يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ . وَمِمَّا ٱتَّفَقَتْ عَلَيْهِ ٱلْعَرَبُ وَٱلْعَجَمُ قَوْلُهُمْ : ٱلطَّبْعُ أَمْلَكُ . قَالَ ٱلْعَرْجِيُّ :

يَا أَيُّهَا ٱلْمُتَحَلِّي غَيْرَ شِيمَتِهِ ... وَمَنْ شَمَائِلُهُ ٱلتَّبْدِيلُ وَٱلْمَلَقُ

إِرْجِعْ إِلَى خُلُقِكَ ٱلْمَعْرُوفِ دَيْدَنُهُ ... إِنَّ ٱلتَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ ٱلْخُلُقُ

وَقَالَ آخَرُ :

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ سُوسِ نَفْسِهِ ... يَدَعْهُ وَيَغْلِبْهُ عَلَى ٱلنَّفْسِ خِيمُهَا

وَقَالَ آخَرُ :

كُلُّ ٱمْرِئٍ رَاجِعٌ يَوْمًا لِشِيمَتِهِ وَإِنْ تَخَلَّقَ أَخْلَاقًا إِلَى حِينِ

وَمِثَالُ ٱلتَّكَلُّفِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي دُعَائِهِ : ٱللَّهُمَّ رَبَّنَا وَإِلٰهَنَا مَنْ أَرَادَ بِنَا سُوءًا فَأَحِطْ ذٰلِكَ ٱلسُّوءَ بِهِ وَأَرْسِخْهُ فِيهِ كَرُسُوخِ ٱلسِّجِّيلِ فِي أَصْحَابِ ٱلْفِيلِ. وَٱنْصُرْنَا عَلَى كُلِّ بَاغٍ وَحَسُودٍ كَمَا ٱنْتَصَرْتَ لِنَاقَةِ ثَمُودٍ. ثُمَّ قَالَ : (بَرِيئًا مِنْ سُوءِ ٱلصَّنْعَةِ) فَسُوءُ ٱلصَّنْعَةِ يَتَصَرَّفُ عَلَى وُجُوهٍ مِنْهَا : سُوءُ ٱلتَّقْسِيمِ وَفَسَادُ ٱلتَّفْسِيرِ وَقُبْحُ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَٱلتَّطْبِيقِ وَفَسَادُ ٱلنَّسْجِ وَٱلسَّبْكِ . فَإِذَا أَخَلَّ ٱلْكَاتِبُ بِذٰلِكَ فَاتَتْهُ فَضِيلَتُهُ وَعَلِقَتْ بِهِ رَذِيلَةُ فَوْتِهِ فَعَفَّى عَلَى جَمِيعِ مَحَاسِنِهِ وَعَمَّى سَائِرَ فَضَائِلِهِ . لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُفْرِقْ بَيْنَ كَلَامٍ جَيِّدٍ وَآخَرَ رَدِيءٍ وَلَفْظٍ حَسَنٍ وَآخَرَ قَبِيحٍ وَشِعْرٍ نَادِرٍ وَآخَرَ بَارِدٍ بَانَ جَهْلُهُ وَظَهَرَ نَقْصُهُ. وَهُوَ أَيْضًا إِذَا أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ قَصِيدَةً أَوْ يُنْشِئَ رِسَالَةً وَقَدْ فَاتَهُ هٰذَا ٱلْعِلْمُ مَزَجَ ٱلصَّفْوَ بِٱلْكَدَرِ وَخَلَطَ ٱلْغُرَرَ بِٱلْعُرَرِ وَٱسْتَعْمَلَ ٱلْوَحْشِيَّ ٱلْعَكِرَ فَجَعَلَ نَفْسَهُ مَهْزَأَةً لِلْجَاهِلِ وَعِبْرَةً لِلْعَاقِلِ . وَإِذَا أَرَادَ أَيْضًا تَصْنِيفَ كَلَامٍ مَنْثُورٍ أَوْ تَأْلِيفَ شِعْرٍ مَنْظُومٍ وَتَخَطَّى حُسْنَ ٱلصَّنْعَةِ سَاءَ ٱخْتِيَارُهُ لَهُ وَقَبُحَتْ آثَارُهُ فِيهِ فَأَخَذَ ٱلرَّدِيءَ ٱلْمَرْذُولَ وَتَرَكَ ٱلْجَيِّدَ ٱلْمَقْبُولَ فَدَلَّ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ . وَقَدْ قِيلَ : ٱخْتِيَارُ ٱلرَّجُلِ قِطْعَةٌ مِنْ عِلْمِهِ . وَمَا أَكْثَرَ مَا وَقَعَ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فِي هٰذِهِ ٱلرَّذِيلَةِ . وَقَوْلُهُ : (بَرِيئًا مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ) فَٱلتَّعْقِيدُ وَٱلْإِغْلَاقُ سَوَاءٌ وَهُوَ ٱسْتِعْمَالُ ٱلْوَحْشِيِّ وَشِدَّةُ تَعْلِيقِ ٱلْكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ حَتَّى يَسْتَبْهِمَ ٱلْمَعْنَى .

قَالَ حَبِيبٌ ٱلطَّائِيُّ :

فَمَا لَكَ بِٱلْغَرِيبِ يَدٌ وَلٰكِنْ تَعَاطِيكَ ٱلْغَرِيبَ مِنَ ٱلْغَرِيبِ
أَمَا لَوْ أَنَّ جَهْلَكَ عَادَ عِلْمًا إِذًا لَرَسَخْتَ فِي عِلْمِ ٱلْغُيُوبِ

قَالَ آخَرُ يَمْدَحُ رَجُلًا بِٱسْتِسْهَالِ ٱللَّفْظِ :

قَوْلٌ كَأَنَّ فِرِنْدَهُ شَحْذٌ عَلَى ذِهْنِ ٱللَّبِيبِ
لَمْ يَشْمَئِزَّ عَلَى ٱللِّسَا نِ وَلَا يَشُذُّ عَلَى ٱلْقُلُوبِ
لَمْ يَغْلُ فِي شَنْعِ ٱللُّغَا تِ وَلَا يُوَحَّشُ بِٱلْغَرِيبِ

وَقَوْلُهُ : (غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأَمُّلِ) أَيْ هُوَ مُسْتَغْنٍ لِوُضُوحِهِ عَنْ تَأَمُّلِ مَعَانِيهِ وَتَرْدِيدِ ٱلنَّظَرِ فِيهِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ : إِنَّ مَنْ أَعَارَهُ ٱللّٰهُ مِنْ مَعُونَتِهِ نَصِيبًا وَأَفْرَغَ عَلَيْهِ مِنْ مَحَبَّتِهِ ذَنُوبًا حَبَّبَ إِلَيْهِ ٱلْمَعَانِيَ وَسَلَّسَ لَهُ نِظَامَ ٱللَّفْظِ وَكَانَ قَبْلُ قَدْ أَعْفَى ٱلْمُسْتَمِعَ مِنْ كَدِّ ٱلتَّلَطُّفِ وَأَرَاحَ قَارِئَ ٱلْكِتَابِ مِنْ كَدِّ ٱلتَّفَهُّمِ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ ٱلْكَلَامِ وَقُرْبُ ٱلْمَأْخَذِ وَإِيجَازٌ فِي صَوَابٍ وَقَصْدٌ إِلَى ٱلْحُجَّةِ وَحُسْنُ ٱلِٱسْتِعَارَةِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ : ٱلْبَلَاغَةُ تَقْرِيبُ مَا بَعُدَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ بِأَيْسَرِ ٱلْخِطَابِ وَٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ . وَهُوَ أَنْ يَعْمِدَ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱللَّطِيفِ فَيَكْشِفَهُ وَيَنْفِيَ ٱلشَّوَاغِلَ عَنْهُ فَيُفْهِمَهُ ٱلسَّامِعَ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ فِيهِ وَتَدَبُّرٍ لَهُ . وَقَوْلُهُ : (مُتَبَاعِدًا مِنَ ٱلْحَشْوِ) فَٱلْحَشْوُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرُبٍ : ٱثْنَانِ مِنْهَا مَذْمُومَانِ وَوَاحِدٌ مَحْمُودٌ . فَأَحَدُ ٱلْمَذْمُومَيْنِ هُوَ : إِدْخَالُكَ فِي ٱلْكَلَامِ لَفْظًا لَوْ أَسْقَطْتَهُ لَكَانَ ٱلْكَلَامُ تَامًّا . مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

اَعْنِي فَتًى لَمْ تَدْرِ اَلشَّمْسُ طَالِعَةً يَوْمًا مِنَ اَلدَّهْرِ اِلَّا ضَرَّ اَوْ نَفَعَا

فَقَوْلُهُ : (يَوْمًا مِنَ اَلدَّهْرِ) حَشْوٌ لَا يُحْتَاجُ اِلَيْهِ لِاَنَّ اَلشَّمْسَ لَا تَطْلُعُ لَيْلًا . وَاَلضَّرْبُ اَلْآخَرُ اَلْعِبَارَةُ عَنِ اَلْمَعْنَى بِكَلَامٍ طَوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِي طُولِهِ وَيُمْكِنُ اَنْ يُعَبَّرَ بِاَقْصَرَ مِنْهُ كَقَوْلِ اَلنَّابِغَةِ :

تَبَيَّنْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لِسِتَّةِ اَعْوَامٍ وَذَا اَلْعَامُ سَابِعُ

فَكَانَ يَنْبَغِي اَنْ يَقُولَ : لِسَبْعَةِ اَعْوَامٍ . وَيُتِمَّ اَلْبَيْتَ بِكَلَامٍ آخَرَ يَكُونُ فِيهِ فَائِدَةٌ فَعَجَزَ عَنْ ذٰلِكَ فَحَشَا اَلْبَيْتَ بِمَا لَا وَجْهَ لَهُ .

وَاَمَّا اَلضَّرْبُ اَلْمَحْمُودُ فَكَقَوْلِ كُثَيِّرٍ :

لَوَ اَنَّ اَلْبَاخِلِينَ وَاَنْتَ مِنْهُمْ رَاَوْكَ تَعَلَّمُوا مِنْكَ اَلْمَطَالَا

قَوْلُهُ : (وَاَنْتَ مِنْهُمْ) حَشْوٌ اِلَّا اَنَّهُ مَلِيحٌ وَيُسَمِّي اَهْلُ اَلصَّنْعَةِ هٰذَا اَلْجِنْسَ اَعْتِرَاضَ كَلَامٍ فِي كَلَامٍ . وَمِنْهُ قَوْلُ اَلْآخَرِ :

اِنَّ اَلثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتُهَا قَدْ اَحْوَجَتْ سَمْعِي اِلَى تَرْجُمَانْ

البحث الثامن

في الالتباس والاسباب المانعة من فهم المعاني

(عن الماوردي باختصار)

اِنْ لَمْ يَفْهَمِ اَلْعَاقِلُ مَعَانِيَ مَا سَمِعَ كَشَفَ عَنِ اَلسَّبَبِ اَلْمَانِعِ مِنْهَا لِيَعْلَمَ اَلْعِلَّةَ فِي تَعَذُّرِ فَهْمِهَا فَاِنَّ بِمَعْرِفَةِ اَسْبَابِ اَلْاَشْيَاءِ وَعِلَلِهَا يَصِلُ اِلَى تَلَافِي مَا شَذَّ وَصَلَاحِ مَا فَسَدَ وَلَيْسَ يَخْلُو اَلسَّبَبُ اَلْمَانِعُ مِنْ ذٰلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ : اِمَّا اَنْ يَكُونَ بِعِلَّةٍ فِي اَلْكَلَامِ

ٱلْمُتَرْجَمِ عَنْهَا . وَإِمَّا اَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي ٱلْمُسْتَوْدَعِ فِيهَا . وَإِمَّا اَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي ٱلسَّامِعِ ٱلْمُسْتَخْرِجِ . فَانْ كَانَ ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ مِنْ فَهْمِهَا لِعِلَّةٍ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَرْجَمِ عَنْهَا لَمْ يَخْلُ ذٰلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ اَحْوَالٍ : (اَحَدُهَا) اَنْ يَكُونَ لِتَقْصِيرِ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَصِيرَ تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى سَبَبًا مَانِعًا مِنْ فَهْمِ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا يَكُونُ مِنْ اَحَدِ وَجْهَيْنِ : إِمَّا مِنْ حَصَرِ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَعِيِّهِ . وَإِمَّا مِنْ بَلَادَتِهِ وَقِلَّةِ فَهْمِهِ . (اَلْحَالُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ لِزِيَادَةِ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى فَتَصِيرَ ٱلزِّيَادَةُ عِلَّةً مَانِعَةً مِنْ فَهْمِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْهُ وَهٰذَا قَدْ يَكُونُ مِنْ اَحَدِ وَجْهَيْنِ : إِمَّا مِنْ هَذَرِ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَاِكْثَارِهِ . وَإِمَّا لِسُوءِ ظَنِّهِ بِفَهْمِ سَامِعِهِ . (وَٱلْحَالُ ٱلثَّالِثُ) اَنْ يَكُونَ لِمُوَاضَعَةٍ يَقْصِدُهَا ٱلْمُتَكَلِّمُ بِكَلَامِهِ فَاِذَا لَمْ يَعْرِفْهَا ٱلسَّامِعُ لَمْ يَفْهَمْ مَعَانِيَهَا . وَاَمَّا تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ وَزِيَادَتُهُ فَمِنَ ٱلْاَسْبَابِ ٱلْخَاصَّةِ دُونَ ٱلْعَامَّةِ لِاَنَّكَ لَسْتَ تَجِدُ ذٰلِكَ عَامًّا فِي كُلِّ ٱلْكَلَامِ وَاِنَّمَا تَجِدُهُ فِي بَعْضِهِ فَاِذَا عَدَلْتَ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُقَصَّرِ اِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَوْفِي وَعَنِ ٱلزَّائِدِ اِلَى ٱلْكَافِي اَرَحْتَ نَفْسَكَ مِنْ تَكَلُّفِ مَا يَكِدُّ خَاطِرَكَ وَاِنْ اَقَمْتَ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِهِ اِمَّا لِضَرُورَةٍ دَعَتْكَ اِلَيْهِ عِنْدَ اِعْوَازِ غَيْرِهِ اَوْ لِحَمِيَّةٍ دَاخَلَتْكَ عِنْدَ تَعَذُّرِ فَهْمِهِ فَاَنْظُرْ فِي سَبَبِ ٱلزِّيَادَةِ وَٱلتَّقْصِيرِ . فَاِنْ كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ لِحَصَرٍ وَٱلزِّيَادَةُ لِهَذَرٍ سَهُلَ عَلَيْكَ ٱسْتِخْرَاجُ ٱلْمَعْنَى لِاَنَّ مَا لَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُولٌ لَا يَجُوزُ اَنْ يَكُونَ ٱلْمُخْتَلُّ مِنْهُ اَكْثَرَ مِنَ ٱلصَّحِيحِ وَفِي ٱلْاَكْثَرِ عَلَى ٱلْاَقَلِّ دَلِيلٌ . وَاِنْ كَانَتْ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى

دَليلًا بِسُوءِ ظَنِّ ٱلْمتكلِّمِ بِفَهْمِ ٱلسَّامِعِ كَانَ ٱسْتِخْرَاجُهُ ٱسْهَلَ . وَإِنْ كَانَ تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِسُوءِ فَهْمِ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَهُوَ اَصْعَبُ ٱلْاُمُورِ حَالًا وَاَبْعَدُهَا ٱسْتِخْرَاجًا لِاَنَّ مَا لَمْ يَفْهَمْهُ مُكَلِّمُكَ فَاَنْتَ مِنْ فَهْمِهِ اَبْعَدُ اِلَّا اَنْ يَكُونَ بِفَرْطِ ذَكَائِكَ وَجُودَةِ خَاطِرِكَ تَتَنَبَّهُ بِاِشَارَتِهِ عَلَى ٱسْتِنْبَاطِ مَا عَجَزَ عَنْهُ وَٱسْتِخْرَاجِ مَا قَصَّرَ فِيهِ فَتَكُونُ فَضِيلَةُ ٱلْاِسْتِيفَاءِ لَكَ وَحَقُّ ٱلتَّقَدُّمِ لَهُ . وَاَمَّا ٱلْمُوَاضَعَةُ فَضَرْبَانِ : عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ . (اَمَّا ٱلْعَامَّةُ) فَهِيَ مُوَاضَعَةُ ٱلْعُلَمَاءِ فِيمَا جَعَلُوهُ اَلْقَابًا لِمَعَانٍ لَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُتَعَلِّمُ عَنْهَا وَلَا يَقِفُ عَلَى مَعْنَى كَلَامِهِمْ اِلَّا بِهَا كَمَا جَعَلَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ ٱلْجَوَاهِرَ وَٱلْاَعْرَاضَ وَٱلْاَجْسَامَ اَلْقَابًا تَوَاضَعُوهَا لِمَعَانٍ ٱتَّفَقُوا عَلَيْهَا . وَلَسْتَ تَجِدُ مِنَ ٱلْعُلُومِ عِلْمًا يَخْلُو مِنْ هٰذَا . وَهٰذِهِ ٱلْمُوَاضَعَةُ ٱلْعَامَّةُ تُسَمَّى عُرْفًا . (وَاَمَّا ٱلْخَاصَّةُ) فَمُوَاضَعَةُ ٱلْوَاحِدِ يَقْصِدُ بِبَاطِنِ كَلَامِهِ غَيْرَ ظَاهِرِهِ . فَاِذَا كَانَتْ فِي ٱلْكَلَامِ كَانَتْ رَمْزًا . وَاِنْ كَانَتْ فِي ٱلشِّعْرِ كَانَتْ لُغْزًا . فَاَمَّا ٱلرَّمْزُ فَلَسْتَ تَجِدُهُ فِي عِلْمٍ عَنَوِيٍّ . وَلَا فِي كَلَامٍ لُغَوِيٍّ . وَاِنَّمَا يَخْتَصُّ غَالِبًا بِاَحَدِ شَيْئَيْنِ : اِمَّا بِمَذْهَبٍ شَنِيعٍ يُخْفِيهِ مُعْتَقِدُهُ وَيَجْعَلُ ٱلرَّمْزَ سَبَبًا لِتَطَلُّعِ ٱلنُّفُوسِ اِلَيْهِ وَٱحْتِمَالَ ٱلتَّأْوِيلِ فِيهِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلتُّهْمَةِ عَنْهُ . وَاِمَّا لِمَا يَدَّعِي اَرْبَابُهُ اَنَّهُ عِلْمٌ مُعْوِزٌ . وَاَنَّ اِدْرَاكَهُ بَدِيعٌ مُعْجِزٌ كَالصَّنْعَةِ ٱلَّتِي وَضَعَهَا اَرْبَابُهَا اَسْمًا لِعِلْمِ ٱلْكِيمِيَاءِ فَرَمَزُوا بِاَوْصَافِهِ وَاَخْفَوْا مَعَانِيَهُ لِيُوهِمُوا ٱلشُّحَّ بِهِ وَٱلْاَسَفَ عَلَيْهِ خَدِيعَةً لِلْعُقُولِ ٱلْوَاهِيَةِ وَٱلْاَرَاءِ ٱلْفَاسِدَةِ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

نُعِتَ شَيْئًا فَاكْثَرَتْ اَلْوُلُوعَ بِهِ اَحَبُّ شَيْءٍ اِلَى اَلْاِنْسَانِ مَا مُنِعَا

ثُمَّ لِيَكُونُوا بَرَاءً مِنْ عُهْدَةِ مَا قَالُوهُ اِذَا جُرِّبَ وَلَوْ كَانَ مَا تَضَمَّنَ هٰذَيْنِ اَلنَّوْعَيْنِ وَاَشْبَاهِهِمَا مِنَ اَلرُّمُوزِ مَعْنًى صَحِيحًا وَعِلْمًا مُسْتَفَادًا لَخَرَجَ مِنَ اَلرَّمْزِ اَلْخَفِيِّ اِلَى اَلْعِلْمِ اَلْجَلِيِّ . فَاِنَّ اَغْرَاضَ اَلنَّاسِ مَعَ اَخْتِلَافِ اَهْوَائِهِمْ لَا تَتَّفِقُ عَلَى سَتْرٍ سَلِيمٍ وَاِخْفَاءٍ مُفِيدٍ . وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ :

اَلسِّتْرُ دُونَ اَلْفَاحِشَاتِ وَلَا يَلْقَاكَ دُونَ اَلْخَيْرِ مِنْ سِتْرِ

وَرُبَّمَا اُسْتُعْمِلَ اَلرَّمْزُ مِنَ اَلْكَلَامِ فِيمَا يُرَادُ تَفْخِيمُهُ مِنَ اَلْمَعَانِي وَتَعْظِيمُهُ مِنَ اَلْاَلْفَاظِ لِيَكُونَ اَحْلَى فِي اَلْقَلْبِ مَوْقِعًا . وَاَجَلَّ فِي اَلنُّفُوسِ مَوْضِعًا . فَيَصِيرَ بِالرَّمْزِ سَائِرًا وَفِي اَلصُّحُفِ مُخَلَّدًا . كَالَّذِي حُكِيَ عَنْ فِيثَاغُورُسَ فِي وَصَايَاهُ اَلْمَرْمُوزَةِ اِنَّهُ قَالَ : اِحْفَظْ مِيزَانَكَ مِنَ اَلْبَذَى وَاَوْزَانَكَ مِنَ اَلصَّدَى . يُرِيدُ بِحِفْظِ اَلْمِيزَانِ مِنَ اَلْبَذَى حِفْظَ اَللِّسَانِ مِنَ اَلْخَنَا وَبِحِفْظِ اَلْاَوْزَانِ مِنَ اَلصَّدَى حِفْظَ اَلْعَقْلِ مِنَ اَلْهَوَى . فَصَارَ بِهٰذَا اَلرَّمْزِ مُسْتَحْسَنًا وَمُدَوَّنًا وَلَوْ قَالَهُ بِاللَّفْظِ اَلصَّرِيحِ وَاَلْمَعْنَى اَلصَّحِيحِ لَمَا سَارَ عَنْهُ وَلَا اُسْتُحْسِنَ مِنْهُ . وَعِلَّةُ ذٰلِكَ اَنَّ اَلْمَحْجُوبَ عَنِ اَلْاَفْهَامِ كَالْمَحْجُوبِ عَنِ اَلْاَبْصَارِ فِيمَا يَحْصُلُ لَهُ فِي اَلنُّفُوسِ مِنَ اَلتَّعْظِيمِ . وَفِي اَلْقُلُوبِ مِنَ اَلتَّفْخِيمِ . وَمَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَمْ يَحْتَجِبْ هَانَ وَاسْتُرْذِلَ . وَهٰذَا اِنَّمَا يَصِحُّ اُسْتِحْلَاؤُهُ فِيمَا قَلَّ وَهُوَ بِاللَّفْظِ اَلصَّرِيحِ مُسْتَقِلٌّ . فَاَمَّا اَلْعُلُومُ اَلْمُنْتَشِرَةُ اَلَّتِي تَتَطَلَّعُ اَلنُّفُوسُ اِلَيْهَا فَقَدِ اُسْتَغْنَتْ بِقُوَّةِ اَلْبَاعِثِ عَلَيْهَا . وَشِدَّةِ اَلدَّاعِي اِلَيْهَا . عَنِ اَلْاِسْتِدْعَاءِ اِلَيْهَا بِرَمْزٍ مُسْتَحْلًى وَلَفْظٍ مُسْتَغْرَبٍ . بَلْ ذٰلِكَ مُنَفِّرٌ لِمَا فِي اَلتَّشَاغُلِ بِاسْتِخْرَاجِ

رُمُوزِهَا مِنَ ٱلْاِبْطَاءِ عَنْ دَرْكِهَا فَهٰذَا حَالُ ٱلرَّمْزِ . وَاَمَّا ٱللُّغْزُ فَهُوَ تَحَرِّي اَهْلِ ٱلْفَرَاغِ وَشُغْلُ ذَوِي ٱلْبَطَالَةِ لِيَتَنَافَسُوا فِي تَبَايُنِ قَرَائِحِهِمْ وَيَتَفَاخَرُوا فِي سُرْعَةِ خَوَاطِرِهِمْ فَيَسْتَكِدُّوا خَوَاطِرَ قَدْ مُنِحُوا صِحَّتَهَا فِيمَا لَايُجْدِي نَفْعًا وَلَا يُفِيدُ عِلْمًا كَاَهْلِ ٱلصِّرَاعِ ٱلَّذِينَ قَدْ صَرَفُوا مَا مُنِحُوهُ مِنْ صِحَّةِ اَجْسَامِهِمْ اِلَى صِرَاعٍ كَدُودٍ يَصْرَعُ عُقُولَهُمْ وَيَهُدُّ اَجْسَامَهُمْ وَلَا يُكْسِبُهُمْ حَمْدًا وَلَا يُجْدِي عَلَيْهِمْ نَفْعًا . اُنْظُرْ اِلَى قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رَجُلٌ مَاتَ وَخَلَّفَ رَجُلًا ٱبْنَ اُمِّ ٱبْنِ اَبِي اُخْتِ اَبِيهِ

مَعَهُ اُمُّ بَنِي اَوْلَادِهِ وَاَبَا اُخْتِ بَنِي عَمِّ اَخِيهِ

اَخْبِرْنِي عَنْ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَقَدْ رَوَّعَكَ صُعُوبَةُ مَا تَضَمَّنَهُمَا مِنَ ٱلسُّؤَالِ اِذَا ٱسْتَكْدَيْتَ ٱلْفِكْرَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ فَعَلِمْتَ اَنَّهُ اَرَادَ مَيِّتًا خَلَّفَ اَبًا وَزَوْجَةً وَعَمًّا . مَا ٱلَّذِي اَفَادَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَنَفَى عَنْكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ . اَلَسْتَ بَعْدَ عِلْمِهِ تَجْهَلُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا مِنْ قَبْلِهِ وَلَوْ اَنَّ ٱلسَّائِلَ قَلَبَ لَكَ ٱلسُّؤَالَ فَاَخَّرَ مَا قَدَّمَ وَقَدَّمَ مَا اَخَّرَ لَكُنْتَ فِي ٱلْجَهْلِ بِهِ قَبْلَ ٱسْتِخْرَاجِهِ كَمَا كُنْتَ فِي ٱلْجَهْلِ ٱلْاَوَّلِ وَقَدْ كَدَدْتَ نَفْسَكَ وَاَتْعَبْتَ خَاطِرَكَ . ثُمَّ لَا تَعْدَمُ اَنْ يَرِدَ عَلَيْكَ مِثْلُ هٰذَا مِمَّا تَجْهَلُهُ فَتَكُونُ فِيهِ كَمَا كُنْتَ قَبْلَهُ . فَاصْرِفْ نَفْسَكَ تَوَلَّى ٱللّٰهُ رُشْدَكَ عَنْ عُلُومِ ٱلنُّوكَى وَتَكَلُّفِ ٱلْبَطَّالِينَ . ثُمَّ ٱجْعَلْ مَا مَنَّ ٱللّٰهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ صِحَّةِ ٱلْقَرِيحَةِ وَسُرْعَةِ ٱلْخَاطِرِ مَصْرُوفًا اِلَى عِلْمِ مَا يَكُونُ اِنْفَاقُ خَاطِرِكَ فِيهِ مَذْخُورًا وَكَدُّ فِكْرِكَ فِيهِ مَشْكُورًا . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : مَنْ اَمْضَى يَوْمَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ قَضَاهُ . اَوْ فَرْضٍ اَدَّاهُ . اَوْ مَجْدٍ اَثَّلَهُ .

اَوْ حَمْدٍ حَصَّلَهُ . اَوْ خَيْرٍ اَسَّسَهُ اَوْ عِلْمٍ اقْتَبَسَهُ . فَقَدْ عَقَّ يَوْمَهُ وَظَلَمَ نَفْسَهُ . وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ :

لَقَدْ هَاجَ الْفَرَاغُ عَلَيْكَ شُغْلًا وَاَسْبَابُ الْبَلَاءِ مِنَ الْفَرَاغِ

فَهٰذَا تَعْلِيلُ مَا فِي الْكَلَامِ مِنَ الْاَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ مَعَانِيهِ حَتَّى خَرَجَ بِنَا الْاِسْتِيفَاءُ وَالْكَشْفُ اِلَى الْاِغْمَاضِ . (وَاَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ السَّبَبُ الْمَانِعُ مِنْ فَهْمِ السَّامِعِ لِعِلَّةٍ فِي الْمَعْنَى الْمُسْتَوْدَعِ فَلَا يَخْلُو حَالُ الْمَعْنَى مِنْ ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ : اِمَّا اَنْ يَكُونَ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ اَوْ يَكُونَ مُقَدَّمَةً لِغَيْرِهِ اَوْ يَكُونَ نَتِيجَةً مِنْ غَيْرِهِ . فَاَمَّا الْمُسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ فَضَرْبَانِ : جَلِيٌّ وَخَفِيٌّ . فَاَمَّا الْجَلِيُّ فَهُوَ يَسْبِقُ اِلَى فَهْمِ مُتَصَوِّرِهِ مِنْ اَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَلَيْسَ هُوَ مِنْ اَقْسَامِ مَا يُشْكِلُ عَلَى مَنْ تَصَوَّرَهُ . وَاَمَّا الْخَفِيُّ فَيَحْتَاجُ فِي اِدْرَاكِهِ اِلَى زِيَادَةِ تَاَمُّلٍ وَفَضْلِ مُعَانَاةٍ لِيَنْجَلِيَ عَمَّا اَخْفَى وَيَنْكَشِفَ عَمَّا اَغْمَضَ . وَبِاسْتِعْمَالِ الْفِكْرِ فِيهِ يَكُونُ الْاِرْتِيَاضُ بِهِ وَبِالْاِرْتِيَاضِ بِهِ يَسْهُلُ مِنْهُ مَا اسْتَصْعَبَ وَيَقْرُبُ مِنْهُ مَا بَعُدَ . فَاِنَّ لِلرِّيَاضَةِ جَرَاءَةً وَلِلدِّرَايَةِ تَاْثِيرًا . وَاَمَّا مَا كَانَ مُقَدَّمَةً لِغَيْرِهِ فَضَرْبَانِ : اَحَدُهُمَا اَنْ تَقُومَ الْمُقَدَّمَةُ بِنَفْسِهَا وَاِنْ تَعَدَّتْ اِلَى غَيْرِهَا فَتَكُونَ كَالْمُسْتَقِلِّ بِنَفْسِهِ فِي تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ مُسْتَدْعِيًا لِنَتِيجَتِهِ . وَالثَّانِي اَنْ يَكُونَ مُفْتَقِرًا اِلَى نَتِيجَةٍ فَيَتَعَذَّرَ فَهْمُ الْمُقَدَّمَةِ اِلَّا بِمَا يَتْبَعُهَا مِنَ النَّتِيجَةِ لِاَنَّهَا تَكُونُ بَعْضًا . وَتَبْعِيضُ الْمَعْنَى اَشْكَلُ لَهُ وَبَعْضُهُ لَا يُغْنِي عَنْ كُلِّهِ . وَاَمَّا مَا كَانَ نَتِيجَةً لِغَيْرِهِ فَهُوَ لَا يُدْرَكُ اِلَّا بِاَوَّلِهِ وَلَا يُتَصَوَّرُ عَلَى حَقِيقَتِهِ

الّا بمقدّمته والاشتغال به قبل المقدّمة عناء. واتعاب الفكر في استنباطه قبل قاعدته اذى. فهذا يوضح تعليل ما في المعاني من الاسباب المانعة من فهمها. (واما القسم الثالث) وهو ان يكون السبب المانع لعلّة في المستمع فذلك ضربان: احدهما من ذاته. والثاني من طارٍ عليه. (فاما ما كان من ذاته) فيتنوّع نوعين: احدهما ما كان مانعا من تصوّر المعنى. والثاني ما كان مانعًا من حفظه بعد تصوّره وفهمه. فاما ما كان مانعًا من تصوّر المعنى وفهمه فهو البلادة وقلّة الفطنة وهو الداء العياء. وقد قال بعض الحكماء: اذا فقد العالم الذهن قلّ على الاضداد احتجاجه. وكثر الى الكتب احتياجه. وليس لمن بُلي به الّا الصبر والاقلال. لانّه على القليل اقدر. وبالصبر احرى ان ينال ويظفر. واما المانع من حفظه بعد تصوّره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير واهمال التواني فينبغي لمن بُلي به ان يستدرك تقصيره بكثرة الدرس ويوقظ غفلته بادامة النظر. فقد قيل: لا يدرك العلم من لا يطيل درسه ويكدّ نفسه. وكثرة الدرس كدود لا يصبر عليه الّا من يرى العلم غنمًا والجهالة مغرمًا. فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم وينفي عنه معرّة الجهل. فانّ نيل العظيم بامرٍ عظيم. وعلى قدر الرغبة تكون المطالب وبحسب الراحة يكون التعب. وقد قيل: طلب الراحة قلّة الاستراحة. وقال بعض الحكماء: اكمل الراحة ما كانت عن كدّ التعب واعزّ العلم ما كان عن ذلّ الطلب...

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : اِنَّ هٰذِهِ ٱلْآدَابَ نَوَافِرُ تَنِدُّ عَنْ اَهْلِ ٱلْاَذْهَانِ فَاَجْعَلُوا ٱلْكُتُبَ عَنْهَا حُمَاةً . وَٱلْاَقْلَامَ لَهَا رُعَاةً . (وَاَمَّا ٱلطَّوَارِئُ) فَنَوْعَانِ : (اَحَدُهُمَا) شُبْهَةٌ تَعْتَرِضُ ٱلْمَعْنَى فَتَمْنَعُ عَنْ نَفْسِ تَصَوُّرِهِ وَتَدْفَعُ عَنْ اِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . فَيَنْبَغِي اَنْ يُزِيلَ تِلْكَ ٱلشُّبْهَةَ عَنْ نَفْسِهِ بِٱلسُّؤَالِ اَوِ ٱلنَّظَرِ لِيَصِلَ اِلَى تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى وَاِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ : لَاتُخْلِ قَلْبَكَ مِنَ ٱلْمُذَاكَرَةِ فَتَعُودَ عَقِيمًا . وَلَا تُعْفِ طَبْعَكَ مِنَ ٱلْمُنَاظَرَةِ فَيَعُودَ سَقِيمًا . وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

شِفَاءُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّؤَالِ وَاِنَّمَا
دَوَامُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّكُوتِ عَلَى ٱلْجَهْلِ
فَكُنْ سَائِلًا عَمَّا عَنَاكَ فَاِنَّمَا دُعِيتَ اَخَا عَقْلٍ لِتَبْحَثَ بِٱلْعَقْلِ

(وَٱلثَّانِي) اَفْكَارٌ تُعَارِضُ ٱلْخَاطِرَ فَيَذْهَلُ عَنْ تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا سَبَبٌ قَلَّ مَا يَعْرَى مِنْهُ اَحَدٌ لَاسِيَّمَا فِيمَنِ ٱنْبَسَطَتْ آمَالُهُ وَٱتَّسَعَتْ اَمَانِيُّهِ . وَقَدْ يَقِلُّ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي غَيْرِ ٱلْعِلْمِ اَرَبٌ وَلَا فِيمَا سِوَاهُ هِمَّةٌ فَاِنْ طَرَاَتْ عَلَى ٱلْاِنْسَانِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مُكَابَرَةِ نَفْسِهِ عَلَى ٱلْفَهْمِ وَغَلَبَةِ قَلْبِهِ عَلَى ٱلتَّصَوُّرِ لِاَنَّ ٱلْقَلْبَ مَعَ ٱلْاِكْرَاهِ اَشَدُّ نُفُورًا وَاَبْعَدُ قَبُولًا . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْاَثَرِ : بِاَنَّ ٱلْقَلْبَ اِذَا اُكْرِهَ عَمِيَ . وَلٰكِنْ يُعْمَلُ فِي دَفْعِ مَا طَرَاَ عَلَيْهِ مِنْ هَمٍّ مُذْهِلٍ اَوْ فِكْرٍ قَاطِعٍ لِيَسْتَجِيبَ لَهُ ٱلْقَلْبُ مُطِيعًا . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَلَيْسَ بِمُغْنٍ فِي ٱلْمَوَدَّةِ شَافِعٌ اِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلضُّلُوعِ شَفِيعُ

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : اِنَّ لِهٰذِهِ ٱلْقُلُوبِ تَنَافُرًا كَتَنَافُرِ ٱلْوَحْشِ

فتألفوها بالاقتصاد في التعليم والتوسط في التقديم لتحسن طاعتها ويدوم نشاطها . فهذا تعليل ما في المستمع من الاسباب المانعة من فهم المعاني

البحث التاسع

في المعاظلة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرّف)

إنّ المعاظلة مأخوذة من قولهم : تعاظلت الجراد تان اذا ركبت احداهما الاخرى . فسمّي الكلام المتراكب في الفاظه وفي معانيه المعاظلة مأخوذًا من ذلك وهو اسم لائق بمسمّاه . ووصف عمر بن الخطّاب زهير بن ابي سلمى فقال : كان لا يعاظل بين الكلام . وقد اختلف علماء البيان في حقيقة المعاظلة فقال قدامة ابن جعفر الكاتب : التعاظل في الكلام هو ان يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه ولا اعرف ذلك الا فاحش الاستعارة . كقول اوس بن حجر :

وذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولبًا جدعا

فسمّى الظبي تولبًا والتولب ولد الحمار . وهذا ما ذكره قدامة ابن جعفر وهو خطأ اذ لو كان ما ذهب اليه صوابًا لكانت حقيقة المعاظلة دخول الكلام فيما ليس من جنسه . وليست حقيقتها هذه بل حقيقتها ما تقدّم وهو التراكب من قولهم : تعاظلت الجراد تان

اِذَا رَكِبَتْ اِحْدَاهُمَا الْاُخْرَى . وَهٰذَا الْمِثَالُ الَّذِي مَثَّلَ بِهِ قُدَامَةُ لَا تَرَاكُبَ فِي اَلْفَاظِهِ وَلَا فِي مَعَانِيهِ . وَاَمَّا غَيْرُ قُدَامَةَ فَاِنَّهُ خَالَفَهُ فِيمَا ذَهَبَ اِلَيْهِ اِلَّا اَنَّهُ لَمْ يَقْسِمِ الْمُعَاظَلَةَ اِلَى لَفْظِيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ وَلٰكِنَّهُ ضَرَبَ لَهَا مَثَلًا . كَقَوْلِ الْفَرَزْدَقِ :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ اِلَّا مُمَلَّكًا اَبُو اُمِّهِ حَيٌّ اَبُوهُ يُقَارِبُهْ

وَهٰذَا مِنَ الْقِسْمِ الْمَعْنَوِيِّ لَا مِنَ الْقِسْمِ اللَّفْظِيِّ . اَلَا تَرَى اِلَى تَرَاكُبِ مَعَانِيهِ بِتَقْدِيمِ مَا كَانَ يَجِبُ تَأْخِيرُهُ وَتَأْخِيرِ مَا كَانَ يَجِبُ تَقْدِيمُهُ لِاَنَّ الْاَصْلَ فِي مَعْنَاهُ : وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ حَيٌّ يُقَارِبُهُ اِلَّا مُمَلَّكًا اَبُو اُمِّهِ اَبُوهُ . وَاِذْ حَقَّقْتُ الْقَوْلَ فِي بَيَانِ الْمُعَاظَلَةِ وَالْكَشْفِ عَنْ حَقِيقَتِهَا فَاَقُولُ : اِنَّ الْمُعَاظَلَةَ مُعَاظَلَتَانِ لَفْظِيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ (فَالْمَعْنَوِيَّةُ) اَنْ يُقَدَّمَ مَا الْاَوْلَى بِهِ التَّأْخِيرُ وَهُوَ مِنْ عُيُوبِ الْكَلَامِ لِاَنَّ الْمَعْنَى مُخْتَلٌّ بِذٰلِكَ وَمُضْطَرِبٌ وَذٰلِكَ كَتَقْدِيمِ الصِّفَةِ اَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا عَلَى الْمَوْصُوفِ وَتَقْدِيمِ الصِّلَةِ عَلَى الْمَوْصُولِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

فَقَدْ وَاَلشَّكُّ بَيَّنَ لِي عَنَاءً بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ صُرَدٌ يَصِيحُ

فَاِنَّهُ قَدَّمَ قَوْلَهُ (بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ) . وَهُوَ مَعْمُولُ يَصِيحُ وَيَصِيحُ صِفَةٌ لِصُرَدٍ عَلَى صُرَدٍ وَذٰلِكَ قَبِيحٌ . اَلَا تَرَى اَنَّهُ لَا يَجُوزُ اَنْ يُقَالَ : هٰذَا مِنْ مَوْضِعِ كَذَا رَجُلٌ وَرَدَ اَلْيَوْمَ . وَاِنَّمَا يَجُوزُ وُقُوعُ الْمَعْمُولِ بِحَيْثُ يَجُوزُ وُقُوعُ الْعَامِلِ فَكَمَا لَا يَجُوزُ تَقْدِيمُ الصِّفَةِ عَلَى مَوْصُوفِهَا فَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ تَقْدِيمُ مَا اتَّصَلَ بِهَا عَلَى مَوْصُوفِهَا . وَمِنْ هٰذَا النَّحْوِ

قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطِّ بَهْجَتِهَا كَأَنَّ قَفْرًا رُسُومَهَا قَلَمَا

فَإِنَّهُ قَدَّمَ خَبَرَ كَأَنَّ عَلَيْهَا وَهُوَ قَوْلُهُ : خَطَّ . وَهٰذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا لَا يَجُوزُ قِيَاسٌ عَلَيْهِ وَٱلْأَصْلُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ (فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ بَهْجَتِهَا قَفْرًا كَأَنَّ قَلَمًا خَطَّ رُسُومَهَا) إِلَّا أَنَّهُ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالَةِ ٱلْأُولَى فِي ٱلشِّعْرِ مُخْتَلٌّ مُضْطَرِبٌ . وَٱلْمُعَاظَلَةُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهَا فِي ٱلْقُبْحِ وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلْمُشَارُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْبَحِهَا لِأَنَّ مَعَانِيَهُ قَدْ تَدَاخَلَتْ وَرُكِّبَ بَعْضُهَا بَعْضًا . وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ أَبُوهُ وَلَا كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

(وَهُوَ يُرِيدُ إِلَى مَلِكٍ أَبُوهُ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ) . وَهٰذَا أَقْبَحُ مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَأَكْثَرُ ٱخْتِلَالًا . . . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْفَرَزْدَقُ مِنَ ٱلتَّعَاظُلِ كَثِيرًا كَأَنَّهُ كَانَ يَقْصِدُ ذٰلِكَ وَيَتَعَمَّدُهُ . لِأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَجِيءُ إِلَّا مُتَكَلَّفًا مَقْصُودًا وَإِلَّا فَإِذَا تَرَكَ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ نَفْسَهُ تَجْرِي عَلَى سَجِيَّتِهَا وَطَبْعِهَا فِي ٱلِٱسْتِرْسَالِ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هٰذَا ٱلتَّعْقِيدِ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْمَقْصُودَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَعْدُومٌ فِي هٰذَا ٱلضَّرْبِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ إِذِ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكَلَامِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْإِيضَاحُ وَٱلْإِبَانَةُ وَإِفْهَامُ ٱلْمَعْنَى . فَإِذَا ذَهَبَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ذَهَبَ ٱلْمُرَادُ بِهِ وَلَا فَرْقَ عِنْدَ ذٰلِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ ٱللُّغَاتِ كَٱلْفَارِسِيَّةِ وَٱلْهِنْدِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا . وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلْكَلَامِ هُوَ ضِدُّ ٱلْفَصَاحَةِ لِأَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبَيَانُ وَهٰذَا عَارٍ عَنْ هٰذَا ٱلْوَصْفِ . وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ

اللَّفظيُّ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) فَإِنِّي تَأَمَّلْتُهُ بِٱلِٱسْتِقْرَاءِ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ قَدِيمِهَا وَمُحْدَثِهَا وَمِنَ ٱلنَّظَرِ فِي حَقِيقَتِهَا نَفْسِهَا فَوَجَدْتُهَا تَنْقَسِمُ إِلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا يَخْتَصُّ بِأَدَوَاتِ ٱلْكَلَامِ . مِنْ وَإِلَى وَعَنْ وَعَلَى وَأَشْبَاهِهَا . فَإِنَّ مِنْهَا مَا يَسْهُلُ ٱلنُّطْقُ بِهِ إِذَا وَرَدَ مَعَ أَخَوَاتِهِ . وَمِنْهَا مَا لَا يَسْهُلُ بَلْ يَرِدُ ثَقِيلًا عَلَى ٱللِّسَانِ وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ يَخُصُّهُ مِنَ ٱلسَّبْكِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

إِلَى خَالِدٍ رَاحَتْ بِنَا أَرْحَبِيَّةٌ مَرَافِقُهَا مِنْ عَنْ كَرَاكِرِهَا نُكْبُ

فَقَوْلُهُ : (مِنْ عَنْ كَرَاكِرِهَا) مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَعَاظِلِ ٱلَّذِي تَثْقُلُ ٱلنُّطْقُ بِهِ عَلَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَتْ هَاتَانِ ٱللَّفْظَتَانِ وَهُمَا : مِنْ وَعَنْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَلَمْ يَثْقُلِ ٱلنُّطْقُ بِهِمَا كَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ : مِنْ عَنْ يَمِينِ ٱلطَّرِيقِ . وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُمَا وَرَدَتَا فِي بَيْتِ أَبِي تَمَّامٍ مُضَافَتَيْنِ إِلَى لَفْظَةِ ٱلْكَرَاكِرِ فَثَقُلَتْ مِنْهُمَا وَجَعَلَتْهُمَا مَكْرُوهَتَيْنِ كَمَا تَرَى وَإِلَّا فَقَدْ وَرَدَتَا فِي شِعْرِ قَطَرِيِّ بْنِ ٱلْفُجَاءَةِ فَكَانَتَا خَفِيفَتَيْنِ كَقَوْلِهِ :

وَلَقَدْ أَرَانِي لِلرِّمَاحِ دَرِيئَةً مِنْ عَنْ يَمِينِي مَرَّةً وَأَمَامِي

وَٱلْأَصْلُ فِي ذٰلِكَ رَاجِعٌ إِلَى ٱلسَّبْكِ فَإِذَا سُبِكَتْ هَاتَانِ ٱللَّفْظَتَانِ أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا مَعَ أَلْفَاظٍ تَسْهُلُ مِنْهُمَا لَمْ يَكُنْ بِهِمَا مِنْ ثِقَلٍ كَمَا جَاءَتَا فِي بَيْتِ قَطَرِيٍّ . وَإِذَا سُبِكَتَا مَعَ أَلْفَاظٍ تَثْقُلُ مِنْهُمَا جَاءَتَا كَمَا جَاءَتَا فِي بَيْتِ أَبِي تَمَّامٍ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ أَيْضًا :

كَأَنَّهُ لِٱجْتِمَاعِ ٱلرُّوحِ فِيهِ لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْ جِسْمِهِ رُوحُ

فقولُهُ (في) بعدَ قولِهِ (فيهِ لهُ) مِمَّا لا يحسُنُ ورودُهُ. وكذلكَ وردَ قولُ ابي الطَّيِّبِ المُتنبّي :

وتُسعِدُني في غمرةٍ بعدَ غمرةٍ سبوحٌ لها منها عليها شواهدُ

فقولُهُ : (لها منها عليها) من الثَّقيلِ الثَّقيلِ الثَّقيلِ . . . .

(القسمُ الثَّاني من المُعاظلةِ اللَّفظيَّةِ) تختصُّ بتكريرِ الحُروفِ وليسَ ذلكَ ممَّا يتعلَّقُ بتكريرِ الالفاظِ ولا بتكريرِ المعاني ممَّا يأتي ذكرُهُ في بابِ التَّكريرِ في المقالةِ الثَّانيةِ. وانَّما هوَ تكريرُ حرفٍ واحدٍ او حرفينِ في كلِّ لفظةٍ من الفاظِ الكلامِ المنثورِ او المنظومِ فيثقُلُ حينئذٍ النُّطقُ بهِ. فمن ذلكَ قولُ بعضِهِم :

وقبرُ حربٍ في مكانٍ قفرٌ وليسَ قربَ قبرِ حربٍ قبرُ

فهذهِ القافاتُ والرَّاآتُ كانَّها في تتابُعِها سلسلةٌ ولا خفاءَ بما في ذلكَ من الثِّقلِ. وكذا وردَ قولُ الحريريِّ في مقاماتِهِ :

وازورَّ من كانَ لهُ زائرًا وعافَ عافي العُرفِ عُرفانُهُ

فقولُهُ : (وعافَ عافي العُرفِ عُرفانُهُ) من التَّكريرِ المُشارِ اليهِ. وكذلكَ وردَ قولُهُ ايضًا في رسالتَيهِ اللَّتينِ صاغَهُما على حرفَي السِّينِ والشِّينِ : فانَّهُ اتى في احداهُما بالسِّينِ في كلِّ لفظةٍ من الفاظِها . واتى بالأُخرى بالشِّينِ في كلِّ لفظةٍ من الفاظِها فجاءَتا كانَّهُما رُقى العقاربِ او خُذروقةُ العزائمِ . وما اعلمُ كيفَ خفيَ ما فيهِما من القُبحِ على مثلِ الحريريِّ مع معرفتِهِ بالجيِّدِ والرَّديءِ من الكلامِ . . وأعلَمْ انَّ العربَ الَّذينَ هُمُ الأصلُ في هذهِ اللُّغةِ قد عدلُوا عن

تكرير الحروف في كثير من كلامهم . وذاك انه اذا تكرر الحرف عندهم ادغموه استحسانا فقالوا في : (جعل لك) جعلك . وفي : (تضربونني) تضربوني . وكذلك قالوا : استعدّ فلان للامر اذا تأهب له والاصل فيه استعدد . واستتبّ الامر اذا تهيأ . والاصل فيه استتبب . واشباه ذلك في كلامهم حتى انهم لشدة كراهتهم لتكرير الحروف ابدلوا احد الحرفين المكررين حرفا آخر غيره فقالوا : املليت الكتاب . والاصل فيه امللت . فابدلوا اللام ياء طلبا للخفة وفرارا من الثقل . واذا كان قد فعلوا ذلك في اللفظة الواحدة فما ظنك بالالفاظ الكثيرة التي يتبع بعضها بعضا

(القسم الثالث من المعاظلة) ان ترد الفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضا فمنها ما يختلف بين ماض ومستقبل . ومنها ما لا يختلف . فالاول كقول القاضي الارجاني في ابيات يصف فيها الشمعة فقال :

بالنار فرّقت الحوادث بيننا وبها نذرت اعود اقتل روحي

فقوله : (نذرت اعود) من المعاظلة المشار اليها . واما ما يرد على نهج واحد من الصيغة الفعلية . فكقول ابي الطيب المتنبي :

اقل انل اقطع احمل علّ سلّ اعد زد هش بشّ تفضّل ادن سر صل

فهذه الفاظ جاءت على صيغة واحدة وهي صيغة الامر كانه قال : (افعل افعل) هكذا الى آخر البيت . وهذا تكرير للصيغة

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا لِلْحُرُوفِ إِلَّا أَنَّهُ أَخُوهُ وَلَا أَقُولُ : ٱبْنُ عَمِّهِ. وَهٰذِهِ أَلْفَاظٌ مُتَرَاكِبَةٌ مُتَدَاخِلَةٌ وَلَوْ عَطَفَهَا بِٱلْوَاوِ لَكَانَتْ أَقْرَبَ حَالًا . كَمَا قَالَ عَبْدُ ٱلسَّلَامِ بْنُ رَغْبَانَ :

فَسَدَ ٱلنَّاسُ فَاطْلُبِ ٱلرِّزْقَ بِٱلسَّيْفِ م وَإِلَّا فُتْ شَدِيدَ ٱلْهُزَالِ
حِلَّ وَٱمْرِ وَضُرَّ وَٱنْفَعْ وَلِنْ وَٱخْشُنْ م وَٱبْرِ ثُمَّ ٱنْتَدِبْ لِلْمَعَالِي

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمَّا عَطَفَ هٰهُنَا بِٱلْوَاوِ لَمْ تَتَرَاكَبِ ٱلْأَلْفَاظُ كَتَرَاكُبِهَا فِي بَيْتِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ

(ٱلْقِسْمُ ٱلرَّابِعُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَضَمَّنُ مُضَافَاتٍ كَثِيرَةً كَقَوْلِهِمْ : سَرْجُ فَرَسِ غُلَامِ زَيْدٍ . وَإِنْ زِيدَ عَلَى ذٰلِكَ قِيلَ : لَبَدُ سَرْجِ فَرَسِ غُلَامِ زَيْدٍ. وَهٰذَا أَشَدُّ قُبْحًا وَأَثْقَلُ عَلَى ٱللِّسَانِ. وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱبْنِ بَابَكَ ٱلشَّاعِرِ فِي مُفْتَتَحِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ ٱلْجَنْدَلِ ٱسْجَعِي فَأَنْتِ بِمَرْأَى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ

(ٱلْقِسْمُ ٱلْخَامِسُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) أَنْ تَرِدَ صِفَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ عَلَى نَحْوٍ وَاحِدٍ . كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ مِنْ قَصِيدَةٍ يَصِفُ رُمْحًا :

وَمَرَّ تَهْفُو ذُؤَابَتَاهُ عَلَى أَسْمَرَ مَتْنٍ يَوْمَ ٱلْوَغَى جَسَدِهْ
مَارِنُهُ لَدْنُهُ مُثَقَّفُهُ عِرَاضُهُ فِي ٱلْأَكُفِّ مُطَّرِدَهْ

وَهٰذَا كَٱلْأَوَّلِ فِي قُبْحِهِ وَثِقَلِهِ فَقَاتَلَهُ ٱللهُ مَا أَمْتَنَ شِعْرَهُ وَمَا أَسْخَفَهُ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ . . . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

دَانٍ بَعِيدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ أَغَرَّ حُلْوٍ مُرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ

نَدٍ اَبِيٍّ غَرٍ وَافٍ اَخِي ثِقَةٍ جَعْدٍ سَرِيٍّ نَهٍ نَدْبٍ رَضٍ نَدُسِ

وَهٰذَا كَاَنَّهُ سِلْسِلَةٌ بِلَا شَكٍّ وَقَلِيلًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلشُّعَرَاءِ. وَلَمْ اَجِدْهُ كَثِيرًا اِلَّا فِي شِعْرِ ٱلْفَرَزْدَقِ وَتِلْكَ مُعَاظَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ وَهٰذِهِ مُعَاظَلَةٌ لَفْظِيَّةٌ وَهِيَ تُوجَدُ فِي شِعْرِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ كَثِيرًا

البحث العاشر

في المنافرة بين الالفاظ في السبك

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَمْ يُحَقِّقْ اَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ ٱلْقَوْلَ فِيهِ . وَغَايَةُ مَا يُقَالُ : اِنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ لَا تَكُونَ ٱلْاَلْفَاظُ نَافِرَةً عَنْ مَوَاضِعِهَا ثُمَّ يُكْتَفَى بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ وَلَا تَفْصِيلٍ حَتَّى اِنَّهُ قَدْ خُلِطَ هٰذَا ٱلنَّوْعُ بِٱلْمُعَاظَلَةِ وَكُلٌّ مِنْهَا نَوْعٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَهُ حَقِيقَةٌ تَخُصُّهُ . اِلَّا اَنَّهُمَا قَدِ ٱشْتَبَهَا عَلَى عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ فَكَيْفَ عَلَى جَاهِلٍ لَا يَعْلَمُ . وَقَدْ بَيَّنْتُ هٰذَا ٱلنَّوْعَ وَفَصَّلْتُهُ فِي فَصْلِ ٱلْمُعَاظَلَةِ وَضَرَبْتُ لَهُ اَمْثِلَةً يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى اَخَوَاتِهَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا . وَجُمْلَةُ ٱلْاَمْرِ اَنَّ مَدَارَ سَبْكِ ٱلْاَلْفَاظِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَٱلَّذِي قَبْلَهُ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعِ ٱلْمَذْكُورَةِ . لِاَنَّ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ اَصْلَا سَبْكِ ٱلْاَلْفَاظِ وَمَا عَدَاهُمَا فَرْعٌ عَلَيْهِمَا . وَاِذَا لَمْ يَكُنِ ٱلنَّاثِرُ اَوِ ٱلنَّاظِمُ عَارِفًا بِهِمَا فَاِنَّ مَقَاتِلَهُ كَثِيرَةٌ . وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُنَافَرَةُ اَنْ يُذْكَرَ لَفْظٌ اَوْ اَلْفَاظٌ يَكُونُ غَيْرُهَا مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهَا اَوْلَى بِٱلذِّكْرِ . وَعَلَى هٰذَا

فَإِنَّ ٱلْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ اَنَّ ٱلْمُعَاظَلَةَ هِيَ ٱلتَّرَاكُبُ وَٱلتَّدَاخُلُ اِمَّا فِي ٱلْاَلْفَاظِ اَوْ فِي ٱلْمَعَانِي عَلَى مَا اَشَرْتُ اِلَيْهِ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا تَرَاكُبَ فِيهِ وَاِنَّمَا هُوَ اِيرَادُ اَلْفَاظٍ غَيْرِ لَائِقَةٍ بِمَوْضِعِهَا ٱلَّذِي تَرِدُ فِيهِ . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : اَحَدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَٱلْآخَرُ فِي ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ . (فَاَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ) فَاِنَّهُ اِذَا وَرَدَ فِي ٱلْكَلَامِ اَمْكَنَ تَبْدِيلُهُ بِغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ سَوَاءٌ كَانَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ نَثْرًا اَوْ نَظْمًا . وَاَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ فَاِنَّهُ لَا يُمْكِنُ تَبْدِيلُهُ بِغَيْرِهِ فِي ٱلشِّعْرِ بَلْ يُمْكِنُ ذٰلِكَ فِي ٱلنَّثْرِ خَاصَّةً لِاَنَّهُ يَعْسُرُ فِي ٱلشِّعْرِ مِنْ اَجْلِ ٱلْوَزْنِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْاَوَّلِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

فَلَا يُبْرِمُ ٱلْاَمْرَ ٱلَّذِي هُوَ حَالِلٌ ... وَلَا يُحْلِلُ ٱلْاَمْرَ ٱلَّذِي هُوَ يُبْرِمُ

فَلَفْظَةُ حَالِلٌ نَافِرَةٌ عَنْ مَوْضِعِهَا وَكَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنْهَا لِاَنَّهُ لَوِ ٱسْتَعْمَلَ عِوَضًا عَنْهَا لَفْظَةَ (نَاقِضٌ) لَجَاءَتِ ٱللَّفْظَةُ قَارَّةً فِي مَكَانِهَا غَيْرَ قَلِقَةٍ وَلَا نَافِرَةٍ . وَبَلَغَنِي عَنْ اَبِي ٱلْعَلَاءِ : اَنَّهُ كَانَ يَتَعَصَّبُ لِاَبِي ٱلطَّيِّبِ حَتَّى اَنَّهُ كَانَ يُسَمِّيهِ ٱلشَّاعِرَ وَيُسَمِّي غَيْرَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بِٱسْمِهِ وَكَانَ يَقُولُ : لَيْسَ فِي شِعْرِهِ لَفْظَةٌ يُمْكِنُ اَنْ يَقُومَ عَنْهَا مَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا فَيَجِيءَ حَسَنًا مِثْلَهَا . فَيَا لَيْتَ شِعْرِي اَمَا وَقَفَ عَلَى هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلْمُشَارِ اِلَيْهِ لٰكِنَّ ٱلْهَوَى كَمَا يُقَالُ اَعْمَى . وَكَانَ اَبُو ٱلْعَلَاءِ اَعْمَى ٱلْعَيْنِ خِلْقَةً وَاَعْمَاهَا عَصَبِيَّةً فَاجْتَمَعَ لَهُ ٱلْعَمَى مِنْ جِهَتَيْنِ . وَهٰذِهِ ٱللَّفْظَةُ ٱلَّتِي هِيَ (حَالِلٌ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا قَبِيحَةُ ٱلْاِسْتِعْمَالِ وَهِيَ فَكٌّ

ٱلْإِدْغَامِ فِي ٱلْفِعْلِ ٱلثُّلَاثِيِّ وَنَقْلُهُ إِلَى ٱسْمِ ٱلْفَاعِلِ . وَعَلَى هٰذَا فَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ : بَلَّ ٱلثَّوْبَ فَهُوَ بَالِلٌ . وَلَا : سَلَّ ٱلسَّيْفَ فَهُوَ سَالِلٌ . وَهٰذَا لَوْ عُرِضَ عَلَى مَنْ لَا ذَوْقَ لَهُ لَأَدْرَكَهُ وَفَهِمَهُ فَكَيْفَ مَنْ لَهُ ذَوْقٌ صَحِيحٌ كَأَبِي ٱلطَّيِّبِ . لٰكِنْ لَا بُدَّ لِكُلِّ جَوَادٍ مِنْ كَبْوَةٍ . وَأَنْشَدَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ بَيْتًا لِدِعْبِلٍ وَهُوَ :

شَفِيعَكَ فَٱشْكُرْ فِي ٱلْحَوَائِجِ إِنَّهُ يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ

فَقُلْتُ لَهُ : عَجُزُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ حَسَنٌ وَأَمَّا صَدْرُهُ فَقَبِيحٌ . لِأَنَّ سَبْكَهُ قَلِقٌ نَافِرٌ . وَتِلْكَ ٱلْفَاءُ ٱلَّتِي فِي قَوْلِهِ : شَفِيعَكَ فَٱشْكُرْ كَأَنَّهَا رُكْبَةُ ٱلْبَعِيرِ وَهِيَ فِي زِيَادَتِهَا كَزِيَادَةِ ٱلْكَرِشِ . . . وَمِثْلُ هٰذِهِ ٱلدَّقَائِقِ ٱلَّتِي تَرِدُ فِي ٱلْكَلَامِ نَظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا لَا يَتَفَطَّنُ لَهَا إِلَّا ٱلرَّاسِخُ فِي عِلْمِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ وَصْلَةُ هَمْزَةِ ٱلْقَطْعِ وَهِيَ مَحْسُوبَةٌ مِنْ جَائِزَاتِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّتِي لَا تَجُوزُ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ . وَكَذٰلِكَ قَطْعُ هَمْزَةِ ٱلْوَصْلِ لٰكِنَّ وَصْلَ هَمْزَةِ ٱلْقَطْعِ أَقْبَحُ لِأَنَّهُ أَثْقَلُ عَلَى ٱللِّسَانِ . فَمِمَّا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

يُوَسِّطُهُ ٱلْمَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ طِلَابُ ٱلطَّالِبِينَ لَا ٱنْتِظَارُ

فَقَوْلُهُ : (لَا ٱنْتِظَارُ) كَلَامٌ نَافِرٌ مِنْ مَوْضِعِهِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ ٱلْمَوْصُوفِ وَٱلصِّفَةِ بِضَمِيرِ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

حَلَفْتُ لَهُ بِٱللهِ يَوْمَ ٱلتَّفَرُّقِ وَبِٱلْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهِ ٱلْمُتَعَلِّقِ

تَقْدِيرُهُ (مِنْ قَلْبِي ٱلْمُتَعَلِّقِ بِهِ) فَلَمَّا فَصَلَ بَيْنَ ٱلْمَوْصُوفِ ٱلَّذِي هُوَ (قَلْبِي) وَٱلصِّفَةِ ٱلَّتِي هِيَ (ٱلْمُتَعَلِّقُ) بِٱلضَّمِيرِ ٱلَّذِي هُوَ (بِهِ) قَبُحَ ذٰلِكَ . وَلَوْ كَانَ قَالَ مِنْ قَلْبٍ بِهِ مُتَعَلِّقٍ لَزَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ وَذَهَبَتْ تِلْكَ ٱلْهُجْنَةُ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ اَيْضًا اَنْ تُزَادَ ٱلْاَلِفُ وَٱللَّامُ فِي ٱسْمِ ٱلْفَاعِلِ وَيُقَامَ ٱلضَّمِيرُ فِيهِ مُقَامَ ٱلْمَفْعُولِ . كَقَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

فَلَوْ عَايَنَتْهُمْ وَٱلزَّائِرِيهِمْ لَمَا مِزْتَ ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْحَمِيمِ

فَقَوْلُهُ : (ٱلزَّائِرِي) ٱسْمُ فَاعِلٍ . وَقَوْلُهُ : (وَٱلزَّائِرِيهِمْ) هُوَ ٱلضَّمِيرُ فِي مَوْضِعِ ٱلْمَفْعُولِ . تَقْدِيرُهُ : (ٱلزَّائِرِينَ اَرْضَهُمْ اَوْ دَارَهُمْ اَوِ ٱلزَّائِرِينَ اِيَّاهُمْ) فَٱسْتِعْمَالُ هٰذَا مَعَ ٱلْاَلِفِ وَٱللَّامِ قَبِيحٌ جِدًّا . وَاِذَا حَذَفْتَا زَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلشُّعَرَاءُ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ كَثِيرًا

(وَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي) ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ اَيْضًا :

لَا خَلْقَ اَكْرَمُ مِنْكَ اِلَّا عَارِفٌ بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا

فَاِنَّ عَجُزَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ نَافِرٌ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَاَمْثَالُ هٰذَا فِي ٱلْاَشْعَارِ كَثِيرٌ

الفصل السادس

في وجوه الكلام

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

البحث الاوّل

في وجوه البلاغة وطبقات الكلام

(من العقد الفريد لابن عبد ربهِ)

اَلْبَلَاغَةُ تَكُونُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَوْجُهٍ : تَكُونُ بِاللَّفْظِ وَالْخَطِّ وَالْاِشَارَةِ وَالدَّلَالَةِ . وَكُلٌّ مِنْهَا لَهُ حَظٌّ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ وَمَوْضِعٌ لَا يَجُوزُ فِيهِ غَيْرُهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ وَلِكُلِّ كَلَامٍ جَوَابٌ . وَرُبَّ اِشَارَةٍ اَبْلَغُ مِنْ لَفْظٍ . فَاَمَّا الْخَطُّ وَالْاِشَارَةُ فَمَفْهُومَانِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَاَكْثَرِ الْعَامَّةِ . وَاَمَّا الدَّلَالَةُ فَكُلُّ شَيْءٍ دَلَّكَ عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ اَخْبَرَكَ بِهِ . . . . وَقَالَ اَبْرَوِيزُ لِكَاتِبِهِ : اَعْلَمْ اَنَّ دَعَائِمَ الْمَقَالَاتِ اَرْبَعٌ : اِنِ الْتُمِسَ لَهَا خَامِسٌ لَمْ يُوجَدْ فَاِنْ نَقَصَ مِنْهَا وَاحِدٌ لَمْ تَتِمَّ وَهِيَ : سُؤَالُكَ الشَّيْءَ وَاَمْرُكَ بِالشَّيْءِ وَاِخْبَارُكَ عَنِ الشَّيْءِ وَسُؤَالُكَ عَنِ الشَّيْءِ . فَاِذَا طَلَبْتَ فَاَسْجِحْ . وَاِذَا سَاَلْتَ فَاَوْضِحْ وَاِذَا اَمَرْتَ فَاَحْكِمْ . وَاِذَا اَخْبَرْتَ فَحَقِّقْ . وَاَجْمِعِ الْكَثِيرَ مِمَّا تُرِيدُ فِي الْقَلِيلِ مِمَّا تَقُولُ (يُرِيدُ الْكَلَامَ الَّذِي تَقِلُّ حُرُوفُهُ وَتَكْثُرُ مَعَانِيهِ) . وَقَالَ رَبِيعَةُ : اَلرَّأْيُ اَنْ لَا اَسْمَعَ الْحَدِيثَ عُطْلًا فَاُشَنِّفَهُ وَاُقَرِّطَهُ فَيَحْسُنُ وَمَا زِدتُّ فِيهِ شَيْئًا وَلَا غَيَّرْتُ

لَهُ مَعْنًى . وَقَالُوا : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ يُحْتَجْ بَعْدَهُ إِلَى كَلَامٍ وَلِلْعَرَبِ مِنْ مُوجَزِ ٱللَّفْظِ وَلَطِيفِ ٱلْمَعْنَى فُصُولٌ عَجِيبَةٌ وَبَدَائِعُ غَرِيبَةٌ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلشَّيْبَانِيُّ : إِذَا ٱحْتَجْتَ إِلَى مُخَاطَبَةِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْوُزَرَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْكُتَّابِ وَٱلْخُطَبَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَأَوْسَاطِ ٱلنَّاسِ وَسُوقَتِهِمْ فَخَاطِبْ كُلًّا عَلَى قَدْرِ أُبَّهَتِهِ وَجَلَالَتِهِ وَعُلُوِّهِ وَٱرْتِفَاعِهِ وَفِطْنَتِهِ وَٱنْتِبَاهِهِ وَٱجْعَلْ طَبَقَاتِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَقْسَامٍ : مِنْهَا ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْعَلِيَّةُ أَرْبَعٌ وَٱلطَّبَقَاتُ ٱلْأُخَرُ وَهِيَ دُونَهَا أَرْبَعٌ لِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْهَا دَرَجَةٌ وَلِكُلِّ قِسْمَةٌ . لَا يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ ٱلْبَلِيغِ أَنْ يُقَصِّرَ بِأَهْلِهَا عَنْهَا وَيَقْلِبَ مَعْنَاهَا إِلَى غَيْرِهَا . (فَٱلْحَدُّ ٱلْأَوَّلُ) ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْعُلْيَا وَغَايَتُهَا ٱلْقُصْوَى ٱلْخِلَافَةُ ٱلَّتِي أَجَلَّ ٱللهُ قَدْرَهَا وَأَعْلَى شَأْنَهَا عَنْ مُسَاوَاتِهَا بِأَحَدٍ مِنْ أَبْنَاءِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَٱلتَّوْقِيرِ . (وَٱلطَّبَقَةُ ٱلثَّانِيَةُ) لِوُزَرَائِهَا وَكُتَّابِهَا ٱلَّذِينَ يُخَاطِبُونَ ٱلْخُلَفَاءَ بِعُقُولِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَيَرْتُقُونَ ٱلْفُتُوقَ بِآرَائِهِمْ . (وَٱلطَّبَقَةُ ٱلثَّالِثَةُ) أُمَرَاءُ ثُغُورِهِمْ وَقُوَّادُ جُنُودِهِمْ فَإِنَّهُ يَجِبُ مُخَاطَبَةُ كُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَى قَدْرِهِ وَمَوْنِعِهِ وَحَظِّهِ وَغَنَائِهِ وَجَزَائِهِ وَٱضْطِلَاعِهِ بِمَا حَمَلَ مِنْ أَعْبَاءِ أُمُورِهِمْ وَجَلَائِلِ أَعْمَالِهِمْ . (وَٱلرَّابِعَةُ) ٱلْقُضَاةُ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانَ لَهُمْ تَوَاضُعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَحِيلَةُ ٱلْفُضَلَاءِ فَمَعَهُمْ أُبَّهَةُ ٱلسَّلْطَنَةِ وَهَيْبَةُ ٱلْأُمَرَاءِ . وَأَمَّا ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْأَرْبَعُ ٱلْأُخَرُ فَهُمُ ٱلْمُلُوكُ ٱلَّذِينَ أَوْجَبَتْ نِعَمُهُمْ تَعْظِيمَهُمْ فِي ٱلْكُتُبِ إِلَيْهِمْ وَأَفْضَالُهُمْ تَفْضِيلَهُمْ فِيهَا . (وَٱلثَّانِيَةُ) وُزَرَاؤُهُمْ وَكُتَّابُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمُ ٱلَّذِينَ تُقْرَعُ أَبْوَابُهُمْ وَبِعِنَايَتِهِمْ تُسْتَبَاحُ أَمْوَالُهُمْ . (وَٱلثَّالِثَةُ) هُمُ ٱلْعُلَمَاءُ

يَجِبُ تَوْقِيرُهُمْ فِي ٱلْكُتُبِ بِشَرَفِ ٱلْعِلْمِ وَعُلُوِّ دَرَجَةِ اَهْلِهِ .
(وَٱلطَّبَقَةُ ٱلرَّابِعَةُ) لِاَهْلِ ٱلْقَدْرِ وَٱلْجَلَالَةِ وَٱلْحَلَاوَةِ وَٱلطُّلَاوَةِ وَٱلظَّرْفِ
وَٱلْاَدَبِ فَاِنَّهُمْ يَضْطَرُّونَكَ بِجِدَّةِ اَذْهَانِهِمْ وَشِدَّةِ تَمْيِيزِهِمْ وَٱنْتِقَادِهِمْ
وَاَدَبِهِمْ وَتَصَفُّحِهِمْ اِلَى ٱلْاِسْتِقْصَاءِ عَلَى نَفْسِكَ فِي مُكَاتَبَتِهِمْ وَٱسْتَغْنَيْنَا
عَنِ ٱلتَّرْتِيبِ لِلسُّوقَةِ وَٱلْعَوَامِّ وَٱلتُّجَّارِ بِٱسْتِغْنَائِهِمْ بِهَانَتِهِمْ مِنْ هٰذِهِ
ٱلْآلَاتِ وَٱشْتِغَالِهِمْ بِمِهَنَاتِهِمْ عَنْ هٰذِهِ ٱلْاَدَوَاتِ . وَلِكُلِّ طَبَقَةٍ
مِنْ هٰذِهِ ٱلطَّبَقَاتِ مَعَانٍ وَمَذَاهِبُ يَجِبُ عَلَيْكَ اَنْ تَرْعَاهَا فِي
مُرَاسَلَتِكَ اِيَّاهُمْ فِي كُتُبِكَ فَتَزِنَ كَلَامَكَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ بِمِيزَانِهِ
وَتُعْطِيَهُ قِسْمَهُ وَتُوفِيَهُ نَصِيبَهُ . فَاِنَّكَ مَتَى اَهْمَلْتَ ذٰلِكَ وَاَضَعْتَهُ لَمْ
آمَنْ عَلَيْكَ اَنْ تَعْدِلَ بِهِمْ عَنْ كَلَامِكَ فِي غَيْرِ مَسْلَكِهِ فَلَا تَعْتَدَّ
بِٱلْمَعْنَى ٱلْجَزْلِ مَا لَمْ تُلْبِسْهُ لَفْظًا لَائِقًا بِمَنْ كَاتَبْتَهُ وَمَلْمَسًا بِمَنْ رَاسَلْتَهُ .
فَاِنَّ ٱلْبَاسَكَ ٱلْمَعْنَى وَاِنْ صَحَّ وَصَرَفَ لَفْظًا مُخْتَلِفًا عَلَى قَدْرِ
ٱلْمَكْتُوبِ اِلَيْهِ لَمْ تَجْرِ بِهِ عَادَتُهُمْ تَهْجِينٌ لِلْمَعْنَى وَاِخْلَالٌ بِقَدْرِهِ
وَظُلْمٌ بِحَقِّ ٱلْمَكْتُوبِ اِلَيْهِ وَنَقْصٌ بِمَا يَجِبُ لَهُ كَمَا اَنَّ فِي ٱتِّبَاعِ
تَعَارُفِهِمْ وَمَا ٱنْتَشَرَتْ بِهِ عَادَاتُهُمْ وَجَرَتْ بِهِ اَلْسِنَتُهُمْ قَطْعًا لِعُذْرِهِمْ
وَخُرُوجًا مِنْ حُقُوقِهِمْ وَبُلُوغًا اِلَى غَايَةِ مُرَادِهِمْ وَاِسْقَاطًا لِحُجَّةِ اَدَبِهِمْ .
فَمِنَ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمَرْغُوبِ عَنْهَا وَٱلصُّدُورِ ٱلْمُسْتَوْحَشِ مِنْهَا فِي كُتُبِ
ٱلسَّادَاتِ وَٱلْمُلُوكِ وَٱلْاُمَرَاءِ عَلَى ٱتِّفَاقِ ٱلْمَعَانِي مِثْلُ : اَبْقَاكَ ٱللّٰهُ
طَوِيلًا وَعَمَّرَكَ مَلِيًّا . وَاِنْ كُنَّا نَعْلَمُ اَنْ لَا فَرْقَ بَيْنَ قَوْلِهِمْ : اَطَالَ
ٱللّٰهُ بَقَاءَكَ . وَبَيْنَ قَوْلِهِمْ : اَبْقَاكَ ٱللّٰهُ طَوِيلًا . وَلٰكِنَّهُمْ جَعَلُوا هٰذَا

ارجح وزنًا وانبه قدرًا في المخاطبة كما انهم جعلوا : اكرمك الله وابقاك . احسن منزلًا في كتب الفضلاء والادباء من جعلت فداك على اشتراك معناه واحتمال ان يكون فداه من الخير كما يحتمل ان يكون فداه من الشر . على ان كتاب العسكر وعوامهم قد ولعوا بهذه اللفظة حتى استعملوها في جميع محاوراتهم وجعلوها هجّيراهم في مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير . ولذلك قال محمود الورّاق :

كلُّ من حلَّ سُرَّ من را من النا س ومن قد يداخل الاملاكا
لو راى الكلب مائلًا بطريقٍ قال للكلب يا جعلتُ فداكا

وكذلك لم يجيزوا ان يكتبوا بمثل ابقاك الله وامتع بك الا في الابن والخادم المنقطع اليك . واما في كتب الاخوان فغير جائز بل مذموم مرغوب عنه . . . ولكلّ مكتوبٍ اليه قدرٌ ووزنٌ ينبغي للكاتب ان لا يجاوزه عنه ولا يقصّر به دونه . وقد رأيتهم عابوا الاخوص حين خاطب الملوك خطاب العوام في قوله :

واراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق الحديث يقول ما لا يفعل

وهذا معنى صحيح في المدح ولكنهم اجلّوا قدر الملوك ان يمدح بما تمدح به العوام لان صدق الحديث وانجاز الوعد وان كان من المدح فهو واجب على العامة . والملوك لا يمدحون بالفرائض الواجبة . انما يحسن مدحهم بالنوافل لان المادح لو قال لبعض الملوك : انك لا تخون ما استودعت وانك لتصدق في وعدك وتفي

بِعَهْدِكَ . فَكَأَنَّهُ قَدْ أَثْنَى بِمَا يَجِبُ وَلَوْ قَصَدَ بِثَنَائِهِ إِلَى مَقْصَدِهِ كَانَ أَشْبَهَ بِأَلْمُلُوكِ . وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ أَمِيرٍ يَتَوَلَّى مِنْ أَمِيرِ أَلْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا فَهُوَ أَمِيرُ أَلْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمْ يُطْلِقُوا هٰذِهِ أَللَّفْظَةَ إِلَّا فِي أَلْخُلَفَاءِ خَاصَّةً . وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ أَلْكَيِّسَ هُوَ أَلْعَقْلُ . وَلٰكِنْ إِنْ وَصَفْتَ رَجُلًا فَقُلْتَ : إِنَّهُ لَعَاقِلٌ . كُنْتَ مَدَحْتَهُ عِنْدَ أَلنَّاسِ . وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّهُ لَكَيِّسٌ كُنْتَ قَدْ قَصَّرْتَ بِهِ عَنْ وَصْفِهِ وَصَغَّرْتَ مِنْ قَدْرِهِ . إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ أَلْعِلْمِ بِأَللُّغَةِ لِأَنَّ أَلْعَامَّةَ لَا تَلْتَفِتُ إِلَى مَعْنَى أَلْكَلِمَةِ وَلٰكِنْ إِلَى مَا جَرَتْ بِهِ أَلْعَادَةُ مِنِ أَسْتِعْمَالِهَا فِي أَلظَّاهِرِ إِذْ كَانَ أَسْتِعْمَالُ أَلْعَامَّةِ لِهٰذِهِ أَلْكَلِمَةِ مَعَ أَلْحَدَاثَةِ وَأَلْغِرَّةِ وَخَسَاسَةِ أَلْقَدْرِ وَصِغَرِ أَلسِّنِّ . . . فَأَمْتَثِلْ هٰذِهِ أَلْمَذَاهِبَ وَأَجْرِ عَلَى هٰذِهِ أَلْقَوَامِ وَتَحَفَّظْ فِي صُدُورِ كُتُبِكَ وَفُصُولِهَا وَخَوَاتِمِهَا وَضَعْ كُلَّ مَعْنًى فِي مَوْضِعٍ يَلِيقُ بِهِ وَتَخَيَّرْ لِكُلِّ لَفْظَةٍ مَعْنًى يُشَاكِلُهَا وَلْيَكُنْ مَا تَخْتِمُ بِهِ فُصُولَكَ فِي مَوْضِعِ ذِكْرِ أَلْبَلْوَى بِمِثْلِ : (نَسْأَلُ أَللّٰهَ دَفْعَ أَلْمَحْذُورِ وَصَرْفَ أَلْمَكْرُوهِ) وَأَشْبَاهِ هٰذَا . وَفِي مَوْضِعِ ذِكْرِ أَلْمُصِيبَةِ : إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . وَفِي مَوْضِعِ ذِكْرِ أَلنِّعْمَةِ : (أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ خَالِصًا وَأَلشُّكْرُ لِلّٰهِ وَاجِبًا) . فَإِنَّ هٰذِهِ أَلْمَوَاضِعَ يَجِبُ عَلَى أَلْكَاتِبِ أَنْ يَتَفَقَّدَهَا وَيَحْتَفِظَ بِهَا . فَإِنَّ أَلْكَاتِبَ إِنَّمَا يَصِيرُ كَاتِبًا بِأَنْ يَضَعَ كُلَّ مَعْنًى فِي مَوْضِعِهِ فَيُعَلِّقَ كُلَّ لَفْظَةٍ عَلَى طَبَقِهَا مِنَ أَلْمَعْنَى . وَأَعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ فِي أَلرَّسَائِلِ أَسْتِعْمَالُ أَلْإِقْتِصَارِ وَأَلْحَذْفِ وَمُخَاطَبَةُ أَلْخَاصِّ بِأَلْعَامِّ وَأَلْعَامِّ بِأَلْخَاصِّ . وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ

اَنْ يَجْتَنِبَ اللَّفْظَ الْمُشْتَرَكَ وَالْمَعْنَى الْمُلْتَبِسَ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ اَيْضًا فِي الرَّسَائِلِ وَالْبَلَاغَاتِ الْمَشْهُورَةِ مَا يَجُوزُ فِي الْاَشْعَارِ الْمَوْزُونَةِ لِاَنَّ الشَّاعِرَ مُضْطَرٌّ وَالشِّعْرَ مَقْصُودٌ مُقَيَّدٌ بِالْوَزْنِ وَالْقَوَافِي. فَلِذٰلِكَ اَجَازُوا لَهُمْ صَرْفَ مَا لَا يَنْصَرِفُ مِنَ الْاَسْمَاءِ وَحَذْفَ مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهَا وَاغْتُفِرَ فِيهِ سُوءُ التَّظَلُّمِ وَاَجَازُوا فِيهِ التَّقْدِيمَ وَالتَّاْخِيرَ وَالْاِضْمَارَ فِي مَوْضِعِ الْاِظْهَارِ وَذٰلِكَ كُلُّهُ غَيْرُ سَائِغٍ فِي الرَّسَائِلِ وَلَا جَائِزٌ فِي الْبَلَاغَاتِ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي فِي الرَّسَائِلِ اَنْ يُصَغَّرَ الْاِسْمُ فِي مَوْضِعِ التَّعْظِيمِ وَاِنْ كَانَ ذٰلِكَ جَائِزًا مِثْلُ قَوْلِهِمْ : دُوَيْهِيَةٌ تَصْغِيرُ دَاهِيَةٍ . وَجُذَيْلٌ تَصْغِيرُ جَذْلٍ . وَعُذَيْقٌ تَصْغِيرُ عِذْقٍ . وَقَالَ لَبِيدٌ :

وَكُلُّ اُنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الْاَنَامِلُ

وَقَالَ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ يَوْمَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ : اَنَا عُذَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ وَجُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ . وَقَالَ سَرْحَةُ اَبُو عُبَيْدَةَ : وَمِمَّا لَا يَجُوزُ فِي الرَّسَائِلِ وَكَرِهُوهُ فِي الْكَلَامِ اَيْضًا مِثْلُ قَوْلِهِمْ : كَلَّمْتُ اِيَّاكَ وَاَعْنِي اِيَّاكَ وَهُوَ جَائِزٌ فِي الشِّعْرِ . قَالَ الشَّاعِرُ :

وَاَحْمِلْ وَاَحْسِنْ فِي اَسِيرِكَ اِنَّهُ ضَعِيفٌ وَلَمْ يَاْسِرْ كَاِيَّاكَ آسِرُ

فَتَخَيَّرْ مِنَ الْاَلْفَاظِ اَرْجَحَهَا لَفْظًا وَاَجْزَلَهَا وَاَشْرَفَهَا جَوْهَرًا وَاَكْرَمَهَا حَسَبًا وَاَلْيَقَهَا فِي مَكَانِهَا وَاَشْكَلَهَا فِي مَوْضِعِهَا فَاِنْ حَاوَلْتَ صَنْعَةَ رِسَالَةٍ فَزِنِ اللَّفْظَةَ قَبْلَ اَنْ تُخْرِجَهَا بِمِيزَانِ التَّصْرِيفِ اِذَا عَرَضَتْ . وَعَايِرِ الْكَلِمَةَ بِمِعْيَارِ اِذَا سَنَحَتْ . فَاِنَّهُ رُبَّمَا مَرَّ بِكَ مَوْضِعٌ يَكُونُ مَخْرَجُ الْكَلَامِ اِذَا كَتَبْتَ : اَنَا فَاعِلٌ . اَحْسَنُ مِنْ اَنْ

تَكْتُبَ : اَنَا اَفْعَلُ . وَمَوْضِعٌ آخَرُ يَكُونُ فِيهِ (اَسْتَفْعَلْتُ) اَحْلَى مِنْ (فَعَلْتُ) فَاَدِرِ الْكَلَامَ عَلَى اَعْكَانِهِ وَقَلِّبْهُ عَلَى جَمِيعِ وُجُوهِهِ فَايُّ لَفْظَةٍ رَاَيْتَهَا فِي الْمَكَانِ الَّذِي نَدَبْتَهَا اِلَيْهِ فَاَتْرِعْهَا اِلَى الْمَكَانِ الَّذِي اَوْرَدَتَّهَا عَلَيْهِ وَاَوْقِعْهَا فِيهِ . وَلَا تَجْعَلِ اللَّفْظَةَ قَلِقَةً فِي مَوْضِعِهَا نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا فَاِنَّكَ مَتَى فَعَلْتَ هَجَّنْتَ الْمَوْضِعَ الَّذِي حَاوَلْتَ تَحْسِينَهُ وَاَفْسَدْتَ الْمَكَانَ الَّذِي اَرَدْتَ اِصْلَاحَهُ فَاِنَّ وَضْعَ الْاَلْفَاظِ فِي غَيْرِ اَمَاكِنِهَا وَقَصْدَكَ بِهَا اِلَى غَيْرِ مُصَابِهَا اِنَّمَا هُوَ كَتَرْقِيعِ الثَّوْبِ الَّذِي لَمْ يُشَابِهْ رِقَاعُهُ وَلَمْ تَتَقَارَبْ اَجْزَاؤُهُ وَخَرَجَ مِنْ حَدِّ الْجِدَّةِ وَتَغَيَّرَ حُسْنُهُ . كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

اِنَّ الْجَدِيدَ اِذَا مَا زِيدَ فِي خَلَقٍ ... يَبِينُ لِلنَّاسِ اَنَّ الثَّوْبَ مَرْقُوعُ

كَذٰلِكَ كُلَّمَا اَحْوَلَى الْكَلَامُ وَعَذُبَ وَرَاقَ وَسَهُلَتْ مَخَارِجُهُ كَانَ اَسْهَلَ وَاَرْجَى فِي الْاَسْمَاعِ وَاَشَدَّ اِتِّصَالًا بِالْقُلُوبِ وَاَخَفَّ عَلَى الْاَفْوَاهِ لَا سِيَّمَا اِنْ كَانَ الْمَعْنَى الْبَدِيعُ تُرْجِمًا بِلَفْظٍ مُؤْنِقٍ شَرِيفٍ وَمُعَايَرًا بِكَلَامٍ عَذْبٍ لَمْ يَسِمْهُ التَّكْلِيفُ بِمِيسَمِهِ وَلَمْ يُفْسِدْهُ التَّعْقِيدُ بِاسْتِهْلَاكِهِ . . . وَقَدْ رَاَيْتُهُمْ شَبَّهُوا الْمَعْنَى الْخَفِيَّ بِالرُّوحِ الْخَفِيِّ . وَاللَّفْظَ الظَّاهِرَ بِالْجُثْمَانِ الظَّاهِرِ . وَاِذَا لَمْ يَنْهَضْ بِالْمَعْنَى الشَّرِيفِ الْجَزْلِ لَفْظٌ شَرِيفٌ جَزْلٌ لَمْ تَكُنِ الْعِبَارَةُ وَاضِحَةً وَلَا النِّظَامُ مُتَّسِقًا . وَتَضَاؤُلُ الْمَعْنَى الْحَسَنِ تَحْتَ اللَّفْظِ الْقَبِيحِ كَتَضَاؤُلِ الْحَسْنَاءِ فِي الْاَطْمَارِ الرَّثَّةِ . وَاِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى اَرْبَعَةُ اَصْنَافٍ : لَفْظٌ وَاِشَارَةٌ وَعَقْدٌ وَخَطٌّ . وَقَدْ ذَكَرَ لَهُ اَرِسْطَاطَالِيسُ صِنْفًا خَامِسًا فِي كِتَابِ

ٱلْمَنْطِقِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلنَّصْبَةَ . وَٱلنَّصْبَةُ ٱلْحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَهِيَ ٱلنَّاطِقَةُ بِغَيْرِ لَفْظٍ وَمُشِيرَةٌ إِلَيْكَ بِغَيْرِ يَدٍ وَذٰلِكَ ظَاهِرٌ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكُلِّ صَامِتٍ وَنَاطِقٍ. وَجَمِيعُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ ٱلْخَمْسَةِ كَاشِفَةٌ عَنْ أَعْيَانِ ٱلْمَعَانِي وَسَافِرَةٌ عَنْ وُجُوهِهَا وَأَوْضَحُ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ وَأَفْصَحُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ صِنْفَانِ : هُمَا ٱلْقَلَمُ وَٱللِّسَانُ وَكِلَاهُمَا تَرْجُمَانٌ . فَأَمَّا ٱللِّسَانُ فَهُوَ ٱلْآلَةُ ٱلَّتِي يَخْرُجُ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا عَنْ حَدِّ ٱلْإِسْتِبْهَامِ إِلَى حَدِّ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ بِٱلْكَلَامِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ : حَدُّ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْحَيُّ ٱلنَّاطِقُ

البحث الثاني

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع (١)

(من مقدمة ابن خلدون باختصار)

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْعِبَارَةُ وَٱلْخِطَابُ إِنَّمَا سِرُّهُ وَرُوحُهُ فِي إِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى . وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُهْمَلًا فَهُوَ كَٱلْمَوَاتِ ٱلَّذِي لَا عِبْرَةَ بِهِ وَكَمَالُ ٱلْإِفَادَةِ هُوَ ٱلْبَلَاغَةُ عَلَى مَا عَرَفْتَ مِنْ حَدِّهَا عِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ : هِيَ مُطَابَقَةُ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ . وَمَعْرِفَةُ ٱلشُّرُوطِ وَٱلْأَحْكَامِ ٱلَّتِي بِهَا تُطَابِقُ ٱلتَّرَاكِيبُ ٱللَّفْظِيَّةُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ هُوَ فَنُّ ٱلْبَلَاغَةِ . وَتِلْكَ ٱلشُّرُوطُ وَٱلْأَحْكَامُ تُؤْخَذُ مِنْ عِلْمَيِ

(١) ان هذا الفصل لا يوجد في نسخة مقدمة ابن خلدون المطبوعة في مصر وبيروت بل في طبعة باريز

ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ هُمَا جُزْءَا ٱلْبَلَاغَةِ وَبِهِمَا كَمَالُ ٱلْإِفَادَةِ وَٱلْمُطَابَقَةُ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ. فَٱلْبَلَاغَةُ عَلَى هٰذَا هِيَ ٱصْلُ ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ وَسَجِيَّتُهُ وَرُوحُهُ وَطَبِيعَتُهُ . ثُمَّ ٱعْلَمْ اَنَّهُمْ اِذَا قَالُوا ٱلْكَلَامَ ٱلْمَطْبُوعَ فَاِنَّهُمْ يَعْنُونَ بِهِ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي كَمَلَتْ طَبِيعَتُهُ وَسَجِيَّتُهُ مِنْ اِفَادَةِ مَدْلُولِهِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْهُ لِاَنَّهُ عِبَارَةٌ وَخِطَابٌ لَيْسَ ٱلْمَقْصُودُ مِنْهُ ٱلنُّطْقُ فَقَطْ . بَلِ ٱلْمُتَكَلِّمُ يَقْصِدُ بِهِ اَنْ يُفِيدَ سَامِعَهُ مَا فِي ضَمِيرِهِ اِفَادَةً تَامَّةً وَيَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ دَلَالَةً وَثِيقَةً. ثُمَّ يَتْبَعُ تَرَاكِيبَ ٱلْكَلَامِ فِي هٰذِهِ ٱلسَّجِيَّةِ ٱلَّتِي لَهُ بِٱلْاَصَالَةِ ضُرُوبٌ مِنَ ٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّزْيِينِ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْاِفَادَةِ وَكَاَنَّهَا تُعْطِيهَا رَوْنَقَ ٱلْفَصَاحَةِ مِنْ تَنْمِيقِ ٱلْاَسْجَاعِ وَٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جَمِيلِ ٱلْكَلَامِ وَتَقْسِيمِهِ بِٱلْاَقْسَامِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلْاَحْكَامِ وَٱلتَّوْرِيَةِ بِٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ عَنِ ٱلْخَفِيِّ مِنْ مَعَانِيهِ وَٱلْمُطَابَقَةِ بَيْنَ ٱلْمُتَضَادَّاتِ لِيَقَعَ ٱلتَّجَانُسُ بَيْنَ ٱلْاَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فَيَحْصُلَ لِلْكَلَامِ رَوْنَقٌ وَلَذَّةٌ فِي ٱلْاَسْمَاعِ وَحَلَاوَةٌ وَجَمَالٌ كُلُّهَا زَائِدَةٌ عَلَى ٱلْاِفَادَةِ . وَهٰذِهِ ٱلصَّنْعَةُ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمُعْجِزِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلُ : وَٱللَّيْلِ اِذَا يَغْشَى وَٱلنَّهَارِ اِذَا تَجَلَّى . وَمِثْلُ : فَاَمَّا مَنْ اَعْطَى وَٱتَّقَى وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَى اِلَى آخِرِ ٱلتَّقْسِيمِ . وَكَذَا : فَاَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا اِلَى آخِرِهِ . وَكَذَا : وَهُمْ يَحْسَبُونَ اَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . وَاَمْثَالُهُ كَثِيرٌ . وَذٰلِكَ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْاِفَادَةِ فِي اَصْلِ هٰذِهِ ٱلتَّرَاكِيبِ قَبْلَ وُقُوعِ هٰذَا ٱلْبَدِيعِ فِيهَا . وَكَذَا وَقَعَ فِي كَلَامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْهُ لٰكِنْ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّدٍ . وَيُقَالُ

انَّهُ وَقَعَ فِي شِعْرِ زُهَيْرٍ . وَاَمَّا الْاِسْلَامِيُّونَ فَوَقَعَ لَهُمْ عَفْوًا وَقَصْدًا وَاَتَوا مِنْهُ بِالْعَجَائِبِ . وَاَوَّلُ مَنْ اَحْكَمَ طَرِيقَتَهُ حَبِيبُ بْنُ اَوْسٍ وَالْبُحْتُرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ فَقَدْ كَانُوا مُولَعِينَ بِالصَّنْعَةِ وَيَأْتُونَ مِنْهَا بِالْعَجَبِ . وَقِيلَ انَّ اَوَّلَ مَنْ ذَهَبَ اِلَى مُعَانَاتِهَا بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ وَابْنُ هَرْمَةَ وَكَانَا آخِرَ مَنْ يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِهِ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . ثُمَّ اَتْبَعَهُمَا كُلْثُومُ بْنُ عَمْرٍو وَالْعَتَابِيُّ وَمَنْصُورُ النَّمِرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ وَاَبُو نُوَاسٍ . وَجَاءَ عَلَى آثَارِهِمْ حَبِيبٌ وَالْبُحْتُرِيُّ . ثُمَّ ظَهَرَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ فَخَتَمَ عَلَى الْبَدِيعِ وَالصِّنَاعَةِ اَجْمَعَ

فَتَامَّلْ قَوْلَهُمُ الْمَطْبُوعَ اَلْفَقِيدَ الصَّنْعَةِ فِي اِحْكَامِ تَاْلِيفِهِ وَثَقَافَةِ تَرْكِيبِهِ فَلَوْ جَاءَتْ فِيهِ الصَّنْعَةُ مِنْ بَعْدِ هٰذَا الْاَصْلِ زَادَتْهُ حُسْنًا . وَاَمَّا الْمَصْنُوعُ فَكَثِيرٌ مِنْ لَدُنْ بَشَّارٍ ثُمَّ حَبِيبٍ وَطَبَقَتِهِمَا ثُمَّ ابْنِ الْمُعْتَزِّ خَاتِمِ الصَّنْعَةِ الَّذِينَ جَرَى الْمُتَاَخِّرُونَ بَعْدَهُمْ فِي مَيْدَانِهِمْ وَنَسَجُوا عَلَى مِنْوَالِهِمْ . وَقَدْ تَعَدَّدَتْ اَصْنَافُ هٰذِهِ الصَّنْعَةِ عِنْدَ اَهْلِهَا وَاخْتَلَفَتِ اصْطِلَاحَاتُهُمْ فِي اَلْقَابِهَا . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَجْعَلُهَا مُنْدَرِجَةً فِي الْبَلَاغَةِ عَلَى اَنَّهَا غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي الْاِفَادَةِ وَاِنَّمَا هِيَ تُعْطِي التَّحْسِينَ وَالرَّوْنَقَ . وَاَمَّا الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ اَهْلِ الْبَدِيعِ فَهِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ عَنِ الْبَلَاغَةِ وَلِذٰلِكَ يَذْكُرُونَهَا فِي الْفُنُونِ الْاَدَبِيَّةِ الَّتِي لَا مَوْضُوعَ لَهَا . وَهِيَ رَاْيُ ابْنِ رَشِيقٍ فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ لَهُ وَاُدَبَاءِ الْاَنْدَلُسِ . وَذَكَرُوا فِي اسْتِعْمَالِ هٰذِهِ الصَّنْعَةِ شُرُوطًا مِنْهَا اَنْ تَقَعَ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا اكْتِرَاثٍ فِيمَا يُقْصَدُ مِنْهَا . وَاَمَّا الْعَفْوُ فَلَا كَلَامَ فِيهِ

لِأَنَّهَا إِذَا بَرِئَتْ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ سَلِمَ ٱلْكَلَامُ مِنْ عَيْبِ ٱلِٱسْتِهْجَانِ لِأَنَّ تَكَلُّفَهَا وَمُعَانَاتَهَا يَصِيرُ إِلَى ٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْأَصْلِيَّةِ لِلْكَلَامِ فَتَخِلُّ بِٱلْإِفَادَةِ مِنْ أَصْلِهَا وَتَذْهَبُ بِٱلْبَلَاغَةِ رَأْسًا وَلَا يَبْقَى فِي ٱلْكَلَامِ إِلَّا تِلْكَ ٱلتَّحْسِينَاتُ. وَهٰذَا هُوَ ٱلْغَالِبُ ٱلْيَوْمَ عَلَى أَهْلِ ٱلْعَصْرِ وَأَصْحَابِ ٱلْأَذْوَاقِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ يَسْخَرُونَ مِنْ كَلَفِهِمْ بِهٰذِهِ ٱلْفُنُونِ وَيَعُدُّونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقُصُورِ عَنْ سِوَاهُ. ثُمَّ مِنْ شُرُوطِ ٱسْتِعْمَالِهَا عِنْدَهُمْ ٱلْإِقْلَالُ مِنْهَا وَأَنْ تَكُونَ فِي بَيْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِنَ ٱلْقَصِيدِ فَتَكْفِي فِي زِينَةِ ٱلشِّعْرِ وَرَوْنَقِهِ وَٱلْإِكْثَارُ مِنْهَا عَيْبٌ. قَالَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ وَغَيْرُهُ. وَكَانَ شَيْخُنَا أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱلشَّرِيفُ ٱلسَّبْتِيُّ مُنْفِقُ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْأَنْدَلُسِ لِوَقْتِهِ يَقُولُ: هٰذِهِ ٱلْفُنُونُ ٱلْبَدِيعَةُ إِذَا وَقَعَتْ لِلشَّاعِرِ أَوْ لِلْكَاتِبِ فَيَقْبُحُ أَنْ يُسْتَكْثَرَ مِنْهَا لِأَنَّهَا مِنْ مُحَسِّنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمُزَيِّنَاتِهِ فَهِيَ بِمَثَابَةِ ٱلْخِيلَانِ فِي ٱلْوَجْهِ يَحْسُنُ بِٱلْوَاحِدِ وَٱلِٱثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَقْبُحُ بِتَعْدَادِهَا وَعَلَى نِسْبَةِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْظُومِ هُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلْمَنْثُورُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِ كَانَ أَوَّلًا مُرْسَلًا مُعْتَبَرَ ٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِهِ وَتَرَاكِيبِهِ. مُشَاهِدَةً مُوَازَنَتُهُ بِفَوَاصِلِهِ مِنْ غَيْرِ ٱلْتِزَامِ سَجْعٍ وَلَا ٱكْتِرَاثٍ بِصَنْعَةٍ. حَتَّى نَبَغَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِلَالٍ ٱلصَّابِئُ كَاتِبُ بَنِي بُوَيْهِ فَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَةَ وَٱلتَّقْفِيَةَ وَأَتَى مِنْ ذٰلِكَ بِٱلْعَجَبِ وَعَابَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ كَلَفَهُ بِذٰلِكَ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ. وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِي مُلُوكِهِ مِنَ ٱلْعُجْمَةِ وَٱلْبُعْدِ عَنْ صَوْلَةِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْمُنْفِقَةِ لِسُوءِ ٱلْبَلَاغَةِ. ثُمَّ ٱنْتَشَرَتِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي مَنْثُورِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَنُسِيَ عَهْدُ ٱلتَّرْسِيلِ وَتَشَابَهَتِ ٱلسُّلْطَانِيَّاتُ

وَالْاِخْوَانِيَّاتُ وَالْعَرَبِيَّاتُ بِالسُّوقِيَّاتِ وَاخْتَلَطَ الْمَرْعِيُّ بِالْهَمَلِ . وَهٰذَا كُلُّهُ يَدُلُّكَ عَلَى اَنَّ الْكَلَامَ الْمَصْنُوعَ بِالْمُعَانَاةِ وَالتَّكْلِيفِ قَاصِرٌ عَنِ الْكَلَامِ الْمَطْبُوعِ لِقِلَّةِ الْاِكْتِرَاثِ فِيهِ بِاَصْلِ الْبَلَاغَةِ. وَالْحَاكِمُ فِي ذٰلِكَ الذَّوْقُ

البحث الثالث

في السجع وانواعهِ

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٧٢ من علم الادب)

كَلِمَاتُ الْاَسْجَاعِ مَوْضُوعَةٌ عَلَى اَنْ تَكُونَ سَاكِنَةَ الْاَعْجَازِ مَوْقُوفًا عَلَيْهَا لِاَنَّ الْغَرَضَ اَنْ يُجَانَسَ بَيْنَ الْقَرَائِنِ وَيُزَاوَجَ بَيْنَهَا وَلَا يَتِمُّ ذٰلِكَ اِلَّا بِالْوَقْفِ . اَلَا تَرَى اَنَّ قَوْلَهُمْ: مَا اَبْعَدَ مَا فَاتَ . وَمَا اَقْرَبَ مَا هُوَ آتٍ. لَوْ اُعْطِيَ اَوَاخِرُ الْقَرَائِنِ مَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُ الْاِعْرَابِ لَاخْتَلَفَ اَوَاخِرُ الْقَرَائِنِ وَفَاتَ السَّاجِعَ غَرَضُهُ. وَاِذَا رَاَيْنَاهُمْ يُخْرِجُونَ الْكَلِمَةَ عَنْ اَوْضَاعِهَا لِلِازْدِوَاجِ فَيَقُولُونَ آتِيكَ بِالْغَدَوَاتِ اَوْ بِالْعَشَاءِ . وَهَنَانِي الطَّعَامُ وَمَرَانِي . وَانْصَرَفْنَ مَاْزُورَاتٍ غَيْرَ مَاْجُورَاتٍ يُرِيدُونَ : الْغَدَوَاتِ وَاَمْرَانِي وَمَوْزُرَاتٍ . مَعَ اَنَّ فِيهِ اِرْتِكَابًا لِمُخَالَفَةِ اللُّغَةِ . وَكَذٰلِكَ : اَعْطِ الْقَوْسَ بَارِيهَا . وَفِيهِ تَرْكُ الْاِعْرَابِ مِنْ اَثْنَاءِ الْكَلِمَةِ فَمَا الظَّنُّ بِاَوَاخِرِ الْكَلِمِ الْمُشَبَّهَةِ بِالْقَوَافِي . وَالْاَوْلَى اَنْ يُقَالَ فِي اَوَاخِرِ الْاَبْيَاتِ الْفَوَاصِلِ اِذَا عُرِفَ هٰذَا

فَالْاِسْجَاعُ اَرْبَعَةُ اَنْوَاعٍ : اَلتَّرْصِيعُ وَالْمُتَوَازِي وَالْمُطَرَّفُ وَالْمُتَاوِزُ.
اَمَّا (اَلتَّرْصِيعُ) فَهُوَ اَنْ تَكُونَ اَلْاَلْفَاظُ مُسْتَوِيَةَ اَلْاَوْزَانِ مُتَّفِقَةَ اَلْاَعْجَازِ كَقَوْلِهِ : اِنَّ اِلَيْنَا اِيَابَهُمْ . ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ . وَقَوْلِهِ : اِنَّ اَلْاَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَاِنَّ اَلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ . وَقَوْلِهِ : اَللّٰهُمَّ اَقْبِلْ تَوْبَتِي وَاَغْسِلْ حَوْبَتِي . وَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ يَفْتَخِرُ بِاَلْهِمَمِ اَلْعَالِيَةِ . لَا بِاَلرِّمَمِ اَلْبَالِيَةِ . وَقَوْلِهِمْ : حَتَّى عَادَ تَعْرِيضُكَ وَتَمْرِيضُكَ تَصْحِيحًا . وَمِنَ اَلنَّظْمِ قَوْلُ اَلْخَنْسَاءِ :

حَامِي اَلْحَقِيقَةِ مَحْمُودِ اَلْخَلِيقَةِ مَهْدِيِّ اَلطَّرِيقَةِ نَفَّاعٍ وَضَرَّارِ
جَوَّابِ قَاصِيَةٍ حَزَّازِ نَاصِيَةٍ عَقَّادِ اَلْوِيَةٍ لِلْخَيْلِ جَرَّارِ

وَكَقَوْلِ اَبِي فِرَاسٍ :

وَاَفْعَالُنَا لِلرَّاغِبِينَ كَرِيمَةٌ وَاَمْوَالُنَا لِلطَّالِبِينَ نِهَابُ

وَقَوْلِ اَلْاَبِيوَرْدِيِّ :

يَرُوحُ اِلَيْهِمْ عَازِبُ اَلْحَمْدِ وَافِيًا وَيَغْدُو عَلَيْهِمْ طَالِبَ اَلرِّفْدِ عَافِيَا

وَقَدْ يَجِيءُ مَعَ اَلتَّجْنِيسِ كَقَوْلِهِمْ : اِذَا قَلَّتِ اَلْاَنْصَارُ كَلَّتِ اَلْاَبْصَارُ . وَمَا وَرَاءَ اَلْخَلْقِ اَلذَّمِيمِ اِلَّا اَلْخُلْقُ اَلذَّمِيمُ . وَمِنَ اَلنَّظْمِ قَوْلُ اَلْمُطَرِّزِيِّ :

وَدُّ جَلَالِهِ اَبَدًا ثَمِينٌ وَدُّ نَوَالِهِ اَبَدًا غَزِيرُ

(وَاَلْمُتَوَازِي) وَهُوَ اَنْ يُرَاعَى فِي اَلْكَلِمَتَيْنِ اَلْاَخِيرَتَيْنِ مِنَ اَلْقَرِينَتَيْنِ وَاَلْوَزْنِ مَعَ اِتِّفَاقِ اَلْحَرْفِ اَلْاَخِرِ مِنْهُمَا كَقَوْلِهِ : فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وَاَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ . وَقَوْلِهِ : اَللّٰهُمَّ اَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا .

وَاَعطِ مُمسِكًا تلفًا. وَقَولِ اَلْحَرِيرِيّ : اَلْجَانِي حُكْمُ دَهْرٍ قَاسِطٍ . اِلَى اَنْ اَنْتَجِعَ اَرضَ وَاسِطٍ . وَقَولِهِ : وَاَودَى اَلنَّاطِقُ وَالصَّامِتُ . وَرَثَى لَنَا اَلْحَاسِدُ وَالشَّامِتُ . (وَالْمُطَرَّفُ) وَهُوَ اَنْ يُرَاعَى اَلْحَرْفُ اَلْاَخِيرُ فِي كِلْتَا قَرِينَتَيْهِ مِنْ غَيرِ مُرَاعَاةِ اَلْوَزْنِ . كَقَولِهِ : مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ اَطْوَارًا . وَقَولِهِمْ : خِيَامُهُ مَحَطُّ اَلرِّحَالِ. وَمُخَيَّمُ اَلْآمَالِ . (وَالْمُتَوَازِنُ) وَهُوَ اَنْ يُرَاعَى فِي اَلْكَلِمَتَيْنِ اَلْاَخِيرَتَيْنِ مِنَ اَلْقَرِينَتَيْنِ اَلْوَزْنُ مَعَ اَخْتِلَافِ اَلْحَرْفِ اَلْآخِرِ مِنْهُمَا . كَقَولِهِ : وَغَارِقٌ مَصْفُوقَةٌ . وَزَرَابِيٌّ مَبْثُوثَةٌ . وَقَولِهِمْ : اَصْبِرْ عَلَى حَرِّ اَلْقِتَالِ . وَمَضَضِ اَلنِّزَالِ . وَشِدَّةِ اَلْمَصَاعِ وَمُدَاوَمَةِ اَلْمِرَاسِ . فَاِنْ رَاعَى اَلْوَزْنَ فِي جَمِيعِ كَلِمَاتِ اَلْقَرَائِنِ اَوْ اَكْثَرِهَا وَقَابَلَ اَلْكَلِمَةَ مِنْهَا بِمَا تُعَادِلُهَا وَزْنًا كَانَ اَحْسَنَ . كَقَولِهِ : وَاَتَيْنَاهُمَا اَلْكِتَابَ اَلْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا اَلصِّرَاطَ اَلْمُسْتَقِيمَ . وَقَولِ اَلْحَرِيرِيّ : اَسْوَدُّ يَوْمِي اَلْاَبْيَضُ وَاَبْيَضُّ يَوْمِي اَلْاَسْوَدُ . وَيُسَمَّى هٰذَا فِي اَلشِّعْرِ اَلْمُوَازَنَةَ . كَقَولِ اَلْبُحْتُرِيّ :

فَقِفْ مُسْعَدًا فِيهِنَّ اِنْ كُنْتَ غَادِرًا
وَسِرْ مُبْعَدًا عَنْهُنَّ اِنْ كُنْتَ عَادِلَا

وَمِمَّا هُوَ شَرْطُ اَلْحُسْنِ فِي هٰذَا اَلْمُحَافَظَةُ عَلَى تَنَاسُبِهِ وَهُوَ اِسْمٌ جَامِعٌ لِلْمُلَاءَمَةِ وَالتَّنَاسُبِ . فَاَلْمُلَاءَمَةُ تَاْلِيفُ اَلْاَلْفَاظِ اَلْمُوَافِقَةِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ فِي ضَرْبِ اَلْاِعْتِدَالِ . كَقَولِ لَبِيدٍ :

وَمَا اَلْمَرْءُ اِلَّا كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ يَعُودُ رَمَادًا بَعْدَ اِذْ هُوَ سَاطِعُ

وَمَا ٱلْمَالُ وَٱلْأَهْلُونَ اِلَّا وَدِيعَةٌ وَلَا بُدَّ يَوْمًا اَنْ تُرَدَّ ٱلْوَدَائِعُ

وَبَعْضُهُمْ يَعُدُّ ٱلتَّأْفِيقَ مِنْ بَابِ ٱلْمُلَاءَمَةِ وَهُوَ اَنْ يَضُمَّ اِلَى ذِكْرِ ٱلشَّيْءِ مَا يَلِيقُ بِهِ وَيَجْرِي مَجْرَاهُ وَاَنْ يَجْمَعَ ٱلْأُمُورَ ٱلْمُتَنَاسِبَةَ وَيُقَالُ لَهُ مُرَاعَاةُ ٱلنَّظِيرِ اَيْضًا. وَٱلتَّنَاسُبُ هُوَ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُتَآخِيَةُ ٱلَّتِي تَتَلَاءَمُ وَلَا تَتَنَافَرُ. كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

وَٱلرِّفْقُ يُمْنٌ وَٱلْأَنَاةُ سَعَادَةٌ فَتَأَنَّ فِي رِفْقٍ تَنَالَ نَجَاحَا

وَٱلْيَأْسُ مِمَّا فَاتَ يُعْقِبُ رَاحَةً وَلَرُبَّ مَطْعَمَةٍ تَعُودُ ذُبَاحَا

وَيُسَمَّى ٱلتَّشَابُهَ اَيْضًا. وَقِيلَ ٱلتَّشَابُهُ اَنْ تَكُونَ ٱلْأَلْفَاظُ غَيْرَ مُتَبَايِنَةٍ بَلْ مُتَقَارِبَةً فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلرِّقَّةِ وَٱلْمَتَانَةِ وَٱلسَّلَاسَةِ وَتَكُونُ ٱلْمَعَانِي مُنَاسِبَةً لِأَلْفَاظِهَا مِنْ غَيْرِ اَنْ يُكْسَى ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ ٱلْمَعْنَى ٱلسَّخِيفَ اَوْ عَلَى ٱلضِّدِّ بَلْ يُصَاغَانِ مَعًا صِيَاغَةً تَنَاسُبٍ وَتَلَاؤُمٍ حَتَّى لَا يَكُونَ ٱلْكَلَامُ كَمَا قِيلَ:

وَبَعْضُ قَرِيضِ ٱلْمَرْءِ اَوْلَادُ عِلَّةٍ يَكُدُّ لِسَانَ ٱلنَّاطِقِ ٱلْمُتَحَفِّظِ

البحث الرابع

في اقسام السجع وضروبه

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٧٣ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ ٱلسَّجْعَ قَدْ يَنْقَسِمُ اِلَى ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ: ٱلْاَوَّلُ اَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلَانِ مُتَسَاوِيَيْنِ لَا يَزِيدُ اَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ كَقَوْلِهِ:

وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . فَٱلْمُورِيَاتِ قَدْحًا . فَٱلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا . فَوَسَطْنَا بِهِ جَمْعًا . اَلَا تَرَى كَيْفَ جَاءَتْ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ مُتَسَاوِيَةَ ٱلْأَجْزَاءِ حَتَّى كَأَنَّهَا أُفْرِغَتْ فِي قَالَبٍ وَاحِدٍ . وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ وَهُوَ أَشْرَفُ ٱلسَّجْعِ مَنْزِلَةً لِلِٱعْتِدَالِ ٱلَّذِي فِيهِ

ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي اَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي اَطْوَلَ مِنَ ٱلْاَوَّلِ لَا طُولًا يَخْرُجُ بِهِ عَنِ ٱلِاعْتِدَالِ خُرُوجًا كَثِيرًا فَاِنَّهُ يَقْبُحُ عِنْدَ ذٰلِكَ وَيُسْتَكْرَهُ وَيُعَدُّ عَيْبًا . فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : بَلْ كَذَّبُوا بِٱلسَّاعَةِ وَاَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا . اِذَا رَاَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَاِذَا اُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . اَلَا تَرَى اَنَّ ٱلْفَصْلَ ٱلْاَوَّلَ ثَمَانِي لَفَظَاتٍ وَٱلْفَصْلَ ٱلثَّانِيَ وَٱلثَّالِثَ تِسْعٌ تِسْعٌ . وَيُسْتَثْنَى مِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ مَا كَانَ مِنَ ٱلسَّجْعِ عَلَى ثَلَاثِ فِقَرٍ فَاِنَّ ٱلْفِقْرَتَيْنِ ٱلْاُولَيَيْنِ تُحْسَبَانِ فِي عِدَّةٍ وَاحِدَةٍ . ثُمَّ تَأْتِي ٱلثَّالِثَةُ فَيَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ طَوِيلَةً طُولًا يَزِيدُ عَلَيْهَا فَاِذَا كَانَتِ ٱلْاُولَى وَٱلثَّانِيَةُ اَرْبَعَ لَفَظَاتٍ تَكُونُ ٱلثَّالِثَةُ عَشَرَ لَفَظَاتٍ اَوْ اِحْدَى عَشْرَةَ . اِلَّا اَنَّهُ لَا يَنْبَغِي اَنْ تَجْعَلَ ذٰلِكَ قِيَاسًا مُطَّرِدًا فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ اَيْنَ وَقَعَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَلْ تَعْلَمُ اَنَّ ٱلْجَوَازَ يَعُمُّ ٱلْجَانِبَيْنِ مِنَ ٱلتَّسَاوِي فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ وَمِنْ زِيَادَةِ ٱلسَّجْعَةِ ٱلثَّالِثَةِ . اَلَا تَرَى اَنَّهُ قَدْ وَرَدَ ثَلَاثُ سَجَعَاتٍ مُتَسَاوِيَاتٍ كَقَوْلِهِ : وَاَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . مَا اَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . فَهٰذِهِ ٱلسَّجَعَاتُ كُلُّهَا مِنْ لَفْظَتَيْنِ لَفْظَتَيْنِ وَلَوْ جُعِلَتِ

الثالثة منها خمس لفظات او ستا لما كان ذلك معيبا

القسم الثالث ان يكون الفصل الآخر اقصر من الاول وهو عندي عيب فاحش . وسبب ذلك : ان السجع يكون قد استوفى امده من الفصل الاول بحكم طوله . ثم يجيء الفصل الثاني قصيرا عن الاول فيكون كالشيء المبتور فيبقى الانسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء الى غاية فيعثر دونها

واذا انتهينا الى ههنا وبينا اقسام السجع ولبه وقشوره فسنقول فيه قولا كليا وهو ان السجع على اختلاف اقسامه ضربان : احدهما يسمى السجع القصير وهو ان تكون كل واحدة من السجعتين مؤلفة من الفاظ قليلة وكلما قلت الالفاظ كان احسن لقرب الفواصل المسجوعة من مسمع السامع . وهذا الضرب اوعر السجع مذهبا وابعده متناولا ولا يكاد استعماله يقع الا نادرا . والضرب الآخر يسمى السجع الطويل وهو ضد الاول لانه اسهل متناولا . وانما كان القصير من السجع اوعر مسلكا من الطويل لان المعنى اذا صيغ بالفاظ قصيرة عز موأتاة السجع فيه لقصر تلك الالفاظ وضيق المجال في استجلابه . واما الطويل فان الالفاظ تطول فيه ويستجلب له السجع من حيث ليس كما يقال وكان ذلك سهلا . وكل واحد من هذين الضربين تتفاوت درجاته في عدة الالفاظ . اما السجع القصير فاحسنه ما كان مؤلفا من لفظتين لفظتين كقوله : والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . وقوله : يا ايها المدثر . قم

فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مُؤَلَّفًا مِنْ ثَلَاثَةِ أَلْفَاظٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسَةٍ وَكَذٰلِكَ ٱلْعَشَرَةُ . وَمَا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ فَهُوَ مِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا : سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ . وَأَمَّا ٱلسَّجْعُ ٱلطَّوِيلُ فَإِنَّ دَرَجَاتِهِ تَتَفَاوَتُ فِي ٱلطُّولِ أَيْضًا فَمِنْهُ مَا يَقْرُبُ مِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلْقَصِيرِ . وَهُوَ أَنْ يَكُونَ تَأْلِيفُهُ مِنْ إِحْدَى عَشْرَةَ إِلَى ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَأَكْثَرُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَفْظَةً كَقَوْلِهِ : وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . فَٱلْأُولَى إِحْدَى عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَٱلثَّانِيَةُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَمِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ مَا يَكُونُ تَأْلِيفُهُ مِنَ ٱلْعِشْرِينَ لَفْظَةً فَمَا حَوْلَهَا كَقَوْلِهِ : إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللّٰهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلٰكِنَّ ٱللّٰهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللّٰهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ . وَمِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ أَيْضًا مَا يَزِيدُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْعِدَّةِ ٱلْمَذْكُورَةِ وَهُوَ غَيْرُ مَضْبُوطٍ

البحث الخامس

في الايجاز

(عن المثل السائر وكتاب الصناعتين وغيرهما)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلْايجَازُ حَذْفُ زِيَادَاتِ اَلْاَلْفَاظِ وَهٰذَا نَوْعٌ مِنَ اَلْكَلَامِ شَرِيفٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ اِلَّا فُرْسَانُ اَلْبَلَاغَةِ مَنْ سَبَقَ اِلَى غَايَتِهَا وَمَا صَلَّى . وَضَرَبَ فِي اَعْلَى دَرَجَاتِهَا بِاَلْقِدْحِ اَلْمُعَلَّى . وَذٰلِكَ لِعُلُوِّ مَكَانِهِ . وَتَعَذُّرِ اِمْكَانِهِ وَاَلنَّظَرُ فِيهِ اِنَّمَا هُوَ اِلَى اَلْمَعَانِي لَا اِلَى اَلْاَلْفَاظِ . وَلَسْتُ اَعْنِي بِذٰلِكَ اَنْ تُهْمِلَ اَلْاَلْفَاظَ بِحَيْثُ تَعْرَى عَنْ اَوْصَافِهَا اَلْحَسَنَةِ بَلْ اَعْنِي اَنَّ مَدَارَ اَلنَّظَرِ فِي هٰذَا اَلنَّوْعِ اِنَّمَا يَخْتَصُّ بِاَلْمَعَانِي . فَرُبَّ لَفْظٍ قَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى كَثِيرٍ . وَرُبَّ لَفْظٍ كَثِيرٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى قَلِيلٍ . وَمِثَالُ هٰذَا كَاَلْجَوْهَرَةِ اَلْوَاحِدَةِ بِاَلنِّسْبَةِ اِلَى اَلدَّرَاهِمِ . فَمَنْ يَنْظُرُ اِلَى طُولِ اَلْاَلْفَاظِ يُؤْثِرُ اَلدَّرَاهِمَ لِكَثْرَتِهَا . وَمَنْ يَنْظُرُ اِلَى شَرَفِ اَلْمَعَانِي يُؤْثِرُ اَلْجَوْهَرَةَ اَلْوَاحِدَةَ لِنَفَاسَتِهَا . قَالَ اَصْحَابُ اَلْايجَازِ : اَلْايجَازُ قُصُورُ اَلْبَلَاغَةِ عَلَى اَلْحَقِيقَةِ وَمَا تَجَاوَزَ مِقْدَارَ اَلْحَاجَةِ فَهُوَ فَضْلٌ دَاخِلٌ فِي بَابِ اَلْهَذَرِ وَاَلْخَطَلِ وَهُمَا مِنْ اَعْظَمِ اَدْوَاءِ اَلْكَلَامِ وَفِيهِمَا دَلَالَةٌ عَلَى بَلَادَةِ صَاحِبِ اَلصِّنَاعَةِ . وَفِي تَفْضِيلِ اَلْايجَازِ يَقُولُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى لِكُتَّابِهِ : اِنْ قَدَرْتُمْ اَنْ تَجْعَلُوا كُتُبَكُمْ تَوْقِيعَاتٍ فَاَفْعَلُوا . وَقَالَ

بَعْضُهُمْ : اَلزِّيَادَةُ فِي اَلْحَدِّ نُقْصَانٌ . وَقَالَ مُحَمَّدٌ اَلْاَمِينُ : عَلَيْكُمْ بِالْاِيجَازِ فَاِنَّ لَهُ اِفْهَامًا وَلِلْاِطَالَةِ اَسْتِبْهَامًا . وَقَالَ شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ : اَلْقَلِيلُ اَلْكَافِ . خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ غَيْرِ شَافٍ . وَقَالَ آخَرُ : اِذَا طَالَ اَلْكَلَامُ عَرَضَتْ لَهُ اَسْبَابُ اَلتَّكَلُّفِ وَلَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ يَأْتِي بِهِ اَلتَّكَلُّفُ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَا اَلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : اَلْاِيجَازُ . قِيلَ : وَمَا اَلْاِيجَازُ . قَالَ : حَذْفُ اَلْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ اَلْبَعِيدِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : لِمَ لَا تُطِيلُ اَلشِّعْرَ . فَقَالَ : حَسْبُكَ مِنَ اَلْقِلَادَةِ مَا اَحَاطَ بِالْعُنُقِ . وَقِيلَ ذٰلِكَ لِآخَرَ . فَقَالَ : لَسْتُ اَبِيعُهُ مُذَارَعَةً . وَقِيلَ لِلْفَرَزْدَقِ : مَا صَيَّرَكَ اِلَى اَلْقِصَارِ بَعْدَ اَلطِّوَالِ . قَالَ : لِاَنِّي رَاَيْتُهَا فِي اَلصُّدُورِ اَوْقَعَ وَفِي اَلْمَحَافِلِ اَجْوَلَ . وَقَالَتْ بِنْتُ اَلْحُطَيْئَةِ لِاَبِيهَا : مَا بَالُ قِصَارِكَ اَكْثَرُ مِنْ طِوَالِكَ . قَالَ : لِاَنَّهَا بِالْآذَانِ اَوْلَجُ وَبِالْاَفْوَاهِ اَعْلَقُ . وَقَالَ اَبُو سُفْيَانَ لِاَبْنِ اَلزَّبَعْرِيِّ : قَصَّرْتَ فِي شِعْرِكَ . قَالَ : حَسْبُكَ مِنَ اَلشِّعْرِ غُرَّةٌ لَائِحَةٌ وَسِمَةٌ وَاضِحَةٌ . وَقِيلَ لِلنَّابِغَةِ اَلذُّبْيَانِيِّ : اَلَا تُطِيلُ اَلْقَصَائِدَ كَمَا اَطَالَ صَاحِبُكَ اَبْنُ حُجْرٍ . قَالَ : مَنِ اَنْتَخَلَ اَنْتَقَرَ . وَقِيلَ لِبَعْضِ اَلْمُحْدَثِينَ : مَالَكَ لَا تَزِيدُ عَلَى اَرْبَعَةٍ وَاَثْنَيْنِ . قَالَ : هِيَ بِالْقُلُوبِ اَوْقَعُ وَاِلَى اَلْحِفْظِ اَسْرَعُ وَبِالْاَلْسُنِ اَعْلَقُ وَلِلْمَعَانِي اَجْمَعُ وَصَاحِبُهَا اَبْلَغُ وَاَوْجَزُ . وَقِيلَ لِاَبْنِ حَازِمٍ : اَلَا تُطِيلُ اَلْقَصَائِدَ . فَقَالَ :

اَبَى لِي اَنْ اُطِيلَ اَلشِّعْرَ قَصْدِي ... اِلَى اَلْمَعْنَى وَعِلْمِي بِالصَّوَابِ
وَاِيجَازِي بِمُخْتَصَرٍ قَرِيبٍ ... حَذَفْتُ بِهِ اَلْفُضُولَ مِنَ اَلْجَوَابِ

فَابْعَثْهُنَّ اَرْبَعَةً وَسِتًّا مُثَقَّفَةً بِاَلْفَاظٍ عِذَابِ
وَهُنَّ اِذَا وَسَمْتُ بِهِنَّ قَوْمًا كَاَطْوَاقِ اَلْحَمَائِمِ فِي اَلرِّقَابِ

وَقَالَ عَلِيٌّ : مَا رَاَيْتُ بَلِيغًا قَطُّ اِلَّا وَلَهُ فِي اَلْقَوْلِ اِيجَازٌ وَفِي اَلْمَعَانِي اِطَالَةٌ . وَقِيلَ لِاِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ : مَا فِيكَ عَيْبٌ غَيْرَ اَنَّكَ كَثِيرُ اَلْكَلَامِ . قَالَ : اَفَتَسْمَعُونَ صَوَابًا اَمْ خَطَاً . قَالُوا بَلْ صَوَابًا . قَالَ : فَالزِّيَادَةُ مِنَ اَلْخَيْرِ خَيْرٌ . وَلَيْسَ كَمَا قَالَ لِاَنَّ لِلْكَلَامِ غَايَةً وَلِنَشَاطِ اَلسَّامِعِينَ نِهَايَةً . وَمَا فَضَلَ عَنْ مِقْدَارِ اَلْاِحْتِمَالِ وَدَعَا اِلَى اَلْاِسْتِثْقَالِ وَصَارَ سَبَبًا لِلْمَلَالِ فَذٰلِكَ اَلْهَذَرُ وَالْاِسْهَابُ وَالْخَطَلُ وَهُوَ مَعِيبٌ عِنْدَ كُلِّ لَبِيبٍ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : اَلْبَلَاغَةُ بِالْاِيجَازِ اَجْمَعُ مِنَ اَلْبَيَانِ بِالْاِطْنَابِ . وَقَالُوا : اَلْمِكْثَارُ كَحَاطِبِ اَللَّيْلِ . وَمَثَلُ اَلْاِيجَازِ اَلْحَسَنِ كَقَوْلِهِ : وَخُذِ اَلْعَفْوَ وَاْمُرْ بِالْعُرْفِ وَاَعْرِضْ عَنِ اَلْجَاهِلِينَ . فَجَمَعَ جَمِيعَ مَكَارِمِ اَلْاَخْلَاقِ بِاَسْرِهَا . لِاَنَّ فِي اَلْعَفْوِ صِلَةَ اَلْقَاطِعِينَ وَالصَّفْحَ عَنِ اَلظَّالِمِينَ وَاِعْطَاءَ اَلْمَانِعِينَ . وَفِي اَلْاَمْرِ بِالْعُرْفِ تَقْوَى اَللّٰهِ وَصِلَةَ اَلرَّحِيمِ وَصَوْنَ اَللِّسَانِ عَنِ اَلْكَذِبِ وَغَضَّ اَلطَّرْفِ عَنِ اَلْحُرُمَاتِ وَالتَّبَرُّؤَ مِنْ كُلِّ قَبِيحٍ لِاَنَّهُ لَا يَجُوزُ اَنْ يَاْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَهُوَ يُلَابِسُ شَيْئًا مِنَ اَلْمُنْكَرِ . وَفِي اَلْاِعْرَاضِ عَنِ اَلْجَاهِلِينَ اَلصَّبْرُ وَالْحِلْمُ وَتَنْزِيهُ اَلنَّفْسِ عَنْ مُقَابَلَةِ اَلسَّفِيهِ مِمَّا يُوتِغُ اَلدِّينَ وَيُسْقِطُ اَلْقُدْرَةَ . وَقَوْلُهُ : حُبُّكَ اَلشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ . وَقَوْلُهُ اِنَّ مِنَ اَلْبَيَانِ لَسِحْرًا . وَقَوْلُهُ : نِيَّةُ اَلْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ . وَقَوْلُهُ : تَرْكُ اَلشَّرِّ صَدَقَةٌ . فَمَعَانِي هٰذَا اَلْكَلَامِ اَكْثَرُ مِنْ اَلْفَاظِهِ . وَاِذَا اَرَدْتَ اَنْ تَعْرِفَ صِحَّةَ ذٰلِكَ

فَحُلَّهَا وَٱبْنِهَا بِنَاءً آخَرَ فَإِنَّكَ تَجِدُهَا تَجِيءُ فِي أَضْعَافِ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ .
وَقَوْلُهُ : إِذَا أَعْطَاكَ ٱللهُ خَيْرًا فَلْيَبِنْ عَلَيْكَ وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ مِنَ ٱلْفَضْلِ وَلَا تَلُمَّ عَلَى ٱلْكَفَافِ وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ . فَقَوْلُهُ : (فَلْيَبِنْ عَلَيْكَ) أَيْ فَلْيَظْهَرْ أَثَرُهُ عَلَيْكَ بِٱلصَّدَقَةِ وَٱلْمَعْرُوفِ وَدَلَّ عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : (وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ مِنَ ٱلْفَضْلِ) أَيْ أَكْسِرْ مِنْ مَالِكَ وَأَعْطِهِ) وَٱسْمُ ٱلشَّيْءِ ٱلرَّضِيخَةُ (وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ) أَيْ لَا تَجْمَعْ لِغَيْرِكَ وَتَبْخَلْ عَنْ نَفْسِكَ فَلَا تُقَدِّمْ خَيْرًا .
وَقَوْلُ أَعْرَابِيٍّ : أُولٰئِكَ قَوْمٌ جَعَلُوا أَمْوَالَهُمْ مَنَادِيلَ لِأَعْرَاضِهِمْ فَٱلْخَيْرُ بِهِمْ زَائِدٌ وَٱلْمَعْرُوفُ لَهُمْ شَاهِدٌ . أَيْ يَقُونَ أَعْرَاضَهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ .
وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ يَسُوقُ مَالًا كَثِيرًا : لِمَنْ هٰذَا ٱلْمَالُ . فَقَالَ : لِلهِ فِي يَدِي . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ يَمْدَحُهُ : إِنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ ٱللهَ مَادَّتُهُ . وَقَوْلُ آخَرَ : أَمَا بَعْدُ فَعِظِ ٱلنَّاسَ بِفِعْلِكَ وَلَا تَعِظْهُمْ بِقَوْلِكَ وَٱسْتَحْيِ مِنَ ٱللهِ بِقَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ . وَخَفْهُ بِقَدْرِ قُدْرَتِهِ عَلَيْكَ .
وَقَالَ آخَرُ : إِنْ شَكَكْتَ فِيَّ فَٱسْأَلْ قَلْبَكَ عَنِّي

وَٱعْلَمْ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ مُدَّعِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : فَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلْإِيجَازُ كَٱلْأَشْعَارِ وَٱلْمُكَاتَبَاتِ . وَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلتَّطْوِيلُ كَٱلْخُطَبِ وَٱلتَّقْلِيدَاتِ وَكُتُبِ ٱلْفُتُوحِ ٱلَّتِي تُقْرَأُ فِي مَلَإٍ مِنْ عَوَامِّ ٱلنَّاسِ . فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا طَالَ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ أَثَّرَ عِنْدَهُمْ وَأَفْهَمَهُمْ وَلَوِ ٱقْتُصِرَ فِيهِ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَٱلْإِشَارَةِ لَمْ يَقَعْ لِأَكْثَرِهِمْ حَتَّى يُقَالَ فِي ذِكْرِ ٱلْحَرْبِ : ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَتَطَاعَنَ

ٱلْفَرِيقَانِ وَٱشْتَدَّ ٱلْقِتَالُ وَحَمِيَ ٱلنِّضَالُ وَمَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى. وَٱلْمَذْهَبُ عِنْدِي فِي ذٰلِكَ مَا أَذْكُرُهُ : وَهُوَ أَنَّ فَهْمَ ٱلْعَامَّةِ لَيْسَ شَرْطًا مُعْتَبَرًا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْكَلَامِ. لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ شَرْطًا لَوَجَبَ عَلَى قِيَاسِهِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْعَامِّيَّةَ ٱلْمُبْتَذَلَةَ عِنْدَهُمْ لِيَكُونَ ذٰلِكَ أَقْرَبَ إِلَى فَهْمِهِمْ. لِأَنَّ ٱلْعِلَّةَ فِي ٱخْتِيَارِ تَطْوِيلِ ٱلْكَلَامِ إِذَا كَانَتْ فَهْمُ ٱلْعَامَّةِ إِيَّاهُ فَكَذٰلِكَ تَجْعَلُ تِلْكَ ٱلْعِلَّةَ بِعَيْنِهَا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْمُبْتَذَلِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَإِنَّهُ لَا خِلَافَ فِي أَنَّ ٱلْعَامَّةَ إِلَى فَهْمِهِ أَقْرَبُ مِنْ فَهْمِ مَا يَقِلُّ ٱبْتِذَالُهُمْ إِيَّاهُ . وَهٰذَا شَيْءٌ مَدْفُوعٌ وَأَمَّا ٱلَّذِي يَجِبُ تَوَخِّيهِ وَٱعْتِمَادُهُ فَهُوَ أَنْ يَسْلُكَ ٱلْمَذْهَبَ ٱلْقَوِيمَ فِي تَرْكِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى ٱلْمَعَانِي بِحَيْثُ لَا تَزِيدُ هٰذِهِ عَلَى هٰذِهِ مَعَ ٱلْإِيضَاحِ وَٱلْإِبَانَةِ وَلَيْسَ عَلَى مُسْتَعْمِلِ ذٰلِكَ أَنْ يَفْهَمَ ٱلْعَامَّةُ كَلَامَهُ فَإِنَّ نُورَ ٱلشَّمْسِ إِذَا لَمْ يَرَهُ ٱلْأَعْمَى لَا يَكُونُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي ٱسْتِنَارَتِهِ وَإِنَّمَا ٱلنَّقْصُ فِي بَصَرِ ٱلْأَعْمَى حَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلنَّظَرَ إِلَيْهِ :

عَلَيَّ نَحْتُ ٱلْقَوَافِي مِنْ مَعَادِنِهَا وَمَا عَلَيَّ بِأَنْ لَا تَفْهَمَ ٱلْبَقَرُ

وَحَيْثُ ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْقَوْلُ إِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَلْنَرْجِعْ إِلَى مَا هُوَ غَرَضُنَا وَمُهِمُّنَا مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَحَدِّهِ وَأَقْسَامِهِ وَنُوَضِّحْ ذٰلِكَ إِيضَاحًا جَلِيًّا وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ فَنَقُولُ : حَدُّ ٱلْإِيجَازِ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَٱلتَّطْوِيلُ هُوَ ضِدُّ ذٰلِكَ وَهُوَ أَنْ يُدَلَّ عَلَى ٱلْمَعْنَى بِلَفْظٍ يَكْفِيكَ بَعْضُهُ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ. كَقَوْلِ ٱلْعُجَيْرِ ٱلسَّلُولِيِّ مِنْ أَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا وَسَابِقٌ إِلَى غَايَةٍ مَنْ يَبْتَدِرْهَا يُقَدَّمِ

فَصَدْرُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِيهِ تَطْوِيلٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَعَجْزُهُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَوَاصَفَةِ . وَمَوْضِعُ ٱلتَّطْوِيلِ مِنْ صَدْرِهِ أَنَّهُ قَالَ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا) فَإِنَّ لَفْظَةَ ٱلْمَطَايَا فَضْلَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْلُو ٱلْأَمْرُ فِيهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُ سَابِقُ ٱلْهِمَّةِ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ كَمَا قَالَ ٱلْحَجَّاجُ عَلَى ٱلْمِنْبَرِ عِنْدَ وُصُولِهِ ٱلْعِرَاقَ : أَنَا ٱبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ ٱلثَّنَايَا . أَيْ أَنَا الرَّجُلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلسَّابِقُ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ . فَإِنْ أَرَادَ ٱلْمُخْبِرُ بِقَوْلِهِ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا) مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فَذِكْرُ ٱلْمَطَايَا يُفْسِدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَعَالِيَ ٱلْأُمُورِ لَا يُرْقَى إِلَيْهَا بِٱلْمَطَايَا . وَإِنْ أَرَادَ ٱلْوَجْهَ ٱلْآخَرَ وَهُوَ أَنَّهُ كَثِيرُ ٱلْأَسْفَارِ فَٱخْتِصَاصُهُ ٱلثَّنَايَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَغَيْرِهَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَعَلَى كِلَا ٱلْوَجْهَيْنِ فَإِنَّ ذِكْرَ ٱلْمَطَايَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَهُوَ تَطْوِيلٌ بَارِدٌ غَثٌّ . فَقِسْ عَلَى هٰذَا ٱلْمِثَالِ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ ٱلتَّطْوِيلَاتِ ٱلَّتِي إِذَا أُسْقِطَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ فِي أَلْفَاظٍ يُوصَلُ بِهَا ٱلْكَلَامُ فَتَارَةً تَجِيءُ لِفَائِدَةٍ وَذٰلِكَ قَلِيلٌ وَتَارَةً تَجِيءُ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ . وَأَكْثَرُ مَا تَرِدُ فِي ٱلْأَشْعَارِ لِيُوزَنَ بِهَا ٱلْأَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِمْ : لَعَمْرِي وَلَعَمْرُكَ وَنَحْوُ : أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَظَلَّ وَأَضْحَى وَبَاتَ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ . وَنَحْوُ : يَاصَاحِبِي وَيَاخَلِيلِي وَمَا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

اَقَرُّوا لَعَمْرِي لِحُكْمِ ٱلسُّيُوفِ وَكَانَتْ اَحَقَّ بِفَصْلِ ٱلْقَضَاءِ

فَاِنْ قَوْلُهُ : (لَعَمْرِي) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ لِلْمَعْنَى اِلَيْهَا وَهِيَ حَشْوٌ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ لَا فَائِدَةَ فِيهِ اِلَّا اِصْلَاحُ ٱلْوَزْنِ لَا غَيْرُ . اَلَا تُرَى اَنَّهَا مِنْ بَابِ ٱلْقَسَمِ وَاِنَّمَا يَرِدُ ٱلْقَسَمُ فِي مَوْضِعٍ يُؤَكَّدُ بِهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادُ اِمَّا لِاَنَّهُ يُشَكُّ فِيهِ اَوْ مِمَّا يَعِزُّ وُجُودُهُ اَوْ مَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلشِّعْرِيُّ لَا يَفْتَقِرُ مَعْنَاهُ اِلَى تَوْكِيدٍ قَسَمِيٍّ اِذْ لَا شَكَّ اَنَّ ٱلسُّيُوفَ حَاكِمَةٌ وَاَنَّ كُلَّ اَحَدٍ يُقِرُّ لِحُكْمِهَا وَيُذْعِنُ لِطَاعَتِهَا. وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ اَيْضًا :

اِذَا اَنَا لَمْ اَلْمُ عَثَرَاتِ دَهْرٍ بُلِيتُ بِهِ ٱلْعُدَاةَ فَمَنْ اَلُومُ

فَقَوْلُهُ : (ٱلْعُدَاةَ) زِيَادَةٌ لَا حَاجَةَ لِلْمَعْنَى اِلَيْهَا لِاَنَّهُ يَتِمُّ بِدُونِهَا لِاَنَّ عَثَرَاتِ ٱلدَّهْرِ لَمْ تَنَلْهُ ٱلْعُدَاةَ وَلَا ٱلْعَشِيُّ وَاِنَّمَا نَالَتْهُ وَنَيْلُهَا اِيَّاهُ لَا بُدَّ اَنْ يَقَعَ فِي زَمَنٍ مِنَ ٱلْاَزْمِنَةِ كَائِنًا مَا كَانَ وَلَا حَاجَةَ اِلَى تَعْيِينِهِ بِٱلذِّكْرِ . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

مَا اَحْسَنَ ٱلْاَيَّامَ اِلَّا اَنَّهَا يَا صَاحِبَيَّ اِذَا مَضَتْ لَمْ تُرْجَعِ

فَقَوْلُهُ : (يَا صَاحِبَيَّ) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ بِٱلْمَعْنَى اِلَيْهَا اِلَّا اَنَّهَا وَرَدَتْ لِتَصْحِيحِ ٱلْوَزْنِ لَا غَيْرَ . وَهٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظُ ٱلَّتِي تَرِدُ فِي ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ لِتَصْحِيحِ ٱلْوَزْنِ لَاعَيْبَ فِيهَا . لِاَنَّا لَوْ عِبْنَاهَا عَلَى ٱلشُّعَرَاءِ لَتَحَجَّرْنَا عَلَيْهِمْ وَضَيَّقْنَا ٱلْوَزْنَ وَيُضْطَرُّ فِي بَعْضِ ٱلْاَحْوَالِ اِلَى مِثْلِ ذٰلِكَ لٰكِنْ اِذَا وَرَدَتْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ فَاِنَّهَا اِنْ وَرَدَتْ حَشْوًا وَلَمْ تَرِدْ لِفَائِدَةٍ كَانَتْ عَيْبًا . وَقَدْ تَرِدُ فِي ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَيَكُونُ

وُرُودُهَا لِفَائِدَةٍ . . . فَاعْلَمْ أَيُّهَا النَّاظِرُ فِي كِتَابِي هٰذَا أَنَّ التَّطْوِيلَ هُوَ زِيَادَاتُ الْأَلْفَاظِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعَانِي وَمَهْمَا أَمْكَنَكَ حَذْفُ شَيْءٍ مِنَ اللَّفْظِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنًى مِنَ الْمَعَانِي فَإِنَّ ذٰلِكَ اللَّفْظَ هُوَ التَّطْوِيلُ بِعَيْنِهِ . وَأَمَّا الْإِيجَازُ فَقَدْ عَرَّفْتُكَ أَنَّهُ دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ وَهُوَ مَا يُحْذَفُ مِنْهُ الْمُفْرَدُ وَالْجُمْلَةُ لِدَلَالَةِ فَحْوَى الْكَلَامِ عَلَى الْمَحْذُوفِ وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِيمَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ . (وَالْقِسْمُ الْآخَرُ) مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ ضَرْبَانِ : (أَحَدُهُمَا) مَا سَاوَى لَفْظُهُ مَعْنَاهُ وَيُسَمَّى التَّقْدِيرَ . (وَالْآخَرُ) مَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ وَيُسَمَّى الْقَصْرَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ الَّذِي هُوَ الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ يُتَنَبَّهُ لَهُ مِنْ غَيْرِ كَبِيرِ كُلْفَةٍ فِي اسْتِخْرَاجِهِ لِمَكَانِ الْمَحْذُوفِ مِنْهُ . وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي فَإِنَّ التَّنَبُّهَ لَهُ عَسِرٌ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى فَضْلِ تَأَمُّلٍ وَطُولِ فِكْرَةٍ لِخَفَاءِ مَا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ وَلَا يَسْتَنْبِطُ ذٰلِكَ إِلَّا مَنْ رَسَتْ قَدَمُهُ فِي مُمَارَسَةِ عِلْمِ الْبَيَانِ وَصَارَ لَهُ خَلِيقَةً وَمَلَكَةً . وَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا عَلَّمَ هٰذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ بِعَلَامَةٍ وَلَا قَيَّدَهُمَا بِقَيْدٍ . . . فَنَقُولُ أَمَّا الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ فَإِنَّهُ عَجِيبُ الْأَمْرِ شَبِيهٌ بِالسِّحْرِ وَذَاكَ أَنَّكَ تَرَى فِيهِ تَرْكَ الذِّكْرِ أَفْصَحَ مِنَ الذِّكْرِ وَالصَّمْتَ عَنِ الْإِفَادَةِ أَزْيَدَ لِلْإِفَادَةِ وَتَجِدُكَ أَنْطَقَ مَا تَكُونُ إِذَا لَمْ تَنْطِقْ وَأَتَمَّ مَا تَكُونُ مُبِينًا إِذَا لَمْ تُبِنْ وَهٰذِهِ جُمْلَةٌ تُنْكِرُهَا حَتَّى تُخْبَرَ وَتَدْفَعُهَا حَتَّى تَنْظُرَ . وَالْأَصْلُ فِي الْمَحْذُوفَاتِ جَمِيعِهَا عَلَى اخْتِلَافِ ضُرُوبِهَا

اَنْ يَكُونَ فِي ٱلْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ فَاِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ فَاِنَّهُ لَغْوٌ مِنَ ٱلْحَدِيثِ لَا يَجُوزُ بِوَجْهٍ وَلَا سَبَبٍ . وَمِنْ شَرْطِ ٱلْمَحْذُوفِ فِي حُكْمِ ٱلْبَلَاغَةِ اَنَّهُ مَتَى اُظْهِرَ صَارَ ٱلْكَلَامُ اِلَى شَيْءٍ غَثٍّ لَا يُنَاسِبُ مَا كَانَ عَلَيْهِ اَوَّلًا مِنَ ٱلطُّلَاوَةِ وَٱلْحُسْنِ وَقَدْ يَظْهَرُ ٱلْمَحْذُوفُ بِٱلْاِعْرَابِ كَقَوْلِنَا : اَهْلًا وَسَهْلًا . فَاِنَّ نَصْبَ ٱلْاَهْلِ وَٱلسَّهْلِ يَدُلُّ عَلَى نَاصِبٍ مَحْذُوفٍ وَلَيْسَ لِهٰذَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لِلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِٱلْاِعْرَابِ وَاِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلنَّظَرِ اِلَى تَمَامِ ٱلْمَعْنَى كَقَوْلِنَا : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعْقِدُ فَاِنَّ ذٰلِكَ لَا يَظْهَرُ ٱلْمَحْذُوفُ بِهِ بِٱلْاِعْرَابِ وَاِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلنَّظَرِ اِلَى تَمَامِ ٱلْمَعْنَى اَيْ اِنَّهُ يَحُلُّ ٱلْاُمُورَ وَيَعْقِدُهَا . وَٱلَّذِي يَظْهَرُ فِي ٱلْاِعْرَابِ يَقَعُ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرًا وَٱلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِٱلْاِعْرَابِ يَقَعُ فِي ٱلْجُمَلِ مِنَ ٱلْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرٌ

البحث السادس

في المساواة

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلْمُسَاوَاةُ هِيَ اَنْ تَكُونَ ٱلْمَعَانِي بِقَدْرِ ٱلْاَلْفَاظِ وَٱلْاَلْفَاظُ بِقَدْرِ ٱلْمَعَانِي لَا يَزِيدُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَهُوَ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْمُتَوَسِّطُ بَيْنَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَاِلَيْهِ اَشَارَ ٱلْقَائِلُ بِقَوْلِهِ : كَاَنَّ اَلْفَاظَهُ قَوَالِبُ لِمَعَانِيهِ

اي لا يزيد بعضها على بعض . فمما جاء من ذلك قوله : لا تزال امتي بخير ما لم تر الامانة مغنما والزكاة مغرما . وقوله : اياك والمشاورة فانها تميت الغرة وتحيي العزة . ومن الفاظ هذه الفصول ما كانت معانيه اكثر من الفاظه وانما يكره تمييزها كراهة الاطالة . ومن نثر الكتاب قول بعضهم : سألت عن خيري وانا في عافية لا عيب فيها الا فقدك ونعمة لا مزيد فيها الا بك . وقوله : علمتني نبوتك سلوتك واسلمني يأسي منك الى الصبر عنك . وقوله : فحفظ الله النعمة عليك وفيك وتولى اصلاحك والاصلاح اليك واجزل من الخير حظك والحظ منك ومن عليك وعلينا بك . وقال آخر يئست من صلاحك بي واخاف فسادي بك وقد اطنب في ذم الحمار من شبهك به . ومن المنظوم قول طرفة :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالاخبار من لم تزود

وقول الآخر :

تهدا الامور باهل الرأي ما صلحت ... فان تأبت فبالاشرار تنقاد

وقول الآخر :

اما الذي يحصيهم فمكثر ... اما الذي يطريهم فمقلل

وقول الآخر :

اهابك اجلالا وما بك قدرة ... علي ولكن ملء عين حبيبها

وما هجرتك النفس انك عندها ... قليل ولكن قل منك نصيبها

البحث السابع

في الاطناب

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٧٦ من علم الادب)

قَالَ اَصْحَابُ ٱلْاِطْنَابِ: ٱلْمَنْطِقُ اِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ وَٱلْبَيَانُ لَا يَكُونُ اِلَّا بِاِشْبَاعٍ وَٱلشِّفَاءُ لَا يَقَعُ اِلَّا بِٱلْاِقْنَاعِ . وَاَفْضَلُ ٱلْكَلَامِ اَبْيَنُهُ وَاَبْيَنُهُ اَشَدُّهُ اِحَاطَةً بِٱلْمَعَانِي وَلَا يُحَاطُ بِٱلْمَعَانِي اِحَاطَةً تَامَّةً اِلَّا بِٱلْاِسْتِقْصَاءِ. وَٱلْاِيجَازُ لِلْخَوَاصِّ وَٱلْاِطْنَابُ مُشْتَرَكٌ فِيهِ ٱلْخَاصَّةُ وَٱلْعَامَّةُ وَٱلْعِيُّ وَٱلْفَطِنُ وَٱلرَّيِّضُ وَٱلْمُرْتَاضُ وَلِمَعْنًى مَا اُطِيلَتِ ٱلْكُتُبُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ فِي اِفْهَامِ ٱلرَّعَايَا. وَٱلْقَوْلُ ٱلْقَصْدُ اَنَّ ٱلْاِيجَازَ وَٱلْاِطْنَابَ يُحْتَاجُ اِلَيْهِمَا فِي جَمِيعِ ٱلْكَلَامِ وَكُلِّ نَوْعٍ مِنْهُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَوْضِعٌ فَٱلْحَاجَةُ اِلَى ٱلْاِيجَازِ فِي مَوْضِعِهِ كَٱلْحَاجَةِ اِلَى ٱلْاِطْنَابِ فِي مَكَانِهِ. فَمَنْ اَزَالَ ٱلتَّدْبِيرَ فِي ذٰلِكَ عَنْ وَجْهِهِ فَٱسْتَعْمَلَ ٱلْاِطْنَابَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِيجَازِ وَٱسْتَعْمَلَ ٱلْاِيجَازَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِطْنَابِ اَخْطَاَ. كَمَا رُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى اَنَّهُ قَالَ مَعَ عُجْبِهِ بِٱلْاِيجَازِ: مَتَى كَانَ ٱلْاِيجَازُ اَبْلَغَ كَانَ ٱلْاِكْثَارُ عِيًّا وَمَتَى كَانَتِ ٱلْكِتَابَةُ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِكْثَارِ كَانَ ٱلْاِيجَازُ تَقْصِيرًا . وَاَمَرَ خَالِدُ بْنُ يَحْيَى ٱثْنَيْنِ اَنْ يَكْتُبَا كِتَابًا وَاحِدًا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ فَاَطَالَ اَحَدُهُمَا وَٱخْتَصَرَ ٱلْآخَرُ. فَقَالَ لِلْمُخْتَصِرِ وَقَدْ نَظَرَ فِي كِتَابِهِ: مَا اَرَى مَوْضِعَ مَزِيدٍ . وَقَالَ لِلْمُطِيلِ: مَا

ارى موضع نقصان . وقال غيره : البلاغة الايجاز في غير عجز والاطناب في غير خطل . ولا شك في ان الكتب الصادرة عن السلاطين في الامور الجسيمة والفتوح الجليلة وتفخيم النعم الحادثة او الترغيب في الطاعة والنهي عن المعصية . سبيلها ان تكون مشبعة مستقصاة تملأ الصدور وتأخذ بمجامع القلوب . فالاطناب بلاغة والتطويل عيّ . لان التطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلا بما يقرب . والاطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد ترِه يحتوي على زيادة فائدة . وقال الخليل : يختصر الكتاب ليحفظ ويبسط ليفهم . وقيل لابي عمرو ابن العلاء هل كانت العرب تطيل . قال : نعم كانت تطيل ليسمع منها وتوجز ليحفظ عنها . والاطناب اذا لم يكن منه بدّ ايجاز وهو في المواعظ خاصة محمود كما ان الايجاز في الافهام محمود ممدوح . والموعظة كقوله : افامن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون . او امن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون افامنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون . فتكرير ما كرر من الالفاظ ها هنا في غاية حسن الموقع . وقيل لبعضهم : متى يحتاج الى الاكثار . قال : اذا عظم الخطب وانشد :

صموتٌ اذا ما الدهر زيّن اهله ... وفتّاق ابكار الكلام المحبّر

وقال آخر :

يرمون بالخطب الطوال وتارة ... وحي الملاحظ خشية الرقباء

وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

إِذَا مَا ٱنْتَدَى خَاطِبًا لَمْ يُقَلْ لَهُ أَطِلِ ٱلْقَوْلَ أَوْ قَصِّرِ
طَبِيبٌ بِدَاءِ فُنُونِ ٱلْكَلَا مِ لَمْ يَعْيَ يَوْمًا وَلَمْ يَهْذِرِ
فَإِنْ هُوَ أَطْنَبَ فِي خُطْبَةٍ قُضِيَ لِلْمُطِيلِ عَلَى ٱلْمُقْصِرِ
وَإِنْ هُوَ أَوْجَزَ فِي خُطْبَةٍ قُضِيَ لِلْمُقِلِّ عَلَى ٱلْمُكْثِرِ

وَوَجَدَ ٱلنَّاسَ إِذَا خَطَبُوا فِي ٱلصُّلْحِ بَيْنَ ٱلْعَشَائِرِ أَطَالُوا . وَإِذَا أَنْشَدُوا ٱلشِّعْرَ بَيْنَ ٱلسِّمَاطَيْنِ فِي مَدِيحِ ٱلْمُلُوكِ أَطْنَبُوا . وَٱلْإِطَالَةُ وَٱلْإِطْنَابُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ إِيجَازٌ . وَقِيلَ لِقَيْسِ بْنِ خَارِجَةَ : مَا عِنْدَكَ فِي حَمَالَاتِ دَاحِسٍ . قَالَ : عِنْدِي قِرَى كُلِّ نَازِلٍ وَرِضَى كُلِّ سَاخِطٍ وَخُطْبَةٌ مِنْ لَدُنْ مَطْلَعِ ٱلشَّمْسِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ وَأَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ . فَقِيلَ لِأَبِي يَعْقُوبَ ٱلْخُزَيْمِيِّ : هَلَّا ٱكْتَفَى بِقَوْلِهِ : آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ فَقَالَ : وَأَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ) . قَالَ : أَوَ مَا عَلِمْتَ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ وَٱلتَّعْرِيضَ لَا تَعْمَلُ عَمَلَ ٱلْإِطْنَابِ وَٱلتَّكْشِيفِ . وَقَدْ رَأَيْنَا فِي ٱلْقُرْآنِ أَنَّهُ : إِذَا خَاطَبَ ٱلْعَرَبَ وَٱلْأَعْرَابَ أَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَ ٱلْإِشَارَةِ . وَإِذَا خَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ حَكَى عَنْهُمْ جَعَلَ ٱلْكَلَامَ مَبْسُوطًا . وَقَلَّ مَا تَجِدُ قِصَّةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ٱلْقُرْآنِ إِلَّا مُطَوَّلَةً مَشْرُوحَةً وَمُكَرَّرَةً فِي مَوَاضِعَ مُعَادَةً لِبُعْدِ فَهْمِهِمْ وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِمْ . وَكَلَامُ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا هُوَ شَوْبُ ٱلْإِيجَازِ بِٱلْإِطْنَابِ . وَٱلْفَصِيحُ ٱلْعَالِي مَا دُونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقَصْدِ ٱلْمُتَوَسِّطِ لِيُسْتَدَلَّ بِٱلْقَصْدِ عَلَى ٱلْعَالِي وَلِيَخْرُجَ ٱلسَّامِعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ فَيَزْدَادَ

نَشَاطُهُ وَتَتَوَفَّرَ رَغْبَتُهُ فَيَتَصَرَّفُوا فِي وُجُوهِ ٱلْكَلَامِ إِيجَازِهِ وَإِطْنَابِهِ حَتَّى ٱسْتَعْمَلُوا ٱلتَّكْرَارَ لِتَوَكُّدِ ٱلْقَوْلِ لِلسَّامِعِ . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَفِي فَصِيحِ ٱلشِّعْرِ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . وَقَدْ جَاءَ مِثْلُ ذٰلِكَ عَنْ أَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ . قَالَ مُهَلْهِلٌ :

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلَيْبٍ

فَكَرَّرَهَا فِي أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ بَيْتًا . وَهٰكَذَا قَوْلُ ٱلْحَرْثِ ٱبْنِ عَبَّادٍ :

قَرِّبَا مَرْبَطَ ٱلنَّعَامَةِ مِنِّي

كَرَّرَهَا فِي أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ هٰذَا لَمَّا كَانَتْ ٱلْحَاجَةُ إِلَى تَكْرِيرِهَا مَاسَّةً وَٱلضَّرُورَةُ إِلَيْهِ دَاعِيَةً لِعِظَمِ ٱلْخَطْبِ وَشِدَّةِ مَوْقِعِ ٱلْفَجِيعَةِ فَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ ٱلْإِطْنَابَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَهُمْ مُسْتَحْسَنٌ . كَمَا أَنَّ ٱلْإِيجَازَ فِي مَكَانِهِ مُسْتَحَبٌّ وَلَا بُدَّ لِلْكَاتِبِ فِي أَكْثَرِ أَنْوَاعِ مُكَاتَبَاتِهِ مِنْ شُعْبَةٍ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ يَسْتَعْمِلُهَا إِذَا أَرَادَ ٱلْمُزَاوَجَةَ بَيْنَ ٱلْفَصْلَيْنِ وَلَا يُعَاقِبَ ذٰلِكَ مِنْهُ . وَذٰلِكَ مِثْلُ أَنْ يَكْتُبَ عَظُمَتْ نِعَمُنَا عَلَيْهِ وَتَظَاهَرَ إِحْسَانُنَا لَدَيْهِ فَيَكُونُ ٱلْفَصْلُ ٱلْأَخِيرُ دَاخِلًا فِي مَعْنَاهُ فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ لَا يَعِيبُهُ أَحَدٌ . وَلَمَّا أُحِيطَ بِمَرْوَانَ قَالَ خَادِمُهُ بَاسِلٌ : مَنْ أَغْفَلَ ٱلْقَلِيلَ حَتَّى يَكْثُرَ وَٱلصَّغِيرَ حَتَّى يَكْبُرَ وَٱلْخَفِيَّ حَتَّى يَظْهَرَ أَصَابَهُ مِثْلُ هٰذَا . وَهٰذَا كَلَامٌ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَإِنْ كَانَ مَعْنَى ٱلْفَصْلَيْنِ ٱلْأَخِيرَيْنِ دَاخِلًا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ .

وهٰكذا قولُ ابي تمّام حبيبِ بنِ اوسٍ :

رُبَّ خفضٍ تحتَ السُّرى وغناءٍ مِنْ عناءٍ ونضرةٍ مِنْ شحوبِ

والغناءُ داخلٌ في الخفضِ والعناءُ داخلٌ في السُّرى . وهٰذا يدلُّ على انَّ معظمَ المدارِ في البلاغةِ على تحسينِ اللفظِ لانَّ المعاني اذا دخلَ بعضُها في بعضٍ هٰذا الضربَ من الدُّخولِ وكانتِ الالفاظُ مختارةً حسُنَ الكلامُ . واذا كانتِ المعاني مرتّبةً حسنةً والمعارضُ سيّئةً كانَ الكلامُ مردودًا فاعتمِدْ على ما مثّلتُهُ لكَ وقِسْ عليهِ

البحث الثامن

في مواقع الاطناب

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرّف)

هٰذا النوعُ من الكلامِ انعمتُ نظري فيهِ وفي التكريرِ وفي التطويلِ فملكتني حيرةُ الشبهِ بينهما طويلًا . ثمَّ وجدتُهُ انَّهُ ضربٌ مفردٌ برأسِهِ لا يُشارِكُهُ فيهِ غيرُهُ . لانَّ من التأكيدِ ما يتعلّقُ بالتقديمِ والتأخيرِ كما مرَّ وهٰذا الضربُ الذي هو الاطنابُ ليسَ كذٰلكَ . ورأيتُ علماءَ البيانِ قدِ اختلفوا فيهِ فمنهم مَنْ ألحقَهُ بالتطويلِ الذي هو ضدُّ الايجازِ وهو عندهُ قسمٌ غيرُهُ فاخطأَ من حيثُ لا يدري كأبي هلالٍ العسكريِّ والغانميِّ حتّى انَّهُ قالَ : انَّ كتبَ الفتوحِ وما جرى مجراها ممّا يُقرأُ على عوامِّ الناسِ ينبغي انْ تكونَ مطوّلةً مُطنبًا فيها . وهٰذا القولُ فاسدٌ لانَّهُ انْ عنى

بِذٰلِكَ اَنَّهَا تَكُونُ ذَاتَ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ قَدِ اسْتُقْصِيَ فِيهَا شَرْحُ تِلْكَ الْحَادِثَةِ مِنْ فَتْحٍ اَوْ غَيْرِهِ فَذٰلِكَ مُسَلَّمٌ . وَاِنْ عَنَى بِذٰلِكَ اَنَّهَا تَكُونُ مُكَرَّرَةَ الْمَعَانِي مُطَوَّلَةَ الْاَلْفَاظِ قَصْدًا لِاِفْهَامِ الْعَامَّةِ فَهٰذَا غَيْرُ مُسَلَّمٍ . وَهُوَ مِمَّا لَا يَذْهَبُ اِلَيْهِ مَنْ عِنْدَهُ اَدْنَى مَعْرِفَةٍ بِعِلْمِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ . وَعَلَى هٰذَا فَيَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ الْكُتُبُ جَمِيعُهَا مِمَّا يُقْرَأُ عَلَى عَوَامِّ النَّاسِ وَخَوَاصِّهِمْ ذَاتَ اَلْفَاظٍ سَهْلَةٍ مَفْهُومَةٍ . وَكَذٰلِكَ الْاَشْعَارُ وَالْخُطَبُ وَمَنْ ذَهَبَ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ فَاِنَّهُ بِنَجْوَةٍ عَنْ هٰذَا الْفَنِّ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنَّ الْاِطْنَابَ لَا يَخْتَصُّ بِهِ عَوَامُّ النَّاسِ وَاِنَّمَا هُوَ لِخَوَاصِّ كَمَا هُوَ لِلْعَوَامِّ . وَسَاُبَيِّنُ حَقِيقَتَهُ وَاُحَقِّقُ الْقَوْلَ فِيهِ بِحَيْثُ تَزُولُ الشُّبْهَةُ الَّتِي خَبَطَ اَرْبَابُ عِلْمِ الْبَيَانِ مِنْ اَجْلِهَا وَقَالُوا اَقْوَالًا لَا تُعْرِبُ عَنْ فَائِدَةٍ . وَالَّذِي عِنْدِي فِيهِ : اَنَّهُ اِذَا رَجَعْنَا اِلَى الْاَسْمَاءِ وَاشْتِقَاقِهَا وَجَدْنَا هٰذَا الْاِسْمَ مُنَاسِبًا لِمُسَمَّاهُ وَهُوَ فِي اَصْلِ اللُّغَةِ مَاْخُوذٌ (مِنْ اَطْنَبَ فِي الشَّيْءِ) اِذَا بَالَغَ فِيهِ . وَيُقَالُ : اَطْنَبَتِ الرِّيحُ اِذَا اشْتَدَّتْ فِي هُبُوبِهَا . وَاَطْنَبَ فِي السَّيْرِ اِذَا اشْتَدَّ فِيهِ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى مُقْتَضَى مُسَمَّاهُ كَانَ مَعْنَاهُ الْمُبَالَغَةَ فِي اِيرَادِ الْمَعَانِي . وَهٰذَا لَا يَخْتَصُّ بِنَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ اَنْوَاعِ عِلْمِ الْبَيَانِ وَاِنَّمَا يُوجَدُ فِيهَا جَمِيعًا اِذْ مَا مِنْ نَوْعٍ مِنْهَا اِلَّا وَيُمْكِنُ الْمُبَالَغَةُ فِيهِ . وَاِذَا كَانَ الْاَمْرُ كَذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ يُفْرَدَ هٰذَا النَّوْعُ مِنْ بَيْنِهَا وَلَا يُتَحَقَّقُ اِفْرَادُهُ اِلَّا بِذِكْرِ حَدِّهِ الدَّالِّ عَلَى حَقِيقَتِهِ . وَالَّذِي يُحَدُّ بِهِ اَنْ يُقَالَ : هُوَ زِيَادَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى لِفَائِدَةٍ فَهٰذَا حَدُّهُ الَّذِي يُمَيِّزُهُ

عَنِ ٱلتَّطْوِيلِ اِذِ ٱلتَّطْوِيلُ هُوَ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَاَمَّا ٱلتَّكْرِيرُ فَاِنَّهُ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدًا كَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَدْعِيهِ : اَسْرِعْ اَسْرِعْ . فَاِنَّ ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدٌ وَٱللَّفْظَ وَاحِدٌ . وَٱلتَّكْرِيرُ جُزْءٌ مِنَ ٱلْاِطْنَابِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنْهُ فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : اِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ يَأْتِي لِفَائِدَةٍ فَهُوَ اِطْنَابٌ وَلَيْسَ كُلُّ اِطْنَابٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِفَائِدَةٍ . وَاَمَّا ٱلَّذِي يَأْتِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ فَهُوَ جُزْءٌ مِنَ ٱلتَّطْوِيلِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنْهُ . فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : اِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ تَطْوِيلٌ وَلَيْسَ كُلُّ تَطْوِيلٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَكُنْتُ قَدَّمْتُ ٱلْقَوْلَ فِي بَابِ ٱلْاِيجَازِ بِاَنَّ ٱلْاِيجَازَ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ عَلَيْهِ . وَاِذَا تَقَرَّرَتْ هٰذِهِ ٱلْحُدُودُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْمُشَارُ اِلَيْهَا فَاِنَّ مِثَالَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَٱلتَّطْوِيلِ مِثَالُ مَقْصِدٍ يُسْلَكُ اِلَيْهِ فِي ثَلَاثَةِ طُرُقٍ : فَٱلْاِيجَازُ هُوَ اَقْرَبُ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ اِلَيْهِ وَٱلْاِطْنَابُ وَٱلتَّطْوِيلُ هُمَا ٱلطَّرِيقَانِ ٱلْمُتَسَاوِيَانِ فِي ٱلْبُعْدِ اِلَيْهِ . اِلَّا اَنَّ طَرِيقَ ٱلْاِطْنَابِ تَشْتَمِلُ عَلَى مَنْزِهٍ مِنَ ٱلْمَنَازِهِ لَا يُوجَدُ فِي طَرِيقِ ٱلتَّطْوِيلِ وَٱلْاِطْنَابُ يُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَيُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ وَٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ اَبْلَغُ لِاتِّسَاعِ ٱلْمَجَالِ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنَّهُ بِجُمْلَتِهِ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (ٱلْقِسْمُ ٱلْاَوَّلُ) ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ يَرِدُ حَقِيقَةً وَمَجَازًا . اَما (ٱلْحَقِيقَةُ) فَمِثْلُ قَوْلِهِمْ : رَاَيْتُهُ بِعَيْنِي وَقَبَضْتُهُ بِيَدِي وَوَطِئْتُهُ بِقَدَمِي وَذُقْتُهُ بِفَمِي . وَكُلُّ هٰذَا يَظُنُّ ٱلظَّانُّ اَنَّهُ زِيَادَةٌ لَا حَاجَةَ

اليها ويقول : ان الرؤية لا تكون الا بالعين والقبض لا يكون الا باليد والوطء لا يكون الا بالقدم والذوق لا يكون الا بالفم . وليس الامر كذلك بل هذا يقال في كل شيء يعظم مثاله ويعز الوصول اليه فيؤكد الامر فيه على هذا الوجه دلالة على نيله والحصول عليه . واما ما جاء منه (على سبيل المجاز) فقوله : فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . ففائدة ذكر الصدور ههنا انه قد تعورف وعلم ان العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو ان تصاب الحدقة بما يطمس نورها . واستعماله في القلب تشبيه ومثل فلما اريد اثبات ما هو خلاف المتعارف من نسبة العمى الى القلوب حقيقة ونفيه عن الابصار احتاج هذا الامر الى زيادة تصوير وتعريف ليتقرر ان مكان العمى انما هو القلوب لا الابصار . وهذا موضع من علم البيان كثيرة محاسنه وافرة لطائفه والمجاز فيه احسن من الحقيقة لمكان زيادة التصوير في اثبات وصف الحقيقي للمجازي ونفيه عن الحقيقي . (واما القسم الثاني) المختص بالجمل فانه يستعمل على ضروب اربعة : (الاول) منها ان يذكر الشيء فيؤتى فيه بمعان متداخلة . الا ان كل معنى يختص بخصيصة ليست للآخر . وذلك كقول ابي تمام :

قطعت الي الزابيين هباته والتاث مأمور السحاب المسبل
من منة مشهورة وصنيعة بكر واحسان اغر محجل

فقوله : (منة مشهورة وصنيعة بكر واحسان اغر محجل)

تَدَاخَلَتْ مَعَانِيهِ اِذِ ٱلْمِنَّةُ وَٱلصَّنِيعَةُ وَٱلْاِحْسَانُ مُتَقَارِبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِتَكْرِيرٍ لِاَنَّهُ لَوِ ٱقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ : مِنَّةٍ وَصَنِيعَةٍ وَاِحْسَانٍ لَجَازَ اَنْ يَكُونَ تَكْرِيرًا . وَلٰكِنَّهُ وَصَفَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ بِصِفَةٍ اَخْرَجَتْهَا عَنْ حُكْمِ ٱلتَّكْرِيرِ فَقَالَ : (مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ) فَوَصَفَهَا بِٱلْاِشْتِهَارِ لِعِظَمِ شَأْنِهَا . (وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ) فَوَصَفَهَا بِٱلْبَكَارَةِ اَيْ اَنَّهَا لَمْ يُؤْتَ بِمِثْلِهَا مِنْ قَبْلُ . (وَاِحْسَانٍ اَغَرَّ مُحَجَّلٍ) فَوَصَفَهُ بِٱلْغُرَّةِ وَٱلتَّحْجِيلِ اَيْ هُوَ ذُو مَحَاسِنَ مُتَعَدِّدَةٍ . فَلَمَّا وَصَفَ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ ٱلْمُتَدَاخِلَةَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِاَوْصَافٍ مُتَبَايِنَةٍ صَارَ ذٰلِكَ اِطْنَابًا وَلَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا . وَلَمْ اَجِدْ فِي ضُرُوبِ ٱلْاِطْنَابِ اَحْسَنَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَا اَلْطَفَ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهُ اَبُو تَمَّامٍ فِي شِعْرِهِ كَثِيرًا بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَقَوْلِهِ :

ذَكِيٌّ سَجَايَاهُ تُضِيفُ ضُيُوفَهُ وَيُرْجَى مُرَجِّيهِ وَيُسْأَلُ سَائِلُهْ

فَاِنَّ غَرَضَهُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ اِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ ٱلْمَمْدُوحِ بِٱلْكَرَمِ وَكَثْرَةِ ٱلْعَطَاءِ اِلَّا اَنَّهُ وَصَفَهُ بِصِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَجَعَلَ ضُيُوفَهُ تُضِيفُ وَرَاجِيَهُ يُرَجَّى وَسَائِلَهُ يُسْأَلُ . وَلَيْسَ هٰذَا تَكْرِيرًا لِاَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ ضُيُوفِهِ تُضِيفُ اَنْ تَكُونَ رَاجِيهِ مَرْجُوًّا وَلَا اَنْ يَكُونَ سَائِلُهُ مَسْئُولًا لِاَنَّ ضَيْفَهُ يَسْتَصْحِبُ ضَيْفًا طَمَعًا فِي كَرَمِ مُضِيفِهِ وَسَائِلَهُ يُسْئَلُ اَنْ يُعْطِيَ ٱلسَّائِلَ عَطَاءً كَثِيرًا يَصِيرُ بِهِ مُعْطِيًا . وَرَاجِيهِ يُرْجَى اَيْ اَنَّهُ اِذَا تَعَلَّقَ بِهِ رَجَاءُ رَاجٍ فَقَدْ اَيْقَنَ بِٱلْفَلَاحِ وَٱلنَّجَاحِ فَهُوَ حَقِيقٌ بِاَنْ يُرْجَى لِمَكَانِ رَجَائِهِ اِيَّاهُ . وَهٰذَا اَبْلَغُ ٱلْاَوْصَافِ ٱلثَّلَاثَةِ . (اَلضَّرْبُ

ٱلثَّانِي) يُسَمَّى ٱلنَّفْيَ وَٱلْاِثْبَاتَ وَهُوَ اَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ عَلَى سَبِيلِ ٱلنَّفْيِ ثُمَّ يُذْكَرَ عَلَى سَبِيلِ ٱلْاِثْبَاتِ اَوْ بِٱلْعَكْسِ . وَلَا بُدَّ اَنْ يَكُونَ فِي اَحَدِهِمَا زِيَادَةٌ لَيْسَتْ فِي ٱلْآخَرِ وَاِلَّا كَانَ تَكْرِيرًا . وَٱلْغَرَضُ بِهِ تَأْكِيدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ اَنْ يُجَاهِدُوا بِاَمْوَالِهِمْ وَاَنْفُسِهِمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ . اِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَٱعْلَمْ اَنَّ لِهٰذَا ٱلضَّرْبِ مِنَ ٱلْاِطْنَابِ فَائِدَةً كَبِيرَةً وَهُوَ اَوْكَدُ وُجُوهِهِ اَلَا تَرَى اَنَّهُ قَالَ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ اَنْ يُجَاهِدُوا بِاَمْوَالِهِمْ وَاَنْفُسِهِمْ . ثُمَّ قَالَ : اِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . وَٱلْمَعْنَى فِي ذٰلِكَ سَوَاءٌ اِلَّا اَنَّهُ زَادَ فِي ٱلثَّانِيَةِ قَوْلَهُ : وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْلَا هٰذِهِ ٱلزِّيَادَةُ لَكَانَ حُكْمُ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ حُكْمَ ٱلتَّكْرِيرِ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَنْبَغِي اَنْ يُتَاَمَّلَ وَيُنْعَمَ ٱلنَّظَرُ فِيهِ . (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّالِثُ) هُوَ اَنْ يُذْكَرَ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدُ تَامًّا لَا يَحْتَاجُ اِلَى زِيَادَةٍ ثُمَّ يُضْرَبَ لَهُ مِثَالٌ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

تَرَدَّدَ فِي خُلُقَيْ سُؤْدَدٍ سَمَاحًا مُرَجًّى وَبَأْسًا مَهِيبَا
فَكَالسَّيْفِ اِنْ جِئْتَهُ صَارِخًا وَكَٱلْبَحْرِ اِنْ جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَا

فَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي يَدُلُّ عَلَى ٱلْاَوَّلِ لِاَنَّ ٱلْبَحْرَ وَٱلسَّيْفَ لِلْبَأْسِ ٱلْمَهِيبِ اِلَّا اَنَّ فِي ٱلثَّانِي زِيَادَةَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّتِي تُفِيدُ تَخَيُّلًا وَتَصْوِيرًا .

(اَلضَّرْبُ اَلرَّابِعُ) اَنْ يَسْتَوْفِيَ مَعَانِيَ اَلْغَرَضِ اَلْمَقْصُودِ مِنْ كِتَابٍ اَوْ خُطْبَةٍ اَوْ قَصِيدَةٍ . وَهٰذَا اَصْعَبُ اَلضُّرُوبِ اَلْاَرْبَعَةِ طَرِيقًا اَوْ اَضْيَقُهَا بَابًا لِاَنَّهُ يَتَفَرَّعُ اِلَى اَسَالِيبَ كَثِيرَةٍ مِنَ اَلْمَعَانِي وَاَرْبَابُ اَلنَّظْمِ وَاَلنَّثْرِ يَتَفَاوَتُونَ فِيهِ وَلَيْسَ اَلْخَاطِرُ اَلَّذِي يَقْذِفُ بِاَلدُّرَرِ فِي مِثْلِهِ اِلَّا مَعْدُومَ اَلْوُجُودِ وَمِثَالُهُ وَمِثَالُ اَلْاِيجَازِ مِثَالُ مُجْمَلٍ وَمُفَصَّلٍ . وَقَدْ تَقَدَّمَ اَلْقَوْلُ بِاَنَّ اَلْاِيجَازَ وَاَلْاِطْنَابَ وَاَلتَّطْوِيلَ بِمَنْزِلَةِ مَقْصَدٍ يُسْلَكُ اِلَيْهِ بِثَلَاثَةِ طُرُقٍ : وَقَدْ اَوْرَدْتُ هٰهُنَا مِثَالًا لِهٰذِهِ اَلْاَسَالِيبِ اَلثَّلَاثَةِ وَجَعَلْتُهَا عَلَى هَيْئَةِ اَلْمَقْصَدِ اَلَّذِي تُسْلَكُ اِلَيْهِ اَلطُّرُقُ اَلثَّلَاثَةُ ...

فَاَقُولُ : قَدْ وَرَدَ فِي بَابِ اَلْاِيجَازِ كِتَابٌ كَتَبَهُ طَاهِرُ بْنُ اَلْحُسَيْنِ اِلَى اَلْمَأْمُونِ يُخْبِرُهُ بِهَزِيمَةِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَقَتْلِهِ اِيَّاهُ وَهُوَ : كِتَابِي اِلَى اَمِيرِ اَلْمُؤْمِنِينَ وَرَأْسُ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ بَيْنَ يَدَيَّ وَخَاتَمُهُ فِي يَدِي وَعَسْكَرُهُ مُصَرَّفٌ تَحْتَ اَمْرِي وَاَلسَّلَامُ . وَهٰذَا كِتَابٌ جَامِعٌ لِلْمَعْنَى شَدِيدُ اَلْاِخْتِصَارِ . وَاِذَا كُتِبَ مَا هُوَ مَعْنَاهُ عَلَى وَجْهِ اَلْاِطْنَابِ قِيلَ فِيهِ مَا اَذْكُرُهُ وَهُوَ مَا اَنْشَأْتُهُ مِثَالًا فِي هٰذَا اَلْمَوْضِعِ لِيُعْلَمَ بِهِ اَلْفَرْقُ بَيْنَ اَلْاِيجَازِ وَالْاِطْنَابِ وَهُوَ : اَصْدَرَ كِتَابَهُ هٰذَا وَقَدْ نُصِرَ بِاَلْفِئَةِ اَلْقَلِيلَةِ عَلَى اَلْفِئَةِ اَلْكَثِيرَةِ وَاَنْقَلَبَ بِاَلْيَدِ اَلْمَلْأَى وَاَلْعَيْنِ اَلْقَرِيرَةِ وَكَانَ اَنْتِصَارُهُ بِجَدِّ اَمِيرِ اَلْمُؤْمِنِينَ لَا بِجَدِّ نَصْلِهِ وَاَلْجَدُّ اَغْنَى مِنَ اَلْجَيْشِ . وَاِنْ كَثُرَتْ اَمْدَادُ خَيْلِهِ وَرَجْلِهِ وَجِيءَ بِرَأْسِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَهُوَ عَلَى جَسَدٍ غَيْرِ جَسَدِهِ وَلَيْسَ لَهُ قَدَمٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَسْعَى بِقَدَمِهِ . وَلَا يَدٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَبْطُشُ بِيَدِهِ . وَلَقَدْ طَالَ وَطُولُهُ

مُؤذِنٌ بِقِصَرِ شَأْنِهِ وَحَسَدَتِ الضِّبَاعُ الطَّيْرَ عَلَى مَكَانِهَا مِنْهُ وَهُوَ غَيْرُ مَحْسُودٍ عَلَى مَكَانِهِ. وَاُحْضِرَ خَاتَمُهُ وَهُوَ الْخَاتَمُ الَّذِي كَانَ الْأَمْرُ يَجْرِي عَلَى نَقْشِ اَسْطُرِهِ. وَكَانَ يَرْجُو اَنْ يُصَدِّرَ كِتَابَ الْفَتْحِ بِخَتْمِهِ فَحَالَ وُرُودُ الْمَنِيَّةِ دُونَ مَصْدَرِهِ . وَكَذٰلِكَ الْبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَبِيلٌ . وَمَصْرَعُهُ جَلِيلٌ وَسَيْفُهُ وَاِنْ مَضَى فَاِنَّهُ عِنْدَ الضَّرْبِ كَلِيلٌ . وَالْعَسَاكِرُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى اَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَرْبًا صَارَتْ لَهُ سِلْمًا وَاَعْطَتْهُ الْبَيْعَةَ عِلْمًا بِفَضْلِهِ وَلَيْسَ مَنْ تَابَعَ تَقْلِيدًا كَمَنْ هُوَ تَابِعٌ عِلْمًا. وَهُمُ الْآنَ مُصَرَّفُونَ تَحْتَ الْاَوَامِرِ مُمْتَحَنُونَ بِكَشْفِ السَّرَائِرِ مُطِيعُونَ بِاللِّوَاءِ الَّذِي خَصَّهُ اللّٰهُ بِاسْتِفْتَاحِ الْمَقَالِدِ وَاسْتِيطَاءِ الْمَنَابِرِ وَعَلَى اللّٰهِ اِتْمَامُ النِّعَمِ الَّتِي افْتَتَحَهَا وَاِجَابَةُ اَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ اِلَى مُقْتَرَحَاتِهِ الَّتِي اقْتَرَحَهَا وَالسَّلَامُ. وَهٰذَا الْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ مِنَ الْمَعْنَى اِلَّا اَنَّهُ فَصَّلَ ذٰلِكَ الْاِجْمَالَ. وَلَوْ كَتَبْتَ عَلَى وَجْهِ التَّطْوِيلِ الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ لَقِيلَ: اَصْدَرَ كِتَابَهُ فِي يَوْمِ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا وَالْتَقَى عَسْكَرُ اَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَسْكَرُ عَدُوِّ الْبَاغِي. وَتَطَاعَنَ الْفَرِيقَانِ وَتَزَاحَفَ الْجَمْعَانِ. وَحَمِيَ الْقِتَالُ وَاشْتَدَّ النِّزَالُ. وَتَرَادَفَتِ الْكَتَائِبُ وَتَلَاحَقَتِ الْمَقَانِبُ. وَقُتِلَ عِيسَى بْنُ مَاهَانَ وَاحْتُزَّ رَأْسُهُ وَنُزِعَ الْخَاتَمُ مِنْ يَدِهِ وَخُلِعَ وَتُرِكَ جَسَدُهُ طَعَامًا لِلطُّيُورِ وَالسِّبَاعِ وَالذِّئَابِ وَالضِّبَاعِ. وَانْجَلَتِ الْوَقْعَةُ عَنْ غَلَبِ الْخَلِيفَةِ وَنَصْرِهِ وَخِذْلَانِ عَدُوِّهِ وَقَهْرِهِ وَالسَّلَامُ. فَهٰذَا الْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى تَطْوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِاَنَّهُ كَرَّرَ فِيهِ مَعَانِيَ يَتِمُّ الْغَرَضُ بِدُونِهَا. فَانْظُرْ اِلَى هٰذِهِ الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ وَتَاَمَّلْهَا وَقِسْ عَلَيْهَا مَا يَاْتِي مِنْهَا

الفصل السابع

في البديع

المبحث الاوّل

في حقيقة علم البديع

(عن ابن جابر الاندلسي والحاج خلفا)

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

اَلْبَدِيعُ مَأْخُوذٌ مِنْ بَدَعَ اَلشَّيْءَ يَبْدَعُهُ بَدْعًا اِذَا اَنْشَاَهُ وَبَدَاَهُ. وَيُقَالُ اُبْتُدِعَ اَلشَّيْءُ اِذَا اُخْتُرِعَهُ مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ . وَاَلْبَدِيعُ يُطْلَقُ بِاِزَاءِ مَعَانٍ يُقَالُ هٰذَا بَدِيعٌ اَيْ مُحْدَثٌ عَجِيبٌ فَيَكُونُ فِي صِيغَةِ اَلْمَفْعُولِ وَيَكُونُ اَيْضًا مِنْ صِيغَةِ اَلْفَاعِلِ. وَمِنْهُ اَلْبَدِيعُ فِي اَسْمَاءِ اَللّٰهِ تَعَالٰى لِاِبْدَاعِهِ اَشْيَاءَ وَاِحْدَاثِهِ اِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ. وَاَلْبَدِيعُ اَيْضًا اَلْجَدِيدُ يُقَالُ : سِقَاءٌ بَدِيعٌ وَحَبْلٌ بَدِيعٌ اَيْ جَدِيدَانِ. وَيُقَالُ : اَبْدَعَ اَلشَّاعِرُ اِذَا صَنَعَ اَلْبَدِيعَ فِي شِعْرِهِ . وَاَمَّا اَلْبَدِيعُ اِصْطِلَاحًا فَهُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ اَلْمُطَابِقِ لِمُقْتَضَى اَلْحَالِ اَلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ فِي اَلدَّلَالَةِ وُضُوحًا وَخَفَاءً . فَقَوْلُهُ : (عِلْمٌ) جِنْسٌ دَخَلَ تَحْتَهُ كُلُّ عِلْمٍ . وَقَوْلُهُ : (يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ اَلْعُلُومَ كُلَّهَا مَا عَدَا عِلْمَ اَلْمَعَانِي وَاَلْبَيَانِ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْهُمَا لِاَنَّ غَيْرَهُمَا مِنَ اَلْعُلُومِ لَا يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ . وَقَوْلُهُ :

(ٱلْمُطَابِقُ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي لَمْ يُطَابِقْ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَانَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . وَقَوْلُهُ : (ٱلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ اِلَى آخِرِهِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي يُطَابِقُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ يَذْكُرْ كَيْفِيَّاتِ طُرُقِ دَلَالَتِهِ فَاِنَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . فَتَحَصَّلَ مِنْ هٰذَا ٱلْحَدِّ اَنَّ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ لَا يُسَمَّى بَدِيعًا اِلَّا بِشَرْطَيْنِ : اَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ مُطَابِقًا لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ . وَاَنْ تَكُونَ كَيْفِيَّاتُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ مَعْلُومَةَ ٱلْوُضُوحِ وَٱلْخَفَاءِ . فَٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ فَاِنْ عُدِمَ ٱلشَّرْطَانِ اَوْ اَحَدُهُمَا مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . اَمَّا (مَرْتَبَةُ) هٰذَا ٱلْعِلْمِ فَبَعْدَ مَرْتَبَةِ عِلْمَيِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ حَتَّى اِنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يَجْعَلْهُ عِلْمًا عَلَى حِدَةٍ فَتَاَمَّلْ . وَظَهَرَ مِنْ هٰذَا مَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ . وَاَمَّا مَنْفَعَتُهُ فَاِظْهَارُ رَوْنَقِ ٱلْكَلَامِ حَتَّى يَلِجَ ٱلْاُذُنَ بِغَيْرِ اَذًى وَيَتَعَلَّقَ بِٱلْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ كَدٍّ وَاِنَّمَا دَوَّنُوا هٰذَا ٱلْعِلْمَ لِاَنَّ ٱلْاَصْلَ وَاِنْ كَانَ ٱلْحُسْنَ ٱلذَّاتِيَّ وَكَانَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِمَّا يَكْفِي فِي تَحْصِيلِهِ لٰكِنَّهُمُ اعْتَنَوْا بِشَأْنِ ٱلْحُسْنِ ٱلْعَرَضِيِّ اَيْضًا لِاَنَّ ٱلْحُسْنَ اِذَا عَرِيَ مِنَ ٱلْمُزَيِّنَاتِ رُبَّمَا يَذْهَلُ بَعْضُ ٱلْقَاصِرِينَ عَنْ تَتَبُّعِ مَحَاسِنِهِ فَيَفُوتُ ٱلتَّمَتُّعُ بِهِ

البحث الثاني

في ان البديع احد علوم الادب الستة

(عن بديعية العميان)

وَذٰلِكَ اَنَّكَ اِذَا نَظَرْتَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ اِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي وُضِعَ لَهُ ٱللَّفْظُ وَهُوَ عِلْمُ ٱللُّغَةِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ ذَاتِ ٱللَّفْظِ بِحَسَبِ مَا يَعْتَرِيهِ مِنَ ٱلْحَذْفِ وَٱلْقَلْبِ وَٱلْبَدْلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَهُوَ عِلْمُ ٱلتَّصْرِيفِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُفْهَمُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرَكَّبِ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ اَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْعَرَبِيَّةِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ مُطَابَقَةِ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِحَسَبِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ طُرُقِ دَلَالَةِ ٱلْكَلَامِ اِيضَاحًا وَخَفَاءً بِحَسَبِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ وُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ . فَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْاُوَلُ لَا يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا اِلَّا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا . لِاَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِيهَا اَلْفَاظُهُ . وَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْاَخِرَةُ يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِاَنَّهَا رَاجِعَةٌ اِلَى ٱلْمَعَانِي وَلَا فَرْقَ فِيهَا فِي ذٰلِكَ بَيْنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُوَلَّدِينَ اِذْ هُوَ اَمْرٌ رَاجِعٌ اِلَى ٱلْعَقْلِ وَلِذٰلِكَ قُبِلَ مِنْ اَهْلِ هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلْاِسْتِشْهَادُ بِكَلَامِ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَاَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ وَاَبِي ٱلْعَلَاءِ وَهَلُمَّ جَرًّا . (وَهٰهُنَا تَنْبِيهٌ) وَهُوَ اَنَّ اَنْوَاعَ ٱلْبَدِيعِ فِي ٱلْكَلَامِ كَٱلْمِلْحِ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخَالِ

فِي ٱلْوَجَنَاتِ وَٱلشِّيَةِ فِي ٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَاتِ . وَإِذَا كَثُرَ ٱلْمِلْحُ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخِيلَانُ فِي ٱلْخَدِّ وَٱلشِّيَةُ فِي ٱلْخَيْلِ قَبُحَ ذٰلِكَ وَخَرَجَ عَنْ بَابِ ٱلِٱسْتِحْسَانِ فَكَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ إِذَا كَثُرَ وَتُكُلِّفَ تَمُجُّهُ ٱلطِّبَاعُ وَإِنَّمَا يُسْتَحْسَنُ إِذَا وَقَعَ فِي ٱلْكَلَامِ سَهْلًا عَلَى ٱلطِّبَاعِ مُسْتَعْذَبًا فِي ٱلْأَسْمَاعِ عَارِيًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ ٱلَّذِي يَذْهَبُ بِٱلْحُسْنِ وَاقِعًا مَوْقِعَ ٱلزَّهْرِ مِنَ ٱلْغُصْنِ فَإِذَا فَرَطَ فِي ٱلزِّيَادَةِ خَاطَبَتْهُ ٱلطِّبَاعُ :

لَوِ ٱخْتَصَرْتُمْ مِنَ ٱلْإِحْسَانِ زُرْتُكُمُ وَٱلْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي ٱلْخَصَرِ

البحث الثالث

في نسبة علم البديع الى علمي المعاني والبيان

(من شرح بديعيَّة العميان ايضًا)

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ أَنَّ عِلْمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ دَاخِلَانِ فِي حَدِّ ٱلْبَدِيعِ عَلِمْتَ أَنَّ نِسْبَتَهُ إِلَيْهِمَا نِسْبَةُ ٱلْمُرَكَّبِ إِلَى مُفْرَدَاتِهِ إِذْ لَا يَدْخُلُ فِي ٱلْحَدِّ إِلَّا مَا هُوَ مِنْ مُفْرَدَاتِ ٱلْمَحْدُودِ ٱلَّتِي تَرَكَّبَ مِنْهَا . فَكَمَا أَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُ إِلَّا بِوُجُودِ مُفْرَدَاتِهِ كَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِوُجُودِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَإِذَا عُدِمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِنَ ٱلْكَلَامِ عُدِمَ ٱلْبَدِيعُ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ يُعْدَمُ بِعَدَمِ مُفْرَدَاتِهِ فَلَوْ وُجِدَ كَلَامٌ خَالٍ مِنْ سَابِقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي أَوْ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِكَيْفِيَّةِ طُرُقِ ٱلدَّلَالَةِ فِي ٱلظُّهُورِ وَٱلْخَفَاءِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . وَٱعْلَمْ أَنَّ أَعَمَّ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ عِلْمُ

ٱلْمَعَانِي وَاخَصُّهَا عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ لِاَنَّهُ مُتَرَكِّبٌ مِنَ ٱلْفَنَّيْنِ ٱلْاَخَرَيْنِ وَزِيَادَةٍ وَٱلْقَاعِدَةُ اَنَّ ٱلْاَخَصَّ يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلْاَعَمِّ وَزِيَادَةٍ . وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَهُمَا فَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلْمَعَانِي مُنْدَرِجٌ تَحْتَ ٱلْبَدِيعِ وَكُلُّ بَدِيعٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ لِاَنَّهُمَا جُزْءَاهُ . وَكُلُّ بَيَانٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي لِاَنَّهُ جُزْؤُهُ وَلَيْسَتِ ٱلْمَعَانِي مُسْتَلْزِمَةً لِلْبَيَانِ وَلَا لِلْبَدِيعِ اِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِمَا وَذٰلِكَ مِنْ كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ تُعْلَمْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَلَا وُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَلَا ٱلْبَيَانُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبَدِيعِ اِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِ فِي كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَعُلِمَتْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَوُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَاِذَا عَلِمْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ فَٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلْبَدِيعِ كَٱلْحَيَوَانِ وَٱلنُّطْقِ بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلْاِنْسَانِ فَلَا يُوجَدُ ٱلْبَدِيعُ بِدُونِهِمَا كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلْاِنْسَانُ بِدُونِ ٱلْحَيَاةِ . وَٱلنُّطْقُ وَٱلْمَعَانِي بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلْبَيَانِ كَٱلْحَيَوَانِ بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلنُّطْقِ فَتُوجَدُ ٱلْمَعَانِي بِلَا بَيَانٍ كَمَا يُوجَدُ ٱلْحَيَوَانُ بِلَا نُطْقٍ . وَلَا يُوجَدُ ٱلْبَيَانُ بِلَا مَعَانٍ كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلنُّطْقُ بِدُونِ ٱلْحَيَوَانِ . وَهٰذَا بَسْطُ مَا يُوجَدُ فِي بَيَانِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ وَٱللّٰهُ اَعْلَمُ . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ اَنَّ ٱلْمَعَانِيَ رَاجِعَةٌ اِلَى مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ وَٱلْبَيَانَ رَاجِعٌ اِلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ . فَكَمَا اَنَّ ٱلْبَدِيعَ لَا بُدَّ لَهُ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِاَعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ . كَذٰلِكَ فِي ٱلْبَيَانِ لَا بُدَّ لَهُ اَيْضًا مِنْ مُطَابَقَةِ ٱلْحَالِ بِاَعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فَلَوْ قَالَ فِي ٱلْمَعَانِي : (زَيْدٌ قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (اِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) . اَوْ

قَالَ : (اِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ قَائِمٌ) كَانَ خَطَأً . كَذٰلِكَ ٱلْبَيَانُ لَوْ قَالَ : (زَيْدٌ جَوَادٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) اَوْ قَالَ : (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ جَوَادٌ) كَانَ خَطَأً

البحث الرابع

في اقسام البديع

(عن شرح بديعية العميان)

اِعْلَمْ اَنَّ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَصُّوا عَلَى اَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ اَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِبَابَيْنِ : بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ وَبَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱلْمَعْنَى اَوْ بِٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ مَعًا فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱللَّفْظِ فَقَطْ فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَهِيَ ثَلَاثَةُ اَقْسَامٍ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى فَقَطْ كَٱلتَّوْرِيَةِ وَتَجَاهُلِ ٱلْعَارِفِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱللَّفْظِ . وَقِسْمٌ بِٱللَّفْظِ فَقَطْ كَٱلتَّجْنِيسِ وَرَدِّ ٱلْعَجُزِ عَلَى ٱلصَّدْرِ وَنَحْوِهِمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱلْمَعْنَى . وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى كَٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُقَابَلَةِ وَمَا اَشْبَهَهُمَا مِمَّا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فِيهِ حَظٌّ . وَاَسْقَطَ صَاحِبُ ٱلْاِيضَاحِ هٰذَا ٱلْقِسْمَ وَجَعَلَ ٱلْبَدِيعَ قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى وَهُوَ ٱلْاَبْيَنُ

البحث الخامس

في تاريخ علم البديع وفي اصحاب البديعيّات

(عن كشف الظنون باختصار وتصرُّف)

اِعلَمْ اَنَّ قُدَمَاءَ ٱلْمُصَنِّفِينَ كَانُوا يَذْكُرُونَ هٰذَا ٱلْفَنَّ فِي آخِرِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ . اِلَّا اَنَّ ٱلْمُتَاخِّرِينَ زَادُوا عَلَيْهِ شَيْئًا كَثِيرًا وَنَظَمُوا فِيهِ قَصَائِدَ وَاَلَّفُوا كُتُبًا. وَمِنَ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُخْتَصَّةِ بِعِلْمِ ٱلْبَدِيعِ كِتَابٌ لِاَبِي ٱلْعَبَّاسِ عَبْدِاللهِ بْنِ ٱلْمُعْتَزِّ ٱلْعَبَّاسِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) وَهُوَ اَوَّلُ مَنْ صَنَّفَ فِيهِ . وَكَانَ جُمْلَةُ مَا جَمَعَ مِنْهَا سَبْعَةَ عَشَرَ نَوْعًا اَلَّفَهُ سَنَةَ ٢٧٤ هـ (٨٨٧ م). وَعَاصَرَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَجَمَعَ مِنْهَا عِشْرِينَ نَوْعًا تَوَارَدَ مَعَهُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنْهَا فَتَكَامَلَ لَهُمَا ثَلَاثُونَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِنَقْدِ ٱلشِّعْرِ . اَمَّا ٱلسَّكَّاكِيُّ فَلَمْ يَذْكُرْ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ سِوَى تِسْعَةٍ وَعِشْرِينَ نَوْعًا. ثُمَّ اَقْتَدَى ٱلنَّاسُ بِقُدَامَةَ وَابْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَكَانَ غَايَةُ مَا جَمَعَ مِنْهَا اَبُو هِلَالٍ ٱلْعَسْكَرِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِكِتَابِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ. ثُمَّ جَمَعَ فِيهَا ٱبْنُ ٱلرَّشِيقِ ٱلْقَيْرَوَانِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) فِي ٱلْعُمْدَةِ مِثْلَهَا وَاَضَافَ اِلَيْهَا خَمْسَةً وَسِتِّينَ بَابًا فِي اَحْوَالِ ٱلشِّعْرِ وَاَغْرَاضِهِ . وَتَلَاهُمَا شَرَفُ ٱلدِّينِ ٱلتِّيفَاشِيُّ فَبَلَغَ بِهَا ٱلسَّبْعِينَ. ثُمَّ تَصَدَّى لَهَا ٱلشَّيْخُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ اَبِي ٱلْاِصْبَعِ فَاَوْصَلَهَا اِلَى ٱلتِّسْعِينَ وَاَضَافَ اِلَيْهَا مِنْ مُسْتَخْرَجَاتِهِ ثَلَاثِينَ سُلِّمَ لَهُ مِنْهَا عِشْرُونَ . وَاَجْرَى تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعَ فِي ٱلْاٰيَاتِ ٱلْقُرْآنِيَّةِ

وَسماهُ ٱلتَّحْرِيرَ وَهُوَ اَصَحُّ كِتَابٍ صُنِّفَ فِيهِ لِاَنَّهُ لَمْ يَتَّكِلْ عَلَى ٱلنَّقْلِ دُونَ ٱلنَّقْدِ . وَذَكَرَ اَنَّهُ وَقَفَ عَلَى اَرْبَعِينَ كِتَابًا فِي هٰذَا ٱلْعِلْمِ وَٱلْبَدِيعِيَّاتُ ٱلْمَشْهُورَةُ هِيَ بَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ ٱلْاَدِيبِ صَفِيِّ ٱلدِّينِ ٱلْحِلِّيِّ سَمَّاهَا كَافِيَةَ ٱلْبَدِيعِيَّةِ وَشَرَحَهَا شَرْحًا حَسَنًا . حَذَا حَذْوَهُ ٱلشَّيْخُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَانِ ٱلْحُمَيْدِيُّ . وَبَدِيعِيَّةُ اَبِي جَعْفَرٍ اَحْمَدَ ٱلرَّعْنِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٧٩هـ (١٣٧٧ م) وَهٰذِهِ ٱلْبَدِيعِيَّةُ تُعْرَفُ بِبَدِيعِيَّةِ ٱلْعُمْيَانِ . وَبَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ شَمْسِ ٱلدِّينِ اَبِي عَبْدِ ٱللهِ مُحَمَّدِ بْنِ جَابِرٍ ٱلْاَنْدَلُسِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) وَبَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ عِزِّ ٱلدِّينِ ٱلْمَوْصِلِيِّ وَوَجِيهِ ٱلدِّينِ ٱلْيَمَنِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى فِي حُدُودِ سَنَةِ ٨٠٠ هـ (١٣٩٨ م) وَبَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ تَقِيِّ ٱلدِّينِ بْنِ حِجَّةَ ٱلْحَمَوِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٨٣٧ هـ (١٤٣٣ م) وَسَمَّاهَا ٱلتَّقْدِيمَ تَشْتَمِلُ عَلَى مِئَةٍ وَسِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ نَوْعًا ثُمَّ شَرَحَهَا شَرْحًا مُفِيدًا وَهُوَ مَجْمُوعُ اَدَبٍ قَلَّ اَنْ يُوجَدَ فِي غَيْرِهِ . وَبَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ جَلَالِ ٱلدِّينِ ٱلسُّيُوطِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٩١١ هـ (١٥٠٠ م) وَتُسَمَّى نَظْمَ ٱلْبَدِيعِ ثُمَّ شَرَحَهَا . وَبَدِيعِيَّةُ ٱلْفَاضِلَةِ عَائِشَةَ ٱلْبَاعُونِيَّةِ نَظَمَتْهَا عَلَى مِثَالِ قَصِيدَةِ ٱلْحَمَوِي مَعَ عَدَمِ تَسْمِيَةِ ٱلنَّوْعِ . وَاَتَى بَعْدَهَا ٱلشَّيْخُ عَبْدُ ٱلْغَنِيِّ ٱلنَّابُلُسِيُّ وَنَظَمَ قَصِيدَتَيْنِ ٱلْتَزَمَ بِاِحْدَاهُمَا تَسْمِيَةَ ٱلنَّوْعِ

بديعيَّة الخوري الفاضل ارسانيوس الفاخوري

مدح بها السيد المسيح ورسلهُ الاطهار

وهي مشتملة على مائة وثمانين نوعًا مع التزام تسمية النوع

براعة المطلع

بَرَاعَةُ ٱلْمَدْحِ فِي نَجْمٍ ضِيَاهُ سَمِي تَهْدِي بِمَطْلَعِهَا مَنْ عَنْ سَنَاهُ عَمِي

الجناس المطلق والمركب

تَطْلِيقُ هَمِّي بِتَرْكِيبِ ٱلْمَدِيحِ لَهُ رُحْ بِي إِلَيْهِ بِهِ رُحِي كَذَا هَمِي

الجناس المذيّل

سَنَاهُ فِي ٱلْكَوْنِ بَاهٍ بَاهِرٌ عَجِبٌ وَذَيَّلَ ٱلْكَوْنَ نُورًا مَاحِقَ ٱلظُّلَمِ

الجناس اللاحق

دَرْبُ ٱلْهُدَى مَنْ بِهِ قَدْ سَارَ ٱلْحَقَهُ كَمْ حَائِرٍ بَائِرٍ بِٱلرُّشْدِ مِنْهُ رُمِي

الجناس التام والمطرف

أَتَمَّ بَدْرَ ٱلسَّمَا مِصْبَاحُهُ وَسَمَا فَإِنْ هَوِيتُ بِهِ ٱلتَّطْرِيفَ لَمْ أُلَمِ

الجناس المصحف والمحرف

أَرَاحَ تَصْحِيفُهُ ذِهْنًا أَزَاحَ لَهُ تَحْرِيفَ قَوْلٍ غَدَا فِي ٱلْحُكْمِ وَٱلْحِكَمِ

الافتنان

فَاقَ ٱفْتِنَانِي وَمَدْحِي فِي مَحَاسِنِهِ يَا تَعْسَ عُمْرٍ مَضَى بِٱلْمَدْحِ لَمْ يَقُمِ

المطابقة

فَلَمْ أُطَابِقْ عَلَى بُعْدِ ٱلْأَحِبَّةِ بَلْ إِنِّي أُطَابِقُ فِي قُرْبِي لِخِدْرِهِمِ

سلامة الاختراع

سَلَامَتِي فِي ٱخْتِرَاعِي نَظْمَ قَافِيَةٍ أَرْجُو بِهَا ٱلنَّظْمَ فِي أَجْزَاءِ سِلْكِهِمِ

الاستعارة

اِنّي اَسْتَعَرْتُ جِيادَ الدَّمْعِ فِي سَفَرِي جَرْيًا وَرَاءَ مَتَابٍ فِي سَبِيلِهِمِ

الجناس المعنوي

وَعُدتُّ بِاسْمِ اَبْنِ رَعْدٍ ثُمَّ بِاسْمِ اَبِي اِسْحَقَ يَامَعْنَوِيٌّ فِي اَلْهَوَى بِهِمِ

الاستطراد

مُسْتَطْرِدًا فِي هَوَاهُمْ خَيْلَ مُنْعَطِفِي كَادَمْعِي قَدْ جَرَتْ شَوْقًا لِقُرْبِهِم

الاستخدام

سَقَى اَلْاِلٰهُ اَلْحَيَا خَيْلًا رَعَتْهُ قَدِ اَسْـ تَخْدَمْتُهَا قَصْدَ اِدْرَاكٍ لِوَصْلِهِمِ

التخيير

بِرَبْعِهِمْ قَدْ تَخَيَّرْتُ اَلْعَنَاءَ وَلَا م اَلْبَقَاءَ فِي سَعَـةٍ فِي غَيْرِ رَبْعِهِمِ

التذييل

اَذُمُّ تَذْيِيلَ عَذْلٍ طَالَ مِنْكَ كَفَى يَاعَاذِلِي اَلْعَذْلُ مَذْمُومٌ مِنَ اَلْأُمَمِ

الايداع

وَعِنْدَ اِيدَاعِهِ سَمْعِي مَلَامَتَـهُ مَزَجْتُ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

الجناس اللفظي وجناس القلب

قَدْ ضَلَّ رَأْيًا بِطَعْنٍ ظَلَّ يَلْفِظُهُ فَاَلْقَلْبُ مَاحَالَ مِنْ لَاحٍ عَنِ اَلذِّمَمِ

الاكتفاء

لَمْ يَكْتَفِ اَلْعَاذِلُ اَلنَّمَّامُ مِنْ حِيَلٍ فَكَمْ لِذَاكَ خَبَا لِلْعَاشِقِينَ كَمِي

التفويف

اِرْحَمْ وَدَعْ وَاتَّئِدْ وَاشْفَقْ وَلِنْ وَاِرِحْ فَوِّفْ وَوَشِّ وَجُدْ وَاَنْظِمْ وَمِقْ وَهِمِ

الملفق

اَبَى نَوَالِيَ بِالتَّلْفِيقِ مِنْهُ كَمَا اَبَانَ وَالِيَ وَجْدٍ عَنْ وَلَائِهِمِ

الارقط

قَدْ خَابَ مَنْ مِنْهُ يَرْجُو خُطَّةً وَجَدَى وَشَانَ رَقْطٌ بِهِ قَدْ بَانَ مِنْ اَضَمِ

الالتفات

فَمَا ٱلْتَفَتُّ اِلَى مَكْرٍ بِتَوْشِيَةٍ عَرِّجْ رِكَابَكَ عَنْ تِيهٍ اِلَى ٱللَّقَمِ

الجناس المقلوب المستوي

حَرِّفْ اَخَا كُرَبٍ بَرِّكْ اَخَا فَرَحٍ فَيَسْتَوِي ٱلْقَلْبُ بِٱلْاَفْرَاحِ لَا ٱلْغُمَمِ

المواربة

يَا لَائِمِي خَلِّ قَوْلًا فِي مُوَارَبَةٍ فَعَاقِلٌ اَنْتَ يَا ذَا ٱلْعَدْلِ فَٱسْتَقِمِ

الالتزام

اِنِّي لَمُلْتَزِمٌ خُلْدًا بِحُبِّهِمِ حَتَّى ٱلْمَنَايَا بِهَا عَيْشٌ لِصَبِّهِمِ

رد العجز على الصدر

بِهِمْ اَرُدُّ عَلَى صَدْرِ ٱلْمُخَاصِمِ عَجْزَهُ وَاُخْزِي ٱلْعِدَى يَوْمَ ٱلْوَغَى بِهِمِ

المقابلة

اِنْ رُحْتُ مُنْزَعِجًا خَوْفًا بِمَسْئَلَةٍ فَقَابِلُوا بِٱلشِّفَا وَٱلْاَمْنِ وَٱلنِّعَمِ

المراجعة

قَالَ ٱسْلُهُمْ قُلْتُ حَاشَا لِي فَرَاجَعَنِي فَقَالَ دَعْهُمْ فَقُلْتُ ٱلسَّمْعُ فِي صَمَمِ

الهزل الذي يراد بهِ الجد

بِٱلْجِدِّ هَازَلَنِي وَٱلدَّمْعُ مُنْسَجِمٌ فَقَالَ اَرْوِ ٱلظَّمَا مِنْ مَنْهَلٍ شَبِمِ

القول بالموجب

قَوْلِي لَهُ مُوجَبٌ اِذْ قَالَ اَنْتَ لَهُمْ سَالٍ فَقُلْتُ لِجِسْمِي مِنْ سَعِيرِهِمِ

المتراكم

قَدْ قَدَّ قَدَّ فُؤَادِي عَضْبُ غِيبَتِهِ مِنْهَا تَرَاكَمَتِ ٱلْاَحْزَانُ مِنْ اَلَمِي

الاستدراك

فَقَالَ مَكْرًا بِسُقْمٍ اَنْتَ بَلْ شُغُلٍ فَقُلْتُ مُسْتَدْرِكًا لٰكِنْ بِعِشْقِهِمِ

المناقضة

اِنِّي اُنَاقِضُ عَهْدِي لِلْمُحِبِّ اِذَا مَا شِبْتُ اَوْ عُدتُّ طِفْلًا بَعْدَ مَا هَرِمِ

حسن الاتباع

حُسْنُ اَتِّبَاعٍ لَهُمْ قَلْبِي اَصْطَفَاهُ هَوًى فَالْقَلْبُ عِنْدِي لِغَيْرِ الْعِشْقِ لَمْ يَقُمِ

تشابه الاطراف

تَشْبِيهُ اَطْرَافِ اَقْوَالِي سَمَا بِهِمِ بِهِمْ مَدِيحِي غَدَا فِي اَبْلَغِ الْحِكَمِ

السهولة

سُهُولَةُ النَّظْمِ تَحْلُو فِي مَدِيحِهِمِ لَا فِي مَدِيحِ الظِّبَا وَالْغِيدِ لِلْحَشَمِ

الجناس الحالي او المعجم

نَبَذْتُ تَفْنِينَ تَشْبِيبٍ بِذِي شَغَفٍ يَفْتَنُّ فِي غُنْجِ جَفْنٍ جُنَّ بِالْعَجَمِ

التهكم

بِهِمْ رَاَى عِزَّهُ تِيهًا فَذَلَّ بِهِمْ تَهَكُّمًا قُلْتُ يَا بُشْرَاكَ بِالسَّدَمِ

الهجاء في معرض المدح

بِعَرْضِ الْمَدْحِ قَدْ يَهْجُوكَ قَائِلُهُ مَا مِثْلُكُمْ بِاحْتِمَالِ الضُّرِّ وَالرَّغَمِ

الابهام

كَمْ زَادَ اِبْهَامُ نُصْحِي ذَا الْعَذُولَ وَكَمْ يَا لَيْتَ اِبْهَامَهُ فِي حَيِّزِ الْعَدَمِ

النزاهة

تَرَّهْتُ سَمْعِي بِحَقٍّ عَنْ نَصَائِحِهِ اِذْ لَمْ اَرَ الْحَقَّ فِي قَوْلٍ وَلَا كَلِمِ

المغايرة

اُغَايِرُ النَّاسَ فِي حُبِّي لِذِي عَذَلٍ سُتَنْطِقًا فَمُهُ حُبًّا لِذِكْرِهِمِ

الجناس الموصّل

نَفْسِي لَهُمْ عَشِقَتْ حُبًّا بِهِمْ شُغِفَتْ فَحُبُّهُمْ صِلَةٌ تُنْفَى بِهَا غُمَمِي

الاستثناء

اَهْوَى ٱلْخُطُوبَ بِلَا ٱسْتِثْنَا لِحُبِّهِمِ اِلَّا مَلَامَ عَذُولِي لِي لِاَجْلِهِمِ

الجناس المهمل

كَلَا ٱلْاِلٰهُ اَمْرَءًا رَامَ ٱلْوَدَادَ لَهُ وَاَهْمَلَ ٱلْوُدَّ لِلْاَسْوَاءِ وَٱلْحَرَمِ

الجناس الاخيف

اَحَلَّهُ خَيْفَ سَعْدٍ فِي لِوَا نُخُبٍ كَسَا شَبِيبَةَ عُمْرٍ جُبَّةَ ٱلسَّلَمِ

الالغاز

مِنْ مَرْمَرِ ٱلرُّشْدِ خُذْ شَطْرًا بِشَطْرِ م يَمِينِ ٱللهِ مُنْتَحِمًا لِلْغُزِ تَفْتَهِمِ

الجناس المقطع

وَاِنْ اَرَدتَّ دَوَاءً زُرْ ذُرَاهُ وَرُدْ وَاِنْ اَرَدتَّ رِوًى دَعْ وِرْدَ ذِي زَامِ

المحاجاة

وَٱسْتَشْفِهِ فِي ٱلتَّحَاجِي مُمْعِنًا نَظَرًا بِقَوْلِهِ فَٱلْاِسَا مِلْكِي وَمِنْهُ رُمِ

الكلام الجامع

جَمْعُ ٱلْكَلَامِ اِذَا لَمْ يَشْتَمِلْ حِكَمًا لَمْ يُلْفِ مَنْ ذَاقَ فِيهِ لَذَّةَ ٱلدَّسَمِ

الاقتباس

مِنْ مَجْمَعِ ٱلشَّوْكِ هَلْ مَنْ يَجْتَنِي عِنَبًا لَمْ تُقْتَبَسْ لَذَّةٌ مِنْ عَاطِلِ ٱلْكَلِمِ

التوجيه

وَجِّهْ اِلَى الرَّبِّ نَعْتًا اَنْتَ تَابِعُهُ يَرْفَعْكَ مِنْ خَفْضِ رُتْبَاتٍ اِلَى ٱلْعِظَمِ

عكس الاشارة

بِحَقِّ بِرٍّ قُمْ لَا فِي اِشَارَتِهِ فَاِنَّ عَكْسَ ٱسْمِهِ مَعْنَاهُ كَٱلْعَلَمِ

المطمَّع

قدْطَابَ لِلنَّفْسِ فِي ٱلْأَسْوَاءِ مَطْمَعُهَا بَلْ طَالَ فِيهَا وَلَمْ تَعْدِلْ اِلَى ٱلنَّدَمِ

الرجوع

مَا لِي رُجُوعٌ اِلَى حَالِي لِأُصْلِحَهَا بَلَى اِذَا مَعْ هُدَى رَبِّي سَعَى قَدَمِي

عتاب النفس

يَا نَفْسِ عِي وَٱرْعَوِي وَٱصْغِي اِلَى عَتَبِي حَتَّامَ اَنْتِ بِجَهْلٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ

التسليم

هَبِي لِزَعْمِكِ قَدْ سَلَّمْتُ مُرْتَضِيًا فَمَا يَكُونُ جَوَابِي يَوْمَ مُحْتَكَمِي

القسَم

فَلَا اُنِلْتُ ٱلْمُنَى اِنْ مِلْتُ مُتَّبِعًا هَوَاكِ فِي غَيْرِ مَا اَهْوَى وَذَا قَسَمِي

حسن التخلص

فَرَغْبَتِي وَٱلْهَوَى حُسْنُ ٱلتَّخَلُّصِ مِنْ اِثْمِي بِمَدْحِ وَسِيطِ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ

الاطّراد

يَسُوعُ بِكْرُ ٱلْاِلٰهِ اَبْنُ ٱلْبَتُولِ سُلَا لَةُ ٱلْمُلُوكِ وَرَبٌّ فِي اَطْرَادِهِمِ

حصر الجزئي والحاقه بالكلّي

فَرْدٌ بِهِ تُحْصَرُ ٱلْاَنْصَارُ اَجْمَعُهُمْ فَٱلْجُزْءُ يُلْحَقُ بِٱلْكُلِّيِّ لِلْعِظَمِ

العكس

نَفْسُ ٱلْجَمَالِ جَمَالُ ٱلنَّفْسِ فِيهِ بَدَا يَا عَكْسَ مَنْ عَنْ سَنَا هٰذَا ٱلْجَمَالِ عَمِي

المماثلة

فَٱلْآبُ مَاثَلَهُ وَٱلرُّوحُ وَافَقَهُ وَٱلْكُنْهُ شَارَكَهُ بِٱلْعُظْمِ وَٱلْقِدَمِ

التفسير

كُنْهٌ ثُلَاثِيُّ اُقْنُومٍ يُفَسِّرُهُ آبٌ وَاِبْنٌ وَرُوحٌ فِي وَحِيدِهِمِ

المذهب الكلامي

فَمَذْهَبِي فِي كَلَامِي مِنْهُ مُنْقِذُنَا لَوْ لَمْ يَصِرْ بَشَرًا لَمْ تَنْجُ مِنْ ضَرَمِ

المناسبة

لَاهُوتُهُ كَامِلٌ وَالطُّهْرُ نَاسَبَهُ نَاسُوتُهُ فَاضِلٌ فِي الْخَلْقِ وَالشِّيَمِ

ارسال المثل

فَالْحُسْنُ فِي الْخَلْقِ اَرْبَى فِيهِ عَنْ مَثَلٍ وَالْفَضْلُ اَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمِ

الترديد

فَهُوَ الْبَدِيعُ لَنَا هٰذَا الْبَدِيعُ سَنًى بِهِ الْبَدِيعُ حَلَا تَرْدِيدُهُ بِفَمِي

التكرار

تَكْرَارُ مَدْحِي بِمَا بِالْوَاهِبِ النِّعَمِ مُ ابْنِ الْوَاهِبِ النِّعَمِ ابْنِ الْوَاهِبِ النِّعَمِ

الترتيب

لَهُ الْمَلَائِكُ وَالْاِنْسَانُ اَجْمَعُهُ وَمَا سِوَاهُمُ فِي التَّرْتِيبِ كَالْخَدَمِ

التشريع

لَمَّا انْحَنَى وَبِتَشْرِيعِ الْفِدَاءِ بَدَا نِلْنَا الْمُنَى فَنَجَوْنَا مِنْ رَدَى الْعَرِمِ

التكميل

اَوْفَى اَبَاهُ تَمَامًا دَيْنَ آدَمِهِ حَمْدًا لَهُ فَاقَ تَكْمِيلًا بِذَا الْكَرَمِ

الجناس المرفوّ

هَيَّا مَدَارَ نَعِيمٍ قَدْ رَفَاهُ بِهِ وَطَمَّ دَارَ جَحِيمٍ حَالِكِ الظُّلَمِ

الجناس المشتق

هَدَى اِلَى الْمَنْهَجِ الْهَادِي بُغَاةَ هُدًى وَمِنْ هُدَاهُ الْخَلَاصُ اُشْتُقَّ لِلْاُمَمِ

النقل

تَمَّتْ نُقُولُ نُبُوَّاتٍ بِهِ وَمَضَتْ بِهِ الْخَلِيلُ نَجَا مِنْ وَابِلِ الضَّرَمِ

تشبيه شيئين بشيئين

شَأْنَانِ قَدْ أَشْبَهَا شَيْئَيْنِ فِيهِ لَنَا تَعَطُّفٌ وَنَدًى كَالْبَحْرِ وَالدِّيَمِ

التشطير

تَشْطِيرُ نِعْمَتِهِ مَا بَيْنَ أُمَّتِهِ كَاللُّجِّ فِي عِظَمٍ قَدْ كَانَ فِي الْقِسَمِ

الطيّ والنشر

فَالطَّيُّ وَالنَّشْرُ وَالتَّبْدِيلُ مَعْ كَرَمٍ لِلْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْأَحْوَالِ وَالشِّيَمِ

الايغال

فِي السَّعْيِ أَوْغَلَ فِي تَمْهِيدِهِ سُبُلًا إِلَى الْخَلَاصِ بِحُبٍّ غَيْرِ مُنْكَتِمِ

الاشارة

وَمِنْ إِشَارَاتِهِ بِالْوَعْظِ كَمْ نَجَمَتْ لَهُمْ فُنُونٌ بِهَا زَادُوا بِبِرِّهِمِ

الايجاز

وَقَوْلُهُ مُوجَزٌ فِي صُنْعِ مُعْجِزَةٍ إِنْ قَالَ أَشْفَى وَأَحْيَا بَالِيَ الرِّمَمِ

التوشيع

نَوْشِيعُ مَذْهَبِهِ فِي فَضْلِ سُنَّتِهِ مُثَبِّتُ الْأَمْجَدَيْنِ الْعَهْدِ وَالذِّمَمِ

التورية

وَكَمْ عُقُودٍ لَهُمْ حَلَّتْ فَوَائِدُهُ بِحُسْنِ تَوْرِيَةٍ حَلَّتْ لِسَانَ فَمِي

النوادر

كَمْ مِنْ نَوَادِرِ بَذْلٍ مَارَسَتْ يَدُهُ حَتَّى جَرَى دَمُهَا لِلْبَذْلِ كَالدِّيَمِ

البسط

تَعَوَّدَ الْجُودَ مَعْ بَسْطٍ لِرَاحَتِهِ لِلْعُودِ جَادَ بِهَا مَدًّا بِلَا سَقَمِ

الجمع مع التقسيم

جَمْعٌ تَقَسَّمَ يَوْمَ الصَّلْبِ فِي فِرَقٍ مِنْ قَاتِلٍ وَمُهِينٍ ثُمَّ مُنْتَقِمِ

الجمع

فَٱلْجِلْدُ وَٱلْهُزْؤُ وَٱلتَّشْتِيمُ مَعْ عَذَلٍ ... اِهَانَةٌ نَالَهَا مِنْ بَغْيِ جُمْعِهِمِ

جناس البعض

بَعْضٌ حَمَاقَتُهُمْ زَادَتْ حَمَاسَتَهُمْ ... جَوْرًا وَبَعْضٌ كَكَلْبٍ كَالِبٍ نَهِمِ

المشوَّش

وَشَوَّشُوا ٱلْفَرْعَ مِنْ خَدْشٍ بِهَامَتِهِ ... وَٱلْقَدْغُ فِي ٱلْجِسْمِ وَٱلْكَفَّيْنِ وَٱلْقَدَمِ

التشبيه

وَٱلْجِسْمُ اِنْ جِئْتُ تَشْبِيهًا لِحَالَتِهِ ... قُلْ كَٱلْخَلَالِ تُحُولًا مِنْ نَكَالِهِمِ

تجاهل العارف

تَجَاهَلَ ٱلنَّاسُ فِي عِرْفَانِ صُورَتِهِ ... قَالُوا اَسُقْمٌ بِهِ اَمْ بِٱلنَّكَالِ رُمِي

المساواة

بِٱلْمَوْتِ سَاوَى ٱلْمَلَا اَمَّا قِيَامَتُهُ ... فَاَوْضَحَتْ قُدْرَةَ ٱللَّاهُوتِ كَٱلْعَلَمِ

التوهيم

تَوْهِيمُ قَلْبٍ جَلَتْ بُشْرَى قِيَامَتِهِ ... جَلَّتْ بِنَصْرٍ وَعَزَّتْ سَاعَةَ ٱلْغُمَمِ

الجناس الكامل

وَبَعْدَمَا قَدْ قَضَى فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ اِلَى م ... ٱلْعُلَا اَرْتَقَى ذَا ٱلْجَمِيلِ ٱلْكَامِلِ ٱلشِّيَمِ

الانسجام

وَمِنْ لَدُنْهُ ٱلْمُعَزِّي حَلَّ مُنْسَجِمًا ... عَلَى تَلَامِيذِهِ كَٱللُّسْنِ مِنْ ضَرَمِ

التسهيم

تَسَهَّمُوا ٱلْاَرْضَ لِلْبُشْرَى فَقَالَ لَهُمْ ... وَتَلْمِذُوا عَمِّدُوا كُلًّا مِنَ ٱلْاُمَمِ

التمكين

جَالُوا بِتَمْكِينِ عَزْمٍ فِي بِشَارَتِهِمْ ... وَلَمْ يُبَالُوا بِتَعْذِيبٍ وَسَفْكِ دَمِ

الجناس المركب المجموع

جَادُوا بِأَنْفُسِهِمْ حُبًّا كَمَالِهِمِ ... وَجَمْعُ تَرْكِيبِ فَضْلٍ فِي كَمَالِهِمِ

الإرداف

وَارْدَفُوا الْعَزْمَ بَأْسًا اَسْكَنُوهُ مَحَلَّ م الْحُبِّ فِي السَّيْرِ لِلْبُشْرَى بِرَبِّهِمِ

الاتساع

بِيضُ الْمَفَارِقِ بَلْ طُهْرُ النُّفُوسِ هُمُ ... وَبِاتِّسَاعِ الْحِجَى فَازُوا بِقَصْدِهِمِ

الاستتباع

يَسْتَتْبِعُونَ بِمَحْضِ النُّصْحِ فِعْلَ هُدًى ... وَيَحْفَظُونَ تُقَاهُمْ حِفْظَ دِينِهِمِ

المردَّد

وَمِنْ مُرَدَّدِ اِنْذَارٍ حَكَوْهُ فَذُو م الْهَوَى هَوَى كَذَاكَ الْعَابِدُ الصَّنَمِ

الترصيع

هُمْ رَصَّعُوا اَدَبًا مِنْ دُرِّ لَفْظِهِمِ ... كَمْ اَبْدَعُوا خُطَبًا فِي سِرِّ وَعْظِهِمِ

ايتلاف اللفظ مع الوزن

تَآلَفَ اللَّفْظُ مَعْ وَزْنٍ بِمَدْحِهِمِ ... لِرَبِّهِمْ ضِمْنَ نَظْمٍ فِيهِ مُنْسَجِمِ

ايتلاف اللفظ مع المعنى

اَللَّفْظُ فِي الْمَدْحِ مَعْ مَعْنَاهُ مُؤْتَلِفٌ ... فَلِلْمَعَانِي تَرَى الْاَلْفَاظَ كَالْخَدَمِ

الفرائد

وَكَمْ مِنْ فَرَائِدِ دُرٍّ فِيهِ قَدْ نَظَمُوا ... عِقْدَ النَّشِيدِ فَاَعْجِبْ بِاَنْتِظَامِهِمِ

ايتلاف المعنى مع الوزن

تُؤَلِّفُ الْوَزْنَ وَالْمَعْنَى نَشَائِدُهُمْ ... صَحِيحَةً عَذْبَةً فِي اللَّحْنِ وَالنَّغَمِ

التسميط

تَسْمِيطُهُمْ دُرَرًا اَضْحَى بِهِ غُرَرًا ... اَمْسَى لَنَا قَمَرًا فِي لَيْلَةِ الْغُمَمِ

ايتلاف اللفظ مع اللفظ

وَاللَّفْظُ لِلْحَمْدِ فِي الْأَفْوَاهِ مُؤْتَلِفٌ مَعْ لَفْظِ مَدْحٍ بَدَا مِنْ أَلْسُنِ الدِّيَمِ

الابداع

اِبْدَاعُ نَظْمِهِمِ دَمْعِي جَلَا وَحَلَا اِيدَاعُ نَثْرِهِمِ سَمْعِي كَمُنْتَظِمِ

التفريع

مَا نَسْمَةٌ حَمَلَتْ مِسْكًا لَطَائِفُهَا يَوْمًا بِأَطْيَبَ مِنْ تَفْرِيعِ فَضْلِهِمِ

المدح في معرض الذم

فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ مَدْحًا قَدْ خَصَصْتُ بِهِمْ لَا عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى الْإِيفَاءِ بِالذِّمَمِ

الجناس المرفل

وَبِالْأَيَادِي أَيَادِيهِمْ سَمَتْ كَرَمًا فَرَاحَ يَرْفُلُ بِالْإِثْرَاءِ ذُو الْعَدَمِ

الكناية

تَرَاحُمٌ لِعُفَاةٍ يُسْرِعُونَ إِلَى قُرَاتِهِمْ ذَا يُكَنِّي عَنْ سَخَائِهِمِ

التوزيع

عَلَى الْعُفَاةِ جَمِيعًا وَزَّعُوا نِعَمًا فَعَادَ أَعْوَزُهُمْ بِالْعِزِّ وَالْعِظَمِ

الاشتراك

سَادُوا بِصَدْرٍ غَدَا بِالْعِزِّ مُشْتَرَكًا صَدْرِ الْجُلُوسِ عَلَى كُرْسِي قَضَائِهِمِ

الموازنة

مُوَازِنٍ وَاتِنٍ مُسْتَرْكِنٍ حَسَنٍ مُسْتَعْلِنٍ فَاتِنٍ مُسْتَمْكِنٍ فَخِمِ

المؤتلف والمختلف

فَجَمْعُ مُؤْتَلِفٍ فِيهِمْ وَمُخْتَلِفٍ حُكْمًا وَفَضْلًا فَسِمْعَانٌ بِذَاكَ سَمِي

الايضاح

مَا بَيْنَهُمْ صَخْرَةٌ لِلْحَقِّ مُوضِحَةٌ بَنَى الْمَسِيحُ عَلَيْهَا بَيْتَ جَمْعِهِمِ

الطاعة والعصيان

فَمَنْ يُطِعْ حُكْمَهُ يُرْحَمْ لَدَى شَجَبٍ وَمَنْ عَصَى أَمْرَهُ يُحْرَمْ مِنَ ٱلنِّعَمِ

حسن النسق

نَثْرِي يُنَاسِقُهُمْ شِعْرِي يُطَابِقُهُمْ ثَغْرِي يُوَافِقُهُمْ فِي مَدْحِ رَبِّهِمِ

التجزئة

أَرْبَيْتُ فِي هَمِي جَزَأْتُ فِي كَلِمِي رَوَّيْتُ فِي قَلَمِي أَرْوَيْتُ كُلَّ ظَمِي

المتوازن

تَوَازَنَتْ حِكَمِي حَمْدًا لِمُنْسَبِحٍ مُلَازِمًا مَدْحَهُ نَظْمًا بِمُنْسَجِمِ

التسجيع

سَجْعِي وَمُنْتَظَمِي مَدْحًا حَلَا بِفَمِي حَاكَيْتُ فِي رَنِّي ٱلشُّخُورَ بِٱلنَّغَمِ

الاتفاق

يَسُوعُ وَٱسْمُهُ فِي تَخْلِيصِنَا ٱتَّفَقَا فَهُوَ ٱلْمُخَلِّصُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نِقَمِ

الاعتراض

فَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْنَا فِي عِبَادَتِهِ وَهُوَ ٱلْإِلٰهُ وَمَنْ يَعْبُدْهُ يَعْتَصِمِ

العنوان

بِهِ ٱلسَّفِينَةُ نَجَّتْ نُوحَ وَهْيَ غَدَتْ عُنْوَانَ بِيعَتِهِ تُوقِي مِنَ ٱلْعَرِمِ

الترشيح

فَحَلَّ مَرْكَبَ تِيهِ حِينَ رَكِبَهَا فَكَمْ تَرَشَّحَ مِنْهَا ٱلرُّشْدُ فِي ٱلظُّلَمِ

التلميح

تَلْمِيحُ تَعْلِيمِهَا ذَاكَ ٱلسِّرَاجُ بِهِ يُهْدَى وَفِي ٱلسُّرْجِ إِرْشَادٌ إِلَى ٱللَّقَمِ

التتميم

تَتْمِيمَ سِرِّ ٱلْفِدَا وَٱلْحُبِّ سَلَّمَهَا يَاسَعْدَهَا وَٱضْمَحَلَّ ٱلْبُؤْسُ بِٱلنِّعَمِ

التصريع

تَصْرِيعُ أَبْوَابِهَا يُوقِي مِنَ ٱلْخَصِمِ ... فَٱلْمَرْءُ دَاخِلَهَا كَٱلْمَرْءِ فِي ٱلْأُطُمِ

التجريد

يَنَالُ صَوْبَ ٱلْحَيَا مِنْ بَسْطِ رَاحَتِهَا ... مَنْ قَدْ تَجَرَّدَ عَنْ كُفْرٍ بِرَبِّهِمِ

المعمّى

حَوَى أَرِيجَ بَهَارٍ قَلْبُهُ وَسَمَا ... مِنْ شَمِّهِ يَهْتَدِي مَنْ عَنْ غِنَاهُ عَمِي

التعريض

تَطْوِيلُ تَعْرِيضِ هَاجِيهَا يُعَظِّمُهَا ... وَٱلْبُغْضُ لِلْحَقِّ مَكْرُوهٌ كَذِي أَضَمِ

التنكيت

دَعِ ٱلْمُنَكِّتَ إِذْ فِي ذِي ٱلْكَنِيسَةِ وَحْـ ... ـدَهَا نَجَاةٌ مِنَ ٱلطُّوفَانِ وَٱلضَّرَمِ

التوشيح

فَٱلرَّبُّ وَشَّحَهَا مِنْ عِصْمَةٍ حُلَلًا ... أَوْقَتْ خُطَى حُكْمِهَا مِنْ زَلَّةِ ٱلْقَدَمِ

تنسيق الصفات

فَٱسْجُدْ لَهُ عِنْدَ تَنْسِيقِ ٱلصِّفَاتِ وَقُلْ ... رَبٌّ إِلٰهٌ قَدِيرٌ كَامِلُ ٱلشِّيَمِ

التعطف

فَٱخْتَارَ ذَاكَ ٱلصَّفَا رَأْسًا وَقَالَ لِذَا ... ٱلْمُخْتَارِ كُنْ رَاعِيًا وَٱعْطِفْ عَلَى ٱلْغَنَمِ

العقد

مَهْمَا تَحُلُّ بِأَرْضٍ يَنْجَلِـلْ بِسَمَا ... وَمَا رَبَطْتَ بِعَقْدِ ٱلرَّبْطِ مِنْكَ رُمِي

التعليل

لَوْ لَمْ يَجِئْنَا بِتَعْلِيلٍ تَجَسُّـدُهُ ... مِنْ مَرْيَمٍ مَا شُفِينَا مِنْ ضَنَى ٱلسَّقَمِ

المجاز

هِيَ ٱلْمَجَازُ لِإِدْرَاكِ ٱلشِّفَاءِ هِيَ مِ ... ـ ٱلْعَرْشُ ٱلرَّفِيعُ وَبُرْجُ ٱلْبَارِئِ ٱلنَّسَمِ

المبالغة

بِهَا خَلَاصُ جَمِيعِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ أَرَدتَّ بَالِغْ وَقُلْ بَلْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ

التوليد

لِكُلِّ هَوْلٍ طَرَا تُرْجَى شَفَاعَتُهَا نَالَ ٱلْعِبَادُ بِهَا تَوْلِيدَ أَمْنِهِمِ

الاغراق

لَوْ تَابَ إِبْلِيسُ يَبْغِي مَاءَ نِعْمَتِهَا لَأَغْرَقَتْهُ بِتَيَّارٍ مِنَ ٱلنِّعَمِ

الغلوّ

فَقَطْرَةٌ مِنْ نَدَاهَا لَا غُلُوَّ بِهَا تَكَادُ تُحْيِي رَمِيمًا صَارَ كَٱلْعَدَمِ

التضمين

وَخَلْقُهَا فَاقَ فِي حُسْنٍ تَضَمَّنَهُ وَإِنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ ٱللهِ كُلِّهِمِ

المدح المفرّغ

يَسْمُو ٱلْمَدِيحُ بِتَفْرِيغٍ لِطَلْعَتِهَا سُمُوَّ خُلْقٍ حَوَتْ بِٱلْحِلْمِ مُلْتَئِمِ

التعديد

تَعْدِيدُ أَفْضَالِهَا يُبْدِي لِسَامِعِهِ طُهْرًا وَبِرًّا وَحِلْمًا مَعْ عُلَى ٱلشِّيَمِ

التهذيب والتأديب

تَهْذِيبُ تَأْدِيبِهَا قَدْ زَادَنَا عَجَبًا بِصَبْرِهَا حِينَ تَعْذِيبِ ٱبْنِهَا ٱلْعَلَمِ

التفصيل

فِي شَرْحِ آلَامِهِ ٱلتَّفْصِيلُ مُتَّسِعٌ يَكِلُّ عَنْ شَرْحِهَا ذُو ٱلْفَهْمِ وَٱلْحِكَمِ

ايتلاف المعنى مع المعنى

وَصْلٌ وَفَصْلٌ لَهُ لِلْمَعْنَيَيْنِ غَدَا تَأْلُّفٌ نَحْوَ صِدِّيقٍ وَمُحْتَرَمِ

التوكيد

لَهُ ٱلْقَضَاءُ بِتَوْكِيدٍ يَدِينُ بِهِ أَمَا تَعِي أَنَّهُ ٱلدَّيَّانُ لِلْأُمَمِ

صناعة التنويع

تَنْوِيعُ سَطْوَتِهِ يَوْمًا يُحَاكِمُهُمْ كَاللَّيْثِ كَالسَّيْفِ كَالْجَبَّارِ كَالضَّرَمِ

المشاكلة

يَجْزِي إِسَاءَةَ شَانِيهِ بِسَيِّئَتِهِ يُشَاكِلُ الْخَيْرَ خَيْرًا خُفَّ بِالْكَرَمِ

مجنح القلب

مُدْنٍ لِصَفْحٍ جَنَاحَ الْقَلْبِ عَاطِفُهُ إِذَا رَأَى تَوْبَةً وَالدَّمْعُ فِي نَدَمِ

الجمع مع التفريق

فِي وَجْهِهِ النُّورُ لِلْأَصْحَابِ يَشْمَلُهُمْ وَلِلْعِدَا النَّارُ فِي تَفْرِيقِ جَمْعِهِمِ

مراعاة النظير

وَجْهُ السَّمَاءِ بِهِ كَالْبَرْقِ مُلْتَمِعٌ رَاعَى النَّظِيرَ بِوَجْهٍ لِلظِّبَاءِ سَمِي

التفريق

قَالُوا هُوَ الْمُلْكُ وَالتَّفْرِيقُ يَظْهَرُ لِي فَذَاكَ فَانٍ وَهٰذَا غَيْرُ مُنْعَدِمِ

السلب والايجاب

لَا يُوجِبُ السَّلْبَ فِي إِعْزَازِ عُصْبَتِهِ وَيُوجِبُ الذُّلَّ لِلْأَشْرَارِ فِي النِّقَمِ

المتقارب

اَرْجُو التَّقَارُبَ مِنْ أَعْدَادِ زُمْرَتِهِ لَا مِنْ عَدِيدِ الْعِدَا فِي الْحَشْرِ وَالزِّحَمِ

حسن البيان

حُسْنُ الْبَيَانِ بِنُورٍ مِنْهُ أَرْشَدَنِي إِلَى التَّقَرُّبِ مِنْ أُولَئِكَ الْخَدَمِ

المزاوجة

إِذَا تَزَاوَجَ هَمِّي وَالْتَجَأْتُ لَهُ بِالْمَدْحِ فُزْتُ وَوَقَّانِي مِنَ الْغُمَمِ

الاستعانة

مَا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْمًا وَاسْتَعَنْتُ بِهِ إِلَّا وَنِلْتُ جِوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضَمِ

التقسيم

فَٱلْكَوْنُ قَدْ عَمَّهُ تَقْسِيمُ أَنْعُمِهِ جِنْسًا وَنَوْعًا وَفَرْدًا وَهْوَ فِي شَمَمِ

التمثيل

تُرْبِي عَلَى ٱلسَّيْلِ فِي ٱلتَّمْثِيلِ نِعْمَتُهُ شَتَّانَ مَا بَيْنَ طَلٍّ وَٱلْحَيَا ٱلْعَرِمِ

نفي الشيء بايجابه

لَا يَنْتَفِي ٱلْجُودُ مِنْ إِيجَابِهِ أَبَدًا وَلَا يَشِينُ بِمَنٍّ رَوْنَقَ ٱلنِّعَمِ

مختوم الطرفين

مِنْ فَضْلِهِ أَرْتَجِي تَخْتِيمَهُ طَرَفَيْ قَضِيَّتِي فِي ٱلْقَضَا بِٱلْمَجْدِ وَٱلْعِظَمِ

التضمين المزدوج

تَضْمِينُ حَمْدِي لَهُ لِلْفَضْلِ مُزْدَوِجًا عَقْلًا وَنَقْلًا جَنَانِي جَاءَهُ وَفَمِي

الموارِدة

وَارِدَ ٱلْفِكْرُ فِي مَدْحٍ أُلَازِمُهُ لِمَنْ غَدَا لِخَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ

التطريز

تَطْرِيزُ حَمْدِي بِمَدْحِي فِيهِ مُلْتَحِمٌ يَا حُسْنَ مُلْتَحَمٍ يَا حُسْنَ مُلْتَحَمِ

الاحتراس

إِلَيْكَ جِئْتُ أَيَا مَوْلَايَ مُنْسَحِقًا قَلْبًا وَمُحْتَرِسًا خُذْنِي مِنَ ٱلْخَدَمِ

المصغر

نُفَيْسَتِي مِنْ زُلَيْلَاتٍ جَنَتْ صَغُرَتْ وَلِّي عُزَيْمِي مُهَيْزِيعًا وَلَمْ يَقُمِ

التدبيج

فَٱزْرَقَّ أَبْيَضُ وَجْهِي حِينَ دَبَّجَهُ سَوَادُ إِثْمِي بِصِبْغٍ فِيهِ مُتَّسِمِ

المضارع

وَبِٱضْطِرَابِ جَنَانٍ وَٱضْطِرَامِ حَشًا نَازَعْتُ ذَا زَلَّةٍ فِي يَوْمِ مُحْتَكَمِ

التصريف

فَٱلْقَلْبُ حَرَّقَهُ ٱلتَّصْرِيفُ فِي عِلَلٍ وَٱلْجَفْنُ قَرَّحَهُ ٱلتَّدْمِيعُ فِي نَدَمِ

براعة الطلب

بَرَاعَتِي فِي مَدِيحِي مُنْتَهَى طَلَبِي فَٱسْأَلْ سَخَاكَ فَلَمْ ٱحْتَجْ إِلَى ٱلْكَلِمِ

الادماج

أَدْمَجْتُ فِي مَدْحِهِ شَكْوَايَ مِنْ زَلَلِي وَعَسْجَدُ ٱلْخَدِّ مِنْ ذَا ٱلدَّمْعِ كَٱلْعَنَمِ

الحذف

أَرُومُ مِنْهُ ٱنْتِصَارًا حَاذِفًا هَلَعًا وَعَاضِدًا وَقْتَ هَوْلِ ٱلْحَشْرِ وَٱلنِّقَمِ

التاريخ

بِهِ ٱلْأَثِيمُ جَنَى بِرًّا فَقُلْتُ بِهِ مُذْ أَرَّخُوهُ لَنَا بِٱلْبِرِّ مُغْتَنِمِي *

حسن الختام

بِهِ غَدَا فِي عَلَاءٍ حُسْنُ مُبْتَدَإِي هَنِّي بِهِ يَا إِلٰهِي حُسْنَ مُخْتَتَمِي

ختام الختام

وَأَخْتِمُ ٱخْتِتَامِي بِأَنْ أَحْظَى بِمَطْلَعِكَ ٱلْـ ـبَاهِي بِجِذْرِ ٱلسَّنَى يَا مُرْشِدَ ٱلْأُمَمِ

---

* قولهُ : (لنا بالبر مغتنمي) تاريخ بحساب الجُمَّل للسنة التي فيها نظمت هذه البديعيَّة وهي سنة ١٨٥٨

البحث السادس

في المطابقة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٩٤ من علم الادب)

هٰذا ٱلنَّوعُ هُوَ فِي ٱلمَعاني ضِدُّ ٱلتَّجنيسِ فِي ٱلألفاظِ لِأنَّ ٱلتَّجنيسَ هُوَ اَنْ يَتَّحِدَ ٱللَّفظُ مَعَ ٱختِلافِ ٱلمَعنَى وَهٰذا هُوَ اَنْ يَكونَ ٱلمَعنيانِ ضِدَّينِ . وَقَدْ اَجمَعَ اَربابُ هٰذِهِ ٱلصِّناعَةِ عَلَى اَنَّ ٱلمُطابَقَةَ فِي ٱلكَلامِ هِيَ ٱلجَمْعُ بَينَ ٱلشَّيءِ وَضِدِّهِ كَٱلسَّوادِ وَٱلبَياضِ وَٱللَّيلِ وَٱلنَّهارِ . وَخالَفَهُم فِي ذٰلِكَ قُدامَةُ بنُ جَعفَرٍ ٱلكاتِبُ فَقالَ ٱلمُطابَقَةُ اِيرادُ لَفظَينِ مُتَساوِيَينِ فِي ٱلبِناءِ وَٱلصِّيغَةِ مُختَلِفَينِ فِي ٱلمَعنَى . وَهٰذا ٱلَّذي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلتَّجنيسُ بِعَينِهِ . غَيرَ اَنَّ ٱلأَسماءَ لا مُشاحَّةَ فِيها اِلَّا اِذا كانَتْ مُشتَقَّةً . وَلْنَنظُرْ نَحنُ فِي ذٰلِكَ وَهُوَ اَنْ نَكشِفَ عَنْ اَصلِ ٱلمُطابَقَةِ فِي وَضعِ ٱللُّغَةِ وَقَدْ وَجَدْنا ٱلطِّباقَ فِي ٱللُّغَةِ مِنْ طابَقَ ٱلبَعيرُ فِي سَيرِهِ اِذا وَضَعَ رِجلَهُ مَوضِعَ يَدِهِ وَهٰذا يُؤَكِّدُ ما ذَكَرَهُ قُدامَةُ لِاَنَّ ٱليَدَ غَيرُ ٱلرِّجلِ لا ضِدُّها وَٱلمَوضِعُ ٱلَّذي يَقَعانِ فِيهِ واحِدٌ وَكَذٰلِكَ ٱلمَعنيانِ يَكونانِ مُختَلِفَينِ وَٱللَّفظُ ٱلَّذي يَجمَعُهُما واحِدٌ . فَقُدامَةُ سَمّى هٰذا ٱلنَّوعَ مِنَ ٱلكَلامِ مُطابَقَةً حَيثُ كانَ ٱلٱسمُ مُشتَقًّا مِمّا سُمِّيَ بِهِ وَذٰلِكَ مُناسِبٌ وَواقِعٌ فِي مَوقِعِهِ اِلَّا اَنَّهُ جَعَلَ لِلتَّجنيسِ ٱسمًا آخَرَ وَهُوَ ٱلمُطابَقَةُ وَلا بَأسَ بِهِ اِلَّا اِنْ كانَ مِثلَهُ بِٱلضِّدَّينِ كَٱلسَّوادِ وَٱلبَياضِ فَاِنَّهُ يَكونُ قَدْ خالَفَ ٱلأَصلَ ٱلَّذي

اَصَّلَهُ بِٱلْمِثَالِ ٱلَّذِي مَثَّلَهُ . وَاَمَّا غَيْرُهُ مِنْ اَرْبَابِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَاِنَّهُمْ سَمَّوْا هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُطَابِقًا لِغَيْرِ اِشْتِقَاقٍ وَلَا مُنَاسَبَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُسَمَّاهُ . هٰذَا ٱلظَّاهِرُ لَنَا مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ اِلَّا اَنْ يَكُونُوا عَلِمُوا لِذٰلِكَ مُنَاسَبَةً لَطِيفَةً لَمْ نَعْلَمْهَا نَحْنُ . وَلْنَرْجِعْ اِلَى ذِكْرِ هٰذَا ٱلْقِسْمِ مِنَ ٱلتَّأْلِيفِ وَاِيضَاحِ حَقِيقَتِهِ فَنَقُولُ : اَلْاَلْيَقُ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَعْنَى اَنْ يُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْمُقَابَلَةَ لِاَنَّهُ لَا يَخْلُو ٱلْحَالُ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : اِمَّا اَنْ يُقَابَلَ ٱلشَّيْءُ بِضِدِّهِ اَوْ يُقَابَلَ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ . وَلَيْسَ لَنَا وَجْهٌ ثَالِثٌ . (فَاَمَّا ٱلْاَوَّلُ) وَهُوَ مُقَابَلَةُ ٱلشَّيْءِ بِضِدِّهِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا فَاِنَّهُ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : اَحَدُهُمَا مُقَابَلَةٌ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى وَٱلْاٰخَرُ مُقَابَلَةٌ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ . اَمَّا ٱلْمُقَابَلَةُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فَكَقَوْلِهِ : فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا . فَقَابَلَ بَيْنَ ٱلضَّحِكِ وَٱلْبُكَاءِ وَٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ : لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا اٰتَاكُمْ . وَهٰذَا مِنْ اَحْسَنِ مَا يَجِيءُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ . وَقَالَ اَيْضًا : خَيْرُ ٱلْمَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنٍ نَائِمَةٍ . وَمِنَ ٱلْحَسَنِ ٱلْمَطْبُوعِ ٱلَّذِي لَيْسَ بِمُتَكَلَّفٍ قَوْلُ عَلِيٍّ لِعُثْمَانَ : اِنَّ ٱلْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ وَٱلْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيٌّ وَاَنْتَ رَجُلٌ اِنْ صُدِقْتَ سَخِطْتَ وَاِنْ كُذِبْتَ رَضِيتَ . فَقَابَلَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ وَٱلثَّقِيلَ ٱلْمَرِيَّ بِٱلْخَفِيفِ ٱلْوَبِيِّ وَٱلصِّدْقَ بِٱلْكَذِبِ وَٱلسُّخْطَ بِٱلرِّضَا وَهٰذِهِ خَمْسُ مُقَابَلَاتٍ فِي هٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْقِصَارِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ لَمَّا قَالَ ٱلْخَوَارِجُ : (لَا حُكْمَ اِلَّا لِلّٰهِ تَعَالَى) : هٰذِهِ كَلِمَةُ حَقٍّ اُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ .

وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَدْ اَحْضَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَقْتُلَهُ فَقَالَ لَهُ : مَا ٱسْمُكَ . قَالَ : سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ . قَالَ بَلْ اَنْتَ شَقِيُّ بْنُ كُسَيْرٍ . وَقَدْ كَانَ ٱلْحَجَّاجُ مِنَ ٱلْفُصَحَاءِ ٱلْمَعْدُودِينَ وَفِي كَلَامِهِ هٰذَا مُطَابَقَةٌ حَسَنَةٌ فَاِنَّهُ نَقَلَ ٱلْاِسْمَيْنِ اِلَى ضِدَّيْهِمَا فَقَالَ : فِي (سَعِيدٍ) شَقِيٌّ . وَفِي (جُبَيْرٍ) كُسَيْرٌ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ تَخْتَصَّ بِهِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱللُّغَاتِ . وَمِمَّا وَجَدْتُهُ فِي لُغَةِ ٱلْفُرْسِ اَنَّهُ لَمَّا مَاتَ قُبَادُ اَحَدُ مُلُوكِهِمْ قَالَ وَزِيرٌ : حَرَّكَنَا بِسُكُونِهِ . وَاَوَّلُ كِتَابِ ٱلْفُصُولِ لِبُقْرَاطَ فِي ٱلطِّبِّ قَوْلُهُ : ٱلْعُمْرُ قَصِيرٌ وَٱلصِّنَاعَةُ طَوِيلَةٌ . (وَاَمَّا ٱلْمُقَابَلَةُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلْاَضْدَادِ) فِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ ٱلْمُقَنَّعِ ٱلْكِنْدِيِّ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ :

لَهُمْ جُلُّ مَالِي اِنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى ... وَاِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ اُكَلِّفْهُمُ رِفْدَا

فَقَوْلُهُ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى) . بِمَعْنَى قَوْلِهِ : كَثُرَ مَالِي فَهُوَ اِذًا مُقَابَلَةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لِاَنَّ حَقِيقَةَ ٱلْاَضْدَادِ ٱللَّفْظِيَّةِ اِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ نَحْوُ : قَامَ وَقَعَدَ . وَحَلَّ وَعَقَدَ . وَقَلَّ وَكَثُرَ . فَاِنَّ ٱلْقِيَامَ ضِدُّ ٱلْقُعُودِ . وَٱلْحَلَّ ضِدُّ ٱلْعَقْدِ . وَٱلْقَلِيلَ ضِدُّ ٱلْكَثِيرِ . فَاِذَا تُرِكَ ٱلْمُفْرَدُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ وَتُوُصِّلَ اِلَى مُقَابَلَتِهِ بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ كَانَ ذٰلِكَ مُقَابَلَةً مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ كَقَوْلِ هٰذَا ٱلشَّاعِرِ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى) . فِي مَعْنَى (كَثُرَ مَالِي) وَهٰذِهِ مُقَابَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ لَا لَفْظِيَّةٌ فَاعْرِفْ ذٰلِكَ . (وَاَمَّا مُقَابَلَةُ ٱلشَّيْءِ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ . فَهِيَ ضَرْبَانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنْ لَا يَكُونَ مِثْلًا . (وَٱلْآخَرُ) اَنْ

يكونَ مِثلًا . فالضَّربُ الاوَّلُ يتفرَّعُ الى فرعَينِ : (الاوَّلُ) ما كانَ بينَ المُقابَلِ بهِ والمُقابَلِ نوعُ مُناسَبةٍ وتقاربٍ . كقولِ قُريطِ ابنِ أُنَيفٍ :

يَجزُونَ مِن ظُلمِ اهلِ الظُّلمِ مَغفِرةً ... ومِن إساءةِ اهلِ السُّوءِ إحسانا

فقابَلَ الظُّلمَ بالمَغفِرةِ وليسَ هوَ ضِدًّا لها . الَّا انَّهُ لمَّا كانتِ المَغفِرةُ قريبةً مِنَ العدلِ حسُنَتِ المُقابَلةُ بينَها وبينَ الظُّلمِ . (الفرعُ الثَّاني) ما كانَ بينَ المُقابَلِ والمُقابَلِ بهِ بُعدٌ وذاكَ ممَّا لا يَحسُنُ استِعمالُهُ . كقولِ ابي الطَّيِّبِ المُتنبّي :

لِمَن يطلُبُ الدُّنيا إذا لم يُرِد بها ... سُرورَ مُحِبٍّ او مَساءةَ مُجرِمِ

فانَّ المُقابَلةَ الصَّحيحةَ بينَ المُحِبِّ والمُبغِضِ لا بينَ المُحِبِّ والمُجرِمِ وممَّا يتَّصِلُ بهذا الضَّربِ ضَربٌ مِنَ الكلامِ يُسمَّى المُؤاخاةَ بينَ المَعاني والمُؤاخاةَ بينَ المَباني وكانَ ينبَغي انْ نَعقِدَ لهُ بابًا مُفرَدًا لكِنْ إذْ رأيناهُ ينظُرُ الى التَّقابُلِ مِن وجهٍ وصَلناهُ بهِ . امَّا المُؤاخاةُ بينَ المَعاني فهوَ انْ يُذكَرَ المَعنَى معَ اخيهِ لا معَ الاجنبيِّ . مِثالُهُ انْ تذكُرَ وصفًا مِنَ الاوصافِ وتقرُنَهُ بما يقرُبُ مِنهُ ويلتئِمُ بهِ فإنْ ذكَرتَهُ معَ ما يبعُدُ مِنهُ كانَ ذلكَ قدحًا في الصِّناعةِ وانْ كانَ جائزًا . وقد رأيتُ ابا نُواسٍ يقعُ في هذا الغلَطِ كثيرًا كقولِهِ في وصفِ الدِّيكِ :

لهُ اعتِدالٌ وانتِصابُ قدٍّ ... وجِلدُهُ يُشبِهُ وشيَ البُردِ

كانَّها الهُدّابُ في الفِرندِ ... مُحدودِبُ الظَّهرِ كريمُ الجدِّ

فَإِنَّهُ ذَكَرَ ٱلظَّهْرَ وَقَرَنَهُ بِذِكْرِ ٱلْجَدِّ وَهٰذَا لَا يُنَاسِبُ هٰذَا لِأَنَّ ٱلظَّهْرَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَلْقِ وَٱلْجَدَّ فِي ٱلنَّسَبِ . وَأَمَّا (ٱلْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ ٱلْمَبَانِي) فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَبَانِي ٱلْأَلْفَاظِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ :

فَٱذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ يُثْنِي عَلَيْهَا ٱلسَّهْلُ وَٱلْأَوْعَارُ

وَٱلْأَحْسَنُ أَنْ : يُقَالَ ٱلسَّهْلُ وَٱلْوَعْرُ أَوِ ٱلسُّهُولُ وَٱلْأَوْعَارُ . لِيَكُونَ ٱلْبِنَاءُ ٱللَّفْظِيُّ وَاحِدًا أَيْ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظَانِ وَارِدَيْنِ عَلَى صِيغَةِ ٱلْجَمْعِ أَوِ ٱلْأَفْرَادِ . وَإِذَا أَنْصَفْنَا هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ وَجَدْنَا ٱلنَّاثِرَ مُطَالَبًا بِهِ دُونَ ٱلنَّاظِمِ لِمَكَانِ إِمْكَانِهِ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ . (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي) هُوَ فِي مُقَابَلَةِ ٱلشَّيْءِ مِثْلَهُ وَهُوَ يَتَفَرَّعُ إِلَى فَرْعَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمُفْرَدِ بِٱلْمُفْرَدِ . (وَٱلْآخَرُ) مُقَابَلَةُ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلْأَوَّلُ) كَقَوْلِهِ : نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ . وَقَدْ رُوعِيَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ فِي ٱلْقُرْآنِ كَثِيرًا فَإِذَا وَرَدَ فِي صَدْرِ آيَةٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ كَانَ جَوَابُهُ مُمَاثِلًا كَقَوْلِهِ : مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ . وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ غَيْرَ جَوَابٍ فَإِنَّهُ لَا يَلْتَزِمُ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْمُرَاعَاةَ ٱللَّفْظِيَّةَ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي فِي مُقَابَلَةِ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ) ٱعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ ٱلْجُمْلَةُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُسْتَقْبَلَةً قُوبِلَتْ بِمُسْتَقْبَلَةٍ . وَإِنْ كَانَتْ مَاضِيَةً قُوبِلَتْ بِمَاضِيَةٍ وَرُبَّمَا قُوبِلَتِ ٱلْمَاضِيَةُ بِمُسْتَقْبَلَةٍ وَٱلْمُسْتَقْبَلَةُ بِٱلْمَاضِيَةِ إِذَا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا بِمَعْنَى ٱلْأُخْرَى فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي . فَإِنَّ هٰذَا تَقَابُلٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى وَلَوْ كَانَ ٱلتَّقَابُلُ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لَقَالَ : وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَإِنَّمَا أَهْتَدِي لَهَا

البحث السابع

في حقيقة التجنيس

(عن كتاب جنان الجناس للصفدي وعن الشريشي وابن الاثير)

(راجع صفحة ١١٨ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ ٱلتَّجْنِيسَ غُرَّةٌ شَادِخَةٌ فِي وَجْهِ ٱلْكَلَامِ وَقَدْ تَصَرَّفَ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْ اَرْبَابِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِيهِ فَغَرَّبُوا وَشَرَّقُوا لَاسِيَّمَا ٱلْمُحْدَثِينَ مِنْهُمْ. وَصَنَّفَ ٱلنَّاسُ فِيهِ كُتُبًا كَثِيرَةً وَجَعَلُوهُ اَبْوَابًا مُتَعَدِّدَةً وَٱخْتَلَفُوا فِي ذٰلِكَ وَادْخَلُوا بَعْضَ تِلْكَ ٱلْاَبْوَابِ فِي بَعْضٍ. وَاِنَّمَا سُمِّيَ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُجَانِسًا لِاَنَّ حُرُوفَ اَلْفَاظِهِ يَكُونُ تَرْكِيبُهَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ. اَمَّا حَقِيقَتُهُ فَاعْلَمْ اَنَّ اَرْبَابَ ٱلْبَلَاغَةِ عَرَّفُوهُ بِحُدُودٍ ٱخْتَلَفَتْ اَقْوَالُهُمْ فِيهَا. فَقَالَ ٱلرُّمَّانِيُّ: هُوَ بَيَانُ ٱلْمَعَانِي بِاَنْوَاعٍ مِنَ ٱلْكَلَامِ يَجْمَعُهَا اَصْلٌ وَاحِدٌ مِنَ ٱللُّغَةِ. وَقَالَ قُدَامَةُ: هُوَ ٱشْتِرَاكُ ٱلْمَعَانِي فِي اَلْفَاظٍ مُتَجَانِسَةٍ عَلَى جِهَةِ ٱلْاِشْتِقَاقِ. وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ: هُوَ اَنْ تَجِيءَ بِكَلِمَةٍ تُجَانِسُ اُخْتَهَا. وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْاَثِيرِ ٱلْجَزَرِيُّ: ٱلْجِنَاسُ هُوَ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ وَاحِدًا وَٱلْمَعْنَى مُخْتَلِفًا. وَقَالَ بَدْرُ ٱلدِّينِ ٱبْنُ ٱلنَّحْوِيَّةِ فِي ضَوْءِ ٱلْمِصْبَاحِ: هُوَ اَنْ يُؤْتَى بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ اَوْ بَعْضِهَا مُتَغَايِرَيْنِ فِي اَصْلِ ٱلْمَعْنَى فِي غَيْرِ رَدِّ ٱلْعَجُزِ عَلَى ٱلصَّدْرِ. فَهٰذَا جُمْلَةُ مَا حَضَرَنِي مِنْ حُدُودِ ٱلْقَوْمِ عِنْدَ تَعْلِيقِ هٰذَا ٱلْفَصْلِ. (قُلْتُ) اَمَا حَدُّ ٱلرُّمَّانِيِّ فَاِنَّهُ اَسْلَمُ مِمَّا بَعْدَهُ لٰكِنَّهُ غَيْرُ جَامِعٍ

لِاَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ جِنَاسُ ٱلتَّصْحِيفِ وَٱلتَّصْرِيفِ وَٱلْمُرَكَّبِ وَجِنَاسُ ٱلْمَعْنَى وَٱلْجِنَاسُ ٱلْمُطَمِّعُ . وَاَمَّا حَدُّ قُدَامَةَ فَاِنَّهُ عَرَّفَ ٱلشَّيْءَ بِنَفْسِهِ وَهٰذَا غَيْرُ جَائِزٍ لِاَنَّ قَوْلَهُ : (فِي اَلْفَاظٍ مُتَجَانِسَةٍ) يُفْضِي اِلَى ٱلدَّوْرِ لِاَنَّنَا بِهٰذَا لَا نَعْرِفُ ٱلْمُتَجَانِسَ اِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْجِنَاسِ وَلَا نَعْرِفُ ٱلْجِنَاسَ اِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْمُتَجَانِسِ فَاَدَّى ذٰلِكَ اِلَى ٱلدَّوْرِ وَهُوَ مُحَالٌ . وَيُمْكِنُ ٱلْجَوَابُ عَنْهُ بِاَنْ يُقَالَ : اِنَّهُ مَا اَرَادَ ٱلْمُتَجَانِسَ فِي ٱلِاصْطِلَاحِ بَلِ ٱلْمُتَجَانِسَ فِي ٱللُّغَةِ اَيْ فِي ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُتَشَابِهَةِ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهُوَ حَدٌّ مُضْطَرِبٌ اِذْ فِيهِ لَفْظٌ مُوهِمٌ وَٱلْحُدُودُ يُجْتَنَبُ فِيهَا مِثْلُ ذٰلِكَ . وَقَوْلُهُ : (عَلَى جِهَةِ ٱلِاشْتِقَاقِ) يَخْرُجُ عَنْهُ جَمِيعُ اَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ اِلَّا ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُشْتَقَّ . وَاَمَّا حَدُّ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَهُوَ اَيْضًا تَعْرِيفٌ دَوْرِيٌّ وَذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ فِي صِنَاعَةِ ٱلْحُدُودِ وَٱلرُّسُومِ . وَاَمَّا حَدُّ ٱبْنِ ٱلْاَثِيرِ فَهُوَ اَيْضًا غَيْرُ جَامِعٍ لِاَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ مِثْلُ ٱلْجِنَاسِ ٱلْمُزْدَوِجِ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمُطَمِّعِ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْخَطِّيِّ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمَعْنَوِيِّ عَلَى مَا سَيَظْهَرُ لَكَ عِنْدَ كَشْفِ كُلِّ مَاهِيَّةٍ مِنْ اَنْوَاعِهِ . وَاَمَّا حَدُّ بَدْرِ ٱلدِّينِ ٱبْنِ ٱلنَّحْوِيَّةِ فَاِنَّ قَوْلَهُ : (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمَلُ ٱلْمُمَاثِلَ مُطْلَقًا سَوَاءٌ كَانَ لَفْظًا اَوْ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ يُخْرِجُ بِهِ ٱلْمُمَاثِلَ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (اَوْ بَعْضِهَا) مُدْخِلٌ لِلْجِنَاسِ ٱلْمُطَمِّعِ وَٱلْمُخَالِفِ وَٱلِاشْتِقَاقِ . وَقَوْلُهُ : (مُتَغَايِرَيْنِ فِي اَصْلِ ٱلْمَعْنَى) لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِاَنَّ هٰذَا مَعْلُومٌ فِي قَوْلِهِ : (مُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ) اَيْ دُونَ مَعْنَاهُمَا لٰكِنْ فِيهِ زِيَادَةُ بَيَانٍ . وَقَوْلُهُ : (فِي غَيْرِ رَدِّ ٱلْعَجُزِ

عَلَى ٱلصَّدْرِ) هٰذَا لَاحَاجَةَ اِلَيْهِ وَلَا فَائِدَةَ فِي هٰذَا ٱلِاحْتِرَازِ كَمَا يَظْهَرُ فِي ٱلتَّمْثِيلِ وَلَوْ زَادَ قَوْلَهُ : بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ اَوْ بَعْضِهَا اَوْ صُورَتِهَا لَكَانَ اَجْوَدَ لِيَدْخُلَ فِيهِ ٱلْجِنَاسُ ٱلْخَطِّيُّ . وَٱلَّذِي اخْتَارُهُ اَنَا فِي رَسْمِ ٱلْجِنَاسِ اَنْ اَقُولَ : هُوَ ٱلْاِتْيَانُ بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ اَوْ بَعْضِهَا اَوْ فِي ٱلصُّورَةِ اَوْ زِيَادَةٍ فِي اَحَدِهِمَا اَوْ بِمُتَخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ نَظْمًا اَوِ ٱلْحَرَكَاتِ اَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ . وَلَعَلَّ هٰذَا ٱلرَّسْمَ اَقْرَبُ اِلَى ٱلسَّلَامَةِ مِمَّا ذُكِرَ . فَقَوْلِي (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمَلُ ٱلْمَمَاثِلَ لَفْظًا وَمَعْنًى . وَقَوْلِي : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ ٱلْمَمَاثِلَ مَعْنًى كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ زَيْدٌ . وَاَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلتَّامَّ كَقَوْلِكَ يَحْيَى يَحْيَا . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُرَكَّبَ كَقَوْلِكَ : نِعْمَتُهُ ذَاهِبَةٌ . اِنْ لَمْ يَكُنْ ذَاهِبَهْ . وَقَوْلِي : (اَوْ بَعْضِهَا) اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُطَمِّعَ كَقَوْلِكَ : ٱلْاَمْوَاهُ وَٱلْاَمْوَالُ . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُقَارِبَ كَقَوْلِكَ : ٱلْهُمُومُ عَلَى قَدْرِ ٱلْهِمَمِ . وَقَوْلِي : (اَوْ فِي ٱلصُّورَةِ) اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْخَطِّيَّ كَقَوْلِكَ : لَا تُضِعْ يَوْمَكَ فِي نَوْمِكَ . وَقَوْلِي : (اَوْ زِيَادَةٍ) فِي اَحَدِهِمَا اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : ٱلْمَاءُ مِنَ ٱلْاَحْجَارِ جَارٍ . وَقَوْلِي : اَوْ بِمُتَخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : بِيضُ ٱلصَّحَائِفِ وَٱلصَّفَائِحِ . وَقَوْلِي (اَوِ ٱلْحَرَكَاتِ) اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُغَايِرَ كَقَوْلِكَ : اُغْتَنِمْ هُبَاتِ ٱلْهِبَاتِ . وَقَوْلِي : (اَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ نَظْمًا) اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمَعْنَوِيَّ كَقَوْلِكَ : اَمْرٌ عَظِيمٌ تَظْهَرُ ٱللُّوثَةُ فِيهِ بِٱلْاَسَدِ . اِذَا اَرَدْتَ اَنْ تَقُولَ :

(بِٱللَّيْثِ) ثُمَّ عَدَلْتَ اِلَى مَا يُرَادِفُهُ وَهُوَ ٱلْاَسَدُ . وَقَوْلِي : (نَظْمًا) اِعْلَامٌ بِاَنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْجِنَاسِ اِنَّمَا يَجِيءُ فِي ٱلنَّظْمِ دُونَ ٱلنَّثْرِ . وَتَظْهَرُ عِلَّةُ هٰذَا فِي مَكَانِهِ . فَتَدَبَّرْ هٰذَا ٱلرَّسْمَ تَجِدْهُ مَا اَخَلَّ بِنَوْعٍ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ . وَقَدْ قَالَ عُلَمَاءُ ٱلْبَدِيعِ : اِنَّ ٱلْجِنَاسَ يَحْسُنُ اِذَا قَلَّ وَاَتَى فِي ٱلْكَلَامِ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ كَدٍّ وَلَا اَسْتِكْرَاهٍ وَلَا بُعْدٍ وَلَا مَيْلٍ اِلَى جَانِبٍ . وَلَمْ يَحْتَجْ اِلَيْهِ بِكَثْرَةِ اَسْتِعْمَالِهِ اِلَّا مَنْ قَصُرَتْ هِمَّتُهُ عَنِ اخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي هِيَ كَٱلنُّجُومِ ٱلزَّاهِرَةِ فِي اُفُقِ ٱلْاَلْفَاظِ . وَاِذَا خَلَتْ بُيُوتُ ٱلْاَلْفَاظِ مِنْ سُكَّانِ ٱلْمَعَانِي تَنَزَّلَتْ مَنْزِلَةَ ٱلْاَطْلَالِ ٱلْبَالِيَةِ

البحث الثامن

في ذكر انواع التجنيس

اِعْلَمْ اَنَّ اَنْوَاعَ ٱلْجِنَاسِ كَثِيرَةٌ اَقْتَصَرْنَا عَلَى ذِكْرِ اَخَصِّهَا وَاَوَّلُهَا ٱلْجِنَاسُ (ٱلْمُرَكَّبُ) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ اَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ كَلِمَةً مُفْرَدَةً وَٱلْاُخْرَى مُرَكَّبَةً مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ : فَٱلْاَوَّلُ مَا تَشَابَهَ لَفْظًا وَخَطًّا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

عَضَّنَا ٱلدَّهْرُ بِنَابِهْ لَيْتَ مَا حَلَّ بِنَا بِهْ

وَٱلثَّانِي مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ لَفْظًا لَا خَطًّا وَيُسَمَّى ٱلْمَفْرُوقَ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

لَا تَعْرِضَنَّ عَلَى ٱلرُّوَاةِ قَصِيدَةً مَا لَمْ تَكُنْ بَالَغْتَ فِي تَهْذِيبِهَا

وَإِذَا عَرَضْتَ ٱلشِّعْرَ غَيْرَ مُهَذَّبٍ عَدُّوهُ مِنْكَ وَسَاوِسًا تَهْذِي بِهَا

وَلِلْجِنَاسِ ٱلْمُرَكَّبِ نَوْعٌ يُسَمَّى (ٱلْمَرْفُوَّ) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ اَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ جُزْءًا مُسْتَقِلًّا وَٱلْآخَرُ مُجَزَّأً مِنْ كَلِمَةٍ اُخْرَى كَقَوْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ :

وَٱلْمَكْرَ مَهْمَا اَسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ لِتَقْتَنِي ٱلسُّؤْدَدَ وَٱلْمَكْرُمَهْ

وَقَوْلِهِ :

وَلَا تَلُمْهُ عَنْ تَذَكُّرِ ذَنْبِكَ وَٱبْكِهِ بِدَمْعٍ يُحَاكِي ٱلْمُزْنَ حَالَ مَصَابِهِ

وَمَثِّلْ لِعَيْنَيْكَ ٱلْحِمَامَ وَوَقْعَهُ وَرَوْعَةَ مَلْقَاهُ وَمَطْعَمَ صَابِهِ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا يَخْلُو مِنْ تَعَسُّفٍ وَتَعْقِيدٍ فِي ٱلتَّرْكِيبِ . وَمِنْ اَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُلَفَّقُ) وَحَدُّهُ اَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنَ ٱلرُّكْنَيْنِ مُرَكَّبًا مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُرَكَّبِ وَقَلَّ مَنْ اَفْرَدَهُ عَنْهُ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَكَمْ بِجِبَاهِ ٱلرَّاغِبِينَ اِلَيْهِ مِنْ مَجَالِ سُجُودٍ فِي مَجَالِسِ جُودِ

وَمِنْ اَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُذَيَّلُ وَٱللَّاحِقُ) . فَٱلْمُذَيَّلُ هُوَ مَا زَادَ اَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى ٱلْآخَرِ حَرْفًا فِي آخِرِهِ فَصَارَ لَهُ كَٱلذَّيْلِ كَقَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

يُمِدُّونَ فِي اَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِاَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

وَقَالَ آخَرُ :

عَذِيرِيَ مِنْ دَهْرٍ مُوَارٍ مُوَارِبٍ لَهُ حَسَنَاتٌ كُلُّهُنَّ ذُنُوبُ

وَقَدْ تَأْتِي ٱلزِّيَادَةُ فِي آخِرِ ٱلذَّيْلِ بِحَرْفَيْنِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي رِثَاءٍ :

فيا لكَ من حزمٍ وعزمٍ طواهما جديدُ الردى تحتَ الصفا والصفائحِ

وارقُّ ما سمعتُ في هذا البابِ قولُ القائلِ :

انَّ البكاءَ هو الشفاءُ م من الجوى بينَ الجوانحْ

واما (اللاحقُ) فهو ما ابدلَ في احدِ ركنيهِ حرفٌ من غيرِ مخرجهِ كقولِ بعضهم في جوابِ رسالةٍ : وصلَ كتابُكَ فتناولتُهُ باليمينِ ووضعتُهُ مكانَ العقدِ الثمينِ . وكقولِ الآخرِ : اما اليتيمَ فلا تقهرْ . واما السائلَ فلا تنهرْ . والفرقُ بينَ الجناسِ اللاحقِ والجناسِ المضارعِ انَّ حروفَ اللاحقِ ليستْ من مخرجٍ واحدٍ كالنونِ والقافِ في : (تقهرْ وتنهرْ) . واما حروفُ المضارعِ فانها متشابهةٌ في المخرجِ كما وردَ في الحديثِ : انَّ الخيلَ معقودٌ بنواصيها الخيرُ . ومثلُهُ قولُ بعضهم : البرايا اهدافُ البلايا . فانَّ الراءَ واللامَ من مخرجٍ واحدٍ ومن انواعِ التجنيسِ (التامُّ) . وهو ما تماثلَ ركناهُ واتفقا لفظاً واختلفا معنًى من غيرِ تفاوتٍ في تصحيحِ تركيبهما واختلافِ حركتهما سواءٌ كانا من اسمينِ او من فعلينِ او من اسمٍ وفعلٍ فانهم قالوا : اذا انتظمَ ركناهُ من نوعٍ واحدٍ كاسمينِ او فعلينِ سُمّيَ مماثلاً وان انتظما من نوعينِ كاسمٍ وفعلٍ سُمّيَ مستوفى . وجلُّ القصدِ تماثلُ الركنينِ في اللفظِ والخطِّ والحركةِ واختلافهما في المعنى . فمنهُ قولُ اميرِ المؤمنينَ عليٍّ : صولةُ الباطلِ ساعةٌ وصولةُ الحقِّ الى الساعةِ . ومن الشعرِ قولُ بعضهم في رثاءِ صغيرٍ اسمهُ يحيى :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا وَلَمْ يَكُنْ اِلَى رَدِّ اَمْرِ اللهِ فِيهِ سَبِيلُ

وَكَقَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ :

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ اِذَا اْحتَدَمَ الْوَغَى وَالْفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيعُ

وَمِنْهُ الْجِنَاسُ (الْمُطَرَّفُ) وَهُوَ مَا زَادَ اَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى الْآخَرِ حَرْفًا فِي طَرَفِهِ الْاَوَّلِ . وَهٰذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُذَيَّلِ . فَاِنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْمُذَيَّلِ تَكُونُ فِي آخِرِهِ . وَاَمَّا الْمُطَرَّفُ فَتَكُونُ زِيَادَتُهُ فِي اَوَّلِهِ لِتَصِيرَ لَهُ كَالطَّرَفِ وَيُسَمَّى اَيْضًا النَّاقِصَ وَالْمُرْدَفَ وَالْمُزْدَوِجَ وَالْمُكَرَّرَ وَالْمَرْدُودَ وَالْمُجَنَّبَ وَفِي تَسْمِيَتِهِ اْخْتِلَافٌ. وَالزِّيَادَةُ تَكُونُ تَارَةً فِي اَوَّلِ الرُّكْنِ الثَّانِي وَتَارَةً فِي اَوَّلِ الرُّكْنِ الْاَوَّلِ كَقَوْلِهِمْ : لَمَّا مَلَأَ الصَّاعَ اْنصَاعَ . وَكَقَوْلِ الْآخَرِ :

وَكَمْ سَبَقَتْ مِنْهُ اِلَيَّ عَوَارِفُ ثَنَائِي عَلَى تِلْكَ الْعَوَارِفِ وَارِفُ

وَكَمْ غُرَرٍ مِنْ بِرِّهِ وَلَطَائِفٍ لَشُكْرِي عَلَى تِلْكَ اللَّطَائِفِ طَائِفُ

وَمِنْ اَنْوَاعِ الْجِنَاسِ (اللَّفْظِيُّ) وَهُوَ اَنْ يَتَمَاثَلَ رُكْنَانِ وَيَتَجَانَسَا خَطًّا اِلَّا اَنَّ اَحَدَهُمَا يُخَالِفُ الْآخَرَ بِاِبْدَالِ حَرْفٍ مِنْهُ فِيهِ مُنَاسَبَةٌ لَفْظِيَّةٌ كَمَا الَّذِي يُكْتَبُ بِالضَّادِ وَالظَّاءِ كَقَوْلِهِ : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ اِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَكَقَوْلِ اِبْنِ الْعَفِيفِ :

اَحْسَنُ خَلْقِ اللهِ وَجْهًا وَفَمًا اِنْ لَمْ يَكُنْ اَحَقَّ بِالْمَدْحِ فَمَنْ

وَمِنْ اَنْوَاعِ الْجِنَاسِ (الْجِنَاسُ الْمَقْلُوبُ) وَسَمَّاهُ قَوْمٌ الْمَعْكُوسَ وَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : اَحَدُهُمَا عَكْسُ الْاَلْفَاظِ وَالثَّانِي عَكْسُ الْحُرُوفِ . فَالْاَوَّلُ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ : عَادَاتُ السَّادَاتِ . سَادَاتُ الْعَادَاتِ وَكَقَوْلِ الْآخَرِ :

إِنَّ اللَّيَالِي لِلْأَنَامِ مَنَاهِلٌ تُطْوَى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا الْأَعْمَارُ
فَقِصَارُهُنَّ مَعَ الْهُمُومِ طَوِيلَةٌ وَطِوَالُهُنَّ مَعَ السُّرُورِ قِصَارُ

وَهٰذَا الضَّرْبُ مِنَ التَّجْنِيسِ لَهُ حَلَاوَةٌ وَعَلَيْهِ رَوْنَقٌ وَقَدْ سَمَّاهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ الْكَاتِبُ: (التَّبْدِيلَ). وَذٰلِكَ اسْمٌ مُنَاسِبٌ لِمُسَمَّاهُ لِأَنَّ مُؤَلِّفَ الْكَلَامِ يَأْتِي بِمَا كَانَ مُقَدَّمًا فِي جُزْءٍ كَلَامِهِ الْأَوَّلِ مُؤَخَّرًا فِي الثَّانِي وَبِمَا كَانَ مُؤَخَّرًا فِي الْأَوَّلِ مُقَدَّمًا فِي الثَّانِي. وَأَمَّا الضَّرْبُ الثَّانِي مِنْ هٰذَا الْقِسْمِ وَهُوَ عَكْسُ الْحُرُوفِ فَكَقَوْلِ بَعْضِهِمْ:

أَهْدَيْتُ شَيْئًا يَقُلُّ الْوَلَا أُحْدُوثَةُ الْفَالِ وَالتَّبَرُّكْ
كُرْسِي تَفَاءَلْتُ فِيهِ لَمَّا رَأَيْتُ مَقْلُوبَهُ يَسُرُّكْ

وَرُبَّمَا كَانَ الْبَيْتُ كُلُّهُ مَعْكُوسًا يُقْرَأُ طَرْدًا وَعَكْسًا وَالْبَيْتُ الثَّانِي مِنْهُ مَعْكُوسٌ كَقَوْلِ الْأَرَّجَانِيِّ:

أُحِبُّ الْمَرْءَ ظَاهِرُهُ جَمِيلٌ لِصَاحِبِهِ وَبَاطِنُهُ سَلِيمُ
مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوْلٍ وَهَلْ كُلُّ مَوَدَّتُهُ تَدُومُ

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ (الْجِنَاسُ الْمُقَارِبُ) وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّيهِ جِنَاسَ الِاشْتِقَاقِ وَجِنَاسَ الِاقْتِضَابِ وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ الرُّكْنَانِ اسْمَيْنِ كَقَوْلِ الصَّاحِبِ: إِنَّ الْهُمُومَ بِقَدْرِ الْهِمَمِ. وَكَقَوْلِ الْقَائِلِ: رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ. وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الرُّكْنَيْنِ اسْمًا وَالْآخَرُ فِعْلًا نَحْوُ: وَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى اللهِ. وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ الرُّكْنَانِ فِعْلَيْنِ. كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

اِنْ تَرَ الدُّنْيَا اَغَارَتْ وَنُجُومَ السَّعْدِ غَارَتْ
فَصُرُوفُ الدَّهْرِ شَتَّى كُلَّمَا جَارَتْ اَجَارَتْ

وَمِنْ اَنْوَاعِ الْجِنَاسِ (الْمَعْنَوِيُّ) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ اَحَدُ رُكْنَيِ الْجِنَاسِ دَالًّا عَلَى مَعْنَى الْآخَرِ فِي غَيْرِ اَلْفَاظِهِ وَهٰذَا النَّوْعُ اَسْتَدْرَكَهُ فُضَلَاءُ الْمُتَاَخِّرِينَ وَاَسْتَخْرَجُوهُ وَبَعْضُهُمْ لَا يَعُدُّهُ جِنَاسًا لِاَنَّهُ قَلَّمَا يُوجَدُ فِي الْكَلَامِ لِتَوَعُّرِ مَسْلَكِهِ . وَسَبَبُ وُرُودِ هٰذَا النَّوْعِ فِي الْكَلَامِ اَنَّ الشَّاعِرَ يَقْصِدُ الْمُجَانَسَةَ فِي كَلَامِهِ بَيْنَ لَفْظَتَيْنِ فَلَا يُوَافِقُهُ الْوَزْنُ عَلَى اِثْبَاتِ اَحَدِ رُكْنَيِ الْجِنَاسِ فَيَعْدِلُ اِلَى مَا يُوَافِقُهُ مَعْنًى وَيُخَالِفُهُ لَفْظًا وَعَلَى هٰذَا لَا وُرُودَ لِهٰذَا النَّوْعِ فِي الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ اِذْ لَا وَزْنَ يَضْطَرُّهُ اِلَى الْاِتْيَانِ بِذٰلِكَ . وَمِنْ اَمْثِلَةِ اَرْبَابِ الْبَدِيعِ فِي هٰذَا النَّوْعِ قَوْلُ الشَّاعِرِ يَمْدَحُ الْمُهَلَّبَ بْنَ اَبِي صُفْرَةَ وَيَذْكُرُ فِعْلَهُ بِقَطَرِيِّ بْنِ الْفُجَاءَةِ وَكَانَ قَطَرِيٌّ يُكَنَّى اَبَا نَعَامَةَ :

حَدَا بِاَبِي اُمِّ الرِّئَالِ فَاَجْفَلَتْ نَعَامَتُهُ مِنْ عَارِضٍ مُتَلَهِّبِ

اَرَادَ اَنْ يَقُولَ : حَدَا بِاَبِي نَعَامَةَ فَاَجْفَلَتْ نَعَامَتُهُ اَيْ رُوحُهُ فَلَمْ يُسَاعِدْهُ الْوَزْنُ فَقَالَ : بِاَبِي اُمِّ الرِّئَالِ لِاَنَّ الرِّئَالَ فِرَاخُ النَّعَامَةِ . وَاعْلَمْ اَنَّ الشُّعَرَاءَ عِنْدَ نَظْمِ هٰذِهِ الْاَبْيَاتِ مَا لَحَظُوا هٰذِهِ الْمَقَاصِدَ الْبَعِيدَةَ . وَلَا يَخْفَى مَا فِي هٰذَا مِنَ التَّكَلُّفِ وَالتَّعَسُّفِ

الفصل الثامن

في فنون الانشاء

البحث الاوّل

في المثل وشرفهِ

(عن الميداني)

(راجع صفحة ١٢٦ من علم الادب)

قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ : ٱلْمَثَلُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْمِثَالِ وَهُوَ قَوْلٌ سَائِرٌ يُشَبَّهُ بِهِ حَالُ ٱلثَّانِي بِٱلْاَوَّلِ وَٱلْاَصْلُ فِيهِ ٱلتَّشْبِيهُ . فَقَوْلُهُمْ : مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ اِذَا ٱنْتَصَبَ مَعْنَاهُ : اَشْبَهَ ٱلصُّورَةَ ٱلْمُنْتَصِبَةَ . وَفُلَانٌ اَمْثَلُ مِنْ فُلَانٍ اَيْ اَشْبَهُ بِمَا لَهُ ٱلْفَضْلُ . وَٱلْمِثَالُ ٱلْقِصَاصُ لِتَشْبِيهِ حَالِ ٱلْمُقْتَصِّ مِنْهُ بِحَالِ ٱلْاَوَّلِ فَحَقِيقَةُ ٱلْمَثَلِ مَا جُعِلَ كَٱلْعَلَمِ لِلتَّشْبِيهِ بِحَالِ ٱلْاَوَّلِ . كَقَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا اِلَّا ٱلْاَبَاطِيلُ

فَمَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ عَلَمٌ لِكُلِّ مَا لَا يَصِحُّ مِنَ ٱلْمَوَاعِيدِ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلسِّكِّيتِ : ٱلْمَثَلُ لَفْظٌ يُخَالِفُ لَفْظَ ٱلْمَضْرُوبِ لَهُ وَيُوَافِقُ مَعْنَاهُ مَعْنَى ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ . شَبَّهُوهُ بِٱلْمِثَالِ ٱلَّذِي يُعْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ . وَقَالَ غَيْرُهُمَا : سُمِّيَتِ ٱلْحِكَمُ ٱلْقَائِمُ صِدْقُهَا فِي ٱلْعُقُولِ اَمْثَالًا لِٱنْتِصَابِ صُوَرِهَا

فِي ٱلْعُقُولِ مُشْتَقَّةً مِنَ ٱلْمُثُولِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلِانْتِصَابُ . وَقَالَ اِبْرَاهِيمُ ٱلنَّظَّامُ : يَجْتَمِعُ فِي ٱلْمَثَلِ اَرْبَعَةٌ لَاتَجْتَمِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ اِيجَازُ ٱللَّفْظِ وَاِصَابَةُ ٱلْمَعْنَى وَحُسْنُ ٱلتَّشْبِيهِ وَجُودَةُ ٱلْكِنَايَةِ فَهُوَ نِهَايَةُ ٱلْبَلَاغَةِ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُقَفَّعِ : اِذَا جُعِلَ ٱلْكَلَامُ مَثَلًا كَانَ اَوْضَحَ لِلْمَنْطِقِ وَآنَقَ لِلسَّمْعِ وَاَوْسَعَ لِشُعُوبِ ٱلْحَدِيثِ . قَالَ آخَرُ : اِنَّ ٱلْاَمْثَالَ هِيَ وَشْيُ ٱلْكَلَامِ وَجَوْهَرُ ٱللَّفْظِ وَحُلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّتِي تَخَيَّرَتْهَا ٱلْعَرَبُ وَقَدَّمَتْهَا ٱلْعَجَمُ وَنَطَقَ بِهَا كُلُّ زَمَانٍ وَدَارَتْ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ . فَهِيَ اَبْقَى مِنَ ٱلشِّعْرِ وَاَشْرَفُ مِنَ ٱلْخَطَابَةِ . لَمْ يَسِرْ شَيْءٌ مَسِيرَهَا وَلَا عَمَّ عُمُومَهَا حَتَّى قِيلَ : اَسْيَرُ مِنْ مَثَلٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا اَنْتَ اِلَّا مَثَلٌ سَائِرٌ يَعْرِفُهُ ٱلْجَاهِلُ وَٱلْغَابِرُ

هٰذَا وَاِنَّ ٱلْاَمْثَالَ تَتَحَلَّى بِفَرَائِدِهَا صُدُورُ ٱلْمَحَافِلِ وَٱلْمَحَاضِرِ . وَتَتَجَلَّى بِفَوَائِدِهَا قُلُوبُ ٱلْبَادِي وَٱلْحَاضِرِ . وَتُقَيِّدُ اَوَابِدَهَا فِي بُطُونِ ٱلدَّفَاتِرِ وَٱلصَّحَائِفِ . وَتَطِيرُ نَوَاهِضُهَا فِي رُؤُوسِ ٱلشَّوَاهِقِ وَظُهُورِ ٱلتَّنَائِفِ . يَحْتَاجُ ٱلْخَطِيبُ وَٱلشَّاعِرُ اِلَى اِدْمَاجِهَا وَاِدْرَاجِهَا لِاشْتِمَالِهَا عَلَى اَسَالِيبِ ٱلْحُسْنِ وَٱلْجَمَالِ

وَاعْلَمْ اَنَّ ٱلْحَاجَةَ اِلَى ٱلْاَمْثَالِ شَدِيدَةٌ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْعَرَبَ لَمْ تَضَعِ ٱلْاَمْثَالَ اِلَّا لِاَسْبَابٍ اَوْجَبَتْهَا وَحَوَادِثَ اَقْتَضَتْهَا . فَصَارَ ٱلْمَثَلُ ٱلْمَضْرُوبُ لِاَمْرٍ مِنَ ٱلْاُمُورِ عِنْدَهُمْ كَٱلْعَلَامَةِ ٱلَّتِي يُعْرَفُ بِهَا ٱلشَّيْءُ وَلَيْسَ فِي كَلَامِهِمْ اَوْجَزُ مِنْهَا وَلَا اَشَدُّ اخْتِصَارًا . وَسَبَبُ ذٰلِكَ مَا اَذْكُرُهُ لَكَ لِتَكُونَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ عَلَى يَقِينٍ فَاَقُولُ : قَدْ جَاءَ عَنِ

ٱلعَرَبِ مِنْ جُمْلَةِ اَمْثَالِهِمْ (اِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلقَمَرُ) . وَهُوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلْاَمْرِ ٱلظَّاهِرِ ٱلْمَشْهُورِ وَٱلْاَصْلُ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُفَضَّلُ بْنُ مُحَمَّدٍ : اَنَّهُ بَلَغَنَا اَنَّ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ ضَبَّةَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَرَاهَنُوا عَلَى ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ اَرْبَعَ عَشْرَةَ مِنَ ٱلشَّهْرِ . فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يُرَى . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَغِيبُ ٱلْقَمَرُ قَبْلَ اَنْ تَطْلُعَ ٱلشَّمْسُ فَتَرَاضَوْا بِرَجُلٍ جَعَلُوهُ حَكَمًا . فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : اِنَّ قَوْمِي يَبْغُونَ عَلَيَّ . فَقَالَ ٱلْحَكَمُ : اِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ . فَذَهَبَتْ مَثَلًا . وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ اَنَّ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ : (اِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) . اِذَا اُخِذَ عَلَى حَقِيقَتِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ اِلَى ٱلْقَرَائِنِ ٱلْمَنُوطَةِ بِهِ وَٱلْاَسْبَابِ ٱلَّتِي قِيلَ مِنْ اَجْلِهَا لَا يُعْطِي مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا قَدْ اَعْطَاهُ ٱلْمَثَلُ . وَذَاكَ ٱلْمَثَلُ لَهُ مُقَدَّمَاتٌ وَاَسْبَابٌ قَدْ عُرِفَتْ وَصَارَتْ مَشْهُورَةً بَيْنَ ٱلنَّاسِ مَعْلُومَةً عِنْدَهُمْ . وَحَيْثُ كَانَ ٱلْاَمْرُ كَذٰلِكَ جَازَ اِيرَادُ هٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظِ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَلَوْلَا تِلْكَ ٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْمَعْلُومَةُ وَٱلْاَسْبَابُ ٱلْمَعْرُوفَةُ لَمَا فُهِمَ مِنْ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ : (اِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ بَلْ مَا كَانَ يُفْهَمُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَعْنًى مُفِيدٌ . لِاَنَّ ٱلْبَغْيَ هُوَ ٱلظُّلْمُ وَٱلْقَمَرُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ اَنْ يَظْلِمَ اَحَدًا فَكَانَ يَصِيرُ مَعْنَى ٱلْمَثَلِ : اِنْ كَانَ يَظْلِمُكَ قَوْمُكَ لَا يَظْلِمُكَ ٱلْقَمَرُ . وَهٰذَا كَلَامٌ مُخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى لَيْسَ بِمُسْتَقِيمٍ . فَلَمَّا كَانَتِ ٱلْاَمْثَالُ كَٱلرُّمُوزِ وَٱلْاِشَارَاتِ ٱلَّتِي يُلَوَّحُ بِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي

تلويحاً صارت من اوجز الكلام واكثره اختصاراً . ومن اجل ذلك قيل في حدّ المثل : انّه القول الوجيز المرسل ليُعمل عليه وحيث هي بهذه المثابة فلا ينبغي الاخلال بمعرفتها

البحث الثاني

في آداب المثل وشروطه

(عن الماوردي ومقدمة كليلة ودمنة)

(راجع صفحة ١٣٣ من علم الادب)

ومن آداب الحكيم ان يجتنب امثال العامّة الغوغاء ويتخصّص بامثال العلماء الادباء فانّ لكلّ صنفٍ من الناس امثالاً تشاكلهم فلا تجد لساقطٍ الّا مثلاً ساقطاً وتشبيهاً مستقبحاً . . . .

ولذلك علّتان : احداهما انّ الامثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس ولم يكن لذي الهمّة الساقطة الّا مثلٌ مرذولٌ وتشبيهٌ معلولٌ . والثانية انّ الامثال مستخرجةٌ من احوال المتمثّلين بها فبحسب ما هم عليه تكون امثالهم . فلهاتين العلّتين وقع الفرق بين امثال الخاصّة وامثال العامّة وربّما الف المتخصّص مثلاً عاميّاً او تشبيهاً ركيكاً لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة الاراذل فيسترسل في ضربه مثلاً فيصير به مثلاً كالّذي حُكي عن الاصمعيّ : انّ الرشيد سأله يوماً عن انساب بعض العرب . فقال : على الخبير

سَقَطتَ يَا اَمِيرَ اَلْمُؤْمِنِينَ . فَقَالَ لَهُ اَلْفَضْلُ بْنُ اَلرَّبِيعِ : اَسْقَطَ اَللهُ جَنْبَيْكَ اَتُخَاطِبُ اَمِيرَ اَلْمُؤْمِنِينَ بِمِثْلِ هٰذَا اَلْخِطَابِ . فَكَانَ اَلْفَضْلُ اَبْنُ اَلرَّبِيعِ مَعَ قِلَّةِ عِلْمِهِ اَعْلَمَ بِمَا يُسْتَعْمَلُ مِنَ اَلْكَلَامِ فِي مُحَاوَرَةِ اَلْخُلَفَاءِ مِنَ اَلْاَصْمَعِيِّ اَلَّذِي هُوَ وَاحِدُ عَصْرِهِ وَقَرِيعُ دَهْرِهِ . وَلِلْاَمْثَالِ مِنَ اَلْكَلَامِ مَوْقِعٌ فِي اَلْاَسْمَاعِ وَتَأْثِيرٌ فِي اَلْقُلُوبِ لَا يَكَادُ اَلْكَلَامُ اَلْمُرْسَلُ يَبْلُغُ مَبْلَغَهَا وَلَا يُؤَثِّرُ تَأْثِيرَهَا لِاَنَّ اَلْمَعَانِيَ بِهَا لَائِحَةٌ وَاَلشَّوَاهِدَ بِهَا وَاضِحَةٌ وَاَلنُّفُوسَ بِهَا وَامِقَةٌ وَاَلْقُلُوبَ بِهَا وَاثِقَةٌ وَاَلْعُقُولَ لَهَا مُوَافِقَةٌ . وَلَهَا اَرْبَعَةُ شُرُوطٍ : اَحَدُهَا صِحَّةُ اَلتَّشْبِيهِ . وَاَلثَّانِي اَنْ يَكُونَ اَلْعِلْمُ بِهَا سَابِقًا وَاَلْكُلُّ عَلَيْهَا مُوَافِقًا . وَاَلثَّالِثُ اَنْ يُسْرِعَ وُصُولُهَا لِلْفَهْمِ وَيَعْجَلَ تَصَوُّرُهَا فِي اَلْوَهْمِ مِنْ غَيْرِ اَرْتِيَاءٍ فِي اِسْتِخْرَاجِهَا وَلَا كَدٍّ فِي اِسْتِنْبَاطِهَا . وَاَلرَّابِعُ اَنْ تُنَاسِبَ حَالَ اَلسَّامِعِ لِتَكُونَ اَبْلَغَ تَأْثِيرًا وَاَحْسَنَ مَوْقِعًا . فَاِذَا اَجْتَمَعَتْ فِي اَلْاَمْثَالِ اَلْمَضْرُوبَةِ هٰذِهِ اَلشُّرُوطُ اَلْاَرْبَعَةُ كَانَتْ زِينَةً لِلْكَلَامِ وَجَلَاءً لِلْمَعَانِي وَتَدَبُّرًا لِلْاَفْهَامِ

قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : يَجِبُ عَلَى قَارِئِ اَلْاَمْثَالِ اَنْ يُدِيمَ اَلنَّظَرَ فِيهَا مِنْ غَيْرِ ضَجَرٍ وَيَلْتَمِسَ جَوَاهِرَ مَعَانِيهَا وَلَا يَظُنَّ اَنَّ نَتِيجَتَهَا اِنَّمَا هِيَ اَلْاِخْبَارُ عَنْ حِيلَةِ بَهِيمَتَيْنِ اَوْ مُحَاوَرَةِ سَبُعٍ لِثَوْرٍ فَيَنْصَرِفَ بِذٰلِكَ عَنِ اَلْغَرَضِ اَلْمَقْصُودِ وَيَكُونَ مَثَلُهُ مَثَلَ اَلصَّيَّادِ اَلَّذِي كَانَ فِي بَعْضِ اَلْخُلْجَانِ يَصِيدُ فِيهِ اَلسَّمَكَ فِي زَوْرَقٍ . فَرَاَى ذَاتَ يَوْمٍ فِي عَقِيقِ اَلْمَاءِ صَدَفَةً تَتَلَأْلَأُ حُسْنًا فَتَوَهَّمَهَا جَوْهَرًا لَهُ قِيمَةٌ . وَكَانَ قَدْ اَلْقَى

شَبَكَتَهُ فِي ٱلْبَحْرِ فَٱشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوتَ يَوْمِهِ . فَخَلَّاهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي ٱلْمَاءِ لِيَأْخُذَ ٱلصَّدَفَةَ . فَلَمَّا اَخْرَجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لَاشَيْءَ فِيهَا مِمَّا ظَنَّ فَنَدِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ وَتَاَسَّفَ عَلَى مَا فَاتَهُ . فَلَمَّا كَانَ ٱلْيَوْمُ ٱلثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَكَانِ وَٱلْقَى شَبَكَتَهُ فَاَصَابَ حُوتًا صَغِيرًا وَرَاَى اَيْضًا صَدَفَةً سَنِيَّةً فَلَمْ يَلْتَفِتْ اِلَيْهَا وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا فَتَرَكَهَا . وَٱجْتَازَ بِهَا بَعْضُ ٱلصَّيَّادِينَ فَاَخَذَهَا فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تُسَاوِي اَمْوَالًا . . . وَكَذٰلِكَ ٱلْجُهَّالُ عَلَى اِغْفَالِ اَمْرِ ٱلتَّفَكُّرِ فِي ٱلْاَمْثَالِ وَٱلْاِغْتِرَارِ بِهَا وَتَرْكِ ٱلْوُقُوفِ عَلَى اَسْرَارِ مَعَانِيهَا وَٱلْاَخْذِ بِظَاهِرِهَا دُونَ ٱلْاَخْذِ بِبَاطِنِهَا . وَمَنْ صَرَفَ هِمَّتَهُ اِلَى ٱلنَّظَرِ فِي اَبْوَابِ ٱلْهَزْلِ مِنْهَا فَهُوَ كَرَجُلٍ اَصَابَ اَرْضًا طَيِّبَةً حُرَّةً وَحَبًّا صَحِيحًا فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا حَتَّى اِذَا قَرُبَ خَيْرُهَا تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلزَّهْرِ وَقَطْعِ ٱلشَّوْكِ فَاَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ اَحْسَنَ فَائِدَةً وَاَجْمَلَ عَائِدَةً . وَيَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي ٱلْاَمْثَالِ اَنْ يَعْلَمَ اَنَّهَا تَنْقَسِمُ اِلَى اَرْبَعَةِ اَغْرَاضٍ : اَحَدُهَا مَا قُصِدَ فِيهِ اِلَى وَضْعِهَا عَلَى اَلْسِنَةِ ٱلْبَهَائِمِ غَيْرِ ٱلنَّاطِقَةِ مِنْ مُسَارَعَةِ اَهْلِ ٱلْهَزْلِ مِنَ ٱلشُّبَّانِ اِلَى قِرَاءَتِهَا فَتَسْتَمِيلُ بِهِ قُلُوبَهُمْ لِاَنَّ هٰذَا هُوَ ٱلْغَرَضُ بِٱلنَّوَادِرِ مِنْ حِيَلِ ٱلْحَيَوَانَاتِ . وَٱلثَّانِي اِظْهَارُ خَيَالَاتِ ٱلْحَيَوَانَاتِ بِصُنُوفِ ٱلْاَصْبَاغِ وَٱلْاَلْوَانِ لِيَكُونَ اُنْسًا لِقُلُوبِ ٱلْمُلُوكِ وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهَا اَشَدَّ لِلنُّزْهَةِ فِي تِلْكَ ٱلصُّوَرِ . وَٱلثَّالِثُ اَنْ يَكُونَ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ فَتَتَّخِذَهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلسُّوقَةُ فَيَكْثُرَ بِذٰلِكَ ٱنْتِسَاخُهَا وَلَا يَبْطُلَ فَيَخْلُقَ عَلَى مُرُورِ ٱلْاَيَّامِ . وَلِيَنْتَفِعَ

بِذٰلِكَ ٱلْمُصَوِّرُ وَٱلنَّاسِخُ اَبَدًا . وَٱلْغَرَضُ ٱلرَّابِعُ وَهُوَ ٱلْاَقْصَى مَخْصُوصٌ بِٱلْفَيْلَسُوفِ خَاصَّةً لِتَكُونَ ٱلْاَمْثَالُ رِيَاضَةً لِعَقْلِهِمْ اِذْ فِيهَا يَجِدُونَ مَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ ٱلْاِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَاَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ وَجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ مِنْ اَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَاُولَاهُ وَيَحُضُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانَبَتُهُ خَيْرًا لَهُ *

البحث الثالث

في آداب المحادثة والرواية

(عن مروج الذهب للمسعودي)

(راجع صفحة ١٦٩ من علم الادب)

قَدْ قَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ : لَاتَحْسُنُ ٱلْمُحَادَثَةُ اِلَّا بِحُسْنِ ٱلْفَهْمِ . وَقَالُوا : تَعَلَّمْ حُسْنَ ٱلْاِسْتِمَاعِ كَمَا تَتَعَلَّمُ حُسْنَ ٱلْكَلَامِ . وَحُسْنُ ٱلْاِسْتِمَاعِ هُوَ اَشْهَى اِلَى ٱلْمُحَدِّثِ حَتَّى يَنْقَضِيَ حَدِيثُهُ . وَمِنْ اَدَبِ

---

* وقال بعضهم في وصف كليلة ودمنة :

اذا افتخر الرجال بفضل علم ... ومدّت فيهِ السنة طويلة
ففاخر ما استطعت بما حوتهُ ... بطون كتاب دمنةَ مع كليلة
كتاب يغرق البلغاء فيهِ ... وألباب الورى منهُ كليلة
وكم فيهِ عجائب كامنات ... على دنيا وآخرةٍ دليلة
وكم حكم على افواه طير ... وآداب وامثال مقولة
يراها الجاهل المأفون هزلًا ... وحسبكها لعالمها فضيلة

ٱلْحَدِيثِ وَمُوجِبَاتِهِ اَنْ لَا يُقْتَضَبَ اقْتِضَابًا وَلَا يُهْجَمَ عَلَيْهِ وَاَنْ يُتَوَصَّلَ اِلَى اِجْرَائِهِ بِمَا يُشَاكِلُهُ . وَاَنْ يُسْتَنْسَبَ لَهُ مَا يَحْسُنُ اَنْ يَجْرِيَ فِي غَرَضِهِ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُ ٱلْمُفَاوَضَةِ مُتَعَلِّقًا بِبَعْضٍ عَلَى حَسَبِ مَا قَالُوا فِي ٱلْمَثَلِ : اِنَّ ٱلْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ يُرِيدُونَ بِذٰلِكَ تَشَعُّبَهُ وَتَفَرُّعَهُ عَنْ اَصْلٍ وَاحِدٍ اِلَى وُجُوهٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَثِيرَةٍ اِذْ كَانَ ٱلْعَيْشُ كُلُّهُ فِي ٱلْجَلِيسِ ٱلْمُمْتِعِ . وَقَالَ رَجُلٌ : اِنِّي مَا اَمَلُّ ٱلْحَدِيثَ . فَقَالَ ٱلسَّامِعُ : اِنَّمَا يُمَلُّ ٱلْعَتِيقُ لَا ٱلْحَدِيثُ . وَقَدْ اَكْثَرَتِ ٱلشُّعَرَاءُ مِنَ ٱلْاِغْرَاقِ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱلرُّومِيِّ :

وَسَئِمْتُ كُلَّ مَآرِبِي فَكَاَنَّ اَطْيَبَهَا غَثِيثُ
اِلَّا ٱلْحَدِيثَ فَاِنَّهُ مِثْلُ ٱسْمِهِ اَبَدًا حَدِيثُ

وَاَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ اِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ :

وَصَحِبْتُ اِلَّا مِنْ لِقَاءِ مُحَدِّثٍ حَسَنِ ٱلْحَدِيثِ يَزِيدُنِي تَعْلِيمَا

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ ٱلْمُحَدِّثِينَ مِنْ اَهْلِ ٱلْاَدَبِ اَنَّ مِنَ ٱلْاَدَبِ عَدَمَ اِطَالَةِ ٱلْحَدِيثِ مِنَ ٱلنَّدِيمِ وَاَنَّ اَحْلَى لِحَدِيثِهِ وَاَحْسَنَ لِمَوْقِعِهِ اَنْ يَجْتَنِبَ مِنْهُ ٱلْاَحَادِيثَ ٱلطِّوَالَ ذَاتَ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُغْلَغَلَةِ وَٱلْاَلْفَاظِ ٱلْحَشْوِيَّةِ ٱلَّتِي اُفْتُنَّ بِاقْتِصَاصِهَا سُمَّارُ ٱلْمَجَالِسِ وَتَتَعَلَّقُ بِهَا ٱلنُّفُوسُ وَتُحْتَسَى عَلَى اَوَاخِرِهَا ٱلْكُؤُوسُ . فَاِنَّ ذٰلِكَ بِمَجَالِسِ ٱلْقُصَّاصِ اَشْبَهُ مِنْهُ بِمَجَالِسِ ٱلْخَوَاصِّ . وَقَدْ ذَكَرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَاَجَادَ فِيهِ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَوَصَفَ ذٰلِكَ مِنْ اَوْصَافِ ٱلشَّرَابِ عَلَى ٱلْمُعَاقَرَةِ فَقَالَ :

بَيْنَ اَقْدَاحِهِمْ حَدِيثٌ قَصِيرٌ هُوَ سِحْرٌ وَمَا سِوَاهُ حَرَامُ

وَهٰذِهِ طَرِيقَةُ مَنْ ذَهَبَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى اِلَى اَسْتِمَاعِ ٱلْمُلَحِ

البحث الرابع

في حقيقة التاريخ وموضوعهِ

(عن كشف الظنون للحاج خلفا ومروج الذهب للسعودي)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

اَلتَّأْرِيخُ فِي ٱللُّغَةِ تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ مُطْلَقًا . وَيُقَالُ : اَرَّخْتُ ٱلْكِتَابَ تَأْرِيخًا وَوَرَّخْتُهُ تَوْرِيخًا كَمَا فِي ٱلصِّحَاحِ وَهُوَ مُعَرَّبٌ . وَعُرْفًا هُوَ تَعْيِينُ وَقْتٍ لِيُنْسَبَ اِلَيْهِ زَمَانٌ يَأْتِي عَلَيْهِ اَوْ مُطْلَقًا يَعْنِي سَوَاءٌ كَانَ مَاضِيًا اَوْ مُسْتَقْبَلًا . وَقِيلَ : تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ بِاَسْتِنَادِهِ اِلَى اَوَّلِ حُدُوثِ اَمْرٍ شَائِعٍ مِنْ ظُهُورِ مِلَّةٍ اَوْ دَوْلَةٍ اَوْ اَمْرٍ هَائِلٍ مِنَ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلسُّفْلِيَّةِ مِمَّا يَنْدُرُ وُقُوعُهُ جُعِلَ ذٰلِكَ مَبْدَأً لِمَعْرِفَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اَوْقَاتِ ٱلْحَوَادِثِ وَٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي يَجِبُ ضَبْطُ اَوْقَاتِهَا فِي مُسْتَأْنَفِ ٱلسِّنِينَ . وَقِيلَ : عَدَدُ ٱلْاَيَّامِ وَٱللَّيَالِي بِٱلنَّظَرِ اِلَى مَا مَضَى مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشُّهُورِ اِلَى مَا بَقِيَ . وَعِلْمُ ٱلتَّأْرِيخِ هُوَ مَعْرِفَةُ اَحْوَالِ ٱلطَّوَائِفِ وَبُلْدَانِهِمْ وَرُسُومِهِمْ وَصَنَائِعِ اَشْخَاصِهِمْ وَاَنْسَابِهِمْ وَوَفَيَاتِهِمْ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . وَمَوْضُوعُهُ اَحْوَالُ ٱلْاَشْخَاصِ ٱلْمَاضِيَةِ مِنَ ٱلْاَنْبِيَاءِ وَٱلْاَوْلِيَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْحُكَمَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ . وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ٱلْاَحْوَالِ ٱلْمَاضِيَةِ . وَفَائِدَتُهُ ٱلْعِبْرَةُ بِتِلْكَ ٱلْاَحْوَالِ

ٱلْمَاضِيَةِ وَٱلتَّنَصُّحُ بِهَا وَحُصُولُ مَلَكَةِ ٱلتَّجَارِبِ بِٱلْوُقُوفِ عَلَى تَقَلُّبَاتِ ٱلزَّمَنِ لِيُحْتَرَزَ عَنْ أَمْثَالِ مَا نُقِلَ مِنَ ٱلْمَضَارِّ وَيُسْتَجْلَبَ نَظَائِرُهَا مِنَ ٱلْمَنَافِعِ . وَهٰذَا ٱلْعِلْمُ كَمَا قِيلَ عُمْرٌ آخَرُ لِلنَّاظِرِينَ وَٱنْتِفَاعٌ (لِلْمُطَالِعِ) فِي مِصْرِهِ بِمَنَافِعَ تَحْصُلُ لِلْمُسَافِرِينَ

وَلَوْلَا تَقْيِيدُ ٱلْعُلَمَاءِ خَوَاطِرَهُمْ عَلَى ٱلدَّهْرِ لَبَطَلَ أَوَّلُ ٱلْعِلْمِ وَضَاعَ آخِرُهُ إِذْ كَانَ كُلُّ عِلْمٍ مِنَ ٱلْأَخْبَارِ يُسْتَنْبَطُ وَٱلْفِقْهُ مِنْهَا يُسْتَشَارُ وَٱلْفَصَاحَةُ مِنْهَا تُسْتَفَادُ وَاضْحَابُ ٱلْقِيَاسِ مِنْهَا يَبْنُونَ . وَأَهْلُ ٱلْمَقَالَاتِ بِهَا يَحْتَجُّونَ وَمَعْرِفَةُ ٱلنَّاسِ مِنْهَا تُؤْخَذُ وَأَمْثَالُ ٱلْحُكَمَاءِ فِيهَا تُوجَدُ وَمَكَارِمُ ٱلْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا مِنْهَا تُقْتَبَسُ . وَآدَابُ سِيَاسَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱلْحَرْبِ مِنْهَا تُلْتَمَسُ وَكُلُّ غَرِيبَةٍ مِنْهَا تُعْرَفُ وَكُلُّ أُعْجُوبَةٍ مِنْهَا تُسْتَطْرَفُ . وَهُوَ عِلْمٌ يَسْتَمْتِعُ بِسَمَاعِهِ ٱلْعَالِمُ وَٱلْجَاهِلُ وَيَسْتَعْذِبُ مَوْقِعَهُ ٱلْأَحْمَقُ وَٱلْعَاقِلُ وَيَأْنَسُ بِمَكَانِهِ وَيَنْزِعُ إِلَيْهِ ٱلْخَاصِّيُّ وَٱلْعَامِّيُّ وَيَمِيلُ إِلَى رِوَايَتِهِ ٱلْعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ . وَبَعْدُ فَإِنَّهُ يُوصَلُ بِهِ كُلُّ كَلَامٍ وَيُتَزَيَّنُ بِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَيُحْتَمَلُ بِهِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ وَيُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَحْفِلٍ . فَفَضِيلَةُ عِلْمِ ٱلْأَخْبَارِ بَيِّنَةٌ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ وَشَرَفُ مَنْزِلَتِهِ صَحِيحَةٌ فِي كُلِّ فَهْمٍ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى عِلْمِهِ وَتَيَقُّنِ مَا فِيهِ وَإِيرَادِهِ وَإِصْدَارِهِ إِلَّا إِنْسَانٌ قَدْ تَجَرَّدَ لِلْعِلْمِ وَفَهِمَ مَعْنَاهُ وَذَاقَ ثَمَرَتَهُ وَٱسْتَشْعَرَ مِنْ عِزِّهِ وَنَالَ مِنْ سُرُورِهِ

البحث الخامس

في شرف التاريخ

(عن ابن خلدون)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

اَمَّا بَعْدُ فَاِنَّ فَنَّ ٱلتَّأْرِيخِ مِنَ ٱلْفُنُونِ ٱلَّتِي تَتَدَاوَلُهَا ٱلْأُمَمُ وَٱلْأَجْيَالُ وَتُشَدُّ اِلَيْهَا ٱلرَّكَائِبُ وَٱلرِّحَالُ وَتَسْمُو اِلَى مَعْرِفَتِهَا ٱلسُّوقَةُ وَٱلْأَغْفَالُ . وَنَتَنَافَسُ فِيهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْأَقْيَالُ . وَتَتَسَاوَى فِي فَهْمِهَا ٱلْعُلَمَاءُ وَٱلْجُهَّالُ . اِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى اَخْبَارٍ عَنِ ٱلْاَيَّامِ وَٱلدُّوَلِ . وَٱلسَّوَابِقِ مِنَ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُوَلِ . تَنْمُو فِيهَا ٱلْاَقْوَالُ وَتُضْرَبُ فِيهَا ٱلْاَمْثَالُ . وَتُطْرَفُ بِهَا ٱلْاَنْدِيَةُ اِذَا غَصَّهَا ٱلْاِحْتِفَالُ . وَتُؤَدِّي لَنَا شَأْنَ ٱلْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَلَّبَتْ بِهَا ٱلْاَحْوَالُ . وَٱتَّسَعَ لِلدُّوَلِ فِيهَا ٱلنِّطَاقُ وَٱلْمَجَالُ . وَعَمَرُوا ٱلْاَرْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمِ ٱلِارْتِحَالُ . وَحَانَ مِنْهُمُ ٱلزَّوَالُ . وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ . وَتَعْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ وَمَبَادِئِهَا دَقِيقٌ . وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَّاتِ ٱلْوَقَائِعِ وَاَسْبَابِهَا عَمِيقٌ . فَهُوَ لِذٰلِكَ اَصِيلٌ فِي ٱلْحِكْمَةِ عَرِيقٌ . وَجَدِيرٌ بِاَنْ يُعَدَّ فِي عُلُومِهَا وَخَلِيقٌ . وَاِنَّ فُحُولَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ فِي ٱلْاِسْلَامِ قَدِ ٱسْتَوْعَبُوا اَخْبَارَ ٱلْاَيَّامِ وَجَمَعُوهَا وَسَطَّرُوهَا فِي صَفَحَاتِ ٱلدَّفَاتِرِ وَاَوْدَعُوهَا . وَخَلَطَهَا ٱلْمُتَطَفِّلُونَ بِدَسَائِسَ مِنَ ٱلْبَاطِلِ وَهَمُّوا فِيهَا وَٱبْتَدَعُوهَا . وَزَخَارِفَ مِنَ ٱلرِّوَايَاتِ ٱلْمُضْعَفَةِ لَفَّقُوهَا وَوَضَعُوهَا . وَٱقْتَفَى تِلْكَ ٱلْآثَارَ ٱلْكَثِيرُ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَٱتَّبَعُوهَا . وَاَدَّوْهَا اِلَيْنَا

كَمَا سَمِعُوهَا . وَلَمْ يُلَاحِظُوا اَسْبَابَ ٱلْوَقَائِعِ وَٱلْاَحْوَالِ وَلَمْ يُرَاعُوهَا . وَلَا رَفَضُوا تُرَّهَاتِ ٱلْاَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا. فَٱلتَّحْقِيقُ قَلِيلٌ. وَطَرْفُ ٱلتَّنْقِيحِ فِي ٱلْغَالِبِ كَلِيلٌ. وَٱلْغَلَطُ وَٱلْوَهْمُ نَسِيبٌ لِلْاَخْبَارِ وَخَلِيلٌ . وَٱلتَّقْلِيدُ عَرِيقٌ فِي ٱلْاَدَمِيِّينَ وَسَلِيلٌ. وَٱلتَّطَفُّلُ عَلَى ٱلْفُنُونِ عَرِيضٌ طَوِيلٌ . وَمَرْعَى ٱلْجَهْلِ بَيْنَ ٱلْاَنَامِ وَخِيمٌ وَبِيلٌ. وَٱلْحَقُّ لَا يُقَاوَمُ سُلْطَانُهُ. وَٱلْبَاطِلُ يُقْذَفُ بِشِهَابِ ٱلنَّظَرِ شَيْطَانُهُ. وَٱلنَّاقِلُ اِنَّمَا هُوَ يُمْلِي وَيَنْقُلُ . وَٱلْبَصِيرَةُ تَنْقُدُ ٱلصَّحِيحَ اِذَا تَمَثَّلُ. وَٱلْعِلْمُ يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ ٱلصَّوَابِ وَيَصْقُلُ . هٰذَا وَقَدْ دَوَّنَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَخْبَارِ وَاَكْثَرُوا . وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ ٱلْاُمَمِ وَٱلدُّوَلِ فِي ٱلْعَالَمِ وَسَطَّرُوا . وَٱلَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ ٱلشُّهْرَةِ وَٱلْاِمَامَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ. وَٱسْتَفْرَغُوا دَوَاوِينَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمْ ٱلْمُتَاخِّرَةِ. هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ ٱلْاَنَامِلِ . وَلَا حَرَكَاتِ ٱلْعَوَامِلِ . مِثْلُ ٱبْنِ اِسْحٰقَ وَٱلطَّبَرِيِّ وَٱبْنِ ٱلْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ ٱلْوَاقِدِيِّ وَسَيْفِ ٱبْنِ عُمَرَ ٱلْاَسَدِيِّ وَٱلْمَسْعُودِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمَشَاهِيرِ. ٱلْمُتَمَيِّزِينَ عَنِ ٱلْجَمَاهِيرِ. وَاِنْ كَانَ فِي كُتُبِ ٱلْمَسْعُودِيِّ وَٱلْوَاقِدِيِّ مِنَ ٱلْمَطْعَنِ وَٱلْمَغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ ٱلْاَثْبَاتِ. وَمَشْهُورٌ بَيْنَ ٱلْحُفَّاظِ ٱلثِّقَاتِ . اِلَّا اَنَّ ٱلْكَافَّةَ ٱخْتَصَّتْهُمْ بِقَبُولِ اَخْبَارِهِمْ. وَٱقْتِفَاءِ سُنَنِهِمْ فِي ٱلتَّصْنِيفِ وَٱتِّبَاعِ آثَارِهِمْ. وَٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ قِسْطَاسُ نَفْسِهِ فِي تَرْيِيفِهِمْ فِيمَا يَنْقُلُونَ اَوْ اَعْتَبَارِهِمْ . فَلِلْعُمْرَانِ طَبَائِعُ فِي اَحْوَالِهِ تَرْجِعُ اِلَيْهَا ٱلْاَخْبَارُ. وَتُحْمَلُ عَلَيْهَا ٱلرِّوَايَاتُ وَٱلْآثَارُ . ثُمَّ اِنَّ اَكْثَرَ ٱلتَّوَارِيخِ لِهٰؤُلَاءِ عَامَّةُ ٱلْمَنَاهِجِ وَٱلْمَسَالِكِ . لِعُمُومِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ صَدْرَ ٱلْاِسْلَامِ فِي

ٱلْآفَاقِ وَٱلْمَمَالِكِ وَتَنَاوُلُهَا ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْغَايَاتِ فِي ٱلْمَآخِذِ وَٱلْمَتَارِكِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنِ ٱسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ ٱلْمِلَّةِ مِنَ ٱلدُّوَلِ وَٱلْأُمَمِ. وَٱلْأَمْرِ ٱلْعَمَمِ. كَٱلْمَسْعُودِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُ. وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ ٱلْاِطْلَاقِ إِلَى ٱلتَّقْيِيدِ. وَوَقَفَ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْاِحَاطَةِ عَنِ ٱلشَّأْوِ ٱلْبَعِيدِ فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَصْرِهِ. وَٱسْتَوْعَبَ اَخْبَارَ اُفُقِهِ وَقُطْرِهِ. وَٱقْتَصَرَ عَلَى اَحَادِيثِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ. كَمَا فَعَلَ اَبُوحَيَّانَ مُؤَرِّخُ ٱلْاَنْدَلُسِ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلْاَمَوِيَّةِ بِهَا. وَٱبْنُ ٱلرَّقِيقِ مُؤَرِّخُ اَفْرِيقِيَةَ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ بِٱلْقَيْرَوَانِ. ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ اِلَّا مُقَلِّدٌ. وَبَلِيدُ ٱلطَّبْعِ وَٱلْعَقْلِ اَوْ مُتَبَلِّدٌ. يَنْسُجُ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمِنْوَالِ. وَيَحْتَذِي مِنْهُ بِٱلْمِثَالِ. وَيَذْهَلُ عَمَّا اَحَالَتْهُ ٱلْاَيَّامُ مِنَ ٱلْاَحْوَالِ. وَٱسْتَبْدَلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ ٱلْاُمَمِ وَٱلْاَجْيَالِ. فَيَجْلُبُونَ ٱلْاَخْبَارَ عَنِ ٱلدُّوَلِ. وَحِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلْاُوَلِ. صُوَرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا. وَصِفَاحًا اُنْتُضِيَتْ مِنْ اَغْمَادِهَا وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا. اِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ اُصُولُهَا. وَاَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرْ اَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولُهَا. يُكَرِّرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهَا ٱلْاَخْبَارَ ٱلْمُتَدَاوَلَةَ بِاَعْيَانِهَا. اِتِّبَاعًا لِمَنْ عُنِيَ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا. وَيُفَضِّلُونَ اَمْرَ ٱلْاَجْيَالِ ٱلنَّاشِئَةِ فِي دِيوَانِهَا. بِمَا اَعْوَزَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجَمَاتِهَا فَتَسْتَعْجِمُ صُحُفُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا. ثُمَّ اِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ ٱلدَّوْلَةِ نَسَقُوا اَخْبَارَهَا نَسْقًا. مُحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهْمًا اَوْ صِدْقًا. لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبَدَايَتِهَا. وَلَا يَذْكُرُونَ ٱلسَّبَبَ ٱلَّذِي رَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا وَاَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا. وَلَا عِلَّةَ ٱلْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا. فَيَبْقَى ٱلنَّاظِرُ

تَطَلَّعًا بَعْدُ إِلَى اِفْتِقَادِ اَحْوَالِ مَبَادِىءِ ٱلدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا . مُفَتِّشًا عَنْ اَسْبَابِ تَرَاحُمِهَا اَوْ تَعَاقُبِهَا . بَاحِثًا عَنِ ٱلْمَنْعِ فِي تَبَايُنِهَا اَوْ فِي تَنَاسُبِهَا . ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِافْرَاطِ ٱلِاخْتِصَارِ . وَذَهَبُوا إِلَى ٱلِاكْتِفَاءِ بِاَسْمَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلِاقْتِصَارِ . مَقْطُوعَةً عَنِ ٱلْاَنْسَابِ وَٱلْاَخْبَارِ . مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا اَعْدَادُ اَيَّامِهِمْ بِحُرُوفِ ٱلْغُبَارِ . كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي مِيزَانِ ٱلْعَمَلِ وَمَنِ ٱقْتَفَى هٰذَا ٱلْاَثَرَ مِنَ ٱلْهَمَلِ . وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لِهٰؤُلَاءِ مَقَالٌ . وَلَا يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا ٱنْتِقَالٌ . لِمَا اَذْهَبُوا مِنَ ٱلْفَوَائِدِ . وَاَخْلَوْا بِٱلْمَذَاهِبِ ٱلْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْعَوَائِدِ

وَقَدْ زَلَّتْ اَقْدَامُ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْاَثْبَاتِ وَٱلْمُؤَرِّخِينَ ٱلْحُفَّاظِ فِي مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْاَحَادِيثِ وَٱلْآرَاءِ . وَعَلِقَتْ بِاَفْكَارِهِمْ وَنَقَلَهَا عَنْهُمُ ٱلْكَافَّةُ مِنْ ضَعْفَةِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱلْقِيَاسِ وَتَلَقَّوْهَا هُمْ اَيْضًا كَذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَٱنْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوظَاتِهِمْ حَتَّى صَارَ فَنُّ ٱلتَّارِيخِ وَاهِيًا مُخْتَلِطًا . وَنَاظِرُهُ مُرْتَبِكًا وَعُدَّ مِنْ مَنَاحِي ٱلْعَامَّةِ . فَاِذًا يَحْتَاجُ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْفَنِّ اِلَى ٱلْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَاخْتِلَافِ ٱلْاُمَمِ وَٱلْبِقَاعِ وَٱلْاَعْصَارِ فِي ٱلسِّيَرِ وَٱلْاَخْلَاقِ وَٱلْعَوَائِدِ وَٱلنِّحَلِ وَٱلْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ ٱلْاَحْوَالِ وَٱلْاِحَاطَةِ بِٱلْحَاضِرِ مِنْ ذٰلِكَ . وَمُمَاثَلَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْغَائِبِ مِنَ ٱلْوِفَاقِ اَوْ بَوْنِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْخِلَافِ وَتَعْلِيلِ ٱلْمُتَّفِقِ مِنْهَا وَٱلْمُخْتَلِفِ . وَٱلْقِيَامِ عَلَى اُصُولِ ٱلدُّوَلِ وَٱلْمِلَلِ وَمَبَادِىءِ ظُهُورِهَا وَاَسْبَابِ حُدُوثِهَا وَدَوَاعِي كَوْنِهَا . وَاَحْوَالِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا وَاَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُونَ مُسْتَوْعِبًا لِاَسْبَابِ كُلِّ

حَادِثٍ وَاقِفًا عَلَى اُصُولِ كُلِّ خَبَرٍ وَحِينَئِذٍ يَعْرِضُ الْخَبَرَ الْمَنْقُولَ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَالْاُصُولِ . فَاِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيحًا وَاِلَّا زَيَّفَهُ وَاسْتَغْنَى عَنْهُ . وَمَا اسْتَكْبَرَ الْقُدَمَاءُ عِلْمَ التَّأْرِيخِ اِلَّا لِذٰلِكَ حَتَّى انْتَحَلَهُ الطَّبَرِيُّ وَالْبُخَارِيُّ وَابْنُ اِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَاَمْثَالُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْاُمَّةِ . وَقَدْ ذَهَلَ الْكَثِيرُ عَنْ هٰذَا السِّرِّ فِيهِ حَتَّى صَارَ انْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً وَاسْتَخَفَّ الْعَوَامُّ وَمَنْ لَا رُسُوخَ لَهُ فِي الْمَعَارِفِ طَالَعَتَهُ وَحَمَلَهُ وَالْخَوْضَ فِيهِ وَالتَّطَفُّلَ عَلَيْهِ فَاخْتَلَطَ الْمَرْعِيُّ بِالْهَمَلِ وَاللُّبَابُ بِالْقِشْرِ وَالصَّادِقُ بِالْكَاذِبِ وَاِنَّ لِلّٰهِ عَاقِبَةَ الْاُمُورِ

وَاعْلَمْ اَنَّ فَنَّ التَّأْرِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ الْمَذْهَبِ جَمُّ الْفَائِدَةِ شَرِيفُ الْعَائِدَةِ اِذْ هُوَ يَقِفُنَا عَلَى اَحْوَالِ الْمَاضِينَ مِنَ الْاُمَمِ فِي اَخْلَاقِهِمْ وَالْاَنْبِيَاءِ فِي سِيَرِهِمْ وَالْمُلُوكِ فِي دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ الْاِقْتِدَاءِ فِي ذٰلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي اَحْوَالِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ اِلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفِيضَانِ بِصَاحِبِهِمَا اِلَى الْحَقِّ وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ الْمَزِلَّاتِ وَالْمَغَالِطِ . لِاَنَّ الْاَخْبَارَ اِذَا اعْتُمِدَ فِيهَا مُجَرَّدُ النَّقْلِ وَلَمْ تُحَكَّمْ اُصُولُ الْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ السِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ الْعُمْرَانِ وَالْاَحْوَالُ فِي الْاِجْتِمَاعِ الْاِنْسَانِيِّ وَلَا قِيسَ الْغَائِبُ مِنْهَا بِالشَّاهِدِ وَالْحَاضِرُ بِالذَّاهِبِ فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ الْعُثُورِ وَمَزِلَّةِ الْقَدَمِ وَالْحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ الصِّدْقِ . وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْمُفَسِّرِينَ وَاَئِمَّةِ النَّقْلِ الْمَغَالِطُ فِي حِكَايَاتِ الْوَقَائِعِ لِاعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ النَّقْلِ غَثًّا اَوْ سَمِينًا . لَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى اُصُولِهَا

وَقَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَصِيرَةِ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ ٱلْحَقِّ وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ ٱلْوَهْمِ وَٱلْغَلَطِ سِيَّمَا فِي إِحْصَاءِ ٱلْأَعْدَادِ وَٱلْأَمْوَالِ وَٱلْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي ٱلْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ ٱلْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ ٱلْهَذَرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى ٱلْأُصُولِ وَعَرْضِهَا عَلَى ٱلْقَوَاعِدِ

البحث السادس

في شروط التاريخ

(عن الفخري)

(راجع صفحة ١٩٧ من علم الادب)

وَإِنْ بَاشَرْتَ بِكِتَابَةِ تَارِيخٍ عَامٍّ فَتَكَلَّمْ عَلَى دَوْلَةٍ دَوْلَةٍ بِمَجْمُوعِ مَا حَصَّلَ ذِهْنُكَ مِنَ ٱلْهَيْئَةِ ٱلِٱجْتِمَاعِيَّةِ ٱلَّتِي أَفَادَتْكَهَا مُطَالَعَةُ ٱلسِّيَرِ وَٱلتَّوَارِيخِ وَٱذْكُرْ كَيْفَ كَانَ ٱبْتِدَاؤُهَا وَٱنْتِهَاؤُهَا وَطَرَفًا مُمْتِعًا مِنْ مَحَاسِنِ مُلُوكِهَا وَأَخْبَارِ سَلَاطِينِهَا . ثُمَّ إِذَا ذَكَرْتَ دَوْلَةً فَدَوْلَةً تَكَلَّمْتَ عَلَى كُلِّيَّاتِ أُمُورِهَا ثُمَّ ذَكَرْتَ وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْ مُلُوكِهَا وَمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ مِنَ ٱلْوَقَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلْمَأْثُورَةِ فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ذٰلِكَ ٱلْمَلِكِ ذَكَرْتَ وُزَرَاءَهُ وَاحِدًا وَاحِدًا وَطَرَائِقَ مَا جَرَى لَهُمْ . فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ٱلْمَلِكِ وَوُزَرَائِهِ ٱبْتَدَأْتَ بِٱلْمَلِكِ ٱلَّذِي بَعْدَهُ وَبِمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ وَبِسِيَرِ وُزَرَائِهِ كَذٰلِكَ إِلَى آخِرِ تِلْكَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْتَزِمْ فِيهِ أَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ لَا تَمِيلَ فِيهِ إِلَّا مَعَ ٱلْحَقِّ

وَلَا تَنْطِقَ فِيهِ اِلَّا بِالْعَدْلِ . وَاَنْ تَعْزِلَ سُلْطَانَ الْهَوَى وَتَخْرُجَ مِنْ حُكْمِ الْمَنْشَإِ وَالْمَرْبَى وَتَفْرِضَ نَفْسَكَ غَرِيبًا عَنْهُمْ وَاَجْنَبِيًّا بَيْنَهُمْ . وَثَانِيهِمَا اَنْ تُعَبِّرَ عَنِ الْمَعَانِي بِعِبَارَاتٍ وَاضِحَةٍ تَقْرُبُ مِنَ الْاَفْهَامِ لِتَنْتَفِعَ بِهِ كُلَّ اَحَدٍ عَادِلًا عَنِ الْعِبَارَاتِ الْمُسْتَصْعَبَةِ الَّتِي يُقْصَدُ فِيهَا اِظْهَارُ الْفَصَاحَةِ وَاِثْبَاتُ الْبَلَاغَةِ فَطَالَمَا رَاَيْتُ مُصَنِّفِي الْكُتُبِ قَدِ اعْتَرَضَتْهُمْ مَحَبَّةُ اِظْهَارِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ فَخَفِيَتْ اَغْرَاضُهُمْ وَاعْتَاصَتْ مَعَانِيهِمْ فَقَلَّتِ الْفَائِدَةُ بِمُصَنَّفَاتِهِمْ. هٰذَا وَاِنَّ كُتُبَ التَّوَارِيخِ اِنْ نُظِرَ بِعَيْنِ الْاِنْصَافِ اِلَيْهَا رُئِيَتْ اَنْفَعَ مِنَ الْحَمَاسَةِ الَّتِي لَهِجَ النَّاسُ بِهَا وَاَخَذُوا اَوْلَادَهُمْ بِحِفْظِهَا فَاِنَّ الْحَمَاسَةَ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا اَكْثَرُ مِنَ التَّرْغِيبِ فِي الشَّجَاعَةِ وَالضِّيَاقَةِ وَشَيْءٍ يَسِيرٍ مِنَ الْاَخْلَاقِ فِي اَلْبَابِ الْمُسَمَّى بَابَ الْاَدَبِ وَالتَّاَنُّسِ بِالْمَذَاهِبِ الشِّعْرِيَّةِ . وَالتَّاْرِيخُ يُسْتَفَادُ مِنْهُ هٰذِهِ الْخِصَالُ الْمَذْكُورَةُ . وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ قَوَاعِدُ السِّيَاسَةِ وَاَدَوَاتُ الرِّئَاسَةِ . فَهٰذَا فِيهِ مَا فِي الْحَمَاسَةِ وَلَيْسَ فِي الْحَمَاسَةِ مَا فِيهِ وَاِنَّهُ يُفِيدُ الْعَقْلَ قُوَّةً وَالذِّهْنَ حِدَّةً وَالْبَصِيرَةَ نُورًا وَهُوَ لِلْخَاطِرِ الذَّكِيِّ بِمَنْزِلَةِ الْمِسَنِّ لِلْفُولَاذِ الْجَيِّدِ وَهُوَ اَيْضًا اَنْفَعُ مِنَ الْمَقَامَاتِ الَّتِي النَّاسُ فِيهَا مُعْتَقِدُونَ وَفِي تَحَفُّظِهَا رَاغِبُونَ اِذِ الْمَقَامَاتُ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا سِوَى التَّمَرُّنِ عَلَى الْاِنْشَاءِ وَالْوُقُوفِ عَلَى مَذَاهِبِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ . نَعَمْ وَفِيهَا حِكَمٌ وَحِيَلٌ وَتَجَارِبُ اِلَّا اَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُصَغِّرُ الْهِمَّةَ اِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى السُّؤَالِ وَالْاِسْتِجْدَاءِ وَالتَّحَيُّلِ الْقَبِيحِ عَلَى تَحْصِيلِ النَّزْرِ الطَّفِيفِ فَاِنْ نَفَعَتْ مِنْ جَانِبٍ ضَرَّتْ مِنْ جَانِبٍ وَبَعْضُ النَّاسِ تَنَبَّهُوا عَلَى هٰذَا مِنَ الْمَقَامَاتِ الْحَرِيرِيَّةِ وَالْبَدِيعِيَّةِ فَعَدَلَ

نَاسٌ إِلَى نَهْجِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : فَإِنَّهُ ٱلْكِتَابُ ٱلَّذِي يُتَعَلَّمُ مِنْهُ ٱلْحِكَمُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَٱلْخُطَبُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلزُّهْدُ وَعُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ وَأَدْنَى فَوَائِدِهِ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ . وَكَذٰلِكَ كُتُبُ ٱلتَّوَارِيخِ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ رُبَّمَا ضَجِرَتْهُ ٱلْمَهَامُّ وَٱلْأَشْغَالُ فَإِذَا رَوَّحَ فِكْرَهُ بِٱلنَّظَرِ فِيهَا دَفَعَ بِهَا ٱلْمَلَالَ وَتَذَكَّرَ بِهَا مَا أَنْسَتْهُ ٱلْأَشْغَالُ . . .

البحث السابع

في الاصول العشرة التي يعتمدها الكاتب في المكاتبات

(من كتاب صبح الاعشى لابي العبَّاس احمد القلقشندي)

(راجع صفحة ٢٠٧ من علم الادب)

(أَلْأَصْلُ ٱلْأَوَّلُ حُسْنُ ٱلِٱفْتِتَاحِ) ٱلْمَطْلُوبُ فِي سَائِرِ أَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنْ نَثْرٍ وَنَظْمٍ مِمَّا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ لِيَكُونَ دَاعِيَةً لِٱسْتِمَاعِ مَا بَعْدَهُ . وَيَرْجِعُ حُسْنُ ٱلِٱفْتِتَاحِ فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ إِلَى مَعْنَيَيْنِ : (أَلْمَعْنَى ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا إِلَى ٱلْمُبْتَدَإِ بِهِ إِمَّا بِٱلِٱفْتِتَاحِ بِٱلْحَمْدِ لِلّٰهِ كَمَا فِي بَعْضِ ٱلْمُكَاتَبَاتِ لِأَنَّ ٱلنُّفُوسَ تَتَشَوَّقُ إِلَى ٱلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ تَعَالَى . أَوْ بِٱلسَّلَامِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱلشَّارِعُ مُفْتَتَحَ ٱلْخِطَابِ أَوْ نَحْوِ ذٰلِكَ . فَإِنَّ أَمْرَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَبْنِيٌّ عَلَى ٱلتَّلَطُّفِ وَٱسْتِجْلَابِ ٱلْخَوَاطِرِ وَتَأْلِيفِ ٱلْقُلُوبِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱصْطِلَاحُ كُلِّ زَمَنٍ فِي ٱلْأَبْتِدَاءَاتِ . (أَلْمَعْنَى ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا إِلَى مَا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ مِنْ سُهُولَةِ ٱللَّفْظِ

وَصِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَوُضُوحِ ٱلْمَعْنَى وَتَجَنُّبِ ٱلْحَشْوِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّانِي) بَرَاعَةُ ٱلِٱسْتِهْلَالِ ٱلْمَطْلُوبَةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ ٱلْكَلَامِ بِأَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ ٱلْمُكَاتَبَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى عَجْزِهَا فَإِنْ كَانَ ٱلْكَاتِبُ يُهَنِّئُ أَتَى فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّهْنِئَةِ . أَوْ كَانَ ٱلصَّدَدُ فِي ٱلتَّعْزِيَةِ أَتَى فِي أَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعْزِيَةِ أَوْ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي أَتَى فِي أَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لِيُعْلَمَ مِنْ مَبْدَإِ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ . . . ثُمَّ مِنَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَا يَعْسُرُ مَعَهُ ٱلْإِتْيَانُ بِبَرَاعَةِ ٱلِٱسْتِهْلَالِ فَيَأْتِي بِهَا فِيمَا يَلِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي مُقَدَّمَةِ ٱلْمُكَاتَبَةِ قَبْلَ ٱلْخَوْضِ فِي ٱلْمَقْصُودِ . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّالِثُ) ٱلْمُقَدَّمَةُ ٱلَّتِي يَلْزَمُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا فِي صَدْرِ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ تَأْسِيسًا لِمَا يَأْتِي فِي مُكَاتَبَةٍ . مِثْلَ أَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ كُتُبِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْجِهَادِ بِذِكْرِ ٱفْتِرَاحِهِ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَمَا وَعَدَ ٱللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ نَصْرِ أَوْلِيَائِهِ وَخِذْلَانِ أَعْدَائِهِ وَإِعْزَازِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَقَمْعِ ٱلْمُلْحِدِينَ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ ٱلْفَتْحِ بِٱنْجَازِ وَعْدِ ٱللهِ ٱلَّذِي وَعَدَهُ أَهْلَ ٱلطَّاعَةِ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَٱلظَّفَرِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ جِبَايَةِ ٱلْخَرَاجِ بِحَاجَةِ قِيَامِ ٱلْمَلِكِ إِلَى ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِمَا يُسْتَخْرَجُ مِنْ حُقُوقِ ٱلسُّلْطَانِ فِي عِمَارَةِ ٱلثُّغُورِ وَتَحْصِينِ ٱلْأَعْمَالِ وَتَقْوِيَةِ ٱلرِّجَالِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّمَطِ . قَالَ فِي مَوَادِّ ٱلْبَيَانِ : وَعَلَى هٰذَا ٱلسَّبِيلِ جَرَتْ سُنَّةُ ٱلْكُتَّابِ فِي جَمِيعِ ٱلْكُتُبِ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَٱلْفُتُوحِ وَٱلتَّهَانِي وَٱلتَّعَازِي وَٱلتَّهَادِي وَٱلِٱسْتِخْبَارِ وَٱلِٱسْتِبْطَاءِ وَٱلِٱعْتِمَادِ وَٱلِٱعْتِذَارِ وَغَيْرِهَا لِيَكُونَ

ذٰلِكَ بِسَاطًا لِمَا يُرِيدُ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَحُجَّةً يَسْتَظْهِرُ بِهَا ٱلسُّلْطَانُ لِأَنَّ كُلَّ كَلَامٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فَرْشٍ يُفْرَشُ قَبْلَهُ لِيَكُونَ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْأَسَاسِ مِنَ ٱلْبُنْيَانِ . (قَالَ) : وَيُرْجِعُ فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْكَاتِبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي تُشَاكِلُهَا . (ثُمَّ قَالَ) وَٱلطَّرِيقُ فِي إِصَابَةِ ٱلْمَرْمَى فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ أَنْ تُجْعَلَ مُشْتَمِلَةً عَلَى مَا بَعْدَهَا مِنَ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَغْرَاضِ وَأَنْ يُوضَعَ لِلْأَمْرِ ٱلْخَاصِّ مُقَدِّمَةٌ خَاصَّةٌ وَلِلْأَمْرِ ٱلْعَامِّ مُقَدِّمَةٌ عَامَّةٌ وَلَا يُطَوَّلَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِقْتِصَارِ وَلَا يُقَصَّرَ فِي مَوْضِعِ ٱلْإِيجَازِ . وَلَا تُجْعَلَ أَغْرَاضُهَا بَعِيدَةَ ٱلْمَآخِذِ مُعْتَاصَةً عَلَى ٱلْمُتَصَفِّحِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْكَاتِبَ رُبَّمَا قَصَدَ إِظْهَارَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ٱلْكَلَامِ وَٱلتَّصَرُّفِ فِي وُجُوهِ ٱلنُّطْقِ فَخَرَجَ إِلَى ٱلْإِمْلَالِ وَٱلْإِضْجَارِ ٱلَّذِي تَتَبَرَّمُ مِنْهُ ٱلنُّفُوسُ وَذَوُو ٱلْأَخْطَارِ ٱلْجَلِيلَةِ . أَمَّا ٱلْكُتُبُ ٱلَّتِي لَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ كَرِقَاعِ ٱلتُّحَفِ وَٱلْهَدَايَا وَنَحْوِهَا فَلَا تُجْعَلُ لَهَا مُقَدِّمَةٌ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ وَغَيْرُ وَاقِعٍ مَوْقِعَهُ . (ٱلْأَصْلُ ٱلرَّابِعُ) مَوَاقِعُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلدَّائِرَةِ فِي ٱلْكُتُبِ فَيَلْزَمُ أَنْ يُمَيِّزَ مَوْقِعَ كُلٍّ لِيَضَعَهُ مَكَانَهُ . وَقَالَ فِي ذَخِيرَةِ ٱلْكُتَّابِ : يَجِبُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ ٱلرَّئِيسِ أَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَوَاقِعَهَا لِيُرَتِّبَهَا وَيُفَرِّقَ بَيْنَهَا فَرْقًا يَقِفُهُ عَلَى ٱلْوَاجِبِ وَيَنْتَهِي بِهِ إِلَى ٱلصَّوَابِ فَيُخَاطِبُ كُلًّا فِي مُكَاتَبَتِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ ٱلْخِطَابِ . . وَمَتَى ٱسْتَمَرَّ ٱلْكَاتِبُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمُخَالَفَةِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمُنَاقَضَةِ نَقَصَتِ ٱلْمَعَانِي وَرَذُلَتِ ٱلْأَلْفَاظُ وَسَقَطَتِ ٱلْمَقَاصِدُ وَكَانَ

ٱلْكَاتِبُ قَدْ اَخَلَّ مِنَ ٱلصِّنَاعَةِ بِمُعْظَمِهَا وَتَرَكَ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ غَايَةَ مُحْكَمِهَا بَلْ يَجِبُ اِنْ بَدَا بِخِطَابِ رَئِيسٍ اَوْ نَظِيرٍ اَوْ مَرْؤُوسٍ اَنْ يَكُونَ مَا يَتَخَلَّلُ مُكَاتَبَتَهُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ عَلَى ٱتِّسَاقٍ اِلَى آخِرِهَا وَٱطِّرَادٍ مِنْ غَيْرِ مُخَالَفَةٍ بَيْنَهَا وَلَا مُضَادَّةٍ وَلَا مُنَاقَضَةٍ . نَعَمْ يَحْسُنُ ذٰلِكَ فِي مُعَاتَبَاتِ ٱلْاِخْوَانِ وَٱلْمُدَاعَبَاتِ ٱلْجَارِيَةِ بَيْنَ ٱلْخِلَّانِ . . . (ٱلْاَصْلُ ٱلْخَامِسُ) ٱلْاَدْعِيَةُ ٱلَّتِي جَرَتْ عَادَةُ ٱلسَّلَفِ وَتَبِعَهُمْ ٱلْخَلَفُ بِٱسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلْمُكَاتَبَاتِ . وَٱلنَّظَرُ فِيهَا مِنْ سِتَّةِ اَوْجُهٍ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ ٱلدُّعَاءِ لِيُوقِعَهَا فِي مَوَاقِعِهَا وَيُورِدَهَا فِي مَوَارِدِهَا . وَيَأْتِي ذٰلِكَ فِي عِدَّةِ اَدْعِيَةٍ مِنْهَا : ٱلدُّعَاءُ بِاَطَالَةِ ٱلْبَقَاءِ وَٱلدُّعَاءُ بِاَطَالَةِ ٱلْعُمْرِ . فَٱلدُّعَاءُ بِاَطَالَةِ ٱلْبَقَاءِ اَرْفَعُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ بِاَطَالَةِ ٱلْعُمْرِ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْبَقَاءَ لَا يَدُلُّ عَلَى مُدَّةٍ تَنْقَضِي لِاَنَّهُ ضِدُّ ٱلْفَنَاءِ وَٱلْعُمْرُ يَدُلُّ عَلَى مُدَّةٍ تَنْقَضِي وَلِذٰلِكَ يُوصَفُ ٱللّٰهُ تَعَالَى بِٱلْبَقَاءِ وَلَا يُوصَفُ بِٱلْعُمْرِ . . (ٱلثَّانِي) اَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ اَرْبَابِ ٱلْمَنَاصِبِ ٱلْجَلِيلَةِ مِنَ ٱلدُّعَاءِ فَيَخُصُّهُ بِهِ فَيَأْتِي بِٱلدُّعَاءِ فِي مُكَاتَبَةِ ٱلْمُلُوكِ بِدَوَامِ ٱلسُّلْطَانِ وَخُلُودِ ٱلْمُلْكِ . وَاِلَى ٱلْاُمَرَاءِ بِٱلدُّعَاءِ بِعِزِّ ٱلنَّصْرِ وَمُدَاوَمَةِ ٱلنِّعْمَةِ . وَاِلَى ٱلْوُزَرَاءِ مِنْ اَرْبَابِ ٱلْاَقْلَامِ بِسُبُوغِ ٱلنَّعْمَاءِ وَتَخْلِيدِ ٱلسَّعَادَةِ وَدَوَامِ ٱلْمَجْدِ . وَاِلَى ٱلْقُضَاةِ وَٱلْحُكَّامِ بِٱلدُّعَاءِ بِعِزِّ ٱلْاَحْكَامِ . وَاِلَى ٱلتُّجَّارِ بِٱلدُّعَاءِ بِمَزِيدِ ٱلْاِقْبَالِ وَشِبْهِ ذٰلِكَ . (وَٱلثَّالِثُ) اَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِ ٱلْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِي كُلَّ حَالَةٍ بِمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ ٱلدُّعَاءِ فَتَكُونُ ٱلْاَدْعِيَةُ دَالَّةً عَلَى مَقَاصِدِ ٱلْكُتَّابِ

فَإِنْ كَانَ فِي ٱلْهَنَاءِ وَٱلشُّكْرِ أَوِ ٱلتَّعْزِيَةِ أَتَى كُلاًّ بِمَا يُنَاسِبُهُ. (ٱلرَّابِعُ) أَنْ يَعْرِفَ مَوَاضِعَ ٱلدُّعَاءِ عَلَى ٱلْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ... (ٱلْأَصْلُ ٱلسَّادِسُ) أَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ ٱلْمَكْتُوبَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْأَلْقَابِ فَيُعْطِيَهُ حَقَّهُ مِنْهَا . . كَٱلْمَقَامِ وَٱلْمَقَرِّ وَٱلْجَنَابِ وَٱلنَّادِي وَٱلْمَجْلِسِ فِي زَمَانِنَا . . . وَكَذٰلِكَ ٱلنُّعُوتَ. (ٱلْأَصْلُ ٱلسَّابِعُ) أَنْ يُرَاعِيَ مَقَاصِدَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِيَ لِكُلِّ مَقْصِدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ وَمَدَارُ ذٰلِكَ عَلَى أَمْرَيْنِ: (ٱلْأَمْرُ ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَأْتِيَ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ بِمَا يَلِيقُ بِهَا وَيَتَخَيَّرَ لِكُلِّ لَفْظَةٍ مَا يُشَاكِلُهَا فَإِنْ ذَكَرَ ٱلنِّعْمَةَ حَمِدَ ٱللهَ وَإِنْ ذَكَرَ ٱلْبَلْوَى شَفَعَهَا بِٱلْٱسْتِعَانَةِ بِٱللهِ وَٱلرُّجُوعِ إِلَيْهِ فِيهَا. وَيَلْتَحِقُ بِذٰلِكَ أَيْضًا أَنَّهُ إِذَا ذَكَرَ ٱلرَّئِيسَ فِي أَثْنَاءِ ٱلْمُكَاتَبَةِ دَعَا لَهُ مِثْلَ أَنْ يَقُولَ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلسُّلْطَانِ: خَلَّدَ ٱللهُ مُلْكَهُ وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى. (ٱلْأَمْرُ ٱلثَّانِي) أَنْ يَتَخَطَّى ٱلتَّصْرِيحَ إِلَى ٱلتَّلْوِيحِ وَٱلْإِشَارَةِ إِذَا ٱقْتَضَتْهُ ٱلْحَالُ إِلَى ٱلْمُكَاتَبَةِ بِمَا لَا يَجُوزُ كَشْفُهُ وَإِظْهَارُهُ عَلَى صَرَاحَتِهِ مِمَّا فِي ذِكْرِهِ ٱطِّرَاحُ مَهَابَةِ ٱلسُّلْطَانِ وَإِسْمَاعُهُ مَا يَلْزَمُ مِنْهُ إِخْلَالُ ٱلْأَدَبِ فِي حَقِّهِ كَمَا لَوْ أَطْلَقَ لِسَانَهُ فِيهِ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَسُوءُهُ سَمَاعُهُ فَيَحْتَاجُ ٱلْمُنْشِئُ إِلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّوْرِيَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ وَٱلتَّلَطُّفِ فِي ٱلْعِبَارَةِ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِي مِنْ غَيْرِ خِيَانَةٍ فِي طَيِّ مَا لَا غِنًى بِهِ عَنْ عِلْمِهِ. وَهٰذَا مِمَّا لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْمُبَرِّزُ فِي ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْمُتَصَرِّفُ فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ. . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّامِنُ) أَنْ يَعْرِفَ مِقْدَارَ فَهْمِ كُلِّ طَبَقَةٍ مِنَ ٱلْمُخَاطَبِينَ فِي ٱلْمُكَاتَبَاتِ مِنَ ٱللِّسَانِ فَيُخَاطِبَ كُلَّ أَحَدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ ٱللَّفْظِ وَمَا

يصلُ اليهِ فهمُهُ من الخطابِ (استشهادٌ من كتابِ الصناعتينِ).. (الاصلُ التاسعُ) انْ يراعيَ رتبةَ المكتوبِ عنهُ والمكتوبِ اليهِ في الخطابِ فيعبّرَ عن كلِّ واحدٍ منهما بما يليقُ بهِ . ويخاطبَ المكتوبَ اليهِ بما يليقُ بمقامهِ . فاما المكتوبُ عنهُ فيختلفُ الحالُ فيهِ باختلافِ منصبهِ ورتبتهِ فيعبّرُ في الكتبِ الصادرةِ عن ابوابِ الخلافةِ بامرِ المؤمنينَ مثلُ انْ يقالَ : فجرى امرُ امرِ المؤمنينَ في كذا على كذا . واوعزَ امرُ المؤمنينَ الى فلانٍ بكذا واقتضى رأيُ امرِ المؤمنينَ كذا وهلمَّ جرًّا. وكذلكَ انْ يعرفَ قدرَ المكتوبِ اليهِ من الرؤساءِ والنظراءِ والعلماءِ والوكلاءِ ليفرقَ بينَ من يكتبُ اليهِ.. الا ترى انكَ لوْ خاطبتَ سلطانًا اوْ وزيرًا بالتعزيةِ عن المصيبةِ من مصائبِ الدنيا لما جازَ انْ تبنيَ الكلامَ على وعظهِ وتبصيرهِ وارشادهِ وحضّهِ على الاخذِ بحظٍّ من الصبرِ .. وانما الصوابُ انْ تبنيَ الخطابَ على انهُ اعلى شأنًا وارفعُ مكانًا من انْ يعزّى بخلافِ المتاخرِ في الرتبةِ فانهُ انما يعزّى تنبيهًا وتذكيرًا وتصبيرًا وتعريفًا للواجبِ في تلقّي السرّاءِ بالشكرِ والضرّاءِ بالصبرِ . . (الاصلُ العاشرُ) انْ يراعيَ مواقعَ الآياتِ والسجعَ في الكتبِ وذكرَ ابياتِ الشعرِ في المكاتباتِ . . .

الفصل التاسع

في حل الشعر والاحتذاء

البحث الاوّل

في حسن الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٣٩ من علم الادب)

لَيسَ لِاَحَدٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلْقَائِلِينَ غِنًى عَنْ تَنَاوُلِ ٱلْمَعَانِي مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَٱلصَّبُّ عَلَى قَوَالِبِ مَنْ سَبَقَهُ وَلٰكِنْ عَلَيْهِ اِذَا اَخَذَهَا اَنْ يَكْسُوَهَا اَلْفَاظًا مِنْ عِنْدِهِ وَيُبْرِزَهَا فِي مَعَارِضَ مِنْ تَأْلِيفِهِ وَرَصْفِهِ وَيُؤَدِّيَهَا فِي غَيْرِ حِلْيَتِهَا ٱلْاُولَى وَيَزِيدَ فِي حُسْنِ تَأْلِيفِهَا وَجَوْدَةِ تَرْكِيبِهَا وَجَمَالِ حِلْيَتِهَا وَمَعْرِضِهَا . فَاِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ فَهُوَ اَوْلَى بِهَا مِمَّنْ سَبَقَ اِلَيْهَا وَلَوْلَا اَنَّ ٱلْقَائِلَ يُؤَدِّي مَا سَمِعَ لَمَا كَانَ فِي طَاقَتِهِ اَنْ يَقُولَ وَاِنَّمَا يَنْطِقُ ٱلطِّفْلُ بَعْدَ ٱسْتِمَاعِهِ مِنَ ٱلْبَالِغِينَ . وَقَالَ اَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ : لَوْلَا اَنَّ ٱلْكَلَامَ يُعَادُ لَنَفِدَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كُلُّ شَيْءٍ ثَنَيْتَهُ قَصُرَ اِلَّا ٱلْكَلَامَ فَاِنَّكَ اِذَا ثَنَيْتَهُ طَالَ . عَلَى اَنَّ ٱلْمَعَانِيَ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ ٱلْعُقَلَاءِ فَرُبَّمَا وَقَعَ ٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ لِلسُّوقِيِّ وَٱلنَّبَطِيِّ وَٱلزَّنْجِيِّ وَاِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَلْفَاظِ وَرَصْفِهَا وَتَأْلِيفِهَا وَنَظْمِهَا . وَقَدْ يَقَعُ لِلْمُتَاَخِّرِ مَعْنًى سَبَقَهُ اِلَيْهِ ٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُلِمَّ بِهِ وَلٰكِنْ

كَمَا وَقَعَ لِلْاَوَّلِ وقَعَ لِلْاٰخِرِ . وَهٰذَا اَمْرٌ عَرَفْتُهُ مِنْ نَفْسِي فَلَسْتُ اَمْتَرِي فِيهِ . وَقَدْ قِيلَ : اِنَّ مَنْ اَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ كَانَ لَهُ سَالِخًا وَمَنْ اَخَذَهُ فَكَسَاهُ لَفْظًا مِنْ عِنْدِهِ اَجْوَدَ مِنْ لَفْظِهِ كَانَ هُوَ اَوْلَى بِهِ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ . وَقَالُوا : اِنَّ اَبَا عُذْرَةِ الْكَلَامِ مَنْ سَبَكَ اَلْفَظَهُ عَلَى مَعْنَاهُ . وَمَنْ اَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ فَلَيْسَ لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ . عَلَى اَنَّ اِبْتِكَارَ الْمَعْنَى وَالسَّبْقَ اِلَيْهِ لَيْسَ هُوَ فَضِيلَةً تَرْجِعُ اِلَى الْمَعْنَى وَاِنَّمَا هُوَ فَضِيلَةٌ تَرْجِعُ اِلَى الَّذِي اِبْتَكَرَهُ وَسَبَقَ اِلَيْهِ . فَالْمَعْنَى الْجَيِّدُ جَيِّدٌ وَاِنْ كَانَ مَسْبُوقًا اِلَيْهِ . وَالْوَسَطُ وَسَطٌ وَالرَّدِيءُ رَدِيءٌ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ مَسْبُوقًا اِلَيْهِمَا . وَقَدْ اَطْبَقَ الْمُتَقَدِّمُونَ وَالْمُتَاَخِّرُونَ عَلَى تَدَاوُلِ الْمَعَانِي بَيْنَهُمْ فَلَيْسَ عَلَى اَحَدٍ فِيهِ عَيْبٌ اِلَّا اِذَا اَخَذَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ وَاَخَذَهُ فَاَفْسَدَهُ وَقَصَّرَ فِيهِ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَرُبَّمَا اَخَذَ الشَّاعِرُ الْقَوْلَ الْمَشْهُورَ وَلَمْ يُبَالِ كَمَا فَعَلَ النَّابِغَةُ فَاِنَّهُ اَخَذَ قَوْلَ وَهْبِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ زُهَيْرٍ :

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ

وَقَالَ النَّابِغَةُ

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَا النُّورُ نُورٌ وَلَا الْاِظْلَامُ اِظْلَامُ

وَاَخَذَ قَوْلَ رَجُلٍ مِنْ كِنْدَةَ فِي عَمْرِو بْنِ هِنْدٍ :

هُوَ الشَّمْسُ وَافَتْ يَوْمَ دَجْنٍ فَاَفْضَلَتْ

عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ

فَقَالَ :

فَاِنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ اِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَسَنَتَّبِعُ ٱلْقَوْلَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ وَٱلْحَاذِقُ يُخْفِي دَبِيبَهُ اِلَى ٱلْمَعْنَى يَأْخُذُهُ فِي سُتْرَةٍ فَيُحْكِمُ لَهُ بِٱلسَّبْقِ اِلَيْهِ . وَذٰلِكَ اَنْ يَأْخُذَ مَعْنًى مِنْ نَظْمٍ فَيُورِدَهُ فِي نَثْرٍ . اَوْ مِنْ نَثْرٍ فَيُورِدَهُ فِي نَظْمٍ اَوْ يَنْقُلَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُسْتَعْمَلَ فِي صِفَةِ خَمْرٍ فَيَجْعَلَهُ فِي مَدِيحٍ اَوْ فِي مَدِيحٍ فَيَنْقُلَهُ اِلَى وَصْفٍ . اِلَّا اِنَّهُ لَا يَكْمُلُ بِهٰذَا اِلَّا ٱلْمُبَرِّزُ وَٱلْكَامِلُ ٱلْمُقَدَّمُ فَمِمَّنْ اَخْفَى دَبِيبَهُ اِلَى ٱلْمَعْنَى وَسَتَرَهُ غَايَةَ ٱلسَّتْرِ اَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ :

جَمَعْتَ عُرَى اَعْمَالِهَا بَعْدَ فُرْقَةٍ اِلَيْكَ كَمَا ضَمَّ ٱلْاَنَابِيبَ عَامِلُ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْحِبَالِ ٱلرَّبَعِيِّ :

اُولٰئِكَ اِخْوَانُ ٱلصَّفَاءِ رُزِئْتُهُمْ فَمَا ٱلْكَفُّ اِلَّا اِصْبَعٌ ثُمَّ اِصْبَعُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ وَقَدْ نَقَلَهُ مِنْ مَعْنًى اِلَى اٰخَرَ :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَاَنَّمَا تُحَاوِلُ ثَأْرًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْاَخْطَلِ :

عَرُوفٌ لِحَقِّ ٱلسَّائِلِينَ كَاَنَّهُ بِعَقْرِ ٱلْمَتَالِي طَالِبٌ بِذُنُوبِ

وَمِمَّا اَخَذَهُ وَزَادَ فِيهِ عَلَى ٱلْاَوَّلِ قَوْلُهُ :

اَفْنَاهُمُ ٱلصَّبْرُ اِذْ اَبْقَاكُمُ ٱلْجَزَعُ

مِنْ قَوْلِ ٱلسَّمَوْءَلِ :

يُقَرِّبُ حُبُّ ٱلْمَوْتِ اٰجَالَنَا لَنَا وَتَكْرَهُهُ اٰجَالُهُمْ فَتَطُولُ

اَوْرَدَهُ اَبُو تَمَّامٍ فِي نِصْفِ بَيْتٍ وَٱسْتَوْفَى ٱلتَّطْبِيقَ وَمِنْ هٰذَا ٱلضَّرْبِ قَوْلُهُ :

عَلَّمَنِي جُودُكَ ٱلسَّمَاحَ فَمَا اَبْقَيْتُ شَيْئًا لَدَيَّ مِنْ صِلَتِكْ

مِنْ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَيَّاطِ :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ ٱبْتَغِي ٱلْغِنَى ... وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ ٱلْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي

فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذَوُو ٱلْغِنَى ... أَفَدتُّ وَأَعْدَانِي فَأَتْلَفْتُ مَا عِنْدِي

وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمٍ :

أُحِبُّ ٱلرِّيحَ مَا هَبَّتْ شَمَالًا ... وَأَحْسُدُهَا إِذَا هَبَّتْ جَنُوبَا

قَسَّمَ تَقْسِيمًا حَسَنًا وَمَعْنَاهُ : أَنَّ ٱلشَّمَالَ تَجِيءُ مِنْ نَاحِيَةِ صَدِيقِهِ إِلَيْهِ فَأَحَبَّهَا وَٱلْجَنُوبَ تَهُبُّ إِلَى ٱلْحَبِيبِ فَحَسَدَهَا لِمُبَاشَرَتِهَا جِسْمَهُ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ جِرَانِ ٱلْعَوْدِ :

إِذَا هَبَّتِ ٱلْأَرْوَاحُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ ... وَجَدتُّ لِرَيَّاهَا عَلَى كَبِدِي بَرْدَا

وَزَادَ مُسْلِمٌ فِي قَوْلِهِ أَيْضًا :

وَيُغْمِدُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱلنَّحْرِ وَٱلْجِيدِ

عَلَى ٱلسَّابِقِ إِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَهُوَ بَعْضُ ٱلْفُرْسَانِ إِذْ يَقُولُ :

جَعَلْتُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱللَّيْثِ مِنْهُ ... وَبَيْنَ سَوَادِ لَحْيَيْهِ عِذَارَا

لِأَنَّ ٱلْإِغْمَادَ فِيهِ أَشَدُّ تَأْثِيرًا مِنْ وَضْعِ ٱلْعِذَارِ عَلَيْهِ . وَقَدْ زَادَ أَبُو نُوَاسٍ عَلَى جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ :

وَقَدْ أَطُولُ نِجَادَ ٱلسَّيْفِ مُحْتَبِيًا ... مِثْلُ ٱلرُّدَيْنِيِّ هَزَّتْهُ ٱلْأَنَابِيبُ

فَقَالَ أَبُو نُوَاسٍ :

سَبْطُ ٱلْبَنَانِ إِذَا ٱحْتَبَى بِنِجَادِهِ ... غَمْرُ ٱلْجَمَاجِمِ وَٱلسِّمَاطُ قِيَامُ

قَوْلُهُ : غَمْرُ ٱلْجَمَاجِمِ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ مِثْلُ ٱلرُّدَيْنِيِّ . وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

اَشَمُّ طُوَالُ السَّاعِدَيْنِ كَاَنَّمَا يُلَاثُ بِجَادًا سَيْفُهُ بِلِوَاءِ

اَحْسَنُ لَفْظًا وَسَبْكًا مِنْ قَوْلِ عَنْتَرَةَ :

بَطَلٌ كَاَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعَالَ السِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْاَمِ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ فِي اَبْنَيْ عُبَيْدِ اللّٰهِ بْنِ طَاهِرٍ :

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ اللَّخَايِلِ فِيهِمَا لَوْ اُمْهِلَتْ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلَا

لَوْ يُنْسَبَانِ لَكَانَ هٰذَا غَارِبًا لِلْمَكْرُمَاتِ وَكَانَ هٰذَا كَاهِلَا

اِنَّ الْهِلَالَ اِذَا رَاَيْتَ نُمُوَّهُ اَيْقَنْتَ اَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلَا

اَحْسَنُ وَاَجْوَدُ مِمَّا اَخَذَ مِنْهُ هٰذِهِ الْمَعَانِيَ وَهُوَ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ :

وَفِي جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ لَوَ اَنَّ الْمَنَايَا اَنْسَاَتْهُ لَيَالِيَا

لَا يَقَعُ بَيْتُ الْفَرَزْدَقِ مَعَ اَبْيَاتِ اَبِي تَمَّامٍ مَوْقِعًا . وَاَخَذَ قَوْلَ الْفَرَزْدَقِ :

وَمَا وَاَمَرَتْنِي النَّفْسُ فِي رِحْلَةٍ لَهَا اِلَى اَحَدٍ اِلَّا اِلَيْكَ ضَمِيرُهَا

فَشَرَحَهُ وَقَالَ :

وَمَا طُفْتُ فِي الْاٰفَاقِ اِلَّا وَمِنْ جَدْوَاكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي

مُقِيمُ الظَّنِّ عِنْدَكَ وَالْاَمَانِي وَاِنْ قَلِقَتْ رِكَابِي فِي الْبِلَادِ

وَاِلَى بَيْتِ الْفَرَزْدَقِ يُشِيرُ الْقَائِلُ :

مَدَحْتُكَ جَهْدِي بِالَّذِي اَنْتَ اَهْلُهُ

فَقَصَّرَ عَمَّا فِيكَ مِنْ صَالِحٍ جَهْدِي

فَمَا كُلُّ مَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ قُلْتُهُ

وَلَا كُلُّ مَا فِيهِ يَقُولُ الَّذِي بَعْدِي

وَكُنْتُ إِذَا هَيَّأْتُ مَدْحًا لِمَاجِدٍ
أَتَانِي الَّذِي فِيهِ بِأَدْنَى الَّذِي عِنْدِي

وَمِنْ هَا هُنَا أَخَذَ أَبُو نُوَاسٍ قَوْلَهُ :

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَمَا نُثْنِي وَفَوْقَ الَّذِي نُثْنِي
وَإِنْ جَرَتِ الْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمِدْحَةٍ لِغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي نَعْنِي

وَيُشِيرُ إِلَى قَوْلِ الْخَنْسَاءِ :

وَمَا بَلَغَ الْمُهْدُونَ فِي الْقَوْلِ مِدْحَةً وَإِنْ أَطْنَبُوا إِلَّا الَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا الدُّرُوعَ لِمَوْقِفٍ لَبِسَتْهُمُ الْأَحْسَابُ فِيهِ دُرُوعَا

أَتَمُّ وَأَجْوَدُ مِنْ قَوْلِ الْأَوَّلِ :

لَبِسُوا الْقُلُوبَ عَلَى الدُّرُو عِ مُظَاهِرِينَ لِدَفْعِ ذٰلِكْ

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : إِنَّ النَّدَى حَيْثُ تَرَى الضِّغَاطَا . فَأَخَذَهُ بَشَّارٌ وَقَدْ شَرَحَهُ وَبَيَّنَهُ فَقَالَ :

تَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَشِرُ الْحَبُّ م وَتُغْشَى مَنَازِلُ الْكُرَمَاءِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْآخَرِ :

يَزْدَحِمُ النَّاسُ عَلَى بَابِهِ وَالْمَشْرَبُ الْعَذْبُ كَثِيرُ الزِّحَامْ

وَسَمِعَ أَبُو تَمَّامٍ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِلْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ : إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ قَضَاءُ اللهِ وَأَنْتَ مَوْزُورٌ . وَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَسْلُ احْتِسَابًا سَلَوْتَ كَمَا تَسْلُو الْبَهَائِمُ فَحَكَاهُ حِكَايَةً حَسَنَةً فِي قَوْلِهِ :

وَقَالَ عَلِيٌّ فِي ٱلتَّعَازِي لِأَشْعَثٍ وَخَافَ عَلَيْهِ بَعْضَ تِلْكَ ٱلْمَآثِمِ
أَتَصْبِرُ لِلْبَلْوَى حَيَاءً وَحِسْبَةً فَتُؤْجَرُ أَمْ تَسْلُوسُلُوَّ ٱلْبَهَائِمِ
خُلِقْنَا رِجَالًا لِلتَّجَلُّدِ وَٱلْأَسَى وَتِلْكَ ٱلْغَوَانِي لِلْبُكَا وَٱلْمَآتِمِ

وَٱلْبَيْتُ ٱلْأَخِيرُ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ لَمَّا قُتِلَ مُصْعَبٌ . وَإِنَّمَا ٱلتَّسْلِيمُ وَٱلسَّلْوَةُ لِخُزَمَاءِ ٱلرِّجَالِ . وَإِنَّ ٱلْهَلَعَ وَٱلْجَزَعَ لِرَبَّاتِ ٱلْحِجَالِ وَسَمِعَ قَوْلَ زِيَادٍ لِأَبِي ٱلْأَسْوَدِ . لَوْ أَنَّكَ ضَعِيفٌ لَٱسْتَعْمَلْتُكَ . فَقَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ : إِنْ كُنْتَ تُرِيدُنِي لِلصِّرَاعِ فَإِنِّي لَا أَصْلُحُ لَهُ وَإِلَّا فَغَيْرُ شَدِيدٍ أَنْ آمُرَ وَأَنْهَى فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

تَعَجَّبُ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي نَحِيفًا كَأَنَّ ٱلْمَجْدَ يُدْرَكُ بِٱلصِّرَاعِ

وَلَمَّا قَالَ بَشَّارٌ :

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَفَازَ بِٱلطَّيِّبَاتِ ٱلْفَاتِكُ ٱللَّهِجُ

تَبِعَهُ سَلْمٌ ٱلْخَاسِرُ فَقَالَ :

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِٱللَّذَّةِ ٱلْجَسُورُ

فَلَمَّا سَمِعَ بَشَّارٌ هٰذَا ٱلْبَيْتَ قَالَ : ذَهَبَ ٱلْخَبِيثُ بِبَيْتِي . وَمِنْ حُسْنِ ٱلِٱتِّبَاعِ أَيْضًا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ حَيْثُ كَتَبَ : إِذَا كَانَ لِلْمُحْسِنِ مِنَ ٱلثَّوَابِ مَا يُقْنِعُهُ وَلِلْمُسِيءِ مِنَ ٱلْعِقَابِ مَا يَقْمَعُهُ ٱزْدَادَ ٱلْمُحْسِنُ فِي ٱلْإِحْسَانِ رَغْبَةً وَٱنْقَادَ ٱلْمُسِيءُ لِلْحَقِّ رَهْبَةً . أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيٍّ : يَجِبُ عَلَى ٱلْوَالِي أَنْ يَتَعَهَّدَ أُمُورَهُ وَيَتَفَقَّدَ أَعْوَانَهُ حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ وَلَا إِسَاءَةُ مُسِيءٍ ثُمَّ لَا يَتْرُكَ وَاحِدًا مِنْهُمَا بِغَيْرِ جَزَاءٍ . فَإِنْ تَرَكَ ذٰلِكَ تَهَاوَنَ ٱلْمُحْسِنُ وَٱجْتَرَأَ ٱلْمُسِيءُ وَفَسَدَ

ٱلْأَمْرُ وَضَاعَ ٱلْعَمَلُ . وَسَمِعَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ قَوْلَ نُصَيْبٍ :

وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ ٱلْحَقَائِبُ

فَكَتَبَ وَلَوْ أُمْسِكَ لِسَانِي عَنْ شُكْرِكَ لَنَطَقَ أَثَرُكَ عَلَيَّ . وَفِي فَصْلٍ آخَرَ : وَلَوْ جَحَدْتُكَ إِحْسَانَكَ لَأَكْذَبَتْنِي آثَارُهُ وَنَمَّتْ عَلَيَّ شَوَاهِدُهُ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : شَاهِدَاتُ ٱلْأَحْوَالِ أَعْدَلُ مِنْ شَهَادَاتِ ٱلرِّجَالِ . أَخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فَشَرَحَهُ فِي قَوْلِهِ :

حَالَ ٱلسَّدَادُ فِمِي عَمَّا يُرِيبُكُمْ ... لٰكِنْ فَمُ ٱلْحَالِ مِنِّي غَيْرُ مَسْدُودِ

حَالٌ تَصِيحُ بِمَا أَوْلَيْتَ مُعْلِنَةً ... وَكُلُّ مَا تَدَّعِيهِ غَيْرُ مَرْدُودِ

كُلِّي هِجَاءٌ وَقَتْلِي لَا يَحِلُّ لَكُمْ ... فَمَا يُدَاوِيكُمُ مِنِّي سِوَى ٱلْجُودِ

وَمِمَّنْ أَحْسَنَ ٱلْإِتِّبَاعَ أَيْضًا أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ سَمِعَ قَوْلَ عَلِيٍّ : لَا تَكُونَنَّ كَمَنْ يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُتِيَ وَيَلْتَمِسُ ٱلزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ . فَكَتَبَ : أَحَقُّ مَنْ أَثْبَتَ لَكَ ٱلْعُذْرَ فِي حَالِ شُغْلِكَ مَنْ لَمْ يَخْلُ سَاعَةً مِنْ بِرِّكَ فِي وَقْتِ فَرَاغِكَ . وَأَخَذَهُ أَخْذًا ظَاهِرًا أَحْمَدُ بْنُ صُبَيْحٍ فَقَالَ : فِي شُكْرِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِحْسَانِ ٱلْأَمِيرِ شَاغِلٌ عَنِ ٱسْتِبْطَاءِ مَا تَأَخَّرَ مِنْهُ . وَأَخَذَهُ سَعِيدُ بْنُ حَمِيدٍ فَقَالَ : لَسْتُ مُسْتَقِلًّا لِشُكْرِ مَا مَضَى مِنْ بَلَائِكَ فَٱسْتَبْطِئْ دَرَكَ مَا أُؤَمِّلُ مِنْ مَزِيدِكَ . وَمِنْ هٰذَا أَيْضًا قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً ... حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَأَخْبَرَ ٱلْأَخْفَشُ قَالَ : قَالَ أَبُو تَمَّامٍ لِٱبْنِ أَبِي رُؤَادٍ لَمَّا غَضِبَ عَلَيْهِ : أَنْتَ ٱلنَّاسُ كُلُّهُمْ وَلَا طَاقَةَ لِي بِغَضَبِ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ . فَقَالَ

ٱبْنُ ٱبِي رُؤَادٍ : مَا ٱحْسَنَ هٰذَا مِنْ ٱيْنَ ٱخَذْتَهُ . قَالَ : مِنْ قَوْلِ ٱبِي نُوَاسٍ وَلَيْسَ عَلَى ٱللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ . ٱنْ يَجْمَعَ ٱلْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ

وَمَنْ سَمِعَ هٰذَا ٱلْكَلَامَ يَظُنُّهُ مَسْرُوقًا مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ :

اِذَا غَضِبَتْ عَلَيَّ بَنُو تَمِيمٍ رَاَيْتُ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَسَمِعَ قُلَيْبٌ ٱلْمُعْتَزِلِيُّ ٱبْيَاتًا لِلْعُتْبِيِّ وَهِيَ :

اَفَلَتْ بَطَالَتُهُ وَرَاجَعَهُ حِلْمٌ وَاَعْقَبَهُ ٱلْهَوَى نَدَمَا

اَلْقَى عَلَيْهِ ٱلدَّهْرُ كَلْكَلَهُ وَاَعَارَهُ ٱلْاِقْتَارَ وَٱلْعَدَمَا

فَاِذَا اَلَمَّ بِهِ اَخُو ثِقَةٍ غَضَّ ٱلْجُفُونَ وَمَجْمَجَ ٱلْكَلِمَا

فَقَالَ لِبَعْضِ ٱلْمُلُوكِ يَسْتَعْطِفُهُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ اَهْلِهِ : جَعَلَنِي ٱللهُ فِدَاكَ . لَيْسَ هُوَ ٱلْيَوْمَ كَمَا كَانَ ٱمْسِ اِنَّهُ وَحَيَاتِكَ اَفَلَتْ بَطَالَتُهُ اِيْ وَٱللهِ وَرَاجَعَهُ حِلْمُهُ وَاَعْقَبَهُ وَحَقِّكَ ٱلْهَوَى نَدَمًا اَلْقَى ٱلدَّهْرُ عَلَيْهِ كَلْكَلَهُ فَهُوَ ٱلْيَوْمَ اِذَا رَاَى اَخَا ثِقَةٍ غَضَّ بَصَرَهُ وَمَجْمَجَ كَلَامَهُ .

وَبِهٰذَا يُعْرَفُ اَنَّ حَلَّ ٱلْمَنْظُومِ وَنَظْمَ ٱلْمَحْلُولِ اَسْهَلُ مِنِ ٱبْتِدَائِهِمَا لِاَنَّ ٱلْمَعَانِيَ اِذَا حُلَّتْ مَنْظُومًا اَوْ نُظِمَتْ مَنْثُورًا حَاضِرَةٌ بَيْنَ يَدَيْكَ تَزِيدُ فِيهَا شَيْئًا فَتَنْحَلُّ اَوْ تَنْقُصُ مِنْهَا شَيْئًا فَتَنْتَظِمُ . وَاِذَا اَرَدْتَ ٱبْتِدَاءَ كَلَامٍ وَجَدْتَ ٱلْمَعَانِيَ غَائِبَةً عَنْكَ فَتَحْتَاجُ اِلَى فِكْرٍ يُحْضِرُكَهَا وَٱلْمَحْلُولُ مِنَ ٱلشِّعْرِ عَلَى اَرْبَعَةِ اَضْرُبٍ : ضَرْبٌ مِنْهَا يَكُونُ بِاِدْخَالِ لَفْظَةٍ بَيْنَ اَلْفَاظِهِ . وَضَرْبٌ يَنْحَلُّ بِتَاْخِيرِ لَفْظَةٍ مِنْهُ وَتَقْدِيمِ اُخْرَى فَيَحْسُنُ مَحْلُولُهُ وَيَسْتَقِيمُ . وَضَرْبٌ مِنْهُ يَنْحَلُّ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ وَلَا يَحْسُنُ وَلَا يَسْتَقِيمُ . فَاَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلْاَوَّلُ فَمِثَالُهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

صَدْرِ كَلَامِ قُلَيْبٍ ٱلْمُعْتَزِلِيِّ . وَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي فَمِثَالُهُ مَا ذَكَرَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ مِنْ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

نَطْلُبُ ٱلْأَكْثَرَ فِي ٱلدُّنْيَا وَقَدْ تُبْلَغُ ٱلْحَاجَةُ فِيهَا بِٱلْأَقَلْ

ثُمَّ قَالَ : فَإِذَا نَثَرْتَ ذٰلِكَ وَلَمْ تَزِدْ فِي أَلْفَاظِهِ شَيْئًا قُلْتَ : نَطْلُبُ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلْأَكْثَرَ وَنَبْلُغُ مِنْهَا ٱلْحَاجَةَ بِٱلْأَقَلِّ . فَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلثَّالِثُ فَهُوَ أَنْ تُوضَعَ أَلْفَاظُ ٱلْبَيْتِ فِي مَوَاضِعَ لَا يَحْسُنُ وَضْعُهَا فِي غَيْرِهَا فَيَنْحَلُّ إِذَا نُثِرَ بِتَأْخِيرِ لَفْظٍ وَتَقْدِيمِ آخَرَ فَيَحْتَاجُ نَثْرُهُ إِلَى ٱلنُّقْصَانِ مِنْهُ وَٱلزِّيَادَةِ فِيهِ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ أَيْضًا :

يُسَرُّ بِعُمْرَانِ ٱلدِّيَارِ مُضَلَّلٌ وَعُمْرَانُهَا مُسْتَأْنَفٌ مِنْ خَرَابِهَا

وَلَمْ أَرْتَضِ ٱلدُّنْيَا أَوَانَ مَجِيئِهَا فَكَيْفَ أَرْتِضَائِيهَا أَوَانَ ذَهَابِهَا

فَإِذَا نُثِرَ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ قِيلَ : يُسَرُّ مُضَلَّلٌ بِعُمْرَانِ ٱلدُّنْيَا وَمِنْ خَرَابِهَا عُمْرَانُهَا مُسْتَأْنَفٌ وَلَمْ أَرْتَضِ أَوَانَ مَجِيئِهَا ٱلدُّنْيَا فَكَيْفَ أَوَانَ ذَهَابِهَا أَرْتِضَائِيهَا . فَهٰذَا نَثْرٌ فَاسِدٌ فَإِذَا غَيَّرْتَ بَعْضَ أَلْفَاظِهِ حَسُنَ وَهُوَ أَنْ تَقُولَ : يُسَرُّ ٱلْمُضَلَّلُ بِعُمْرَانِ ٱلدِّيَارِ وَإِنَّمَا يُسْتَأْنَفُ عُمْرَانُهَا مِنْ خَرَابِهَا . وَمَا أَرْتَضَيْتُ ٱلدُّنْيَا أَوَانَ مَجِيئِهَا فَكَيْفَ أَرْتَضِيهَا أَوَانَ ذَهَابِهَا . وَنَحْنُ نَقُولُ إِنَّ مِنَ ٱلنَّظْمِ مَا لَا يُمْكِنُ حَلُّهُ أَصْلًا بِتَأْخِيرِ لَفْظَةٍ وَتَقْدِيمِ أُخْرَى مِنْهُ حَتَّى يَلْحَقَ بِهِ ٱلتَّغْيِيرُ وَٱلزِّيَادَةُ وَٱلنُّقْصَانُ . مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

لِسَانُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ

فَٱلْمِصْرَاعُ ٱلْأَوَّلُ يُمْكِنُ أَنْ تُؤَخَّرَ أَلْفَاظُهُ وَتُقَدَّمَ فَيَصِيرُ نَثْرًا

مُستقيماً وهُوَ انْ تقولَ : فُؤادُ الفتى نِصفٌ ولِسانُهُ نِصفٌ . ولا يُمكِنُ في المِصراعِ الثّاني ذٰلكَ حتّى تزيدَ فيهِ اوْ تنقُصَ مِنهُ لِانَّ المِصراعَ الثّاني انّما هُوَ تذييلٌ للمِصراعِ الاوّلِ فاذا اردتَّ انْ تحُلَّهُ حلاًّ مُقتصراً بغيرِ لفظِهِ قُلتَ : الانسانُ شطرانِ لِسانٌ وجَنانٌ . ومِمّا لا يُمكِنُ حلُّهُ بتقديمِ لفظةٍ مِنهُ وتأخيرِ اُخرى ايضاً قولُ ابي نُواسٍ :

الا يا ابنَ الّذينَ فنُوا وبادُوا اما واللهِ ما ذهبُوا لِتبقى

فتحتاجُ في نثرِهِ الى تغييرِهِ وابدالِ الفاظِهِ فتقولُ : الا يا ابنَ الّذينَ ماتُوا ومضَوْا وطعنُوا فناوْا فواللهِ ما ظعنُوا لِتُقيمَ وما رامُوا الّا لِتريمَ . ولا ماتُوا لِتحيا ولا فنُوا لِتبقى . وفي هٰذهِ الالفاظِ طُولٌ وليسَ بصائرٍ على ما خبرتُكَ فانْ اردتَّ اختصارَهُ قُلتَ : اما واللهِ انَّ الموتَ لم يُصبكَ في ابيكَ الّا ليُصيبكَ فيكَ . والضّربُ الرّابعُ انْ تكسُوَ ما تحُلُّهُ مِنَ المنظومِ الفاظاً مِنْ عِندِكَ . وهٰذا ارفعُ درجاتِكَ . ومِنهُ ما قالَ بعضُهُم للرّبيعِ بنِ خيثمٍ وقد رأى اجتهادَهُ في العِبادةِ : قتلتَ نفسكَ . فقالَ : راحتَها اطلبُ . فقالَ الشّاعرُ :

سأطلبُ بعدَ الدّارِ منكُمْ لِتقرُبوا وتسكُبُ عينايَ الدُّموعَ لِتجمُدا

ومِنهُ ما جاءَ عنِ الحسنِ البصريِّ فقالَ نثراً : انَّ امرأً لم يعُدَّ بينَهُ وبينَ آدمَ الّا ابا ميّتاً لمُغرقٌ لهُ في الموتِ . فاخذَهُ ابو نُواسٍ فقالَ :

وما النّاسُ الّا هالكٌ وابنُ هالكٍ وذُو نسبٍ في الهالكينَ عريقُ

وسمعَ بعضُ الكُتّابِ قولَ ابي تمّامٍ :

فَإِنْ نَجِدْ عِلَّةً نَعُمُّ بِهَا حَتَّى تَرَانَا نُعَادُ مِنْ مَرَضِهْ

فَكَتَبَ مَنْ تَرِلَ مَنْزِلَتِي مِنْ طَاعَتِكَ وَمُشَارَكَتِكَ كَانَ حَقِيقًا اَنْ يُهَنَّأَ بِالنِّعْمَةِ تَحْدُثُ عِنْدَكَ وَيُعَزَّى عَلَى النَّائِبَةِ تُلِمُّ بِكَ . فَنَقَلَ الْعِيَادَةَ اِلَى الْمُصِيبَةِ وَالتَّعْزِيَةِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : اَلْكِتَابَةُ نَقْضُ الشِّعْرِ . وَقِيلَ لِلْعُتَابِيِّ : بِمَ قَدَرْتَ عَلَى الْبَلَاغَةِ . فَقَالَ : بِحَلِّ مَعْقُودِ الْكَلَامِ وَاَحْسَنَ اَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ :

اِلَيْكَ هَتَكْنَا جِنْحَ لَيْلٍ كَاَنَّمَا قَدِ اكْتَحَلَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِاِثْمِدِ

وَزَادَ فِيهِ عَلَى اَبِي نُوَاسٍ وَمِنْهُ اَخَذَ . وَهُوَ قَوْلُهُ :

وَجِنْحُ لَيْلٍ مُكْتَحِلٌ بِقَارِ

لِاَنَّ الْاِكْتِحَالَ يَكُونُ بِالْاِثْمِدِ وَلَا يَكُونُ بِالْقَارِ . وَقَالَ اِبْرَاهِيمُ اَبْنُ الْعَبَّاسِ :

لِفَضْلِ نِ سَهْلٍ يَدٌ تَقَاصَرَ عَنْهَا الْمَثَلْ
فَبَسْطَتُهَا الْمُغْنَى وَسَطْوَتُهَا لِلْاَجَلْ
وَبَاطِنُهَا لِلنَّدَى وَظَاهِرُهَا لِلْقُبَلْ

وَاَخَذَ الْمَعْنَى الْاَمِيرُ اَبُو عَزِيزٍ قَتَادَةُ اَمِيرُ مَكَّةَ فَقَالَ مُشِيرًا اِلَى يَدِهِ مِنْ اَبْيَاتٍ :

تَظَلُّ مُلُوكُ الْاَرْضِ تَلْثِمُ ظَهْرَهَا وَفِي بَطْنِهَا لِلْمُجْدِبِينَ رَبِيعُ

فَاَتْبَعَهُ اَبْنُ الرُّومِيِّ فَاَحْسَنَ الْاِتِّبَاعَ فَقَالَ :

اَصْبَحْتُ بَيْنَ خَصَاصَةٍ وَتَجَمُّلٍ وَالْحُرُّ بَيْنَهُمَا يَمُوتُ هَزِيلَا
فَامْدُدْ اِلَيَّ يَدًا تَعَوَّدَ بَطْنُهَا بَذْلَ النَّوَالِ وَظَهْرُهَا التَّقْبِيلَا

وَمَا اَلْطَفَ قَوْلَ مَنْ قَالَ :

وَمَا اَلدَّهْرُ فِي حَالِ اَلسُّكُونِ بِسَاكِنٍ
سِوَى اَنَّهُ مُسْتَجْمِعٌ لِوُثُوبِ

وَاِنَّمَا اَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ اَلنَّابِغَةِ :

وَقُلْتُ يَا قَوْمُ اِنَّ اَللَّيْثَ مُنْقَبِضٌ عَلَى بَرَاثِنِهِ لِلْوَثْبَةِ اَلضَّارِي

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ :

كَاَنَّ اَبَاهُ حِينَ سَمَّاهُ صَاعِدًا رَاَى كَيْفَ يَرْقَى فِي اَلْمَعَالِي وَيَصْعَدُ

اَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ اَلْبُحْتُرِيِّ :

سَمَّاهُ اُسْرَتُهُ اَلْعَلَاءَ وَاِنَّمَا قَصَدُوا بِذٰلِكَ اَنْ يَتِمَّ عُلَاهُ

وَزَادَ اَبُو تَمَّامٍ عَلَى اَلْاَفْوَهِ وَاَلنَّابِغَةِ وَاَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فِي مَعْنًى تَدَاوَلُوهُ وَهُوَ قَوْلُ اَلْاَفْوَهِ :

وَتَرَى اَلطَّيْرَ عَلَى اَرْمَاحِنَا رَأْيَ عَيْنٍ ثِقَةً اَنْ سَتُمَارْ

وَقَالَ اَلنَّابِغَةُ :

اِذَا مَا غَزَوْا بِاَلْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
جَوَانِحُ قَدْ اَيْقَنَّ اَنَّ قَبِيلَهُ اِذَا مَا اَلْتَقَى اَلْجَمْعَانِ اَوَّلُ غَالِبِ

وَقَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ :

تَتَاَيَّا اَلطَّيْرُ غَزْوَتَهُ ثِقَةً بِاَلشِّبْعِ مِنْ جَزَرِهْ

وَقَوْلُ مُسْلِمٍ :

قَدْ عَوَّدَ اَلطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقْنَ بِهَا فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلِ

فَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ :

اَقامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ حَتَّى كَانَّهَا مِنَ ٱلْجَيْشِ اِلَّا اَنَّهَا لَا تُقَاتِلُ

وَقَوْلُهُ : (اَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ زِيَادَةٌ) وَزَادَ عَلَيْهِمْ بَعْضُ ٱلْمُحْدَثِينَ فَقَالَ :

حَتَّى تَكَادَ عَلَى اَحْيَائِهِمْ تَقَعُ

وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ :

هِمَّةٌ تَنْطَحُ ٱلنُّجُومَ وَجِدٌّ آلِفٌ لِلْحَضِيضِ فَهُوَ حَضِيضُ

اَخَذَهُ ٱلْبُحْتُرِيّ فَحَسَّنَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ :

مُتَحَيِّرٌ يَغْدُو بِعَزْمٍ قَائِمٍ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ وَجِدٍّ قَاعِدِ

وَمِمَّا اَخَذَهُ مِنْ اَبِي تَمَّامٍ فَقَسَّمَهُ تَقْسِيمًا حَسَنًا قَوْلُهُ :

مَلِكٌ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ اِقْدَامُ غِرٍّ وَٱعْتِزَامُ مُجَرِّبِ

هُوَ مِنْ قَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

وَمُجَرَّبُونَ سَقَاهُمُ مِنْ بَأْسِهِ فَاِذَا لُقُوا فَكَانَّهُمْ اَغْمَارُ

وَقَالَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

كَمْ نِعْمَةٍ لَا يُسْتَقَلُّ بِشُكْرِهَا لِلّٰهِ فِي طَيِّ ٱلْمَكَارِهِ كَامِنَهْ

اَخَذَهُ اَبُو تَمَّامٍ فَقَالَ :

قَدْ يُنْعِمُ ٱللّٰهُ بِٱلْبَلْوَى وَاِنْ عَظُمَتْ وَيَبْتَلِي ٱللّٰهُ بَعْضَ ٱلْقَوْمِ بِٱلنِّعَمِ

فَزَادَ عَلَيْهِ لِاَنَّهُ اَتَى بِعَكْسِ ٱلْمَعْنَى وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ :

رَاَيْتُ رَجَائِي فِيكَ وَحْدَكَ هِمَّةً وَلٰكِنَّهُ فِي سَائِرِ ٱلنَّاسِ مَطْمَعُ

فَاَخَذَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ فَاخْتَصَرَهُ فَقَالَ :

ثَنَى اَمَلِي فَٱحْتَازَهُ عَنْ مَعَاشِرٍ يَبِيتُونَ وَٱلْآمَالُ فِيهِمْ مَطَامِعُ

فَاَخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فَقَالَ :

بِهِ صَدَقَ ٱللهُ ٱلْاَمَانِي حَدِيثَهَا وَقَدْ مَرَّ دَهْرٌ وَٱلْاَمَانِي وَسَاوِسُ

وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ :

اَنْضَرْتَ اَيْكَتِي عَطَايَاكَ حَتَّى عَادَ غُصْنِي سَاقًا وَكَانَ قَضِيبَا

فَقَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ وَزَادَ :

حَتَّى يَعُودَ ٱلذِّئْبُ لَيْثًا ضَيْغَمَا وَٱلْغُصْنُ سَاقًا وَٱلْقَرَارَةُ نِيقَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَفِيمَا اَوْرَدْتُ كِفَايَةٌ

البحث الثاني

في قبح الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٤٣ من علم الادب)

وَقُبْحُ ٱلْاَخْذِ اَنْ تَعْمِدَ اِلَى ٱلْمَعْنَى فَتَتَنَاوَلَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ اَوْ اَكْثَرِهِ اَوْ تُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ مُسْتَهْجَنٍ. وَٱلْمَعْنَى اِنَّمَا يَحْسُنُ بِٱلْكُسْوَةِ. اَخْبَرَ بَعْضُ اَصْحَابِنَا قَالَ قِيلَ لِلشَّعْبِيِّ : اِنَّا اِذَا سَمِعْنَا ٱلْحَدِيثَ مِنْكَ نَسْمَعُهُ بِخِلَافِ مَا نَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِكَ . قَالَ : اِنِّي اَجِدُهُ عَارِيًا فَاَكْسُوهُ مِنْ غَيْرِ اَنْ اَزِيدَ فِيهِ حَرْفًا . اَيْ مِنْ غَيْرِ اَنْ اَزِيدَ فِي مَعْنَاهُ شَيْئًا فَمَتَى اُخِذَ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ وَادَّعَى آخِذُهُ اَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْهُ وَلٰكِنْ وَقَعَ كَمَا وَقَعَ لِلْاَوَّلِ كَمَا سُئِلَ اَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ عَنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ يَتَّفِقَانِ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ وَمَعْنًى . فَقَالَ : عُقُولُ ٱلرِّجَالِ

تَوَافَتْ عَلَى اَلْسِنَتِهَا وَذٰلِكَ قَوْلُ طَرَفَةَ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ اَسًى وَتَجَلَّدِ

وَهُوَ قَوْلُ اَمْرِئِ اَلْقَيْسِ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ اَسًى وَتَجَمَّلِ

فَغَيَّرَ طَرَفَةُ اَلْقَافِيَةَ . وَقَالَ اَلْبُعَيْثُ :

اَتَرْجُو كُلَيْبٌ اَنْ يَجِيءَ حَدِيثُهَا بِخَيْرٍ وَقَدْ اَعْيَا كُلَيْبًا قَدِيمُهَا

وَقَالَ اَلْفَرَزْدَقُ :

اَتَرْجُو رَبِيعٌ اَنْ تَجِيءَ صِغَارُهَا بِخَيْرٍ وَقَدْ اَعْيَا رَبِيعًا كِبَارُهَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِهِمْ جِدًّا وَالْاَخْذُ اِذَا كَانَ كَذٰلِكَ كَانَ مَعِيبًا وَاِنِ ادَّعَى اَلْآخِرُ اَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ اَلْاَوَّلِ بَلْ وَقَعَ لَهُ كَمَا وَقَعَ لِذَاكَ فَاِنَّ صِحَّةَ ذٰلِكَ لَا يَعْرِفُهَا اِلَّا اَللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ وَاَلْعَيْبُ لَازِمٌ لِلْاٰخِرِ . وَاِذَا كَانَ اَلْقَوْمُ فِي قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ فَاِنَّ خَوَاطِرَهُمْ تَقَعُ مُتَقَارِبَةً كَمَا اَنَّ اَخْلَاقَهُمْ وَشَمَائِلَهُمْ تَكُونُ مُتَضَارِعَةً وَاَنْشَدَتُّ اَلصَّاحِبَ اِسْمَاعِيلَ بْنَ عَبَّادٍ :

كَانَتْ سَرَاةُ اَلنَّاسِ تَحْتَ اَظِلَّةٍ

فَسَبَقَنِي وَقَالَ :

فَغَدَتْ سَرَاةُ اَلنَّاسِ فَوْقَ سَرَاتِهِ

وَكَذٰلِكَ كُنْتُ قُلْتُ : فَعَلَى هٰذَا جَائِزٌ مَا يُدَّعَى لَهُمْ وَاَلظَّاهِرُ ما قُلْنَاهُ فَهٰذَا ضَرْبٌ . وَاَلضَّرْبُ اَلْآخَرُ مِنَ اَلْاَخْذِ اَلْمُسْتَهْجَنِ اَنْ يَاْخُذَ اَلْمَعْنَى فَيُفْسِدَهُ اَوْ يُعَرِّضَهُ اَوْ يُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ قَبِيحٍ وَكُسْوَةٍ

مُسْتَرْذَلَةٍ . وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ اَبِي كَرِيمَةَ :

قَفَاهُ وَجْهٌ ثُمَّ وَجْهُ الَّذِي قَفَا ... هُ وَجْهٌ يُشْبِهُ الْبَدْرَا

وَاِنَّمَا اَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ :

بَزَّ حُسْنَ الْوُجُوهِ حُسْنُ قَفَانَا

وَاَخَذَهُ اَبُو نُوَاسٍ مِنْ قَوْلِ النَّابِغَةِ بِقَوْلِهِ لِلنُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ :

اَيُفَاخِرُكَ اَبْنُ جَفْنَةَ وَاللَّاتِ لَاَمْسُكَ خَيْرٌ مِنْ يَوْمِهِ وَلَقَذَالُكَ اَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ وَلَيَسَارُكَ اَسْمَحُ مِنْ يَمِينِهِ . وَلَعَبِيدُكَ اَكْثَرُ مِنْ قَوْمِهِ وَلَنَفْسُكَ اَكْبَرُ مِنْ جُنْدِهِ وَلَيَوْمُكَ اَشْرَفُ مِنْ دَهْرِهِ . وَلَوَعْدُكَ اَنْجَزُ مِنْ رِفْدِهِ . وَلَهَزْلُكَ اَصْوَبُ مِنْ جِدِّهِ . وَلَكُرْسِيُّكَ اَرْفَعُ مِنْ سَرِيرِهِ . وَلَفِتْرُكَ اَبْسَطُ مِنْ شِبْرِهِ . وَلَاُمُّكَ خَيْرٌ مِنْ اَبِيهِ . وَسَمِعَ بَعْضُهُمْ قَوْلَ مَحْمُودٍ الْوَرَّاقِ :

اِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللّٰهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ اِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَاِنْ طَالَتِ الْاَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ

اِذَا مَسَّ بِالسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا ... وَاِنْ مَسَّ بِالضَّرَّاءِ اَعْقَبَهَا الْاَجْرُ

وَمَا مِنْهُمَا اِلَّا لَهُ فِيهِ نِعْمَةٌ ... تَضِيقُ بِهَا الْاَوْهَامُ وَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ

فَقَالَ وَاَسَاءَ :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اِنَّ اللّٰهَ ذُو نِعَمٍ ... لَمْ يُحْصِهَا عَدَدًا بِالشُّكْرِ مَنْ حَمِدَا

شُكْرِي لَهُ عَمَلٌ فِيهِ عَلَيَّ لَهُ ... شُكْرٌ يَكُونُ لِشُكْرٍ قَبْلَهُ مَدَدَا

فَهٰذَا مِثَالُ قُبْحِ الْاَخْذِ فَاعْلَمْهُ . وَاَخَذَ اَبْنُ طَبَاطِبَا قَوْلَ عَلِيٍّ قِيمَةُ كُلِّ اِمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ . فَقَالَ :

فَيَالَائِمِي دَعْنِي أُغَالِي بِقِيمَتِي فَقِيمَةُ كُلِّ النَّاسِ مَا يُحْسِنُونَهُ

فَاَخَذَهُ بِلَفْظِهِ وَاَخْرَجَهُ بَغِيضًا مُتَكَلَّفًا . وَالْجَيِّدُ قَوْلُ الْآخَرِ : (فَقِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ عِلْمُهُ) فَهٰذَا وَاِنْ كَانَ اَخَذَهُ بِبَعْضِ لَفْظِهِ فَاِنَّ بَيْتَهُ اَحْسَنُ مَوْقِعًا مِنْهُ مِنْ بَيْتِ ابْنِ طَبَاطِبَا . وَمِمَّا قَصَّرَ فِيهِ الْبُحْتُرِيُّ قَوْلُهُ :

قَوْمٌ تَرَى اَرْمَاحَهُمْ يَوْمَ الْوَغَى مَشْغُوفَةً بِمَوَاطِنِ الْكِتْمَانِ

اَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ :

وَالضَّارِبِينَ بِكُلِّ اَبْيَضَ مُرْهَفٍ وَالطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ الْاَضْغَانِ

فَاِنَّ قَوْلَهُ (مَجَامِعُ الْاَضْغَانِ) اَجْوَدُ مِنْ قَوْلِهِ : مَوَاطِنُ الْكِتْمَانِ لِاَنَّهُمْ اِنَّمَا يُطَاعِنُونَ الْاَعْدَاءَ مِنْ اَجْلِ اَضْغَانِهِمْ فَاِذَا وَقَعَ الطَّعْنُ فِي مَوْضِعِ الضِّغْنِ فَذَاكَ غَايَةُ الْمُرَادِ . وَاَنْشَدَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ عَنْ عَمِّهِ :

حَرَامٌ عَلَى اَرْمَاحِنَا طَعْنُ مُدْبِرٍ وَتَنْدَقُّ قِدْمًا فِي الصُّدُورِ صُدُورُهَا

مُسَلَّمَةٌ اَعْجَازُ خَيْلِي فِي الْوَغَى مُكَلَّمَةٌ لَبَّاتُهَا وَنُحُورُهَا

اَخَذَهُ اَبُو تَمَّامٍ فَقَالَ :

اُنَاسٌ اِذَا مَا اسْتَحْكَمَ الرَّوْعُ كَسَّرُوا

صُدُورَ الْعَوَالِي فِي صُدُورِ الْكَتَائِبِ

فَاَحْسَنَا جَمِيعًا وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْآخَرِ :

يَلْقَى السُّيُوفَ بِنَحْرِهِ وَبِوَجْهِهِ وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ الْمِغْفَرِ

وَيَقُولُ لِلطِّرْفِ اصْطَبِرْ لِشَبَا الْقَنَا فَهَدَمْتُ رُكْنَ الْمَجْدِ اِنْ لَمْ يُغْفَرِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ النَّطَّاحِ :

يَتَلَقَّى ٱلنَّدَى بِوَجْهٍ حَيِيٍّ وَصُدُورَ ٱلْقَنَا بِوَجْهٍ وَقَاحِ

وَهٰذَا كُلُّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

لَا يَقَعُ ٱلطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمِ لَيْسَ لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ ٱلْمَوْتِ تَهْلِيلُ

وَهُوَ دُونَ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ . وَقَدْ أَتَيْتُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ . فَقِسْ بِمَا أَوْرَدْتُهُ عَلَى مَا تَرَكْتُهُ فَإِنِّي لَوِ ٱسْتَقْصَيْتُهُ خَرَجَ هٰذَا ٱلْكِتَابُ عَنِ ٱلْمُرَادِ وَزَاغَ عَنِ ٱلْإِيثَارِ وَبِٱللهِ ٱلتَّوْفِيقُ

البحث الثالث

في حلّ الشعر

(عن المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٤٤ من علم الادب)

حَلُّ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا وَهُوَ أَدْنَاهَا مَرْتَبَةً أَنْ يَأْخُذَ ٱلنَّاثِرُ بَيْتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ فَيَنْثُرُهُ بِلَفْظِهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهٰذَا عَيْبٌ فَاحِشٌ . وَمِثَالُهُ كَمَنْ أَخَذَ عِقْدًا قَدْ أُتْقِنَ نَظْمُهُ وَأُحْسِنَ تَأْلِيفُهُ فَأَوْهَاهُ وَبَدَّدَهُ وَكَانَ يَقُومُ عُذْرُهُ فِي ذٰلِكَ أَنْ لَوْ نَقَلَهُ عَنْ كَوْنِهِ عِقْدًا إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى مِثْلِهِ أَوْ أَحْسَنَ مِنْهُ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا نُثِرَ ٱلشِّعْرُ بِلَفْظِهِ كَانَ صَاحِبُهُ مَشْهُورَ ٱلسَّرِقَةِ فَيُقَالُ : هٰذَا شِعْرُ فُلَانٍ بِعَيْنِهِ لِكَوْنِ أَلْفَاظِهِ بَاقِيَةً لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهَا شَيْءٌ وَقَدْ سَلَكَ هٰذَا ٱلْمَسْلَكَ بَعْضُ ٱلْعِرَاقِيِّينَ فَجَاءَ مُسْتَهْجَنًا لَا مُسْتَحْسَنًا .

كَقَوْلِهِ فِي بَعْضِ اَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

وَاَلَدَّ ذِي حَنَقٍ عَلَيَّ كَاَنَّمَا تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ

اَرْجَيْتُهُ عَنِّي فَاَبْصَرَ قَصْدَهُ وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ ٱلنَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ

(فَيُقَالُ) فِي نَثْرِ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ : فَكَمْ لَقِيَ اَلَدَّ ذَا حَنَقٍ كَاَنَّهُ يَنْظُرُ اِلَى ٱلْكَوَاكِبِ مِنْ عَلِ وَتَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فَكَوَاهُ فَوْقَ نَاظِرَيْهِ وَاَكَبَّهُ لِفَمِهِ وَيَدَيْهِ . فَلَمْ يَزِدْ هٰذَا ٱلنَّاثِرُ عَلَى اَنْ اَزَالَ رَوْنَقَ ٱلْوَزْنِ وَطَلَاوَةَ ٱلنَّظْمِ لَا غَيْرُ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ ضَرْبٌ مَحْمُودٌ لَا عَيْبَ فِيهِ وَهُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلْبَيْتُ مِنَ ٱلشِّعْرِ قَدْ تَضَمَّنَ شَيْئًا لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُ لَفْظِهِ فَحِينَئِذٍ يُعْذَرُ نَاثِرُهُ اِذَا اَتَى بِذٰلِكَ ٱللَّفْظِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْاَمْثَالُ ٱلسَّائِرَةُ فَاِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهَا عَلَى مَا جَاءَتْ فِي ٱلشِّعْرِ . (وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) فَهُوَ وَسَطٌ بَيْنَ ٱلْاَوَّلِ وَٱلثَّالِثِ فِي ٱلْمَرْتَبَةِ وَهُوَ اَنْ يَنْثُرَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَنْظُومَ بِبَعْضِ اَلْفَاظِهِ وَيُعَبِّرَ عَنِ ٱلْبَعْضِ بِاَلْفَاظٍ اُخَرَ وَهُنَاكَ تَظْهَرُ ٱلصَّنْعَةُ فِي ٱلْمُمَاثَلَةِ وَٱلْمُشَابَهَةِ وَمُؤَاخَاةِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْبَاقِيَةِ بِٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُرْتَجَلَةِ فَاِنَّهُ اِذَا اَخَذَ لَفْظًا لِشَاعِرٍ مُجِيدٍ قَدْ نَقَّحَهُ وَصَحَّحَهُ فَقَرَنَهُ بِمَا لَا يُلَائِمُهُ كَانَ كَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ لُؤْلُؤَةٍ وَحَصَاةٍ . وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْاِنْتِصَابِ لِلْقَدْحِ وَٱلْاِسْتِهْدَافِ لِلطَّعْنِ وَٱلطَّرِيقُ ٱلْمَسْلُوكُ اِلَى هٰذَا ٱلْقِسْمِ اَنْ تَاْخُذَ بَعْضَ بَيْتٍ مِنَ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ هُوَ اَحْسَنُ مَا فِيهِ ثُمَّ تُمَاثِلَهُ . وَسَاُورِدُ هٰهُنَا مِثَالًا وَاحِدًا لِيَكُونَ قُدْوَةً لِلْمُتَعَلِّمِ (فَاَقُولُ) : قَدْ وَرَدَ هٰذَا ٱلْبَيْتُ مِنْ شِعْرِ اَبِي تَمَّامٍ فِي وَصْفِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

وَحدَاء تَملأُ كُلَّ اُذنٍ حِكْمَةً وَبَلَاغَةً وَتُدِرُّ كُلَّ وَرِيدِ

فَقَوْلُهُ (تَملأُ كُلَّ اُذنٍ حِكْمَةً) مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْحَسَنِ وَهُوَ اَحْسَنُ مَا فِي ٱلْبَيْتِ فَاِذَا اَرَدتَّ اَنْ تَنْثُرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَلَا بُدَّ مِنِ ٱسْتِعْمَالِ لَفْظِهِ بِعَيْنِهِ لِاَنَّهُ فِي ٱلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى مِنَ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ . فَعَلَيْكَ اِنْ تُؤَاخِيَهُ بِمِثْلِهِ وَهٰذَا عَسِرٌ جِدًّا وَهُوَ اَصْعَبُ مِثَالًا مِنْ نَثْرِ ٱلشِّعْرِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ لِاَنَّهُ مَسْلَكٌ ضَيِّقٌ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّعَرُّضِ لِمُمَاثَلَةِ مَا هُوَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَٱلْجُودَةِ . وَاَمَّا نَثْرُ ٱلشِّعْرِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ فَذٰلِكَ يَتَصَرَّفُ فِيهِ نَاثِرُهُ عَلَى حَسَبِ مَا يَرَاهُ وَلَا يَكُونُ مُقَيَّدًا فِيهِ بِمِثَالٍ يُضْطَرُّ اِلَى مُؤَاخَاتِهِ . وَقَدْ نَثَرْتُ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْمُشَارَ اِلَيْهَا وَاَتَيْتُ بِهَا فِي حُمْلَةِ كِتَابٍ فَقُلْتُ : وَكَلَامِي قَدْ عُرِفَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱشْتَهَرَ . وَفَاقَ مَسِيرَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ . وَاِذَا عُرِفَ ٱلْكَلَامُ صَارَتِ ٱلْمَعْرِفَةُ لَهُ عَلَامَةً . وَاُمِنَ مِنْ سَرِقَتِهِ اِذْ لَوْ سُرِقَ لَدَلَّتْ عَلَيْهِ ٱلْوَسَامَةُ . وَمِنْ خَصَائِصِ صِفَاتِهِ اَنْ يَمْلَأَ كُلَّ اُذْنٍ حِكْمَةً . وَيَجْعَلَ فَصَاحَةَ كُلِّ لِسَانٍ عُجْمَةً . وَاِذَا جَرَتْ نَفَثَاتُهُ فِي ٱلْاَفْهَامِ قَالَتْ : اَهٰذِهِ بِنْتُ فِكْرَةٍ اَمْ بِنْتُ كَرْمَةٍ . فَٱنْظُرْ كَيْفَ فَعَلْتُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَاِنِّي لَمَّا اَخَذْتُ تِلْكَ ٱلْكَلِمَاتِ مِنَ ٱلْبَيْتِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلْتَزَمْتُ بِاَنْ اُوَاخِيَهَا بِمَا هُوَ مِثْلُهَا اَوْ اَحْسَنُ مِنْهَا فَجِئْتُ بِهٰذَا ٱلْفَصْلِ كَمَا تَرَاهُ . وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي اَنْ يُفْعَلَ فِيمَا هٰذَا سَبِيلُهُ . (وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ اَعْلَى مِنَ ٱلْقِسْمَيْنِ ٱلْاَوَّلَيْنِ فَهُوَ اَنْ يُؤْخَذَ ٱلْمَعْنَى فَيُصَاغَ بِاَلْفَاظٍ غَيْرِ اَلْفَاظِهِ . وَثَمَّ يَتَبَيَّنُ حِذْقُ ٱلصَّائِغِ فِي صِيَاغَتِهِ وَيُعْلَمُ مِقْدَارُ تَصَرُّفِهِ

فِي صِنَاعَتِهِ فَإِنِ اسْتَطَاعَ الزِّيَادَةَ عَلَى الْمَعْنَى فَتِلْكَ الدَّرَجَةُ الْعَالِيَةُ وَإِلَّا احْسَنَ التَّصَرُّفَ وَاتْقَنَ التَّأْلِيفَ لِيَكُونَ اوْلَى بِذٰلِكَ الْمَعْنَى مِنْ صَاحِبِهِ الْاَوَّلِ . وَاعْلَمْ انَّ مِنْ ابْيَاتِ الشِّعْرِ مَا يَتَّسِعُ الْمَجَالُ لِنَاثِرِهِ فَيُورِدُهُ بِضُرُوبٍ مِنَ الْعِبَارَاتِ . وَذٰلِكَ عِنْدِي شَبِيهٌ بِالْمَسَائِلِ السَّيَّالَةِ فِي الْحِسَابِ الَّتِي يُجَابُ عَنْهَا بِعِدَّةِ اجْوِبَةٍ . وَمِنَ الْاَبْيَاتِ مَا يَضِيقُ فِيهِ الْمَجَالُ حَتَّى يَكَادَ الْمَاهِرُ فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ انْ لَا يَخْرُجَ عَنْ ذٰلِكَ اللَّفْظِ وَإِنَّمَا يَكُونُ هٰذَا لِعَدَمِ النَّظِيرِ . . . وَإِذَا انْتَهَى بِنَا الْكَلَامُ إِلَى هٰا هُنَا فِي التَّنْبِيهِ عَلَى نَثْرِ الشِّعْرِ وَكَيْفِيَّةِ نَثْرِهِ وَذِكْرِ مَا يَسْهُلُ مِنْهُ وَمَا يَعْسُرُ . فَلْنُتْبِعْ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ كُلِّيٍّ فِي هٰذَا الْبَابِ فَنَقُولُ : مَنْ احَبَّ انْ يَكُونَ كَاتِبًا اوْ كَانَ عِنْدَهُ طَبْعٌ مُجِيبٌ فَعَلَيْهِ بِحِفْظِ الدَّوَاوِينِ ذَوَاتِ الْعَدَدِ وَلَا يَقْنَعْ بِالْقَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ . ثُمَّ يَأْخُذْ فِي نَثْرِ الشِّعْرِ مِنْ مَحْفُوظَاتِهِ . وَطَرِيقُهُ انْ يَبْتَدِئَ فَيَأْخُذَ قَصِيدًا مِنَ الْقَصَائِدِ فَيَنْثُرَهُ بَيْتًا بَيْتًا عَلَى التَّوَالِي . وَلَا يَسْتَنْكِفْ فِي الْاِبْتِدَاءِ انْ يَنْثُرَ الشِّعْرَ بِاَلْفَاظِهِ اوْ بِاَكْثَرِهَا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ إِلَّا ذٰلِكَ وَإِذَا مَرِنَتْ نَفْسُهُ وَتَدَرَّبَ خَاطِرُهُ ارْتَفَعَ عَنْ هٰذِهِ الدَّرَجَةِ وَصَارَ يَأْخُذُ الْمَعْنَى وَيَكْسُوهُ عِبَارَةً مِنْ عِنْدِهِ . ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَنْ ذٰلِكَ فَيَكْسُوهُ ضُرُوبًا مِنَ الْعِبَارَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ لِخَاطِرِهِ بِمُبَاشَرَةِ الْمَعَانِي لِقَاحٌ فَيَسْتَنْتِجُ مِنْهَا مَعَانِيَ غَيْرَ تِلْكَ الْمَعَانِي وَسَبِيلُهُ انْ يُكْثِرَ الْاِدْمَانَ لَيْلًا وَنَهَارًا وَلَا يَزَالَ عَلَى ذٰلِكَ مُدَّةً طَوِيلَةً حَتَّى يَصِيرَ لَهُ مَلَكَةً . فَإِذَا كَتَبَ كِتَابًا اوْ خَطَبَ خُطْبَةً تَدَفَّقَتِ الْمَعَانِي فِي

اَثنَاءِ كَلَامِهِ وَجَاءَتْ اَلْفَاظُهُ مَغْسُولَةً مَغْسُولَةً وَكَانَ عَلَيْهَا حِدَّةٌ حَتَّى تَكَادَ تَرْقُصُ رَقْصًا . وَهٰذَا شَيْءٌ خَبَرْتُهُ بِالتَّجْرِبَةِ وَلَا يُنْبِئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ

تمَّ بعونهِ تعالى

فهرس

المقالات

	وجه
توطئة	٣
البحث الاول في حد علم الادب	٣
البحث الثاني في تقسيم الادب وانواع العلوم الادبيّة	٤
البحث الثالث في موضوع علم الادب واركانهِ	٥
البحث الرابع في شرف الادب ومنافعهِ	٧
فصلٌ في قوى العقل الغريزيّة	٩
البحث الاول في العقل وشرفهِ واصل تسميتهِ وتقسيمهِ	٩
البحث الثاني في تقسيم العقل الى غريزيّ ومكتسب	١٠
البحث الثالث في العقل الغريزيّ وتعريفهِ	١١
البحث الرابع في العقل المكتسب	١٢
البحث الخامس في التصور والتمثل	١٦
البحث السادس الخيال والخيالي	١٧
البحث السابع في الحافظة	١٨
البحث الثامن في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان	٢٠
البحث التاسع في المطالعة	٢٤
البحث العاشر في الارتياض والممارسة	٢٥
البحث الحادي عشر في طرائق مختلفة من الممارسة والتمرين	٢٦
فصلٌ في صفة الكاتب وما يحتاج اليه من المعارف	٢٨
البحث الاول في صفة الكاتب الظاهرة	٢٨
البحث الثاني في ادوات علم الكتابة	٢٩
البحث الثالث فيما يجب على الكاتب معرفتهُ	٣٠
الجزء الاول في علم الانشاء	٣٧
بحث في تعريف الانشاء	٣٧
الفصل الاول في الفصاحة	٣٩

وجه

البحث الاول في تحديد الفصاحة ٣٩
البحث الثاني في الفرق بين الفصاحة والبلاغة وموضوعهما ٣٩
البحث الثالث في حقيقة الفصاحة ٤٢
البحث الرابع في احكام الفصاحة وشروطها ٤٦
البحث الخامس في الالفاظ المترادفة والاسماء المشتركة ٥٢
البحث السادس في فصاحة المفرد وفصاحة المركّب ٥٦
الفصل الثاني في البلاغة ٥٩
البحث الاول في الابانة عن حد البلاغة ٥٩
البحث الثاني اقوال في تحديد البلاغة ٦١
البحث الثالث في اوصاف البلاغات على السنة اقوام من اهل البلاغات ٦٥
الفصل الثالث في المعاني ٦٨
البحث الاول في حقيقة المعاني ٦٨
البحث الثاني في صحة المعاني ٧٠
البحث الثالث في انواع المعاني ٧٢
البحث الرابع في الحكم على المعاني ٧٦

وجه

البحث الخامس في الترجيح بين المعاني ٧٩
البحث السادس في الفصل والوصل ٨٢
البحث السابع في تأكيد الكلام وقصره وتعزيزه بان وانما ٨٧
البحث الثامن في التقديم والتأخير ٩٠
البحث التاسع في الحذف والاضمار ٩٦
البحث العاشر في جوامع الكلام ٧٩
البحث الحادي عشر في الانسجام ١٠٢
البحث الثاني عشر في القول في النظم ١٠٣
الفصل الرابع في البيان ١٠٥
البحث الاول في تحديد البيان على وجه الاجمال ١٠٥
البحث الثاني في تعريف علم البيان ١٠٦
البحث الثالث في الحقيقة والمجاز ١٠٨
البحث الرابع في الاستعارة ١١٣
البحث الخامس فيما تدخلهُ الاستعارة وما لا تدخلهُ ١١٧
البحث السادس في اقسام الاستعارة ١١٧

	وجه
البحث السابع في جيد الاستعارة ورديئها ومتوسطها	١٢٢
البحث الثامن في ما جاء من الاستعارات في كلام العرب	١٢٥
البحث التاسع في مراعاة النظير	١٣١
البحث العاشر في المجاز المرسل	١٣٤
البحث الحادي عشر في القول عن الكناية	١٣٩
البحث الثاني عشر في التعريض	١٤٢
البحث الثالث عشر في ما ورد من الكنايات عن العرب	١٤٤
البحث الرابع عشر في المبالغة	١٤٩
البحث الخامس عشر في التكرير	١٥٦
البحث السادس عشر في حقيقة التشبيه وتحديده	١٦٤
البحث السابع عشر في اركان التشبيه ومحاسنهِ وفوائده	١٦٦
البحث الثامن عشر في اقسام التشبيه	١٧٠
البحث التاسع عشر في التشابيه المستعملة عند العرب	١٢٦
البحث العشرون في معايب التشبيه	١٨١

	وجه
البحث الحادي والعشرون في المذهب الكلامي	١٨٤
الفصل الخامس في محاسن الانشاء ومعايبه	١٨٧
البحث الاول في تمييز الكلام جيده من رديئه ونادرهِ من باردهِ	١٨٧
البحث الثاني في التنبيه على خطاء المعاني وصوابها	١٩٥
البحث الثالث في كيفية نظم الكلام وما ينبغي استعمالهُ في تأليفهِ	٢١٠
البحث الرابع في خواص الكلام الحرّ	٢١٣
البحث الخامس في تهذيب الكلام وتنقيحه	٢١٥
البحث السادس في شروط الكلام	٢١٩
البحث السابع في عيوب الكلام	٢٢٥
البحث الثامن في الالتباس والاسباب المانعة من فهم المعاني	٢٢٨
البحث التاسع في المعاظلة	٢٣٦
البحث العاشر في المنافرة بين الالفاظ في السبك	٢٤٣
الفصل السادس في وجوه	

	وجه
الكلام	٢٤٧
البحث الاول في وجوه البلاغة وطبقات الكلام	٢٤٧
البحث الثاني في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع	٢٥٤
البحث الثالث في السجع وانواعه	٢٥٨
البحث الرابع في اقسام السجع وضروبه	٢٦١
البحث الخامس في الايجاز	٢٦٥
البحث السادس في المساواة	٢٧٣
البحث السابع في الاطناب	٢٧٥
البحث الثامن في مواقع الاطناب	٢٧٩
الفصل السابع في البديع	٢٨٧
البحث الاول في حقيقة علم البديع	٢٨٧
البحث الثاني في ان البديع احد علوم الادب الستة	٢٨٩
البحث الثالث في نسبة علم البديع الى علمَي المعاني والبيان	٢٩٠
البحث الرابع في اقسام البديع	٢٩٢
البحث الخامس في تاريخ علم البديع وفي اصحاب البديعيات	٢٩٣
بديعية الخوري الفاضل ارسانيوس الفاخوري	٢٩٥
البحث السادس في المطابقة	٣١٢
البحث السابع في حقيقة التجنيس	٣١٧
البحث الثامن في ذكر انواع التجنيس	٣٢٠
الفصل الثامن في فنون الانشاء	٣٢٦
البحث الاول في المثل وشرفهِ	٣٢٦
البحث الثاني في آداب المثل وشروطه	٣٢٩
البحث الثالث في آداب المحادثة والرواية	٣٣٢
البحث الرابع في حقيقة التاريخ وموضوعهِ	٣٣٤
البحث الخامس في شرف التاريخ	٣٣٦
البحث السادس في شروط التاريخ	٣٤١
البحث السابع في الاصول العشرة التي يعتمدها الكاتب في المكاتبات	٣٤٣
الفصل التاسع في حل الشعر والاحتذاء	٣٤٩
البحث الاول في حسن الاخذ	٣٤٩
البحث الثاني في قبح الاخذ	٣٦٣
البحث الثالث في حل الشعر	٣٦٧

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0315317471

PJ
6161
.C5
v. 3

JAN 14 1977

BOUND
FEB 4 1955